طيب السمر

في أوقات السحر

لشهاب الدين أحمد بن محمد الحيمي الكوكباني

ت «١١٥١ هـ»

تحقيق

عبد الله محمد الحبشي

الجزء الأول

٨١٠,٠٠٩٢

ح ي ط ي

ابن الحيمي، أحمد بن محمد، ١٠٧٣ - ١١٥١هـ.

طيب السمر في أوقات السحر / تأليف شهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي الكوكباني؛ تحقيق عبد الله محمد الحبشي.- أبوظبي: المجمع الثقافي ٢٠٠٢.

٦٨٠ ص

يشتمل على كشاف

١- الأدباء العرب- اليمن.

٢- الأدب العربي- اليمن- تاريخ ونقد.

أ- عبد الله محمد الحبشي، محقق.

ب- العنوان.

أبوظبي- الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380- هاتف: 6215300

Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae

http:/www.cultural.org.ae

تم تحقيق هذا الكتاب بتكليف من المجمع الثقافي

طيب السمر

في أوقات السحر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمد لله والصَّلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الرسل وآله وصحبه وبعد ففي التّراث اليمني الإسلامي نصوص مغمورة من الأدب قد لا يعرفها أحد من الباحثين المتخصِّصين فضلاً عن غيرهم، وكتابنا هذا واحد من تلك الآثار الأدبية المغمورة التي لا يعرفها إلاّ قلة من الناس، وكان لكاتب السُّطور فضل التَّعريف به في البحث الذي كتبه عنه في مجلة اليمن عدد ١٣/رمضان سنة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م[1].

وهذا الكتاب أراد به المؤلف أن يكون ضِمْن السّلسلة الأدبية التي أصبحت فيما بعد تقليداً عند الأدباء، وهي تلك الكتب التي تعنى بمجاميع الشّعراء حسب مالهم من إنتاج أدبي لا يعتني فيها أصحابها كثيراً بالجانب التاريخي؛ وإنّما يكون همُّهم حصر مالهم من شعر مع إطراء بلاغي بديعي يتعرض لبعض أحوالهم.

وكان قد بدع هذا البدعة الأديب أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثّعالبي المتوفى سنة ٣٢٩ هـ في كتابه الشهير (يتيمة الدهر في محاسن شعراء العصر).

وما أتى بعده عبارة عن ذيول وتتمات له.

كان بعده الأديب أبو الحسن بن علي بن الحسن الباخرزي المتوفى سنة

---

(١) ولنا مؤلف عنه مخطوط كتبناه منذ سنة ١٩٧٨ ميلادية وهو بعنوان (الحيمي ومدرسة البديع في اليمن).

انظر الإعلان في كتبنا المطبوعة الآتية:

١ ـ حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول ط وزارة الإعلام سنة ١٩٨٠ ص ٢٨٦.

٢ ـ تاريخ الدولة الرسولية ص سنة ١٩٨٤ ط ٣٨٣ وغيرهما.

٤٦٧هـ في كتابه الذي لا يقلُّ شهرة عن أصله المسمى (دمية القصر وعصرة أهل العصر). ثم (وشاح الدمية) لأبي الحسن علي بن زيد البيهقي المتوفى في سنة ٥٦٥ هـ، ويليه (زينة الدَّهر) لأبي المعالي سعد بن القاسم الأنصاري الحظيري المتوفى سنة ٥٦٨ هـ. ثم تتابعت الذُّيول نذكر منها:

١ ـ خريدة القصر، وهو كتاب شهير ضَمَّ أشتات الشعراء من سائر الأقطار الإسلامية، من تأليف أبي عبد الله محمد بن محمد العماد الكاتب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ، وقد تَصَدَّى لنشره وتحقيقه جمهرة من علماء البلاد العربية في العصر الحديث، فنشر قسم شعراء الشَّام وملحق أهل اليمن الأستاذ شكري فيصل سنة ١٩٥٥م، وقسم العراق الأستاذ بهجة الأثري سنة ١٩٥٦ م، وقسم مصر الدكتور شوقي ضيف سنة ١٩٥١ م، وقسم شعراء المغرب الأساتذة المرزوقي والمطوي والجيلاني سنة ١٩٦٦ م، وهكذا. ولا شك أن هذا الكتاب كان نبراساً للأدباء المتأخرين بما حواه من إغراق بديعي تكاد تَعْجز عنه القدرَات البشرية المحدودة، وكان أستاذاً للأدباء الذين ظهروا في العَصْر العثماني وعلى رأسهم الأديب المصري الكبير شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ، في كتابه الشَّهير (ريحانة الألباء)، وخليفتاه الأمين محمد بن فضل المحبي المتوفى سنة ١١١١ هـ، في كتابه الموسوعي (نفحة الريحانة)، والأديب علي ابن أحمد بن معصوم في (سلافة العصر).

وعندما وصلت هذه الكتب إلى أهل اليمن كان لهم نصيب مِمَّا أسهم به من قبلهم من الأدباء، وقَدْ غدا كتاب (ريحانة الألباء) إنجيل الأدباء في ذلك الوقت يتدارسونه ويحاكونه في عباراته. وقد شغفوا به وتأثروا ببيانه ويكفي أن نعلم أن أكثر مخطوطاته كانت قد جاءت من اليمن[١]، وكان أول من ساعده الحَظ في التأثر بكتاب الرَّيحانة

---

(١) بل بلغ بالأديب عبد الله بن علي الوزير المتوفى سنة ١١٤٧ أن يؤرخ لقدومه إلى اليمن في كتابه طبق الحلوى في حوادث سنة ١٠٦٦ ص ١٤٦ يقول: (وفي هذه السنة خرج إلى اليمن كتاب (ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا).

الأديب أحمد بن الحسن بن حميد الدين بن مطهر شرف الدين المتوفى سنة ١٠٧٢هـ في كتابه (ترويح المشوق وتلويح البروق)، ويعتبر هذا الكتاب فاتحة هذا الفن عند أهل اليمن بنَاه على أسلوب الريحانة من حيث التَّرجمة للعَصْريِّين، والاكتفاء بجانب الجناس والبديع في وصف الأدباء المترجم لهم مع جمع لا بأس به لشعر من يذكرهم.

ثم جاء بعده من حيث الترتيب الزِّمني الأديب والمؤرخ القاسم بن الحسن بن مطهر الجرموزي المتوفى سنة ١١٤٦ هـ في كتابه (صفوة العاصر في أدب المعاصر). وهو من الكتب الكبيرة رتبه على ثلاثة أبواب، الباب الأول: في أدب الحكام والولاة، والثاني: في أدب القضاة والكتاب، والثالث: في الأدباء والشعراء، وهو من الكتب القيمة لا نعلم بمخطوطة منه، إلاّ أن المؤرخ زبارة نقل أكثر ترجماته. وقد شغف الأدباء في اليمن بطريقة صاحب الرِّيحانة ومن حذا حذوه حتى طغت على أكثر الكتب التاريخية التي كتبوها، وحتى شكا من هذه الظَّاهرة مؤرخ يمني موضوعي كبير هو العلامة إبراهيم بن عبد الله الحوثي المتوفى سنة ١٢٢٣هـ، يقول في مقدمة كتابه «نفحة العنبر» مشيراً إلى تلك الكتب التي أغرقت في تلك الطُّرق الجناسية: (إنها لا تفيد عباراتهم تشخيص الرِّجل ولا معرفة أحواله ولا اطلاعاً على كنه حقيقته، وإنما تفيد تخيلاً في النفس، وتأثيرها بقبض أو بسط على نمط القياسات الشِّعرية والقضايا التخييلية).

وهكذا فشت ظاهرة البديع في التاريخ حتى إنك تقرأ كتب المؤرخ الأديب الكبير المحسن بن أحمد أبو طالب المتوفى سنة ١١٧٠، ككتاب «ذوب الذهب بمحاسن من شاهدت في أهل عصري من أهل الأدب». وكتابه الضَّخم «طيب أهل الكساء» وهو في الحوادث والأخبار التاريخية، فلا تجد إلاَّ سَجْعاً وبديعاً متكلفين[1]، وكان ممن حذا في كُتبه طريقة الخفاجي وصحبه فألَّف كتابه الكبير

---

(١) من طريق ما يذكره صاحب كشف الظنون في أثناء الكلام على طريقة ابن حبيب الحلبي واغراقه في السجع في كتابه (درة الإسلاك في دولة الأتراك) إنه «إذا ضاقت عليه القافية يذم المشكور وبشكر المذموم لما الزم نفسه في جميع تاريخه بهذا النوع السافل في فن التاريخ» انظر كشف الظنون: ٧٢٧.

«ذوب الذهب بمحاسن من شاهدت في أهل عصري من أهل الأدب» منه مخطوطة بحوزتي بقلم المؤلف، ثم ذيله بكتاب آخر أسماه «الإشعار بما استجد لأهل عصري من الأخبار والأشعار» مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني.

ويليه من حيث التّرتيب الزمني العلامة الفقيه عبد الله بن عيسى بن محمد الكوكباني المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ له كتاب «الحدائق المطلعة من زهور أبناء العصر شقائق». منه مخطوطات، وهو خاتمة من عرفناه من الأدباء الذين سلكوا طريقة (الريحانة).

على أنهم جميعهم (الذين أتوا بعد الجرموزي) مقتفين أثر مؤرخنا الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥١هـ، في كتابه هذا الذي بين يديك.

الأديب الحيمي

نشأ في بحبوحة العلم والرئاسة، ويكفي أن تلم بقسم شعراء كوكبان من هذا الكتاب لتعرف حشداً كبيراً من آل الحيمي رهط، ما فيهم إلاَّ صاحب علم نحرير أو شاعر مصقع، أو سياسي مبدع، وعالمنا مؤلف هذا الكتاب جؤجؤ هذا المجد الباذخ. فإليك ما تَسنَّى لنا جمعه من اخباره باختصار وإن أردت التوسع فعليك بكتابنا «الحيمي ومدرسة البديع في اليمن» الذي ينتظر الطبع الآن:

هو القاضي العلامة البديع الخطيب أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد بن صالح الحيمي الشبامي، نسبه ينتهي إلى القاضي الإمام نشوان بن سعيد الحميري، ومولده سنة ١٠٧٣ هـ بشبام كوكبان، ونشأ في حجر والده، وتخرّج به وحقق العلوم على علماء عصره بمدينة شبام كوكبان وبلادها، وحفظ الأدب ومهر في الإنشاء والترسُّل وبرع في ذلك.

وكان ممَّن عني بترجمته جماعة من أدباء عصره كفانا مهمة استقصائهم العلامة المؤرخ محمد بن محمد زبارة في كتابه نشر العرف ١ : ٦٥٢. فقال معاصره الأديب إبراهيم بن زيد جحاف المتوفى سنة ١١١٦هـ تقريباً:

الشَّاب الظَّريف الماجد اللَّطيف خطيب جامع شبام وسليل مستنبط الأحكام،

وقاضي الشريعة المطهرة الفارق بين الحلال والحرام، مقلد جيد الزّمان بقلائد عقيان آدابه، وملبس شخوص تلك الأسجاع لطائف نقابه، صاحب الفكرة الوقادة والقريحة المنقادة.

وفي نفحات العَنْبر للمؤرخ إبراهيم بن عبد الله الحوثي:

الأديب الخطيب بشبام قرأ في العلوم حتى حقَّقها، وطالع كتب الأدب وحفظ الأشعار وضبط التَّواريخ وولع بكتب الإنشاء والبلاغة فقوي ساعده في النَّظم والنثر، وطال باعه في إنشاء الخطب والرسائل والمكاتبات، وكان خطيب الجهاد مع المنصور الحسين بن المتوكل القاسم بن الحسين قبل الخلافة وخطيب شبام في أيام المَوْلى الحسين بن عبد القادر ومن تبعه من أهله واستمر خطيباً عند استيلاء المهدي صاحب المواهب محمد بن أحمد بن الحسن على ملوك اليمن ولم يزل خطيباً حتى ارتحل إلى صنعاء في عشر الأربعين ومائة وألف، وكان في صُحْبة المولى محمد بن الحسين بن عبد القادر حين خرج قاصداً لجهات حاشد على الأحمر بإشارة من المتوكل القاسم بن الحسين، ولما وصل إلى محل الجنات من بلاد عمران ارتقى على المنبر مسرعاً وافتتح خطبته بقوله: الحمد لله الذي جعل الجنات مأوى المجاهدين ثم استمر خطيباً بصنعاء مع المنصور الحسين بن المتوكّل من سنة ١١٤٨ هـ بعد أن أصيب خطيبها عبد القادر النزيلي بمرض أقعده، وكان صاحب الترجمة من خاصة أصحاب المنصور الحسين بن القاسم ومن أهل الصبر لديه، وممن أقبل بقلبه وقالبه عليه وكان له اقتدار عظيم على إنشاء الرّسائل المطولة، واستعمال البديع في خطبه، وكان صاحب التَّرجمة طويل الباع واسع الإطلاع حسن المحاضرة لطيف المذاكرة، طيب الأخلاق طويل النفس في الرّسائل والخطب وله ديوان شعر جمعه لنفسه وديوان آخر من شعره الملحون صغير جمعه في أنواع الجناس ومحاسنه الكثيرة. اهـ.

وممن ترجمه من المؤرّخين الكبار:

١ - يوسف بن يحيى بن الحسين بن محمد بن القاسم المتوفى سنة ١١٢١ هـ

في كتابه «نسمة السّحر بذكر من تشيع وشعر» (مخطوط).

٢ ـ محسن بن الحسن أبو طالب المتوفى سنة ١١٧٠ هـ في «طيب أهل الكسا» (مخطوط تحت الطبع بتحقيقنا).

٣ ـ محسن بن يوسف المتوكل المتوفى سنة ١١٧٣ هـ في (الثّغر الباسم) (مخطوط).

٤ ـ محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ، في (البدر الطالع) ١/ ١٠٣ ـ ١٠٤.

٥ ـ محمد بن محمد زبارة المتوفى سنة ١٣٨٠ هـ في (نشر العرف) ج ١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٧.

ولما مات بصنعاء رحمه الله في ذي القعدة سنة ١١٥١ هـ قال في مرثيته علاّمة اليمن الكبير محمد بن إسماعيل الأمير المتوفى سنة ١١٨٢ هـ بعد أن اعتلى منبره الذي كان يخطب عليه بمدينة صنعاء:

(إن خطيبكم الذي طالما قام على أعواد هذا المنبر، وطالما هدرت شفتاه بالكلمات الزاجرة، عبرة للمعتبرين ومَوْعظة للمتعظين، على أن حاله اليوم أعظم موعظة من مقاله الأمس، وأبلغ في العبرة والاتعاظ لمن تفكر في مآله بالرَّمس، إذ صار رهين حفرته، منتظراً من ربه لرحمته).

مؤلفاته

العلامة الأديب أحمد بن محمد الحيمي من أدباء اليمن المكثرين في التأليف، وقد ذكر المؤرخ زبارة أن مؤلفاته تزيد على الأربعين. وأغلب هذه الكتب رسائل مختصرة وبعضها مطولاً، وقد ضاع أكثرها، ومن بين الذي ضاع ديوانه الضَّخم الذي أسماه (مجمع البحور) وإليك بعض ما عثرنا عليه من تلك الكتب القيمة:

١ ـ (عطر نسيم الصَّبا) في الأدب جعله على منوال كتاب (نسيم الصبا) للأديب الحسن بن عمر بن حبيب، وهو في ثلاثين فَصْلاً: الأول في النسيم، والثاني في الحمامة، والثالث في السَّيل، والرَّابع في الغدير، والخامس في الحديقة، والسادس في وصف الشَّباب، والسابع في الشابة، والثامن في القرب والوصال، والتاسع في الهجر والمطال، والعاشر في العتاب، والحادي عشر في البعد والنَّوى، والثاني عشر في التَّشْبيب، والثالث عشر في العذل والتَّعنيف، والرَّابع عشر في الطَّيف، والخامس عشر في الشّكوى، والسَّادس عشر في الحجاب، والسَّابع عشر في الخمرة، والثامن عشر في السِّياحة، والتاسع عشر في صنعاء اليمن، والعشرون في الحَمَّام، والحادي والعشرون في الحماسة، والثاني والعشرون في الحرب، والثالث والعشرون في تذكر الشباب، والرَّابع والعشرون في المدح، والخامس والعشرون في الأدب، والسَّادس والعشرون في العزلة والخمول، والسابع والعشرون في الألغاز، والثامن والعشرون في المكاتبات، والتَّاسع والعشرون في النصائح والحكم، والثلاثون في التذكير. وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٣٦١ هـ بمطابع صنعاء وهو أول كتاب يقوم بتحقيقه يمني من كتب التراث وقد قام بتحقيقه الأديب العلامة الشَّهيد أحمد بن أحمد المطاع رحمه الله، ومن الكتاب عدّة نسخ خطّية منها مخطوطة الأمبروزيانا برقم F٣٠٠.

٢ ـ (كتاب الوَشْي المرقوم على الدُّر المنظوم) شرح رسالة الإمام الواثق بالله المطهر بن محمد المتوفى سنة ٨٠٢ هـ، وهي رسالة أدبية جعلها على منوال رسالة الحور العين لنَشْوان بن سعيد الحميري وبَعَثَها إلى الإمام الناصر صلاح بن محمد (أوردها المؤرخ زبارة في أئمة اليمن القسم الأول ٢٣٧ ـ ٢٤٠) ومن كتاب الوشي المرقوم مخطوطة بجامع صنعاء برقم ٣١٤ أدب في مجلد كبير.

٣ ـ (الأصداف المَشْحونة باللآلىء المكنونة) شرح وسيلة الأديب محمد بن عبد الله شرف الدين المتوفى سنة ١٠١٦ هـ التي أولها:

إلهي بسر الذَّات ذاتك في الأسما   بعرشك بالكرسي كرسيك الأسما

انظرها في ديوانه ص ١٣٢ ـ ١٤٥.

٤ ـ (تحقيق من عرف بالرحلة إلى بلاد الشرف). وبلاد الشرف من اليمن هي المعروفة بشرف حجور جبل واسع في الشمال الغربي من حجة. قام بها سنة ١١٢٠ هـ ووصفناها في كتابنا الرحالة اليمنيون ص ٦٧ ـ ٨٢.

٥ ـ (حدائق النَّمام في الكلام على ما يتعلَّق بالحمام). وهو من الكتب القيمة ذات الموضوع الموحد وقد يَسَّر الله لنا تحقيقه ونشره في ثلاث طبعات، وقد بوَّبه على فصول ومقدمات تمهيدية تتعلق بالحمام في الأدب العربي والطب والفقه إلى غير ذلك.

٦ ـ (رعي الأب في شعر الأب). جمع فيه شعر والده العلامة محمد بن الحسن الحيمي المتوفى سنة ١١١٥ هـ، وقفت على مخطوطة منه في جامع صنعاء.

٧ ـ (الرَّوض المطول) شرح رسالة الأديب عبد الله بن علي الوزير التي حذا فيها حذو ابن زيدون في رسالته الشهيرة (ذكره المؤرخ زبارة في نشر العرف ص ٢٥٣) ويقول: سلك فيها مسلك الصفدي في شرح لامية العجم.

٨ ـ (سلافة العاصر) شرح قصيدة الحسين بن عبد القادر، شرح فيها قصيدة بديعية للمذكور أولها:

أهدى النَّسيم وذيل السحب ينسكب   طيباً إلى طيبة يُعْزى وينتسب

وقفت على نسخة منه في مجلد، وهو من كتب المؤلف القيمة التي توضِّح منهجه في النَّقد ومدرسة البديع، ومنه أيضاً مخطوطة بمتحف بريطانيا برقم ٣٨٤١ or

٩ ـ (طريقة الاكتفاء في التَّورية مع الاكتفاء)، ذكره المؤلف في ترجمة الحسن بن أحمد الجلال (في هذا الكتاب) ووقفت على نسخه منه.

١٠ ـ (شكر من وهب في عراض أقراط الذَّهب)، جعله على منوال أقراط الذَّهب في المفاخرة بين الرَّوضة وبئر العرب للأديب عبد الله بن علي الوزير المتوفى سنة ١١٤٧ هـ وقد قمنا بنشره ضمن مجموعة المقامات اليمنية ص ١٧٣ ـ ٢٠٨.

١١ ـ (لذّة الوسن في نظم قاضي القضاة الحسن). جمع فيه شعر جده الحسن بن أحمد الحيمي المتوفى سنة ١٠٧١ هـ منه مخطوطة بمكتبة برلين. وخاصة بصنعاء.

١٢ ـ (الزّرجون في التّرويح على المسجون). مقامة.

١٣ ـ (النّذير لأرباب المسير). مجموعة خطبه.

١٤ ـ (مستقطر اليزدي شرح لامية ابن الوردي) ذكره المؤلف في ترجمة الحسين بن عبد القادر من هذا الكتاب.

١٥ ـ (نكت القلب) ورد ذكره في طيب السّمر في ترجمة يحيى الأخفش، وذكره أيضاً صاحب ذيل كشف الظنون ٢/٦٧٧.

١٦ ـ (الغيث الهتون المطّلع على الفنون).

١٧ ـ (نجوم اللّيل الطالعة على غرر الخيل)، مقامة أدبية جعله في التورية بخيول الأمراء في عصره، منه مخطوطة بمكتبة ليدن oR١١٠٧٧ وأخرى بالمكتبة المحمودية بالمدينة.

١٨ ـ الجواهر المؤتلفة المستخرجة من البحور المختلفة، ديوان شعره ذكره في طيب السمر.

١٩ ـ توابع النوابغ. حذا فيه حذو الزمخشري في نوابغ الكلم ذكره في كتابه هذا وغير هذه الكتب التي يطلع علينا البحث كل يوم بكتاب جديد منها، وهو من المكثرين الذين ملأوا المكتبات بمصنفاتهم القيمة علماً وأدباً فرحمه الله رحمة الأبرار.

٢٠- رق المكاتبة.

٢١- نظائر الروض بلا ريث عقب نزول الغيث.

كتاب طيب السمر

هذا الكتاب من أهم كتب المؤلف، وأهمها أيضاً في التراث اليمني قاطبة، وقد ذكره في القرن الثاني عشر المؤرخ إبراهيم بن عبد الله الحوثي فقال في أثناء ترجمته: (ومؤلفه طيّب السمر في أوقات السحر من أحسن كتب التاريخ المتأخرة، جمع فأوعى لكنه لا يتميَّز حال الرجل المترجم له كلية لالتزامه بالسَّجع من أوله إلى آخره وربما سارع القاضي رحمه الله تعالى إلى الاعتراض بما لا ورود له أو بما يتسامح بمثله، أو بما قد كثر وشاع وروده، والأمر في ذلك سهل).

قلت: استغرابه عدم استقصاء حال المترجم له والتزامه التَّسجيع، هي طريقة أهل المدرسة البديعة التي حكت النَّمط الذي بدأه الثعالبي في يتيمة الدهر كما أسلفنا وكتابه من هذا القبيل فلا وجه لاعتراض الحوثي، وهو ليس كتاب تاريخ بالمفهوم المعروف كما تهيَّأ للمؤرخ الحوثي رحمه الله واللّه أعلم.

وقد جعله على أربعة أقسام ضخمة كل قسم يشكّل جزءاً مستقلاً، فالقسم الأول في (إيراد محاسن كوكبان المنيف، وذكر من برز في قطره الرفيع الشَّريف) ترجم فيه لـ ٦٤ من أعلام الأدباء في ذلك القطر.

والقسم الثاني (في ذكر أفاضل صنعاء اليمن من كل من تقلّد من علمه وأدبه سمطاً غالي الثمن وسما بمعاليه قدراً وبدأ وبرز في سَماء الفضل بدراً) ترجم فيه لـ ٨٢ أديباً من أهل صنعاء.

والقسم الثالث في (ذكر فضلاء ما خَلْف مدينة شبام من كل من فتح من العلم والأدب المقفل وتَفَرق سكونهم في الجهات من لدن صنعاء إلى منتهى اليمن الأسفل) ترجم فيه لسبعة وخمسين أديباً.

والقسم الرابع في (ذكر الأفاضل ممَّا يسامت بلاد كوكبان من الثلاث الجهات التي كشف معمورها عن نجابة فضلائها وأبان إلى منتهى بلاد صعدة) ترجم فيه لتسعة وأربعين أديباً.

ثم ختم الكتاب بملحق يتعلَّق بأدباء الشام وغيرهم أسماه (نفحة من نفحات الشام ولمعة برق نظرها المشتاق وشام) ترجم فيه لخمسة وعشرين أديباً هم:

الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي.

السيد محمد بن أمين الشامي.

الشيخ عبد الرحمن بن محمد الذّهبي الدمشقي.

الشريف أحمد بن محمد بن مسعود بن الحسن بن بركات الحسني.

السيد أحمد بن محمد مسعود بن الحسن بن بركات الحسني.

السيد أحمد بن محمد بن معصوم بن صدر الدين الحسني.

ولده السّيد علي بن أحمد بن محمد بن معصوم.

الشيخ محمد بن علي الحر الشامي الأصبهاني (العاملي).

الشيخ محمد بن علي بن محمود الشامي.

الشيخ أحمد بن محمد الجوهري.

الشيخ محمد الكنجي.

الشيخ عبد الحي بن علي المعروف بالخال.

السيد محمد كبريت المدني.

الشيخ محمد الإسكندراني.

الشيخ علي السنجاري المكي.

الشيخ محمد بن محمد بن سليمان المغربي.

السيد هاشم بن أحمد بن محمد بن جعفر الشهير بالأزراري.

الشيخ زين العابدين بن سعيد المنوفي.

والده الشيخ سعيد بن محمد المنوفي.

سراج الدين عمر بن محمد بن سليم بن إبراهيم الوزير.

الشيخ أحمد بن محمد الخفاجي قاضي جدة.

الشيخ أبو الفرج الجزائري المكي.

الشيخ محمد الرقباوي الحجازي.

صالح بن إبراهيم الحكيم المكي.

الفقيه محمد بن دخيل المكي الزمزمي.

ويعتبر هذا المُلحق شعوراً من المؤلف بوحدة الثقافة العربية في بلاد الإسلام، وإحساساً نبيلاً بترابط الصِّلات بين الأدباء في سائر الأقطار العربية، وقد قال في مفتتح هذا الباب:

(ديار الشام العامرة ورياضه التي تُحيِّيها الدِّيم الهامية الهامرة منشأ العلم وفنونه ومنبع الأدب وعيونه... ولذا ما برحت لأخبارهم متطّلعاً ومن أدبهم الذي تهديه السَّيارة متضلعاً) إلخ.

فهو لا يزال يتطلع إلى أخبار الأدباء في البلاد العربية متتبِّعَاً نتاجهم، وكأنه ما كتب مؤلفه هذا إلاّ ليسد النّقص البيّن فيما يتعلّق بأدباء اليمن عندهم.

وفي ثقافته الأدبية الواسعة ما يُعْطينا دليلاً واضحاً على مدى تضلّعه بآداب البلاد العربية في الشام ومصر. وخاصة تلك المدرسة البديعية التي أحيا معالمها في مصر خلال الحُكم المملوكي الأديب صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤هـ

وصَخبه، فكان أديبنا محيياً لتلك المدرسة في اليمن بعد أن رأسها آخذاً طريقاً من بينهم في النَّقدَ الأدبي لا تقل أصالة عَمَّن جاؤوا به، ويكفي القارىء أن يلم بهذا فيما كتبناه عنه في كتابنا المشار إليه سابقاً فلا نعيد القول هُنا.

تحقيق الكتاب ومخطوطاته

ظلَّ كتاب «طيب السمر» غريباً في موطنه لا أحد يعرفه حتى إن المؤرخ زبارة ـ على الرَّغم من عنايته بالمخطوطات وتتّبعه لمظانها ـ قال في نشر العرف ١/ ٢٥٢ عن هذا الكتاب: (وهو من الكتب النادرة فإني لا أعلم بنسخة منه كاملة في صنعاء ولا في غيرها) ولذا تجده رجع في كتابه نشر العرف إلى نسخة ناقصة من هذا الكتاب، تنتهي عند أوائل أدباء صنعاء.

وما وصلنا من مخطوطات كاملة من هذا الكتاب إنما يعود الفضل في حفظها إلى المستشرقين الذين سعوا في جمع مظان التُّراث اليمني وصيانته في مكتباتهم العامرة في أوروبا.

وقد وصلتنا منه نسخة جيدة كاملة في مكتبة المتحف البريطاني هي غرّة النسخ التي وصلتنا من هذا الكتاب وأهمها. وقد قُمنا بالتَّحقيق حسب القواعد المتَّبعة في تحقيق المخطوطات عند المحدثين ولم نألُ جُهداً في إخراجه على الوجه اللائق حسب المستطاع من توثيق للتراجم واستكمال للنّسخ الخطّية وتخريج للنُّصوص الحديثية والفقهية والأدبية والتاريخية على أنه مما يحز في نفوسنا أننا لم نستطع متابعة المؤلف في بعض مصادره الأدبية وذلك لعدم وجود بعض الدَّواوين الأدبية في اليمن وعدم توفّرها عند الأشخاص المعروفين لنا، ويكفي أن تعلم أننا لم نحصل على مرجع مشهور أدبي هو كتاب (درّة الغواص) للحريري إلاّ بعد الرحلة إلى بلد البيضاء عندما وجدناه في مكتبة العلامة محمد بن عبد الله الهدار بمسافة تبعُد عن صنعاء بنحو أربع ساعات بالسَّيارة وهكذا قس على ذلك في المراجع الأخرى، ثم لما منَّ الله علينا بالوصول إلى بلد أبو ظبي من الإمارات العربية ووقفنا على مقتبيات المجمع الثقافي بأبو ظبي توصلنا إلى ما نحتاج إليه من

مصادر لم تكن بحوزتنا من قبل ولله الحمد.

ومهما يكن فإن الواجب على المحقق أولاً أن يقدّم النص كما كتبه المؤلف وتوثيق نصوصه بعيداً عن التّصحيف والتحريف، وهذا ما جَهَدنا فيه وما عدا ذلك فهو من تكلف المحققين المعاصرين، ولزوم ما لا يلزم.

أما النسخ المرجوع إليها في التحقيق فهي:

أولاً ـ نسخة (ب):

هي أفضل ما وصلنا من مخطوطات هذا الكتاب وأكملها، وهي نسخة خزائنية جميلة كتبت لمكتبة العلامة الوزير إسماعيل بن محمد فايع وعليها خطّه وهي جميلة الخط مراجعة مع أصلها وقد كتبت في صنعاء في ٢٢ رمضان سنة ١١٥٤ هـ أي بعد وفاة المؤلف بثلاث سنوات، وتقع في مجلدين الأول برقم Or٢٤٢٧ في ٣١٢ ورقة. والثاني برقم Or٢٤٢٨ فرغ من كتابته سنة ١١٩٩ هـ، ويقع في ٢٧٨ ورقة.

وقد حصلنا على مصورة مصغرة (ميكروفلم) من الأستاذ الدكتور حسين بن عبد الله العمري جزاه الله خيراً، ثم قمنا بالتّكبير لهذه المصّورة أولاً على التّصوير الشّمسي (السميك) فلم يتّضح التصوير[1] على الرّغم من تكلفة ثمنه الباهظة. فما كان منّي إلاّ أن بعثته إلى فَرَنْسا بواسطة السيدة الفاضلة ماري كريستين وتَمّ تَصْويره على الوجه المطلوب فللّه الحمد، هذا ولا يسعني إلاّ أن أشكر الأستاذ الأديب الكبير أحمد بن محمد الشامي الذي كُنَّا قد دفعنا له نفس المصورة (مخطوطة المتحف البريطاني) عندما جاء إلى اليمن سنة ١٩٨٦ م وكانت النّية معقودة على تحقيقه بالاشتراك معه فترك لي هذا العمل على قلة بضاعتي تفضلاً منه وكرماً وقد أعلمني بذلك هاتفياً من مدينة برروملي في لندن.

---

(١) حيث أتت الصورة صغيرة الحجم غير واضحة وقد قمنا بتكبير هذه الصورة على التصوير العادي فلم يظهر أيضاً.

ثانياً ـ مخطوطة (ش):

هي نسخة مكتبة شستربتي بدبلن وهي جيّدة كاملة تقع في مجلّدين مختلفي الخطوط فالمجلد الأول يقع في ٦٣٦ صفحة كتب سنة ١١٩٨ هـ بعناية سيف الخلافة أحمد بن المنصور علي بن المهدي العباسي وهذا الذي تولى الإمامة بعد والده سنة ١٢٢٤ هـ وتلقب بالمتوكل.

والمجلد الثاني كبير الخط مشكوله فرغ من كتابته سنة ١٢١٣ هـ ويقع في ٤٢٧ صفحة، وقد تفضل مشكوراً بإرسال مخطوطاتها من موطنها الأصلي في دبلن صديقي الدكتور الفاضل عبد الله حامد الحييد فجزاه الله خيراً وشكر الله له عارفته.

وقد أفادتنا هذه المخطوطة كثيراً حيث أصلحت ما يعوز النّسخة الأم فللّه الحمد.

ثالثاً ـ مخطوطة (ز):

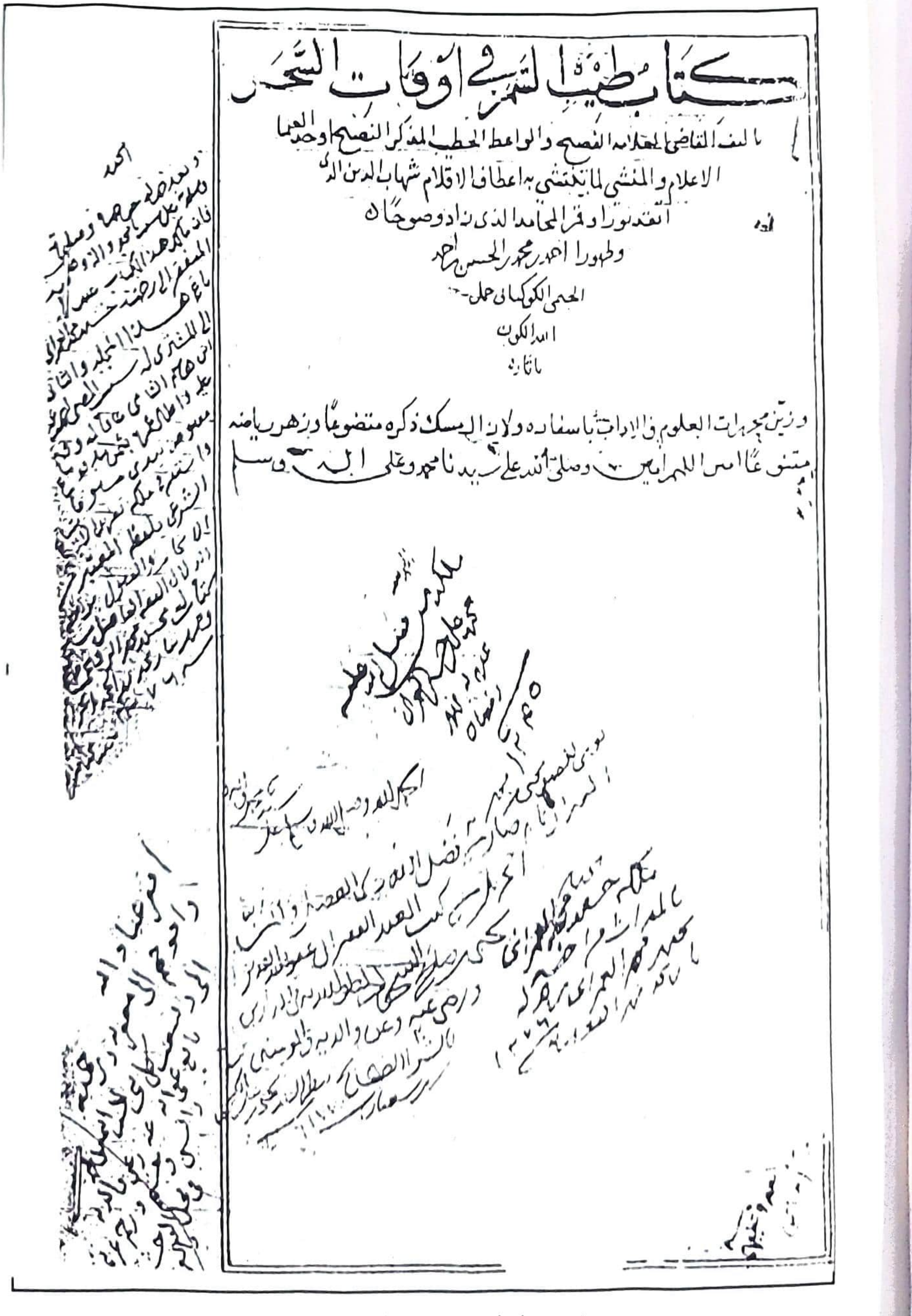
هي مخطوطة المؤرخ محمد بن محمد زبارة المتوفى سنة ١٣٨٠ هـ التي رجع إليها في نشر العرف وهي تضم قسم كوكبان كلّه وبعض قسم صنعاء ثم أضرب النَّاسخ عن متابعة النسخ وقد وجدتها متعددة الخطوط لا تخلو من فائدة.

قطعة من مسوّدة الكتاب بخط المصنف

عثرنا على أوراق من الكتاب بخط المصنّف هي عبارة عن المرحلة الأولى من تأليف الكتاب وهي ترينا بوضوح مدى معاناة المؤلف ودِقّته في تأليف كتابه كما يتّضح من مصورته التي بين يديك، ولم نَسْتفِد منها إلاّ فيما جاء عَرَضاً لا يكاد يذكر.

صور من

النسخ المحفوظة


كتاب طيب السمر في أوقات السحر

تأليف القاضي العلامة الفصيح والواعظ الخطيب المذكر النصيح أوحد العلماء

الأعلام والمنشي لما يكتشي به أعطاف الأقلام شهاب الدين الذي

اتقد نوراً وقمر المحامد الذي ازداد وضوحاً

وظهوراً أحمد بن محمد بن الحسن بن أحمد

الحيمي الكوكباني ...

اسعده الله ...

وزين مجرات العلوم والآداب بأسفاره ولاذ المسك ذكره متضوعاً وزهر رياضه

متنوعاً من أنفاس اللطائف ... وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

عنوان مخطوطة ب نسخة المتحف البريطاني



دشرفت لما جئت للشرف التي
والملتقت [illegible] الافلاك منها زواهرا
فمهلاً فقد طارت نفوس لأهلها
أيا بحر علم قد تبوأ رتبة
ويا واعظاً لا أن الخطب مدارس
ويا روض آداب تشقنا الزهرة
[illegible]
أينكر هذا حدك الحسن الذي
وخذها من المضنا بحاله شيق
فإنك لمن أهدا إلى البحر [illegible]
عليك سلام ما تغنى مطوق

لقد ملك [illegible] قد جازت الفضلا
واظهرت بعد [illegible] العذلا
[illegible] مهلا ها مهلا
أسنفت له فوق السماكين [illegible]
له فهو منه الخطاب وقد استملا
من العرف نشراً من زهور الربا
وتشمر عن [illegible] ما رأينا له مثلا
تحمل بلا دا احسن القول والفعلا
اليك وقد كان السكون به أولى
وفيها [illegible] بها حلا
وما الغيث من فوق الربا قد هلا

كتبت أنا اليه لما تخلف عني ثلاثة أيام • وزعم أن ذلك لعذر حتى قال على الأقدام أحكام • ما القطة فائق شمائلا • والعائق حمائلا • والموصول جمائلا • لم تخلفت عنا • وارتضيت بهجر كرمنا • وقد عرفت أن الشوق اليك رائح وغادي • وان سبيل انسنا مجهول فهو يفتقر الى الهادي • فهي القرايه الادبيه • وسلسلتها الذهبيه • الاما اثرت الوصل على القطيعه • والزمت نفسك المبادره الينا فانها مطيعه • فقد عرفت في هذه الديار غربتي • لولا انني مثلك لم احار [illegible] كربتي • حاش لله ما انا بغريب • [illegible] مني وان بعد الاهل قريب • فمهلا فانا مثلك يهون الخطب وبعرف [illegible] يصنع المندل الرطب • [illegible] • ولا تقع على الغر نصائحهم فما كل الطيور [illegible] • [illegible] اما جال البازي [illegible] لا غير • [illegible] • وحسن الصعو في صورته • فكل منهما [illegible] (على المعاودة والتلبيث) [illegible] ولا ترى عتبا [illegible] ان لا تجد من ملازمتنا بدا حتى اذا غابت عني الشمس كنت عنها خلفا • واذا اغرب البدر كنت عنه نائبا وان لم ارك كلفا • فالبحر اذا جاوز الثلاث • حرم كما نص عليه سيد الذكور والاناث • هذا ولا برحت راسخة في الود قدمك • ولا زلت منزها عن ان تعتريك ندمك • ما ارتاع [illegible] وهبت الصبا في الصباح فاطفأت قناديل النجوم • والسلام [illegible]

القطب الفقيه احمد بن عبد الرحمن الولي العربي الطرايفي

هو الوسمي وهو الولي • ذو البرهان الواضح الجلي • من أهل الطريقه • وارباب المجاز الى الحقيقة قطب الزمان الذي عليه دار • وواحد ابداله الذي بنيت له فوق قطب النجوم دار • الحائز [illegible] الفاني • القائل بلسان حاله لكل لاحق ما العاني • توالت أفعاله على الموافقه فدعي وليا •

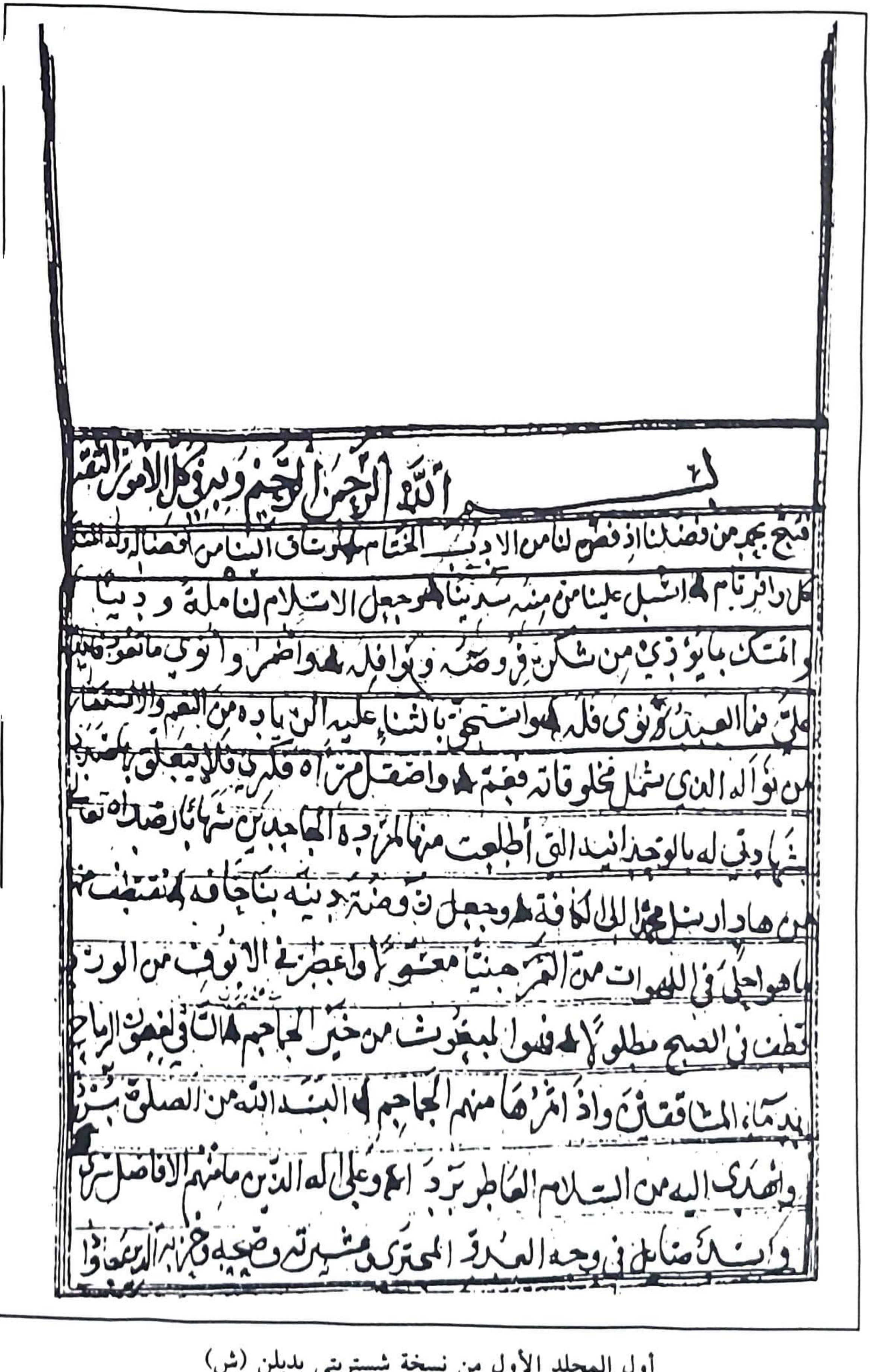
نموذج من خط المؤلف العلامة القاضي أحمد بن محمد الحيمي (مسودة كتابه طيب السمر)

اطال الله له الاوقات ٥ وجنبه من طوارق الليل والنهار الافات ٥ وحرسه من الايام فيما هوات ٥ هذا وانها جابته هذه السطور على استحيا ٥ معبرة عن مشوق يعد في الاموات وان كان من الاحيا ٥ لما طالت الغيبة ٥ التي هي للقلوب مذيبه ٥ واسترسلت ايام الفراق ٥ والبعد الذي لم يتخلله اتفاق ٥ فاكرموا مثواها واحسنوا مأواها ٥ ولا استغنى منكم عن جواب ٥ ياتي الينا فيسكن جوى الالتهاب ٥ ويقر العين ويشفي الخاطر ٥ ويهدي في الصباح نشره العاطر ٥ فالكتب عن التلاقي خليفه ٥ سيما اذا كانت عن عباده لطيفه ٥ والله تعالى يرفع الينا منكم كل ما يسر ٥ ويجعل ايامكم في غير الابتهاج والافراح لا تمر ٥ ويحفظ خليفة النعم في مقامه ٥ ويطيل في سهوره واعوامه ٥ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٥ ما هزت النسيم الغصون وزهرت في الليل مشكاته امين ٥

اخوة القاضي العلامة الحسين بن احمد الحيمي الخطيب

خطيب شحشح ٥ بمثله الزمان قد شح ٥ وجبين الروض من الحيا لدى مواعظه يرشح ٥ كم خطب في محافل ارتقت بها المحافل ٥ والرماح ترعف بالدما ٥ وقد اجم من كان مقدما ٥ وبوارق السيوف تلمع ٥ وسحاب القتام يهمع ٥ واجفان الصوارم بالنجيع تدمع ٥ والمنهج [illegible] للسلامة ابدا لا انطمع ٥ وهو في العلوم ذو تبحر ٥ قد استعبد حدقه من الفوايد الكرام الحر ٥ اخذ من كل علم بنصيب وافر ٥ واسلم بجامع طرسه من لبس التنافر ٥ سيما الفقه فقد مهد قواعده ٥ وانجز فيه لمن طلب رشاده وقد عده ان افتى فمثله ذا ابل ٥ وان سقى الانهار فلا تذكر عنده الوابل ٥ وان حكم في مجلس الخصام ٥ فما لعروته تسجيل من انفصام ٥ وهو تلو اخيه الحسن في السماعه ٥

نموذج من مخطوطة المتحف البريطاني (ب)



بسم الله الرحمن الرحيم وبه في كل الامور الثقة

أول المجلد الأول من نسخة شستربتي بدبلن (ش)

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثالث من الأقسام * في ذكر فضلاء أهل مدينة شام

من كل من فاز من العلم والأدب المفضل. وتفرق سكونهم في الجهات من لدن صنعا
إلى منتهى اليمن الأسفل. اعلم زادك الله علما. ووفر عليك عقلا وحلما.
أن خلف صنعا من البلاد. ما جمع بعض أهلها بين المطارف والتلاد. ممن نفرت
عن محاسنهم تنقيرا. فظفرت منها بما أدنت محامد السلف معها تحقيرا.
من أهل العصر الأماجد. الذين ما تليت آيات معاليهم الأخر لها القلم أي ساجد.
هم القوم بأم مالك. وهم المصابيح في حلك المسالك. لو زاودوا الأنجم في علو
ثمنا لها لما أبت. ولو ما بحث بارذ كائهم نار الكوابين لما خبت. ولو خاطب
أذهانهم القاطعة سيوف الأغماد لما نبت. ولو بدا روض كلمهم المجاري للروض
الحقيقي لما نبت. من كل عالم هو علم. وطاعن في نحر الجهل برمحه وهو
القلم. طويل النجاد عظيم الهامه. قد أحسن الله في مكاسب الفخار إلهامه.
متكلم طلق اللسان. مجرزات مسائله حور حسان. منزه فتاويه محض
خيرا فاديه أنبع من الظل. انعقد عليه الإجماع انعقاد الشهد. وانحل به
النوم من عيون العدا فاستبدلت السهد. لو سلطه البحر لنبعت لأنيه دون
كلماته. أو باراه الفلك لاستفاد ونخط بنجوم الليل في ظلماته. ومن
كل أديب * ماسوح ظرفه بحريث ناظم مفلق مجيد. نظمه المتسق
عقد على جيد. تدعي الشهب مشابهة من نفثاته فترمي بها من الأفلاك. ويزعم
اللآلي انتصاد كلماته فتمسك حمولها في سلاسل الأسلاك. يتمنا الكافور أن يكون
له طرسا. ويود المسك أن يماء له نقسا. ويزعم الدر في أن يكون له كلاما.
وتتمنى الرماح أن تبرى له أقلاما. نظمه الرأس ونظم غيره الذنب. لم يحكه الثغر
المبتسم وإن كان لم يفقد الشنب. فمع ذكرهم ينبغي تخليد ذكر الصميم. وإملاء
أخبارهم على اللبيب السميم. وابتداع لما يسهم في هذه الأحقاف. وإطلاع

أول المجلد الثاني من نسخة شستربتي (ش)

وذفت له عبارة حلوه وكان يعتزي الى الاتراك ٥ وينتسب من الاتصال بهم لطيب النزوه الاشراك ٥

وبعنايه بعضهم الف كتابه المسمى بالانفاس اليمنيه ٥ وبانامل سطوره تناول من دوح الامل ثمراته الجنيه ٥

فطل في نجد ابرد من صبا العشيه وجبت له الارادة على مقتضى المشيه ٥ فاصبحت بايامه ايام العروس واو

ضه اصيل القلوب وسحر النفوس ٥ وله نظم حلا احلا مذاقه يلب بر على الاتراك كاسل دهاقا ٥ فمن نفثات قلمه

وسحر بيانه وكلمه ما رايته قتيلا لا حك في المعركه اخذا وبيلا وكان اذ ذاك غلاما جميلاه فهو يلب دى

الشفق من دمه غاب ٥ وغزال فترسه من الاتراك اسود غاب ٥ وهو قوله

٥ حييت ياساحي الاجفان حيينا ٥ وبالرضى من عظيم الخلق لقينا ٥

٥ ومن كوس واكواب مشعشعة ٥ ختامها المسك في الفردوس سقينا ٥

٥ ياشادنا سفحت سمر القنا دمه ٥ واستاصل السيف منه الراس واللينا ٥

٥ ما نالك صحبك لما فهفروا هربا ٥ ومزقوا في عيالك الامارينا ٥

٥ اوافردوك لا اسلاب ما فراسهما ٥ سوى الفوارس ومن كان منعوتا ٥

٥ فتية من كماة الترك ما تركت ٥ للرعد في حاله صوتا ولا صيتا ٥

٥ قوما اذا قوبلوا ما ملتكنة ٥ حسنا وان قوتلوا كانوا عفاريتا ٥

٥ ظننت ان لقاهم مثل دور كم ٥ في لوكبان بهذا صرت ممقوتا ٥

٥ وما عرفت رجالا قد بضوا حنقا ٥ لروح مجرمهم بيضا مصاليتا ٥

٥ ويح الذين تولوا عنك وانصرفوا ٥ لو انهم ثبتوا ما صرت مثبوتا ٥

٥ قد كنت اهوى بان ناوى الى نفر ٥ فالان من لي بحمل القلب تابوتا ٥

٥ عذبتني بالجفا وقت الحيوة ولى ٥ مماتك الان قد احرمتني القوتا ٥

٥ قبلت منك عذاب الحالتين معا ٥ حيا وميتا قيا طول الجوى هيتا ٥

٥ يا جهرة قطفت من بعد ما [illegible] ٥ وزهرة غربت منك وافتلكوتا ٥

٥ لهف على المقلة الكحلا التي قصرت ٥ عن سحر اعينها اسحار هاروتا ٥

٥ والقامة اللبنة اللاتي اذا خطرت ٥ او انثنت عاد غصن البان مبهوتا ٥

٥ كانما لاسه لما بدا صنم ٥ فللبريه من الاتراك منحوتا ٥

٥ فقد عطر السفح منه البهيج ٥ كلا دم الظبي مهمى صار مفتوتا ٥

٥ لو شاهدته النصارى قال عالمهم ٥ قوموا انظروا قد حوى الناسوت اللاهوتا ٥

٥ لم عني عليه ولهفي منه يا كمد ٥ كم قد جرا الصبر يا الهجران تشتيتا ٥

٥ ولم حاني في وقت الحيوه لمن ٥ اشهى الى مهجتي من لهم طالوتا ٥

٥ سقى الاله ظريحا انت ساكنه ٥ وجلله الغمايم لا يجفو الموافينا ٥

٥ حتى يرى حول ذاك القبر بينهما ٥ زهر الربا في حكا دلا وياقوتا ٥

قوله وفتيه من كماة الترك البيت الذي يليه وهو قوله قوم اذا قوتلوا اما مطمئنان من قصيدة

لابي اسحق ابراهيم بن يحيى بن عثمان الغربي الكلبي منها قوله ٥٥٥

امه ٥ امطلعين البدر الزهر الموافينا ٥ واجعل لحم تلاقينا مواقيتا ٥

٥ فنغرك اللولو المبيض لا الحجر المسود حاشاه من وصم وتحو شيناه

نموذج من مخطوطة المؤرخ زبارة (ز)

طيب السمر

في أوقات السحر


ووقفت له عبارة حلوة وكان يعتزي الى الاتراك ويتسبب من الاتصال بهم لطيب النزوة الاشراك
وبعنايته بعضهم الف كتابه المسمى بالانفاس اليمنية وبانامل سطوره تناول من دوح الامل ثمراته الجنية
فطل في نهد ابرد من صبا العشية وجيت له الارادة على مقتضى المشية فاصبحت بامه ايام العروس واو
ه اسيل القلوب وسحر النفوس وله نظم حلا [illegible] قاه [illegible] على الاتراك سلم [illegible] فمن نفثات قلمه
وسحر بيانه وكلمة ما ريابه فتيلا [illegible] في المعركة اخذ وبيلا وكان اذ ذاك غلاما جميلا فهو [illegible]
الشفق من دمه غابه وغزال فرسيته من الاتراك اسود غابه وهو قوله

حييت يا ساحي الاجفان حيينا ... وبالرضى من رخيم الخلق لقينا
ومن كؤوس واكواب مشعشعة ... ختامها المسك في الفردوس سقينا
يا شادنا سفكت سمر القنا دمه ... واستاصل السيف منه الراس واللينا
[illegible] انك صحبك لما قهقروا هربا ... ومن فروا [illegible] الامارينا
وافردوك لاسلب مافرايسها ... سوى الفوارس ومن كان منعونا
فتية من كماة الترك ما تركت ... للرعب في حالة صونا ولا صينا
قوما اذا قوبلوا كانوا ملائكة ... حسنا وان قوتلوا كانوا عفاريتا
ظننت ان لما هم مثل دور كم ... في كوكبان بهذا صرت ممقوتا
وما عرفت رجالا قبل خضوا احنفا ... [illegible] بيضا مصاليتا
وبح الذين تولوا عنك وانصرفوا ... لو انهم ثبتوا ما صرت مثبوتا
قد كنت اهوى بان تاوي الى نظري ... فالان من لي بجعل القلب تابوتا
عذبتني بالجفا وقت الحيوة ولي ... مالك الان قد احرمتني القوتا
قبلت منك عذاب الحالتين معا ... حيا وميتا [illegible] طول الجوى هيتا
يا [illegible] قطفت من بعد [illegible] ... ونضرت [illegible] منك [illegible]
لهفي على المقلة الكحلا التي قصرت ... عن سحر [illegible] اسحار هاروتا
والقامة اللدنة اللاتي اذا خطرت ... اوانثنت عاد غصن البان مبهوتا
كانما راسه لما بدا صنم ... فللبرية من الاتراك منحوتا
فقد عطر المسك منه [illegible] ... كلا دم الظبي [illegible] صار مفتوتا
[illegible] النصارى قال عالمهم ... قوموا انظروا فيحوي الناسوت لاهوتا
[illegible] عليه [illegible] ... كم قد جرا الصبر بالهجران تشتيتا
وكم جاني [illegible] الحيوة [illegible] ... اشهى الى مهجتي من [illegible] طالوتا
سقى الاله طريحا انت ساكنه ... وطبق الغمام لا يخفو الموافينا
حتى يرى حول ذاك القبر [illegible] ... زهر الرياض حكى دورا وياقوتا

قوله وفتية من كماة الترك البيت الذي يليه وهو قوله قوم اذا قوتلوا اهما مضمنان من قصيدة
لابي اسحق ابراهيم بن يحيى بن عثمن الغزي الكلبي منها قوله
امـ ... اما طمعن البدر الزاهر الموافينا ... واجعل لحى تلاقينا مواقيتا
فنحرك اللولؤ المبيض لا الحجر المسود ... حاشاه من وصم وحوشيتا

نموذج من مخطوطة المؤرخ زبارة (ز)

طيب السمر

في أوقات السحر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبهِ في كُلّ الأمور الثقة

أفتتح بحمد من فَضَّلنا إذ فَضَّ لنا من الأدب الخِتام، وساق إلينا من أفضاله وله المنّة كل وافرِ تام، أسبل علينا من مِنَنِه سِدينا[١]، وجعل الإسلام لنا ملَّة ودينًا، وأتمسك بما يُؤَدِّي من شكره فروضَه ونوافِلَه، وأُضمر وأَنوِي منه ما تعود فائِدتُه عليَّ فما [أضمر][٢] العبد ونَوَى فَلَه، واستحَق بالثناءِ عليه الزِّيادة من النعم، والاستكثار من نَواله الذي شمل مخْلوقاتِه فَعَمّ، وأصقُل مرآةَ فكري فلا يعلق بها صَدًا، بشهادتي له بالوحدانية التي أطلعت منها لمردة الجاحدين شَهَاباً رَصَدا، تعالى من هادٍ، أرسل محمداً إلى الكافة، وجعل رَوْضَةَ دينه بنَا حافة، نقتطف منها ما هو أحلى في اللَّهوات من الثمر جنيًّا معسولاً، وأعطر في الأنوف من الورد قطف في الصّبح مطلولا، فهو المبعوث من خَيْر [الجماجم][٣]، الساقي لغصون الرماح بدماء المشاقين وإذا ثمرها منهم الجماجم، ألبسه[٤] الله من الصلاة بُرْدًا، وأهدى إليه من السلام العَاطر بَرْدا، وعلى آله الذين ما مِنْهُم إلاّ فَاضل سَرِي، وأشد صائل في وجه العدو المجتري، وعشيرته وصحبه وحزبه، الذِين جَادُوا بالنفس والنفيس في حُبّه، من كل من لم يصغ في نصرْته لعاذل ولائم، فما زال تتوالى به المسرات للإسلام كأنها ولائم، لا برح تسقي رياض قبورهم المُدام، ويدور عليهم من

---

(١) السدين: الستر، وفي اللسان: السدن الستر، والجمع أسدان، وقيل النون هنا بدل من اللاَّم.

(٢) ساقط من (ش).

(٣) بيض له في (ز)، والجماجم يطلق على السادات والقبائل.

(٤) في (ز) سده.

الرَّحيق المختوم المُدام[١] ما انساب من البرق أيم[٢] وتملْمَل تحت كثيب الغيم، وهبّت[٣] الرياح الثّائب[٤] وقدمت مبشّرة بقطر السحائب، وما توارت الشمسُ من حجاب الغرب تحت الذّيل، لما زحف عليها السواد الأعظمُ من الليل، فَرَّت خريدتها وهي تذعر وتَفرَق، وتركت من الهلال حجلّها المطرّح من السماء على الدّيباج الأزرق، ونثرت لُؤلؤَ عقدِها، فإذا هو في الأفق نجوم تتلألأ بوَقْدِها.

هذَا وإني كنتُ في موجة الشَّباب، وكأس الصبا مُنَشَّف[٥] بالراح مُتوَّجٌ بالحَبَابِ، وأنا من الطّلب في إبَّانِه، معدود من الزمان في شُبَّانِه، اقتنص من العلوم سانِحَة، والأيّام بكل مقترح عليها مانحة، وقوس النشاط ضَرُوح[٦]، وزَمَان الإقبال لجثمان الكون روح، وجوادي طرب العنان، يُواثِبُ الرّمحَ ويُسَاوِرُ السِّنَان، يُلاعب خياله، ويجازي من المَرح ظِلاله، ويلبس من النَّقع الممدود خِلاَلَه، ونباتُ الأدب غضيض، وغديره بالسلسل العذب يفيض، وبُردُه حَبير، والدَّهر نقَّادٌ خبير، والزَّمان أصِيْل وسَحَر، والأرض جميعها روضٌ ونَهر، والأرجاء تفوح بأرجِ طيبٍ وزَهَر، تشتعل بنار الوْرود، حتى يظن الغبِيُّ بأنها خد لمليحةٍ رُود:

فـالأرضُ فـي حُـلَـلٍ قـد كـاد يُـحـرقُـهـا تـوقـد الـنَّـار لَـوْلاَ دمـعُـهـا الـجـاري
والـطـيـر فـي وَرق الأشـجـار شـاديـةٌ كـأنـهـن قـيـانٌ خـلـف أسـتـارِ

إتخذ الأدب جُنّة، وأسير من ظلال دوحه في جَنة، أعد العلم روضاً أنيقا وأجعل الأدب له ورداً شقيقاً، أصرف لتحصيله الهمّة، وأضع تاجه المفصّل على

(١) المدام الأول المطر والثاني الخمر.
(٢) في المقامات للحريري: «ثم إنه أنساب أنسياب الأيم» قال: الثعبان وهو هنا شبه البرق ببياضها، (وانظر لسان العرب ١٢/ ٤٠).
(٣) في (ز) هبّ.
(٤) الثائب: الريح الشديدة تكون في أول المطر.
(٥) أصلحه في (ش) بمنشّف.
(٦) شديد.

القمة، أشتريه من ليلي بدراهم نجومه فهي النقد، ومن نهاري بدينار شمس لا تحتاج إلى الحَكّ والنقد، أسمح بالعمر في اقتنائه وأنا به شحيح، وأقضي عمري من حديثه بتمييز العليل[١] من الصحيح[٢]، شنشنة موروثة من أخزم[٣]، وواحدٌ من جيشٍ لا يُغْلب ولا يهزم، فعلَى ذلك مضى الآباء والجدود، وتوفَّرت لهم منه أقسامُ الجُدود، (والجارُ أحق بصقبه)[٤] والمدعوّ أعرف بلقبه، فأنا والمنة لله من قوم كِرَام، عديدهم أكثر وجيشهم عُرام، إن سُولموا فبحارٌ وغُيُوث، وإن حوربوا فأنمار وليوث، إن لوينوا فأغصانٌ تُجْتَنَى، وإن خوشنوا فمخاذمٌ[٥] وقنَا:

قـومٌ إذا قُـوبـلـوا كـانـوا مـلائـكـةً حـسـنـاً وإن قـوتـلـوا كـانـوا عـفـاريـتـا

من صبابة حمير، الذين صيتهم في الأقطار من المثل أسيرَ، لهم في المجد، أرومة، وفي الفخر مقام ما بلغه الغير فقال لن أرومَه، يستنزلون من المعاقل عُصْمَها، ويبتكّون بمُدى العزم عُرى العدو فيسرعون قَصمَها، كما قال جَدّنا القاضي نشوان[٦]، مما يدع الصَّاحي بمثل الأعطاف نشوان:

أومـا عـلـمـت بـأنـنـي مـن مـعـشـر شـمّ الأنـوف مـن الـعـديـد الأكـثـر

---

(١) العليل عند أهل الحديث: هو الحديث الذي اطلع فيه على علة تقدح في صحته مع أن الظاهر سلامته منها (انظر الباعث الحثيث ٦٥) والمعتل عند أهل اللغة هو ما كان أحد أصوله حرف علة وهي الواو والياء والألف.

(٢) الصحيح عند أهل الحديث: هو ما سلم لفظه من ركاكة ومعناه من مخالفة آية، أو خبر متواتر أو إجماع، وكان رواته عدول. وعند أهل اللغة هو ما ليس في مقابلة الفاء والعين واللام من فعل حرف علة وهمزة تضعيف، وعند النحويين هو اسم لم يكن في آخره حرف علة. (انظر التعريفات ١٧٣).

(٣) انظر الكلام على «شنشنة أعرفها من أخزم» في (المستقصى ٢/ ١٣٤).

(٤) حديث «الجار أحق بصقبه»: أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي رافع. قال في النهاية: الصقب القرب والملاصقة.

(٥) جمع مخذم: القاطع من السيوف.

(٦) هو الأديب الكبير والعالم الجليل نشوان بن سعيد الحميري صاحب المؤلفات الشهيرة، كانت وفاته سنة (٥٧٣ هـ).

قومي الذين تملكوا وتَمكَّنوا   في الأرض قبل تمكن الإسكندر
الخاتمون لسد ياجوج الذي   لا يُستطاع لردمه مِن مُظْهَرِ
والفاتحون لكَّل ثغر مبهم   غلق على من رامه متعسِّر
والطَّاعنون إذا الرماح تشاجرت   ثغر الفوارس تحت ظل العِثْيَر
والضاربون الهام في يوم الوغى   بين الصوارم والقنا المتكسِّر
ولكم لحمير كم وكم من مفخرٍ   باقٍ إلى ميعاد يوم المَحْشر
نحن الملوك الأولون جميعنا   نُنْمِي إلى جدّ كريم العنصر
يا رُب مفتخرٍ ولولا سعينا   وقيامنا مع جده لم يَفْخر
افخر على من شئت إلاّ حميراً   فدع الفخار لأهله من حِمْير

إلاّ أنَّ المَناصب العليَّة، ابتليت من الزّمان بأقبح بليَّة، لما نصب لحربها سُوقَه، وقدم عليها من الغوغاء الأفراد سُوقَة، قوم وجودُهم خِزْي وعار، النقص لهم حلية والفضيحة شِعار، حُمُر إلاَّ أن أذنابهم في الوجوه، لُؤماً ما فيهم إلاَّ بخيلٌ قد خاب من يرجوه، فهم بُخَلاء شحاح، زند جودهم شِحَاح[1]، يمنع عندهم من الحقير نزره وما عونُه، ويجهلون الأدب فلا يدرون ما أبكاره وما عُوْنُه[2] أسُود على أنهم سنانير، طريدتها الرغيف وغابُها التّنانير.

ألا طعانَ ألاَ فرسان عادية   إلاّ تجشؤكم حول التنانيرِ

فكم فيهم من فَدْم، بينه وبين الصواب ردم، يكثِر في دعاويه وشجاره، على أنها تخبر مَرْأَته عن نجارِه، قد طَوَّل بالنعمة أذياله، ووسع في أرض[3] الرفاهية أمياله، معتقداً أن الفضل في العيش، وأن الوقار في النَّزَق والطيش، وأن العُلا في جرِّ الإزار، والأَصالة مُعَدّة في الثراء لا في مَعَدّ ونَزَار[4] عملاً بقول من قال ونزل

(١) يقال زند شحاح: لا يورى.
(٢) جمع عوان وهي النَّصف من النساء في سنها.
(٣) ساقط من (ز).
(٤) معد ونزار هما من أجداد النبي ﷺ، انظرهما في كتب السير والأنساب.

تحت دوحٍ من الاعتقاد الفاسد وقال[1]:

إذا كنت ذا نَشَبٍ في الورى فأنت المسوَّد في العَالمِ
وحسبك من نسبٍ صورةٌ تُخبّرُ أنكَ من آدم

على أنه مع ذلك لا يُعدّ في شيء من الخير، كما أنه لا يُعدَ الغراب والبوم من جوارح الطير، قد خلا من النفع خلوّ المضمر عن الإعراب، وجانبه مجانبة صوت الحمير لنغمات الإطراب، وامتنع عنه منع الإدغام الألف، لأنه لم يكن في حالٍ من الأحوال قد أَلِف، فلا بدع ولا غَرْو أن يكون كشجر السَّرْوِ، له رواءٌ وليس له ثمَر[2] فقد ضاع فيه التزيين ضياع الطرز بمنديل الغمر[3]، لَكن ربما ضيمْ به الفاضِل، وقد قام وليس من أكفائه يباريه ويناضلُ.

وَهَا أنَا أَقُولُ أيُّ حُرٍّ لا يُضَام، وأيُّ عقدٍ لم يتَبَدَّد بعد الانتظام، ولم نر سيفاً سلم من الصدأ غراره[4]، ولا بدراً بعد الكمال لم يدركه سرَارُه، وأي عينٍ لم يصبها القذى، وأيُّ كريمٍ خَلص من الأذى!.

وأَيُّ عقدِ نظيم لا تبدده يد الزمان إذا ما السّمط منه وَهَى

فالعزيز في هذا العصر ذَلّ، والمستنصر بشرفه خانه الشرف وخَذَل، والحسبُ هان، والأعرج سبق في الرهان، والفضل كسد وبار، ومَرَّ الدهر على وَبار منه فهلكت وَبار[5]:

ومرّ دهرٌ على وَبارِ فأهلكت جهرةً وبارٌ

---

(١) لابن المعتز وانظرهما في (الغيث المسجم ١/ ٢٢٠).

(٢) في (معجم أسماء النباتات ٦٢) السرو له ثمر يسمى شجر السرو.

(٣) المنديل الغمر الذي فيه زهومة وسهوكه من أثر الطعام.

(٤) الغرار: حد السيف.

(٥) أنشده سيبويه للأعشى. انظر اللسان قال: وبار أرض كانت لعاد، فلما هلكت عاد أورث الله ديارهم الجن.

لما قَلَب مجنّة، وأبدل سعيراً بعد جَنَّة، فإذا سيفه قَضِيم[1]، ونباته الغضُّ هشيم، وأرضه يباب، وسحابه ضَبَاب، وبحره ثَمَد، وسروره كمد، إذ صَدَّر من لا يستحق الصَّدارة، وأناف بين رياض المأرِب والمقاصد داره، وهو إذ ذاك أصم أبكم، يقطع بأنه لا يعد من العالَم ويحكم[2]، إنسانٌ إلاّ أنه جماد، فليس عليه في خطاب من اتَّسم بالإنسانية اعتماد، كأنه حُجَّة أبي علي[3] إذ خالف فيما شجر، وقال بأنه يُسَمّى إنساناً ما بُني على الشَّكْل المخصوص ولو من حجر، فكم من رخيصٍ قد غلا، وكم من مخفوضٍ قدرٍ قد علا، وكم من طيَّاشٍ قد توقَّر، وكم من كَرْكَي قد تصقَّر، فأنا أستغفر الله من دهر لا ينادم فيه إلاّ الحمير، ولا يُؤْكل على خوانه إلاّ فطير الجهل لما فُقِد من العلم الخمير، فقد رفعت الأيام نذلاً، ووالت عليه جوداً وبذلاً، أضافت إليه جُمَل فوائِدهَا، ورفعته فجَرَتْ مخالفة القياس على عوائِدها، ولم تُبَالِ بلَحْن أحرق أحشاء المبرد[4]، إذ رفعت المضاف إليه مع أنه للجّر قد تجرد:

لا تـلـحـن الأيـامُ فـي إعـرابـهـا ... قـد تـرفـع الأسـمـاء بـالـتَّـقـديـر
والـدَّهـر بـالـتـمـيـز يـنـصـب نـاقـصـاً ... ويـجـيـز خـفـض الـكـامِـلِ الـمـوفـورِ

وكُنْتُ ممن قصده الدَّهر بالرزايا، ولم يعرف التفاوت بين الرتب والمزايا، أجرى نَهر المجرة لإغراقي، وأضرم جمرات النجوم لإحراقي، بل أشرعها لحربي أسنة، وسَدَّدها أسهماً لا أجد لي منها أكِنَّة، وبعث لياليه المظلمة كتائب زنج لنزالي، وأرسل أيامه النَّيرة جيوش رُوْم[5] لقتالي، توهّماً منه أني من الأفاضل، وممن بِأَسْهُمِ أقلامه لِحُذّاقِ الرّماة يُنَاضِل، وأني أعَدُّ من سراة الأدباء، وصدور

---

(١) السيف العتيق المتكسر الحد.

(٢) في (ب) أو بحكم.

(٣) هو أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي من كبار علماء المعتزلة، وفاته سنة ٣٠٣ هـ.

(٤) هو عالم اللغة والنحو الكبير محمد بن يزيد المبرد وفاته سنة ٢٨٥ هـ. انظر ترجمته في نزهة الألباء تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي (ص: ١٦٤) وغيره.

(٥) الرّوم: هنا هم الأنزاك.

المتكلِّمين الخطباء، حتى صَبَغ حَظِّي في بحر لياليه الدُّهما، وجار في معاملتي لمّا عاداني ظَنّاً وَوَهْما[1]:

إلاَمَ يـا دَهـرُ وحـتـى مـتـى ... تـشـقـى بـأيـامِـك أيّـامِـيَـه
تُـحـقِّـق الآمـال مـسـتـعـطـفـاً ... وتـوقـع الـنـقـص بـآمـالـيـه
وهـكـذا تـفـعـل فـي كـل ذي ... فـضـيـلـةٍ أوهـمّـةٍ عـالـيَـه
فـإن تـكـن تـحـسـبـني مـنـهـمُ ... فـهـي لـعـمـريَ ظِـنّـة واهـيـه

وكيف أنكر من الزَّمان طوارقه، ولا أشِيم في آفاق حوادثه بوارقه، وقد جفاني حتى أقاربي، وقلت في حقهم: دبت إليَّ عقاربي، فإذا هم بحماتهم قد كدروا مشاربي، وحالوا بيني وبين ما أرجوه من نيل مَآربي، فهم عليّ يد، وما لهم في الإفضال عليّ يد:

إذا جـفـاك الأهـلُ مـعْ رَحْـمِـهِـم ... فـمـا جَـفَـا الـدهـر بـمـسـتـنـكـرِ

على أني وإن لم يساعفني الزَّمان بما أريد، لست بحمد الله من رجال قصعةٍ وثريد، أقنع بالدُّون وأكتفي، وارِدُ الوَشَلَ فأشتفي، إنّما أنا أحوم حول أمرٍ مًّا، وأهِمّ بما لا يستطاع هَمّا، وأملأ صَدْري في اكتساب العُلا غَمًّا وَهمًّا، أطِيل في الأطلال النّدا، فلا يجيبني مجيبٌ حتى الصَّدَى، والدَّهر المانع، أكذب من صانع[2]، يَعِد فلا ينجز وغدًا، ويلمعُ خُلّب بارقه، فلا يعقب رَغْدا:

أَلاَ لـيـت شـعـري يـا ربـاب مـتـى أرى ... لـنـا مـنـك نُـجْـحـاً أو شـفـاء فـأشـتـفـي

وما زلتُ أنْتقي وأنتقد، واشتعل من الهِمَّة ناراً أو اتّقِد، وأبحث عمَّن بقي من فُضَالة الفُضَلاء، وزُمرة النجباء، وعِصَابة النُّبلاء، سِوَى من أعرفهم من أهل

---

(١) كتب في (ش) وهو أحد الأدباء يقول: «في هذه الفقر تبجح واستعظام للنفس يمجه السمع السليم».

(٢) في الأمثال: أكذب من صنع، قال الزمخشري: ما زال الصناع مشتهرين بالكذب والمواعيد الباطلة والتسويف بما يستصنعونه إلى غد وبعد غد. انظر: (المستقصى: ١/ ٢٩٢).

قُطْري، وغيرهم ممن لا ينصفهم بوصفه المُطْري، ممن تاه بهم زماني، إذ قلَّدوا بعقدهم الجماني، وحَسُنَت بهم أوقاتي، وتَمَّ من الأنس بهم وأنا الكليم ميقاتي[١]، وفَخْر بهم عصري، وَخَفّ بذكرهم من أثقال الزّمن إصري:

وسامحت دَهْراً قد جنى إذ أتى بهم ... مقَدمةً للعذر يلتمس العُذْرا

مِن علماء رفع منارُهم، وظهرت على علم الاشتهار نارهم، سجد لهم البدر في الوجود، وإذا سيما الكلف في وجهه من أثر السجّود، من كل من نَجُب بلا استبضاع[٢]، ونشأ في مهده بلا استرضاع:

شخصٌ بدا لذوي النَّواظر غُرَّةً ... زهراء زِين بها الزمان الأدهمُ

وهم مع ذلك أدباء[٣] تَستْعير منهم البدُور الكمال، وتلتمس الخرد الحسان من بنات أفكارهم الجمال، قد طرَّزوا أردية العلوم بالآداب وفوّفوها[٤]، وجملوا غادة معارفهم بالقروط اللَّطيفة من الفصاحة وَشنَّفوها، من كل أديب إذا زَوّج قلمه بدواته، تولَّدت بينهما كواعب كلمات تأخذ اللُّبَّ بأدواته[٥]، يقظ ذي المعيَّة، ملازم للفضائِل كما لازم المفعول معه واو المعية:

حتَّى لَو أن اللَّيالي صُوِّرت لغدت ... أفعاله الغُرّ في آذانها شُنُفا

كلماته في سماء القراطيس توائم النجوم، ونفثاته خلال سحائب المداد قطرات الغيوم، شاعِرٌ لا يطير مطاره ابن عُقَاب، وحصن بلاغةٍ لا يقطع الصَّاعد ماله من عِقَاب، طالما اشتقتُ إلى شعره، وتحليتُ من بحر عَروضه[٦] بدُرّه[٧]،

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾ [سورة الأعراف الآية: ١٤٢] وانظر كلام المفسرين حولها.

(٢) في (ش) استبطاء وفي (ز) استبطاع والإصلاح من (ب).

(٣) ساقط من (ش).

(٤) في (ب) و(ش) وفوهوها.

(٥) ساقط من (ز).

(٦) ساقط من (ز).

(٧) في (ش) و(ز) دوره.

ونصبت لغزال غَزَله شِبَاك الخَطّ، ففزت من اصطياده بما لم يفز به الغير قط.

جمعتُ من أدبهم ما لم يُجْمع، وأسمعت من نفثاتهم ما لم يُسمع، ورصفتُ منها عقداً هو بعقد اللآلىء ساخر، وقلت مقالة من تَقَّدم: كم ترك الأول للآخر، نفائس أرخص الدَّهر أثمانها، ودلائل فضلٍ بالغ في طمسها فاعتمد كِتمانها، لئلاً يظهر فضل لصاحبها، وجار أهداب أرديتها وساحبها، استدركتها من أيدي الضِّياع، وحمَّلْتُ علمها على عاتِق الشَّياع[1]، وأخرجت كنوزها من الركاز[2] الخافية، وعمرت قصُوَرها وقد كانت طُلُولاً عافية، وأبقيت ذكرَ من قالها بعد مماته فكأنه لم يفارق أيام عافيَة، وعلمت أنَّ لكل زَمان حسنة تذهب بجنبها مَسَاوِيه، وأن لكل عصرٍ جمالاً ما البدر مع كماله مساويه، فَمَا خَلاَ صَدَفٌ من دُرّ، ولا تعَطَّل عصرٌ من وجود كريم فيه حُرّ، نعم لكل روضٍ ثمر ولكل ليلٍ سمر، ولكل شهرٍ[3] قمر، ولكل إنسان خطاب وحوار، ولكل جيدٍ قلادة، ولكل معصم سوار:

ولكل قمريٍّ على غصن النقا سجع يردده ولَحن يُطرِبُ

ولا شك ولا ريب، أنَّ تأخّر العصر غير عيب، فما فَضُل ناقِص بقدمِ عهده، ولا انتُقِص فاضِلٌ لحِداثته ولو كان في مهده، إنما يوصف كل منهما بما هو له من الأوصاف، ويعطى حقه بلا زيادة ولا نقصٍ إن كان هناك إنصاف، فالفاضل وإن تأخَّر دهره، فقد جَاء بالنَّشر الطيّب زَهره، ورُبما غلبَ اللاحق السابق، وربما فاق المسكُ العنبرَ بنشره العابق، والجنَّةُ في الأخرى، وهي غاية مَا اتخذه العبدُ ذُخرا، وشراب السُّكَّر آخره أحلاه، كما أن بيع النفيس آخره أغلاه، والطُّرز على أطراف الأكمام، والسَّحَر والأصيل في آخر الليالي والأيَّام، والسِّنان في طرف العامل[4]، والخاتَم في المنتهى من الأنامل، والراح التي بها يطاف، عصرُها متأخِرٌ عن جَني

(١) في (ب) و(ش) الشاع.

(٢) الركاز: الكنز المدفون في الأرض.

(٣) في (ب) سهر بالمهملة.

(٤) الرمح.

كروم القِطاف، والعنبر الأشهب إنما يؤخذ من شاطىء البحر، ولولاَ طَرفَا السِّمْط ما ثبتت القلائِد في النَّحر، وعلى آخر الكلمة يظهر إعرابُها، وبآخِر الغِزلان يتضح تفضيلُها إذَا عُدَّت أسرابُها، وبمنتهى السباق يَتبيَّن جوادُ الميدان، وكم ازداد الثَّمر طيباً بتأخُر اقتطافه من الأغصَان، وآخر القوم في الهزيمة أثبتهم جناناً، وأقطعهم عند الضراب سِيفاً وأطعنهم سناناً، وقَد روي[1] أن الأطراف مقعد السَّادة ومنزل الأشراف، ولذا قيل لبعضهم: من أين يُؤخذ في الذكر، أن منازلَ الأشراف في الأطراف فهي الحقيقة بالذكر؟ فقال من قول الله سبحانه: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾[2]، لأنه كان من أشراف قومه الذين طابوا أصلا[3] وطالوا فرعاً، فمن المعلوم أنه ليس بضائر لمدامة العصر [وقد تأخر عن تدلي العناقيد منها العصر[4]] ولا يعد في الدُّر من المعائب، إذا تأخّر عن خروجه من الصَّدف وضعه على الترائب:

رُبّ عصريٍّ أخير جاء في ... آخر الدهر بما فات الأول

وسنان الطَّعن لا ينقصه ... كونه يوضع أَطراف الأسل

فسأشمّر على العادة، وأحوز بالثناء على أهل عصري قِسَم السعادة، أذكرهم في هذا النَّمُوذَج، وأطرّز بأشعارهم حواشي هذا الدِّيباج الذي سينسج، وأهيم بمدحهم فيه هيام صَبّ، وأحرز آدابهم فيه كما أحرزوا السبق في الميدان فأقلامهم له قَصَبْ:

وما عَبَّر الإنسانُ عن فضل نفسِهِ ... بمثل اعتراف الفضل في كل فاضِلِ

ومن انتصر لأهل زمانه، ورفع من مكانهم وفي الحقيقة رفع من مكانه، عُدَّ

---

(١) أي عند أهل اللغة. قال في اللسان: الأطراف بمعنى الأشراف.

(٢) من سورة يس (٢٠).

(٣) ساقط من (ز).

(٤) ساقط من (ز).

مِن الفُتُوَّةِ بأشمخ محل، وسما إلى منزلةٍ يخدمه بها العبد الأسود وهو زحل[1]، وحُمد في المحافِل، وسارت بطيب ذكره القوافِل، وسُمّي إنساناً وليس في كَبَد[2]، وأثنت عليه القرون بلسان الأبد:

وفاضت له في الخافقين محامدٌ   تطيب الرياض الوارفات لِطيبها

فسأترجم لحيٍّ منهم دَبَّ، واشتغل في حياته بكسب الأدب، فوجوده ألبس خناصر الليالي خواتم الزَّبَرجد، وخلع على الأيام بروداً طُرّزت بالعسجد، فهو ذو أدبٍ مطربٍ، وصيتٍ لَحِقَ في طيرانِه بعنقاءِ مُغَرِب[3]:

تَعِزّ به الأرض البسيطة إذ مشى   عليها ويزداد الوجود به بسطا
ويبتسم الروض الوريف بزهره   وينشر بالأوراق عن فَرِجِهِ مِرطا

ومَيِّتٍ دَرَج، وعن منازل أُنسِه قد خَرَج، رماه الدهرُ بالكلال، وصاده لمَّا نصب له شباك الدَّراري وفَخّ الهلاك، وسلّمه إلى يد الحِمَام، بعد أن قطف زَهرته من الكِمام، فمضَى مضيّ أمس، وغربت شمسُه في بحر الرَّمس، أقفرت منه معاهد الأنس وما خليت من ذكر محامده التي لم تُنس، حَلّ منزِلاً من البلى، وأضحى لحجابِ الثَّرَى دونه مسبلاً، فهو لصدفِ اللحد دُرَّة، ولأدهم الظُّلمات في الأطباق غُرّة، كأنه سيف في الغِمْد تَعذَّر خروجه، أو فِص نفيسٌ في حُقٍّ والقُطْن دروجُه:

إن غاب في الأرض فالدنيا قد امتلأت   من فضله الجمّ ما قد طاب منتشقَا
الأفق ضاق به فضلاً فمن عجب   إذ ضمه كفن بالخيط قد رَتَقا
ما ضَمَّه اللحد إلاَّ خلته صدَفاً   على النفائس من درٍ قد انطبقا
وأصبحت فلقاً أنوار غرّته   تحت التراب وأما جسمه فلقَا

(١) عند أهل الفلك يصور زحل على هيئة عبد أسود، وسمِّي زحل لأنه بعد في الفضاء.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ سورة البلد.

(٣) عنقاء مغرب: يقال أنها طائر ضخم لا ترى في الدهور، ثم كثر ذلك حتى سُمِّي الداهية عنقاء مغرب، وقيل: سميت عنقاء لأنه كان في عنقها قناص كالطوق. وقال الزجاج: العنقاء طائر لم يره أحد. انظر: (اللسان: ١٢/٢٧٦).

هذا على أن الأدب في هذا الدَّهر قد صَوّح من روضه النَّبات وذبل الزهر، لما جفته الغمامة وصَدَّ عنه النَّهر، ولم يبق لقوسه منزع، ودفن معدنه لما مرت عليه الريح الزَّعزع، خَلَقت مروطُه، وتبدَّدت قروطه، وبيع بالتَّافِه اليسير علْقُ مضنَّتِه، وردم طريقه وأغلِق باب جَنَّتِه، فأفياء ظلاله قالصة، ونفائِسه ضائعة كما ضاع الحلي على خالصة[1]، لا يلتفت إليه الرئيس ولا المرؤوس، فطالما صَعَّروا عنه اللّيتَ[2] ولووا عنه الرُّؤوس، حتى عاملوه بالإعواز، وقد يستسمج العليل سُكَّر الأهواز[3]، ويقطب الشارب بلا سبب، في وجه مدامةٍ طالما ضحكت له بثنايا الحَبَب[4]:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ ... وينكر الفمُ طعم الماء من سقمِ

لكنني مع كساده، وتطويل الزّمن في إعراض وساده[5]، أتعلّل بأن النائم من نومه كم هبَّ، وأن النَّسيم الساكن عن أطيب النَّشر طالما هبَّ، فكم غلا نفيس بعد بوار، واشتاق خصر إلى وشاح ومعصم إلى سوار، وتحلَّى جيد بعد عطل، ورصع روض بعد المَحْل بلؤلؤ قطرٍ وطَلْ، ووَفَى غريم بما في ذمته بعد أن مطل،

---

(١) امرأة ذكرها في: (اللسان: ٢٩/٧) ولم يزد في التعريف بها غير ما ذكر. وفي المحيط: خالصة جارية كانت لهارون الرشيد يضرب بها المثل في ضياع الزينة على صاحبها، لأنها كانت قبيحة المنظر، إلاَّ أن الرشيد كان يحبها فكان يزينها بالحلي الثمينة والملابس الفاخرة، رآها أبو نواس مرة فكتب على الباب:

لقد ضاع شعري على بابكم ... كما ضاع در على خالصة

فابتدر الخبر إليها فأرسلت به إلى الرشيد عقوبة لأبي نواس، فاستحضره الرشيد، ولما حضر مرّ بالباب فمسح دائرة عين ضاع من الشطرين فصارت همزة، ودخل فزجره الرشيد على ذلك. فقال: يا مولاي؛ إنما كتبت: ضاء شعري كما ضاء درّ، وإن شئت فانظر، فنظر الرشيد الباب فعجب. ويُروى عن الفرزدق مع جارية لسليمان بن عبد الملك، والله أعلم بالصَّواب.

(٢) اللّيث: صفحة العنق.

(٣) الأهواز: مدينة في جنوب غرب إيران عاصمتها خوزستان، أصلها الأحواز. قال ياقوت: وسكرها أجود السكر (انظر أحسن التقاسيم ٣١٤، ومعجم البلدان ١/ ٢٨٤، والمنجد ٨٥).

(٤) من البردة للبوصيري.

(٥) كناية عن النوم والتغافل.

وجُرِّد سيف بعد إغماده، وأضرم جمر بعد إخماده، واجتمع شمل بعد تَشْتيت، وَوُصِل حبل بعد تبْتيت، وَرُصِّف عقد بعد تبديد، وبدا لسمطه الواهي تفقّد وتجديد، فقد تحسن من الدّهر طوية ونَية، فتنفق بعد الكساد في سوقه الوَنية[1]، فللبيع ربح وغبن، كما أن للعروض إثباتٌ[2] وخَبْن[3]، والزمان المخبور، تَمْرةٌ وزنبور، وما كل داهية أَبِدَة[4]، ولا كل نَفْسٍ على الاستمرار للهول مكابدة، وقَدْ يزول البؤس، ويبتسم ثغر العبوس:

ما أحسن الأطماع يُرجَى نيلُها والصبُّ بين مُصَدِّقٍ ومُكذِّبِ

فلذا قلتُ لعاثره لعا[5]، ولم أنع الفضل وغيري له نَعى، لاستنشاقي من روح الفَرَج، أعطر شميم وأطيب أرج، وانتظار الفرج عبادة[6]، وطالما مَحَا الصَّبر آثار البلى فأبادَه.

وفي أثناء ذلك الانتظار، اشتغلت من آداب العصريين بسبك النُّضَار[7]، وأذبته بنار الانتقاء في بَوْتَقَة الانتقاد، وأفرغته أقراطاً تعنو لها الغادات وتُقَاد، وأتيت في هذا المصنف عَلى فضلهم منها بدليل، واستغنيت عن الكثير من أشعارهم بالقليل، فقد اختصر في الإيراد غاية الاختصار، واقتصر على المقصود منتهى الاقتصار، وأقنع بإيراد النَّزر، وأكتفي من بحر العروض بالجزر، لا لإخسار[8]،

---

(١) الونية: اللؤلؤة أو العقد من الدر.

(٢) ضرب من المديح.

(٣) الخبن: عند أهل العروض إسقاط الثاني الساكن من الجزء كحذف السين من مستفعلن.

(٤) آبدة: داهية.

(٥) لعا: دعاء للعاثر بأن ينتعش، ومعناه سلمت.

(٦) إشارة إلى قوله ﷺ: «انتظار الفرج عبادة» حديث أخرجه الترمذي من حديث حماد بن واقد، أسنده إلى ابن مسعود مرفوعاً، وقال البيهقي: تفرّد به جماعة وليس بالقوي، وحسّن ابنُ حجر إسناده، وفي الشهاب (٢١/ ٦٢) عن ابن عمر مرفوعاً: «انتظار الفرج بالصَّبر عبادة».

(٧) الذهب والفضة.

(٨) في (ز) اختصار.

وتطفيف، وإنما هو لتلطيف وتخفيف، أو لكون أمّ طبع الناظم نزور، ونسيمه عليلة نزورها فلا نثقل إذ نزور، والشّعر على الفضل عنوان، فسواء منه البيت المفرد والدّيوان، وفي التمثال قنوع اللّبيب، وفي العنوان ما يغني الأديب، والزهرة تدل على الروض النّضِير، والنهلة الباردة تشهد بعذوبة الغدير، واللؤلؤة تخبر عن العقد المرصوف، واللَّمعة من الوصف تنبىء عن كمال المَوْصوف، وإذا عرفت الإجادة، فدع عنك سيف التطويل ونجاده، وبذلك رقّ هذا الكتاب، فكأنَّه بيني وبين الزَّمان عتاب، دار[١] به رسولُ النَّسيم، وطار من كافور رقه ومسك مداده بأعطر شميم، وجعلته كما ترى أقساماً، ونَحتَّ صَخْره فإذا هو أغلظ ما نحت أقسى ما[٢]، وختمته بنفحةٍ من نفحات الشام، ووضعتها مسك ختام لتلك الأقسام وَسَمَّيتُهُ:

(طيْبُ السَّمَر في أوقَاتِ السَّحَرِ)

فإن لطف عند من له ذوق، وطاب عند من استمسك بذيل الشوق، فنسيمٌ[٣] لطيف الهَبُوب، وسَمَرٌ حديثه شهي محبوب، لاشتماله على ذكر أناسٍ يهيم السَّامع بصفاتهم فإذا هي غزال كِناس[٤]، وإن لم يستلطف، واستسمجه من ذاق من أوراق ثمرها الذي يقطف، فَبَديهةُ من صَدِيت مِرْآة جَنَانِه، وعادته لما عاداهُ الدَّهر أطرافُ بنانه، وجهد كثيب عُشبه قَفٌ[٥]، وجواده عن السّباق قد وقف، غُراب شَبَابه نتف الجناح، وقُمْرِيُه[٦] بعد تغريده على القضبان ناح، أبلَت الأيام ردنه القشيب، ودارت طاحونة[٧] اللَّيالي فلصق بعارضِه غبار المشيب، بعد أن فقد اللِّدات

---

(١) في؛(ش) و(ب) بدر.

(٢) في (ش) و(ب) وأقساماً بزيادة ألف.

(٣) ساقط من (ز).

(٤) الكناس جمع أكنسة، وكنس: بيت الظبي.

(٥) وهو ثمر الآس.

(٦) القمري: ضرب من الحمام حسن الصوت.

(٧) ساقط من (ز).

والأتراب، وكان لا يقنع منهم بالوصل حتى قنع بذكرهم في وصل كتاب، لما تبدد عقدهم وانتثر، وفُقِدت من شخوصهم العين، فرضي من آدابهم بالأثر:

وهكذا من فاته مطلبٌ   يقنع من بعدِ بما دونه

فأنا غريب، بعيد من هذا العالم قريب، وما الغربة فراق الأهل، ولا البُعد في قطع الحزن والسهل، وإنما الغربة فقدان النظير والشَّبيه، والبعد التنائي في الرتبة والمقام النبيه، وهذا كما قال بعض الحكماء في كلام تَنْسجع وُرُق الحكمة على فَنَنه: الغريب من فقد إخوانه ونظراءه وإن كان في وطَنِه، وقال الشهاب الخفاجي[١] في فِقَره التي هي دراري الدياجي: وأنا ثمة غريب الوجه واليد واللّسان، وليست الغربَة فقد الأهل بل فقد الأحبة والإخوان، وقال: ليس الغريب من تناءت دياره بل من فُقّد من الكرام نظراؤه وأنصاره[٢]، وكما قال البستي أبو الفتح[٣]، لا برح أهلاً للثناء والمدح:

وما غربة الإنسان في البعد والنوى   ولكنها والله في عدم الشَّكْلِ
وإنّي غريب بين بُستٍ[٤] وأهلها   وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي

وقال أبو عمرو الشجَري رحمه الله تعالى:

وليس اغترابي في سُجُستَان أنني   عدمت بها الإخوان والعيش والأهلا

---

(١) هو شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي المصري ولد سنة (٩٧٧ هـ) وبرع في علوم البلاغة والأدب، وكانت له المؤلفات السائرة، توفي سنة (١٠٩٦ هـ) انظر: ترجمته في (خلاصة الأثر ١/ ٢٣١، وسلافة العصر ٤٢٠، ومقدمة الريحانة).

(٢) انظر مقامة الغربة للمذكور في (ريحانة الألباء ٢/ ٣٧١).

(٣) هو أبو الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي، شاعر مجيد، له ديوان شعر مطبوع، وهو صاحب القصيدة:

زيادة المرء في دنياه نقصان

توفي سنة (٤٠٠ هـ). انظر: (الوفيات ١/ ٣٥٦، والأعلام ٤/ ٣٢٦).

(٤) بست: مدينة قديمة في أفغانستان على ملتقى الطريق، وفي ياقوت (١/ ٤١٥): مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، وأظنها من أعمال كابُل.

ولـكـنـه مـا لـي بـهـا مـن مُـشـاكِـلٍ وإن الغريب الفرد من عَدم الشكلا[1]

وقال السيد جمال الدين محمد بن عبد الله بن شرف[2] الدين رحمه الله تعالى[3]:

لـعـمـرك مـا غـربـتـي فـي الـوطـن لـفـقـد الـصـديـق وفـقـد الـسـكَـن

ولـكـن شـمـائِـلـنـا مـا اسـتـوت وهـل يـسـتـوي بـقـبـيـحٍ حـسـن[4]؟!

نعم أيها النَّاظر في كتابِي هذَا، أنا متُخذ فضل تجاوزك عن سقطاته معاذاً، فإن غضضت طرفك فيه عن العيب، ولم تشق بيد الانتقاد منه الجيب، فسجية من سَتَر العوَار، وأطفأ بثلج حلمه متضرّم الأوار:

وطـبـع كـريـم بَـدت عـورة لـعـيـنـيـه فـاحـتـال فـي سَـتْـرِهـا

وأنا أعلم أن ما كل عينٍ ذات كحل، كلاً والله ولا كل صوت فيه صحل[5] ولا كل ثغر ذو شنب[6]، ولا كل ما فُضّ عند الختام ابنة العنب، وما كل مُحبًّ مشوق، ولا كل قدٌ ممشوق، ولا كل دقيقٍ خصر، ولا كل معمور قصر، ولا كل طالع قمر، ولا كل ندمة سَمَر، ولا كل أحمر ورد وشقيق، ولا كُلّ وادٍ نعمان والعقيق، وما كلّ طير له سجع، ولا كل سماءٍ ذات رجع:

ولـو أنَّ كـل حـصـاةٍ تـزيـن لـمـا جـعـل الـفـضـل لـلـجـوهـرِ

اللهم كما أنعمت بتيسير الابتدا، وأنطقت طَيْره على قُضب الأقلام فَشَدَا، أنعم تفضُلاً بِبلاغ الختام، واجعل هذا الهلال في سماءِ القرطاس أي تام، وأعن على قطع هذا البحر بالسَّبح. وعاملنا عن زلأت اللُسان بالصَّفْح، واصرف عنا

---

(١) انظرهما في (خلاصة الأثر ٢/ ٢٤، وسلافة العاصر ٢٥، ونفحة الريحانة ٤/ ٣٢٨).

(٢) هو أديب اليمن الكبير محمد بن عبد الله شرف الدين، صاحب النظم الرائق والشعر الحميني، وفاته سنة (١٠١٦ هـ).

(٣) ديوانه (١٩١) ط مكتبة ذمار الوطنية.

(٤) صحل صوته صحلاً: بَحّ وخشن.

(٥) شدة بياض الأسنان.

موجبات السَّخط وسوء ما جرى به القلم وقد خط، أنت مولَى الأمّة، والأولى للعبد المرقوق بالرَّحمة، فإنك أوصيتَ بالضعيفين[1] ونحن أحدهما، لا نخرج عنهما ولا يفوتنا عدهما، لكَ المنة، متعالياً عن الضِنّة.

(١) الضعيفان: هما اليتيم والأرملة.

القسم الأوَّل

في إيْرَادِ مَحَاسِن كَوْكَبَان المنيف، وذكرِ مَن بَرَز مِن قُطْرِه الرَّفيعِ الشَّرِيف

لما كان حصن كوكبان(١) الذي رأسه شمخ، وقدمه الثَّابت تحت الأرض السابعة قد رسخ، وطني الذي به أتطاول وهو بي يفتخر، وروضي الجاري نهره لخدمتي فهو على رأسه يخر، إذ استوطنت جِنَانَه، فهو لسيفي قراب ولسهمي كنَانةَ، تعيَّن علي أن أهزّ في مدحهِ من الأقلام القُضُب، وأن أقدم ذكر أهله هنا تقديم بسم الله في الكتب، فحُبُّ الوطن من الإيمان(٢)، وحسن الثناء عليه مما يشترى بأوفر الأثمان، فكم هزتني الأريحية لسكونه، وأشجاني الفراق حتى لقدود غصونِه، هذا آدم عليه السَّلام فارق الجنة، وترك ما تَفضَّل الله به عليه من عظم المنة، وخرج مزعجاً عنها، ورغب في الرجوع إلى الأرض لما كانت طينته منها، فلم لا أحب أرضاً طينتي من تربها، وغرال عيشي(٣) الرَّغيد من شُربها، غُرِس في

---

(١) كوكبان: حصن ومعقل شهير، يطلّ من الشمال الشرقي على مدينة شبام الأثرية، ويرتفع عن سطح البحر بنحو (٣٠٠٠) متر، وهو آهل بالسكان، وبه آثار قديمة. قيل: سُمِّي كوكبان لأنه كان به قصران مطرّزان بالأحجار الكريمة الثمينة والنقوش الجميلة، وكان لهما بريق، وسمّي كل منهما كوكب، فقيل كوكبان. بينما يرى الهمداني أنه سُمِّي باسم كوكبان بن ذي سفال بن أقيان بن زرعة. وقد اتخذ المطهر بن شرف الدين كوكبان عاصمة له بعد أن عدم مقره في وادي ظهر، وذلك في القرن التاسع. كما أن كوكبان كما يقول الدكتور حسين بن عبد الله العمري مركز آل عبد القادر من أحفاد الإمام شرف الدين. انظر: (معجم البلدان والقبائل اليمنية لإبراهيم بن أحمد المقحفي ص ٥٤٣).

(٢) حديث: «حب الوطن من الإيمان» قال الصَّغاني: موضوع، وقال السخاوي: لم أقف عليه. انظر: (تمييز الطيب ٦٨ وكشف الخفا ١/ ٤١٣).

(٣) (ز) عيشتي. و«غرال العيش»: خصبه ومُتَّسعه.

منابتها غصني وعَودي، وأُنجزت من مأرِب الصِّبَا بها وُعُوذي، وانهملت بماء اللّذات بوارقي ورُعودي، أول أرضٍ لصق بجسمي ترابُها، وسبقت بي في ميدانها من دُهمِ الشَّبَاب عِرابُها[١]، إلاّ أنها بَرَّت بي صغيراً، وعقَّتني مع عدم استحقاقي العُقوق كبيراً، لكن رُبَّ حَسنَةٍ لم تُنس، ورُبَّ وحشةٍ لم تَمح ما سلف من الأنس، والحرّ لأدنَى مِنّةٍ شكور، والحليم لأسباب الجفاء غير ذكور، كما قلتُ:

قاطعيني يا عزُّ إنْ عَزَّ وَصْلٌ ... أنتِ عندي في الغيد بيت القصيدِ
طوّلي إن رغبتِ في الهجر والبعد ... بلا عطفةٍ عليَّ وزيدي
أنا راض بما رضيت فوصلي ... يوم قطعي والقرب في تَبْعيد
إن تَفْري[٢] فقد سَعَيْتِ زماناً ... لمقامي بالنجُح سعي البريدِ
[منك مَرَّت لنا ليالي أنسٍ ... فافعلي بعدها ما تُريدي][٣]
قَلِّدِيني بالجزع إن شئتِ إنّي ... غير ناسٍ لعقد دُرٍّ نَضيدِ
لست أنسى فاللؤلؤ الرَطب إن زا ... ل فذا السّمط إثره في جيدي[٤]
هي هذي سجيّة[٥] الفرد في الأ ... حرار تمتاز عن سجايا العبيدِ

نعم وهذا الحصن الذي هو كوكبان، جبلٌ يخفق قلبُ الرياح في شعابِه، خَفْقَ جَنَان جبان، يَرُوع نسر السَّماء في وكرهِ، خوفاً من أن يصطاده من رَقا على ظهره، شامخٌ به شمم، له من منازل الفلك أَمَم، باذخٌ ركين، مكانه في السَّماوات مكين، يسمع به زَجَل ملائكتها لقربِه منها، ولا تُسمع أصوات أهل الأرض لبعده عنها، ذو محلٍّ عال، طال فلا تناله الأوعال، أمنع من لَهَاة الأسد، وأعلى من السّنام على سائر الجسد:

---

(١) جياد الخيول.
(٢) تفرّي: تقطعي.
(٣) ساقط من (ش).
(٤) في (ش) الجيد.
(٥) في (ز) تحية.

سامَى السمآءَ فمن تطاول نحوهُ ... للسّمع مسترقاً رماه بكوكب

لا يتصل بأكنافه نسرٌ ولا عُقاب، ولا يَرَى الطالع في عِقَابِه إلاَ جنَّةً وهل تَسْمَعُ بِجَنَّةٍ في عِقَاب، حَسُن فلو بَرَزَ خالاً في الوجنات لم يَشُنْهَا قُبح، وطال حتى لو كان ليلاً لم يسفر له صبح، قد شمَخَ أنفاً، ولبس من الهلال سِوَاراً ومن الثُريَّا شنفَا، نَشُر على عطفيه رداء الغيم الذي يروق، وقد طُرِّزت حواشيه بذهب البروق، له من قوسِ الغمام شارب، ومن خمره حُمْرة الشفق مُدام شارب، كأنه بلا نُكْرِ ولا جحود، دعامة لسقف السماء أو هو لخيمتها الزّرقاء عمود، أو كأنه كرسي ساج[١] أو سُلَّم رقى به البُراق ليلة المعراج، أو كأنه غادة لها من الغمام مروط، ولها من الزُهر المنيرة شنوف وقُرُوط، يزاحم مناكبه السماء، كأنه المراد بقول ابن نوح: ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ [هود الآية٤٣] تأزّر بالسَّحاب وارتدى، وأوقد مشاعل النجوم وبها اهتدَى، كأنها على رأسه في الظُّلم، جواهرُ في تاج أو نارٌ على عَلَم، إذا تَحدَّرت السيول من رأسه الذي علا، حسبتها سلُوس لُؤلؤ[٢] قد أذِيلت على الطُّلا[٣]:

رسا أصله تحت الثرى وسما بِه ... إلى النجم فرع لا ينال طويلُ

وهو فلك أقمارِ لم تتكلَّف، ومنزل نجوم من الكلمات التي تتألف، قد بَرَزَ منه ولله المنَّة، أفاضل أدركوا الكمال وهم في بطون أمهاتهم أجِنَّة، نيطت بهم المكارم، قبل أن تناط بهم التَّمائم، فما ظنك بعد وضع العمائم؟ من كل من غُذي بلُبَان العُلَى في مهده، وتسنَّم غوارب الفضائل قبل أن يركب على نهده[٤] يُحَرِّك من فهمه بَحراً عَجَّاجاً، ويُنْزِل من معصرات أفكاره ماءَ ثجاجاً، فهو صارمٌ لم يحتج إلى صقل، وروضٌ لم يفتقر إلى بَقْل، حلَّى معصمي الدهر من علمه وأدبه

---

(١) نوع من الخشب، وهو الخشب الهندي.

(٢) سلوس لؤلؤ: أي خرز أبيض في القلائد، أو القرط من الحلي.

(٣) اعناق الغيد.

(٤) النهد: الفرس الحسن الجميل.

بسوارين [فما ظفر حاسده فيما أدركه بسوى رين](١)، له فِكرٌ من كل دقيق أدق، ونقدٌ أنفذ في شواكِلِ المشكل من سهام الحدق، وربيع أدبٍ خَضِل، أوشك من سَلك(٢) تحت دوحه المُذْهَمّ أن يضِلّ، يعود بجنبه نيسان(٣) الشهور تَشْرِينا(٤)، فيقول: هذه رياض آداب بدنانير زَهْرها تَشرِينا، فممن نزل به نزول الشَّمس في الحمل(٥)، وطلع من خلال منازله طلوع بدرٍ قد اكتمل، برز من عرينِه أسدًا، حتى حُمّ ليث الغاب من بروزه حسدًا، وخطر فيه لطيفاً فلذلك نسيم الصّبا اعتلّ، وألقى على فراش الرَّوض عن ذيلٍ بِعَرق الندى قد ابتل، الملاذ الذي أضحى للمتقين إماماً، والأستاذ الذي لم تكن زيارة المعالي له لماما، بل هي ملازمة له على كل حال، ومقبله إليه بوجهٍ جميل وعُنُق حال، شيخ والدنا الذي به تخرَّج، ومفيده الفاتح له أبواب رتاج من العلوم بها قد تفرَّج، وقطف من ثمارها وأزهارها ما حلا وتأرَّج، من قَدَّمته همته، قبل أن تنبت لمّتُه، حتى قُدِّم في هذا التَّصنيف كما يليق، وصُدِّر في مجلس صدوره فهو بالتَّصدير خليق، فهو المُجَلّي في حلبة الزَّمَن، وهو فخر كوكبان على الخصوص وعلى العموم يُمن اليمن.

السَّيّدُ العَلاَّمَة جَمالُ الدِّيْن مُحَّمد بن إبَراهِيْم المُفضَّل(٦)

بحرٌ مائج، وإمام تائِج(٧)، سيف يماني، وعقد جماني، واسع الهجيج(٨)،

---

(١) ساقط من (ز).

(٢) في (ب) سلك.

(٣) نيسان: اسم شهر بين آذار وأيار أيامه (٣٠) يوماً، واللفظة سريانية.

(٤) تشرين: هما أول وثانٍ، الأول أيامه (٣١) والثاني (٣٠) يأتيان بعد أيلول.

(٥) الحمل: برج في السماء من البروج الربيعية.

(٦) محمد بن إبراهيم بن المفضل ولد سنة (١٠٢٢) وأخذ عن أغلب علماء عصره، وبرع في جميع العلوم. من مؤلفاته: «نظم الورقات» و«السلوك الذهبية في خلاصة السّيرة المتوكلية» وغيرهما. توفي سنة (١٠٨٥) انظر ترجمته في (مطلع البدور وخلاصة الأثر: ٣/ ٣١٨ والبدر الطالع: ٢/ ٩٥).

(٧) يقال إمام تائج: أي صاحب تاج.

(٨) الوادي العميق.

متضوّع الأريج، ما اقتصر على ضربٍ ولا على فنّ، بل له في كل العلوم تحقيق مات به الجهل فله من أوراقه كفن، أما في التّفسير والتّأويل، فهو ذو ملابس لا تحتاج إلى تهويل، ميَّز المحكم فيه من المتشابه، ومضى في أوضح سبيل من إبَانَة المنطوق والمفهوم ومشى به، له في الكشف عن الناسخ والمنسوخ، قدم لا تزول لأنها ذات رسوخ، لا يُجَاريه جارُ الله[1] وكيف يسابق الصَّحيح ذو عرج، فإذا كفَّ عن مسابقته عذره ذو الحجى وقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾[2]، وعلى الجملة فألسنة الأقلام تخرس عند وصفِه، وأسماط السطور تتبتَّك عند نظم درّه ورَصْفه، فمن أبان علومَه، فما أبان من العجز إلاّ كلومه، وكان ذا خلْقةٍ لا تُشابه البشر، وَزيّ شاع جلاله في النّاس وانتشر، فما هو من بَشَر بل من أملاك، سيَما إذا للمسائل الشاردة أملاك، فإذا نظرته غانية كريم[3]، قالت ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[4]، حتى أخبرني حيَّ[5] والدي عن والده اللّذين نما في روضهما غَرْسي، أنه كان إذا رأى صاحب التَّرجمة قال: ما هذا إلاّ كما قال الله لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾[6]، وقد طرَّز أردان علمه، بعسجد أَناتِه وحلمه، فكلامه لُبَاب، وسحابه الثقيل غير ضَباب، فهو موفور الوقار والسَّمت، قليل الكلام حتى علَّم أحجال الغانيات الصّمت، لا يتبجَّح بعلمه في المحافَل، ولا يتقلقل إذا تلاقت يوم الجدال لا يوم الجلاد الجحافل، فلو أعطى البحر رجاحته لما اضطرب، أو رُزق البدر سكونه لما غرب، أو النجوم لما سارت في الأفلاك، أو الدُّر لما انتقل من الأصداف إلى الأسلاك، وهو مع ذلك ألطف من صَبَا، وأرق طبعاً من كل من صبا، تتلعَّب به اللَّطافة تلعَب النّسيم بالغصون، وتقلّبه الرقة كما

---

(١) يعني جار الله الزمخشري المتوفي سنة (٥٣٨ هـ) وكان به عرج.

(٢) الآية: ٦١ سورة النور.

(٣) أي ذات وجه حسن.

(٤) الآية: ٣١ سورة يوسف.

(٥) لفظة حي عند أهل اليمن بمعنى مقام.

(٦) الآية: ٤١ سورة طه.

قلَّبت أيدي الخُرّدِ الحسان درّها المصون، يداعب ويَهزل، وينحط عن جبل وَقارِه إلى وهط المجون وينزل، وروض ذاتِه فَيْنان، يتحدَّر من العلم والأدب فيه عينان، والليالي السود له جواري، قد تحلَّت لدخولها مجلسه بدرر الدَّراري، وله خطّ لا تلحظ المُقل بعده إلى ابن مُقلة[١]، إذا مدَّ سلاسله على البياض فهي لعقائل الحسن عقلة، لا يَرَى العذار المنمنم من كُفَاتِه، فهو لا يبرح يطعن في محاسنه سُمِر ألفاتِه، عَرفتُه وأنا صغير، ورأيتُ منه بدراً يعير البدر أنواره ويغير، وإلى الآن لم يغب عني شيءٌ من معارفَه، ولم يخلقْ لديّ بمرور الأيّام ما تجدد من مطارفه، ومن تأليفه «السلوك الذّهبية في السيرة المتوكلية اليحيويّة»[٢]، وله: «اللآلى المنتسقات في نظم الورقات»[٣]، ولما دَنت عن هذه الدار نقلتُه، وسهرت من الأوجاع الملازمة له مقلته، خلع ثوب العافية وألقى أرديتها الضافية، ولبس ثوب مرض، لما انتَهى زمان إفادته وانقرض، إذ أصابه يرقان[٤] فاقع، ألبَسَه من ذَهَبه ردناً اتسع خرقُه على الرَّاقع، وجعل نهَاره المنير أصيلاً، وخضَّب بزعفرانه منه نصِيلاً، تمكَّن منه تمكن الصُبغ من الرِّداء، ولاصقه مُلاَصقةً آلَتْ به إلى الرَّداء، فإذا نجوم ألفاظِهِ بنات نعش، ومداد دوِّيه ثياب حداد بعد أن كان في معاصم الأوراق بمنزلة النَّقش، رماه الحِمام فأصاب الغرض، ومات فدفن جوهره[٥] الفرد

---

(١) ابن مقلة: هو محمد بن علي، وزير من الشعراء الأدباء، عُرِف بجودة خطه، توفي سنة (٣٢٨) انظر: (وفيات الأعيان: ٢/ ٦١).

(٢) هو في سيرة جده الإمام يحيى شرف الدين، منه عدة مخطوطات؛ منها مخطوطة في جامع صنعاء الغربية في سنة (١٠٧١) وأخره بمكتبة المتحف البريطاني برقم (٣٧٣١)، وثالثة بمكتبة الأمبروزيانا بإيطاليا برقم (٥١١٢) وغيرها وطبعت أخيراً.

(٣) من الكتب المعروفة، شَرَحَهُ في القرن الثالث عشر العلامة عبد الرحمن بن محمد العمراني في كتاب بعنوان: «سلك اللآلىء المنتسقات» مخطوط بقلم المصنف، في جامع صنعاء، وآخر بعنوان «الجواهر المعتنقات» للعلامة أحمد بن إسماعيل العلفي. انظر كتابنا: «مصادر الفكر الإسلامي، ص ١٨٤ط صيدا».

(٤) اليرقان: مرض معروف يصيب بعض الناس، ويسبب اصفرار الجلد، واللّفظة يونانية.

(٥) الجوهر الفرد عند المتكلمين: هو الجزء الذي لا يقبل الانقسام ولا يتجزأ.

في العرض، أحسن الله من الحور جِوَارِه، وجَنَّبه من مقام جهنم بواره، وجعله بجنة الفردوس ثاوياً، ولرضوانه ورحمته حاوياً.

وشعره يفعل بكل ذي طبع رقيق، ما لا يفعله السُّكران: سكر الريق[١] وسكر الأباريق، طريقته في المطولات طريقة البها زهير[٢]، فما نهره عند غديره العذب إلاّ نُهير، وله في المقطوعات نمط معجب، ونَهج مرقص مطرب، ومن قصائِده المطولة، الموجبة للهيام والوله، قوله:

دعني وشأني فما تجدي الملاماتُ ... وقد بدت لشقيق الخد لا ماتُ

ولا تلم أن جرى دمعي المصون دماً ... وللحاظ بقلب الصَّب رَشقاتُ

هيهات تنفع في ذي لوعةٍ دنفٍ ... يوماً صريحات عذلٍ أو كناياتُ

صبٌ أسير هوى أضحى بمهجتِهِ ... لكل سيفٍ من الأجفان مشقاتُ

رام استتاراً فخانته مدامعه ... وللدّموع على الأهوى علاماتُ

وكيف يكتم والآماق شاهدةٌ ... وللفؤاد جوى تبديه زَفراتُ

سقى الغمام بسفح الغور عهد هوى ... أيّامه الغُرّ أعياد منيراتُ

مضت لنا فيه لذَّات لفرقتها ... لا العيش عيش ولا الأوقات أوقاتُ

على رياضٍ كجنات النَّعيم زَهَتْ ... جادت عليها سحابات مَطِيراتُ

والشرب قد[٣] قلّدوا في كل غانيةٍ ... سموط نظمٍ أجادتها استعاراتُ

والعيش يزهر والأيام مشرقَةٌ ... والدّهر عيد وللأرواح راحاتُ

وللزهور ابتسامات تقابلها ... من الثّغور النّضيدات ابتساماتُ

---

(١) في (ش) الرقيق.

(٢) هو البهاء زهير بن محمد المهلبي العتكي، شاعر كان من الكتاب ولد سنة (٥٨١ هـ) بطريق مكة، ونشأ بقوص، واتّصل بخدمة الصالح أيوب بمصر، له ديوان شعر، وفاته سنة (٦٥٦هـ). انظر: (وفيات الأعيان: ١: ٢١٩٤ والأعلام: ٣: ٥٢).

(٣) ساقط من (ش).

وللغصون استلام في تمايلها ... وللقدود على الألحان رَقْصاتُ
ما كان أسرع ما ولّت على عجلٍ ... كأن أعوامها في الدهر ساعاتُ
مضت فلا القلب عنها يبتغي بدلاً ... وليس تسليه ألحانٌ وقيناتُ
يا من لهجرانهم في القلب نار جوىً ... لا تنطفي وعلى الآماق عَبْراتُ
وأضلع نحلت تُطوى على كبدٍ ... حلت بها من تجافيكم جراحاتُ
متى يفوز بلقياكم أسير هوى ... قَضَى وما قُضيت منكم لباناتُ
طوى بسيطات عتبٍ في الفؤاد لكم ... إلى اللقاء فلا تطوى البسيطاتُ
فربَّما تسمح الدنيا بقربكم ... يوماً فللدهر دولاتٌ ودوراتُ
إن فاز منكم بما يرجوه عن كثبٍ ... نال المرام ووالته السعاداتُ

وله:

قلت إذا أنكر ودي جاحداً ... ناسيّاً ما مرَّ من تلك العهودْ
هذه لامُ عذارٍ قد بدت ... في أسيل الخد أم لام الجحودْ[1]

ومثله قول خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي[2] رحمه الله تعالى:

وشادنٌ زَوْرَته جَنَّةٌ ... وهجره النّيران ذات الوقود
كم في الهوى يجحد وجدي به ... حتى بدا في الخد لام الجحود

وله:

يا غزالاً بسيوف اللحظ من ... جفن عينيه لقلبي أو لمَا
أترى يحظَى المعنَّى مرة ... منك في الدّهر بثغرٍ أو لَمَى
إن يفز منكَ بما أمّلهُ ... وينل حلو التّلاقي أوْ لَمَا

---

(١) لام الجحود: هي التي تأتي بعد كون منفيّ، أي بعد «ما كان» أو «لم يكن» «التوكيده»، ولا تدخل إلاّ على الفعل المضارع فينصب بـ «أن» مضمرة وجوباً بعدها نحو «ما كان جيشنا ليهزم».

(٢) من شعراء عصره المبرزين. سيأتي ذكره.

وهو من قول مجير الدين بن مكانس[١] رحمه الله تعالى في التورية[٢]:

قال خِلّي لحبيبي صِلْ فَتىً | فيك قد أضحى معنًى مغرمَا
قال هل يولم إن واصلته | قلت إن فاز بثغر أو لَمَى[٣]

ومنه قول شهاب الدين أحمد المعروف بقعود[٤]، أحد مَن ذكرهم العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي رحمه الله تعالى في ريحانته[٥]، وفيه القول بالموجب[٦]:

لي حبيبٌ من هجره زاد سكري | وسلوّي هواه أقبح ذنب
جاءني دَاعياً وقال ائت إني | أولم اليوم قُلْت قلْب المحبّ[٧]

وقال صاحب الترجمة رضي الله عنه، ومن خطه نقلتُ:

وجدت في صحبة كتبي غِنًى | عن حال من أن تصفه الود حال
صامتَةٌ لكنها دائماً | تخبر عن ماضٍ وآتٍ وحال

---

(١) هو مجير الدين عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن مكانس، وزير شاعر ولد بمصر سنة (٧٤٥هـ) وأصله من القبط، وولّي نظارة الدولة، ووزر بدمشق، له ديوان شعر توفي سنة (٧٩٤ هـ). (الدرر الكامنة ٢/ ٣٣٠).

(٢) التورية عند أهل البديع: هو أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان أو حقيقة ومجاز، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، ويريد المتكلم المعنى البعيد ويُورِّي عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك. انظر: (خزانة الأدب لابن حجة ٢٣٩).

(٣) البيتان في (ريحانة الألباء ٢: ١٣٤).

(٤) هو أحمد بن أبي بكر، من الأدباء الشعراء، توفي سنة (١٠٠٧ هـ) انظر: (خلاصة الأثر ١: ١٥٩).

(٥) انظر: (ريحانة الألباء ٢/ ١٣٣).

(٦) القول بالموجب: هو أن يخاطب المتكلم مخاطباً بكلام فيعمد المخاطب إلى كلمة مفردة من كلام المتكلم فيبني عليها من لفظه ما يوجب عكس معنى المتكلم. (خزانة الأدب ١١٩).

(٧) البيتان في (الريحانة ٢: ١٣٤ وخلاصة الأثر ١: ١٦٠).

وصِرْت في حضرة أُنسي بها … أحمد منها الجَبْرَ في الاعتزال

وهو من قول القاضي صلاح الدين الصَّفدي[1] رحمه الله تعالى[2]:

وجدت في عشرة صحبي أذىً … لما لزمت البيت في الوقت زال

واعجباً من أَشْعَرِيٍّ[3] غَدَا … يحمد رأي النَّاس في الاعتزال

وقال رُباعيّة:

أفدي رشا كالبدر حسناً وسناً … قد أحرم في هواه جفني وسنا

إن رمت لخده التشاما وجنى … أبدا حور اللحاظ سيفاً وجَنَا

ومن نثره الذي هو نثار، وفِقَره التي يُهَيِّج بها الغرام ويُثَار، وسجعاته التي تُنزه قَدَم منشئها عن العثار، منشور أجاب به مستناباً على أستاذه القاضي الإمام العلامة الحافظ، الذي ما فاه بمثل كلامه المتكلم ولا لفظ اللأفظ، وجيه الإسلام، عبد الرحمن بن محمد الحيمي[4] فارس الأقلام، وصورته:

قدوتنا وأستاذنا وسيدنا، الذي ملأ صيته الآفاق والدُّنا، شمس الدهر وبهجة العصر، والذي قصر الفضل على شخصه الكريم بجميع أدوات القصر، من لا ينكر فضله سوى الأرمد، وجيه الإسلام، وإمام الإعلام عبد الرحمن بن محمد، ذو الفضل الذي رسخ على أثبت أساطين الوفا، ورفع ركنه الشريف على أعلى مقام في الصفا، والذات التي لو لم يكن للزّمن فضل إلاّ السخاء بمثلها لكان حسبه وكفى، واحد الدَّهر الذي ما لشخصه ثاني، ومنشىء بدائع المعاني الذي لا يعلم غيره من كتاب بيانها إلاّ أماني، بليغ أثمرت غصون أقلامه ناضر الزّهَر[5]، وناضر

---

(١) هو الأديب الكبير صلاح الدين، خليل بن أيبك الصفدي، مولده سنة (٦٩٦ هـ) وبرع في علوم الأدب والتاريخ، له مؤلفات كثيرة ووفاته سنة (٧٦٤ هـ) انظر (الدرر الكامنة ٢/٧٦).

(٢) البيتان في) (فض الختام للصَّفدي ٢٤٧) ط الحناوي.

(٣) في طبعة فض الختام السابقة سفري خطا.

(٤) سيأتي في الكتاب.

(٥) في (ب) الزهرة.

بهرت أضواء أفكاره في المشكلات فعاد السُّهى بها كالقمر:

مالك راية البيان محلُّ ... عُنق الدهر بالكلام الثمين

رمت أن القلم يجري في مَيْدان بيانه فعَجز، وشمت القريحة أن تنظم يسيراً من مَدِحه فما استطاعت الكلام من كامِلٍ[١] ولا رَجَز[٢]:

جَلّ عن مذهب المديح فقد كا ... د يكون المديح فيه هجاء

فثنيتُ عنان القلم مقهقراً عن مِنبر هذه الخطابَة. وعدتُ إلى بذل الدعاء الصالح عساه أن يوافق الإجابة، فقلت: اللهم كما جمَّلت بجمال محاسنه العصر، وكملّت بكمال محامده وجه هذا الدَّهر، وجعلته لنا أسعد فخرٍ تناهى به السعد والفخر، أطل لنا وللمسلمين في أيام عمره، وأدم أنسنا بكريم جنَابِه وشريف قدره، وتَمّم لنا الاستفادة من دُرَر علومه الفاخرة، والاستضاءة بأنوار معارفه التي قُصِر عليها شرفُ الدّنيا والآخرة، وزده في المقام الأرفع دَرَجاً، وبوّئه في مقامات خواصِك موطناً لا تَرى فيه أمتاً ولا عوجاً، إنك القريب المجيب، الملبِيّ تفضُّلاً للدَّاعي المنيب، وبعد فإنها وردت معاهدته الشريفة على محبه الصَّب وأسير ودّه الذي لم يَسِرْ إلاَّ وهو متلفتٌ إلى عامر جنابه الكريم بالعين والقلب فأنَست وحشتي، وأنزلتها أعزّ محل من عيني ومهجتي، وحلت بلا عالم تكن قبل حلت، وأذكت نيران شوقي، وحَملتني[٣] من أعباء الوجد المبرّح فوق طوقي:

مولاي رفقاً فما أبقيت لي جلداً ... فإنني أيها الإنسان إنسانُ

ولقد فارقت تلك الحضرة، ورحلت عن ذلك المقام الذي عليه من بهجة المعارف نَضْرة، وثمر الشوق إليها دان، ولسان الحال والمقال ينشدان:

فارقتها لا عن رضىً وهجرتها ... لا عن قِلًى ورحلت لا متخيّراً

(١) من بحور الشعر معروف.

(٢) من بحور الشعر معروف.

(٣) في (ش) وحملني وحملتني.

فاليوم لبُعده مثل السنَة، والعام أيام قربه كالمختطف من السِّنَة:

فالعام مثل اليوم في قربه   واليوم مثل العام في بُعده

والمرجّو من الله أن يمنّ بالجمع المريخ، ويتفضَّل بقرب العَوْد إلى ذلك المقام الذي ثبت فضله بالنَّص الصَّريح، فإنه الذي يقرّب البعيد ويعيد، ويرد الذاهب وهو أهون عليه أن يرد ثوب الجمع وهو جديد، هذا ومملوك وُدِّه النائِب في هذه الخدمة، والمتجاسر على إجابة مولاي وهو يعد هَذَا الإقْدام أعظم وَصْمة، محمد بن إبراهيم يقبل ذلك الكَفّ والقدم، ويبرز الدعاء الصّالح إلى الوجود فيخرجه عن العدم، وقد سمع لنفسه الحقيرة ذكراً حسناً في ذلك الكتاب، وتأمّل ما نفث به في حَقِّه ذلك الخطاب، فازداد شوقه المتدارك، وبكى فرحاً حيث ذكر هنالك، ولولا أني واثق من مولاي بأنه يستر ويصفح الصفح الجميل، وأن أمواه علومه على عثرات مملوكه تسير وتسيل، ما تجاسرت على الإجابة صلفاً، ولا قابلت ذلك الدُر المصون بشيء لا يساوي جزعاً ولا صَدَفاً، فكتبت وقد اضطربت الأنامل وَجَلاً، واصفَّر وجه الطِّرس حياءً وخَجَلاً، فأسبل من فضل سترك عليه، وقابله بكرم برك المعهود لديه، وصلى الله على محمد وآله وصحبه، ومنحنا من خط سيدي بالحظ الوافر من قربه، والسلام.

السَّيّدُ شهَابُ الدِّيْن أحمد بن الحَسن بن أَحْمَد بن حَميد الديْن[(١)]

الدُّرَّة العَضْمَاء، التي لم نَرَ في محاسنها وَصْماً، بحرٌ عميق المغاص، وبر رحب الأكناف والعِرَاص، عالم لبس من العلم جبّة[(٢)]، ووصل حبل العرفان ولَمَّ برتبه[(٣)] لهج بالعلوم والآداب، فعاد مَرْبَعهما به في غاية الخَصْب بعد إجداب، مع

(١) هو أحمد بن الحسن بن أحمد بن حميد الدين بن مطهر بن شرف الدين، من أفاضل الأدباء، توسَّع في ترجمته صاحب مطلع البدور، وبيّض لوفاته. انظر أيضاً: (نفحة الريحانة ٣/ ٣٣١ والبدر الطالع ١/ ٤٥) وفيه وفاته سنة (١٠٨٠ هـ) وفي كتابنا هذا سنة (١٠٧٤ هـ).

(٢) كذا في (ب) و(ش) نسبه وفي (ذ) بته.

(٣) في (ب) و(ش) يرشد.

جمال محيًا، يشير إليه البدر مستلماً بكفّ الثريَّا، تُعْرف فيه نضرة النَّعيم، ويكاد يجرح بمرّ النّسيم، وله يَدٌ في الفِراسَة، أوضحت في ركوب المطهَّمة مِراسَه، يَشكرُ لها أبو الصَّهباء، وتصير الفرسان معها له نَهْبا، فإذا أمسك العنان، وجذبه بأطراف البنان، صَرَّف مركوبه كيف شاء، وإذا هو تحته كالمعربد إذا انتشى، يسوقه سوق الرياح للسّحاب، فيخاله النَّاظر طيراً جناحه الركاب، يكاد أن لا يثور له نقع، ولا يسمع لحافوره على الأرض وَقْع، فكم اشتاقت للركوب لها الضّمر، وفتحت أجفانها البيض وَهزَّت معاطفها السّمر[1]:

كأنهم في ظهور الخيل نبت رُبَى   من شدة الحزم لا من شدة الحُزُم

وأما لطف شمائِله فقد أسقم النَّسيم، وأما درّ كلامه فقد أبكى يتيم الدر حتى قيل في المثل: أبكى من يتيم، فرياض آدابه باقلة، وفصاحته صيرت قُس الكلام باقله، نظمه سيّد يستخدم الزّنجيين المداد والقلم، ويستخدم الروميين القرطاس والدّر إذا انتظم، وله في النثر طريقة وسطى، أنالته من حسن التعبير قسطاً، وقد ألَّف كتاب «ترويح المشوق في تلويح البروق»[2]، ذكر فيه من أهل العصر من ذكر، وأورد من أشعارهم ما يموت لحسده العليل من نسيم البُكر، وأورد من نظم نفسه، دراري تُضيء منها في ظلمات نفسه، إلاَّ أنه لم يُحسنْ فيه طريقة التَّصنيف، ولم يجد في ذلك العقد التَّنْضِيد والتَّرصيْف، وقد طالعته مُتَأمِّلاً، ولبستُ حُلل أوراقه متجمِّلاً، ولما عاداه لفضله ذوو الإحن، وتجرَّع ما تجرع من الغصص والمحن:

حَسَدُوا الفتى إذ لم ينالوا سَعْيَه   فالكل أعداءٌ له وخصومُ[3]

غَالَى بنفسه عرفانُه بقيمتها، لما لم تهطل فوق حديقته غمائم الإنصاف

---

(١) من أبيات بردة البوصيري.

(٢) من أشهر كتب المترجم له، منه عدة مخطوطات منها مخطوط بقلم المؤلف في دار الكتب المصرية (١٣٦ أدب) وأخرى بالمتحف البريطاني (OR٤١٩) ونسخ أخرى.

(٣) من شعر لأبي الأسود الدؤلي.

بديمتها، فلم يطب له بمنهل كوكبان الوُرود، وقد اشتعل من الغيظ عليه بين ضلوع أغصانه جمرُ الوُرود، ونظرته عيون نرجسه شزراً، ولم يقطف من ثمار الآمال إلاَّ نزراً، فَقَوَّضَ منه خيامَه، ونَبَّه من ليل غمومه نيامَه، وخرج خروج السَّهم من الكنانة، وانسلَّ كما انسلت من الصَّدف الجُمَانة، انقضَّ انقضاض البازيّ من القفص، وشَمَّر تَشمير الحازم عند إمكان الفرص، وسَرَى إلى مدينة صنعاء كما سرى الطَّيف، ونزل بها من الإكرام نزول الضَّيْف، وحمد هنالك السُّرى، وحَنَتْ عليه من قطر اليمن أم القُرى:

قــلــقــل ركــابــك فــي الــفَــلا ... ودع الــغــوانــي لــلــقــصــور
فــمــحــالــفــو أوطــانــهــم ... أمــثــال سُــكَّــان الــقــبــورِ
لــولا الــتَّــنــقــل مــا ارتــقــى ... درّ الــبــحــور إلــى الــنُّــحــورِ

واستمر سكونه بصنعاء، إلى أن عاد في حافاتها بعد غِناءِ المسرّة بوفوده ينعى، فمات وما مات إلاَّ العلم والأدب، وبكاه الطَّير على غصونه المائسة وندب، لا زال محفوفاً بالولدان والحور، ولا برحت حَضْباء جَدَثه قلائد أعناق ونحور، وشعره كالشهب في الأفلاك، ونظمه يغبط اللآلىء في الأسلاك، فمن جوهره الفرد، ونفحة حدائقه الجنيّة الورد[1] قوله:

لا عِــوَضٌ عــنــكــمُ ولا بــدلُ ... فــلــيــعــلــم الــحــاسـدون والــعــذلُ
يــا ســاكــنــي الــسَّــفــح مــن رُبــى إضــم ... يــا حــبــذا الــســفــح والــذي نــزلــوا
وحــقّــكــم مــا ســلــوت مــذ ظــعــنــت ... بــكــم مــتــون الــجــيــاد والإبــلُ
وكــم سَــألــت الأطــلال مــن ولــهٍ ... يــا جــيــرتــي هــل يــجــيــبــنــي الــطــلــل
يــا طــلــل الــحــي هــات لــي خــبــراً ... مــا صــنــع الــنــازحــون مــا فــعــلــوا
حــاشــاك يــا ربــع لا بــلــيــت وإن ... أبــلــيــتــنــي بــادّكــار مــن رحــلــوا
لا زال مــن أدمــع الــغــمــام عــلــى ... مَــرْبــعــك الــرِّحــب عــارض هــطــلُ

---

(١) في (ش) الوردية وفي (ز) الفرد.

يـا غـائـبـاً هـان بـعـد فـرقـتـه ... كـل عـظـيـم وحـادثٍ جـلـلُ
لا ولـيـالٍ قـطـعـتـهـا غُـرراً ... قـارَنَـهـا الـمـشـتـريّ لا زحـلُ
وأنـت كـالـشـمْـس فـي الـدِّيـار لـنـا ... تُـشـرق مـن نـور وجـهـك الـكِـلَـلُ
لـم أنـسَ يـوم الـفـراق حـيـن دنـا الـ ... ـتـوديـعُ والـخـدُّ زانـه الـخـجـلُ
واضـطـرب الـخـافـقـان قـلـبـي والـ ... ـقـرط فـذا حـائِـر وذا وجِـلُ
وحـقّ مـن تـسـجـد الـجـبـاه لـه ... حِـلـفـة صـبٍّ مـا شـانـهـا خـطـلُ
مـا تَـيَّـم الـقـلـب بـعـدكـم بـشـرٌ ... هـل يـطـعـم الـمـاء مـن بـه الـعـلـلُ
والـنَّـفـس لـم تـسـلُ عـن مـحـبَّـتـكـم ... لا عـوضٌ عـنـكـم ولا بـدلُ

وله في الجناس التَّام(١):

يـا مـن أطـار فـؤادي ... بـسـجـعـه والـفـواصـل
إن كـان مـا قـلـت حَـقّـاً ... مـن حُـبّ وصـلـي فـواصـل

وله مرثية لبعض الأكابر وقد مات في شهر شَوَّال:

ويـح شـوال لـقـد رَوَّعـنـا ... وشـوى الأكـبـاد بـالـنّـيـران شـي
لامـه لام حـروبٍ فـتـكـت ... فـهـي فـي نـحـو الـمـراثـي لام كـي

قلت: هذا نظم حسن سيّما مع قوله: «وشوى الأكباد» لأن شوالاً إذا حذفت لامه بقي شوا، ولامه لام كي، والكي يناسب الشي بجامع الإحراق. ومع قوله أيضاً في «نحو المراثي» لأنَّ لام كي تناسب النَّحو فإنها ذكرت في علم النَّحو مع ذكر أنواع ومعان أخر جاءت لللام نَصَّ عليها النحاة. إلاَّ أنه لا معنى لقوله (لام حروب) وقد أثبت أنها لام كي، وهو الأنسب بها، وكان الأولى به أيضاً أن يذكر بأن شوَّالاً بعد حذف لامه يصير شوا سيّما وقد قال (وشوى الأكباد) فلَيْته قال في البيت الآخر:

---

(١) الجناس التام: هو ما تماثل ركناه واتفقا لفظاً واختلفا معنى من غير تفاوت في تصحيح تركيبها واختلاف حركتها، سواء كانا من أسمين أو من فعلين أو من اسم وفعل. انظر: (خزانة الأدب ٣٠).

فهو شوَّاءٌ وهذي لامه   هي في نحو المراثي لام كي

وقد ذكرتُ هنا قول الشيخ زين الدين بن الوردي[١] رحمه الله تعالى[٢]:

قال من أهواه صف صُدغي بما   فيه توجيه وحببه إليّ
قلت إن الصدغ لام قد كوى   نصبُها قلبي فهذي لام كي

وقال آخر:

لام العذار مذ بدَت   كوت فؤادي أيّ كي
حذار يا أهل الهوى   اللأم هذي لام كي

والأصل في هذا قول محمد بن العفيف[٣] رحمه الله تعالى[٤]:

ومستترٍ من سنا وجهه   بشمسٍ لها ذلك الصدغ فيّ
كوى القلب مني بلام العذا   ر فعرَّفني أنها لام كي

وقال ابن الفارض[٥]:

نصباً أكسبني الوجد كما   تكسب الأفعال نَصباً لام كي

أخُوْه السَّيّد مُحْمَد بن الحَسَن بن أحْمَد بن حَميِد الديْن[٦]

ذو فخر ومجد، سَرَى صيته ببطن تهامة وظهر نجد، فهو المهذب الظريف،

---

(١) هو: زين الدين عمر بن مظفر بن محمد بن الوردي المعري، فقيه وشاعر ومؤرخ، ولد سنة (٦٩١) وولي القضاء بمنبج، له مؤلفات، توفي سنة (٧٤٩ هـ). (فوات الوفيات ٢/١١٦، والأعلام ٥/٦٧).

(٢) لم أجدهما في ديوانه.

(٣) هو محمد بن سليمان بن علي عفيف الدين التلمساني مولده سنة (٦٦١ هـ) برع في الشعر، وله ديوان مطبوع توفي سنة (٦٦٨ هـ). انظر: (فوات الوفيات ٢/٢١١ والأعلام ٦/١٥٠).

(٤) ديوانه (٢٤٤) ط شاكر هادي وخزانة الأدب لابن حجة ٢: ١٠٥ (ط) شعيتو.

(٥) من قصيدته الشهيرة:

سائق الأظعان يطوي البيد طي   منعماً عرِّج على كثبان طي

(٦) من الأدباء ترجمته في (نفحة الريحانة: ٣: ٣٥٣).

الجامع بين التليد والطَّريف، كم له في الفضل من حديث ونبا، وصارم عزم ما كلَّ حدُّه ونبا، في عيش نعم لمساً وطابَ شما، وأقعده من الرّفاهية رتبة شَمَّا، أبهى من الخِضَاب، وأبهج من النبت في الهضاب، أخصب مرتعه، ورحَب في أكناف النّعمة مربَعه، وهو لوالدي من الخلاّن، فعطفُ الدهر له بصحبته قد لان، فكم نادمه ولا كمنادمة الحبيب، في رياضٍ كساها المُزْن بُرده القشيب، وله طبعٌ ومزاج، أَنَمَّ على لطف شمائله من الزُّجاج، فهو على الناس أنفر من الغزال، لا يبرح متخلياً لطارق الأوهام ولا يَزَال، قد أعاره الحلْيُ وساوسه، وخلع عليه الانقباض ملابسه، لمّا ملكته السّودا[1]، وسلكت به طريقاً لا يَرَى له منها عوداً[2]، وقد أصاب بتخلّيه، وطلوع بدره في فلك الوحشة وتجلّيه، فالأسد لا يخالط الثعالب، ومُنَزَّهُ العرض لا يجالس ذوي المثالب، وشعره يُعَدّ في العَدَم، فما بنى أبيات القَريض بل هدم، فلم يَثبت له من النَّظم في ديوان، غير قوله[3] وفيه على فضله أي عنوان:

يا نازحين عن اللّوى والأجرع ... أوحشتم لمَّا رحلتم مربعي
فلكم تركتم بين كثبان اللّوَى ... صَبّاً غريقاً في بحار الأدمع
لا يستفيق من الغَرام فدأبُه ... أن لا يصيخ إلى الملام بمسمع
هيهات أن يصغي لِعَذْل عواذلٍ ... ومن البلية عذل صبٍّ لا يعي
قف يا عذول عن النَّصيحة واتَّئد ... ما قلبُ سالٍ في الهوى كالموجع
لو ذقت ما قد ذقت من ألم الهوى ... لرجعت عن عذلي بأحسن مرجع
ما أنت يا خالي الفؤاد بذائدٍ ... قلباً ملامك فيه لمَّا ينجع
كم قلت للطَّلل القديم برامةٍ ... حييتَ من طللٍ بتلك الأربُع

---

(١) في (ش) السواد.

(٢) في (ش) عواد.

(٣) قلت: وجدت في نفحة الريحانة قصيدة دالية أوردها له أولها:

حث المطي إلى الأوطان يا حادي ... أما ترى السّعد قد ناداك بالنّادي

والوُرق في الأغصان قد ناديتها بالله يا وُرق الحمى نُوحي معي

صَاحِبُنَا السَّيِّد أحمدَ بن عبد الرحيم بن يحيَى(١)

روحُ اللُّطف إن كان له روح، حديث مَجْده غير مستوف ولا مشروح، كان في طليعة شبابه يسبح من الثراء في عُبَابِه، يركب الخيول المطَهَّمة، ويلبس الثِّياب المسَهَّمة، معدوداً في الدول، مَحفوفاً بالأرقَّاء والخول، مقتفياً بذلك طريقة آبائه الأول، ثم مال بعد ذلك إلى خموله، وتناول من التَّخلي كأس شَموله، واشتغل بالعلوم، وداوى بالأدب منه الكلوم، فأضحى في كل فَنٍّ ذا عِرفان مقرر، وغوصٍ للخفيَّات ونظر ثاقب محرّر، وأمّا في المعاني فله مزيّةٌ نالها بتشمير همته، ورتبة مرفوعة تركت السّعد يجري له في خدمته، وكان كثير الخروج إلى الصَّحرا، يقطع في الهواجر من السراب بحراً، لا يدع الحركة أبداً، ولا يجد من التعب كبَدا، مع نفور عن النَّاس، كما ينفر غزال الكناس، وهو لي من أجلاء الجلسا، لا يفارقني نهاراً ولا غَلَسَا:

سيدي صاحبي أنيسي جليسي طوق جيدي معاشري تاج راسي

كنت أستنشق كمامه، وأستمطر من الإفادَة غمامه، وروضه إذ ذاك قد اطلع من شيبه ثغامه، فله دُرر كلمات، منتظمة في سمط ماله من السّمات، تتعَلَّم منها الغيد ترصيف عقودها في الجيد، فمجلس مَحاضرته، ونفثات محاروته، ألذ من مقام الخلاعة، وقد حسر الوقور عن وجه رجاحته قِناعه، ومالت سمات الأوتار بغصون(٢) القدود، وأرتك الصَّهباء صنعها وتأثيرها في الخدود، إذ مالت القناني عن نسمات الأغاني، وجيء بكافور الختام المعقود، وقد رُعِفت أنوف الأباريق بدم العنقود، مع عذوبة في حديث لسانِه، أندى على الأكباد من ندى بنانه، أشهى من خطاب الخوْد، قبل ابيضاض الفود، وكانت بلسانه عقدة أحلى من العسل المعقود،

---

(١) لم أجد ترجمته وهو ممّن انفرد بهم المؤلف.

(٢) في (ش) ما بغصون.

لها في أعضاء السّامع نشوة ولا كنشوة ابنة العنقود، تفعل ما لا يفعله السّحر إذا عُقد، فكم من عقلٍ عندها مع وَفرته قد فُقِد، رعى الله من عهده سالفاً، وأنس بعد فراقه من كان له ألفاً، وله شعرٌ من خير المنظوم، وبنات فكرٍ ذات حشاء مهضوم، من ذلك قوله من قصيدة كتبها إلي، وأدار معتقها عليَّ:

برقٌ شَرى شقّ جيب السحْب يلتهبُ | كأنه القلب بالأشواق يضطربُ
أهاج لي وجد قلبٍ كنت أكتمه | فالدمع في الخد مثل الغيث ينسكبُ
آهٍ لي الله مالي لم أزل أبداً | يهزّني مثل غُصن البانة الطّربُ
شوقي إلى جيرةٍ من دون وصلهمُ | بيض حداد وسمرٌ لدنه قُضُبُ

منها في المديح:

أعني الشهاب الذي طالت محامده | حتى تقاعد عنها السّبعة الشهبُ
من حاز في المهد ما أعيا الألى سلفوا | حتّى وهى العزم منهم أو وهى الطلب
قد باء بالعلم في جهلٍ وفي صغر | علمٌ لعَمْر أبيه زانه الأدبُ
فالله يحرسه من شرّ حاسده | يكفيه في الدّهر ما تأتي به النوبُ

وكتبت أنا إليه أستدعي منه مجموع الشّيخ شمس الدّين محمد بن الحسن بن علي النَّواجي المصري(١) رحمه الله تعالى المسمَّى بتأهيل الغريب(٢) وقد أعرته إياه فمكث لديه كثيراً:

أيا شمس الهُدى لقّيت خيراً | تفضّل لي بمجموع النواجي
فإني ما بَرحتُ حليف حُزنٍ | ووجدٍ منه قال له النّوى جي

---

(١) هو من أدباء البديع عرف بالنظم الماجن ولد سنة (٧٨٨ هـ) ومن مؤلفاته «حلبة الكميت» في الخمر والندماء، و«مراتع الغزلان في الحسان من الغلمان» و«خلع العذار» وفاته سنة (٨٥٩هـ). (الضوء اللامع: ٧/ ٢٢٩ والأعلام: ٦/ ٨٨).

(٢) قال العلامة خير الدين الزركلي: رأيتُ نسخة منه بمكتبة الليثي بمركز الصف بمصر كتبت سنة (٨٩٢).

فأجابني بقوله:

نظامُك قد حكى خمر الزجاجِ ... وأطفأ نوره نور السِّراجِ
وأطلع لي الزَّواهر في مدادٍ ... فما هي غير زهرٍ في دياجي
أتتني غادةٌ منه سبتني ... بطرفٍ فاتر الحركات سَاجي
فهاك كتاب آدابٍ بديع ... وما هو غير مجموع النَّواجي
ودمت تكاتب الأحباب طُرّاً ... بمنضود العقود من الأحاجي

ولما وقف على كتابنا المسمى: «عطر نَسيم الصبا»[1] أعجب به فكأنما رجعت به أوقات الصِّبَا، وكتب مُقَرظاً له من النَّظم والنثر قوله:

شذا المسك لما فاح دل على المسك ... وفضل ذوي العلياء مُشْتَهرٌ مَحْكي
لقد ضاع عطر للنَّسيم التي سرت ... فهام بها لُبّي[2] وضاع بها نسكي
لك الله يا نجل الأكارم ما الذي ... أتيت به في غاية الصوغ والسَّبْكِ
أملت بما حَرَّرت منا معاطفاً ... وخضت ببحرٍ للآلى على فلكِ
وأبديت من تلك الفصول جواهراً ... فما هي إلاّ الدر لاح بلا شكٍّ
وهان بك الماضون كابن نباتة ... وكالناظم الحِلّي والفاضل السبكي
ودامت معاليك العلية ما غدت ... تآليفك الغراء تنظم في السلكِ

استنشقت عطر نسيم الصّبا، وقطفت من أثناء خمائله زهور الرُّبى، وطالعتُ فصوله، وعرفت فروعه وأصوله، فتمايل عطفي من الطرب، وقُضي به لي من الزَّمن الأرب، وفهمت مغزاه ومقصده، ودخلت أبواب جنتَّه التي هي على الأعداء مؤصدة، ونظرتُ إلى مؤلِّفه، وناظم درّه ومرصّفه وإذا هو في إقبال زمانه، [وفي

(١) من أشهر كتب المؤلف وأحسنها، بناه على أسلوب كتاب: «نسيم الصبا» للحسن بن عمر بن حبيب، وهذا كتاب طبع بصنعاء سنة (١٣٦١) بعناية العلامة الأديب الشهيد أحمد بن محمد المطاع المتوفي سنة (١٣٦٩هـ).

(٢) في (ش) التي.

مبتدا حينه وأوانه، قد جاء بما لم يأت به ذوو المشيب][1]، ونشر ما يروق نشراً ويطيب، من فِقَر كأنها المُدَامة، واستشهاداتٍ من النَّظم كسجع الحمامة، فعلمت أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشا، وأن العلم والأدب نورُ مودع في القلوب والحشا، فمن اصطفاه الله لهما ظهرا عليه، وقصدا بلا نَصب ولا تعب إليه، فالله يحرس القاضي شهاب الدِّين ويديمه، ويجعله روضاً يتنزّه فيه جليسه ونديمه، ويبقيه لهذا العصر جمالاً، ويزيده فَضْلاً ومجداً وكمالاً، ويُحيي به ما لم يمت من فضائل آبائه، ويكبت به الحسّاد ويشرح بما أولاه صدور أحبائه، وينشر في الخافقين ما عظم من أخباره وأنبائه، إنه الولي الحميم، الواهب الكريم، وصلى الله وسلم على محمد النبي المعظّم، وعلى آله وصحبه ذوي العقد من المجد المنظَّم، آمين.

فَصْلٌ

لما زَفَّ الرَّبيع عروس أزهاره، وتلقَّاه الرَّوض بالشَّراب المعتَّق من أنهاره، سألني أن أصف متلوّنَ زهوره، وأذكر ما تدفَّق من نهوره، فامتثلت أمره، وأدرت عليه من الكلام خمره، ووضعت في الربيع فَصْلاً، طال في الأدب فرعَاً وطاب أصلاً، فإذا هو فصل الرَّبيع حقيقة، قد سقاه الفكر بعين غديقة، يشتمل على منثور، ومنظوم يهيج به الغرام ويثور، يأتي نحو كراسين لم أظفر منهما الآن بأثرٍ ولا عين، وذلك في وصف روضٍ سقي ما، وتخطّر نسيمه البارد سقيما، حُلَله بيد المزن تنسج، وهواه كهواءِ الجنة سَجْسَج[2]، قد أنجز الغيث له الوعد، ودَرَست عليه لسان البرق من أوراق السحائب سورة الرَّعد، ونشرت[3] ملاءات النبات في الأندية، فتلفَّعت بها أردَاف الهضاب وخصور الأودية، إذ تدفقت الأنهار، وتَنوعَت الأزهار، من نرجسٍ غضّ، وورد عليه دمع الغمامة يرفضّ، وشقيق ثقيب، وَنَمَّام

---

(١) ساقط من (ز).

(٢) هواء سَجْسَج: معتدل طيّب.

(٣) في (ز) نشرة.

هو على الزُّهور عتيد رقيب، والغصن كالقد المائل، له من سندس الأوراق غلائل، وأزرق البنَفْسج أسنة لامعة، كأنما بها شقائق النّعمان جراحات بالنَّجيع هامعة، وكافور الطَلِّ الرقيق، في حِقَاق المرجان من الشَّقيق، وخَدُّ الورد مضرّج، ومَلْبوس الأوراق بطرز الزُّهور مُعَرّج، وعِطْف الغصن من خمرة القطر مزرّج[1]، والرُّمان كنهد كاعب، والنَّارنج كأنه كرة لاعب، فطرب ذلك السَّيد لما طرق سَمْعَه، واهتَزّ عطفُه، إذ جئت في وصف الرَّبيع بلمْعة، وصفا وقته وطاب، وقال مخاطباً لي ولست بأهل منه للخطاب:

ليت الربيع بما قد قلت فيه درى ... حتى يحيّيك بالزهر الذي ابتسما
زَهرٌ من القطر قد دارت سلافته ... من فوقها حَبَب كالدّر إذ نظما
وينشر الطل إكراماً لذي أدبٍ ... بأنفسِ الدّر من ألفاظِه كَرُمَا
لو أجلستك على أحداق نَرْجسهَا ... رياضه عند ذي الإنصاف ما وَلَما[2]
فلا برحت شهاب الدين في أفقٍ ... من العُلاَ ما هما غيث الرّبيع بما
لا زلت من روضَة الإقبال متكئاً ... على نمارق أزهارٍ ومنتعمَا

واجتمعت أنا وإيّاه، في فلك مجلس شمسه المنيرة محيَّاه، ولدَيْنا خليلنا الشيخ صارم الدين إبراهيم بن صالح الهندي بلَّ ضريحه الندى، وسقاه وابل يُزيل صداه ومن العجب أن يزيل الماء من الصارم الصدا، في يومٍ صفت مشاربه، وقُضِيَت لذي الأرب مآربه، وقد رَقّ الجوّ فحكى الزّجاج، وركضت خيول المسرة فثار من السحب العجاج، والأربُ طلق المحيًا، والنسيم قد خطر فحيا، ومنازل الاجتماع مقرَّطة بالثريا، وأذيال الخافقين قد فعمت الأنوف ريًا، فدارت بيننا كؤوس آداب، وهمل على روض مقامنا غيث مذاكرةٍ ألذَّ من القطر بعد إجداب،

---

(١) المزرج: النشوان، وهو مأخوذ من الزَّرجون. قال الرّاجز:
هل تعرف الدّار لأم الخزرج ... منها فظلت اليوم كالمزرج

(٢) اكتفاء من قوله: «أي ما أنصفتك ولما وفت لك لذلك» (من هامش ب).

وكل أحدٍ منّا أدّى من ودائع الآدب الأمانة، ونكت جواهره من الهِمْيان[1] فما غادر جمانة، وأتى بالجد والمجون وسلك في أوديةٍ كلها شجون، حتى انتهى الكلام ومضى القول بسلام إلى ذكر الرماة وما قيل فيهم من الأشعار، فأملى السّيد في مليح رامي قول بعض الأدباء الذي ليس بهم عار:

وأهـيـف الـقـد ذي دلالٍ طـائـر قـلـبـي عـلـيـه واجـب
كـالـشَّـمـس فـي كـفّـه هـلالٌ يـرمـي إلـى الـبـدر بـالـكـواكـب

فقال الشيخ: ما سمعت أرشق من قول ابن قرناص[2] في مليح رامي موريّا[3]:

أتـى إلـيّ مـائـسـاً[4] والـرّدف قـد أقـلـقـه
يـرشـق ثـم يـنـثـنـي لله مـا أرشـقَـه

فقلت أنا لهما: قد نظمت في صَيَّاد يرمي بالقوس فيحسن الرّماية وأنشدتهما قولي:

ولـم أنـس صَـيَّـاداً يـصـيـب لـقـوسِـه رنـيـن عـجـيـب عـنـد إرسـال نـبـلـه
كـأنـي بـهـا لـلـصَّـيْـد أنَّـتْ تـوجـعاً وقـد قـطـعـت قـبـل الـوقـوع بـقـتـلـه

فاهتزَّ السَّيد وارتاح، وتمايل الشيخ والتاح، وقالا: هذا مَغْنىً عجيبٌ مبتكر، يدُور كأسه بما ينشط من السُّكر، فقلت لهما: وكذا مولانا الوالد عجب لهذا المعنى الذي هو على صفحات الدَّهر خالد، رحم الله تعالى الثَّلاثة فإنهم سابقون،

---

(١) الهميان: شداد السراويل أو تكته، وما يجعل فيه الدراهم ويشد على الحقو. قيل: هو معرّب هميان بالفارسية.

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن قرناص الخزاعي الحموي، شاعر أديب، له ديوان شعر توفي سنة (٦٧١ هـ) (النجوم الزاهرة ٧/ ٢٣٨ والأعلام ٥/ ٦٣) وانظر: (الأدب في بلاد الشام) للدكتور عمر موسى باشا ص (٦١١).

(٣) البيتان في مطالع البدور للغزولى ١: ٢٤٨.

(٤) مطالع البدور: أتى الأجاج مائسا.

ودَلّنا إلى سبيل الهداية فنحن بهم لاحقون.

المَوْلى الأمِيْر عَبْدُ القَادِرُ بن النَّاصِر بن عبد الرَّبِّ[1]

ملكٌ بل مَلك، يجود ويسمح بما مَلك، وشمس رياسةٍ لها من المجد فلك، وبدر إمارةٍ تقول له البدور أمّا الكمال فلك، طلع من مثار النّقع في غياهب، وحُفّ بهالة العَطايا والمواهب، سليل ملوكٍ طوّقوا الأعناق قلائد نِعَم، فما سمع سائل منهم لا كما سمع لفظ نعم، طلعوا في سماء التّواريخ أنجماً تدور، وسفروا تحت ليل مِدادِها كَوامِلِ بدُور، فهم جمال الكُتبِ والسِّيَر، لم تمح ذكرهم الثّابت أيدي الغير، وهذا الملك، درٌ في عقدهم سُلِك، فهو جواد طَلْق اليَدَين، منقاد إلى التنويل كأنه عليه دين، بحرٌ عُبَاب، جَزْرُه للأعداء ومَدُّه للأحباب، سَهمُه في المنائح غير منيح[2]، وأياديه تنظم له على جيد معاليه أبهى سنيح[3] يزْهر بنداه الهضب، ويقطع بحدّ عزمه العَضب، إن قعد على سريره، نعق غُراب قَلَمِه بصريره، فهو لتفريق الخزائن غراب بين، يفني عين الذهب فالشمس تَودّ أن لا يقال لها عين، فَغَم مسكُ مداده بالطِّيب، فرعُفَت مناخر الدُّوِيّ بدم التَّتريب، وإن برز في المواكب، فبدر حوله من رهطه كواكب، مع فِراسةٍ في لطافة، وخفَّة تبرز من حصانِهِ[4] في كَثَافَة، فإذا هو نسيم يحرّك من جواده الجبل، ويطرده فإذا مواقع حافوره في خدّ الميدان مواقع القُبَل:

---

(١) هو عبد القادر بن الناصر بن عبد الرب بن علي شمس الدين بن الإمام يحيى شرف الدين، مولده بكوكبان، وبها نشأ، وقرأ القرآن، وأخذ عن أكابر عصره، وتولّى إمارة كوكبان. توفي سنة (١٠٩٧ هـ).

(نفحة الريحانة ٣/ ٣٠١ وخلاصة الأثر ٢/ ٤٦٩ وملحق البدر الطالع ١٢٤).

(٢) المنيح: قدح بلا نصيب، وقدح يستعار تيمّناً بفوزه، أو قدح له سهم من سهام الميسر مما لا نصيب له إلاّ أن يمنح صاحبه شيئاً.

(٣) السنيح: الدّر أو خيطه قبل أن ينظم فيه والحلي.

(٤) في (ز) حطانه.

لـو مـرَّ يـركـض فـي سـطـور كـتـابـةٍ   أحـصـى بـحـافِـر مُـهـره مـيـمـاتـهـا

مع نسكٍ وبرارة[١]، وشهامة تشحذ غِرَارَه[٢]، فهو ميمون النَّقيبَة، ذو جِبلَّةٍ سامِيَة نجيبةَ، له في اللَّيل قيام، وسائر الملوك على مهاد الغفول نيام، يكتحل بإثمد السهر، وتهزّه للذكر نُسيم السَّحر، فطالما صفن في محرابه، ولازم ما هو أحرى به، مع ركوع وسجود، وطرف لا يعرف الهجود، وله في العلم مذاكرة وإلى حلقاته مباكرة، لا يشتغل بما هو فيه عن الدّرس، فلِحُليّ ملكه وإمارته وسواس وَجَرْس، ولغصون أقلامه في جنبات حدائِق الإفادة نماءٌ وغرس، وله في الطب والحكمَة، ما يبرىء به داء الأكمة[٣]، حتى يعود أبصر من زرقاء اليمامة[٤]، وأهدى إلى أغصان الرّياض من الحمامة، عرفتُه وهو أشيب، وكافور شعره من المسك أطيب، ولم يفُضّ الكبر فاه، ولا تغيّر في نطق إذا فاه، فما سقطت له ثنيّة، ولا هوت له ثمرةٌ جنيَّة، حتى زاره الحِمام ونزلت به المنية، فمات وهو وافر القوة، وألقي من جدثه في هُوَّة، بل في روضة من رياض جنة المأوى، ثمرها يانع وحميمها[٥] أحوى، ولما مات تزلزل الكون، وذوي من نبات النّعمة الجون[٦]، كاد جبل كوكبان أن يخرَّ على رأسِه، لَمَّا عقدت المأتم في مجالس مسراته وأعراسه، ويُشَقّق جيوبه من الغَمامة، ويُلقي ما لاثت على هامته من العمامة، ويبدّد من الزَّهر المنيرة عقوده، ويلطم من ورد رياضِه الجَنيّ خدوده، سقى الله مَلْحدَه، وتعاهد بمثجّ القطر مشهده، ما ضحكت البوارق، فبكت الغمامة بدمع

---

(١) في (ش) برادة.

(٢) في (ش) غرازه.

(٣) الأكمة: الإنسان يولد أعمى.

(٤) هي امرأة من بني جديس من أهل اليمامة يُضرب بها المثل في حدّة النظر وجودة البصر، ويقال لها أيضاً زرقاء جو، وهو اسم لليمامة قال المتنبي:

وأبـصـر مـن زرقـاء جـوّ لأنـنـي   إذا نـظـرت عـيـناي شـاءهـمـا عـلـمـي

انظر: (خزانة الأدب للبغدادي ٣٩٩/٤ والأعلام ٤٤/٣).

(٥) الحميم: الماء البارد والحار من الأضداد.

(٦) الجون: النبات يضرب إلى السواد من خضرته.

المُفارق، وله من شعر الملوك، ما يفضّل على ذهب السلوك، فمن نظمه (السّمط الغالي، في النَّسب العالي)، حذا فيه حذو العلامة النَّمازي[1] الذي لا يوازن الدُرّ نظمه ولا يوازي، ونظم أيضاً في الفقه ترتيب أبواب النكت[2]، التي ألّفها القاضي جعفر بن أحمد[3] فنثر كنانة إفادته وَنَكت.

ومن شعره الذي أعرب عن فضله وأبان، قوله يستدعي بعض خواصه إلى الرياض من شبام[4] كوكبان:

مــولاي قــد أصــبـحـت شـبَـام يـضـحـك فـي روضـهـا الـكـمـام
الـطَّـيـر فــي دوحـهـا خـطـيـبٌ أغــصــانُــهــا ركَّــعٌ قِــيــامُ
تـطـلـبُ مـنْـك الـوصـول فـامـنـن بـــزَورة الـــروضِ والـــســـلامُ

وله من بعض الأراجيز التي يمدح بها أيضاً شبام كوكبان ويصف رياضها أغزر الله حياضها:

أغـصـانـهـا تـمـيـس كـالـقـدود وزهـرهـا يـزهـر كـالـخـدودِ
تـرى الأقـاح فـي الـريـاض بـاسِـمـا والـغـصـن فـي تـحـريـكـه مُـسَـالِـمَـا
الـنَّـهـر فـي حـافـاتـهـا يـنـحـدرُ والـطَّـلّ فـي أوراقـهـا يـنـتـثـرُ
لـلـطَّـيـر فـي أغـصـانـهـا هـديـلُ مـن كـل طـيـرٍ[5] لـونـه جـمـيـلُ

---

(١) هو العلامة صالح بن الصديق النمازي الخزرجي نشأ في ناحية صبيا ورحل إلى مدينة زبيد، من مؤلفاته «الأنهار المتدفقة» وغيره توفي سنة (٩٧٥ هـ) انظر: (البدر الطالع ١/ ٢٨٤ وكتابنا مصادر الفكر ٥٧).

(٢) هو المعروف بنكت العبادات وجمل الزيادات، في الفقه على المذهب الزيدي، طبع أخيراً.

(٣) هو العلامة الكبير جعفر بن أحمد بن عبد السلام البهلولي الأبناوي، من علماء الزيدية الكبار، رحل إلى العراق للأخذ وطلب العلم والتبحر فيه، له مؤلفات كثيرة ووفاته نحو سنة (٥٧٣ هـ) انظر: «مطلع البدور خ».

(٤) شبام كوكبان: وقد يقال لها شبام حمير، عرفت قديماً باسم يحبس، وتارة باسم شبام أقيان، وهي مدينة أثرية على سفح جبل كوكبان غربي صنعاء بمسافة (٣٤ك. م). انظر: (معجم البلدان ٣٤٢).

(٥) في (ب) طين.

تـظلّ إن أصبحت فيها فَرِحَا | تختال كالنّشوان فيها مَرحا
ساحاتها قد أُلبِست قطيفة | خضراء من خالقها شريفة
قد لبست من الأصيل عسجدا | والغيم يكسو روضها زمرّدا
للزّهر في منظرها ألوانُ | من أبيضٍ وأحمرٍ أفنانُ

وله:

لست أسلو عن جيرة بالمُصلَّى | وظِبا حاجرٍ وقد بُتُّ أصْلا
والذي قد سَبا فؤادي خشفٌ | هو حُلْوٌ من غير أن يتحلَّى
قسماً بالصَّفا والركن إنّيْ | كلَّما أغرضْتُ عنه قلبي قال: لا
من مجيري من بابلي لحاظ | لدم الخلق يا رفاق استحلَّى

ولدهُ المؤلى الأميرُ الحسين بن عَبْدِ القَادِرِ بن النَّاصر[1]

أقسم بالله قسم من برّ، أنه لأفضل من اهتزَّ لذكره عودُ منبر، حلية الزمان فما الذَّهب وما الجُمان، شمس مالها دلوك، وملك لا يشابهه أحد من الملوك، لو نظره عبد الله بن المعتز[2]، لخلع إجْلالاً له من الأدب حُلل الخَز، ولحطم أغصان أقلامه التي هي بنسمات البلاغة تَهتز، بليغ أما غيره فذنب وأما هو فراس، ذو نجدة وفصاحة أقرّ له فيهما أبو فراس[3]، طريق مجده أكْثم[4]، وفرس عزمه أرتم، قرطاسه مغْقل غادات الأدب الحسان، وروض بلاغته غدا بنهره وأوراقه رب السيف والطيلسان، بدر مجد له الفلك وطن، وهمام كلمات نفثاته أبلغ ما اختلج في آذان

---

(١) هو الأديب الكبير نابغة كوكبان مولده سنة (١٠٦١ هـ) وأخذ عن علماء عصره، وكان من الرؤساء. سكن حدَّة وتوفي سنة (١١١٢ هـ) انظر: (نسمة السحر (خ) والبدر الطالع ١/ ٢٢١ ونفحة الريحانة ٣/ ٣٠٣ وحديقة الأفراح ٩ ونشر العرف ١/ ٥٦٢).

(٢) شاعر وخليفة عباسي توفي سنة (٢٩٦).

(٣) هو الشاعر المشهور: الحارث بن سعيد، أبو فراس الحمداني المتوفى سنة (٣٥٧).

(٤) الأكثم: الطريق الواسع الضخم.

الدَّهر وطَن، يساقط في الأسماع، ما يذوب عنده الجلمد ويَنْماع، من لفظ كأنه الدّر، إذا سمعه لبيب انتشى وسُر، أبهج من لؤلؤ الندى وأنْضر، وقد نثرته أكف السَّحاب على بساط الرَّوض الأخضر، له ذكاء أقطع من سيف القِراب، وهمة في الطَّلب هو معها إلى حلقات العلم أبكر من غراب[١]، وأخلاق ألذ من زورة الطَّيف، وأزوح من نهار الشِّتاء وليل الصَّيف، وهو لوالدي تلميذ، قد سقاه من كؤوس إفادته ما يُنْبَذ عنده النَّبِيذ، وليَ بعد أبيه مَنْصبَه، فأصبحت به سفوح العدل والرفق مُخْصَبة، فهو للإمارة في حياة والدِه المعْقب[٢]، يرقب منها ما هو حقيقٌ بأن يُرْقَب، حتى نالها بسلام، وخضع له الكهل والغلام، ثُمَّ عاداه لفضله الدَّهر، وجنى عليه فجنى من حدائِقه الزَّهر، أبرق عليه وأرعد، وتهدَّده بالخطوب وأوعد، فأمطره رعدهُ من المحن وَبْلاً، وسدد إليه من سهام قطره نَبْلا، فأصبح يقلِّبُ كَفيه، وَيُمزق شفْنَيه[٣]، في تفكّرِ وتفكُّنْ[٤] وفوات بعد تمكُّن، فحبس وسُجِن، وشرب ماءَ قد أجِن، وإذا هو في القيد يرسفُ، وبدره في منازل الاكتئاب مُكْسِف، فهو جواد مشكول[٥]، لا يُدْرِكه في الحلبَة فسكول[٦]:

إن قَيَّدوه وبالغوا في عَضْرِه ... فالكرم يعصر والجواد يُقَيَّدُ

التَوَى الأدهم[٧] بسَاقَيْه فما هان، لأنه طال ما ركبه في الجياد يوم الرّهان، يُقبِّلُ قَيْده قدمه، ويوالي عليه الفَضْلُ أسَفَه وندمَه، وقد زاده الله تعالى بالصَّبر مَدَدًا، لما لبث في السجن مثل ما لبث يوسف الصديق عددًا، لاقى من أيامه ما

---

(١) من الأمثال الشائعة انظر (مجمع الأمثال ١٠٤ والمستقصى ١/٢٨) وفي التمثيل والمحاضرة ٣٦٤: خذ من الغراب بكوره وكتمانه للسفاد.

(٢) المعقب: هو الولد الذي ترشح للخلافة بعد والده.

(٣) مثنى شف وهو الستر الرقيق.

(٤) تفكّن الرجل: تعجب وتفكر وتندّم وتأسف وتلهف على ما فاته بعدما ظفر.

(٥) جواد مشكول: الشكال في الخيل أن تكون ثلاث قوائم محجلة والواحدة مطلقة.

(٦) الفسكل: الفرس الذي يجيء في آخر الحلبة.

(٧) تورية بالأدهم وهو القيد والأدهم من الفرس الأسود يميل إلى الحمرة.

لاقاه الحسين بكربلا، ولم يَحْظ منها بمسرة[1] نَعَم وإنما غُصَّ منها بكربِ لا، بهذا تحقَّق أن الكمال عليه مقصور، وأن نوع الفضائل فيه لا في غيره محصور، فمهلاً أيها الزَّمان لقد جُزْتَ، ولمثل هذه الغَوائل طالما دُرتَ:

وهـكـذا تـفـعـل فـي كـل ذي فـضـيـلـةٍ أو هـمـةٍ عَـالِـيَـه

وديوان شعره[2] ذائع وشائع، تُمَدُّ منه على مناكب الدّواوين وَشَائع[3]، طار مطار العنقا، وزَيَّن دُرُّه مِن الملاح عُنقًا، تكتفي به الغَانية عن العَقود، ويستغني الشارب الثمل بمعانيه عن ابنة العنقود، ما هو إلاّ روضٌ زُفَّت به عروس الأشجار، ولها بحلل الأوراق تخبُّط وعِثار، وفوقها من جواهر الزُّهور حلي، ومن لؤلؤ القطر نثار، وبيني وبينه مكاتبات، تصبحُ في خدمتها الكواكب السَّيَّارة وتبات، إذ ردَّد طائر القلم منها ألحانَه، أدار على السَّامع ما لا يديره من شرابها الْحانة، عمرت أبياتها أيدي المودّة وأمالت نسيم المحبَّةِ فيها من غصن القَلم قَدّه، وقد أثبتُّ له من مَنْظُومِه، ما أثبت الفلك الدَّوار من نُجُومه، واطلعتُ من أشعاره، ما اطلع الرَّوضُ الأُنفُ من أزهاره، وقد اكتفيت عن إيراد مطولاتِه المبدعات، بما أوردته له من لطائف المقطّعات، كَقوله:

نـهـدت فـانـشـق جـيـب الـعـنـبَـري فـسَـبـت مـنّـا فـؤاداً قَـسـوري
لا تـلـومـوا واسـألـوا مـا فـعـلـت مـن قـديـمِ عـبْـلـةٌ فـي عـنـتـرِ

وقوله في تشبيه الورد الأحمر:

أقـول مُـذ شَـبَّـه الـوردَ الأنـامُ ومـا وفـت تـشـابـيـهـم فـي ذاك بـالأرب
كـأن حـمـرتَـه مـن حـول صُـفْـرتِـهِ نـار يُـخـلّـصُ فـيـهـا معدن الـذّهـب

وقلتُ أنا في تشبيهه أيضاً:

---

(١) في (ز) بسمرة.

(٢) منه عدة مخطوطات منها مخطوطة: بمكتبة المتحف البريطاني برقم (٣٩٣٦) وأخرى بجامع صنعاء (٢٣٧) أدب. انظر كتابنا (مصادر الفكر ٣٣٨).

(٣) الوشيعة: اللفافة.

حمرة الورد فوقها صفرةٌ منـ ـه حكتها في الانتقاع الرحيق
كالجراح الطّري ذُرّ عليه من قشور الرمان شيءٌ سحيق

وقوله مشبهاً لصقرٍ رمي بسهم فَهَوى والسَّهم مغروز فيه وهو تشبيه بديع:

أرأيت صقرَ الجوِّ حين هَوَى من سهم من بهرت رِمَايتُه
فكأنه في شكلِه طَبَرٌ والسهم معتَرِضاً هراوته

وقوله مشبهاً لِسُبْحَة من اليسر[1] أهداها لبعض إخوته وهو تَشْبيه بديع أيضاً:

لا زلتَ في اليسر قد وافتك مسبحة من خيرة اليسر يا خير الأصاحيب
تريك إذْ نَسْقوها مع مؤذنها سِرْباً من النحل دبّت خلف يعسوب

وقوله في بندق مصدَّف:

يا حسنه من بندقٍ ما زال في يوم الكفاح على السلاح مُشرّفَا
جعلوا به صَدَفاً يشير بأنَّه ما زال بالغرض البعيد مُصدَّفا

وقوله مضمناً:

وغانية لها عنقٌ طويلٌ يُرى مثنَى السموط به فَرادا
أقول لمن يلاطفها خداعاً (أرى العنقاء تكبر أن تُصادا)

وقوله مُورِّياً:

فارقتُ في جَمالها كل عذُولٍ وخليل
لكنني فارقتهم طُرّاً على وجهٍ جميل

وأحسن منه قول شهاب الدين الخَيْمي[2] رحمه الله تعالى، ومنه أخذ:

وعذول لح في عذلي إذ لم ير الخال على الخد الأسيل

---

(١) اليُسْرُ: شجر له حب أسود طيب الرائحة ينظم في سلك.

(٢) هو شهاب الدين محمد بن عبد المنعم الخيمي، بالخاء المعجمة، شاعر يمني الأصل مولده سنة (٦٠٢ هـ) بمصر، وله ديوان شعر بمكتبة فلورنس برقم (١٨٦)، وفاته سنة (٦٨٥ هـ) (الأعلام ٦/ ٢٥٠ وفوات الوفيات ٢/ ٢٢٩).

لو رأى وجه حبيبي عاذلي ... لتفاصَلْنا على وجهٍ جميل

وقوله وكتب به إلى خليلٍ له أسمر اللون، وقد فارق بعض الثُغور التي هو فيها، وانفصل عنه، وهو معنى في الأسمر بديع:

قل لعفيف الدّين أن جئته ... معاتباً من بعد رَدّ السَّلام
فارقت هذا الثغر من بعد ما ... قد كنت يا أسمر فيه الوشام
وصار لمّا غبت مستوحشاً ... فما يُرى قطّ لَهُ ابتِسَام

وقوله في صديق له كريم شجاع:

ولي صديق لو لقى عنتراً ... وحاتماً لم يذكرا في العرب
للجود والبَّاس غدا جامعاً ... فاعجب له من واهبٍ لم يهب

وقوله وهو في السجن والقيد معتقل بقصر[1] صنعاء اليمن المشاد [أيضاً][2]:

لقد قُلت للزُّوّار في السجن عندما ... تباكوا وأبدوا لي توجّع راحمِ
ألم تعلموا أن القيود خلاخل الرِّ ... جال وأن السّجن خِيْسُ الضراغِم
ولا عار في سجن إذا هو لم يكن ... على سَببٍ يخزيك بين العوالم

وقوله في تشبيه السّيف الذي يظهر عليه جوهره[3]:

هذا حسام فاصل رق كما ... راق به الفولاذ والسَّناءُ
كنور شمسٍ داخل من كُوَّةٍ ... يجول في باطنهِ الهَبَاء

وقوله في تشبيهه أيضاً وهو مثلهُ في معناه:

حسامٌ قاصِلٌ قد خَضَّروه ... فأضحى للفرند به رواءُ
كنور الشَّمس يدخل من مضيقٍ ... فيظهر في جوانبه الهباءُ

---

(١) هو قصر غمدان الشهير، يقع في ربوة مشرفة على صنعاء (انظر: جواهر الدّر المكنون لزيد بن علي الوزير ص ٤٩٨).

(٢) زيادة من (ش).

(٣) في (ز) جواهره.

قال رحمه الله تعالى وكتبه على حاشية هذا التشبيه ما لفَظه: تَشْبيه السيف الذي فيه الفولاذ وهو الجوهر بشعاع الشَّمس الدَّاخل من الكوّة الذي فيه الهباء من التشابيه البديعة التي لم يسبق إليها، والهباء هو ما يَسْطع من دُقاق التراب، وهو أيضاً ما تراه منبثاً من الأجسام التي تظهر في نور الشمس الداخلة من كوَّةٍ كالذَّرِّ والحمد لله على ما منح انتهى من خطه ولفْظه سقى الله ثراه.

قُلتُ: لا شك ولا ريب أنَّ هذا التَّشبيه في منتهى الغرابة، وغاية الحُسْن، ولستُ بمسلِّم له أنه لم يسبق إليه كما زعم، فإنه أخذه عليه السَّلام من قول الأديب الفصيح المنشىء، إمام الترسل في المتأخرين علي الحنائي[1] رحمه الله تعالى في رسالته السَّيفية التي أوردها له العلامة الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد الخُفاجي رحمه الله تعالى في ريحانته[2] حيث قال في النثر عند ذكر السَّيف ما لفظه: كأنه جدول ماءٍ جرى في ساحة روضٍ فَظَهر منه رُؤوس نباتِه، أو لمعة ضياءٍ دخلت من كُوَّة بيتٍ فبدت على صورة ذاتِه، انتهى.

إلاّ أن المَوْلى الحسين طاب ثراه زاد في معناه بذكر الهباء وكون جوهر السَّيف يشبهه، فأغرب غاية الإغراب، وأودع هذا السَّيف من الحسن في قراب، ظَفر من هذا التَّشبيه بالحُسْنَى وزيادة، وعطَّل في ميدانه بمجلى ذهنِه جياده، لا زالت آيات أدبه مَتْلُوَّة، وطريقته في مثل هذه الغرائب مَتْلُوَّة، وكؤوس نفثاته الخمرية مملوَّة، وغروس بنات أفكاره عَلَى مَنَصَّةِ الدَّفاتر مجلوة، ويعجبني للمولى الحسين رحمه الله تعالى ما جاء[3] في جواب أجاب به على لُغزٍ في بندق وهو قوله من النظم في وصفِه:

---

(١) هو علي بن الحنائي بن أمر الله الحميدي، ترجمته في (ريحانة الألباء: ٢/٢٤٩، والعقد المنظوم في تراجم علماء الروم: ٢/٣٧٥) ووفاته سنة (٩٧٩ هـ).

(٢) (ريحانة الألباء: ٢/٢٦٢).

(٣) في الأصول ما جاله.

نـشـا مـنـه غـيـمٌ فـيـه رعـدٌ وبـارقٌ　　　ولـيـس لـمـمـطـورٍ بـه قـطّ إخـصـابُ
ومذ جاء بالتعصيب[1] أربى على ذوي　　　السّهام[2] وفيما قلتُه ليس يُرتَابُ
وأدرج آيات (الدخان) المبين في (الـ　　　ـحديد) وما خَطَّاه قوم ولا عابوا
به (النَّصر) أيضاً و(التَّغابن) حاصلٌ　　　إذا (زلزلت) في (الصّف) من ذاك (أحزابٌ)[3]
فقل لِمُريدٍ طاعةً منه إنَّهُ　　　مَريدٌ ويخشى من سُطَاه ويُهْتَابُ
فإن (آية الكرسي) في الصَّدر قرّرت　　　أطاع فلازم حفظها فهو غَلأبُ

ولما استدعى رحمه الله تعالى كتابنا المسمّى: «الأصداف المشحونة، بالجواهر المكنونة»[4] شرح الوسيلة المشهورة، التي تغدو عندها يتائم اللآلىء مقهورة، أرسلت به إليه، وكتبت من نظمي عليه:

بعثتُ ذا السِّفْر من حالي على خَجلٍ　　　نحو الذي طاب أعراقاً وأعرافا
فما رأيت على طول المدى أحداً　　　أهدى إلى البحر قبل اليوم أصدافاً

فأعاد الكتاب إليَّ بعد مدة وقد كتَب تحت نَظمي هذا من نظمه قوله:

البحر أنت بلا ريبٍ فلا عجبٌ　　　إذا بعثت لنا دُرّاً وَأَصْدَافَا
وكم سبيل إلى العليا سلكت فما　　　وجدت عن نيلها دراً وإضْدافَا

---

(١) التعصيب عند أهل الفرائض هو كون الوارث عصبة أي من قرابته يأخذ ما أبقته الفرائض، وهو هنا توجيه بهذه المسألة.

(٢) ذوو السهام هم: أصحاب الحصة والنصيب من الميراث.

(٣) هنا توجيه بسور القرآن الكريم: «الدخان» «الحديد» «النصر» «التغابن» «الزلزلة» «الأحزاب» «الصف».

(٤) هو من كتب المؤلف القيمة شرح فيه وسيلة الأديب محمد بن عبد الله شرف الدين التي أولها:

إلهي بسر الذات ذاتك في الأسما　　　بعرشك بالكرسي كرسيك الأسمى

انظر ديوانه ص (١٣٢).

أخوه المولى جمال الدين محمد بن عبد القادر(١)

أحد تلاميذ أبي، فهو فاضل له مقام عن غيره أبي، قرأ عليه فهذَّب مَنْطِقَه، وألبَس حُسْنَاً أيامه مَنْطَقَة، سماء معارف، ويَمُّ عوارف، بحر عذبٌ ذو لجب، إذا حُدِّث عنه فليس يُقضى عنده العجب، طاهر الذَّيل، لا يعرف الكُميت(٢) إلاّ من الخيل، نجب وهو في مهده، قبل أن يركب على نهده(٣)، وكان له خَطّ، مَا رقَم مثلُه من قَطّ قلمه قَطّ، هو للغادات طرر(٤)، وللغزال مسك سرر، وللغلام عذار بديع السرد، إذا دبَّ النمل منها على النّار والورد، فهو يَصْطاد إنسان العَين، إذا نصب شبك المسك في أرض الكافور واللُّجين، وَطومَاره(٥) للرِّقاع ظرْف، وطرسه روضٌ للقلم الرِّيحاني(٦) به تضوّع وعرف، وله في الأدب شراب هو من الخمرة في الأعضاء أدَب يصير به رقّ الكتابة(٧) حُرّاً، ويثمر به قَلَمُه ولم نر قبله غُصْناً أثمر دُرّاً، وقد أملاني منه ما أملى، وجاد لي من جواهره بما لا أستطيع له حملاً، ومات ولنا منه عِدات يرجى نجازها، وآمال فيه حال بيننا وبين كعبتها حِجَازُها، مِن أقوالٍ نُسِبت إلى الجَفْر(٨)، ولاحت عليه مخايلها وهو غلام جَفْر(٩)، وسار بأخبارِهَا الطِّيبة السِّفْر، حتى أشارت الأنامل إليه، ولذا فإن أخاه المولى الحُسَين قال في حَقِّه مُجِيباً عليه:

---

(١) ترجمته في (نشر العرف: ٢/ ٦٧٢) نقلاً عن كتابنا هذا، وهو الذي جمع ديوان أخيه الحسين.

(٢) هنا تورية بالكميت وهو الخمر. والكميت من الخيل ما كان لونه بين الأسود والأحمر.

(٣) النهد: الفرس الحسن الجميل (سبق).

(٤) جمع طرة: وهو أن تقطع للجارية في مقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج وقد يتخذ من رامك.

(٥) الطومار: الصحيفة.

(٦) من الخطوط معروف، وهو هنا أراد به تورية بالخط والمشموم.

(٧) هنا تورية بالرق العبد المكاتب. والرق: قرطاس الكتاب.

(٨) كتاب ذكر فيه علم الحرف بنسب إلى بعض أهل البيت.

(٩) الجفر: الصَّبي إذا انتفخ لحمه وأكل، والجفر كتاب فيه العلم الإجمالي بلوح القضاء، انظر الكلام عليه بتوسع في كشف الظنون (١/ ٥٩١).

أعِد نظراً في الجفر إن كنت تفهم الر مــوز فــفــيــه مــا يَــسُــرّك سِـرُّه
بــإسـم أبـيـه واســمـه واسـم أمّـهِ دلـيـل جـلـي إن خـفـا عـنـك أمـرُهُ
ومـا قـد جـرى فـي الـلـوح لا بُـد أنّـهُ يـكـون ولـكـن كُـلّ أمـرٍ وعَـضـرَه

فخاب الأمل، وخسف الهلال وما اكتمل، وسقط في الحُفرة وهوى، وألقَى العصا من يده واسْتقَر به النَّوَى، بعد أن أحرم من ميقاتِه، وتَجرّد عن ثياب حياته ودار حول أركان نعشه وطاف، وشرب من زمزم حتفه شربة هي السّم الزعاف، سقَى الله عهده، ووطأ بالإستبرق مهدَه.

أنشدني من لفظِه لنفسه، واطلع من نجوم نظمه في ليل نقْسَه، قوله في مليح يسمَّى مصطفَى، امتَلأ إناء محاسِنِه وَطَفَا، وأرسل لحظُه السَّحار وَطَفَا، حبس في خيمة أضحى المحبُّون حولها في قعود وقيام، وقُصِر فيها فإذا هو من الحور المقصورات في الخيام:

وشـخـص يـسمَّـى مـصـطـفى صار فتنة بـمـا فـيـه مـن حـسـنٍ وذلـك مـنـظـورُ
لـقـد قـصـروه فـي الـخـيـام عـن الـورى فلا تـعـجـبوا من فـعـلـهـم فـهـو مـقـصـورُ

وأنشدني ما زاد به طَرَبي، قوله في فتاةٍ موسومة بالجمال يقال لها ابنة العِنَبي:

بـنـتٌ لـصـاحـبـنـا الـمـوسـوم بـالـعـنـبي تـسـبي وتـخـلـب عـقـل الـعـجـم والـعـرب
تـرى الأنـام سـكـارى مـن مـحـاسـنـهـا وكـيـف لا وهـي تـدعـى بـابـنـة الـعـنـبِ

أخبرني ألبسه الله تعالى من الرِّضوان رَفْرفة، إنه لما اطلع أخوه المولى الحسين على هذه النكته المستظرفة، سكر لها ولا كسكر ابنة العنبِ، وارتاح لها ولا كارتياح المحبّ إلى بارد الشَّنب، وقال: يا أخي سبقتني إلى هذه اللَّطيفة، وأنا أحق بها، واعتصرت هذه الخمرة الشهية من كروم عنبها، وأزلت عن هذا اللُّبَاب القُشور، وأبرزت هذه الغادة لما ضُرب بيني وبينها بِسُور، وما الأدب إلاّ كنز مدفون في الركاز[١]، يأذن الله باستخراجه لمن شاء من خلقه فيبرزه غاية الإبراز،

(١)الركاز: المال المدفون في الجاهلية قبل الإسلام يعثر عليه فيوخذ منه لبيت المال نصيب معلوم.

فسبحان المانح، بكل معنى سانح، وكنت أنا وإياه في بستان رصّع تاج دوحه باللالىء غيثُه الهتّان، تحت شجر، أظلّ من حجر، وقد أشعل الربيع نيران الورود، وأضرمت جمراته في جوانب الحدائِق فما جمرات[1] الخدود، فلولا النُّهور المتدفقة، لأصبحت بها الرياض محترقة، وقد جال الطل في النَّرجس الذي بَقَل، جَوَلان الدَّمع في مراض المُقَل، وسيف النهر بيد الصَّبا مصقول، وحديث الأزاهير برواية النَّسيم منقول، إذا سرق النَّسيم الدَّنانير والدَّراهم من الزّهور، صاحت به من الدَّوح العَّالي حَرَسُ الطيور، فأجابتها بالخرير والتَّدفق جواسيس النُّهور، وقوام الغصن عالٍ سام، وجوهر الماء في السَّواقي يَقْبَل التجزّي والانقسام، وقد كِدْنا نطير من السُّرور بنيل الأرب، لَمّا علَّمت الأغصان أعطافها الميلان من الطَّرب، نَتَناشد الأشعار المناسبة للمقام، وقد وقف الغصن على ساقه لخدمتنَا واستقام، فكان مما أنشدني من لفظه لنفسِه قوله:

قالوا فلانٌ لأخيه جفا ... ولم يكن قط لذا بالحقيق
لا تعجبوا من فعله وانظرُوا ... يا قوم ما أسود قلب الشقيق

قال: ولما اطَّلع عليه أخي الحسين بن عبد القادر أيده الله تعالى كتب تحته من نظمه قوله:

كم من أخ قد جفا أخاه ... وكدَّر العيش ثم نكَّد
إشارة الروض قد كفتنا ... تُرِيْك قلب الشقيق أسود

قال: ولما اطلعتُ على نظم أخي هذا كتبت تحته من نظمي قولي:

سلخت بيتي يا أخي كُلّهُ ... وقلت لي إنك لم تسلخ
فقم وحاكمني إلى حاكِم ... أتلو عليه إن هذا أخي[2]

قال: ولما اطلع عليه أخي الحسين كتب تحته من نظمه قوله:

سلخته مذ قلت قلبي غدا ... أسود يا ذا السؤدد الشَّامخ

---

(١) في (ش) حماره.

(٢) اكتفاء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ﴾ [سورة ص ٢٣].

فـلا تـسـاورنـي لـسـمّـي إذا دعـوتـنـي بـالأسـود الـسّـالـخ[1]

وكتب رحمه الله تعالى إلى أخيه المولي الحسين، يستدعيه إلى داره المحمية عن كل شين قوله:

إمـام الـنّـاس فـي الـعـصـر ورَبُّ الـنـظـم والـنّـثِـر
لـقـد أعـددت مَـطـبـوخـاً لـكـم مـن قـهـوة الـقـشـرِ
فـبـادر كـي تُـدارُ بِـنَـا فـفـيـهـا الـشّـرح لـلـصّـدرِ
وقـد أخـلـيـتُ مـجـلـسـنـا عـن الـثُـقـلاءِ بـالـقـصـرِ
وصـار الـيـوم مـبـتـسـمـاً بـلا زيـدٍ ولا عـمـرو

فأجاب وأجاد:

نـفـيـس الـدّر والـشـذْرِ عـلـى الـلَّـبَّـاتِ فـي الـنـحـرِ
بـل الـشّـعْـر الـقـويـم أتـى إلـيـنـا غـالـي الـسّـعْـرِ
مـن الـعِـزّي عِـزّ الآل سـامـي الـمـجـد والـفـخـرِ
حَـبَـانـا قـهـوة فـي الـصّـبـح فـاقـت قـهـوة الـعَـضْـرِ
فـسُـحـقـاً عـنـدهـا سُـحْـقـاً لأنـواعٍ مـن الـخـمْـر
حـلاوة سُـكّـرٍ فِـيْـهـا فَـخَـلّ مـرارة الـسُـكْـرِ
ومـا أشْـبـهـهـا بـالـمـسْـ ـك فـي لـونٍ وفـي عِـطْـرِ

وكتب من نظمه على كتابنا المسمى «الأصداف المشحونة، بالجواهر المكنونة»، مقرّظاً له قوله:

أرى عـقـود الـدّر إن مـا فـصّـلـت بـأحـمـر الـيـاقـوت أو بـالـشّـذْرِ[2]
حـقـيـرة فـي جـنـب مـا أودعـه الـ أصـداف قـاضـيـنـا الـرفـيـع الـقـدْر

(١) الأسود السالخ: الثعبان الأسود لأنه ينسلخ من جلده.

(٢) قطع الذهب.

حـرَّره شـرحـاً بـديـعـاً واضـحـاً　يـفـوق مـا حـبّـر كـلّ حـبـر
أودعــه مــن كــل فــنّ جـمـلـةً　مـفـيـدة ثـالـجـةً لـلـصّـدْر
وجـاء فـي تـألـيـفـه بـكـل مـا　يـعـجـز عـنـه أهـل كـل مـصـرِ
أحـمـد مـن ألّـفـه فـإنـه الـ　ـمَجيد فينا بل مجيد العَصْرِ
مُـطّـلـعٌ مـضـطـلـعٌ مـنـقـح الـ　ـألـفـاظ فـي نـظـم لـه ونـثـرِ
بـيَّـن مـا أشـكـل فـي الـوسـيـلـة الـ　ـلـتـي لـهـا سـر وأيُّ سِـرّ
إذ كـشـف الـرَّحـمـن عـن عـبـادِه　مـن بـعـدهـا الـطـاعـون فـي ذا الـقـطـرِ
فـقُـل لـمـن ألّـف فـيـنـا شـرحـهـا　نـلـت بـه الأجـر وفـخـر الـدَّهـرِ

ومن نثره الذي يفوق من الدُر النثار، ونفثاته المعدودة من جميل الآثار، ما أجاب به عليَّ في كتاب، وذلك قوله في صَدْر جوابه ويا له من جَواب:

القاضي العَلاَّمة الفاضل مع مراعاة النكتة، الخطيب البليغ الكاتب الذي لم ير في عصرنا مثله البتَّة، صاحب التآليف الجيّدة، والمصنفات التي هي لسائر الكتب سيِّدة، فما تأليف الحريري والبديع، فإنها ذهبت نَضارتُها فأزرت بِنَضارة زَهر الربيع، الناشىء في اكتساب الفضائل على أقوم سَنَن، شهاب الدّين أحمد بن محمد بن الحسن، صان الله فَضْله فإنه عين خطباء الزَّمن، وأهدى إليه أفضل سلام وإكرام ما توالت من الله سبحانه عليه المِنن، وما واظب الطائع من النَّاس على تأدية الفروض والسُّنن، هذا وإنه وصل إليّ كتابكم الكريم، ولفظكم القوي وخطكم القويم، فسرَّني وشرح صدري ما شرف من أقوالكم، وحمدت الله تعالى على عافيتكم وصلاح أحوالكم، وكاد أن يرجع إليَّ شبابي، وذكرت ما مرَّ لنا نحن ووالدكم أستاذنا فمنه جُل اكتسابي، من مناقلة العلوم والآداب، والظفر منهما بأوفر القسم وأتم الأسباب، وجرى دمعي على خدِّي، ولكن ذكرت أنك بقية في الفضائل فزدتُ لله في شكري له وحمدي، فما مات من السلف، من كنت له نعم الخلف، هذا والله يديم البلاغة بدوامك، ويزيد منها في منيحتك وإنعامِك، ما سَرَّ منَك ورود كتاب، وطُوي في رقك روض خطاب، والسَّلام.

وكتبتُ أنا إليه وقد وصلني من أخيه المولى الحسين سقى الله ثراه نظمٌ وكان وصوله بواسطته:

يــا عــز ديــن الله عِــش ... فــي نــعــمــةٍ مُــخَــالَــطــه
أبــيــات مــولانــا غــدت ... مــنــهــا الــعــقــود ســاخــطــة
كــأنــهــا حــســنــاء فــي ... وعــدِ الــلّــقــا مــغــالــطــه
لــجَــغــدهــا مــن الــمــدا ... د فــي الــطّــروس مــاشــطــه
أو روضــــةُ لــــزهــــرهــا ... بــدُرّ قــطــرِ نــاقِــطــه
فــإن تــكــن عــقــداً فــمــا ... غــيــرك فــيــهــا واسِــطَــه

وكتبتُ إليه جواباً من النّثر لما وصلني منه مكتوب مصحوباً بأبيات بائيّة ونثر حسن من أخيه المَوْلى الحسين رضي الله عنه أيضاً وهو قولي:

أطال الله لكم البَقاء، وأسعدكم بما لا تعرفون معه الشَّقاء، وخدمتكم عني التَّحيَّة السنَّية، بروضة رقمت برودها الزُّهور الجنيَّة، وَخَمَل طيرها في الخمائل، وخطب فصيحه على منبر غصنها المائل، وَصَلني منكم ذلك الوصل، ونفذ إلى أغراض أغراضي ذلك النَّصل، فمال عطفي به طربا، وقضى إنسان عيني من التمتع به أرباً، فها أنا لم أنظر مثل قافية اشتمل عليها ولم أربى، فأبيات المولى الحسين لما أعربت، ونطقت حمائمها باللّحن على أنها أعربت، أوجبت اطّراح الوقار إذ أطربت، وهو إمام النّظم بلا مرا، وقريضه النسيم العاطر وقد شرى، طالما أورث العنبر عاراً مُتضوّع ماله من الأشعار، حتى رمى بنفسه في النار، وقال النار ولا العار، فنظمه على الحقيقة مُدَام، إلاّ أنه يشرُف عن النجاسة وعن دوسه بالأقدام، ونَثْره الذي هو المنثور، يهيج به الغرام الكامن ويثور، قد نعش بنشره الميت، وجرى بنا في حلبة المسرة فعطّل الكميت، يقتطف النرجس من روضه المَطْلول، ويعصر ماء الورد من ذَيل نَسيمه المبلول، فلله درّه من فارس [نظم ونثر لم يلحق، ومن بدر فصاحه استدار في منازل العليا فلم يمحق][(1)]، وسلام عليه وعليكم،

---

(١) ساقط من (ش).

يَنْهَى إليه بعد أن يُنْهَى إليكم، يستمر أداؤه أبداً، ويظهر بحره من بياض الطُّروس زَبدا، وينتخب منتقيه من اللَّفظ النَّفيس زُبَدَا، ما افترت الغيوم، في وجه روض سهوم[١].

جَدُّنَا قاضي القُضَاة الحَسن بن أحمد الحَيْمي[٢]

رِئبال وأي رئبَال، دامي الظّفر مورس[٣] السِّربال، غِشمشم يغشى الشجر، وشجاع يتصدَّع له قلب الحجر، كثير جِهَاد في أرض جهاد، مُسْعر حرب، وأسد طعن وضرب، إذا هزَّ حسَامه، فهو أشجع من أسامة[٤]، فَمَا حُمّ[٥] الأسد، إلاّ لما أجنته ضلوعه له من الحسد، طالما قطع أودية جلحاء[٦]، غير مفتقر إلى الكتيبة الملحاء[٧]، وطالما جعل رمحه للرُّؤوس سلكاً، وطالما أوقع بالبغاة فطعنهم مخلُوجَة[٨] وسُلكا[٩] كأنهم فراخ قطا، لدى بازي أجدل بمنسَره قد سطا، مَتَى وَجَّه عزمَه إلى الفلك، كاد أن يفترس أسده[١٠] الذي سلك، فإذا لم يخش من بسالته، فما ظنك بجَدْي[١١] الأفق وغزالته[١٢]، وإن تناول السيوف والأسنَّة،

---

(١) كأنه اسم موضع أو نزهة هناك.

(٢) أديب وعالم سياسي، مولده بكوكبان، وتولى السفارة إلى ملك الحبشة. توفي سنة (١٠٧١). (البدر الطالع ١/ ١٩١، مصادر الفكر (٤٨٩).

(٣) أي مصبوغ بالورس (معروف).

(٤) من أسماء الأسد.

(٥) إشارة إلى أن الأسد تعتريه حمى في النَّهار.

(٦) أي ملساء.

(٧) أي الكتيبة البيضاء من السلاح.

(٨) طعنة مخلوجة: منزعة.

(٩) يقال سلك السِّنان في المطعون: دخل.

(١٠) إشارة إلى الأسد البرج الذي في السماء.

(١١) الجدي من النجوم في السماء.

(١٢) الغزالة من النجوم.

ارتاعت حتى في بطون الأمهات الأجنَّة، كم سقى غصون الرّماح من دم الأعداء صَبّيا، فأثمرت من رؤوسهم ثَمَراً جنياً طيِّباً، وقاد كتيبة شَهْبَا، فصَيَّر نُفوس الناكثين وأموالهم نهبا، وفُتح له من الفتح روضه الأنضر، وجنى بأنامل السُّمْر ثمرات النَّصر من بين ورق الحديد الأخضر، وقد نشرت أيدي الخيول مطارف العجاج، فطرّزها الفرسان بالذَّهب من لَمَعان السيوف والأسنَّة والزَّجاج، إذا خفقت الأعلام للجلاد فعلى راسه، وإذا استضيء في لَيْلِ العِثْير المُظْلِم فَبِنِبْراسِه، ومما يفتقر من عجائبه إلى الإعلام، بأنه عُرِّف في ساعه الجلاد باللأم وهو يُعَد في الأعلام:

وما دخلت على الأعلام لامٌ

فكم جاد لله بنفسه ومالِه، وقاسى الخشونة، وفي الحديث: «ليس أخو الحرب من يضع خُوْر الحشايا عن يمينه وشِماله»[1]، رحَل إلى أرضِ الحبشة وَسُنَّار[2]، وشمّر بعزمٍ تقدح من أطرافهِ النَّار، وجاب البّر وخاض البحر، ووضع قلادة الذكر الجميل من الزمان على النحر، ثم جاهد في أرض الشَّحر وحَضْرَمَوْت، وألقى بنفسه في حومة هي على الحقيقة موت، ثُمَّ خلَص من الشَّرّ، ولَبِس حُلَل الثناء التي تُنْشَر، ومات في وطنه على فراشه الناعم، وحُرِّم جسدُه على طاعنٍ وطاعم، بعد أن شيّد ركن الثناء وبنى، وقالت لسان حاله، لا نامت عيون الجُبَنا، وهو مع ذلك في غاية الزُّهد، ومنَتهى العِفَّة التي حَلَت له حُلوَّ الشَّهْد. مع إقبالِ وجَدّ، ما ناله من شمر وَجَد، ولا ظفر به غيرُه من أب وجَد، فلو رضيَ من الدنيا بزينَة، لأوقرت ركائبه بالأحمال الرَّزينة، ولنثر الفلك فوقه النجوم دراهم، والبدور دنانير لم يكن له فيها مُساهم، ولأحالت الرّياض له خصوصاً، أوراقها ديباجاً وزهورها فصُوصاً، لكنه عن الزخارف بمعزل، إذا جَدَّ غيره في اللَّذات فهو يَهْزِل:

---

(١) من حديث عمرو بن العاص مرفوعاً، ومعناه ليس أخو الحرب من يضع ليان الفرش والأوطية. انظر النهاية (٢/ ٨٧).

(٢) سنّار: مدينة في السودان (مديرية النيل الأزرق).

لو راودته الجِبَال الشم من ذهب عن نفسه لأراها أيما شَمَمِ

ولي القضاء والخطابة، فأعذب وردهما وأطابه، مع جلالة مقام، وكلمة تقصر عن نفوذها السّهام، فقلمه أمضى من سيفه، وأطعن من عامله في نحر من عامل الحقّ بِمَيْنه وحيفه، كم سلك في المنهج السوي، وجنح إلى نصر الضَّعيف على القوي، وحِمَاه لهيبته محترم، لو لاذ به الشَّاب لأمن من أيامه الهرم، أو هبط إليه البدر من الفلك، لما سلك به المحاق فيما سلك:

والشمس لو أنها تأوي إليه لما كانت عليها وربِّي للكسوف يدُ

وكان يجعل النَّهار لقراءة العلوم وتنقيحها، ويعيّن الليل لقصاصة الكتب وتَصْحيحها، فتارة بين علوم وتارة بين أعلام، وحِيناً بين رماح خطّيَة[1] وحيناً بين أقلام، ولم يَزَل متصدِّراً للأحكام، وحلّ العظائم التي أحكمت غاية الإحكام، فبمثله تُطْرد الأوابد[2] ويكابدُ به العدوّ ما يكابد، إلى أن نزلت به أم قَشْعم[3]، وإذا حادثه للوَرَى جميعهم قَد عمَّ، رُفعت روحه إلى منازل السعداء، فتنفس الكون بهبوب الرّياح تنفّس الصُّعداء، فلولا دَمْع النهور الرّقراق، لاحترقت الأرض وما عليها أشدّ احتراق، سقت ضريحه الأنوا، وتعاهدت منه طيِّب المثوى، وقد جمعت من أدبه الذي نُقِل، كتاباً لطيفاً منفرداً هو بذاته مستقل[4]، ممّا أودعه في كتابه المسمَّى «حديقةَ النظَّر، وبهجة الفكر، في عجائب السّفر»[5]، وممّا أودع في غيره، وأفصح به هديل طيره، من محاوراته، ومكاتباته، وابتداءاته ومراجعاته، كتب إلى السَّيد العلامة الأديب شهاب الدين أحمد بن الحسن بن أحمد بن حميد الدِّين رحمه الله تعالى المتقدم ذكره قوله:

---

(١) جمع خطّي: الرمح منسوب إلى مرفأ بالبحرين أو اليمامة أو هجر.

(٢) الدواهي.

(٣) أم قشعم: المنية.

(٤) يسمى «لذة الوسن» منه مخطوطة بمكتبة برلين.

(٥) هو من أشهر كتب أهل اليمن في الرحلات، طبع في سنة ١٨٩٤ م بالمانيا بعناية بعض المستشرقين ويعرف أيضاً بـ«سيرة الحبشة» ضَمّنه أخبار رحلته إلى تلك البلاد.

أيا سادةً بانوا فبان الكرى عنّا ... وخان زمان بالفراق وما خنّا
رحلتم فلا والله ما العهد عهدنا ... ولا نحن في عيشٍ لذيذٍ كما كُنَّا
وأوحشتم والدَّار آنِسة بكم ... وحلتم عن العهد الأكيد وما حُلْنَا
علام وفيم الهجر يا أهل ودّنا ... وهل صنتم ذاك الوداد كما صُنَّا
نسيتم حقوقاً ما رعى الدَّهر عهدها ... وأيامنا بالأمس في الروضة[١] الغَنَّا
ليالي لا واشٍ ينمّ بسرّنا ... ولا عُرف الهجران منكم ولا منّا
رأيت زماني كلما ظَنّ صاحبٌ ... بخلّ وفاء لم يحقق له ظنّا
فصبراً على ريب الزمان فإنني ... جعلت احتمال الصبر من خلقي فَنَّا

فأجابه بقوله:

فؤادي كفيل بالوفا مثل ما كُنَّا ... سَواء أقمنا عندكم أو ترحَّلنا
وعهدي لكم عهدي كما تعرفونه ... وأحنى ضلوعي من تناسيكم أحنى
وعَهدي[٢] لكم لو كان بعدي فراسخاً ... فكيف بقدر الميل إن غبتُم عنَّا
أعدّ وفائي فرض عين مؤكَّداً ... عليَّ ولو سن الجفا فيه ما سنَّا
عتبتم ولا ذنب لذا العتب موجبٌ ... لدي ولكن عاتبوا الدَّهر والوجْنا[٣]
فكم رحلةٍ روّعتمونا بوقعها ... وأوحشتم الأهلين والصَّحب والْمَغْنَا
وكم جرعةٍ جَرّعتمونا فراقكم ... فذوقوا وإن لم نرضه بعض ما ذقنَا
ودمتم على بُعد المزار وقربه ... ولكن خذوا لي من تجافيكم أمنا
إذا لم يكن لي حِلْو سَلْوي لبُعدكم ... فلا بُد من أن تمنحوا بالوفا منَّا

وكان بينه وبين السيد إسماعيل بن إبراهيم الجحّافي[٤]، من الود الذي ليس

---

(١) يعني روضة صنعاء.

(٢) في (ش) و(ب) وهذا.

(٣) الوجنا: الأرض الغليظة.

(٤) سيأتي.

بمغمور ولا خافي، ما لو كان بين السَّماء والأرض لن ينفتقا، أو بين زحل وسائر النجوم لن يفوتها في المنزلة بالارتقا، فإنه كان إسماعيل له خَليلاً لا ذبيحًا، وكان يَسْفر له وجه حُبِّه صبيحاً لا قبيحاً، وبينهما مكاتبات بصفاء الودّ قد مُزجت، ومشاعرات نفحاتها بالنَّشر الطيب قد علجت[1]، كتب إلى السَّيد المذكور، وقد أهدى له سُبْحَة يسر قوله:

تعهَّدتني بالبر يا ثاني البحر ... ويا ثالث الشمس المنيرة والبدر

وَيَسَّرت لي من فضلك الجم سُبْحةً ... مُيَسَّرة للذكر من أحسن اليُسْرِ

وهل هي إلاّ الدرّ في سلك نظمها ... وأنت الخضم البحر تقذف بالدُّرّ

ويعجبني منها السَّواد لأن لي ... غراماً به ما زال يخطر في فكْرِي

وكم لك عندي من صنائع جمَّةٍ ... أعدَّدُ منها لا تعدّد للحَصْر

علي لك المدح الذي أنت أهلهُ ... وإن لم أوَفِّ الحق من واجب الشُّكْر

فلا زلت يا مولاي في خير نعمةٍ ... تجود لمن صافاك بالنّعم الغُرّ

فأجابه بقوله:

قلائد دُرٌ دائرات على نحرِ ... ولاز[2] وشام حُف مبتسم الثَّغر

وروض أَقَاحِ أَلَّفته ونشَّرت ... نسيم فجاء الحسن في اللفِّ والنَّشرِ[3]

نظام أتاني من أخٍ متبوّءٍ ... محَلاً سما قدراً على الأنجم الزُّهر

طربتُ له والله حتى كأنني ... شربت به كأساً لذيذاً من الخمر

وقلت لمن أنشاه مولاي إنني ... سُحِرت لعمري والبيان من السِّحْرِ

---

(١) في (ب) وش «ملجت».

(٢) كأنه من عامية ذلك الوقت، واللاز عندهم اللازورد اللون المموّه بالذهب والزرقة وهو حجر (انظر الجماهر ١٩٥).

(٣) اللف والنشر: عند البديعيين هو أن تذكر شيئين فصاعداً إما تفصيلاً فتنصّ على واحد منها وإما إجمالاً فتأتي بلفظ يشتمل على متعدد وتفوّض إلى العقل رد كل واحد إلى ما يليق. انظر: (خزانة الأدب ٦٦).

عـيـون مـعـانـيـه الـبـديـعـة أذكـرت «عـيـون الـمـهـا بـين الـرصـافـة والـجـسـر»
وحـرّكـن وجـدي بـالـحـبـيـب وإنـمـا «جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري»
أمـولاي لا تـعـجـب لإهـداء سـبـحـة مـنـظـمـةٍ سـوداء مـن أحـسـن الـيـسـر
فـإنـي أردت الـفـأل فـي كـل مـا تـرى ويـكـفـيـك أن الـسّـود أحظى من الـغُـرّ
عـلـيـك بـذكـر الله فـيـهـا مـشـاركـاً مـحـبـك إنـي لا أريـد سـوى الـذّكـرِ

أقول: قوله في الجواب سحرت لعَمري والبيان من السّحِر، هو يشير به إلى قوله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحراً»[١] وقد اختلف في معناه فقيل المراد المدح، فإن البيان الفهم وإنما شُبّه بالسّحر لحدّة عمله وقبوله في القلوب وتَعجّب السّامعين منه؛ لأنه بعضه يوضح المشكل ويكشف عن حقيقة المجمل بحسن بيانه فيستميل القلوب كما تستمال بالسّحر. وقيل المراد الذَّم؛ لأن السّحر تَمْويه وقد يقع من البيان ما يلبس الحق بالباطل والباطل بالحق لما في البيان من إبداع التَّركيب وغرابة التأليف ممَّا يجذب السَّامع ويخرجه إلى حَدّ يكاد يشغله عن غيره، فَشُبِّه بالسّحر الحقيقي، ويشهد له قوله عليه الصَّلاة والسَّلام «الحياء والعي شعبتان من الإيمان والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»[٢] قيل والأول أصح، وقال صاحب القاموس: معناه أن يمدح الإنسان فيصدَّق فيه حتى يصرف قلوب السَّامعين إليه، ويذمّه فيصدق حتى يصرف قلوبهم أيضاً إليه انتهى.

وأقول: الظاهر أن طريقة المدح للبيان غير طريقة ذمّة، فهو ممدوح من قبل البلاغة وحسن الصِّياغة، مَذْموم من جهة الشرع إذا كان الغرض منه المباهاة بالبلاغة والرَّغبة في السمّعة والاشتهار، وَلَبْس الحق بالباطل ونحو ذلك مما يقبح لها: كما قال في هذا الحديث «إن من الشعر لحكمة» وجاء ذمّة في وجه آخر، وبالجملة إن الشعر والبيان من جملة الكلام حسنهما حسن، وقبيحهما قبيح والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي بن كعب.

(٢) حديث «الحياء والعي» الخ رواه أحمد في المسند والترمذي عن أبي أمامة.

ولدُه مؤلانا شيخُنا الوالدُ الإمام العَلاَّمة القَاضي محمد بن الحسن الحَيْمي[1]

رضي الله عنه إمام جمع شروطه، ونَسج بأيدي العلوم مروطه، وصاغ من خالص عَيْنها قروطَه، يتّضع لديه الشريف الجزجاني[2]، وتنالُ الأكف من ثمار علومه ما لا يناله من الرَّوض كفّ جاني، ذو صارم في الفنون مصقول، يُسلّم له حجة الإسلام الغزالي في الجمع بين المعقول والمنقول، ويكلّ عنه في الأصول السَّيف الآمدي[3] ويقول الفخر الرازي[4] بجنب اطلاعه على العلوم: لقد ذهبت محامدي، فما الجاحظ في الأدب والبيان، وما ابن الجوزي[5]، في الوعظ لذي العيان، حلّت المعارف بجنانه وأثمرت غصونِ الأقلام في جِنانه، بنى من البلاغة أسُها، وفاقَ في الفصاحة قُسّها، فهو أوحد البلغاء في الأقران، طالما عَجِبْت لعسَّالٍ من قلمه وهو مِرَان، إن خطب خطب من المعاني أبكاراً، واطلع على أعواد المنابِر من مواعظه أثماراً، وإن أنشأ أنشى الأعطاف، كنشوة الخمرة التي بها يُطاف، وإن نظم نظم الجواهر واطلع في سماء طرسه وَلَيْل مداده الزَّواهِر، فهو أعمق من البحر، وأولى بقلائد الأدب من النحر، مع همَّةٍ لو وُجِّهَت نحو الأفق منها نُصول، لكان لخضاب الظلام من لحيته نُصُول، فلذا قعد على كرسي الثُريا،

---

(١) هو أديب فاضل، والد صاحب الكتاب، توفي سنة (١١١٥ هـ) (ترجمته في البدر الطالع ٢/ ١٥٣ ونشر العرف ٢/ ٥٩).

(٢) الشريف الجرجاني هو علي بن محمد بن علي من علماء البلاغة والكلام ولد سنة (٧٤٠ هـ) ووفاته سنة (٨١٦ هـ) انظر (الأعلام ٥/ ١٥٩).

(٣) السيف الآمدي: هو علي بن محمد بن سالم التغلبي: أصولي باحث، من أشهر كتبه «الإحكام في أصول الأحكام» و«أبكار الأفكار» و«لباب اللباب». توفي سنة (٦٣١ هـ). (وفيات الأعيان ١/ ٣٢٩ والأعلام ٤/ ٣٣٢).

(٤) الفخر الرازي: هو محمد بن عمر بن الحسين، مولده سنة (٥٤٤ هـ) وبرع في علوم الكلام والتفسير، من مؤلفاته «مفاتيح الغيب» و«معالم أصول الدين» و«المباحث الشرقية» توفي سنة (٦٠٦ هـ) (وفيات الأعيان ١/ ٤٧٤ والأعلام ٦/ ٣١٣).

(٥) هو عبد الرحمن بن علي بن الجوزي من مشاهير العلماء وفاته سنة (٥٩٧ هـ).

وقطف نرجس النجوم يفوح ريا، وسعادةٍ لها تنفعل الصّعاب، وتأتيه معها نجوم الظّلام كأسهم الجعاب، فيرمي بها من أراد وما أراد، في يوم راحته على فراشه لا في يوم الطراد، ولو رام طعن[1] زنجي اللّيل البهيم، لوافاه عود الصّبح منه برمح قويم، فيفعل به ما يفعل بالأمس، وَيَصْترف[2] بدراهم النّجوم دينار الشمس، فقد قابله الدَّهر من شمسه بوجهٍ جميل، وإن كان قد دهش من فرحه به حتى أصابه يرقان الأصيل، نزلته الأيام منزلة حبيبها، فكم من رغائب لها قد حُبِيَ بها، وافته المحامد من غير أن يقصدها ويتعّمد، ورجعت له شمس العلا ولا غرو أن ترجع الشمس لمحمد[3] وله كف تنويلها وَكَفْ، وهمع صَيْبها فما وقف.

طالما أطلق أقلامه في الجود، فما أسمعها آية الكرم إلاّ خرت عند سماعها بالسجود، يُقال للمقتر: انح داره، فإن براحَتِهِ مأجودٍ طالما والىَ انحدَارَه، فلذا استمسك العُفاة بأعتابِهِ، ولاذ المسنتون[4] بأطنابه، وقال للآمال: إليَّ عودي، فقد أرست سفينة النَّجاح من راحتي على جودي، يطوف حوله الخائِف، فإذا رَئِي هو ورُئي قاصده قيل: هذا الحرم وذا الطّائف، فكم حَصَّل ليراعِه في النَّوال من جملة لفظيّة ومغنويَّة، وكم حدث من ليل حِبْره خَيْرٌ يفصح بتكذيب المانوية[5]، فمقامه يذهب بالحُزْن، وجوده يتعَثّر بخيوط الحياء منه المُزْن، فهو ذو سماحةٍ وافرة الأيادي، وفصاحَةٍ هو معها أبلغ من قُس الإيادي[6]، يهب الألف وهو مبتسم، إذا كانت شواهد التعبيس لوجه غيره تسم[7]، ولذا مُدِح وقُصِد، وزُرع الأمل بناديه

---

(١) في (ز) طعم.

(٢) في (ش) ينصرف.

(٣) إشارة إلى حديث ردّ الشمس الذي روته أسماء بنت عميس انظر كتب السيرة.

(٤) جمع مسنت: المسكين المنقطع.

(٥) نسبة إلى ماني، من القائلين بالتّناسخ ومذهبه مزيج من المجوسية والنصرانية، يقول بمبدأ الخير والشر، والنور والظلام. وإن الظلام من الشر وقد عاش بين عامي (٢١٥) و(٢٧٦) ميلادية.

(٦) هو قس بن ساعدة الإيادي، خطيب جاهلي يُضرب به المثل في البلاغة والحكمة.

(٧) يقال سمه: أغضبه.

وحُصِد، قليل السَّفَه، خفيف الشَّفه، فما مَدَح مستجدياً، ولا رُئي لغيره على الحاجات مستعدياً، قَرَأتُ عليه فهداني، وقطفت من حدائقِه ثمر عرفانٍ داني، فإذا هو بَحْرٌ للدر فيه غُصْنَا، وغيثٌ لو وقع على عودٍ قالحٍ[١] لماد غُصْنَا، وقد نَظمت من آدابِه عقداً، وجمعت من شعره مؤلَّفاً لا يُخشى له مدى الأيام فقْدا، ومن مكاتباته التي منها مياه الرقة تقطر، ومحاوراته التي شك لآليها في سموط الأسطر، ومن مديح الشعراء له ممّن ورد منهل كرمه وعَبّ، وسميت ذلك المجموع «رغي الأبّ»[٢]، ومن تأليفه كتاب «عمدة الذَّخائِر في تهذيب الأخلاق وَالسَّرائر»، وكتاب «إنباء الأبناء بالطريق الحُسْنَى»، وشرع في مقامات عارض بها المقامات الزمخشريَّة، وغرس منها روضاً سلب روض جار الله حسنه وريّه، وقدح من زنده الذي لا قدح فيه ناراً وَرِيَّه، وما زلت بين يديه لأخذ الفوائِد جاثما، متناولاً من عبارته خمرة لم أكُ بتناولها آثمَاً، مُقَبّلاً لِكفّه ولأقدامه، على الإفادة لاثماً، حتى غاض منه بحْرٌ مُغيِّم، وأضحت العُلا وهي بَعْده أيِّم، لما فجع فقده، وقد كان منظوماً على ترائِب[٣] الأيام عِقدُه، تبكيه الغمائم، وتنديه الحمائهم، وتشق جيوبها بأيدي النَّسيم عليه الكمائِم، سقى ضريحه السّحاب، حتى تزهر ساحاته الرّحاب، ما تعانقت الغصون بالقدود الرشاق، وتصافحت بأنامل الزَّنبق الغضّ وأكف الأرواق.

ومن لطيف نظمه قصيدته الذَّالية، التي هي بنضار الألفاظ وجوهر المعاني حالية، وهي قوله:

مُغرى بحبِّك أين منك ملاذُه	هيهات قد أودى به استحواذُه
ما شحَّ مُذ عَزَّ التلاقي دمعه	بل سَحّ منه وبلُه ورَذَاذُهُ
أشفى على مُرِّ التلاف وما شفى	قلباً فهل من عندك استنقاذه

(١) يابس.

(٢) في (ب) الأدب وفي (ش) «عن الأدب» ومنه مخطوطة بجامع صنعاء.

(٣) في (ز) تراتيب.

وهـو الـلّـديـغ بـأرقـم أرسـلـتَـه ... لـلـفـرع مـا أنـجـاه عـنـه لـواذُه

وبـفـيـك تـريـاق بـه تُـرقـى ومـا ... بـسـواه مـن لـدغ الـجـفـون عـيـاذُه

خـمـرٌ يـروح الـرّاح عـنـد مـذاقـهـا ... فـي الـسّـكـر مـنـبـوذاً لـهـا نـبّـاذُه

أيـحـلّ فـي شـرع الـهـوى تـعـذيـبُـه ... كـلا وإن يـك عـنـدك اسـتـلـذاذُه

هـلاً رفـقـت بـه فـمـا كـأخـي الـوفـا ... فـي الـحـب مـلاًل الـهـوى مـلاّذُه

عـطـفـاً عـلـيـه ودع مـقـالـة حـاسـدٍ ... واشٍ يـطـول بـنـمـه أغـذاذُه(١)

يـا أيـهـا الـرشـأ الـذي فـي حُـبِّـهِ ... مـن كـل قـلـبٍ قُـطّـعـت أفـلاذُه

عَـجـبـاً لـجـسـمـك وهـو يـشـكـو رقّـةً ... مـا لاذ إذ يـلـقـى عـلـيـه لاذُه(٢)

ولـطـرفـك الـسَّـحـار تُـرْسـل سـهـمُـه ... فـي دارعٍ وإلـى حـشـا نَـفّـاذُه

وسِـنَـان وَسْـنـان الـجـفـون رأيـتُـه ... [مـاضـي الـشَّـبَـا وفـتـورهـا شُـحَّـاذُه

والسَّـحـر لـم يـخـتـصّ طـرفـك إنـمـا] (٣) ... صُـوِّرتَ مـنـه فـمـن تـرى عُـوَّاذُه

فـاسـتـمـل مـا أُلْـقِـيـه مـن بـعـض الَّـذي ... أُلْـقَـى فـإنـي فـي الـهـوى أُسـتـاذُه

واسـمـع مـن الـجـمّ الـغـفـيـر حَـديـثَـه ... عَـنِّـي ودع مـا قـالـه شُـذَّاذُه

وقوله في مليح أحول:

لا تـظـنـوا أن فـيـه حَـوَلاً ... لا ومـن قـد صـانـه عـن كـل شـيـن

إنـمـا جـاءَ رقـيـبٌ بـيـنَـنَـا ... فـاجـتـمـعـنـا بـاخـتـلاف الـجـهـتـيـن

فـبـعـيـن قـد رآه إذ رأى ... ورآنـي حـذراً مـنـه بـعـيـن

وقوله فيه أيضاً:

لا تـحـسـبـوه أحـوراً أحـولا ... فـلـيـس فـي عـيـنـيـه مـن ذاك شـيـن

لـكـنـه مـذ مَـدَحُـوا عـيـنـه ... حَـاول أن يـنـظـر عـيـنـاً بـعـيـن

وقوله:

---

(١) يقال: غذغذ منه نقصه حقه.

(٢) اللاذ: ثوب حرير أحمر صيني.

(٣) هذه المقطوعة ساقطة من (ش).

إذا جفاني حبيبي عن كراهته فلست أذكره سهواً ولا غلطاً
كأنما هو حرف الرَّا يعرض لي في كلمةٍ وكأني واصل بن عطا[1]

وقوله في تشبيه حصن العروس[2] المحروس:

كأنما حصن العروس الذي قد لاح لي من بين أجناسِهِ
كأس فتًى ألقاه من كفّه فانقلب الكاس على راسِهِ

وكتب إليَّ رحمه الله تعالى مُلْغزاً في (سمادار)[3] وذلك في شهر ربيع الأول عام ثلاث عشرة سنة ومائة وألف وهو إذ ذاك بمدينة ذمار[4] المحروسة وأنا بمدينة شبام كوكبان قوله:

وما اسم لشيء يبتغي النَّاس أخذه فكم من فتى قد نال منه نَصيبَا
إذا قلت من اسمين ركّب أو تقل تركّب من فعلين كنت مصيبا
سمَا نصفه في الأفق فاعرف ونصفه تراه على وجه الثراء قريبا
كذا كله في نصفه صار دائراً فحقق وكن للغز فيه مجيبا

فأجبته بقولي:

شفيت فؤاداً للبعاد كئيبا وطرفاً لطول البين سال نَحيبا
بنظمٍ سمَا قدراً ودار بخمرة فدع عنك ثغراً للملاح شنيبا
وهَيَّجت منَّا الشوق للشعر بعدما نسينا بأصداف الفراق نسيبا
وألغزت فيما لا بجرم وسالفٍ من الذَّنب أضحى في الجدار صليبا

---

(١) هو واصل بن عطاء رأس متكلمي المعتزلة، كان يلثغ بالراء وقد ألف خطبة تعرف بالواصلية حذف منها هذا الحرف. توفي سنة (١٣١ هـ).

(٢) العروس: حصن وبلدة في حضور ناحية بني مطر، وهو مقابل لكوكبان من الجنوب (معجم البلدان: ٤٤٠).

(٣) سمادار قال في (ش): سمادار لفظ فارسي بمعنى شيء مرتفع. والسميدار عند أهل صنعاء أقمشة ملونة يزين بها الجدار.

(٤) ذمار: مدينة باليمن مشهورة، تقع جنوبي صنعاء بمسافة (٩٩ كيلومتر).

تـراه مـع الـتـعـذيـب يـزداد بـهـجـةً وحـسـنـاً إذا فـكّـرت فـيـه وطـيـبـا
يجمّل في التفصيل هذا ولم يكن لـدى عـدد عـنـد الـحـسـاب صِـعـيـبـا
إذا قُـلِـب الـنّـصـف الـذي صـار أوّلاً بـه كـان مـن مـاضـي الـزمـان قـريـبـا[١]
وإن زيـد حـرف فـوق نـصـفٍ مـؤخـرٍ بـه كـان مـلـكـاً فـي الـمـلـوك مـهـيـبـا[٢]
وإن طال مـنـه الـعُـمـر لـم تـر قـط فـي ذوائِـبِـه عـنـد الـسّـواد مَـشـيـبـا
ضعيف القوى كم طاقةٍ جاز فاستمع لـمـا قـلـت تـلـقَ الأمـر فـيـه عـجـيـبَـا
ودم وابـقَ مـاهـزَّ الـحـمـام بـسـجـعـه عـلـى الـدّوح مـا بـيـن الـريـاض قـضِـيـبَـا
ومـنَّ عـلـيـنـا الله مـنـك بـعـودةٍ يـعـود بـهـا سـفـح الـدّيـار رحـيـبَـا

وكتب من المنثور إلى الشيخ مصفى بن فتح الحموي الشامي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى مُجيباً عليه ما صورته:

الصنو الشيخ المفيد علماً، أديب هذا العصر نَثراً ونَظماً، من شرُفت به من حماة[٣] الأرجا، وغرّدت على غصن قلمه حمائم البلاغة فإذا هي من حمائم الروض أشجى، السَّابق براعة ويراعة، والجامع لفرائِد الفوائد التي تزيَّنت بالإضاءة وحُفظت عن الإضاعة، وتخلّق بأخلاق العلم والأدب فكانا لديه أنفق بضاعة، محطّ الرجال والرِّحال، وجامع خصال الكمال وكمال الخصال، عنوان الفضل السامي، مصطفى بن فتح الله الحموي الشامي، أدام الله محامده، وصاد بشباك خطّه من الفوائد أوابده، ولا زال في ديار الشَّام عينا، ووقاه من كمل خصاله بعد الكمال شينًا، وجعله لحراسة المجد مصطفًى، وفتح على أهل المعارف بمعرفة حقّه الذي من حَقّه الوفا، وحمى حِمَاه من حَمَاة التي هي مَظْهر النُّبَلاء والظُّرفا، وأناخ السَّلام الأطيب بمقَامِه، وحَفَّه الله برحمته وإكرامِه، ما ورد علينا البديع من

(١) يعني: «أمس».

(٢) يعني: (دارا) أحد ملوك الفرس.

(٣) حماة: بلدة بالشام معروفة.

نثره ونظامِه، وبعد: فإنه وَصِل إلينا كتابُه، وفاجأنا على حين غفلةِ خِطَابُه، فوصلت إلينا بوصولِه الأفراح، وفاجأنا بمفاجأته شراب المسرَّة لا شراب الرَّاح، وكدنا من السّرور نطِير بأجنحة الأشواق، ونغرّد بذكر محامده وفضائله مع ذوات الأطواق، فأوسعناه رُحْباً وإكراماً، وهِمْنا به حُبًّا وَوَجداً وغرامًا، وأنزلناه حيث ينزل الأثمدُ من العين، ووضَعْناه موضع التَّاج المصاغ من العين، وذكر أنه تصدّى لوضع تاريخ في أعيان الزّمان[1]، وتصدّرَ لتحرير ذكرهم الذي تكفّل لهم بالعُمْر الثان، وتجرد لجمع فوائد الأسفار في بطون الأسفار، وإطلاع بدورها في ليل المداد لكي تبدو في غاية الإسفار، فهذه حسنة من حسنات الدّهر، التي تمحى سيئاته بها محوًا، وفوائده التي ينحوها من أتى من الخلف نَحْوًا، على أنه قد ذهب زمان أهل الفضل، واندرس ربع أهل القول الفصْل، حتى جاء مُحيياً لسُنتهم، ناهجاً في الواضح الجلي من سننهم، فلّله دَرّه من كامل لا يجاري، ونبيه نبيل لا يُبَارَى، وكتابه الوارِدِ بوُرود الرّبيع، المشتمل على كذا كذا طريق من أنواع البديع، يَشْهد بموضوعه أنه المرفوع، وأن كلامه هو السّهل الممنوع، فإنه جاء بألفاظٍ بديعة الاتّساق، حلوة الجنى شهية المذاق، مهدية من ثمراتِ الأوراق ما راق، وذكر رغبته إلى أنَّا ننقل له ما لدينا من التَّراجم لأهل العصر، ممن لا يدخل تعداد أوصافهم تحت المقدرة ولا يستطاع له الحصرْ، واستيفاء ما كان عليه والدنا رضي الله عنه من السِّمات التي تفردّ بها والخصال التي شمر لمنالها وتجرّد، وبلغ بها إلى حيث بلغ زحل في المرقى، وأفصحت بالإعلان بها ساجعة الورقا، وأنّى أيضاً نرفع إليه مالنا من المسموعات، والقراءة في أنواع العلوم المجموعات، ونعدّد له مشايخنا الأئمة الأعلام، ممن يتحطَّم دون استقصاء ذكرهم مبروّاتُ الأقلام، وننقل له ما لنا من النَّظم أو بعضَه، ونقطف له ما أمكن قطفه من زهوره الغَضَّة، ليجعل ذلك في تاريخه مُخلَّدا، ويدعه في كل عَصْرٍ مجدَّداً، فقد أحسن بذلك

---

(١) هو كتابه المسمّى «فوائد الارتحال» منه مخطوطة بمكتبة الشيخ العلامة حمد الجاسر ودار الكتب المصرية والأزهرية وغيرها.

المطلب، الذي أعلن عن صدق المودّة وأعرب، وَكُنَّا نحب الوفاء بجميع الأغراض، لولا عوائق تصد عن المرام من الحوادث والأغراض، فصدر إليه ما أمْكَن وإن قَلّ، فخير الكلام ما هدى إلى المراد ودَلَّ، وإذا أراد استقصاء المطالب، مما كان عليه والدنا من المناقِب، فعليه بشيخنا العلامة نزيل البيت الحرام، سَيِّدنا صالح بن المهدي المقبلي[١] رعاه الله فلديه من ذلك المقصود والمرام، فإن والدنا أحد مشائخه الذين أخذ عنهم ما طاب مأخذاً، ونال ببركتهم ما أزال الشجا من حَلْق الفضل وأذهب عن عينه القذى، واستيفاء ما أراده منّا يصعب ويشق، ويذوق القلم من مرارة رقمه ما لم يَذُق، ولو رام ذلك في كل أحد، لأدّى إلى استغراق الأوقات التي لا ترسم بحد، وللزم الإحصار وعدم الانحصار، وله أسوة في اختصار المؤلفين ممن تقدَّم في الأعصار، فليأخذ من كل شيء أحسَنه، وليعتمد من كل لفظٍ أمتنه، ونسأل الله تعالى لنا وله التَّوفيق التام، والهداية الكاملة وحسن الختام، والسلام عليه ما انهمل غمام، وسَجَع على الغصون حمام، حُرِّر في يوم الثلوث[٢] المبارك لعله سادس عشر شهر شوال عام خمسة وتسعين وألف سنة.

وكان قد كتب إليّ عليه السَّلام كتاباً وهو بحصن مواهب[٣] الكريم ومدينة ذمار لما غاب بها مدة طويلة بحضرة إمام الزَّمان وأثنى في كتابه على جوابي عليه في الإلغاز المتقدّم ذكره، وأهدى لي هديّة سنيَّة وسألني عن حال ديار كوكبان المحروسة فكتبت إليه مجيباً عليه ما صورته ولفظه:

يقبل العبد كفّاً وسمت بالعطا، وقدماً قسم لها في طرق المعالي أسرع الخُطَى، للإمام الكامل في شروط اجتهاده، والعارف الذي أمهر عقائل العلوم في تحصيلها طويل سهاده، البحر الذي نال قاصده درَّه وحوتَه، والبَر الذي حَصْباؤه

---

(١) سيأتي ذكره.

(٢) الثلوث: لغة عند أهل اليمن في الثلاثاء، وكذا الأربعاء فيقال له الربوع.

(٣) المواهب: مدينة شرقي ذمار بمسافة (١٠) كم، وتتبع إدارياً عزلة منقذة. (معجم البلدان للمقحفي ص ٦٤٢).

من جبال الياقوت منحوتَة، شيخي وأستاذي ومولاي ووالدي وملاذي، ومن ذقت على خوان إفادته أنواع فواكهي وملاذّي، جمال الدنيا على العموم وجمال اليمن على الخصوص، زاكي الأصول الذي عزّت القياسات لماله من النّصوص، وفاضل الزّمان ففضله في أنامل الوجود خواتم وفصوص، من لو رُزقَت الصّوارم ذكاه لما كلّت، ولو أعطيت سائر الرُّتب وجياد الهمم وتوضيحات العارفين عزمه لقيل في الثلاثة الأحوال جلّت، ذو السّماحة التي شكرها العفاة وشكاها النُّضار، فلو هملت سحائبها على الرَّوض لما أضحى لقطر المطر في انتظار، محمد بن الحسن دام ذا طرفٍ قرير، مُتَبوئاً من النعمة أرفع سرير، نازلاً من رياض المآرب تحت الظل الممدود فوق أعذب المشارب، وقد نقشت يد النّسيم معصم النّهر، وفتّحت بعد الغمض عيون الزَّهر، ما خطرت الجنوب، وهي متعطّرة الجيوب، وما خلع الأفق [من الأصيل حُلَّة صفرا سُحْفَتْ[١] بالغيوم، ولبس من الشَّفق حلة حمرا مزرورة بالنجوم][٢]، وخدمه عني السَّلام في أبهى حُلَّة من الكلام، يطيب طيب الثّمار في المقاطف، ويفوح فوحان الزَّهر في غصون رطيبة العاطف، يكون لحضرته السامية أتبع من الظّل، وألزم من الحمامة للرَّوض الخضل، وحَيَّاه الإكرام، ما سنحت الآرام، إكرامٌ خمرة نفثاته لإحداث السّرور مأمولة، قد اشتمل عليها القرطاس فهي على الحالين مشمولة، يدار بمقامه في المغْدى والمراح، وإن كنت قد أسأت في خطابه بذكر الرَّاح، فإنه ما عرف منها ممزوجاً ولا صرفاً، ولا أجال في ميدان اللّذات للسَّبق إلى اللهو من كميتها طرفًا، هذا وإن كتابَه عليّ ورد، ولدرّه المنضود في أسماط سطوره سرد، ولطرسِه جلا فإذا هو حديقة قد رصَّع زمرد نباتها جوهر البَرَدِ، فحلَّ مني محلَّ الحبيب، ونظر في دائي من الفراق نظر الطَّبيب، فأبرأ من علّتي ما ظننت أنه بغير الاجتماع لا يبرا، وأوسعني عند الاعتزال للنّاس بِسُنَّته الحميدة جَبْرا، وذكَّرني مرقومه شريف أنامل راقمه وعظَيم راحَتِه، وعلمت وقد

---

(١) أسحفت الريح السحاب: ذهبت به.

(٢) ساقط من (ش).

سمح لي بدره المكنون أنه جرى على المعهود من سماحته، وقلت: هذا هو الفلك هبط إليَّ عن زواهِرِه، [أم هذا هو الصَّدف قد أهدى إليَّ بما انطبق عليه من جواهره][(١)]، أم هذا معدن التّبر الذي أمسيت به غنيًا، أم هذا هو الرّوض دخل إلى منزلي غضّاً جنيّاً، ولما أفقت من سَكْرة السّرور، رجعت إلى الصَّواب من الأمور، وقلت: لا والله هذا طرسٌ وصل إليّ من أبي، وحباني بألفاظِه النفيسة وكم مثلي بمثلِه منه قد حُبِي، فأوسعتهُ عند ذلك تقبيلاً، ووضعته على الرَّأس إعزازاً و تَجْليلا، وزال به ما لا زمني من الإيحاش، وسكن به جأشُ مني طالما بالأشجان جاش، ورجع إليّ عقلي لأنه منذ فارقته طاش، فأنا بعده أضيع من غَمْدٍ بلا نَصْل، وأذوَى من فرعٍ قطع عن الأصل، بل أضيع من بَيْضَة البَلد، وقد عدمت الصَّبر وفقدت الجلد، لما طفرت[(٢)] منّي الوطاب، وخَبُث الْوِرد وما طاب، وحُرِمت منه الغَرف، وفصل الدَّهر بيني وبينه كما فُصِل بين المضاف والمضاف[(٣)] إليه بالظَّرف، أتدرَّع من الأيام لبوسَها، وألبس لكل حالَةٍ ما يليق من لَبُوسِهَا، إن ذكرت يا مولاي بين يديك مجالس درسي، صوَّح من نار الشوق نبتي وَذَوى غَرْسي، فأنا في البيت منقطع من الكآبة، وفي زاوية خمولي كالمحبّ ينتظر من محبوبه الغائب مآبه، فما سامرتُ الغيد الحسان شَغَفاً بجمالها، وإنما جالستُها لتعيرني درر عقودها المُنَضدة عَن كَمَالِها، لأنظمها في علياك مدحاً إذا حبَّر مطوقي بإنعامك صدحاً، فسقياً لإفادتك ورعياً، لو أنه يمكنني لسعيت على الرَّأس إليها سعياً، ولكنني سأتدرّع الصبر، وأسأل الله لهذا الصَّدع تَعْجيل الجبر، نعم أيها الوالد الذي تمكن حُبُّه في الخَلَد، لَمَّا أفرط في البِرِّ بي حتى كأني الوالد وهو الولد، أراك أطلت التَّنائي والبعاد، وأعرضت في هذه الغيبة عن سَلْمى وعن سعاد، والمَيْلُ إلى الوطن ألْيق وأولَى، والرجوع إلى الأهل مما يزداد به المرؤ طَوْلاً، فجفاء الأوطان شين، ومن

---

(١) ساقط من (ز).

(٢) في (ز) صفرت.

(٣) سيأتي للمؤلف شرح هذه الجملة.

الحُوْب إطالة الرحيل عنها والبين، وأما مواهب الكريم، التي ليس فيها من يريم، فما أراها تصلح لك دار إقامة، فطالما شكا النَّسيم لوبائها سُقَامه، فقد وجبت عن هجرتها[1] الهجرة، ولو مَلأ الإنسان من إفضال من بها حجره، كيف وما بها إلاَّ لئيم، منّاع للخير معتد أثيم، لا يعرف لذي فَضْل فَضْلَه، ولا يدع له في أسباب الخيرات فضْله، مع أن نظيرك بها معدوم، وطعام فضْلَك على موائدها غير مأدوم:

فـأنـت ذو غـربـةٍ لـمـا نـزلـت بـهـا   إن الـنَّـفـيـس غـريـب حـيـث مـا كـانـا

وأما ذمار وإن طابت ذكْراً، فليست تصلح لأسدِك عَرِيناً ولا لبازِك وَكْرا، سَوَاء دَهَاء الخطب سَوَادها[2]، وعَطّل في ميّدان[2] الألف جوادها، أم دخلت عليها المسرة من بابا الفِلاك[3]، وجعلت العمودي[2] لأفراخها أرفع الملاك، وأطاعك مِصْرُها، ومَدّ ظِلال الوفر عليك قَصْرُها[2]، وجاءك الهناء بها يجّد ولا يهزل، وعرف الطريق إليك فبات دون المنزِل[2]، وخلعت عليك حمائمها أطواق ريشها، وجَرَى جَيْشُها في طاعتك بجراجِيشها[4]، وتَمّ لعدوك بها قَهْران[2]، وبات طرفه بها للغيظ منك أيَّ سهْران، فقد ساوَرَ أسدك بها هرَّان[5]، ففارقها مفارقة نافرٍ وقال، ودع من أهلها كثرة قيلِ وقال، وأثنيتُم على أبيات ولدكم المملوك، وجعلتم الجزع الذي أهداه بمنزلة الدّر المسلوك، وأودعتم نظمه منكم ذَوْقاً سليْما، وفُتنتُم به وما مِن حقّه أن يفتن مثلكم حَلِيْمَا، ومَا أقول إلاَّ أن هذه فتنة العُقلاء، ونظر الوالد إلى وَلَدِه بعين المحبّة على أنه لو أنصف لقلا، وما تفضل به مولانا من الهدية وصل، وحصل عليه المملوك فإذا هو على البُغْية المقصودة من الدنيا حصل، لأن في ذلك دليلاً من المولى على الرّضى، الذي لم أزل له في كل لحظةٍ

---

(١) الهجرة: هي المدينة المحترمة بعلمائها وطلبة العلم بها.

(٢) هنا يورِّي المؤلف باحياء من مدينة ذمار في ذلك الوقت، سيأتي شرحها.

(٣) قرية عامرة من عزلة جبل الدار ناحية عنس من قضاء دمار (التعداد: ٥/ ٣٣).

(٤) الجراجيش: حارة من ذمار (معروفة) وسيأتي ضبطه.

(٥) هِرَّان: جبل بركاني شمالي مدينة ذمار وكانت به قرية عامرة (المقحفي ٦٧٧).

متعرضاً، ولا أقول عند هذه الهدية التي يقال بجنبها للسخي[١] مَه، بأنها تنزع[٢] الوغر من صدري وتذهب بالسخيمة[٣]، فإني أستعيذ بالله أن يشتمل قلبي له على حقد، وكيف وهو الذي حلاَّني من الفضل بأبهى قلادة وأبهج عِقْد، بل أقول مع ذلك الإفضال الذي أنا به أَنِس، ما قاله مجد الدين بن فخر الدين بن مُكَانِس، في خطاب والده وقد أهدى له شيئاً من النفائس:

تناهيت في برِّي إلى أن هديتني وقد كنتُ قبل اليوم في الغي ساريا
وأهديت لي ما حيَّر الفكر حسنُه فلا زلت في الحالين للعبد هاديَا

وسألتم عن حال الدِّيار، لما عَزّ عليها منكم الازديار، فحالها حال المُفَارِق، الذي شابت لهول نأي أحبابه منه المَفَارِق، فكوكبان لبُعْدِكم ضَيّق الأرجا، لم يقتعد السّرور من الهِلاَل فوق جواد جَبَلِه سَرْجَا، قد فات ثغرُه لما غبتم عنه الشَّنَب، وعدم سفحه الرَّاس منكم فلم يلف من أبنائه سوى الذَّنَب، ضاقت طرقه بالقطع، وأعرض قمريه عن الصَّدح وقمرُه عَنِ السَّطْع، وأمَّا مدينة شِبَام فقد أضرم الشَّوقُ أوَارَهَا، وعمد النَّقص إليها لما غابت محاسِنُكم عنها فكشف عُوَارَهَا، فلا سَفْحها بالسفح الذي تعهدونَه ولا بَرّها بالبَرّ الذي كنا نرى شعب بَوَّان[٤] دونَه، قد أظلم أُفقُها اكتئاباً، وضاق واسعه لبعدكم فما زال يسأل الله لكم إليه إيَاباً، وعلى الجملة فالمقال في شرح الحال يطول، وعنده أصابني الخرس فماذا أنطق به وماذا أقول، فالأولى وهي طريقة الأدب التي يليق بي سلوكها، أنّي أقصِّر العبارة فقد حان من شمس مقالتي دلوكُها، صوناً لسمعك عن هذا الهذر والهُرا، والكلام الذي رثَّت حِبَالُه وفُصمت منه العُرا، ولكن كُلُّ فلكٍ يطلع بذره، وكل طائر يصيدُ قدْره،

---

(١) في (ش) للشيخ.

(٢) في (ز) تنزغ.

(٣) سيشرحها المؤلف فيما بعد.

(٤) شعب بَوّان: بلد بأرض فارس بين أرجان والنوبندجان، وهو أحد منتزهات الدنيا. (مراصد الإطلاع ٢٢٨).

فلو أني خشيت سيْل بِلْعتي[١]، لجوزت الخُسْران في بيع سِلْعتي، ولكن فعلْت ما فعلتُ وقلت ما قلتُ، وأنا أعلم أني قَصرَّت فيما جئت به وما طلتُ، فتجاوز عنه بعفوك، ورمَّم متخرقه برفوك، فلا حرج ولا جُناح، وهل نهض بازي بلا جناح، وأنت في غِنى عن توسيع المجال، وبَسْط العبارة في الفضلة من المقال، مقال عاهدتك بحروفه المسطورة، فودَّت أن تكون له صحيفة كل روضة ممطورة، وتمَّنت القلائد اللؤلؤيّة المصفوفة، أن تكون له سطوراً منسوقة مرصوفة، وقالت النّجوم: ليتني له الكلمات فقال اللَّيل: وأنا الحِبر، ونادت الغيد بمجمع الملاح: لو أنصفت لقلَّدت هذا ولم أقلّد بالجواهر والتبر، فاقبله مِنّا، وتناول رقَّه منَّا، والله يمنّ علينا بعودك سَالَما، ويأسو بقربك قلباً ظل له تنائيك[٢] كالما، ويُبقيك ما قرن في المجد بتالد، ويحرسك ما اشتاق عبدٌ دُعِي بالوَلد إلى سَيِّد دُعي بالوالد، والسَّلام.

قولي في هذا المنثور «وفَصَل الدَّهر بيني وبينه كما فُصِل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف» معنى هذه الفقرة ظاهر لأنه يجوز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظَّرف في الشّعر ولذا قال ابن دَانيال[٣] رحمه الله تعالى:

فقد يحدث الظَّرف بين المضاف ... وبين المضاف إليه انفصالاً

والفصل بالظرف بين المضاف والمضاف إليه يقع سواء كان الظرف حقيقيّاً كقول عمرو بن قميئة[٤]:

---

(١) في (ز) تلعتي و(ش) بلغتي.

(٢) في (ز) ثنائك.

(٣) هو شمس الدين محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعي الموصلي، طبيب وشاعر ولد سنة (٦٤٧ هـ) له «طيف الخيال» و«ديوان شعر» توفي سنة (٧١٠ هـ). (فوات الوفيات: ٢/ ١٩٠ والأعلام: ٦/ ١٢٠).

(٤) هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك التغلبي البكري، شاعر جاهلي صحب امرء القيس إلى قيصر، وهو الذي عناه بقوله:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

ومات في الطريق نحو سنة (٨٥) قبل الهجرة.

لـمّـا رأت سـابـيـدُ[1] مـا اسـتـعـبـرت   لله در الـــيـــومَ مـــن لامـــهـــا

فقد فصل بين المضاف وهو قوله دَرّ وبين المضاف إليه وهو من[2] بالظَّرف الحقيقي وهو اليوم المنصوب على الظَّرفية، قال محمد بن الوليد[3]: لا يجوز في اليوم إلاَّ النَّصب لأنه لو خفض لم يكن لمن ما تَعْمل فيه انتهى كلامه ومنه أيضاً قول الشاعر:

كـمـا خُـطّ الـكـتـاب بـكـفٌ يـومـاً   يـــهـــوديٍّ يـــقـــارب أو يـــزيـــل

فقد فَصَل فيه أيضاً بين المضاف وهو قوله: «كفّ» وبين المضاف إليه وهو قوله «يهودي» بالظَّرف الحقيقي وهو قوله «يوماً» المنصوب على الظَّرفية أيضاً، وكان الظرف مجازياً بأن يكون الفاصل حرف جر، كقول ذي الرمَّة[4]:

كـأن أصـوات مـن إيـغـالـهـن بـنَـا   أواخر[5] الميس إنقاض الفراريج[6]

فقد فصل فيه بين المضاف، وهو قوله: «أصوات» وبين المضاف إليه وهو «أواخر الميس» بالظَّرف المجازي وهو من «إيغالهن بنا» وأما الفَصْل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظَّرف فمستكره ضعَيف منعه البَصْريون وأجازه الكوفيون، كقول الشاعر[7]:

فـــزجـــجـــتـــهـــا بـــمـــزجَّـــةٍ   زجَّ الـــقـــلـــوص أبـــي مـــزادَه

---

(١) اللسان ١٤ : ٢٧١ لما رأت ساتى دما استعبرت.

(٢) من (ز) سقط.

(٣) هو محمد بن الوليد بن ولاد نحوي من أهل مصر وفاته سنة (٢٩٨ هـ). (بغية الوعاة: ١١٢).

(٤) هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي، شاعر غزل شعره في ثلاث مجلدات ضخمة، وفاته سنة (١١٧). (وفيات الأعيان: ١/ ٤٠٤ والأعلام: ٥/ ١٢٤).

(٥) ساقط من (ز).

(٦) البيت في اللسان ٧: ٢٤٤.

(٧) من أبيات الشواهد انظره في خزانة الأدب ٤: ٤١٥ والخصائص ٢: ٤٠٦ ومجالس ثعلب: ١٥٢.

فإنه فصل بين المضاف وهو قوله: «زجّ» وبين المضاف إليه وهو «أبي مزادة» بغير الظَّرف وهو القلوص؛ وحَكى الكسائي عن العرب: هذا غلام والله زيد بالفصل بين المضاف والمضاف إليه بالقسم، قال: سمعتُ بعض العرب تقول أنَّ الشاة لتحن فتسمع صوت والله ربها. قال البصريُون: لا حجة في هذا البَيْت الذي رواه الكوفيّون لأنه يُروى لبعض المدنيّين المولَّدين وليس من شعر العرب، وأمَّا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالقسم فيجوز لأنه يدخل على أخبارهم للتَّأكيد ولا يجوز القياس عليه.

قولي: وأما «ذمار» إلى قولي «هرّان» هذه الفقر فيها ذكر أسماء بقاعٍ معروفة بمدينة ذمار المحروسة وما حولها، هو السواد في قولنا «سوادها» وكذلك ميدان الألف وباب الفلاك والعمودي والقصر والمنزل والجراجيش في قولنا «بجراجيشها» بالجيمين والشين المعجمة، وقهران وهرَّان وهو الحصن المعروف، فافهم المقصود.

قولي: وما أقول إلاّ أن هذه فتنة العقلاء قد ذكر الأفاضل أن من طبع الإنسان افتتانه بابنه وافتتانه أيضاً بشعر نفسه [أيضاً] قال الشاعر:

ويسيء بالإحسان ظنّاً لا كَمَن ... هو بِابْنِهِ وبشعره مفتونُ

وقال الرياشي[1] رحمه الله تعالى[2]:

نِعْم ضجيع الفتى إذا برد الـ ... ـليل سُحَيْراً وقرقف الصَّرِد
زيَّنها الله في الفؤاد كما ... زُيّن في عين والدٍ ولدُ

ولكن يُقال لهذه الفتنة فتنة العقلاء، وإليه أشرتُ أنا في الفقرة، قال الشاعر:

---

(١) في الأصل الرياسي بالسِّين المهملة والإصلاح من عندنا، وهو أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي، كان عالماً راوية عارفاً بأخبار العرب، توفي سنة (٢٥٧ هـ) مقتولاً في ثورة الزنج. (الوفيات: ٣/ ٢٨) ط إحسان عباس.

(٢) قلت: هذان البيتان ليسا له، وإنما رواهما عن الأصمعي. (انظر الوفيات: ٣/ ٢٧).

والمرءُ يفتن بابنه وبشعرِه لكن ذلك فتنة العقلاءِ

قولي: (ولا أقول عند هذه الهديّة) إلى آخر الفقرة الثانية في الفقرتين كما ترى الجناس، والسَّخيمة بالسين المهملة والخاء المعجمة واحدة السخائم وهي الحقود، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ «الهدية تذهب بالسَّخيمة» أي الحقد وفي الحديث[1] أيضاً عنه عليه الصلاة والسلام: «تهادوا تَذْهب الإحن والسَّخائم» وإلى هذا أشرت أنا أيضاً لمّا قلت في التَّورية مع الاكتفاء:

أهدَى لنا هَدِيَّةً من لُطفِه يحكي الرّخا
أذهَبَ عنا إحناً إذ جاد فضلاً وسخا (ئم)

السيِّد عيسى بن لطف الله بن المطهَّر بن شَرَفِ الدين[2]

هذا ممن قرب عهدُه، وكاد أن لا يخرج عن أهل العصر عدُّه، فلم أستحسن اطِّراح ذكرِه، ولم أسمح بعدم إيراد شيء من بنات فكره، فأقول:

هو ماجد استدرك من الفضل ما قارب فوتا، وأحيا ميّت المعالي ولا غرو فعيسى عُرِف بإحياء الموتَى، فرع رياسة وفراسة، وثمرة رَوْضٍ أحسن المجد غِراسه، وهو بحرٌ لا فالبحر مالح، وهو روض لا فالرَّوض قد يكون ذا غصنٍ قالح[3]، وهو بَدْر لا فالبدر يعتريه النّقصان، وهو شمس لا فالشمس تنكسفُ ببعض الأزمان، نعم هو بحرٌ ولكن سائِغ شرابُه، وهو روض ولكن لا تَذْوَى من غصونه رطابُه، وهو بدر ولكن لا يشينه السِّرَار[4] وقد بدا، وهو شمس ولكن لا تنكسف أبداً، له غصون فخر أورقت، ما نال باسقها الأعداء سواء حُطَّت درجاتهم

---

(١) من حديث الأحنف. (النهاية: ٢/ ٣١٥).

(٢) أديب ومؤرّخ، من مؤلفاته «روح الروح» في التاريخ، وجمع شعر الأديب محمد بن عبد الله شرف الدين، وفاته سنة (١٠٤٨ هـ). (خلاصة الأثر: ٣/ ٢٣٦ والبدر الطالع: ١/ ٥١٦).

(٣) يابس.

(٤) السِّرار: الشهر آخر ليلة منه.

أورَقت [ولا جنى ثمرها منهم أحدٌ سوى همعت مدامعه في طلب العُلَى أوْرَقْت][1] كف الدهرِ به خضيب، وبُرد المحامد بمعاليه مفوّف قَشِيب، تَنُم نسمات لطفه على الأزهار، وتفعل في أعطاف الغصون من السّكرة ما تفعله سلافة الأنهار، مع فصاحة وعرفان طاب للسامعين منهما صنفان[2]، وتخيُّرٍ للأدب وانتقاد، ورياضةِ لجَمُوح البلاغة حتى أصبح بعَنَانه يُقاد، وهو في علم النجوم صاحب الدَّقائق، وفي أسراره الغامضة مجمع الحقائق، طالما حمل لواءها على المناكب، حتى كادت أن تُسمَّى به أعلاط الكواكب[3]، وطالماً أخبر قبل الوقوع بالخير والشَّر، حتّى حكم له بانفراد مزيّته ولم يُعَد من مَعْشَر أبو مَعْشَر[4]، فكأن المجرّة وزمام الفلك، وهو بِيَده يروضُه فأين ما شاء سلك، لأنه في علم الفلك قَوي الحِبَاك، فما رقم جداوله فيه لصَيْد حوتِ السَّماء إلاّ شبَاك، فهو بيت الكوكب وشرفُه الزّاهرة بِطَالعِه غُرَفُه، له في منازِله النّعمة والقبول: والاستِعلاء برفع الطَّبيعة فما إليه وصُول، وله قُوَّة وإقبال، ولمن أراد لحاقه الإدبار والوبال، ما لسهمه ردّ، ولا لتثليثه وتربيعه وتسديسه[5] من عَدّ، فما له عن مراكزه من هبوط، ولا له في أحكام سواقطه من سقوط، وأما في علم التَّاريخ، فصاحب اليد الطُّولَى، التي تقصر عندها الشَّماريخ[6]، وله فيه كتاب «رَوْح الرُّوح[7]، فيما جرى بعد المائة التاسعة من الفتح والفتوح»[8]، وقد طالعته في خِلْوَة، وذُقت له عبارة حِلْوَة، وكان يَعْتزي إلى

---

(١) ساقط من (ش).

(٢) في (ز) عرفان.

(٣) أعلاط الكواكب: الدراري التي لا أسماء لها. تقول العرب: لو كنت من العرب لكنت من أنباطها أو من النجوم لكنت من أعلاطها.

(٤) أبو معشر: هو جعفر بن محمد البلخي، عالم فلكي، له مؤلفات في الفلك، ووفاته سنة (٢٧٤). (وفيات الأعيان: ١/ ١١٢ والأعلام: ٢/ ١٢٧).

(٥) التثليث والتربيع والتسديس عند أهل الرمل والتنجيم رموز معروفة عندهم

(٦) رؤوس الجبال.

(٧) في المطبوع من هذا الكتاب «الفتن».

(٨) في التاريخ طبع أخيراً بالتَّصوير. وفيه الفتن والفتوح.

الأتراك، وينصب من الاتصال بهم لطَيْر الثَّروة الأشراك، وبعناية بعضهم أَلَّف كتابه المسمَّى بـ «الأنفاس اليمنية»، وبأنامل سطوره تناول من دوح الأمل ثمراته الجنية، فظلَّ في نعمةٍ أبرد من صبا العَشيّة، وجَرَت له الإرادة على مقتضى المشية، فأصبحت أيَّامه أيام العروس، وأوقاته أصيل القلوب وسَحَر النفوس، وله نظم حلا مذاقاً، يدير على الأتراب كأساً دِهاقاً، فمن نفثات قَلَمِه، وسحر بيانه وَكَلِمِه، ما رثى به قتيلاً، أخذ في المعركة أخذاً وبيلاً، وكان إذ ذاك غلاماً جميلاً، فهو بدْرٌ في الشَّفق من دمه غاب، وغزال افترسته من الأتراك أسود غاب، وهو قوله:

حُيِّيت يا ساجي الأجفان حييتَا ... وبالرِّضَى من رحيم الخلق لقِّيتا
ومن كؤوسٍ وأكواب مشعشعةٍ ... ختامها المسك في الفردوس سُقِّيتا
يا شادناً سفحت سمر القنا دَمَهُ ... واستأصل السيف منه الراس واللَّيتا[1]
غالتك صحبك لمّا قهقروا هرباً ... ومَزَّقوا فزعاً تلك الأماريتا[2]
وأفردوك لأسدٍ ما فرائسها ... سوى الفوارس أو من كان منعوتا
في فِتيَةٍ من كماة الترك ما تركت ... للرَّعد في حالةٍ صوتاً ولا صيتَا
قومٌ إذا قوبلوا كانوا ملائكةً ... حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتا
ظننت أن لقاهم مثل دَوْركم ... في كوكبان بهذا صرت ممقوتَا
وما عرفت رجالاً قد نضوا حنقاً ... لروح محربهم بِيْضاً مصاليتَا
ويح الذين تولَّوا عنك وانصرفوا ... لو أنهم ثبتوا ما صرت مثبوتا
قد كنت أهوى بأن تأوي إلى نظري ... فالآن من لي بجعل القلب تابُوتَا[3]
عَذَّبتني بالجفا وقت الحياة وفي ... مماتك الآن قد أحرمتني القوتا
قبلتُ منك عذاب الحالتين معاً ... حيّاً وميْتاً فيا طول الجوى هيتَا[4]

---

(١) الليت: صفحة العنق.
(٢) جمع مرت وهي المفازة والأرض البلقع.
(٣) هذا البيت ساقط من (ش).
(٤) في (ش) الجنا هيتا.

يا زهرةً قطفت من بعد ما ابتسمت وزُهْرَةٌ[1] غربت مذ وافت الحوتا[2]
لهفي على المقلة الكحلا التي قُصرت عن سحر نعستها عن سحر هاروتا
والقامة اللَّدنة اللاتي إذا خطرت أو انثنت عاد غصن البان مبهوتا
كأنما راسُه لمَّا بدا صنَمٌ قد أبرزوه من الإبريز منحوتَا
قد عَطَّر السَّفح منه الدَّم حين جرى كذا دم الظَّبي مهما صار مفتوتا
لو شاهدته النَّصارى قال عالمهم قوموا انظروا قد حوى الناسوت[3] لاهوتا[4]
لهفي عليه ولهفي منه يا كمدي كم قد جرى الصَّبر بالهجران تَشْتيتَا
وكم حماني في وقت الحياة لمى أشهى إلى مهجتي من نهر طالوتَا
سقى الإله ضريحاً أنت ساكنُه وُطْف الغمائم لا يجفو المواقيتا
حتى يُرى حول ذاك القبر مبتسماً زهر الروابي حَكَى دُرّاً وياقوتا

قوله في «فتية من كماة الترك» البيت، وكذا البيت الذي يليه، وهو قوله «قوم إذا قُوْبلُوْا» هما مضَمنان من قصيدة لأبي إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان الغَزّي[5] الكلبي منها قوله[6]:

أمط عن الدّرر الزّهر اليواقيتا واجعل لحج تلاقينا مواقيتا
فثغرك اللؤلؤ المبيض لا الحجر الـ ـمسودّ[7] حاشاه من وصم وحوشيتَا
قابلت بالشنب الأجفان مبتسماً فلاح من ناظريك[8] السّحر منكوتا

---

(١) الزهرة: معروفة، وهي كوكب سيّار.
(٢) الحوت: برج من أبراج السماء.
(٣) الناسوت: هي الطبيعة الإنسانية، والكلمة (سريانية).
(٤) اللاهوت: الألوهية، زيدت فيه الواو والتاء مبالغة، كما زيدت في جبروت وملكوت.
(٥) من الأدباء الشعراء ترجمته في (خريدة القصر: ١/٤ وابن خلّكان: ١/٥٧) وفيه وفاته سنة (٥٢٤ هـ). وانظر (الأعلام: ١/٥٠).
(٦) انظرها في ابن خلكان ١: ٣٩٦.
(٧) ابن خلكان: لا تمه يطوى السباريتا.
(٨) في (ز) ناظيرك.

وكان فوك اليد البيضاء جاء بها ... موسى وعيناك هاروتًا وماروتا
جمعت ضدّين كان الجمع بينهما ... لكل جمع من الألباب تشتيتا
جسماً من الماء مشروباً بأعيننا ... يضم قلباً من الأصلاد منحوتا
مسكاً حسبت فؤادي صار فيه دماً ... فلا يغادر مسحوقاً ومفتوتا
المسك من سرر الغزلان مكتسبٌ ... والله ينبته فيهن تَنْبيتَا
ونشر ذكراك أذكى الطِّيب رائحةً ... ونور وجهك ردّ البدر مبهوتا
غيَّرت طرفك[1] في هجري وقلت له ... لو استطعت إلينا في الهوى جيتَا

ولصاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى في مرآة ناظور بديعة التَّركيب، حسنة التَّقريب:

حبَّذا مِرْآة عينٍ ... جمعت كلّ الوَسَامه
كلّ من ينظر فيها ... فهو زَرْقاء اليمامه

وهذه زرقاء اليمامة جارية من قبيلة جَديس كانت تنظر الراكب من مسيرة ثلاثة أيام وهي مشهورة، ولها أخبار مذكورة، ونقلتُ له من خطّه قوله:

وحبيبٌ قال: صِفْني ... بوجيزٍ في المقاله
قلت: غصنٌ في كثيبٍ ... وغزالٌ وَغزاله

ومن هذا قول الشيخ عز الدّين الموصلي[2] رحمه الله تعالى[3]:

قيل صف هذا الذي همت به ... قلت في وصفي مع حسن المسالك
هو كالشَّمس وكالبدر وكالغصـ ... ـن[4] وكالظَّبي وما أشبه ذلك

وقوله:

كتَم العاشقون وجداً دفيناً ... وغرامي أبدى الجوى والرَّسيسا

---

(١) في (ز) طيفك.

(٢) هو علي بن الحسين بن علي الموصلي، شاعر مشهور له بديعية، ووفاته سنة (٧٨٩ هـ). (الدرر الكامنة: ٣/ ١١٢).

(٣) البيتان في خزانة الأدب لابن حجة ١: ٣٩٦ط شعيتو.

(٤) خزانة الأدب «وكالشمس».

فـإذا كـان فـي الـقـيـامـة نـودي مـن قـتـيـل الـهـوى تـقـدَّم عـيـسَـى

وقوله مضَمناً:

تَعرّضت من ليلى لوصل فأعرضت وعَزَّت عن اللّقيا وما برحت تعلو
فَلمَّا تقضَّى حسنُها وجمالها (دعتني لوصلٍ حيث لا ينفع الوصلُ)

وقوله في مليح جزَّار ذبح كبشاً ثم أمسك السّكين بعد التَّذكية بفمه:

يـا واضـع الـسـكـيـن بـعـد ذبـيـحـةٍ فـي فـيـه يـسـقـيـهـا رضـاب شـفـاتـه
عـدهـا إلـى الـمـذبـوح ثـانـي مَـرَّةٍ وأنـا الـكـفـيـل لـه بـردّ حـيـاتِـهِ

قلت: ولا غرو أن يتكفَّل عيسى للميت بردّ الحياة، وقوله رحمه الله تعالى في تشبيه المريخ:

كـأنـمـا الـمـريـخ لـمـا بـدا فـي لـيـلـة الـسـحـب مـع دجْـنَـة
يـا قـوتـة قـد صـانـهـا أهـلـهـا وأودعـوهـا فـي حَـشَـى قُـطْـنَـة

وقوله رباعية:

أقسمتُ بنون حاجبيك المقرون ما قاسى هواي فيك قيس المجنون
كـم تـسـهـرنـي بـطـول صدٍّ وقـلـى كم تذهب غاضباً عَلَيْ يا ذَا النون[(١)]

وهو مأخوذ من قول صفي الدِّين الحلي[(٢)] رحمه الله تعالى[(٣)]:

عـاتـبـتـه فـتـضَـرمَّـت وجـنـاتُـه وازورَّ ألـحـاظـاً وقـطَّـب حـاجِـبَـا
فـأرانـي[(٤)] الـخـدّ الـكـلـيـم وحـاجـبـاً ذا الـنـون إذ ذهـب الـغـداة مـغـاضـبَـا

وقال عمَّنا القاضي العماد الخطيب الوزير يحيى بن الحسن الحيمي[(٥)]

---

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه﴾.

(٢) هو صفي الدين عبد العزيز بن سرايا بن علي الحلي، ولد بالحلة سنة (٦٧٧ هـ)، واشتغل بالتجارة ثم تقرّب إلى الملوك ومدحهم، له ديوان شعر، ووفاته سنة (٧٥٠ هـ). (الدرر الكامنة: ٢/ ٣٦٩ والأعلام: ٤/ ١٨).

(٣) ديوانه (٩٦) ط دار صادر.

(٤) الديوان، فإذا بني.

(٥) سيأتي ذكره في هذا الكتاب.

رحمه الله تعالى في قصيدته النونية الآتي ذكرها في ترجمته إن شاء الله تعالى:

مـن نـون حـاجـبـه وسـيـن جـبـيـنـه ... مـا زلـت أقـرأ نـون مـع يـسـيـنِ
إن قلت صلني صال جيش مغضب ... مـنـه وصـار مـغـاضـبـاً ذو الـنـونِ

وله أعني صاحب التَّرجمة في الدُّوبيت نظم كثير، وطريقة تبعث الهوى الكامن وتثير، تعد من آيات عيسى، لما أحيت من ميت الغرام رسيساً[1]، منها قَولُه:

يـا مـن بـعـيـونـه سـقـانـي خـمـرة ... حـتـى أمـسـيـت ذاهـلاً فـي سـكـرة
لا تـنـكـر قَـتْـلـتـي ولا تـجـحـدهـا ... فالشَّاهد في الخدود تلك الحمرة

وقوله:

في الـحـب كـمـثـل قـضـيـتـي لـم تـجرِ ... الـدَّمـع مـن الـعـيـون أمـسـى يـجـري
أقـسـمـت بـسـافـح الـدمـا فـي بـدر[2] ... لا أمـوت جـوىً إن لـم يـزرني بـذري

وقوله:

يا مخجل بالجمال شمس الإشراق ... لـي قـلـب إلى لـقـاك أمـسـى خفَّاق
لـولاك لـمـا شـجـاه نـوح الـورقـا ... فـي الـلَّـيـل ولا رعـى نـجـوم الآفـاق

وقوله:

قـد زان فـويـتـنـي الـعـذار الـسـائـل ... لـولاه لـمـا أجـريـت دمـعـي الـسـائـل
لـم يـرحـم مـدمـعـي ولا رقَّ لـه ... هـل يُـحـمَـد فـي الأنـام ردّ الـسـائـل

وقوله:

أفـدي رشـأ إلـى الـجـمـال انـتـسـبـا ... بـالـحـسـن وبـالـدلال لـلـعـقـل سـبـا
قـد ذَوقـنـي لَـمَّـا جـفـانـي وَصَـبـا ... والـصَّـبْـر مـمـزق كـتـمـزيـق سـبـا

وقوله:

---

(١) الرسيس: الثابت.

(٢) يعني غزوة بدر.

يا محرق مهجتي بنار الحسرة | الصبُّ غَرامُه قديم الهجره
من دَمع مقاه مستهل لكن | من طلعة وجهه المليح الغُرَّه

وقوله:

أفدي رشأ قاسيت منه وصَبَا | يَهتز قوامه إذا مرّ صَبَا
منه قد ذقت إذ جفاني وَصَبَا | والقلب إليه مال وجداً وَصَبَا

وقوله:

أشكو يا ربّ حادثاً يبريني | يَنهدّ ببعضِه ذُرَا يبرين
إن لم منه يا سيدي تُكْفيني | في الحال فقد دنوت من تَكْفِيْني

وقوله:

يا ربّ بحرمة الرَّسول المختار | الشَّافع للعباد من حَرِّ النار
بلغني ما أريده وامنحني | يا رب بفَرجة تزيل الأكدار

وَلَدُهُ السَّيِّد جَعْفَر بن عيْسَى بن لُطْفِ الله[1]

ذو محاسن فاقت، وشمائِل رَقَّت وراقت، روض أدبِ مريع، قد أدهم نَبَاته بشباب الربيع، فما أعطر شميمه، وما ألطف نَسيمهُ، وما أبرد ظِلّه، وما أبهج في الأوراق طَلّه، وما أغرد أطياره، وما أطيب أثماره، وما أنفح أزهاره، وما أحلى أنهاره، حمامةُ أدبه مطوَّقة، وأسهم ذكائِه مُفوَّقة، نظم من الشّعر عقداً، ممَّا يقل الزُّهر أن تكون في شرابه نقداً، وحبّره حتى لا يجد الطَّاعن به نقداً، ونظمه في الحميني[2] كثير، ومقامه فيه مقام أثير، كان يُهْدي إليَّ مِنه جنيًا غضًا، ويسمعني من معانيه ما يغضّ الرَّوض لَديه طرف نرجسهِ غَضًا، حسداً منه أن يرى ما يُفضحه نشراً وبهجة، ويكذّب نَمامه ويعقد من بنفسجه اللّهجة، حاز من الكمال فنونه، وسَلَب من البحر دُرّه فَعنبره فنُونه، وكان يُرى في زيّ الخبال، والقلق الذي لا

---

(١) ترجمته في (نفحة الريحانة: ٣/ ٣٣٠) ولم يؤرخ لوفاته.

(٢) الحميني: شعر أهل اليمن الملحون وهو يشبه الموشحات عند أهل الأندلس وله قواعد وأوزان معروفة عندهم.

يخطر ببال، لَمّا أفرط في الرّقّة السيّالة، وطاوعت نسيم اللطف أغصانه الميالة، فسهمه طائش، وهو له من قوادم طيور الخفة رائش، ومن شعره قوله[1]:

في القلب من لحظات الخِلّ[2] أشجانُ ... وفي الفؤاد من الهجران نِيرانُ
وكيف أعرض[3] عن ذكر الحبيب وفي ... قلبي جَوىً وسحاب الجفن هتَّان
وللفؤاد اشتياق في هَوَى قمرٍ ... تشجيه من نغمات الطَّير ألحان
وكم تعللت بالإعراض عنه وكم ... بَكيت حتى بكى لي في الحمى البانُ
وشفَّني فيه شوق لا أطيق له ... وكيف أصبر عنه وهو فتانُ
حسبت أن الكرى في الحبّ يسعدني ... فصحّ فيه بآن النَّوم[4] خوّانُ
قد كنت أملك عقلي قبل رحلتِهِ ... والآن قد رحلت بالعقل أضعانُ
وكل من لامني في الحبّ قلت له: ... مهلاً فإن عذاب الصّب سلْوانُ
يا محرقاً لفؤادٍ أنت ساكنُه ... رفقاً فقد فتكت بي منك أجفانُ
خالفت فيك أناساً طَالما عذلوا ... وما دروا فيك أن اللّوم عدوانُ[5]

وقوله رباعيّة:

في خدّك للجمال ورد وزهور ... تسقيه من العيون سحب ونهور
في حكم هواك كم على الصَّبّ تجور ... يا بدر دُجىً في فلك القلب يدور

---

(١) أوردها المحبي في النّفحة.

(٢) النفحة: «الحب».

(٣) النفحة: «افتر».

(٤) النفحة: «القوم».

(٥) هذا البيت ساقط من النفحة.

السيد إبراهيم بن المفضَّل[1]

صارمٌ به دمُ الأعداء مطلول، وروض أريض بندى الآداب مطلول، ذو حاشية رقيقة، وعين طبعٍ غديقة، لولا رُذنُه لسال لُطفاً، ولولا احتشامه لمال بالرّقص من الهوى عِطفاً، سَبق في ميدان الفضل وجلّى، وأزاح بخمرة كلامه هموم الصدور وجَلاً، طالما اجتمع بأُلاَفه، فأسكرهم وافتخر عليهم بسُلافه وأسلافه، وكان يفتخر بولده محمد وَيزهو، ويجمع به أطراف التّطاول ولا يسهو، وبمثل ذلك الفاضل يُفْتخر، ولمثل ذاك الكنز النّفيس يدَّخر مَن ادّخر، وقد سارت أشعاره، وسهلت به من القريض أو عاره، فأصبح ينظم للأجياد من دُرّهِ سموطاً، وَيَسْبُك من ذهنِه الخالص للطُّلا قروطاً، مع رقَّة وَسلاسَة، وحسن تعبير أحكم أساسه، وله في القَنَاعة رتبة تجِلّ عن الأطماع، وأخبار مستحسنة تُصْغي لها الأسماع، لا يبالي كيف أضحَى، ولا يَسْأَلُ مِن الأيام إلاّ رشاشاً ونَضْحَا، فهو ممن رضي ببُلْغَة العيش، وممن لا يُخالطه لحاجة الزمن طيش، فنفسه من الحبس عن التهوّر في عِقَال، وعلقمُ الفقر عندَه أحلى من شُهْدِ الغِنَى ولذا إنه قال:

لقرص شعيرٍ تافلٍ[2] غير مالحِ ... بغير أدام والذي يعلم النَّجْوَى
مع العِزّ في بيتي وراحة خاطري ... ألَذّ على قلبي من المن والسَّلوَى

وكان إلى طريق الخمول ذا ميل، وإلى رهط التنكر ذا تحدُّر ولا كتحدّر السيل، مع صون وتعفف وتخلُّقٍ بأخلاق أهل التصوّف، فله طريق في الطَّريقة، وله مجاز[3] في سبل الحقيقة[4]، ....

---

(١) ترجمته في (نفحة الريحانة ٣/ ٣٥٤) وهو والد محمد السابق الذكر.

(٢) التافل: في كلام أهل صنعاء غير المملوح.

(٣) المجاز: اسم لما أريد به غير ما وضع له المناسبة بينهما كتسمية الشجاع أسداً. (انظر التعريفات: ٢٥٧).

(٤) الحقيقة: اسم أريد به ما وضع له وهي الشيء الثابت قَطعاً ويقيناً. يقال: حق الشيء إذا ثبت. (انظر التعريفات: ١٢١) والحقيقة عند الصوفية هي إقامة العبد في محل الوصال إلى الله. (مصطلحات الصوفية ٧٩).

ووقتٌ[١] ومقامٌ[٢] وحال[٣]، ووَجْد[٤] وتواجد[٥] اتصال[٦]، وحضور[٧] وشهود[٨]، وتجريد[٩] وتفريد[١٠] وفناء[١١] ووجود[١٢]، وهجوم وَبَوادِه، تدل في

---

(١) من مصطلحات الصوفية، وهو حالك في زمان الحال لا تعلق له بالماضي والمستقبل، وقيل ما هو غالب على العبد وأغلب ما على العبد وقته. (مصطلحات الصوفية: ٢٦٨).

(٢) جمعه مقامات، وهي مثل التوبة والزهد والفقر والصبر غير ذلك، والمقام معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من مجاهدات. «مصطلحات: ٢٤٨».

(٣) الحال: هو ما يرد على القلب من طرب أو حزن أو بسط أو قبض، ويسمى الحال بالوارد، ولذا قالوا: لا ورد لمن لا وارد له. وقيل: الأحوال هي المواهب الفائضة على العبد من ربه. (مصطلحات: ٧٣).

(٤) الوجد: هو خشوع الروح عند مطالعة سر الحق، وقيل عجز الروح من احتمالِ غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر، وقيل مصادفة الباطن من الله تعالى وارداً يورث فيه حزناً أو سروراً. «مصطلحات: ٢٦٤».

(٥) التواجد: استدعاء الوجد. وقيل إظهار حالة الوجد من غير وجد. «مصطلحات: ٥١».

(٦) الاتصال: هو أن يرى العبد ذاته متصلة بالموحد الأحدي وألا يتقيد بوجود نفسه، وأن يرى السالك اتصال المدد والجود من غير انقطاع حتى يبقى الموجود باقياً بالله. «مصطلحات: ١٠٠».

(٧) هو حضور القلب لما غاب عن عيانه بصفاء اليقين فهو كالحاضر عنده وإن كان غائباً عنه. «مصطلحات: ٧٨».

(٨) هو أن يرى حظوظ نفسه، وبعكسه الغيبة، وهي أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها. «مصطلحات: ١٤٢».

(٩) هو خلو قلب العبد وسرّه عما سوى الله، بمعنى أن يتجرد بظاهره عن الأعراض، وبباطنه، عن الاعراض، وهو أن لا يأخذ من عَرَض الدنيا شيئاً. «مصطلحات: ٤٣».

(١٠) هو أن ينفرد عن الأشكال وينفرد في الأحوال ويتوحّد في الأفعال، وهو أن تكون أفعاله لله وحده، فلا يكون فيها رؤية نفس، ولا مراعاة خلق، ولا مطالعة عوض. «مصطلحات: ٤٦».

(١١) هو تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية دون الذات وكلّما ارتفعت صفة قامت صفة إلهية أخرى، فيكون الحق سمعه وبصره كما نطق به الحديث. «مصطلحات: ٢٠٧».

(١٢) هو فقدان العبد بمحاق أوصاف البشرية ووجود الحق لأنه لا بقاء للبشرية عند ظهور سلطان الحقيقة. «مصطلحات: ٢٦٤».

الفوز عَلَى سبقِ جَوَادِهِ، وفي شعره ما يدل على ذلك، وفي أبيات قريضه ما ينبىء على أنه ممن سلك هذه المَسَالِك، ولم يزل على هذه الأخلاق، حتى عاد من الشبيبة ذا إملاق، ورماه بالنَّحْس أبو سعد[1] وزَمْجر في سحاب لُمته البيضاء من نذيره الرَّعد، فأفضى إلى الحتف أمرُه، ودار عليه من شراب المنايا خُمُره، فأصبح في جدثه من السُّكرة صريعًا، واستبدل عن طيب العيش من التراب طعاماً ضريعاً، سَقَى الله من أعضائه ما شَحِب[2]، ولا برحت نسيم البُكَر تجرّ على مسك تُرابه ذيلها المُنسحب، وله شعرٌ تَهتَزّ له معاطف اليراع، وتجلب الأقلام إلى أسواق الدَّفاتر منه أطيب المتاع، فمن آيات إبراهيم التي يشرب عندها الحاسد من دموعه شرب الهيم، قوله:

لَوى الجيد لما رآني ومالا	رشأ فيه قاسيتُ بالحبّ مالا
عزيز المنال بديع الجمال	حوى الحسن أجمعه والكمالا
كثير المطال له خالقي	من المسك صاغ على الخدّ خالا
تبدَّى لعيني فلما رأى	خيالي [صار][3] التبدّي خيالا
فرحت وفي مهجتي جمرةٌ	أكرر في الرَّبع عنه السّؤالا
فقالوا: ومالك من حاجةٍ	وما رمت منه فقلت: الوِصَالا
فقالوا: لقد رُمت ما لا يرام	نرى ذلك الأمر منه مُحَالا
فقلت: سلوي عن وَصْلِهِ	بمدح المطهر[4] مروى النّصَالا

---

(١) أبو سعد: يضرب به المثل في طول العمر، قيل اسمه مزيد بن سعد، وقيل هو لقيم بن لقمان بن عاد، ويقال إنه أسنّ حتى اتكأ على العصا، وإنه أول من فعل ذلك. يقول العرب لمن أسنّ وحمل العصا: «قد أخذ رمح أبي سعد» وقد كنوا الهرم بأبي سعد وأبي زيد، ويقال في كنية الدهر أبو سعد. «المرصع: ١٩٩».

(٢) شحب: هزل.

(٣) ساقط من (ش).

(٤) هو جده المطهر بن يحيى شرف الدين صاحب الفتوحات العظيمة مع الأتراك وفاته سنة (٩٨٠ هـ) انظر في ترجمته (كتب تاريخ اليمن) ومن أهمها كتاب (روح الروح).

مليك رقَى في سما المكرمات ... مـحَـلاً تـعـذَّر من أن يُـنَـالا
لـه هـمَّـة فـي طـلاب الـعُـلاَ ... يـقـصـرّ في وصـفـهـا من أطـالا
بـه أَلْـبَـس الـمـجـد لـمـا نـشـا ... جـلالاً وزاد الـمـعـالـي جـلالا
مَـدَى الـدَّهـر أنـعـمـه لـم تـزل ... بـمـا نـرتـجـيـه عـلـيـنَـا تـوالـى
إذا رمـت فـي الـنَّـاس مـثـلاً لـه ... فـهـيـهـات هـيـهـات تـلـقـى مـثـالا
حـمـاه إلـهُ الـورى مـا شـدَت ... حـمـام الأراك ومـا الـبـرق لألاَ

وله:

ألا يـا مـن بـلا ذَنـبٍ ... تـجـنَّـوا وسـلـوا عـنَّـا
إذا عـزّ تـلاقِـيْـكـم ... فَـمـنُّـوا وسَـلُـوْا عَـنَّـا

قلتُ حمله التكلّف هنا للجناس إلى ارتكاب الإيطاء[1] فيه وهو من العيوب الظاهرة التي لا تخفى، وله في مليح ناسخ:

لا غرو إن حسنت في الخط وضعتُه ... وصار خط يديه فوق ما يصفو
فالنّون حاجِبه والصَّاد مقلتُه ... والميم مبسمُه والقامة الألفُ

أقول: معنى هذا النظم ظَاهر وهو أن هذا المليح إذ أحسن خطه وصار فوق ما وصِف فلا بدع لأنه أخذ طريقته الحسنة وقوة حروفه عن حروف من جماله، فكأنه حَرّر خَطَّه عليها، هذا مراد الناظم. ولاح لي معنًى لم يكن من مقصده[2] وهو أن حسن الخط من هذا المليح لا يقاس به غيره، لأنه قد استبد به وحواه بالنّص الذي ماله قياس فله فيه نص ما أي نص، لأن مَجْموع الحروف هذه التي نَصّ عليها في البيت نَص مًّا كما تَرَى، وهذا لم يكن من قصد النَّاظم قطعاً، وليته قال في البيت[3] الأول هكذا:

---

(١) الإيطاء: عند أهل العروض هو تكرير القافية لفظاً ومعنًى وهو عيب.

(٢) في (ب) مقسطه.

(٣) كتب في (ش) «التفسير الأول أحسن وهو مراد الشاعر».

وناسخ نَصُّه في حُسْنِ وضعته بلا قياس فيا أهل الخطوط قفوا

وله:

إن هذا الدَّهر حَقّاً سقطت فيه المروَّة

لا يُنَال الحقّ إلاَّ بيَسَارٍ أو بقُوَّة

وله رباعيّة:

يا خالق كل خَلْقِه من طينِ من غيرُك إن منعتني يُعطيني

هيهات ولا عطاك إن قد نفذت أحكام قضاك لي به يُخْطيني

أخوه السيد يحيى بن المفَضَّل[1]

سيدٌ واحدٌ كسادة، وفاضل ليس يخشى الفضل مع وجوده كَسَاده، ذو سهمٍ قامر، وَنَوالٍ سابغ غامر، يجلو ما أبيض من ناطفه، ويطّيب ما اصفر من ثمر حدائقه في مقاطفه، ويلين ما اخضرّ من غصن قلمه فَيهتزّ عن معاطفه، له حلل فخار موشعة، وحديث مجدٍ تسكر منه خَمْر الدِّنان المشعشعة، بدرٌ ذو سنا، ينعت بالفضل للتوضيح والثنا، وكان ذا نسك وتَقْوى، واحتمال في الطّاعة لما لا تثبت معه الجبال ولا تقوَى، فَسقى الغيثُ لحده وحيّا، وَسَلام عليه يوم ولد يوم يموت ويوم يبعث حَيًّا، ومن شعره قوله:

دنياك لا تركن إليها وكن مفوّضَ الأمر لحكم القضَا

فما مضى منها كأن لم يكن وما بقي منها كما قد مَضَى

وهو نظم لقول بعض الحكماء: ما مضى من الدنيا كأن لم يكن وما بقي منها كما قد مَضَى.

وَلَدُهُ السَّيد أحْمَد بن يَحْيَى الخَطِيْبُ

كان لكوكبان خطيباً، يهزّ بنسيم كلماته من المنبر غُصْناً رطيباً، إلاَّ أنه كان في الخِطَابَة ضَيّق العَطَن، فطالما قرع الآذان وعظُه المكرَّر فما طَنّ، فهو مكرر لا

---

(١) هو ممن انفرد به المؤلف ولم نجد له ترجمة في غير هذا الكتاب.

يحلو، وكلامٌ عن مجّ الأسماع لَهُ لا يخلو، وفي المثل أثقل من مُعَاد، ولو كان عندي حديث سَلْمَى وسُعَاد، حتى لقد كان يحفظ العامَّة خُطَبه غيْباً، لما يكررها عليهم ولم يدر أنَّ ذلك يُعَدُّ عيباً، والخِطَابَة مفتقرة إلى بخرِ ذي مدّ، وباع طويل في البلاغة يحمد، ولكنه كان منِ أعيان الأفاضِل معدوداً، فله روْض أوصاف جميلة لم يزل ظلُّهُ ممدوداً، مَا بَرِح بجمع العلوم مُشْتغِلا، منهمِكاً في اكتساب الآداب التي سعرها غلا، يكتُبُها نهاراً وَلَيْلاً، ويصبو بها كما صبا الوامق بهندٍ ولِيْلى، ويضبطها ضبط عالم، فإذا جمْعُها لديْه جمع سالم[1]، يكتب ما ظفر به من الغثّ والسمين، ويحرص على فوات الخيط من الخرز والعقد من الدّر الثمين، لا يفوته ما وقف عليه أصلاً، سواء كان قطعه من الحديد أو نَصَلاً، حتَّى جمع كتاباً سَمَّاه: «نزهة النواظر»، قد احتوت ورقاته على أرضٍ مقفهرَةٍ وروضٍ ناضر، ونَوَّه فيه بذكر كل بادٍ من الشَّعراء وحاضِر، في أربع مجلدات كبار، نفق بسوقها ما كسد وبار، وهي التي يقول فيها خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي، وكَتَبَهُ عَلى أحد أجزائها لمَّا فاح له شميمها النَّدي:

هي نزهَةُ القلب الذكي وخلَّةُ ... يفترُ عن دُرَرِ المعاني ثَغْرُهَا
كالرَّوضة الغَنَّاء إلاّ أنَّه ... بأنامل الأذواق يُجْنَى زَهْرُهَا

وكان مقامه للأدباء مجمعًا، لأنها تروق حديقته وأخباره منظراً ومَسْمَعا، يجتمع به الأكابر، وتنطق في جوانبه ألْسَنة الأقلام عن أفواه المحابر، كأنه سمط الجواهر، أو فلك النجوم الزَّواهِر، وشِعره كثير جِدّاً، وشُهب كلامه مما يفوت الحاذق عَدًّا، إلاّ أنه شِعر متوسّط بين الركاكة والإجادة، قد رويته عنه بالإجَازة[2]

---

(١) الجمع السالم عند النحاة: هو الاسم الذي ناب عن ثلاثة فأكثر بزيادة آخره هي الواو والنون في حالة الرفع، والياء والنون في حالتي النصب والجر، وسلم بناء مفرده عند الجمع نحو: معلم معلمون، فرح فرحون، وكذا في جمع المؤنث السالم. انظر في ذلك كتب النحو.

(٢) الإجازة: هي إذن المحدّث للطالب أن يروي عنه حديثاً أو كتاباً من غير أن يسمع ذلك منه، أو يقرأه عليه عنه لموجب ذلك من غير أن يسمعه منه أو يقرأه عليه. انظر (منهج النقد في علوم الحديث للدكتور نور الدين عتر ص ١١٥).

من ولَده والوِجادة[1]، وقد قال بعضهم: الشعر شعران جيِّد مُحكَك، ورديء مُضحِك، ولا شيء أثقل من الشعر الوسط، وروي أن إسحاق بن إبراهيم المُوصلي[2] قال: شر الغِنَاءِ والشعر الوسط لأن الأعلى منهما يطرب والرَّذل يُضحِك، والوسط لا يُطْرِب ولا يُضحِك، ومن زهر شعره المتفتح من القِرطاس على شَطِّه، قوله وهو مما نقلته له من خطه:

هيهات ما لك في الملاحة مُشْبِهٌ ... أبداً ولا لك في الجمال نظيرُ
الطَّرف نرجسة وثغرك لُؤلُؤٌ ... والخد وَرْد ناعمٌ ونضيرُ

وقوله في مليح فحَّام:

فحَّامنا قد أصاب قلبي ... من طرفه إذ رنا بِسَهمِه
ابيضَّ شيبي عليه هجراً ... واسودّ حظي سواد فحمه

وقال العلامة أبو حيان[3] رحمه الله تعالى فيه[4]:

وَعلقته مسود عينٍ ووفرة ... وثوب يعاني صنعة الفحم عن قصد
كأن خطوط الفحم في وجناتِهِ ... لُطَاخة مسكٍ في جنيٍّ من الورد

وقلتُ أنا فيه:

ناديتُ عن نارٍ بقلبي ثوت ... فَحَّام حسنٍ شَغره فاحمُ
لا يشتعل فحمك باعد بِه ... فلي فؤادٌ بالهَوى جاحِمُ

---

(١) الوجادة: هي أن يجد المرء حديثاً أو كتاباً بخط شخص بإسناده فله أن يروي عنه على سبيل الحكاية فيقول: وجدت بخط فلان حدثنا فلان... انظر (منهج النقد ص ٢٢٠).

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي بن النديم، كان من أشهر ندماء الخليفة العباسي برع في الغناء وله مؤلفات فيه. توفي سنة (٢٣٥ هـ). (وفيات الأعيان: ١/ ٦٥ والأعلام: ١/ ٢٩٢).

(٣) هو أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي، برع في علم النحو والتفسير من مؤلفاته «البحر المحيط» توفي سنة (٧٤٥ هـ). (الدرر الكامنة: ٢/ ٣٠٢ والأعلام: ٧/ ١٩٢).

(٤) البيتان في (فوات الوفيات: ٤/ ٧٤) ط إحسان عباس.

وقلت فيه أيضاً:

ذا الفحم بين يدي من ... قد عزّ منه التلاقي
أطفاه من نار قلبي ... بماءِ دمعي المُرَاق

وَلَدُهُ صَاحِبُنَا عَبْدُ الله بن أحْمَدَ بن يَحْيَى

نديمي وجليسي، اتخذته وقد أوحشني الزّمان أنيسي، ما مضى وقتٌ إلاّ وهو لي قرين، ولا مّرت لمحة إلاّ وداري لأسده عرين، طالما زارني زيارة الحبيب، وقد غفل الواشي ونامت عين الرَّقيب، أعُدُّ عليّ وُفودَه، كرجوع أيام الصّبا عَلَى من بَيْض المشيب لِحيَتَهُ وفودَه، فكم تقضّى من ليل هو لي فيه سمير، لَمّا لم ألَفُ من أبناء الزَّمن سوى الحمير، ليل قمرُه قد انصَاحَ(1)، وقمريه يهز الأعطاف إن صاح، يعاطيني من حديثه صرفاً، ويجاريني في ميدان ركبت فيه أدهم الليل طرْفا، لأنه لعين الدهر إنسان، وعارفٌ لنا من علمه وأدبه أُنَسْان، خاض من العلوم أعمق عُبَاب، وأتاه الله كتابها فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾(2)، قرأ على والدي فحصّل، ولبس من تاج النحو المفصل(3)، وأضحى في علم البيان والمعاني، ذا مقام يفتر على بلوغه المعاني، فعليه بعد والدي المُعَوَّل، لما لاحظه السّعد(4) فيه بشرح مطول(5)، وله في اللُّغة عقد نَضِيد، يقصر عنه الجوهري(6) فيعافه كل جيد،

---

(1) خلص.

(2) سورة مريم الآية (٣٠).

(3) هنا تورية بكتابين من كتب النحو، أولهما كتاب «التاج المكلل شرح المفصل» للإمام أحمد بن يحيى المرتضى المتوفي سنة (٨٤٠ هـ)، و«المفصل» كتاب في النحو للزمخشري وشرحه المارّ ذكره.

(4) السعد: هو سعد الدين التفتازاني، من أئمة اللغة وفاته سنة (٧٩٣ هـ) وهو صاحب حاشية السعد على الكشاف المنسوب إليه.

(5) المطول: من مؤلفات المذكور، وهو في البلاغة.

(6) تورية بالجوهري اللغوي، وهو إسماعيل بن حماد الجوهري أبو نصر، له «الصحاح في اللغة» توفي سنة (٣٩٣ هـ).

وكان ذا لهجٍ بشعر أبي الطيِّب الكندي، وبنَظم خليلنا الشيخ إبراهيم الهندي، قد وُضِعَا منه على طرف الثّمام[1]، يُغرد بهما في المجالس ولا كتغريد الحمام، لم يكتف منهما باليسير، ولم يخف عليه فيهما ما يفتقر إلى تفسير، لأنه خبير ماهر، ذو طرفٍ في طلاب العلم ساهر، وشعره يقصر عن كماله، والنظم الحسن لا يطاوعَه بانعماله، فهو إذا هَزَّ عامل قلمه وسطاً، يُعدّ في البَلاغَة أمَّةً وَسَطاً، وفي آخر عمره أدرك السَّرَار كامل قَمره، فعاداه الدّهر وحاربه، وتَباعد عنه الغِنَى وما قاربه، وما زال عنه نَفُوراً، ولم يبرح لنعمة وجوده فيه كفوراً، فضاق به الحال أشدّ ضيق، وعومل من التّقصير في حقه بما لا يليق وهكذا الدَّهر اللئيم، ينبذ الفاضل بالعراء غير مليم:

يـا دهـر مـا أنـصـفـت فـيـمـا جـرى ومـن لـذي فـضـلٍ بـأن تُـنْـصِـفَـه

ولكنه مع ما جرى، يملأ من النظر في العلوم والآداب محجراً، لا يبالي بالدَّقع، وعلى أيّ جنبٍ من صَرْعَتِهِ وَقَع، لا يتوجع مِن دهرٍ والى عليه أو صابَه، فسَيّان من عدو الزمان أأذاقه حلْوه أوْ صَابه، ولم يزل لي خليطاً، أخوض مِن عِرفَانِه بحراً محيطاً، إلى أن نزل به الحِمام بغتة، ولزم شخْصُه سكوته وَصَمْته، فكان موتُه لدي من أعظم الخُطوب، انزوى به ما بين عينيّ في وجه الزَّمان بالقطوب، فما هَزَّت عطفي بعده مَسَرَّة، ولا عَذُب لي وِرْدٌ ولو كان نهر المجرَّة:

حـسـبُـكَ الله يـا زمـانـي صَـبْـري فـي الإسـاة مـنـك صَـبْـر حَـلْـيـم
مـا كـفـاك الـجـفـا ولا طـبـت نَـفْـسـاً بـالـتّـجـافـي حـتـى اسـتـلـبـت نـديـمـي

وقد رثيته بقصيدة، نصبتها شباكاً للصبر لمّا عزّ علي أن أصيده، سقى الله أعضاءه غيثاً هِنياً، وساقط عليه من نخلات الجنة رُطباً جنيّاً، ما لبِس الغصن من الورق رفرفه، فأكثر الطَّير فوقه من الشغف به رفرفه، وما سَبَح في مرج الخضراء من المجرة عذب نهره، واطلع الروض المُذهمّ من اللَّيل زُهر زَهره، ومن شعره ما كتبه إليّ وهو قوله:

إلـى مـتـى لـلـتـدانـي مـنـك أنـتـظـرُ يـا غـصـن يـا ظـبـي يـا شـمسٌ ويـا قـمـر

---

(١) يقال لما لا يعسر تناوله على طرف الثمام لأنه لا يطول.

أظل فيك ولي شوق أبوء به ... تَحيَّرت عنده الأفهام والفكرُ
أبيت أرعى نجوم الأفق من قلقي ... على الوساد إذا ما هَوّمَ السَّمَرُ
كأنني أحمد السَّامي وقد سهرت ... عيناه في العلم لا أودى بها السهر
فهو الشهاب الذي سامى البدور عُلاً ... برتبة حازها تعنو لها البشرُ
فهمت فيه من العليا متضحاً ... (وما علي إذا لم تفهم البقرُ)
كم قد حباني بآدابٍ منوعةٍ ... يفرج الطرف منها روضها النضرُ
كأنها في سواد النَّفس إذ ظهرت ... ماء الحياة وأني عندها الخضرُ
إليكها يا شهاب الدين صادرةً ... عن الوِداد ومنه يعذب الصدر
أودعت سمعي دراً في محاورةٍ ... فقد بدت من نظامي تلكم الدُّررُ
واسلم فلي فيك وِدّ لا تغيره ... وإن تغيّر عنَّا دهرنا الغيَرُ

قوله: «أودعت سمعي» البيت فيه معنًى حسن، ولعله أراد أخذ معنى نظم الإمام الزَّمخشري رضي الله عنه يرثي شيخه أبا مضر[(١)] لما قال[(٢)]:

وقائلةٍ ما هذه الدّرر التي ... تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت لها الدّر الذي كان قد حشا ... أبو مضرٍ أذني تساقط من عيني

ومنه قول القاضي ناصح الدِّين الإرجّاني[(٣)] رحمه الله تعالى[(٤)]:

لم يبكني إلاَّ حديث فراقِهِم ... لَمَّا أَسَرّ بِهِ إلَيَّ مُوَدِّعي
هو ذلك الدّر الذي أودعتم ... في مسمعي ألقيته من مدمعي

وقول الآخر:

---

(١) هو محمد بن جرير الضبي، يقال إنه أول من أدخل مذهب الاعتزال إلى خوارزم توفي سنة (٥٠٨). (معجم الأدباء: ٧/ ١٤٥ والأعلام: ٧/ ١٦٧).

(٢) انظرهما في: (وفيات الأعيان: ٥/ ١٧٢) ط إحسان عباس.

(٣) هو ناصح الدّين، أبو بكر بن أحمد الأرجاني، كان قاضي تستر وعسكر مكرم برع في الشعر، له ديوان مطبوع توفي سنة (٥٤٤ هـ). (وفيات الأعيان: ١/ ١٥١).

(٤) البيتان في ابن خلكان ٥: ١٧٢.

حَدَّثوني عن بدورٍ في الحِمَى ... ما الذي أطلعها بالأجرعِ
كُلَّمَا ألقيتموا في مَسْمعي ... دُرراً ألقيتُها من أدْمعي

وقول الآخر:

وقفت أحَلّي الأرض من فيض أدمعي ... فجاء العَذَارَى يلتقطن المدامعا
يغرن على تلك اللآلي لأنها ... بقيّة ما أودعن مني المَسَامِعَا

ومنه ما جاء للعلامة الأديب القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الخُفاجي رحمه الله تعالى، مما أودعه من المنثور في كتاب «الريحانة»، وذلك قوله في مقَامة الغُربة[1]، المسمَّاة بِدَفع الكُرْبة: ولم تَنْثُر دُرر المدامع، إلاّ من دُرٍّ[2] أودعه مِن نَغيت في صَدَف المسامع[2]، انتهى. إلاّ أنه زاد الشهاب رضي الله عنه هذا المعنى حُسْناً ظاهراً باستعارة الصَّدف للمسامع، فإنها استعارة لطيفة يعرفها من استخرج دُرَر الأصداف من مغاص بَحْر العروض بيد الآداب.

أقول: ومن نظم الأرجاني أخذ السيد العلامة الهادي بن إبراهيم الوزير[3] رحمه الله تعالى في مرثيته لإمام الورع الزَّاهد العابد الفقيه إبراهيم بن أحمد الكينعي[4] عادت بركاته قوله[5]:

ليست دموعي هذه بمدامعي[6] ... لكنها كلمُ الخطيب المصْقعِ
كانت فوائد لُؤلؤ من وعظه ... في مسمعي فتحدَّرت من مدمعي

ومنه أيضاً ما جاء لمولانا قاضي القضاة جمال الدين محمد بن الحسن

---

(١) (نفحة الريحانة: ٢/ ٣٧١).

(٢) مطبوعة الريحانة: «إلاّ من در مودع في صدف المسامع».

(٣) من العلماء الأفاضل، من مؤلفاته «نهاية التنويه»، وفاته سنة (٨٢٢ هـ). انظر: كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي ص ١٢٩) وفيه مصادر ترجمته.

(٤) من الزهاد العباد وفاته سنة (٧٩٣ هـ). «مطلع البدور».

(٥) أوردها صاحب (مطلع البدور) وأولها:

شجر السعادة والكرامة أينعي ... للقاء سيدنا الإمام الكينعي

(٦) مطلع البدور: بمدامع.

الحيمي رضي الله عنه في مرثية شيخه وأستاذه السيد العلامة محمد بن إبراهيم بن المفضل رضوان الله عليه وهو قوله:

أبكيه دَمْعاً غَدَا حلياً لغانيةٍ يزين منها الطَّلا لو أنه جمدا
نثرت من أعيني ما كان أودعَه من دّر ألفاظِهِ في السمع منتضدا

ومنه ما جاء لي في كلام منثور وهو ما لفظه: أيها الموّدَع سَحَرا، المودع بقلبي شرراً، لا تعجب لدمعٍ رأته الغواني فتسابقت إليه، والتقطته ظَنّاً منها أنه من دُر عقودها الذي أشفقت عليه، فهو الدُّر الذي أودعته سمعي منظوماً مُنضّدَا، أرجعته من عيني لك منثوراً مُبَدَّداً، انتهى.

ومثله قول الصَّغاني[1] رحمه الله تعالى في النَّظم[2]:

أقول والشمل في ذيل النوى عثرا يوم الوداع ودمع العين قد كَثُرا
أبا الفضائل قد زودتني أسفاً أضعاف ما زِدْت قدري في الورى أثرا
قد كنت تودع سمعي الدّر منتظماً فخذه من جَفْن عيني الآن منتشرا

وَينتظم في سلك هذه الدّرر ما جاء لي في بعض مراثي مولانا الوالد عليه السلام وهو قولي:

لا تنكروا أدمعي المفتر لؤلؤها بما أغاض[3] نظيم المبسم الشنب
لقد ملا السمع لفظاً كالمَدام فما مُساقط الدَّمع إلاَّ فائض الحبب

وكتب إليّ صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى لمَّا وقف على شيء من كتابنا المسمى «مستقطر اليَزْدي المعتصر من زهور الوردي»[4]، شرح منظومة القاضي

---

(١) هو العلامة رضي الدين الحسن بن محمد الصَّغاني، من علماء اللغة وفاته سنة (٦٥٠ هـ). انظر: (الفوائد البهية: ٦٣ والأعلام: ٢/ ٢١٤).

(٢) الأبيات في (تاريخ ثغر عدن: ٢/ ٥٥).

(٣) في (ب) إعاظ وفي (ش) أغاظ.

(٤) هذا الكتاب من مؤلفات المؤلف المفقودة لم نقف عليه ولعله يوجد في بعض المكتبات الخاصة.

زين الدين بن الوَرْدي رحمه الله تعالى اللاَّمية المشهورة قوله:

دم يـا شـهـاب الـمـعـالـي أصـدر عـلاك وأورِد
بـهـمـةٍ لـك واجـمـع عِـقـد الـعُـلـى الـمُـتَـبَـدِّد
أرسـل سـهـامـك فَـضْـلاً إلـى الأقـاصـي وَسَـدِّد
واسـجـع عـلـى لـدن غـصـنٍ مـن الـيـراع ورِدِّد
مـلأت سـمـعـي عِـلْـمـاً عـن ذهـنِـك الـمـتـوقِّـد
شـمـمـت مـسـتـقـطـراً مّـا لِـنَـدِّه قَـطّ مـن نِـد
لله درّك كـم لـلاً نـام بـالـعـلـم تُـرشِـد
لـو شـاهـد الـصَّـفـدي مَـا حَـرَّرت فـيـه لابـلـد
مـن غـيـر شـكٍّ وريْـبٍ أنـت الإمـام الـمُـجَـدِّد
لا زلـت لـلـفـضـل جـمـعـاً فـي عـصـرنـا مُـتَـفَـرِّد

واعلم أن بيني وبينه مكاتبات، تصبح بها الأيام متزينّة وتبات، كتب إلي من المنثور في ذيل كتابٍ قوله:

وأمَّا أنا فالدَّهر محسنٌ إليّ، مقبل بوجه إسعاده وإسعافه علي، ذلك الإحسان وجودُكم، وذاك الإقبال تفضّلكم وجودُكم، بذلك أتحمَّل منه كل نائبة، وأصبر لجميع صروفه حاضر في الذهن وغائبة، وجميع إساءته أرضاها، وقد شابه بها كل مسيء وضاهى، في جنب حسنةٍ بها سمح، وعطيّة بوافرها منح، ولبابها بعد الإغلاق فَتَح، فالحمد لله الذي جعل لحزني سروراً، وزادني بوجودكم حُبُوراً، وألهم دَهْري إلى الجبر بعد الكسر، وإلى الإطلاق من أغلال الكرب بعد الأسر، أنتم قصْدي من الزَّمان، وأنتم بُغيتي من الأوان، ليت شعري أعَلم إحسانه إلي بوجودكم حتى أعُدّه مُحْسِنًا، أم جهل ذلك الامتنان له علي في ذلك الامتنا، وما أظنه إلاَّ جهل فتركني وشاني، ولم يفطن لما أنا فيه فإن عدُوّي زَماني، لولُوعِه بمعاكستي، ونشاطه إلى مماكستي، أحسن في الإصباح والمبات، وأصاب وللبله كما يقال إصابات، والسَّلام.

وكتبتُ أنا إليه في يوم بارد، والرّوض من دموع الغمامة وارد، وقد أصبح حصن كوكبان السَّامي، مُكلَّلاً لتاجه بلؤلؤ القطر الهامي، لما أسْدلت السحاب أستارَهَا، ورفعت الرّعود أصواتها ولم أقل حَرّكت أوتارهَا، أستدعيه إليّ وأستعجله بالوفود عليَّ، ما لفظه:

اشتد في يومنا هذا البرد، فازرقَّت منه الإجساد حتى استحال بنفسجها خَدُّ الورد، هَمَت وأرهمت السَّماء[1]، وبلّت أردية الرّياض المعَرّجة بالماء، وشاب الدَّوح المدهَمُّ بأبيض من ماء العارض الماطر، وقد بصق فَمُ الجو ريق الثَّلج في وجهه فإذا هو مكسور الخاطِر، ولبس الأفق من السّحاب فروى، فلا بدع لما جَرَى منه ولا غَزْوَى، وسَئِمت الأرض من الرّشّ والطشّ، وقيل للغصن: أتشرب؟ فقال: من لي بالعطش، وبدا السَّرْوُ الباسِق[2]. من مائِه الذي هو دُرّ مُتَنَاسِق، كأنه مناراتٌ من البلّور المصَفَّى، لأنها إذا نقصت النّهور فالغيث قد وفَّى، والماء كأنّه طوفان نوح، وقد ظَلَّت الحمائم خَشْيَة على فراخِها من الغرق تنوح، ونحن في مجلس يحمد، قد لبس فرو الدُّخان من النّدّ، وتورّد خدُّه بالجمر، ودارت فيه قَهْوة القشر فماذا يراد بالخمر، فبالله عليك إلاّ ما أجَبْت النِّدا، وسقطت علينا سقوط هذا النَّدَى، وانحدرت إلينا انحدار السَّيل، ورفعت أرديتك عن البلل وشَمّرت الذَّيل، فالشوق إليك لا يُحِد، وأسبَابُه لا تُحصَىَ ولا تُعَد، قد أخرس وصفُه فُصَحَا، فما تناول خمرته مُحِب فصحا، لا برحت في الرّياض نازِلاً، ما دام طرف نَوْرِها لعيون نرجسها مغازِلاً، وما عاتب النّسيم النهر وعَنَّفه عن إدارة شرابه على الزَّهر، فقطب وَجْهه وجَعَّده، ونَفَاه عن الرّوض وَبعَّده، والسلام.

قولي «وقد بصق فم الجو» إلى آخر الفقرة، هو كقول القاضي محيي الدين

---

(١) يقال: أرهمت السماء: أتت بالرّهمة، وهي المطر الدائم الضعيف.

(٢) السرو: شجر حسن الهيئة قويم الساق.

عبد الله بن عبد الظاهر[١] رحمه الله تعالى في النَّظم[٢]:

لا تلوموا دمشق إن جئتموها ... فهي قد أوضحت لكم ما لديها
إنها في الوجوه تضحك بالزَّهر ... لمن مَرَّ في الرَّبيع عليَها
وتروها بالثَّلج تبصق في لحيـ ... ـة من جاء في الشتاءِ إليَها

ومنه أخذ القاضي صلاح الدين الصَّفدي رحمه الله تعالى قوله في رحبة مالك بن طوق[٣]:

تَبّاً لها من بلدةٍ لا أرى ... فِيها مُقَامي واضح النَّهج
لأنها في وجه سكانِها ... وأهلها تبصق بالثلج[٤]

وكتبت إليه مُجيباً عليه وقد وصلني منه مكتوب يشكو فيه من الدَّهر ما لفظه:

وصلني منك أيها اليقظ، ما أودعته يدي حرز النفائس فحفِظ، وضَنَنْت به حتى على نفسي، فما ظنك بعد ذلك بعرسي. مِن دُرِّ لفظٍ يليق بالنَّحور، فلا يفتقر معه إلى منة الأصداف والبحور، فَهزَّ عطفي وأنشاني، وأذكرني خطابك مشافهة فما أنساني، لا أسخن الله لك عينًا، ولا أبدى لمحاسنِك الكاملة شَيْنًا، وذكرت تتابع الصَّوارف، عن النهوض لكسب المعارف لا العوارف[٥] وشكوت من دهرٍ كالم، هو سِلْم الجاهل وحرب العالم، فالحرُّ إذا نزلت به نائبة، كانت ملابس صبره عن الدُّروع نائِبة، والحرُّ حرّ وإن مسه الضُرّ، والعبد عَبْدٌ وإن مَلك الدُر[٦] ورب جاهل

---

(١) هو محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي، أديب ومؤرخ من أهل مصر له «تشريف العصور» في التاريخ. مطبوع وديوان شعر، توفي سنة (٦٩٢ هـ). (فوات الوفيات ١/ ٢١٢ والأعلام ٤/ ٩٨).

(٢) البيتان في الوافي بالوفيات للصفدي ١٧ : ٢٨٩.

(٣) قرية على الفرات بين الرقة وعانة، أحدثها مالك بن طوق في خلافة المأمون (مراصد الإطلاع ٦٠٨).

(٤) البيتان، في (الغيث المسجم ١/ ١١٨).

(٥) جمع عارفة: وهي العطية والمعروف.

(٦) سيأتي للمؤلف الكلام عليه.

مجدود، وعالِم من خير الزَّمان محدود، وإذا كان الدَّهر بحر العجائب، فكيف يسوغ ماؤه المالح لشارب، أم كيف لا يخشَى منه الغرقْ، ولا يُصيب راكِبه من هوله الفَرق، والإخوان خُوَّان، والزَّمان للمفضول على الفاضل من الأعوان، وللدّهر فلتات مَجْلس، فاللائق بذي الحجى أن يكون مَقَاده من مقاد المزموم[١] أسلس، وهو كما لا يخفى ألأم من أسلم[٢]، فغير ذي عقلٍ عندي من قال: أنا من نكايته أسلم، سيما فاضل أغاظه بسماتِه، وباراه بقوس كماله فلم يُعد من رُماته، فإن لم يسعدك بالجاه والمال، فأقسم بمعاليك ما ذَنبك إليه سوى الكمال، والزَّمان وضِيعٌ يُحِبّ الوضيع، مشغوف بعناد ذي مقام رفيع، طالما قَدَّم على الرئيس المَرؤوس، وساوى بين الأقدام والرؤوس، وغلط لَمَّا لم يُفْرق بين القعود والجلوس، فاصبر فمُنتَهى الخوف أمان، وارتقب فكم تَنويل أتى بعد حِرْمان، والدَّهر تارة وتارة، فاللبيب من اختصر في شكايته العبارة، فَمَا عَبَس روض بالشِتَاء، إلاَّ ابتسم بالربيع إذا أتى، ولا أظلم ليل دامس إلاَّ أنار بعده نهارٌ شامِس، وبَعْد الحربِ سلمٌ، وربَّما طمس الجهل بأيدي العلم، وكم من محروم استبدل بالنَّصَب راحة، وأدار له الدَّهر على رَغْمه في كاس المسرة راحة:

وكما يملّ الدَّهر من إعطائه ... فكذا ملالته من الحِرْمَانِ

والكذوب قد يصدق في وعده، وربَّما جاد الشَّمع بخالص شَهْده فأجمل عند سؤال زمانك في الطَّلب، فما أظنّه لفرط شُحّه إلاَّ ممَّن سَكَن بحلب[٣]، وترقب فرصَة تُنتهز، وأشحذ الشَّفْرَة للمَحزّ، وثقف الرمح للمَهَزّ، واغتنم الفرصة وبادر،

---

(١) ساقط من (ز).

(٢) هو أسلم بن زرعة، جبى أهل خراسان جباية لم يجبها أحد، ثم بلغه أن الفرس كانت تضع في فم الميت درهماً فنبش القبور واستخرج الدراهم. قال صهبان الجرمي:

تعوذ بنجم واجعل القبر في الصفا ... من الطود لا ينبش عظامك أسلم

فقيل: ألأم من أسلم. (انظر المستقصى ١/ ٢٩٨) وسيأتي للمؤلف الكلام عليه.

(٣) سيأتي الكلام على ذلك للمؤلف.

فإنَّ الدَّهر كما عرفت ألأم من مادر[١]، وقد يمدر الحوض بعد أن صَفا، ويرجع إلى عنصره القديم فيعامل بالجفا، فإنه زمن لا يشبه الأزمان، مُصافاته كدرٌ وعطيته حِرْمان، جبرُه هيْض، وبَردُه قيض، فلهفي على زمن مفقود، أنا عن رجوعه أعجز من الثَّعلب عن العنقود[٢] لكن ما أُهين حُر عزّ بخالقه، ولا افتقر غَني بسؤال رازقه، ولله ألطاف تَسْري من حيث لا تُدْرَك، وكم أخذ بيد عبدِه وقد شارف على العثرة فاستدرك، والسلام.

تتمة في هذا المكتوب ألفاظ تحتاج إلى بيان وسنوضح منها بعضاً.

قولي: «الحر حر وإن مَسَّه الضُر» هذه الفقرة والتي بعدها مما روي عن الله عزَّ وجل قيل: إن الله تعالى أنزل في بعض الكتب: الظّالم نادم وإن مدحه الناس، والمَظْلوم سالم وإن ذمَّه النَّاس، والقانع غني وإن جاع، والحريص فقير وإن ملك الدُنيا، والحرّ حر وإن مَسَّه الضُرّ، والعبد عبد وإن ملك الدّر، ذَكره الإمام الجوزي رضي الله عنه في كتابه الذي تَكلَّم فيه على سورة يوسف، الصِّدِّيق عليه الصلاة والسلام.

قولي: «وهو كما لا يَخفَى ألأم من أسلم» هذا مثل من أمثال العرب وهو أسلم بن زرعة جبى أهل خراسان جِباية لم يجبها أحد قبله، ثُمَّ بلغه أن الفُرس كانت تضع في فم الميت درهَماً فنبش القبور واستخرج الدَّراهم.

ففي هذه الفقرة مع الفقرة التي تليها الجناس كما هو ظاهر.

---

(١) في الأمثال: أبخل من مادر، وهو رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة. انظر (المستقصى ١/ ١٣).

(٢) من الأمثال وفيه قال حامض لما لم يدركه:

أيها العائب سلمى ... أنت عندي كثعالة
رام عنقوداً فلما ... أبصر العنقود طاله
قال: هذا حامض لما ... رأى أن لا يناله

(انظر المستقصى ١/ ٢٣٥).

قولي: «وغلط لَمَّا لم يفرق بين القعود والجلوس»، نَصّ في «شرح المصابيح» أن الفصحاء يَسْتعملون القعود في مقابلة القيام والجلوس في مقابلة الاضطجاع، وحكي: أن النضر بن شميل[1] دخل على المأمون، وقام بين يديه، فقال له المأمون: اجلس فقال: لست بمضطجع، وقعد، فقال له المأمون: كيف أقول قال: قل اقعد. وقال الحريري رحمه الله تعالى في «درّة الغواص»[2]: ذكر أنهم يقولون للقائم اجلس، والاختيار على ما حكاه الخليل بن أحمد أن يقال لمن كان قائماً اقعد، ولمن كان نائماً أو ساجداً اجلس، وعَلّل بعضَهم هذا الاختيار بأن القعود هو الانتقال من علو إلى أسفل، ولهذا قيل لمن أصيب برجله مقعداً، وأن الجلوس هو الانتقال من سفلٍ إلى علو، ومنه سميت نجد جلْسا لارتفاعها، وقيل لمن أتاها جالس، وقد جلس، ومنه قول عمر بن عبد العزيز للفرزدق[3]:

قل للفرزدق والسَّفاهة كاسمها ... إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس

أي اقصد نَجداً انتهى كلامه.

ولَمَّا اعترض المعترض على الشيخ ابن الحاجب رحمه الله تعالى حيث قال في «الكافية» في بحث المصدر بأنّه قد يكون من غير لفظ الفعل ما لفظه: وقد يكون يغير لفظه نحو قعدت جلوساً، قال بعض الشارحين: لا يقال هو ممنوع لأن الجلوس لا يكون مستعملاً في جميع موارد القعود كما هو مقرر عندهم لأن الجلوس إنما يستعمل في مقابلة النوم لأنا نقول القعود والجلوس مترادفان ما لم يذكر مقابل كل منهما من الاضطجاع والقيام، ودليله ما قيل في المصابيح جلست بَيْنَ يديه.

قولي «فما أظنه لفرط شُحّه إلاّ ممن سكن بحلب»، فيه إشارة إلى ما ذكره

---

(١) هو النَّضر بن شميل بن خرشة بن يزيد المازني التَّميمي، أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة. توفي سنة (٢٠٣ هـ). (وفيات الأعيان ٥/ ٣٩٧ والأعلام ٨/ ٣٢).

(٢) (درة الغواص ٨٨) ط الجوائب.

(٣) البيت في لسان العرب ٦: ٤١ (جلس) منسوب إلى مروان بن الحكم.

الشَّيخ عز الدين الضَّرير قال: كان السُّلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يقول: إذا كنت في حلب فلا يسألني أحد في صلة فإني أجد في نفسي شُحًّا في حلب لا أجده في مكان غيره. وقال بعض الحكماء: من أقام ببغداد سنة واحدة وجد زيادة في علمه، ومن أقام بالموصل سنة واحدة وجد زيادة في عقله، ومن أقام بحلب سنة وجد شُحّاً في نفسه لا يجده في غيرها، ومن أقام بدمشق سنة وجد في طباعه غلظة وفظاظة، ومن أقام بمصر سنة وجد في أخلاقه رقَّة لا يجدها في غيرها. ودَليل ذلك ما جرى على العزيز صاحب مصر مع زوجته «زليخا» حيث قال لها: استغفري لذنبك. قيل إن طينة مصر جبلت على قلة الغيرة، والله أعلم.

وقلتُ أنا أيضاً في النظم:

يـا مـنْ يـشُـحَ عـلـى سُـؤَّالِـه وَهُـمُ ... قـد أقـلـقـوه بـتـعـنـيـف وسـوء طـلـب

أفِضْ عـلـيـهـم فـأنـت الـيـوم في سعة ... بـكـوكـبـان مـحـلّ الـجـود لا بـحـلـب

السَّيد حسَين بن يحَيى بن المفضَّل

ناسخ لم يخل عن عرفان، وكاتب لم يفته من العلم والأدب صنفان، فشجرة أدبه غينا[1]. أفاض عليها من ماء رقته عينا، فادهمَ ودقها جنيًا، واقتطف ثمرها سنيا، وكان لوالدنا أخص الخلان، وممن تزيَّن بوده في السِّر والإعلان، فكم كاتبه في رقة، وسقى روضه من ودقه، وشعره موزون مقفى، ونهر نظمه من عسلٍ مصفى، ولمّا حان منه لأحبته الوداع، مرض ومات من ألم الصُّداع، فلو لم يكن للرؤسا راسا، لما أصابه ذلك الألم راسا، أصمت وخرس، لما عاجله الحِمام معاجلة أسد مُفْترس، فَما ثقل على حبيب، ولا ملَّه عائد ولا طبيب، فمات وهو وافر البدن، يضيق عنه الجدَث والكفن، وأوْدِع من اللَّحد في جرابه، وفاض الدَّمع لمصرعه وجرى به، لا زَال ربُّه عليه بالغفران منعما، ولا برح القطر لإناء ملحده مُفْعما، ما لبس العارض أخضر الجرد، وما اُستقطر بنار الخفر من خدود الغيد ماء الورد، ومن شعره قوله:

---

(١) الغينة: الأشجار الملتفة ولا ماء حولها.

قلت للجاهل الغبي: تَزوَّد   لا تزدني ذَمًّا شنيعًا ومقْتا
وامضِ فيما أتيته بسلامٍ   خَصمي الدهر ليس خصمي أنتا

وهو كقول ابن سناء الملك[1]:

خاصمني مَن سكتُّ عنه   فظن أن ليس لي لسان
فقلت: ما أنت لي بخصمٍ   وإنما خَصمي الزَّمان[2]

وقول عُمر بن مظفر الفهري[3] اللغوي المصري[4]:

سكتّ إذ سَبَّني من لا خلاق له   فقيل لي خفت منه أنه لَسِنُ
فقلت: والله ما عيّاً سَكت ولا   ذا النحس خَصْمي ولكن خصمي الزمنُ

ومنه ما جاء لي في كلام منثور وقد أوردناه على طوله وهو قولنا:

أما الكرام، ومن ينال بهم المرام، فهم قوم قد قلَّ عددهم، وإن كثر في العفاة مَدَدهم، فعدوا من المجد على السَّنام، واشترت العيون رؤيتهم بلذيذ المنام، تود جميع الجوارح، لو أنها أبصار تجول من رياض ذاتهم في مسارح، واعلم أيها المعدود في الأشرار، أنك لست ممن تتحاسد عليه القلوب والأبصار، وما تركت ذكرك، إلاّ لأنظم في سلك الإهمال قدرك، وما إعراضي عن هجاك، إلاّ لعلمي بأنه قد فقد حجاك:

ولو كنت إمرءا تهجى هجونا   ولكن ضاق فتر عن مسير

نزَّهت أوراقي عن نجاسة اسمِك، وطَهّرت فم الدواة ولسان القلم عن النّطق

---

(١) هو هبة الله بن جعفر، شاعر جيد من مؤلفاته «دار الطراز» في الموشحات، وديوان شعر. وفاته سنة (٦٠٨ هـ). (وفيات الأعيان ٢/١٨٨).

(٢) ديوانه (٥٥١) ط مصر سنة (١٣٨٨). وانظرهما في (فوات الوفيات ٣/ ١٥٤).

(٣) هو عمر بن مظفر بن سعيد الفهري، كان من شعراء مصر توفي سنة (٦٣٨ هـ). (فوات الوفيات ٢/ ١١٥ والأعلام ٥/ ٦٧).

(٤) البيتان وردا في (فوات الوفيات ٣/ ١٥٥) ط إحسان عباس.

بفواحش رسمك، فأنت لديّ منوط، بامرأة نوح وامرأة لوط، وإن فاهت بذكرك الأقلام، فهي شياطين تُوسَوس في صدور السُّطور بطارق الأحلام، ولما علمت الدفاتر، بان الغرض ذكرك فيها وهو غرض فاتر، ودَّت الخروج من جلدِها، وأرادت من منظوم الكلام نثر عقدِها، فمكان أنت فيه كثير الحزن، ومنزل غبت عنه متوافر المنن، وعينٌ تُشاهدُك فيها القَذَى، ولسان تنطق باسمك دأبها الفحش والبَذا [ولست بمتوجّعٍ إلاّ من الدَّهر، في تحملي غُصَصَ المغايظ والقهر، لأنه جعلك لي خصماً، وفَصم بمُديتك الكليلة عُرَاي فَضماً][1] ولست تعَد لي كفواً، فهل أستطيع لهذا الخرق رفواً، لا والله لقد اتسع على الرَّاقع، وخالط هذا الشراب السُّمَ الناقع، فامض على حالك، وحظّك في العلا الذي هو أسود حالك، فإنّك للذّمَ لا تتألّم، وَوجهك من حديد وعرضك من الزّجاج المثلّم:

لـك عـرض مـثـلّـم مـن قَـواريــ ـر ووجـه مـلـمـلـم مـن حـديـد

قولي: «فأنت لدي منوط بامرأة نوح وامرأة لوط» يعني أني لم أذكرك لبغضك كما أن الله سبحانه لم يذكر في الكتاب العزيز المرأتين المذكورتين باسميهما لبغضه لهما. روت عائشة عليها السلام قالت: قلتُ: يا رسول الله امرأة نوح وامرأة لوط لِمَ لَمْ يسمّهما الله عزَّ وجل في القرآن؟ قال: «لبغض الله عز وجل إياهما» فقلت: «يا رسول الله فما اسمهما؟ فقال: «قال جبريل عليه السَّلام كان اسم امرأة نوح واغلة وامرأة لوط واهلة».

وقال الإمام محمود الزَّمخشري رضي الله عنه في «الكشاف»: وأما ما رُوي أن عائشة سألت رسولَ الله ﷺ كيف سمى الله المسلمة يعني مريم ولم يسّم الكافرة، فقال: «بُغضاً لها» قالت: فَما اسمها؟ قال: «اسم امرأة نوح واغِلة واسم امرأة لوط واهلة» فَحديث أثر الصَّنعة عليه ظاهر بَيّن. ولقد سَمَّى الله جماعة من الكفار بأسمائهم وكَنَّاهم، ولو كانت التسمية للحبّ وتركها للبغض لَسَمَّى آسيَة وقد قَرَن بينها وبين مريم في التَّمثيل للمؤمنين، وأبى الله إلاّ أن يجعل للمصنوع أمارة

---

(١) ساقط من (ز).

تَنُمّ عليه، وكلام رسول الله ﷺ أحكم وأسلم من ذلك[1].

السَّيِّدُ روح الدين عيسى بن مُحَمَّد بن عَبْد القَادر[2]

عالم أبان زُبده، وبحر أظهر زَبَده، هو للفضل روح، وممن تندمل به من جَسَده القروح، قادَ من المجد عَصِيًا، وانتبذت به المعالي مكانا قَصِيًا، فما بَلَغ مكانه من رام لحاقه، ولا سرى لقصد منزلته بَدْرٌ إلاّ أدرك محاقَه، رَوضٌ لبس معصفر الأصيل، وماجدٌ يُعَد في السَّرَاة المغرق الأصيل، ذو حَسَبٍ لُبَاب، وقلمٍ كأَنَّهُ حُبَاب[3]، ولفظ منسّق كأنه حَبَاب، وصَدْرٍ لسعة الحفظ يضيق عنده العُبَاب، جَرَت في حلبة الفخر سوابقه، وطالت في مغارس النبّوة بواسقه، ارتضع من المعالي ثُدِيًا، واقتطف زَهْر العلوم نديًا، أعمل في طُرُق المحامِد عِيْسا، وأحيا مرموسها وهل أحد أولى بذلك من عيسى؟ زار مريضها وعاده، وجعل إحياء ميتها سجيَّة وَعَادَه، وهو ممن جثا بين يدي والدي على رُكبه، ونال ببركته من العلوم أقْصَى أربه، حذا في ذلك حذو أبيه، حتى صعد إلى المقام النبيه، فعزّ له النَّظير وفقد الشبيه، وهو إذ ذاك مخضل الشباب، مخضرّ الفتوة من قطر الرَّباب[4]، تلمع مصابيحه في ليل شعره، وتحفّ هالة عذاره بمنير بَدْره، فهو ممن غُذِي بالعلوم طفْلا، ورأى حفظها عليه فرضاً إذا اتخذه الغير نَفْلا، وركب مع الحداثة على نهده، ونطق بالبلاغة صغيراً ولا غرو أن يتكلَّم عيسى في مهده، ما أتت بمثله القرون، فهو قول الحق الذي فيه يمترون، وهو لي بَقِيَّة الخُلطا، وما قلت إفكاً ولا أتيت غلطًا، لأني لم ألف الآن نظيره، ممن أبرز لي روض محاورته نَضِيرَة، فنفثاته تَذْهب بالهمّ، وثمار كلماته جنيت عن شَعَرِه من الرّوض المُدْهَم، وبَيْني وبينه من

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري، ج ٤ ص ١٣٣ ط دار الفكر.

(٢) هو عيسى بن محمد بن عبد القادر بن ناصر بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين بن الإمام المتوكل يحيى شرف الدين، وفاته بعد سنة (١١٤٠). انظر (نشر العرف ٢/ ٣٢٨).

(٣) الحباب: الماء والرمل والفقاقيع تطفو على وجه الماء.

(٤) الرباب: السحاب.

المكاتبات، ما لم تكن صلات المودّة فيها عِند بيت الشِّعْر من المكاتَبات، لم تزل معانيها البديعة تبارى، وتَتَسابق في ميدان الطّروس تسابقاً يزيد به الحسود تَبَارا، وقد أملاني من أشعاره ما أملى، وكَرَّر عليَّ منها ما قلت معه: لا شك أن المكرر أحلى، من كل بيتٍ تنهدم له القُصور، ويظهر بجنبه ما للغير عنده من القصور، فمن أبياته التي يقال لكل فصيح عندها: مَه، ومسحات أدبه التي تبرىء الأبرص والأكمه، قوله في الجناس مع التورية[1]:

جيران جيرون[2] جيروا ... ولا تجوروا علينا
زوروا ولا تسمعوا للـ ... ـوشاة زوْراً ومينَا
لولا نرى ذا وهذا ... في النَّاس عَيباً وشينَا

وقوله في التورية مع الاكتفاء[3]:

إذا اختلفت آرام رامة أسحارا ... إلى وطني قال العذول دع العارا
ودعهم يزورون القفار وأهلها ... وإن سكنوا[4] داراً فلا تدخل الدارا
فقلت له رأيي مخالف ما ترى (م) فلا اتبعه وهي تختلف الآرا

وقوله في التورية مع الاكتفاء أيضاً[5]:

قلت لمن يفعل في ... عرنينه إذا قرا

---

(١) أوردها المؤرخ زبارة في (نشر العرف ٢/ ٣٣٨).

(٢) جيرون: بلد يرد في الشعر، وجيرون المعروفة سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بها، وهي بدمشق، في وسطها كالمحلة باب الجامع الشرقي إليها يسمى باب جيرون. (المراصد ٣٦٩).

(٣) الاكتفاء: هو عبارة أن يأتي الشاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلّقة بمحذوف، ويتقاضى ذكره ليفهم به المعنى فلا يذكره لدلالة ما في لفظ البيت عليه، ويكتفي بما هو معلوم مما يقتضي تمام المعنى كتول بعضهم:

لا أنثني لا أنتهي لا أرعوي ... ما دمت في قيد الحياة ولا إذا

(شرح الكافية ١٠٥).

(٤) نشر العرف: دخلوا.

(٥) (نشر العرف ٢/ ٣٣٨).

مــــــرءهُ وطـــــــــرفُـــــــــه طـــرف عـــقـــابٍ فـــي الـــورى
مِـــــرآة الأنـــــــف لـــــمــــــن لا يــــســـتــــضـــي بـــلا مِـــرَا

وقوله مضمّناً مع التّورية في مليح يُسمّى محبوباً[1]:

أفدي بنفسي من يُدعَى بمحبوبِ فذاك من كل شيء جُلّ مطلوبي
وأستعيذ بباري الخلق كلهم بأن أكون مُحبًّاً غير محبوبِ

وقوله مضمناً مع التَّورية وكتب به إلى من يضع العزائِم وهي عبارة عن الرُّقا[2]:

عَزَمت على فعل العزائم في الورى وقــصــدك وجــه الله والله عــالــمُ
ومـا كـل قـارٍ يـؤت سـرّاً وإنـمـا (على قدر أهل العزم تأتي العزائِمُ)

وقوله يذم شارب الخمر[3]:

الخمر تذهب بالعقول وما بها عِـوَضٌ ومُـبْـعِـدة لـكـل نـعـيـم
تـبّـاً لـشـاربـهـا إذا هـو لـم يـتـب ما خاف أن يُكوى على الخرطوم

قلت: التَّورية في هذا النظم ظاهرة لأن الخُرطوم في اللّغة الأنف أو مقدمهُ أو ما ضممتَ عليه الحنكين كالخُرطم، وهي أيضاً الخمر السَّريعة الإسكار، أو أول ما يجري من العنب قبل أن يُداس، وبذلك عرفت التورية. والمعنى أن الخمر إذا ذهبت بعقل شاربها صار مجنوناً، ولذا قال: تَذْهب بالعقول. والمجنون طال ما كُوِي بالنّار ليبرَأ ألمُه، معناه فَهَلاً خشي مع ذهاب عقله أن يُكوَى، وفيه إشارة غامِضَة إلى قول الله عز وجل: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ وهذا معنى حَسَن مع ما يشبه تجنيس الاشتقاق بين قوله تبّاً وبين قوله لم يتب، وأحسن منه ما جاء لي في كلام منثور مسجوع ففيه مع التورية الاقتباس، وهو قولي:

---

(1) (نشر العرف ٢/ ٣٣٨).

(2) (نشر ٢/ ٣٣٩).

(3) (نشر ٢/ ٣٣٨).

أما شارب المدام، فلومُه المكرر المُدام، لا يذكر في كل وقت، إلاّ بالمذمَة والمقت، فتبًا له من شارب[1] هام بشمطا، وفتىً افتتن بالعَجوز فأخطأ، لا يذوق في الجنّة رحيقها المختوم، وتقول خزنة جهنّم ﴿سنسمه على الخرطوم﴾، انتهى.

وقد جاءت التورية بالخرطوم للشيخ علاء الدين الوداعي الكندي[2] رحمه الله تعالى على غير هذا النمط وذلك حيث قال:

دارت مراشفه عليَّ وكأسه فسكرت في الحالين من خُرْطُوْمه

ومنه أخذ الشيخ جمال الدين بن نباتة[3] رحمه الله تعالى قوله[4]:

رشفت من مبسمه خمرةً فيا لها سكرة خرطومِ

وقوله في التَّوريَة، أعني صاحب الترجمة، وهو ما كتبه إلى من يستدعي منه قصيدة من نظمه:

إلى بنت فكرٍ منك سمعي شَيِّقٌ فما لمرام غيرها في الدنا مرْمَى
فامل لنا كاسات ألفاظها التي إذا ما احتساها سمعُنا تطرد الهما
رَوِّنا إذا أمليتها كلها لنا وإياك تُمْلي بعض ألفاظها نَظْما

وأحسن منه ما كتبه الحافظ الإمام شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني[5] رحمه الله تعالى من نظمه إلى القاضي العلامة بَدْر الدِّين

---

(١) في (ز) شاب.

(٢) هو علي بن المظفر الكندي الوداعي، أديب متفنن شاعر، له «التذكرة الكندية» خمسون جزءاً، وديوان شعر، وفاته سنة (٧١٦ هـ). (فوات الوفيات ٢/ ٨٧) والأعلام ٥/ ٢٢).

(٣) هو جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري، من الشعراء المجيدين، وفاته سنة (٧٦٨).

(٤) ديوانه (٤٥٥) وفيه:

ميم فم يسكرني ذكره فيا لها سكرة خرطوم

(٥) من مشاهير العلماء وفاتة سنة (٨٥٢) انظر في ترجمته (الجواهر والدرر) لتلميذه السخاوي.

الدماميني[1] رضي الله عنه في شَهر رمضان المعظم وهو قوله[2]:

ألـيـس عـجـيـبـاً بـأنـا نـصـوم ... ولا نـشـتـكي مـن أذى الـصـوم غَـمًـا
ونَـشـغَـبُ والله فـي نُـسْـكِـنَـا ... إذا نـحـن لـم نـرو نَـثْـراً ونَـظْـمـا

فأجابه الدَّماميني بقوله[3]:

إلا يـا شـهـابـاً رقـى فـي الـعـلا ... فـأمـطـرنـا نـوؤه الـعَـذب قـطـرا
إلـى فـقـرٍ مـنـك يـا فـقـرنـا ... ونَـسْـتَـغـن إن قـلـت نـظْـمـا ونَـثـرا

أقول: هَذَا نظم لطيف، فإنه فيه نَاسَب ذكر الشهاب الارتقاء في قوله: «رقى في العلا» وكذا قوله: «أمطرنا نوؤه العَذْب قطرا» لأنَّ العرب كانت تقول في النجوم: مطرنا بنوء كذا، ولذا قال ﷺ: «لا تقولوا مطرنا بنوء كذا» وفي القطر تَوْرية لأن قطر المطر معروف، والقطر[4] طعام معروف يتخذ بأرض الشَّام في شهر رمضان الكريم وغيره، ولعل الشيخ شهاب الدين أرسل للقاضي بدر الدين رحمهما الله تعالى بشيء منه، ولذا قال: «أمطرنا نوؤه العذب قطرا»، وفي قوله: إلى فقر منك يا فقرنا» ما يشبه تجنيس الاشتقاق، وفي قوله: «نثراً» تورية لأنه يصلح أن يكون فِعلاً مضارعاً معطوفاً على قوله: «ونسْتَغن» فهو من الثَّراء بالمد الذَّي هو كثرة المال، ويصلح أن يكون اسماً معطوفاً على قوله: «نظماً»، لأنَّ النَّثر نقيض النَّظم وبذلك عرفت التَّورية فلله درّ البذْر، لقد جاء بما شرف في القدر، والأصل

---

(١) هو بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني المخزومي، عالم بالشريعة وفنون الأدب، لازم ابن خلدون وتصدر لإقراء العربية بدمشق، ثم رحل إلى اليمن فدرس بجامع زبيد نحو سنة ثم انتقل إلى الهند وتوفي هناك سنة (٨٢٧ هـ). من مؤلفاته «نزول الغيث» انتقد فيه شرح لامية العجم. انظر: (الضوء اللامع ٧/ ١٨٤ والأعلام ٦/ ٥٧).

(٢) انظرهما في (خزانة الأدب لابن حجة ٣٤٤).

(٣) انظرهما في (خزانة الأدب ٣٤٤).

(٤) القَطر: سكر يُذاب بالماء ثم يُغلى على النار حتى يأخذ قوامه، ويستعمل في بعض الحلويات. (محيط المحيط: ٧٤٣).

في هذا كله ما قاله أبو حفص المطوّعي[١] في الأمير الميكالي[٢] وهو[٣]:

كلام ابن ميكال الأمير بلفظِهِ ... ينوب عن الماء الزّلال لمن يظما
فنروَي مَتى نروي بدائِع نظْمِهِ[٤] ... ونَظْمَا إذا لم نرو يوماً له نَظْمَا

وكتب - أعني صاحب التَّرجمة - إليَّ مُلْغزاً في نجمٍ قوله:

ما مُفْردٌ إن حذفوا ثلثه ... تَعُدُّه في الجمع ذُو الحلْم
وفي المثنَّى عَدّ ما أسقطوا ... منه ذوو اللُّبّ وذو الفَهْم
وفي السَّما والأرض حقّاً يرى ... وقَلْبُه واقٍ من الكَلْم
لسورةٍ اسْماً غداً كُلُّه ... ومثله البعض بلا وهم
واحذف وصحّف لترى موضعاً ... عُظّم فيه معدن العلم
أو سورة وهو مع قلعهم ... للعين بعد الخرم للنَّظم
اسم وفعل ثم حرف أتى ... وهو جلي مثلما النَّجم

فأجبته من النَّظم والنثر بقولي مرتجلاً:

بلغْت بالمجد إلى النَّجم ... وفقته في سعة العلم
وجئت بالنَّظم كشهب السما ... يهدي إلى مقصوده فهْمي
ألغزت في شيء غدا ثلثه ... طول المدى يسبح في اليَمّ
وتارة يَصْحبه كاتبٌ ... للنَّثر في القرطاس والنّظْم
من الجواري كله وهو لا ... يُمْلك فاعجب منه في الحُكْم

---

(١) هو أبو حفص عمر بن علي المطوعي، أديب له شعر رقيق من أهل نيسابور، خدم في شبابه الأمير أبا الفضل الميكالي. له كتاب «درج الغرر» توفي سنة (٤٤٠ هـ) تقريباً. (يتيمة الدهر: ٤/ ٣١١ والأعلام ٥/ ٥٥).

(٢) هو أبو الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي، أمير من الكتاب الشعراء، من أهل خراسان، وفاته سنة (٤٣٦). (يتيمة الدهر: ٤/ ٢٤٧ والأعلام: ٤/ ١٩١).

(٣) البيتان في «درج الغرر ودرج الدرر» للمطوعي المذكور: ٥٨ (ط) عالم الكتب.

(٤) درج الغرر: فنروى إذا نروي بدائع نظمه.

واعذر لتقصيري فلي خاطرٌ   بأسهم الدهر هو المرمي
ودمت ما جرَّ الصَّبا ذيلَه   من ناعم الزّهر على كمِّ

والنَّجم إذا هَوى، ماضَلَّ من لنظمك قَدْ هَوى، ولا أخطأ من رعى نجمه بالنَّظر والضم، واهتدى به في ظُلمات المداد إذا كفَّ السَّاري وأحجم، فإنه طلع في ليل النَّفس شهابُه، وَطَمَا بالدُّرر النَّظِيمة عُبَابُه، فَحَيَّر الفِكْر عند وصفه، وبهر النَّاظر في بديع رَصْفِه، فلا أدري ماذا أقول، وقد دُهشت الأبصار وحارت العقول، أذالك معدودٌ من النّجوم السَّارية، أم من النَّفائس التي تُشتَرى بِقُرْطي[1] ماريَة، أم من الزّهور الجنية، أم من الجواهر التي هي عن المدح غَنِيَّة، فاعذر[2] فِكْراً أجاب على فرق، وحار لمَّا رأى من نظمك ما على فَرَق، ومُجِبَاً أصابه بريقه من الدَّهش الشَّرق، كَلَّف نفسه ما أبته فظهر قصُورُها، وأجبر قدمه على المشي في طريق السّباق فعزَّ مرورها، والسَّلام.

وكتب إلي لُغزاً في لوح فأجبته من النَّثر بقولي:

واللوح المحفوظ، لقد وصل إلي دُرّ ذلك اللُّغز الملفوظ، فإذا لِزَنْده قدْح، وإذا لطائِره الغرد صَدْح، فأحيا من الهمّة ما هو كميّتها، وأدار على الأسماع ما أضمرته الدّنان من كُمَيْتها، وأسال من القرائِح ما جَمَد، ونَبَّه طرفاً[3] به من الحوادث رمد، فنحن في دَهرٍ ضاعت فيه لذوي الفضل الحُرُمات، وزمانٍ عاش فيه العبد والحُرّمات، وهو لُغزٌ في شيء معروف، لا يُعَدّ من صروف الزّمان على أنه من الصّروف[4]، كثيراً ما يأنس به الصِّبْيَان، ليس من ذوي النّطق ومنه يعرف التّبيان، لا يَسلم من الزّمان وضَيْره، مصروف الاسم وثلثاه لامتناع الشَّيء لامتناع

---

(١) يضرب بهما المثل، فيقال: خذه ولو بقرطي مارية، وهي امرأة يمانية، قيل إنها بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو مزيقيا. انظر: (سرح العيون: ٤٣٥).
(٢) ساقط من (ز).
(٣) ساقط من (ز).
(٤) جمع صرفة: في كلام أهل اليمن اللوح من الخشب.

غيره، فلا شك في ذلك ولا ريب، ويشهد له قول معدن الحكمة «نعم العبد صهيب»[1]، ثلاثي الحروف، أوله كعذار الحبيب وثانيه كصدغه المصفوف، يُعْزَى إليه النَّقل، ويساكن الحِجْر ولا ينسب إليه العقل، ومن عجيب حاله الذي حار فيه اللَّبيب بلُبه، أنَ حَوَل غيره في طرفه وحَوَله في قلبِه، والله يعمّ التحيات ذلك السُّوح، ويجري عليه أنهار المنن ما جرى قلمٌ على لوح، والسلام.

وكتب إليَّ أيضاً أبياتاً أثبتها في غير هذا الكتاب، فأجبته بنظم ونثر، أما النظم فمذكور حيث أشرنا إليه، وأما النثر فهو قولي:

هذا وإنها وردت إليَّ أبياتُك أيها النَّجيب، وزَخَر بحر عروضها علي من درر الفصاحة بالعجيب، فهزَّت العطف طرباً، وأوسعت المحب برقتها حَرَبا، وحمدت الله سبحانه، لَمَّا أبدى هزار الأدب على غصن قلمه ألحانه، وتبلجت أقمارُك، وطابت في ليل الشَّباب أسمارُك، وعلمت أن الفضل لا يخلو من أهْله، وأن ذا الهمّة لا يعوقه عن نيل المجد مسافة حَزْنِه وسهله، وأن العُلَى في الشيب والشباب، وأن استخراج الدُّرر لمن خاض العباب، والله يبقيك لترائب الأدب عقداً نفيسًا، ويحيى بوجودك ميت الفضائل ولا غرو فإنه ما عُرِف بإحياء الموتى غير عيسى، وخَصَّك الله بأسنى السلام، ما تاق ذوو الألباب إلى المحاورة بالكلام.

وكتب إليَّ قصيدة من نظمه ومعها منثور مسجوع من نثره، والتزم في القصيدة والنثر حرف اللام، ففيهما من البديع التَّوزيع، والمنثور المذكور هو قوله:

يقبل الأعتاب من الباب ويسلم على أولي الألباب، سلاماً يجلو من العين

---

(١) حديث «نعم العبد صهيب» قال الملا علي القاري: اشتهر في كلام الأصوليين وأصحاب المعاني وأهل العربية، فبعضهم يرويه عن عمر، وبعضهم يرفعه. وقال السخاوي: رأيت بخط شيخنا ـ يعني العسقلاني ـ أنه ظفر به في مشكل الحديث لابن قتيبة. ولم يذكر له ابن قتيبة سنداً. (الأسرار المرفوعة: ٢٥٣) وفي الفوائد المجموعة. قال السيوطي: لم نظفر به في شيء من كتب الحديث. انظر الشوكاني: (الفوائد المجموعة: ٤٠٩).

القذا، ويقول التحلّي بلؤلؤ البديع ولطائفه: ألذّ الغذا، السلام المرفوع على كواهل الملائكة الكرام لأنه أبلغ من سلامهم المنصوب، على القاضي أبي العبّاس ذي الفضائل التي ملأت الفضاء بالمسموع والمكتوب، الفاضل الذي فَضُل عليه، فألفى ألفاظه وفواضِله وفواصله فاضلة لا فاصلة لديه، التي أقلامه في الأقاليم تفعل ما لا يفعل القاصِل[1]، فم تزل المعاني للاماتها وألفاتها تقول: لم أزل الفاصِل، ذلك العلم المفرد الكامل، العالم الكاتب[2] العامل، لا زالت الكُتب لديه وأهل الفضائل يطلبون المكاتبة من فضله للرّق ويرملون إليه، له الفضل بقبول البيوت الدّاخلة في القصور، التي تطلب الجواب الذي يزيل الجوى في الغدوّ والمراح مثلما يطلب الإنسان في اللّيالي المظلمة البُدُوّ للبدور، وعلى الرسول المختار ألف صلاة وسلام وعلى آله، ما طلع هلال وما حلَّى خليلٌ خليْلاً بأقواله، والسَّلام.

قوله: «السلام المرفوع على كواهل الملائكة» إلى آخر الفقرة، هذا معنى حسن وفيه زيادة على قول خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى في بعض قصائده:

واقْـر مـرفـوعـاً سـلامـي لَـهُـمُ   ودع النَّـصـب تـصب مَـعْـنـىً خَـفِـيّـاً

والقَصْد أن السَّلام المرفوع في إعرابه يفيد الثبوت والاستمرار وهو سلام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، فهو أبلغ من السَّلام المنصوب لأنه إنما يكون في الحال فقط وهو سلام الملائكة عليهم السلام، كما حكاه الله عزَّ وجل في كتابه بقوله: ﴿قالوا سلاماً قال سلامٌ﴾ قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾[3] وفي هذه الفقرة الاستخدام بالضَّمير لأنه أراد بقوله المرفوع على كواهل الملائكة الرفع وهو الحَمْلُ، وأراد به في قوله

(١) يقال: سيف قاصل قاطع.

(٢) في (ب) و(ز) الكامل (مكررا).

(٣) الآيتان (٥١ ـ ٥٢) سورة الحجر.

لأنه أبلغ الرفع في الأعراب.

ومنه ما جاء لي في خطاب رجل من أهل البيت عليهم السلام وفيه التَّورية في النَّصب كما هي ظاهرة وهو قولي:

سلام السلام إليك يُهْدى، أنضر من زهرٍ بلته الأندا، سَلاَمَ مرفوع على أجنحة الملائكة الكرام، مرفوع في إعرابه لا كسلامهم المنصوب فمالنا فيه مرام، فإني أبرأُ من النَّصب في حق مثلك لأنه يؤدي إلى الخفض، وأتمسك بودّك تمسكاً لا يؤول والعياذ بالله إلى الرّفض، انتهى.

وكتبت أنا إليه من النَّظم أستدعي منه كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي رضي الله عنه قولي:

أعيسى لقد أحييت بالعلم مَيِّتاً فكُلٌّ وقد جاراك يمشي على استحيا
وها أنا مرموس بلحد غمارَتي فَمُنَّ على مَيْت الجهالة بالاحيَا

وكتبت إليه أيضاً لأمرٍ اقتضاه قولي:

رفع الضياء وحلّ فينا منزِلاً بُرهانُه لذوي العداوة ما دُفع
والله ما أنا في المقال بكاذبٍ من كون عيسى في البرية قد رفع

وكتبت إليه وأنا أرْمد أستدعي منه «ريحانة» الشّهاب الخفاجي رحمه الله تعالى قولي:

يا ضياء الهدى أجمعوا لي في رو ض ودادٍ ما بيننا ذي فُنُون
بين ريحانة ومنثور سجعٍ وشقيق غض الجنى من عيوني

أخوه شَرف الدّيْن الحُسَيْن بنُ محمَّد بن عَبْدِ القَادِر(١)

فرع سيادة، ودرّة قِلادة، حائز الشرفين، كريم الطرفين، طالما زاد محاسن غَيْره تَشويْها، وأضرم من ذكائه لأكباد الحُسَّاد ناراً تشويهاً، نشأ بصعدة، وأنجز له

(١) ترجمته في (نشر العرف ٦٢٦/١) نقلاً عن كتابنا هذا، ولم يؤرخ لوفاته.

الزَّمان بها وَغده، وتَقَلَّب بحجر جَدِّه، ونال بقربه منه غاية حدّه، فما نشأ إلاّ كما يشا، إذ نقع منا بسجيّته مضطرم الحشا، فللّه دَرّه من سري، ومن متوقّف عند الشُّبه غير جري، ومن حَرِيّ في دينه فهو بالمدح حَرِي، نجيب ما قارف ذَنباً، وصيَّنٌ عظمت في وَصْفِهِ الأنبا، ما اختط عذارُه، إلاّ وقد اخْتُطت في مَنازِل النّجوم دارُه، حاز غاية اللَّبابة، وذاق من العِرفان لُبابَه، سَما في علم التاريخ والأعصار، فريحه فيه طيبة لم يستول عليها الإعصار، وخمرة ألفاظه لم تفتقر إلى مَزَّار[1] وعَصَّار، فهو فيه قد أزرى بِزَيْده وعَمْرِه، وأضاف به مع الحداثة أعماراً إلى عُمْره، مع حسن تعبير، كأنه في الأنوف العبير، وفي الأسماع دُر يتَقَلقل في الصَّدف، وفي الأبصار زَهْرٌ تَتبلج في الغَدَف[2]، وفي طبعه حِدّة، لا يخالط الهزل جِدّه، ولا تُخلق الأيام حُلَلَه فهي ذات جِدَّة، وَلمَّا خرج من بلاد الشَّام[3]، وخال من بِدِيارنا بارق فضْلِه وشام[4]، واستطلع شبابه الأسود الذي هو في ثَغر كوكبان وِسَام، وفَد إلى شبام كوكبان، وَوضح بدرُه بمنازِل والدِه فيه واستبان، ورجع الفرع إلى أصله، وانضم الغِمْد إلى نَصْله، ابتهج به سَفْحُه، وبرد من الهجير لفحُه، وخَمد أوارُه، واستتر بأشجار فَضْله من نَهْره عَوارُه، وله نظمٌ لم يزِل للصّدور شارحًا، منه ما كتبه إلى أخيه روح الدّين عيسى مطارحًا، وهو قوله:

ما عَرَّسَ النَّاس في البيداء أو باتوا — إلاّ تذكرت هل للوصل أوبات
وهل لأيامنا الغُرّ التي سلفت — بقرب ريَّانة الأعطاف عَطْفاتُ
أيام كُنّا بسلعِ والغُوير ولي — من ثغرها الأشنب المعسول رَشْفات
أيام شرخ شبابي مُقْبلٌ وبه — يحلو لي الدَّهر إن مرت سويعات
ونحن في ظل عيشٍ وارفٍ ولنا — فيُ الصَّبابة إرواء ورايات

(١) المزَّار: هو الذي يصنع المزر، وهو نبيذ الشعير والذرة.

(٢) الغدف: الظلمة.

(٣) يعني جهات صعدة والبلاد الشمالية.

(٤) شام البرق: نظر إليه أين يقصد.

نـخـتـال بـيـن جـنـان والـنّـهـور بـهـا والـطَّـيـر يـشـدو ولـلأغـصـان مَـيْـلاتُ
ولـلـنَّـسِـيـم خـلال الـدَّوح هَـيْـنَـمـة عُـجْـمِـيـة طـويـت فـيـهـا إشـاراتُ
والسُّحب تبكي وثغر البرق مبتسم والـرَّعـد تـبـدو لـه فـيـهـن ضَـحْـكـاتُ
وأنت شمسٌ تغار الشمس منك وهل لـلـشـمـس خـد وأجـفـان كـحـيـلاتُ
مكـسـورة لا يَـشـن[1] الـطرف كـاسـره كَـلِـيْـلَـة قـد مـضـت مـنـهـا الـحسامـاتُ
وخـدٌ مـالـكـتـي وردٌ إذا عَـرَقَـت مَـآلـه مـثـل شـمّ الـطّـيـب نـفـحـاتُ
وفـرعـهـا مـثـل جـنـح الـلَّـيـل مـنـسـدل والـفـرق حـاكـتـه لـلـصـبـح ابـتـسـامـاتُ
وثـغـرهـا الـدُّر لـكـن فـي الـعـذيـب وقـد صِـيْـغَـتْ عـلـيـه مـن الـيـاقـوت ضَـبّـات
والـقـدّ يَـهْـزأ بـالـغـصـن الـنَّـضـيـر وإن ما ماس بانـت لـغـصـن الـبـان خَـجْـلاتُ
يـكـاد يـقـعـدهـا ردف إذا نـهـضـت وفـي الـقـعـود لـهـا بـالـخـصـر نَـهْـضـات
كـأنـمـا لـونـهـا الـدرّ الـنـقـي وقـد شـابـتـه جـمـر يـواقـيـت بَـهْـيـجـاتُ
لـمـيـا عـراقـيـة الأطـراف كـاعـبـةٌ تـجـمّـع الـحـسـن فـيـهـا وهـو أشـتـاتُ
ومـن يـرم وصـلـهـا جَـهْـلاً بـرتـبـتـهـا حـالـت دُوَيـن أمـانـيـه الـمـنـيـاتُ
فـلـيـس لـلـروح روْحٌ بـعـد فـرقـتـهـا إلاّ بـِـهِ مـن زكـت مـنـه الأرومـاتُ
عيسى المعيد حياة العلم فيه وقد كـادت تـفـيـض وتـمـحـوه الـجـهـالاتُ
صدر المجالس بل فخر المدارس إن مـا أوردت مـشـكـلات أو سـؤالاتُ
فـهـو الـمـشـار إلـيـه بـالـبـنـان إذا ما أعوزت من ذوي[2] العلم الجوابات
ففي الأصولين ما عبد السلام[3] وفي عـلـم الـفـروع لـه فـيـه اخـتـيـاراتُ
بـحـر الـفـصـاحـة ما قـيـس[4] يُـقـاس بـه إلاّ وبـانـت لـه فـي الـفـضـل آيـاتُ
فـالـنّـظـم والـنـثـر مـنـه قـد غَـدا دُرَراً جـلـت مـبـاديـه فـيـهـا والـخـتـامـات

(١) في (ش) لا يشر وفي (ز) لاشثره.
(٢) ساقط من (ز).
(٣) يعني به القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام (سبق).
(٤) القياس في الاجتهاد تفضيل الشيء على غيره وقيس بن زهير مشهور بجودة الرأي.

قوله: «وللنّسيم خلال الدَّوح هينمة» الهَينمة بالهاء والياء المثنية التحتية بعدها نون وميم، هي الصوت الخفي وقيل هي الحديث على هدوّ وسكون. وقيل هي الكلام الذي لا يفهم، وهذا التّفسير لها هو المناسب للبيت مع قوله: «عُجْمية طويت فيها إشارات» وهذا تخيل حسن، فإن صوت النّسيم خلال الأشجار هينمة لا تكاد تفهم.

وقد جئتُ أنا بهذا المعْنَى في كلام لي منثور لما قلت:

أكرم بروضَةٍ تحت فروعها قِلْنا، وشابهنا أغصانها لَمّا إلى ظلالها ملْنَا، وقد نام الحَزَن وتَيَقَّظ السُّرور، ومرت رياح الجنوب بالرسائل بين الحمائم فأحسنت المرور، وأشرقت شمس الأفراح، ودارت من القطر على الغصون الرَّاح، فمال نشوانُها ومار، وترنّحت أعْطافُها من الخُمَار، وحدثت الصبا عن الرّياض بلسان الشَّميم، ونادت الطُّيور على منار الشجر: ألا هذه أوقات النعيم، والنّشر على الحدائق قد نَمّ، والنَّسيم خِلالَ العَذبِ قد هَيْنَم، بكلام فيه غَمْغَمة، ولفظ فيه همهمة، لا تَسْتبين حروفه من مخارجها، ولكنها تسكر من الكروم في مدارِجها، لأن له في أعضاء الغصون دَبيباً، يُطرب لطيفاً ويهزُّ من النشوة لبيباً، يفتقر ذلك الكلام إلى ترجمة، ولكن الطّيور تُتَرْجِمُ عنه من فوق الفروع بما يوضّح معجَمه، فما أوضحه عند مغرم أصاخ له سمعه، وأجرى لشحوه منه دمعة في إثر دمعة، والسَّلام.

قوله: «صيغَت عليه من الياقوت ضَبَّاتُ»، هي بالضَّاد المعجمة جمع ضبّة، وهي في اللّغة حديدة عريضة يضبب بها. ولما أنشدني صاحب الترجمة أطال الله عمره هذه القصيدة قال لي: الضّبة من الياقوت حول الدُّر تخيّل حسن وقد ألَّم هذا المَعْنى بقول القاضي العلامة جمال الدين محمد بن إبراهيم السحولي(١) رحمه الله في بعض قصائده:

ومن أدار يواقيت الشفاه على ... درّ الثنايا وزان الدر بالفلج

---

(١) سيأتي.

ولكنَّه جاء بغير لفظ الضَّبة، فقلت: نعم هذا تخيّل جيّد، معناه لسائر المعاني سيّد، ولكنه لم يوضح في بيته أن الضَّبَّة من أحمر الياقوت إذ هو ألوان مختلفة، ولذا إني نظمت هذا المَعْنى مع زيادة الجناس التَّام والتَّورية في النَّص فقلت:

وريم فاق ظبي البَرّ جيداً ... بِنَصٍّ في القياس وفات ضَبَّه
تَبَسَم عن يتيم الدُرّ صيغت ... عليه باحمر الياقوت ضَبَّه

واجتمعت أنا وصاحب التَّرجمة ببعض دور حصن كوكبَان السَّامي، وبها من سواجع الحمام كل مشجٍ بنغمته، فقال لي: إن الحمام في زمن بعض الخلفاء من بني العباس قد تناهت قيمتها حتى بلغت قيمة الحمامة الواحدة إلى خمسمائة دينار، فقلت: نعم، قد ذكر المؤرِّخُون أنها جرت عادة الكبراء والعظماء باتخاذ الحمام في منازلهم سيّما في أيام الخلفاء، وأكثر ذلك في أيام النَّاصر أحمد بن المستضيء[١] فإنه اهتمّ بأمرها، واعتنى بشأنها، وما زالت الخلفاء والملوك يطّيرون الحمام ويسابقون به. ولم يختص بذلك بنو العباس فقط بل قد فشا أمر تعظيم شأنها في غيرهم. قال الجاحظ[٢]: قد تباع الحمامَة بخمسمائة دينار، ولم يبلغ ذلك شيء من الطَّير. ومن دخل بغداد والبصرة عرف ذلك. وتباع البيضة بخمسة دنانير والفرخ بعشرين ديناراً، والله أعلم، انتهى.

وقد أشرت أنا إلى هذا في نثر مسجوع لي فقلت: أما تنظر إلى عَصْر من مرَّ من الخلَفَاء، والملوك الذين هم حنفاء لله وللأفضال حلَفاء، كيف عظم عندهم الحمام الساجع، لما بار مغرد الفصاحة في هذا الزمن الفاجع، فذاك هو حظّي فيه الساجع اللأحن على الغصون، وهذا دهرٌ بار فيه الساجع المعرب[٣] على الأقلام لوزن لفظه المصون، أضحى ذاك اللاحن مطوّقا، وظل سهم الرزايا إلى هذا

---

(١) هو الناصر أحمد بن المستضيء بأمر الله، الحسن بن المستنجد، خليفة عباسي، بويع بالخلافة بعد موت والده، وكان يُوصف بالدهاء، طالت أيامه. وتوفي سنة (٦٢٢ هـ). انظر: (تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٥١٣).

(٢) الحيوان ٣: ٢١٢ ط مصر.

(٣) في (ش) المفرق.

المعرب مفوّقا، نفقت بذاك بَيْضَة الحمام، وكسدت بهذا بيضة البلد من الأنام، وحظي بذاك الفرخ من الطير، وحُظي في هذا الفرخ من أولاد الزّناء لا غير، فويح الأفاضل من هذا الزَّمن المَزؤُود، الذي لا يقي من سهامه المسمومة الدرع المزرود، والسلام.

واجتمعت أنا وصاحب الترجمة أيضاً في بعض المواقف فقال لي: إني رأيت عجيباً من جلال الدّين السّيوطي رحمه الله تعالى وهو أنه ذكر في كتابه «شرح شواهد مغني اللبيب» أن المعرف باللاَّم من الأسماء يكون غير النكرة، فالرّجل مثلاً غير رجل، وفائدته أنه إذا جاء المعرف في قافية بيت من الشّعر مثلاً وجاءت النكرة في البيت الذي يليه فإنه لا يكون إيطاء وهذا من أغرب ما سُمع، فقلت له: نعم هذا يعدّ عندي في غاية النكارة، ثم قلت قد سبق الجلال السيوطي في النص على هذا نجم الدِّين الرضي رضي الله عنه فإنه صرح في «شرح الكافية» في بَحث لام التعريف، بهذا وسمَّى هذه اللاَّم لام الامتزاج حتى قال في سياق ذكر اللاَّم وما تأتي له ما لفظه: وللامتزاج بين اللاَّم وما دخلته، فكان الرَّجل مغايراً لرجل حتى جاز تواليهما في قافيتين، ولم يكن إيطاء هذا لفظه ونَصُّه عليه.

أخوهُمَا جَمَال الدِّيْن عَلي بن محمد(١)

معدود من النجبا، يسوق من عزمه لجبا، ذو الهمَّة، التي [بلغ](٢) بها من شامخ المجد القمة، ربّاه والده أحسن تَربِية، فلما دعا المعالي لَبّته أسرع تلبية، حفظ صارمه في غمد العفاف، وبَلَّ ذيل نسماته بماء الصَّوْن فَما له جَفَاف، فهو الفتى إذا قيل: من الفَتَى، وهو باكورة الخريف وفاكهة الشتا، كنتُ اجتمع به بمقام والده، الذي هو ربيع فضلٍ يحيى بجعفره المتدفق نضير خالده(٣)، فأخَال الإنصاف

---

(١) ترجمته في (نشر العرف ٢/ ٢٧٢) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) ساقط من (ب) و(ش).

(٣) هنا تورية بالربيع الفصل المعروف، والربيع بن يونس الوزير المتوفي سنة (١٦٩ هـ)، والفضل هو ابن الربيع السابق. وجعفر في اللغة النهر الصغير، وجعفر هو جعفر بن يحيى

وهو له نصيف، وانظرْ مخايل السيادة عليْه هي روضة لا تخلق نضارتها في شتاءٍ ولا مَصِيف، وقد تحلَّى بوقاره وأدار من أدبه كأس عُقاره، وقد أتحفني بشيء من شعره، مما هو أعظم سبب في هذا المصنف لذكرِه، اختِرت له من قصيدة قوله:

يا مخجل البدر هل للهجر غاياتُ وهل لوصلك في العشاق ميقات
كم من عذولٍ غدا في الحب يعذلني ولم يكن لي إلى ما قال إنصاتُ
اللَّيل طرَّته والصبح غرَّتُه وعقرب الصّدغ ما مِنْها وِقاياتُ
تحمى الثَّنايا التي كالدرُّ قد نظمت بالنبَّل منه العيون البابليات
بَدْر غدا تحت ليل الشّعر مستتراً له النجوم عقود لؤلؤيات

وله لما جاء القاضي البدري في ليلة الرابع عشر من الشهر:

أتانا القاضي البدري بليلة رابع العشر
فقلت لصحبنا لا شكّ هذي ليلة البدر[ي]

السّيد الحسنُ بنُ علي الأخفَش(١)

له في السيادة نصيب، وسهمان في الفضل هذا موفور وهذا يُصِيب، فهو في شفة الدهر لعس، وفي روض الزمن نسيم طاب منها النَّفس، كان عاملاً على بعض البلاد، فهو عامل يطعن حساده في السّلم لا في الجلاد، وهو مع ذلك يحضر مجالس الدَّرس، ويجنى من العلوم باكورة الغرس، يفوح منه أطايِب الشَّيم، كما فاحت الأزهار غِبَّ الدّيم، في طبع هو للصَّبا شقيق، ولطف لجنبات الرياض المونقة شقيق، فأوقات دهره به زاهية، إذ عيون النقص والعيب عنها بوجوده سَاهية، شمخت أطواده واخضرت من النعمة أعواده. كما اخضر من الفروع

البرمكي وزير الرشيد المتوفي سنة (١٨٧ هـ). وخالد بن برمك أول من ولي في دولة بني العباس توفي سنة ١٦٣هـ انظر الأعلام ٢ : ٢٩٥.

(١) ممن انفرد به المؤلف فلم نجد له ترجمة أخرى، وولده من مشاهير العلماء، سيأتي. وفي (نشر العرف ١/ ٥٤٦) ذكره استطراداً عند ذكر ولده.

باسقها، إذ نظم عليه من لآلىء الندى متناسقها، سكن من حصن كوكبان بُرْجَاً، وركب من جواد جَبَله المنيف للهلال سرجا، وارتقى بسلمه إلى الأفلاك، فنظم درر دراريها في الأسلاك، وورد من المجرّة نهراً، وقطف من بنفسج السما زَهْراً، بين نرجس نجوم ذابل، لا تفتقر إلى رذاذٍ ووابل، وله شعر فاخر به الشُعرا، ونظم أرخص بمداده غوالي المسك سِعْرا، فمن لمعات زُهره، ونفحات زَهْره، قوله من أبيات، ما أتى نظيرها ولم يأت[1]:

فوا عجباه من غنجٍ ... لعهد محبّه غدرا
ويا حُرَقاه من دعجٍ ... بِسحر لحاظه سَحَرا
وكم لاقيت من خَطَر ... وقد عاينته خَطَرا
وكم وجدٍ أكابده ... أثار بمهجتي شَرَرَا
أقول له وقد عاينت (م) ... بدر جماله سَفَرا
سلبت القلب أحرقت الـ ... فؤاد اذقتني الصَّبِرا
ويا غصن الأراك أَما ... كفى ما في هواك جَرَى
فلي قلبٌ يذوب جوىً ... وطرف حالف السَّهرا
ولا انفكّ من ولهٍ ... أدير بقلبي الفِكرَا
وصلَّى الله ما لمعت ... بروق في الدُّجَى سَحَرا
وما غنت مطوقةٌ ... وأبكى شجوها المَطَرا
على مَن طاب عنصرهُ ... ومن أسري به فسَرَى

وقوله رباعية:

أفدي قمراً بحسنه الهاني ... لو مَنَّ[2] علي بالوصال ألهاني
يا من بلحاظ طرفه أعياني ... قد سَال دمي عليك من أعياني

---

(١) أوردها في (نشر العرف ١/٥٤٦).

(٢) في (ب) و(ش) مرّ.

وقوله:

مـن حـرّ صَبَـابـتـي ومـن تـبـريـحـي صـيَّـرت كـنـايَـتـي بـكـم تـصـريـحي
يـا مـن تـلـفـت عـلـى هـواكـم روحـي فــي ذاك كــفــايــة عــن الــتَّـلــويــح

وَلَدُه السَّيد العَلاَّمة الحُسَين بن الحَسَن الأخفش[1]

مجتهد أيامه، لم يُقَلَّد إلاَّ جيد الدَّهر بدُرر كلامِه، عين الأعيان في الزَّمن، وسَعْد العصر ويمن اليمن، أمّا في النَّحو فهو الأخفش[2] على الحقيقة، والمترع منه بكأس عبارته خَنْدريسه ورحيقه، وأمّا في الأصول فهو طَيّب الفروع، وأمَّا في التَّفْسير فهو ثبت الجنان لا يهوله المشكل ولا يروع، وعلى الجملة فهو جامع الفنون، الذي إذا رامَ العلماء مجاراته قيل لهم ما هذا إلاّ جنون، فقد أعجز مُجَاريه، وَوَرد معين الإفادة في مجاريه، كَسَته همته بُرْد المعالي فَمَا عَسىَ، ولا بدع فقد صَحَّت في الحسين أخبار الكسا، شَدَّت المجد من عزمَه أمراس، وألهى فضله عن الغير فلا يُدْرى أهو ذنب أم راس، لا يفتر عن الطلب لحظة، ولا يبرح يَرْعى في حدائِقه لحظة، مع زُهدٍ وقُنُوع، فهو على النَّعيم غير هلوع، لا يبالي كيف أمْسىَ فلا تَسمْع في ناديه من الجَزَع على الدنيا إلاّ همسا، طاهر الحشا عن الشبهات، لا كسائر الأكابر الذين لا تَسمع منهم فيها غير هات، فهو مذ جَعَل القناعة هَمَّا، وتلفَّع بُرْدَ الزَّهادة لَمَّا يأكل التراث أكلاً لَمَّا، وقد جَرَت بينه وبين والدنا مراجعات في مسائل، ودارت بينهما أوراق اكتست من عرفها زهر الخمائل،

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن علي بن محمد بن الأخفش بن الحسن، الملقب بالشامي بن محمد بن صلاح بن الحسن بن جبريل. قال زبّارة: والحسن بن محمد هو الجد الجامع لبني الأخفش وبني الشامي، وأن جدهم لقب بالأخفش لتبحُّره في علوم العربية كالأخفش النحوي المشهور قلت: وقفت على رسالة في نسب آل الأخفش وآل الشامي لصاحب الترجمة. وانظر في ترجمة المذكور (نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١/ ٥٤٤).

(٢) هم ثلاثة أكبر وأوسط وأصغر. انظرهم في كتب التراجم.

تحتوي من العلوم على طرائق، ومن الفوائِد على كل عذبٍ رائق، وهو في الجدال أجدل، وذكره فيه طيّب ولا كطيب المَنْدل، وكنت أراه في همة ما لحاسده منها إلاَّ الهمَّ، وتَشْمير في الدَّرس دون مضاء سيفه اللَّهذم، وكذْ يُمْدح عليه إذا كان حظ العاجز الذمّ، وقد ولي الخِطابة، في أوقات مرَّت كمرّ السحابة، فهي لضيقها أقصر من إبهام القطا[1] ولقلة ساعاتها كهِبة شحيح كُلّف على العطا، ما هي إلاَّ أقصر من جلسة الخطيب[2]، وأسرع من مرور النَّسيم في روض يطيب، ولما حَسَدنا عليه الدهر اللئيم، بادر بنقله عنَّا إلى جَنَّاتِ النَّعيم، فمات وهو طريُّ الشُّباب، متلفع منه بأفخر ملبسٍ وجلباب، وانطفأ مصباحَه، وأسِن[3] من الحياة قراحه، وقد سمعت والدنا يقول بعد مماته: لو عاش هذا الشِّبل ومُدّ في حياته، لأبرز من العلوم ما لم يبرز، لأحرز منها في صناديق الدَّفاتِر مَا لم يحرز، إلاَّ أن المنية حالت بينه وبين الأُمنية، سَقَى الله جدثه صَيّبًا، وحَيَّاه بنسيم الرحمة طيًّا، ما تَغنَّت ذَوات الأطواق، وصَفَّقت لرقص الغصون أكف الأوراق، وقد مسحت الغزالة بذيل الحَرارة ما رَشح به جبين الرَّوض من عرق القطر الذي والى انحداره، وله شِعر مسك مداده دَاري[4] وكافور قرطاسه يفوح بما يطيب لكلّ لبيبٍ داري، كقوله وقد رحل عن وَطَنِه، فازدادت أسباب اكتئابه وحزنه[5]:

يا رفاقي إن غبت عنكم فقد طا ... ر بروحي إليكم الإشتياقُ
لست أرضى بالبعد عنكم ولكن ... قدرُ الله دفعه لا يطاقُ

---

(١) من الأمثال قال جرير:

ويوم كإبهام القطاة مزين ... إليّ صباه غالب لي باطله

(المستقصى ١/ ٢٨٣).

(٢) أي جلسة الخطيب بين خطبتي الجمعة.

(٣) في (س) أحسن.

(٤) نسبة إلى دارين فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند فينسب إليها.

(٥) أوردها في (نشر العرف ١/ ٥٤٥).

أضرم البين في فؤادي ناراً تتلظّى ومدمعي مهراقْ
غير أني فوضت أمري إلى الله (م) فأرجو أن ينقضي الإفتراقُ
أو يطيبُ اللُقا ونَفتح أبواباً (م) من العلم نابها الأغلاق
خانها الدّهر مَسّها الهجر لمّا رفع الجهل راسه والنّفاقُ
يَسّر الله فتحها واجتماعي بكرام طابوا وفاءً وفاقوا

وسيأتي من نظمه، ما يُبادر إلى الدر النَّسيق بخطِّه وهَضْمِه، وذلك في ترجمة شيخنا السيد الحسين بن الحسن العَوامي، الذي زَهَت[1] بعرفانه وتَنْقيحه أيَّامي، ما يدلك على رسوخ قدمه في الفصاحة العربيّة، وعراقته في الرُّتب الأدبية الأبية، وكذا في ترجمة العلامة العماد، الفقيه يحيى بن محمد الحارثي، سقَى الله ملحده ملثَ العهاد.

أخُوهُ السَّيّد مُحَمَّد بن الحَسَن الأخفَش[2]

له فَضْل كبت حُسّاده وسَاء عِداه، لما مُدَّت لاقتطاف زهرات الأدب بنانَه وساعِدَاه، مال إلى الفضل مَيلان الغصن الرَّطيب، واستنشق من مسكِ المداد وكافور الأوراق ما يطيب، ولازم الأفاضِل فَعُدّ فاضِلاً، وما برح بهم مباهياً لأقرانه مناضلاً، والذي ألبسه تاج العرفان المكلَّل المفصل، صاحبنا السَّيّد عبد الله بن أحمد بن يحيى بن المفضل، فإنه هَذَّب طبعَه، وغَرَس في جَنبات اللبانَة نَبْعَه، وحفر عن ماء قريحته العذب فأغزر نبعه، فأصبح نَهْرُه متشعِّبًا، وما زال بفنون الآداب متلعِّبا، وكان بشعر أبي العلاء المعري ذا لهج، فطالما اجتلى من بنات فكره عرائس تبدو عن بهاءٍ وبهج، رأيته صحيحاً ثم رأيته عليلاً، وقد ألبس اليرقان روض شبابه أصيلاً، وصبغ لحيتَه ذَهَباً، وعاد عمره بيد المنية منتهباً، فمات وليل شبيبته عَتِيم، وكان دُرّ أدبِهِ بوجوده ذا أبٌ فإذا هو بعده يتيم، لا زال في بقاع

---

(١) في (ش) هزت.

(٢) ترجمته في (نشر العرف: ١/ ٥٤٥)

الجنان نازِلاً، ولا برح في عرصاتها للحور الحسان مغازِلاً، وشعره من القليل أقلّ، فلم أسمع منه ما عنه النّاقل نقل، غير قوله في مليح بالقانصي يلقب، طالما انتظر وصاله وترقّب[(١)]:

ريمٌ أخاطبُه بودٍّ خالصِ ... أنت الذي أبديت فيك خصائصي
حلّيت مذ أحكمت عقد جوانحي ... في القلب لا تعدو شراك القانصي

وأحسن منه ما جاء لي في غلام مال إلى رجل يلقب بالقانصي أيضاً[(٢)]:

محبوب قلبي آنسٌ للوفا ... ما ظله في الوصل بالقالصِ
فهو غزالٌ لا يُرى نافراً ... أعيذه من شرك القانصي

السَّيِّد أحْمَد بن يحيى بن الحسن بن محمد الأخفش

أقسم بما قسم له من العُلا، ما ألفيتُ له نظيراً في الملا، هو روحٌ والكون جُسم، وهو المُسَمَّى في المجد اسْم، عارف كل عالم لديه جاهل، ومستوطن لسوح الفضل فهو به آ هل، ما طلب العلوم طالبٌ كطلبه، ولا انقلب مغتنم لها بأسعد من منقلبه، قرأ بصنعاء قراءة فحص وكدّ، وتَحَدّر بها ماء نهره فما رَكَد، ثم لما عاد، وطرد بالقرب البعاد، أخذ على والدي في رَيْعَان عمره ومقتبله، وسقَى رياضه مما تحدَّر من سيل[(٣)] جبله، ففتح له من علومِه الخزائن، وزَانه بحلي الإفادة منه زاين، فكم لزمه ولبدره رقب، فإذا هو ألزم للمرء من نَبْز اللَّقب، طَالَما انحدر من كوكبان إلى شبام انحدار المطر، وجثا بين يديه ليقضي من إفادته الوطر، ثم يَصْعد في إثر انحداره، ويعود عود الغائب إلى داره، ويقطع في كل يوم عقبته الكؤود، فلا يُضْجره اقتحامها ولا يَؤُود، لهمَّةٍ قد تَعَلَّقت بالكواكب، وزاحمت زُحل بالمناكب، وغرامِ بأبكار العلوم لا يعرض له الملل، وانهماك في تحصيل

---

(١) انظرها في (نشر العرف: ١/٥٤٦).

(٢) في (نشر العرف: ١/٥٤٦).

(٣) في (ز) سبيل.

الفوائد كل عظيم من المتاعب عنده جلل، وكنت أحضر بمقام قِراءتِه على أبي، فلا تحتجب عني عقائل فوائِده لأني غير أجنبي[1]، فأجتلي منها بُدوراً، واخترق من أوراقها خدوراً، وأرفع عنها سجوفاً وستوراً، وكان كثيراً ما يقول لي بلا حصر: عليك باغتنام وجود والدك في هذا العصر، فخذ عنه ما عنده، واقدح بالمساءلة زنده، واقرأ عليه ولا تمل، واجعل ملازمة الدَّرس عليه من خير العمل، فقد عزَّ في هذا الزَّمان له النَّظير، ولذا أنا به لمن رام مشابهته يغيظ ويضير، وكان إذا تلا المثاني، أغنى سامعه عن نغمات المثاني، يكل عند درسه حدّ أبي موسى[2]، ويجرح فؤاده بنصال تفضيله عليه فلا يوسى، وقَدْ سمع منه ما لا يسمعه من أوتار العود، لما أخذ عليه مزماره الذي أعطي من مزامير آل داود، تكاد تؤوب معه الطير والجبال، ويهتزّ من القدود الأغصان وتتحرك من كثبان الأرداف العَبَال[3]، ويزُف للعرس على سوطه عِرْسَه ولذا قال فيه المولى الحسين بن عبد القادر وقد سمع دَرْسه:

صَـيِّـتٌ إن تـلا مـزامـيـر داود (م) عـلـيـه وقـفٌ بـلا إشـكـال
قـدّمـتـهُ مـشـايـخ حـيـن يـتـلـو   فـاعـجـبوا مـن مُـقـدّمٍ وهـو تـالـي

ولم يزل يجني من أفنان والدي ثمرات الفنون، حتى عرض له وسواس وضَرْب من الجنون، وأوهام بينه وبين الصَّواب متوسِّطات، وإذا وهميَّاته ومخيَّلاته في منطقهِ مختلطات، بدت من خيالاته لمع، فقام على منبر كوكبان يخطب في بعض الجمع، ودعا النَّاس إلى نَفْسه وظهر منه في يومه خلافُ ما ظهر في أمسه، فَحُبِس يسيراً، واعتقل أياماً لا يُعدّ بها أسيراً، فلم تكُ مدةُ حبسه مديدة، وإذا حروف صرفه عن مرامِه بين الرخوة والشديدة، ثم رُمي بِرسنه على غاربِه، وأدير

---

(١) في (ز) اجنى.. وفيه إشارة إلى مسألة فقهية وهي أن الأجنبي لا يظهر على النساء غير المحارم.

(٢) إشارة إلى أبي موسى الأشعري وقد عرف في زمن النبي ﷺ بحسن الصوت في قراءة القرآن.

(٣) يقال عبلة الأرداف والساقين: أي الضخمة البيضاء.

كأس تخليته على شاربه، ولمّا أطلق بريء من ألمه، وعاد إلى أنسِه بقرطاسِه وقلمه، واشتغل بقراءتِه وَدَرْسِه، كما اشتغل الحلي بوسواسِه وجَرْسه، حتى زاد مع عرفانه عرفاناً، وساكن فوائد قد باين نومه لتحصيلها أجفاناً، ولمّا رأى الدُّنيا أغرّ من السَّراب، وعلم أنها تمزج بالعلقم حلو الشراب، لتّ نفسَه عنها لتّاً[1]، ورفَض زبُرجها[2] رفض التّمتام في منطقه لَلتّا، وقال قول صادق لا يمين: ليس لمخضوب البنان يمين، فكان يعظ والده، من الاغترار بشهوات لَيْست بخالِده، ويوبّخه بالموجع من كِلاَم الكلام، ويلومه على الأخذ من بيت مال الله أعظم الملام، ولما رأى نصحه له لم ينجع، ووجده من سهام تفنيده غير موجع، اعتزل عن طعامه وشرابه، وأخذ بتورعه الفوز وَشَرى به، ونزع سيفه المصقول من قرابه، واكتفى بالقليل من الحلال، ولزم من العفة أحسن الخلال، وأضحى بالقناعة في مُلك قارون، وشابه في زهادته أحمد بن هارون[3]، وكان يحجّ عن الأموات بأجْرته، ويعَاهد من البيت الحرام بقاع حجره وحجرته، ويرمم بالأجْرة من معاشه ما اختل، ويَتمسّك بذيل نسيم الاستراحة وهو بدمع بكائه مُبْتلّ، فاستراح من الهمّ، وقَنع بعيشٍ أخشن من الشَّيْهم[4]، ورضي منه بكفافِه، وحبس نَفسه في سجن عفَافه، حتى خلص في الدّنيا ومحِنها، وسلم من غوائِلها وإحنها، ومضى إلى دار السَّلام بسلام، ومات ولمته أغدف من الظَّلام، لا زال في قبره، موصولاً من ربه بحبره، يحمل النَّسيم من تُراب جَدثه أطيب ريح، وتخبر بلسان نشرها عن رَوْض حَلَّه وهو الضريح، وله في الأدب صراط سوي، وفي بحور القريض بحرٌ عذب يظمأ الأديب منه إلى الرَّوي، إلاّ أن شعره قد أفرط في

---

(١) لت الشيء: لزه وقرن به.

(٢) الزبرج: الزينة من وشي وجوهر ونحوه.

(٣) هو المعروف بالسبتي، كان شاعراً وهو أخو الأمين والمأمون، وكان قد زهد في الدنيا، وكان يتكسب بيده يوم السبت ما ينفعه في بقية الأسبوع، فلقب بالسبتي. توفي سنة (٢٠٩ هـ). (الأعلام: ١/ ٣٦٥).

(٤) الشيهم: الدُّلدل أو ذكر القنفذ.

عزّته، لما لم يلتفت من النّظم إلى نسج بزته، منه قوله:

أدعـوك يـا هـذا وإن لـم تـسـمـع إلـى طـريـق لـلـنَّـجـاة مـهـيـعِ
كـم تـدَّعـي أنَّـك مـن أهـل الـحِـجَـى لـم يـثـبـت الـحـق بـدعـوى الـمـدّعـي
قُـم شـمـرّ الـعـزم ولا تـكـسـل فـقـد أطـلـت نـومـاً فـي وطـيِّ الـمـضـجـع
خـل زمـان الـلّـهـو عـنـك جـانـبـاً ودع سـفـوح الـمـنـحـنـى والأجـرع
مـرَّ الـصِّـبـا ودهـره فـي سـكـرة عـنـهـا إذا كـنـت لـبـيـبـاً انـزع
فـمـا لـهـذا قـد خـلـقـت إنَّـمَـا خـلـقـت لـلأمـر الـفـظـيـع الـمـفـزع
فـارجـع إلـى ربـك واسـألـه الـرّضـى مـا دمـت فـي عـيـش الـحـيـاة الأوسـع
واذكـر نـزول الـقَـبْـر والـدُّود بـه فـي الـجـسـم مـنـك بـالـدَّبـيـب تَـرتـع
مـا الـعـيـش إلاّ لـذة فـي حُـلُـم ولـذة الأحـلام لـمَّـا تـنـفَـعِ
يـا رب وفـقـنـا وأدخـلـنـا غَـدَاً تـحـت لـواءِ الـشـافـع الـمُـشَـفَّـع

وكتب إلى مولانا الوالد رضي الله عنه لما نَزَل من كوكبان إلى شبام للقراءة فوجده قد خرج أيام المطر إلى الزُّجَاجة وهي أحد منافِس جبل كوكبان المحروس للتّنزه والاسترواح، فعاد ولم يدرس ذلك اليوم عليه شيئاً قوله:

ألا قـل لـشيـخـي فـي الـورى وإمـامـي ومـولاي شـافـي غُـلَّـتِـي وَأُوامـي
أَلا إنـنـي وافـيـتـكـم فـي زُجـاجـةٍ زجـاجـة مـاءٍ لا زجـاج مُـدَام
وجـئـت سـفـوح الـدَّار وهـي خـلـيَّـةٌ ولـم ألـف فـيـهـا غـيـر سـجـع حـمـام
وقـد غـاب عـن أبـراجـهـا شـمـس مـطـلـع ونـجـم عُـلاً مـنـكـم وبـدرُ تـمـام
وعـدت عـلـى أثـري أكـابـد مـصـعـداً صـعـيـبـاً كـأنـي طـالـعٌ بِـشَـمَـامِ[1]
بـصـفـقـةِ مـغـبـون رجـعـت فـلـم أُفـز بِـلُـقْـيَـا إمـامٍ أو بـنَـيْـل مـرامِ
وفـي طـاعـة الـمـولـى يـهـون لـعـبـدِه مـلاقـاة أهـوالٍ وضـرب حُـسَـام
ولا زال مـوصـولاً مـن الله دائـمـاً بـأنـعـمـه مـا لاح بـرق غـمـام

(١) الجبل المرتفع.

ولما كمل له على مولانا الوالد رضوان الله عليه سماع حاشية الشيخ الإمام لطف الله بن محمد الغياث[1] رحمه الله تعالى على الشرح الصَّغير، وجدته قد كتب بخطه على النسخة التي أسمع فيها من كلامه ما صورته:

أيها الطالب لا تشتغل بهذه الحاشية فإنها مما ألهى عن ذِكر الله والنَّظر في كتاب الله والمعاني والبيان إذا احتيج إليهما، وهو في النادر فالتلخيص[2] مغنٍ فلا تذهب أيامُك سُدىً، ويستَحْوذ عليك الشَّيطان، وقد نصحتك فانظر لنفسك المسكينة، فإن الآلة إذا حصل منها اليسير قام بالمقصود. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

قلت: تعليله سَقى الله ثراه بأن الحاشية المذكورة مما ألهى عن ذكر الله والنظر في كتاب الله، لازم في سائر العلوم على العموم، فإن التَّجرد لفهم دقائقها يصرف المتجرد عن ذكر الله تعالى، وعن النَّظر في كتابه العزيز لشغل فكره فيلزم بهذا: أن نَبذ العلوم جميعها والنَّظر فيها من المهمات، وليس كذلك فإنَّ ثوابَ الناظر في العلوم جزيل، وجزاؤه عظيم جليل، مما نَصّ عليه الله تعالى ورسوله ﷺ والسَّلف على تتابع طبقاتهم، وإنما الأعمال بالنيّات ولكل امرىء ما نوى.

وأمّا قوله: أن المعاني والبيان إذا احتيج إليهما وهو في النَّادر فالتَّلخيص مغنٍ، فغير مسلَّم، أنه في النَّادر فإن الكتاب العزيز مشحون بها وبالتَّوغُّل في علميهما يظهر للمتوغِّل في كتاب الله ما يُذهِل لُبَّه ويتيه بعقله من دقائقِ وغوامض لولا توغله لم يصل إليها حتى يَزداد علماً بِقَدْرِ الكتاب المعجز، إذ يقف من معجزاتِه على ما لا يحيط به المكتفي باليسير منهما حتّى يعلم علماً يقيناً أنما ذلك

---

(١) هو من علماء اليمن الكبار، ولد بظفير حجة، ومن مؤلفاته «المناهل الصافية» و «الإيجاز» و«حاشية على شرح التلخيص» ووفاته سنة (١٠٣٥). (خلاصة الأثر: ٣/٣٠٣).

(٢) هو كتاب تلخيص المفتاح (لخصه مؤلفه من القسم الثالث من مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي) لجلال الدين القزويني المتوفى سنة ٧٣٩ هـ طبع بالأستانة سنة ١٢٦٠ هـ ثم تكررت طبعاته.

ليس من صنع بَشَرٍ قطّ، وأن الكتاب أعظم الآيات لرسول الله ﷺ وأجلّها كما نَصّ عليه العُلَماء، فكيف يُعد الإكبَاب على البحث والتّنقير عن غوامض المعاني والبيان مما ألهى عن النَّظر في كتاب الله، وهو في الحقيقة نظر فيه بالتفتيش عن مُخَبَّآت المعاني والبيان في فواصِله الكريمة كما هو ظاهر، فَمتَى ذَهب وقتٌ في الغوص لاستخراج غوامض الكتاب سُدى، ومتى استحوذ الشيطان على من شغل قلبه وقالبه في إبراز دفائن كنوزه، وإيضاح الخفي من رُموزه، نسأل الله تعالى العصمة عن مداحض الزَّلل، ومعافاة القلوب والأبدان من العلل.

السيد يحيى بن إسماعيل الأخفش[1]

ثمرة شجرة نبوية، وخلاصة سلسلة علوية، عصابة على هامة المجد قد التفّت، وقرط من أقراط ذهبية على جبين المعالي قد زُفّت، عقد في أجمل نَحر، ودر من أعذب بحر، عَلَم عِلْم يشار إليه بالأصابع، وحديقة عرفان طيبة المراتع والمرابع، نصب شَبَاك علومه فَصاد حمائم الثنا، ومدَّ أنامِل معارفه فاقتطف حلو الجنى، أرانا في بديعه افتنانه، وأرسل لجواده عِنانِه، قلَمُه رمح مبنّد[2]، وأدبُه نسيم يفوح منه النَّد، جرّ على وجه البسيطة أذيال كماله، وزين الدُّنيا بما طلع من بدور جماله، فهو على كُمّ المجد طرازٌ مُذْهَب، وفي أفقِ المعالي بَرق بأبصار حُسَّادِه يذهب، له بصنعاء اليمن غُرْبة، ملأ فيها من شراب العلوم غَرْبة، فكم رحل إليها طالباً، ولنفائس فوائده إلى أسْواقها جالباً، فأنفق فيها بَضَائِعَه، واشترى ما ليست الأوقات في طَلبِه بِضَائِعَه، ولبث بها دهراً، واقتطف من رياضها زهراً، وتحدَّر في حدائِقها نَهْرا، واجتلى من عُلَمَائِها زُهرا، ثم عاد إلى وطنه مشوقاً، وقد صار قَدُّ قلمه من المعارف ممشوقَا، ولم يرض غير أرضِه بلادا، لأنها إن هبَّت نسيم غيرها بالداء هبَّت له نَسيمها بلا دا، عاد عود السَّهم إلى الكنانة بعد إرساله،

---

(١) ترجمته في (نفحات العنبر (خ) ونشر العرف: ٢/٨٢٨).

(٢) بند السيف: حمالته.

ورجع رجوع السنان إلى عَسَّالِه، وقد زان عِرفَانَه، وحسنه إذ أسهر له أجفانَه ومَلأ منه جِفَانَه، بسَكِينَة لا يزحزحها الخطب، ووقار لا يتألم معه لسيفه من الشطب، ألذ من الظل الممدود، وأبهج من ماء الشباب يترقرق على ورد الخدود، وله بُرد مَرُوَّةٍ سابغ، ومَاءَ كُرم من خلال رياضِه نابع نابغ، وسماحة تشرح الصدر، وتنوِّه بما له في المعالي من شامِخ القدر، يَسْتَخدم الأحرار، ويبوح من طويته بأطيب الأسرار، وبيني وبينه أتَمُّ عَلاقَة، ومودَّةٌ يتلقاها وجهُ الروض بالبشر والطَّلاقَة، فأنى له أوَدَ، وعندي له من المحبَّة ما قام له أود، لأنه إليّ كثير الميل، ونسيم اشتياقه إلى مؤلفاتي بَلِيلُ الذَّيْل، فكم طالعها مُنصفا، واستدعاها مِنْ صفًا، فما كدَّر صفوه حسد، ولا بار عنده فضلٌ ولا كسد، وله شعر طرَّز به حلل علمه، وحشَّى بمنسوجه الرقيق أردية حلمه، كقوله في المدح، وقد بالغ لزنده بالقدْح:

وهذا الذي أعنيه في النظم سيّدٌ بهمته القعساء قد أحرز العلما
وسَاد على الأتراب بالفضل والتقى وفاق بهذا العصر سادته الشمَّا
ودونهم قد أشرقت شمس عِلْمِهِ بِنَا فأزاحت من جهالتنا الظُّلما
وأدرك بالفكر الجليل دقيقه فلله ما أعلى علاه وما أسمى
وأتقن في العلم المُفصَّل دريةً ومجمله المعقود حلَّله فهْما
ومحكمه جَلَّى به متشابهاً فما خفي المقصود إلاّ على أعمى
ونال بفرط العلم غاية سؤله وأتقن فيها الفَضل والحدّ والرسما
وشيّد في نيل الفصول مَذاهباً من العلم كانت قبل شارفت الهدما

ولما استدعَى بعض تَأليفي أرسلتُ إليه بما أمكن منها، وكتبت إليه من النظم والنثر قولي:

سلام على يحيى العماد وإن قَلاً سلام له ذيل بدمعي قد ابتلاً
فلي عبرة تنهلّ كالقطر إن هما وترسل وبلاً من تنائيه لا طلاً
وما بَعُدَت دارٌ به غير أنَّهَا تَباعده الأيام لا حُمِدَت فعلا
ولا سفرت لي عن جناها حديقَةٌ إذا لم يكن فيها ولا بردت ظلاً

إذا ما جليسي قال: هل مشبهٌ له		أقول له: كَلاً ولي خاطِرٌ كلاً
وإن قال: هَلْ قَد مُلّ عندك غَيْرُه		وماذا غَدا في العلم قلت له: مُلاً
تيقنت وُدَاً منه عندي مثلُه		وتالله ما ألفيت قط له مِثْلاً
على أنني لم اتَّخذ لي من الورى		فلاناً خليلاً أو لقافيتي خِلاً
فلا زال ما حنَّت إليه جوانحي		وأضحت بنارٍ من تباريحها تصلى

سلام كالقطر الهامع، يمنع عن دخول النقص فيه ويجمع أطراف الكمال فحدّه المانع الجامع، على من ألبس ساق دهره حجاله، وأبدى من الوقار ما علمنا معه أن كل حِجى له، ذي اللذات التي لطفت شمائلها، فإذا هي روضة أزهرت خمائلُها، فارتاح إليها حتى الجماد، فإذا قيل لي: أين إرم قلت: هي ذات العماد، العالم الّذي شَمَّر للطلب فحَصَّل، وتزين به جبل كوكبان فإذا هو لهامته تاج مُفَصَّل، فإليه أشار منه في الفضل المشير، وبه افتخر لما جاءه بوجوده البشير، اتسع ميدانه لما استقام في أحد طرفيه بجواد عزمه، جواد فضل لم يخف وقد ركبه من قهقرته وهَزْمِه، ذي العرفان الذي مَاء درايته نابع، فهو في النَّحو للثَّلاثة[1] الأخافش رابع، وهو مع ذلك كريم سَمُوح، فطرفه إلى نيل الثناء طموح، وليل شبابه بالسَّماحة أقمر، فهو الأخفش الذي حكم لسخائه وعلمه بصرفه أبيض وأحمر، والتزم لكرمه باب حاتم، وألزم سيبويه منعه[2] عن غيره من كل فاتحٍ وخاتم، مولاي العماد، يحيى بن إسماعيل دام ما الغصن ماد، ولا زال من المرتبة والعيش في رفعٍ وخفض، ولا برح هو وباغضه ما بين طلبٍ ورفض، ما طار نسر الفلك من المسرة، واخضر روض الفجر لما سقاه نهر المجرَّة، فاقتُطف منه زهر زُهره طرَيًا، زهر إن لم يحك الزهر الحقيقي عرفا فريًا، فإذا جاء الروض محاكياً له في نضارته قيل له لقد جئت شيئاً فريا، هذا وإنه وصل إليّ طرسه، وتدلّى لدي

---

(١) الثلاثة الأخافش: هم عبد الحميد بن عبد المجيد، وسعيد بن مسعدة، وعلي بن سليمان. (انظر تراجمهم في كتب الطبقات).

(٢) إشارة إلى أن اسم «يحيى» ممنوع من الصرف.

بكل فاكهةٍ حلوة غرسه، فعبث سحره بنا، لما بنى أركانه فأعرب عن فضله بذلك البنا، يستَدْعي شيئاً من تأليفي، ومحرراتي التي كلَّفتُ نفسي عليها فكانت أعظم تكاليفي، فلم أجد من تجهيز بعضها إليه بُدًا، لأنه المالك الذي امتلأ فؤادي له هَوىً وَوداً، مطابقة لمقَصْده، وفَتْحاً من باب المذاكرة لموصده، وهل يليق بالعبد في أمرٍ أن يخالف سيِّده المالك، لا والله لا يحسن منه إلاّ طاعته في ذلك، وإلاّ فمن اللائق بي أن لا أعرض عليه مائي الآسن، ومن الصّواب أن أواري عنه ما هو مَعْدودٌ لي من المساوىء لا المحاسن، فإني جئت فيما حَرَّرته بالهراء، وأبرزت ما من حقّه أن ينبذ بالعراء، لما وهت منه العُرى، تَشَبُّهت بالكرام، فعزّ علي المرام، ولولا الوِئام، ما هلك اللِئام فصدر إليه في حفظ الربّ، مقترحه وهو كتاب رعي الأب، الذي لا يجد فيه فاكهة ولا أبّا، ولولا عرفاني بكرم أخلاقه لخشيت أن يوسعه سبًا، وكذلك كتاب «الوشي المرقوم على الدرّ المنظوم»، وكتاب «انكت القلب»، وإليه غيره، فربما بملامسته له يظفر باليمن طَيْرُه، فإن وجد مَسَاءة أو عثر على عوره، في أحد تلك الكتب التي حَرَّرها من تَعَدَّى طوره، فذيل ستره أضفى، وإن كان ذهنه للنَّقد من الماء أصفى، والسَّلام.

فأجابني من النَّظم والنَّثر بقوله:

عتيق مدامٍ طاب لي شربه عَلاً ... أصحّ فما أضنى فؤادي ولا علاً
سموط لآلٍ من نفيس جواهرٍ ... نظامك ما أبْهَى حُلاه وما أحْلى
زهور رياضٍ باكرتها يد الحيا ... وناءت بها الأغصان عن ثقلها حملا
طلاسم سحرٍ أم كؤوس مدامةٍ ... يطوف بها من لا أقيس به خِلاً
حكته وقد أبدى محيَّاه بهجةً ... بدورٌ فنار القلب من شَغَفٍ تصلى
وشَرَّف ما وافى به من غرائبٍ ... فحرتُ له فِكراً وطِشتُ به عقلا
وما ذاك إلاّ أنه ذو بدائعٍ ... فَعَلْن بلُبِّ الصب ما فعلتْ جُمْلاَ
شهاب الهُدى عَفواً فإني لم أجد ... لما رُمْتُه من كنه وصفك لي عقلاَ
لك الله من قاضٍ قضى لي بحبِّهِ ... إلهي فلا زالت قضاياه لي عَدْلاَ

لذا جئت بالمرفوض من كلمي ولا تحاشِ لما أبديه من هَذْري جهلا
وقابلت ما حبَّرته من لطائفِ بما مُلّ لمّا قيل نظمك ما مُلاَ
وعذراً فمثلي من أتى بنقائصٍ غدت لجميل العذر من ساترٍ أهلا
طلبنا فلم نظفر بمِثل محامدٍ لأحمد من إبان نشأتِهِ تُملى
وصلى عليه الله ما ذَرّ شارقٌ ولا برحت آيات معجزه تُتلى

سَيِّدي الصنو القاضي العلامة، اللأّبس من سرد مدادِه في العلوم لامَه، من افتخرت بوجوده لياليه وأيامُه، وتاهت ببدائِع آدابِه طروسه وأقلامُه، وخفقت في الخافقين رايات فضله وأعلامُه، راضع ثدي المعالي، وبدر سماء الكمال المتعالي، شهاب الإسلام، وإمام القراطيس والأقلام، أحمد بن محمد الحيمي أسبغ الله عليه النعم، وَوَالى عليه إفضاله الذي عم، ولا برحت شموس علمه مشرقة، ورياض آدابه البديعة مونقة، وسلام الله عليه ما تحلّى جيد الزّمان بذكره، وتوشّحت دواوين الأدب بنظمه ونثره، إذا مَدَّ بَحْره الزَّاخر، وقذف بالدّر الفائق الفاخر، وكشفت معارفه ظلمة الغياهب، ورقت به همته السَّامية على الكواكب، وحمى بيضة العلم والأدب في أعشاش أقلامة، ورفع رايتهما على الكاهل الباذخ من أيامه، وارتفع فلا يناله نائل، وصار الحقيق بأن ينشد فيه قول القائل:

ملك غدا ومقامُه وعماده يزهو على ذات العماد وَيَشْرُفُ
زُفّتْ إليه عرائس مجلوّة[1] عُرفت به وبغيره لا تُعْرفُ
وكذا العوارف والمعارف كلها جمعت لديه ففيهما يتصَرَّفُ

وقول الآخر:

لا عيب في نعماه إلاّ أنها تنسي نزيل حِمَاه حبّ الأوطن

أطال الله له الأيام، وحفّه بكل إكرام، ما تغنّى الحمام، وهملت الغمام، هذا وإنه ورد مشرفه الكريم، ونزل بنا مسطوره العظيم، المشتمل على ما يأخذ بالألباب، ويتمكّن في القلوب تمكن هوى الأحباب، ويشهد لمنشئه بالإمامة،

(١) في (ز) محلولة.

والتَّقدم في مراتب البراعَة والزعامة، من النَّظم والنثر اللَّذين لو تشخصا لفاخرت الأرض بهما نجوم السماء، فحلاً محل التَّاج، واحتاجت الغواني إلى التَّزين بهما أيّ احتياج، فسكرت من حُميًا الهيام، وأضرم بقلبي لاعج الغرام، ولا شك بأن ذاك هو السّحر الحلال، والعذب السابغ الزلال، فهو أحلى من الضَّرب، وألذّ على النّقاد من الظَّفر بالأرب، أبهى من الدرّ والياقوت، وأشد تأثيراً في العقول من سحر هاروت وماروت، عاينت من تلك الآداب، روضة جادها صوْبُ الرَّباب، أهاجت بلابل صَدْري، وقدحت زناد فكري، وأظْهرت كامن وَجدي، وحملتني على الإتيان بما عندي، . فقمت على قدم الطَّاعة، وحاولت المحاورة بقدر الاستطاعة، وأتيت من نظمي بما هو كالمَدَر، وقابلت بالحَصى تلك الدُّرَر، وجزمت بالمجازاة غاية الجزم، وقلت كما قال المتنبي: «على قدر أهل العزم»، فما حُمد عندك عبد الحميد[1]، ولا عُرِف بجنبك فضل لابن العميد[2]، ولم آتِ في تراخي الجواب، بخلاف اللائق وضدّ الصَّواب، لأنه لم يكن ذاك إغفالاً وإهمالاً، وإنما كان تهيباً وإجلالاً، وتحاشياً عن بعث ما يعد من الهذيان، إذ لست من أهل البلاغة ولا لي في الأدب يَدَان، وقد علم المملوك بأنه حاد بذلك عن نهج الصَّواب والسَّداد، وجعل نفسه غَرضاً تُسَدَّد إليه أسهم الانتقاد، إلاّ أنه قد تجاسر فأجاب، وجاءكم من ألفاظه القاصرة بالحمأة من العباب، ولم يأتي بدرٍّ يلتقط، وإنما أهدي إلى رفيع جنابكم بما يعدّ في السَّقط، فاقبلوه فَضلاً، وخذوه مَنّاً وطولاً، وأغلقوا دون معائبه باباً، وأرسلوا على وجه النقيصة منه نقابا، والله يشكر لكم هذه المودّة التي لا تبلَى، والمحبّة التي لا تزال عروسها تُنَص وتجلا، فإنكم جددتم شريعتها ولا أقول على حين فترة، وأصفيتم مشارعها وحاشا سلسالها أن تعلقه كُدْرَة، أبقى الله تعالى أركان فضلكم مَشِيْدة، وآثار مجدكم ممدوحه حميدة، ومؤلفاتكم الجليلة،

---

(١) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري، المعروف بالكاتب، يضرب به المثل في البلاغة، قُتِل مع مروان آخر بني أمية سنة (١٣٢ هـ).

(٢) هو أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد الوزير الكاتب، له مجموع رسائل. توفي سنة (٣٦٠ هـ).

والأيادي العظيمة الجزيلة، فعلت بالإلباب، ما لا يفعله المكرور عندها من الشّراب، شُغِلْتُ بمجالستها عن منادمة الأحباب، وعكفت تحت ظلّ روضها المستطاب، أجتني منه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وأجمع من أوراقها أطايب قد اجتمعت، والله يبقيك للعلم والأدب ركناً، ولفواكهما بستاناً[1] يجنى منه ما يُجْنَى، ونسأله أن يصون كمالك عن الشّين، ومحاسن هذا الزمان بك عن العين، ولا محا من صحائِف الوجود لك رقماً، بحق الرسول المشرف باسمه على سائِر الأسماء، والسلام الأوفر الأهنى، يرد إلى مقامك مُفْرداً ومثنَى.

وكتب إليَّ هذا الجواب مع هدية منه أهداها لي من بياض الرّق الذي يكتب فيه، فكتبت إليه ما صورته:

وصلني من المولى جوابه فأطرب، ونظمه الذي كلّ بناء بيتٍ منه عن الحسن أعرب، فأنا في سُكْر لا يُرجى له صحو، قد صرفْت عنّي عنان الحزن ونحوت طريق المسرة فأكرم بذلك الصَّرف والنَّحو، مصحوباً منه يدرج[2] الكتابة الصَّقيل، وروض الرَّقم الذي يطيب به المقيل، فكل قطعة منه بحجتها قائمة، وكل ورقةٍ كورقة الحدائق رطيبة ناعمة، بعث لي بالرق لما دخلتُ له تحتَه، فكأنه قَصَد بذلك أني أقرطس فيه نفيس ألفاظه الذي أعتمد من جِبَال الدُّر نَحْته، فأكرم بذلك الرق من وافد على حسب المراد، وأحسن بذلك الدرج الأبيض الذي لا يُرى فيه الخَط الأسود إلاّ الخَطُّ المِدَاد، بياض لكل عقيلة فيه من الأدب مقلة، ولكل أديب فيه قبض داخل يسلب بحسنه عقله، فلقد وصل منه ذلك الوَصْل فناب لدي مع القطيعة مناب الوصل، فشكراً لأياديه التي عَمَّت، ولبحار جوده العَذْبة فقد طمّت، والسَّلام.

---

(١) في (ب) بستا.

(٢) الدرج: قرطاس طويل يكتب فيه ويلف.

السَّيِّد محمد بن النَّاصر بن عَبْدِ الرَّبِّ[1]

روض ابتهج مونِقُه، وماجد زَهَا به من الفخار رونَقُه، ذو جَدّ لا يعرف الهزل، ولفظ متين الحواشي وكلام جزل، وحُللٍ من الفخر لينة اللمس لطيفة الغَزْل، من أولاد الأمرا، الذين يدخلون أبواب المعالي زُمرا، أُسُوْد عرينها تحت مشتجر القنا، وبدور كاملة الأنوار مشرقه السّنا، كان في عيش رغيد، بين ملاح تُسبي النهي وغيد، والدَّهر عن لذاته في غفلة، والزَّمان يسوق إليه من النَّعيم فرضَه وَنفْلَه، في رياضٍ مونقة، غصونها مهدولة مورقة، تحمر بها خدود الوَرْد من الخجل، ويسمع لطيورها تحت سجوف العَذَب زَجل، حتّى تغيّر حال كوكبان ومَنْ به، ووافاه ميقّظ الخطوب وهو يتقلب على جنبه، فأبدل ذلك الصَّفو بالكَدَر، وغَدَر في عهده ولا بِدْع إذا غدر، فإن الزَّمان ذو ختْل وغدار، وفلكه طالما بالمحن لا بالمنح دار، والدّنيا لكل فادحة ورزيّة دار، فَرَحل إلى صَنْعاء المحمية الجناب، وخَرّ راكعاً بجامعها[2] وأناب، واتخذها لسربه مرتعاً، ولأوْطاره مَرْبعاً، حتى وافته رزية لا يستطيع عَنْها رَحيلاً، وبَغَتَتْه مصيبة الموت التي غدا الفرار منها مستحيلاً، فَوَرد من الحِمام أمرّ حوض، بعد أن خاض في بحر الحياة أي خوض، فدفن بمقابر تلك المدينة بجربة الروض، قضى الله به من غُفْرانه أملاً، وأحسن مثواه كما أحسن في ختام عمره عملاً، وبيني وبينه مودة واتّصال، ومحبة لا يغيرها البعد والانفصال، وقد أملاني من أشعاره، وسهَّل لي من أوعاره، شيئاً كثيراً جمًّا، اخترت منه ما نظمته في جيد هذا الكتاب نَظماً، وذلك قوله[3]:

إن الـهـوى قـد أبـان عـذري ... فـلا تـلـم فـي الـغـرام عُـذْري
هـام فـمـا نـام مُـذْ هـوى مَـن ... مـقـلـتُـهـا لـلـقـلـوب تَـفْـري
سـاحـرة لـلـعـقـول تـبـدي ... وجـهـاً صـبـيـح الـجـمـال بـدري

(١) ترجمته في (نشر العرف: ٢/ ٧١٩) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) في (ز) ونشر العرف: لجامعها.

(٣) أوردها في (نشر العرف: ٢/ ٧٢٠).

إذا تــلــطــفــتُ فــي عِــتــابِ   تــبَــسُّــم عــن بــارقٍ ودُرّيِ

وقوله:

أدرْ كـاس الـمـدامـة يـا نـديـمـي   وغـذّ الـسـمْـع بـالـنَّـغَـم الـرّخـيـمِ
وَسُـفَ[1] الـرَّاح فـي روضٍ تـثـنَّـت   بـه الأغـصـان مـن مَـرِّ الـنَّـسِـيـم
وقـد غَـنَّـتْ بـه الأطـيـار لـحـنـاً   مع[2] صوت المناطق[3] والبريم[4]
فـإن الـرَّاح لـلأرواح روحٌ   يـذكـرنـا بـجـنَّـات الـنَّـعـيـم
تُـدَار كـؤوسـهـا فـيـنـا فـتـحـكـي   خـريـر الـشـهـب فـي الـلَّـيـل الـبـهـيـم
يـنـادمـنـي بـهـا فـي الـجُـنْـح[5] خَـوْدٌ   نـظـيـم الـعـقـد ذو الـخـلـق الـوسـيـم

وقوله:

خـمـرة أفـرغـت بـكـاس الـزُّجـاجِ   قـد أديـرت مَـشُـوبـةً بـالـمـزاجِ
أضـرمـت فـي الـخـدود جـمـرة نـارٍ   أشـعـلـت فـي الـقـلـوب نـور الـسـراج
تَـضْـرف الـهـم تـطـرد الـغـم فـاغـنـم   يـا أخـا الـصَّـفـو شُـربـهـا فـي الـدَّيـاجـي
شـحـذت بـالـذكـا ذهـن غـبـيّ   أنـطـقـت كـل أبـكـم لا يـنـاجـي
وهـي لـلـجـسـم صـحـةٌ مـن سُـقـامٍ   إن جـرت فـي بـواطـن الأمـشـاجِ
وأدرهـا وقـت الـغـدو لـيـحـظـى   فـي رواح بـنـشـطـةٍ وانـزعـاج

وقوله:

لام عـلـى الـشـرب لابـنـة الـعـنـبِ   كـل جـهـولٍ وأحـمـق وغـبـي
ومـا دروا أنّ شـربـهـا سـحـراً   يُـعَـدّ يـا صـاحـبـي مـن الأدب

---

(١) سف الخمر: أكثر منه.

(٢) في (ب) معاً.

(٣) جمع منطقة وهي ما يشد به الوسط.

(٤) البريم: حبل مبروم وخيطان مختلفان أحمر وأبيض تشدّه الجارية على وسطها وعضدها وحبل للمرأة فيه لونان مزين بجوهر (انظر اللّسان: ١٢/ ٤٤). وانظر أيضاً (معجم الملابس لدوزي: ٦٤).

(٥) الجنح: من جِنح الليل طائفة منه.

فاسقني خمرةً معتقةً صفراء مثل المذاب من ذهب
إن مُزِجت في الإناء رأيت بها جواهراً أطلعت من الحبب
تزحزح الهمّ ثم تطرده فينثني مسرعاً إلى الهَرِبِ
جالبة للسّرور جاذبةٌ نابذة للهموم والكُرب
وما احتساها يزيدني عجباً وإنما تركُها من العجب
نحُ همومي بكأسها عَجَلاً إن لمعت مثل قطعة اللّهبِ
واغنم فللدهر في تقلبِهِ نهجٌ ولا تَسْألَنْ عن سَببِ
فما صفا بُرْهَةً لذي أدبِ ولم يُبلّغه منتَهى الأرَبِ
تَبّاً لدهرٍ أذاقَنَا نصباً وما أمرّ الحياة بالنّصبِ

اعلم أن قد ورد في أشعار القدماء، وزمر النُدَماء، مدح الخمرة ووصفها بما يَسكر كإسكارها، ويُحدث في الأعضاء نشوة خُمَّارها، وقد جُمعت من ذلك مؤلفات نظماً ونثراً ككتاب «حَلْبَة الكميت»(١) للشيخ شمس الدين محمد بن الحسن بن علي النواجي المصري رحمه الله تعالى، وككتاب «مقطّعات الشّراب» للعلامة بَدر الدين الدَّماميني رضي الله عنه(٢) ومن الشعراء من لهج بمدحها كأبي نواس،

---

(١) هذا الكتاب من أوسع ما ألف في الخمريات، رتبه على (٢٥) باباً في أوصاف الخمر والنّديم والسّاقي والمجلس وآدابه والأغاني والملاهي والخلاعة والأزهار والفواكه والخاتمة في التوبة وذم الخمر. قال السخاوي في «الضوء اللامع»: كان سماه أولاً الحبور والسرور في وصف الخمور، وأنكر الخيرون عليه، بل حصلت بسببه محنة حيث ادّعى عليه وطلب منه فغيبه. قال صاحب «كشف الظنون»: وهو كتاب مفيد ولا عبرة بذمه فإنه من الحسد والتعصب. (كشف الظنون ١/ ٦٨٧) طبع سنة ١٢٧٦هـ وسنة ١٢٩٩هـ.

(٢) قلت: ألف في الخمر وأحكامه وأدبه وأشعاره ولغته العلامة محمد بن الحسن، النحوي: «أسماء الخمر»، «وإكرام من يعيش بتحريم الخمر والحشيش» للأقفهسي و«إلقاء الجمر على من يشرب الخمر» للسنباطي، و«تعظيم الأمر في تحريم الخمر» لابن كمال باشا و«تنبيه البصائر في أسماء أمّ الكبائر» لابن دحية الكلبي و«تهويل الأمر على شارب الخمر» للدكدجي، و«جليس الأنيس في أسماء الخندريس» للفيروزابادي، و«حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح» لأبي عامر و«قطب السرور في أوصاف الخمورر» لابن الرقيق، وهو

والشيخ صدّر الدّين بن الوكيل[1] وغيرهما، وما أحسن ما جاء لضياء الدِّين أبي الفتح نصر الله بن الأثير[2] رحمه الله تعالى في وصفها من النثر المسجوع فقال:

مُدامة تنفي خواطرها الهموم، وتسري مسرى الأرواح في الجسوم، وتشهد بأن الكَرَم مُسْتمد من ماء الكروم [ويَتمثل حَبَبُها نجوماً إلاَّ أنها مضلَّة][3] والهداية للنّجوم[4]، انتهى كلامه.

وقلت أنا مما جاء في كلام منثور في وصف الخمرة وهو ما لفظه:

عقيلة القَناني، لا تبرز إلاَّ أيام التَّهاني، أكتست صفرة المتَّيم، وتشبه حبابها بثغر الحبيب المُنظَّم، تقهقه أباريقها حتى تنقلب، وتزحف على جيش الهموم ورايات سنا أكوابها تضطرب، بها بلغت[5] الأرب، وأصبحت بعد الإقتار أملك جواهر الحبب، وشريت المسرة بلا ثمن، وقطعت بالكميت منها حَزْن الحزن. انتهى.

وقلت أنا أيضاً في النَّثر المسجوع في وصفها ما لفظه:

قهقه الإبريق، حتى غصَّ من الخمرة بالرّيق، فكأنه طير يغرد، ولسجعه في

مطبوع وكتاب «الرَّاح والارتياح» للمسبِّحي، وكتاب «مفاتيح الأرواح في امتداح الراح» وغيره. (انظر كتابنا معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي ص ١٦٩).

(١) هو المعروف بابن المرحل، صدر الدين محمد بن عمر بن الوكيل ولد بدمياط سنة (٦٦٥ هـ) وتوفي سنة (٧١٦ هـ) انظر ترجمته بتوسع في (الأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام ٢/٢٠٣ ـ ٢١٦) ومن شعره في الخمر:

ليذهبوا في ملامي أية ذهبوا ... في الخمر لا فضة ولا ذهب

لا تأسفن على مال تمزقه ... أيدي سقاة الطلا والخرّد العرب

(٢) هو نصر الدين بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، وزير من العلماء، له مؤلفات عدة في البلاغة، توفي سنة (٦٣٧ هـ). (وفيات الأعيان ٢/١٥٨ والأعلام ٧/٣١).

(٣) ساقط من (ز).

(٤) المثل السائر ج ١: ١٥٠ط الحوفي.

(٥) في (ز) بلغت بها الأرب.

أبراج الهنا يردّد، يلتقط بمنقاره حبّ اللؤلؤ من الحبب النّسيق، وقد نثر على أرضٍ من الياقوت أو العقيق، طالما ابتسم بثنايا الحبب، وضحك من بكاء الشموع حتى انقلب، ينطق عن لسانٍ حمراء من المدام، ويرجع لفظه بتلجلج كتلجلج التّمتام، ويرعف بدم العنقود ولذا ما زال يستنشق كافور الختام، يجول الشراب في إناءٍ منه أرق، كما جال في الذّهن اللّطيف معنىً غامض دَقّ، ومن أعجب ما جاء به الشّرب وأغرب، إنَّ كأس الزجاج من رقته كاد أن يُشرَب، مع مدامة تجرِي في اللّهوات جري الشّمس في الفلك، لولا إمساكه بالأنامِل وتقَيّده من الحباب بالشّبك، فقد عدلت الرّاح لما أضاءت من الوجوه على الأسارير، وجَزَت الشارب بإطلاقه من قيد الهموم مع حبسه لها في القوارير، تقول عند شربها لقد أنجز بها من المسرة وعدي، واتقيتُ بها الهموم كما اتقت المزج بما قال ابن نباتة السّعدي[1]:

خندريس كأنها تتقي المزج (م) بدرع مسرودةٍ من حِباب

فلا معوّل على قول من عاب المدام، فقال من جورها[2] أخذ الثأر من الرؤوس بجناية الإقدام، وإنما هي ذات شهامة، لا تُرى لها موضعاً إلاّ الهامة، لا برحت في مقامات السّرور لامعة، وللندماء على إعراسها بابن الغمامة جامعة، والسّلام.

قولي في المنثور الأول: «تقهقه أباريقها حتى تنقلب» هو كقولي في المنثور الثاني «وضحك من بكاء الشموع حتى انقلب» وهما من قول العامة في الضحك البالغ: ضحك فلان حتى انقلب، ومنه قول بدر الدين الغزي[3] رحمه الله تعالى[4]:

---

(١) لم أجده في ديوانه المطبوع.

(٢) في (ش) جوهرها.

(٣) كذا في الأصول، ولعله بدر الدين العمري، انظر: (الأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام ٢/ ١٧).

(٤) البيتان في مطالع البدور للغزولي ١ : ١٢٦.

أعجب ما في مجلس اللّهو جرى ... من أدمع الراووق لما انسكبت
لم تزل البَطّة في قهقهةٍ ... ما بيننا تضحك حتى انقلبت

والبطة بالباء الموحدة والطاء: اسم الآنية، وأحسن منه وألطف قول صدر الدين بن عبد الحق رحمه الله تعالى[1]:

أسبل الرّاووق لما صلبا ... أدمُعاً لكن رأينا العجَبا
بينما الرّاووق يبكي بدمٍ ... ضحك الإبريق حتى انقلبا

قولي في المنثور الثاني: «ولا معوّل على قول من عاب المدام»، والفقرة التي بعدها، فيه إشارة إلى قول كلام لنصر الله بن الأثير رحمه الله تعالى في منثور ذم به الخمر فقال: الخمر لا تفي لذة إسكارها، بتنغيص خُمّارها، فهي خرقاء البنان، بذيئة اللسان، وتأنيثها يدلّك أنها من ناقصات العقول والأديان، وقد عرف منها سنة الجور في أحكامها، لولا ذلك لما استثارت من رؤوس بجناية أقدامها، انتهى[2].

وهو من قول الرئيس[3] أبي غالب عبيد الله بن هبة الله بن الأضاعي في وصف الخمرة أيضاً[4]:

ذكرت حقائدها القديمة إذ غدت ... وهناً تداس بأرجل العصّار
لانت لهم حتى انتشوا فتحَكّمت ... فيهم فنادت فيهم بالثار

ومنه أخذ الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة رحمه الله تعالى في تائيته المشهورة قوله[5]:

---

(١) البيتان في مطالع البدور: ١: ١٢٧.

(٢) المثل السائر ج ١/١٥٠.

(٣) هو الرئيس عبيد الله بن المظفر بن هبة الله، وزير، كان فاضلاً له علم بالأدب، قتلته الباطنية سنة (٥٩٢ هـ) (الأعلام ٤/١٩٨).

(٤) البيتان في ابن خلكان ٤: ٤٣٤.

(٥) ديوانه (٦٨).

تـذكـرت عـنـد قـوم دوس أرجـلـهـم فـاسـترجـعـت مـن رؤوس الـقـوم ثـارات

وما أحسن هنا قول القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر رحمه الله تعالى ملغزاً في العمامة، وقيل في الشملة[١]:

ومـشـمـولـة رقـت وراقـت فـأصـبـحـت على الشرب تجلى حين تُهدى إلى الكأس[٢]
مـعـتـقـة مـا شـمـسـت بـعـد عـصـرهـا لإثـم وكـم فـيـهـا مـنـافـع لـلـنـاس
ومـا وطـئـت بـالـرجـل[٣] يـومـاً وكـم لـهـا إذا مـا أديـرت مـن صـعـود إلـى الـراس

ويُعجِبني هنا قول ابن زُهْر الإيادي[٤]:

ومـوسّـديـن عـلـى الأكـف خـدودهـم قـد غـالـهـم نـوم الـصـبـوح وغـالـنـي[٥]
مـا زلـت أسـقـيـهـم وأشـرب فـضـلـهـم حـتـى سـكـرت ونـالـهـم مـا نـالـنـي
والـخـمـر تـعـرف كـيـف تـأخـذ ثـارَهـا إنـي أمـلـت إنـاءهـا فـأمـالـنـي

ومن اللأّزم إيراده هنا قول أبي نواس[٦]:

إذا هي حـلـت فـي الـلـهـاة مـن الـفَـتَـى دعـا هـمّـه مـن صـدره بـرحـيـل

ولما استدعى صاحب الترجمة رحمه الله تعالى كتابنا المسمَّى «الأصداف المشحونة بالجواهر المكنونة» طالعه على نسق، ثم لما أكمل المطالعة أرجعه، وكتب إليّ معه أبياتاً داليّه من نظمه مقرظاً له، فكتبت إليه مجيباً من النَّظم والنَّثر قولي:

---

(١) رداء كالعمامة يستعمله العوام (دوزي ١٩٥).

(٢) الأبيات في مطالع البدور للغزولي ١: ١٥٨.

(٣) مطالع البدور «ولا عصرت يوماً برجل ولا لها».

(٤) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الإيادي، من نوابغ الطب والأدب وفاته سنة (٥٩٥ هـ). (الأعلام ٦/ ٢٥٠).

(٥) الأبيات في ابن خلكان ٤: ٤٣٤ ونفح الطيب ٢: ٢٤٧.

(٦) ديوانه (٤٨٢) ط دار صادر وفيه: إذا ما أتت دون اللهاث من الفتى.

لقد زدت في الأصداف دراً منضَّداً يليق بأن الغيد تنظمه عقدا
فلو علم الغواص بادر أخذه ولم يقتحم لليم جزراً ولا مَدًّا
مدحت كتابي وهو بالذم لم يزل خليقاً فشرفت المحب وما أبدى
ولو كنت من أهل الحجى لكتمته ولكن طيشي جاوز الرسم والحدّا
فدم في نعيم لا انقضاء لدهره وأيامه الغرّاء حصراً ولا عدّا

عادت الأصداف إلى البحر، ورجعت جواهرها المكنونة إلى النحر، وقد تشرفت بنظرك فارتفعت إلى النجم الثاقب، وافتخرت على سائر الأصداف لأن درها لم يفتقر إلى الثاقب، فإذا هي ملآنة بجواهر نفيسة، تظل الجواهر حياء منها وهي في ظلمات اليم حبيسة، مَصْحوبة بالتقريظ الشريف، المباهي بنضارة قرطاسه للروض الوريف، والله إنه لأطرب من عود، وأحسن من نجاز الوعود، وألذّ من نشوة الشباب، وأشهى من مسامرة الأحباب، فعين الأدب به سكرى، وألسنة المادحين توالي له شكرا، فلا زلت لمحبك بكل منيحة في الأدب مباكراً، ولا برحت له بالعلوم والآداب مذاكراً، ما التقط بازي الصبح الأشهب، حبات نجوم لا تشبه الحب، وقد كانت تحت جناح الغراب من الليل، فطار فزعاً وفر وهو ينعق بالويل، وسلام الله تعالى الأوفى وإكرامه الأصفى يخدمان مقامك عني، ويؤديان ما يجب لك مني إن شاء الله تعالى.

أخوه المهدي بن الناصر(١)

طيب الخيم والنجر، له أخلاق ألذ من إغفاءة الفجر(٢)، فما الروضة باكرها الغيث، ومشت إليها السحابة بين العجل والرَّيث، ويفتر ثغر زهرها، ويصفّق للطرب معصم نهرها، وتغني بها ذات الأطواق، وتقطر بدمع الندى من نرجسها الأحداق، وتحمر بها من الورد خدوده، وتقوم من سفرجلها المصفر نهوده،

---

(١) ديوانه (٤٨٢) ط دار صادر وفيه: إذا ما أتت دون اللهاث من الفتى.

(٢) بيض له في (ز).

بأحسن من أخلاقه اللطيفة، ولا أعطر من شمائله الظَّريفة، فكم سحر بها من ألباب، وكم أدار بها على الندماء من أكواب، فأصبحوا من حبِّه في سكره، لا يعدون أهم الأمور معها إلا دِكْرَه[1] وله في الكرم والجود، طريقة يَهْوِي لها حاتم طي بالسجود، فنجوم الكرماء تخفَى عند بدره، وسحاب القطر الهتَّانة تستمد من بحره، فجوده جود وافر المال، وماله مال من يُعَدّ في ذوي الإقلال، وله فراسة يسوس بها الجامح، ويقود بعنانها من الخيل السماك الرامح، يطرز حواشي ميدانه، ما لا يطرزه المطرز المحكم في أطراف أردانه، فهو أفرس من صيَّاد الفوارس، وهو الماهر الخبير والمعاود الممارس، وهو لي من أجل الخلطا، والأتراب الذين لا أعدّ ودّهم غَلَطا، فَبيني وبينه من الصّفا، ما لو كان بين النسيم والمصباح لما انطفا، فكم ركَضْنا في حلبة الصِّبَا، بأدهم[2] شباب ما وقع ولا كبا، وبدر الإقبال يحفّ بهاله، والأمل إذا اقترح على الزمان خِصْلَة جاد بهَا له، فرماني به زمان المهدي[3]، وأوقاتي أوقات الرَّبيع فكم تدبَّجت به هضابي ووهدي، ولما تبدّلت السعود بالنّحوس، وضاقت من حوادثَ جرت على الدِّيار الكوكبانية النّفوس، جَرَّد نفسه للرحيل وعدم المقيل، كما تجرَّد من غِمده الصَّارم الصقيل، ونَفَذَ عنها نفوذ السهم، وفارقها مفارقة الأبي الشَّهم، وتَرك الغُراب بها ناعقًا، لما ركبه في البحر العميق مُفارِقاً، حتى نزل بجوار بيت الله الحرام[4] وساكن من هنالِك من الكرام، وهام بحبّ ليلى، وتمتع بوصلها نهاراً وليلاً، ثم عاد إلى اليمن مشوقاً، وعانق في رياضها من الغصن قدًّا ممشوقاً، واعتزل الخلطا، ولم يأتِ في فعله غلطاً، ولزم الخمول، كما لزمت الدَّنّ الشمول، وله شعر يترجم عن فضله، ويعَبِّر بلسانه أنه من ذوي الأدب

---

(١) في اللسان: الدكرة جمع دِكْر، قال: والدكر لربيعة في الذكر وهو غلط حملهم عليه اذكر حكاه سيبويه، وكذلك ما حكاه ابن الأعرابي من قولهم: الدكر في جمع دِكْره إنما هو على الذكر. (اللسان ٤/ ٢٩٠).

(٢) الأدهم من الخيل ما مال لونه إلى الحمرة مع سواد وقد سبق ذكره مراراً.

(٣) يعني الإمام المهدي، أحمد بن محمد صاحب المواهب، وكان ممن نكل بالأدباء والعلماء.

(٤) بياض في الأصل.

وأهله، منه قوله في بعض القصائِد التي لا تعد على الألسنة من الحصائد:

هي نفحة أهدى النَّسيم شذاهَا سَحراً فيا للَّه ما أذكاهَا
وتنسَّمت أنفاسها في الروضة الـ غنَّا فنَشر الروض من ريَّاهَا
وتَثَنَّت الأعواد من تحريكها وشَدَت على عذباتها وَرْقاها
نفحاتها كالنَّار في لفحاتِها أذكت غراماً كامناً لولاهَا
قدحت زناداً للغرام فمقلتي عين تقَسّمت العيون كراها
للَّه ما أهدى النَّسيم لروضةٍ من نشره فتأرَّجت أرجاهَا
أهدى سلاماً من غزالة طاسم أبدته إذ مرَّت فما أحلاها
بعث الشجون وكنت أحسب أنها الأسرار في صدري أرى إخفاها
فأقامت الجون الهتون تسحّ في (م) السَّاحات وَدْقاً لم تشحَّ سَماها
فترى الزّهور ترشفت قطر النَّدى وتخالها قد فتَّحت أفواها
قامت على ساقٍ فتحسب زَهْرَها زَهْراً تشعشع ضوؤها وسناها
كلآلىء لاحت بثغر بثينةٍ تحكي البروق إذا سرت وَطْفاهَا
للَّه أيام السُّرور وطيبها جذلاً تَقَضَّى صبحها ومساها

السَّيِّد المطهَّر بن صَلاح بن حُسين بن شمس الدين[١]

مُطهّرٌ عن التنجيس، مرتفع القدر فوق بَهْرام[٢] وبرجيس[٣]، عقد سيادته منضود، ناهض للمجد ليس بمخضود، ملء الأفواه إذا شكر، وملء الأسماع إذا ذكر، انحنى الهلال، ساجداً له إذ عظمت منه الخلال، يودّ في برجه الأعلا أن يكون لجواده سرجَاً أو نعلاً، كان على بلاد الطّويلة[٤] عاملاً، يهزّ منه المجد على

(١) ترجمه في (نشر العرف: ٢/ ٧٥٠) نقلاً عن كتابنا هذا.
(٢) بهرام: اسم المريخ وهو فارسي أصله بهرامج.
(٣) البرجيس: نجم، قيل هو المشتري وقبل المريخ.
(٤) الطويلة: مدينة بالقرب من كوكبان بمسافة (٢٥) كم، في سفح جبل القرانع بها مركز قضاء الطويلة المطل على بلاد المحويت من الغرب، وإلى الجنوب بلاد حراز والحيمة.

الأعداء عاملاً، وعيشه أخضر من المروج، وبدره يتنقل في البروج، من منازل غرف إلى فلك سروج، في نعمة يقطر الماء من خلالها، وتنسج حلل الرياض على منوالها، قبل أن يتلون الزَّمان في معاملته تلون ليله ونهاره، ويتعرى روضه عن ثيابه المعرجة بمنثوره وبهاره[1]، ويلبس له جلد النمر، ويطلق عليه غيم حادثه ويستمر، ثم صدمة الدَّهر بالميل والحيف، وكمن له الفقر فيه كمون الحدّ في السيْف، وتيقَّظ له بعد ما غفل، وطلع نجم نحاسته فما أفل، انثالت عليه غارة الاحتياج، وهوت كواكب سعده من الأبراج، جنت عليه الأيام وعَدت، بعد أن أنجزت له من قبلُ ما وعدت، فأصبح كما في أمثال من غبر: أفلس من طنبور بلا وتر[2]، بل أفرغ في الحرب من القِراب، وأخلى من القدح عقيب شرب الشراب، وقد أولاه الدَّهر قهراً، فأضحى وما له بشامة ولا زهراً، ولا جامد ولا ذائب، وأمله في كل من رجاه خائب، فلانت قناتُه، وبَعُد عن روضه جُنَاتُه، وهو مع ذلك ألين لطفاً من قضيب، وأصبر على الذّلّ في الدَّهر من قضيب، عرفته في غناه وفَقْره، وشاهدت من الزَّمن الخؤون عاقبة أمره، وكنت أستعيذ بالله من شر القَدر، ومن سوء دهر طالما خان وغدر، وقد أضحى ذا رأيٍ فائِل، وهو للَّنظم بما قاساه غير قائل، وله شعر يروق، تبتسم عنْ سناه ثغور البروق. منه قوله[3]:

لـك حـاجـب يـا مـنـيـتـي عـن مـقـلـتـي حـجـب الـكَـرَى
وسـهـام لـحـظـك قـاتـلـي لا شـك فـيـه ولا مِـرَا

وقوله[4]:

لـك لـحـظٌ ومـقـلـةٌ سـلـبـا نـوم مـقـلـتـي
لـك خـدّ مـورد فـيـه نـاري وجـنَّـتـي

(١) البهار: نبت طيب الرائحة ينبت أيام الربيع، ورده أصفر الورق أحمر الوسط.
(٢) لم أجد هذا المثل في كتب الأمثال التي بحوزتي.
(٣) أوردهما في (نشر العرف: ٢/ ٧٥١).
(٤) أوردهما في (النشر: ٢/ ٧٥١).

وقوله:

يا مليحاً غدا الفؤا ... د لمثواه منزلا
خُذ لصَبٍّ متيمٍ ... لم يجد عنك موئلا[1]

وقوله:

يا مخجل البدر وجهاً ... والظبي جيداً وطرفا
لا تسلب الروح مني ... فسلبه ليس يخفى

ونظم البيتين الأوسطين والبيت الأول والآخر قديمان، فقال:

آه من البارق الذي لمعا ... ماذا بقلبي ومهجتي صنعا
أرّق طَرْفي وزاد في حُرقي ... قَطَّع قَلْبي بَوْمضه قِطعا
حَرَّك شوقي لجيرةٍ بعدوا ... جرَّعني الدَّمع مذ سرى جرعا
أقيم في الطُرْق شبه والهةٍ ... لعلّ عيني عليه أن تَقَعَا

وكتب تقريظاً على «ريحانة الألبّا وزَهرة الحياة الدنيا»، للعلامة الأديب شهاب الدين الخفاجي رحمه الله تعالى منثوراً له منه قوله:

هذه ريحانة عَطَّر الأرجاء شميمها، ورقّ في الأفق نسيمها، وترقرق في حياضها تَسْنيمها، أدارت على الرِّفَاق، كؤوس الوفاق، وتزيَّنت طروسها بسواد كسواد الأحداق، فهي لعمري تحفة الجليس، وأُنس من أوحشه فقد الأنيس، منثورها منثور البستان، ومنظومها كمنظوم قلائد العقيان، تتنزه فيها النَّواظر، وتسلو بها الخواطر عن الخواطِر، نَوْر روضها كالنجوم الزَّوَاهِر، ونشرها بالأريج من المسك عاطِر، خريدة القصر عن مطاولتها قاصرة، وهي ليتيمة الدهر بحسن معانيها قاهرة، لا زالت تداولها أيدي الكرام وتلقَّاها بالتَّكريم، وتختمها بختام مسكٍ مزاجه من تَسنيم، انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

---

(١) في (ش) منزلاً.

وقوله: «وهي ليتيمة الدَّهر بحسن معانيها قاهرة» فيه معنى لطيف لأنَّ الله تعالى قال في كتابه الحكيم: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى: 9].

وقلت أنا في بعض القصائد النبوية على ممدوحها أفضل الصلاة والسلام:

ويتيم دُرٍّ من ثنايا ثغرِهِ   باللَّثم من أهل الهوى لن يُقْهَرَا

وكان وفد صاحب التَّرجمة إلى مقام والدنا الإمام، ونزل منه بأشرف محل وأرفع مقام، وبه خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي وحبَّذا هو من خليل، في يوم عالج طبيب طيبه النَّسيم فإذا هو غير عليل، فأدرك[1] منه الشيخ تطاولاً عليه، لما لم يلتفت بطُلية إنصافه إليه، بعد أن أهانه في سلامه، ولم يخاطبه بشيء من كلامه، وله لو أنصفه فَضْل عرفان وأدب، يغنياه عن فضل نسبٍ ونَشَب، فزوَى وَجْهه، وأمته أسباب غيظه من كل وِجْهة، وتطاير من غضبِه شَرَارُه، وشُحذ من سيف لسانه غَرَارُه، وتجعَّدت منه الأسارير، ولم يستعمل التُّؤدة حتى كاد أن يقال له: «ارفقاً بالقوارير»[2]، فالتفت إلى السيّد لفته أبانت عن الغضب، وسأله بمسائل علميَّة استحضرها ذهنه واقتضب، فَوجَم مُفْحماً، وصار صغاره في أثناء خطابه مقحماً، ودهش دهشة من أصيب، وغُصّ بريقه لما لم يكن له في سعة الدراية نصيب، وعقد القصور لسانَه، وأطاش الخزي جَنَانه، فقال السيد هذه المسائل يجيب عنها القاضي محمد[3]، فإن بحره الغمطمط[4] أهل للمد، فقال الشيخ: أما القاضي فسيجيب بلا لبس، ويطلق في الإبانة لسانه بلا حبس، وإنما سألتك أنت بالنَّص فقط، لأبين منك في هذا الترفع وجه الغلط، وأنبهك على قصورك، الذي ينبغي معه أن تجعل التواضع من خير أمورك، فلا تستسمن من نفسك ذا ورم، وتنفخ من رمادك في غير ضرم، ولتَعْرف أنّ مثلي لا يهان، لسبقه في مثل هذا الرّهان، وما زال يشنِّع عليه

---

(١) في (ز) أدك.

(٢) حديث: «يا أنجشة رفقاً بالقوارير» متفق عليه من حديث رواية أنس.

(٣) يعني والد المؤلف العلامة محمد بن الحسن الحيمي، سبق ذكره.

(٤) غمطمط البحر: اضطرب موجه.

ويبكّت، ووالدنا يزجره ويُسَكُت، ويلومه على إطالة التَّشْنيع، ويغالط فيما وَسَّعه الشيخ غاية التَّوسيع، حتى انقبض المقام، وبلغ مسك الختام، رحم الله تعالى السَّائل والمسؤول، وصاحب المقام الذي هو للتَّزيل روض مطلول.

السَّيِّدُ النَّاصِر بنُ عَبْدِ القادِر[1]

مِنْ آل شمس الدين[2]، المعيدين للفخار والمُبْدين، كرم أصله فكرم فرعُه، ونظر إليه عدوّه شزراً لمَّا ضاق ذرعُه، لم يخل عن فائدة ترفع من ذكره، ولم يتعَطَّل عن معرفة تَسْتوجب مستدام شكره، وله في علم التاريخ يدٌ لم يصبها شَلل، ونسيم دراية لأذيالها بلل، وباع غير قاصرٍ، فله منه قوة وناصر، وهو لي صهر ونسب، ولي به علاقة فخار وحَسب، يُعَد لي تِرْبا، فكم قَضَّيْتُ أنا وإياه من اللَّذاتِ إرْبا، وقعدنا مقاماً على النّجوم أرْبى، مرَّت لنا أيَّامٌ حَلتَ، أعقبت الأسف عليها لما ارتحلت، يتأوّه على بياضها الكافور فيتنفَّس الصُّعَدا، ويَعم الآفاق بِطيبه حتى لا يقال[3] عنده: ما خَلا ومَا عدا، وليالٍ يتفَتَّت على سوادها المسك الفائح، ويبكي على انقضائها طيرُ الروض النائح، في رياضٍ كَأن أغصانها قدود، وورد ربيعها المطلول خدود، طالما أهدى لها الجوُّ درر الغمام، فأعْلنت بشكره على منابر الدّوح ألسنة الحَمَام، ونحن بالآداب نَتحدَّى، وقد جاوزنا في رسمها حدًّا، حتى قيل لقد خرس عندكم الطَّير الفصيح، وصمت من الحياء وطال ما كان في غصنه يصيح، بَكمْ بَكمْ، وستر وجهه من الأوراق بكُمّ، وريْعان الشَّباب نضر، ورَوْض الفُتُوَّة خَضِر، وطرف المَسَّرة قرير، وظبي الإنس غرير، ونهر الأفراح ذو خرير، ومجالس الاجتماع ذات منَّصة وسرير، فآهاً[4] لأيام الصّبا، وسُقياً لمراتع

---

(١) ترجمته في (نشر العرف: ٢/ ٧٧١) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) يعني أولاد شمس الدين بن أحمد بن يحيى من آل الحسن أئمة اليمن.

(٣) ساقط من (ز).

(٤) في (ز) فآهٍ.

الظِّبا، لا كهذا الوقت، الحقيق بالذَّم والمقت، الكثير الويل، الذي هو أقبح من منٍّ على نَيل[1]، وشعرُه أقل من هبَات البخيل، على أنه أحلى من ثمرات النخيل، كتبَ إلى بعض إخوته، قوله مِمَّا يدب شرابه على نشوته[2]:

تذكرت صفو العَيْش والبان والشَّعَبا ... ففاضت دموع العين من عارضي سكبا
وعاتبني ذاك العذول جَهَالةً ... فقلت له مهلاً رويدك لا عتبا
فقد علق القلب المتيم دُميةً ... يُخال سناها عند رؤيته الشهبا
ألا يا رسولي حيّ حَيَّ بثينةٍ ... وسلم على سكانِه ودع النَّصَبَا
وإن عزَّ وصلي صار وجدي كُثَيِّراً ... فما قاسَ قيس العامرية لي حُبًّا
ودع عنك ذكر العامرية واللِّوَى ... وذكر ظِباء الحيّ إذ وردت سِرْبَا
وعج يا رسولي نحو أحْبابنا الألى ... تناسوا وداداً بتّ في حفظه صبًّا
وإن جزت بالرَّبع اليماني فقل له ... (فديناك من ربعٍ وإن زدتنا كَرْبَا)
ففي الرَّبع أحباب لنا طال بعدهم ... عَسَى اللَّه بَعْد البُعد أن يجبر الخطبا
فقد طارت الأرواح شَوْقاً إلى اللقا ... فياليت شعري هل يعود النَّوى قربا
وكم فرَّج اللَّه المكاره بعد مَا ... يضيق الفتَى ذرعاً ويستصعب الصَّعبا
(ومن صحب الدّنيا طويلاً تقلَّبَت ... على عينِه حتى يرى صدقها كذبَا)

قوله: «وسلم على سكانه ودع النَّصبا» مقصوده فيه أنك تسلم على سكانه السَّلام المرفوع في إعرابه ليفيد الثُّبوت والاستمرار ودع النصب لأنه إنما يكون في الحال فقط إلاَّ أنه لم يؤدّ المعنى في البيت كما يريد، ولم يطاوعه الوزن لنظم ذلك العقد الفريد، وقد قصد أخذ بيت خليلنا الشَّيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى لما قال في بعض قصائده وقد تقَدّم ذكره:

واقر مَرْفوعاً سلامي لهُم ... ودع النَّصب تصب معنى خفيًّا

---

(١) من الأمثال. انظره في (المستقصى: ١/ ٢٧٧ ومجمع الأمثال: ٢/ ٦٣).

(٢) في (النشر: ٢/ ٧٧١).

أخوه إسماعيل بن عبْد القَادر(١)

ألطف من نسيم السّحر وأرق، وألذّ من حديثها على محبٍّ نادمه قلقٌ وأرق، شمائله(٢) كأنها الخمرة، وفكرته كأنها الجمرة، إذا ولج الشّعر الحسن منه السّمع، ذَابَ ذوبان الفؤاد وسال سيلان الدَّمع، كنت أراه يتمايل لسماع الأدب عن هزّته، ما لا يتمايل الغُصْن من النَّسيم إذا بَشَّرته بالقطر بعد عِزَّتِه، ولَمَّا ذهب بعد موت أبيه منهم الملك، جرت به في بحار الافتقار الفلك، وانطمس الإجلال والتكريم، وذهب الإعظام والتَّفخيم، ونقصت حالته نقص المنادى بالترخيم(٢) فجعل يضرب في الأرض، ويذرع طولها والعرض، وقد ضَاق به من الأيام مَجَالُهَا، وَسُلِبت عن غادة أوقاتِه قَلاَئِدُها وحجالُهَا، وَوَصل إلى مواهب الكريم وأنا بها(٣)، تريد آماله نجاح مقصدها ومطلَبها، ومدح الإمام(٤) بقصيدة أملاها وأنا حاضِر، ومَدَّ يده لجنى الثمار من روضه النَّاضر، وكنت ممن أعان في نجاح أمله فلم يخبْ، وقد سَفَر له بدر إسعاف لم يغبْ، فنال ما أمَّلَه، وظَفِر بما أمَّ له، ولما ذهب عنه النحس وجاءه السّعد وزَمْجر له من خلال سحائِب الإقبال أي رعد، رجع إلى كوكبان مسروراً، ونَقَع من موارده فؤاداً محروراً، ولم يلبث إلاَّ يسيراً، وإذا حَادي الموت يحثه مسيراً، فخرج في بعض المواكب بحصانِه، وكرَّبه كرَّة أنْزل الحزن لأجلها بحصَانِه(٥) وأجهده حتى كبا كبوة عظم وقعها، وثار في الجوِّ بالهلاك المُبرِّح نَقْعُها، فانكسر زنده، وخَبأ من الحياة زَنْدَه، وفت الحِمَام في عَضُده، وقَرَّبه الأجل لملْحده، لمَّا وقع على جَنْبه موجعاً، ولم يُمَهَّد له قبل نوْمه مضجعاً، فمات ولُحِد، وله فَضْل ما جُحِد، وشعره مما يميد له قَدّ اليراع ويميل، وبنات فكره

---

(١) في (ب) سائله وكذا في (ش).

(٢) يحذف آخر المنادى للتخفيف أو للضرورة الشعرية وهو ما سمي بالترخيم، كقولك: «يا عام لا تعاشر السفهاء» أي يا عامر منادى مرخم حذف منه الراء وهو اسم علم معرفة.

(٣) أي والمؤلف بها والمواهب سبق ذكرها.

(٤) هو صاحب المواهب الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن (سبق).

(٥) امرأته، يقال امرأة حصان: أي عفيفة أو متزوجة.

تسفر تحت براقِع المداد بوجه جميل، ولما مدح الإمام وأهدى له من نظمه أزهار الكمام، توسّل بي في نجاح أربه، فَكُنت ممن سقاه بعد حنظل الإياس حُلو ضَرَبهِ، وفي ذلك كتب إلي من نظمه مُتوسّلاً، وخاطبني بشعرٍ بعد أن خاطبني بنثره مترسِّلاً، وهو قوله:

أمولاي قاضي المكرمات خطيبها ... فكم تحته بالوعظ قد مال مِنبرُ
ويا واحة الآداب أن زان عقدها ... على عُنُق الأيام دُرٌ وجوهرُ
أعِنّي بجاهٍ في بلوغ مقاصدي ... فجاهك مشهور وقدرك أكْبَرُ
وَعَرّف أمير المؤمنين بحاجتي ... فكم فاز منه بالمآرب مُعْسِرُ
وحقق لمولاي الوجيه فإنَّه ... غمام نوالٍ في البريَّة مُمْطِرُ
ولا زلت في ذا الدهر صدر الأهلة ... بسعيك ذو قصدٍ بما رام يُصدر
ودمت عظيماً كل[1] قرن وإن علا ... لديه احتشاماً بالتواضع يَصْغر
يُنِير به كرسيّ مُلكٍ وتَخْتَه ... ويسطع بالآراءِ منه ويَزْهَرُ

ولما استعار منّي كتابي المسمَّى «سُلافة العاصرِ»[2]، طالعه وأحاط بما لديه من الفوائدِ العلمية والأدبية خُبراً وارجعه، وكتب إليَّ من نظمه قوله:

كاس لفظٍ قد دار لي بسلافه ... نعَشت من محبّكم أعطافَه
أم هو الرَّوض قد تدَلَّى علينا ... فاعتمدنا جناه وقِطافَه
قد جَنَيْنَا منه الثمار تدلَّت ... في غصون ما بين زَهْر اللَّطافَة
أم هو الدّر يا شهاب المعالي ... منك في السمط قد أجدت ارتصافه
قد خلطت العلوم بالأدب الغضّ ... وأمليت باللآلىء صحافه
منه أحييت حين شَمَّرت ميتاً ... وتلافيت في الزَّمان تلافه

---

(١) في (ب) و(ش) قل.

(٢) كتاب «سلافة العاصر في شرح بديعية الحسين بن عبد القادر» من كتب المؤلف الأدبية القيمة، منه مخطوطة بالمتحف البريطاني.

كل من رام أن يجاريك في الفَضْلِ (م) أجبناه خلّ عنك السَّخافَه
أين منك النّجوم أم أين منك الـ ... بدر أبْدأ في أوْجِه إنْصافه
دُمت بيتاً للعلم في كل حينٍ ... حوله قاصدٌ يُديم طوافه

فأجَبتُه بقولي:

أعيون المهاة ذات الظّرافه ... بين جسر النقا وبين الرُّصافَه
أم هي الخود بعد طول تجافِ ... قد أزاحت من الحجاب سجافَه
وأرتنا من خَضرها فوق ردفٍ ... غاية اللطف في تناهي الكثافَة
عُرِفت بانجرار شعرٍ أضافتـ ... ـه إليها فعرفتْ بالإضافَة
أم خدود من الورود عليهَا ... أدمع السّحب لم تزل وَكّافَه
لا ولكنها معانٍ من القو ... ل أتتنا تجر ذيل اللّطافَه
من نظام غدا على الدُّر والتبـ ... ـر لفرط الهوان في القَدّ رافه
قد أتى بالعُجاب منه يراع ... مَلك القلب واسترق شغافَه
قلم لم يزل على الطِّرس يبدي ... بدم الحبر عن سواد رعافه
دام من رصّف اللآلىء منه ... وكفاه الإله كل مخافة

ولد أخيه السيد يحيى بن الحسين بن عبد القادر[1]

ثمرة من شجرة طيِّبة، وقطرة من مطرة صَيِّبة، كان ذا صلاح بين النّاس، فكم أبدل الوحشة بالإيناس، يجمع بين الأنداد، ويلمّ أشتات الأضداد، يؤلّف بين الماء واللَّهب، ويباشر النّحاس بكيميا سياسَتِه فإذا هو ذَهَب، يؤاخي بين اليعفور[2] والأسد، ويستل السخيمة من أعماق الجَسَد، حتى يعيد البغض وُدّاً، ويرجع الجِزْع عِقداً، ويختلس من الصَّدر وغراً وحِقْدَا، إذا تَولّى عِقْدَ شيءٍ أحكمه، وإذا نطق بمجلس فصيح أبكمه، وكان ذا لهج بحفظ أيام العرب، فكم أطلع منها في أفقه

(١) ترجمته في (نشر العرف ٢/ ٨٥٣) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) اليعفور: هو ظبي بلون التراب.

نجماً ثابتاً ما غَرب، يحفظ أمثالها وأشعارَها، ويُغْلي في أسواق الاجتماع أسْعارَها، ويرفع من لهب نيرانها عَلَما أحمر إذ يعتمد إسْعَارها، [وَكُنَّا نؤمل لعِمره امتداداً، لأنه كان معدوداً للمهمات][1] إذ قل غيره به اعتداداً، حتى اعتدى عليه الزَّمن الخؤون وكان ذلك الاعتداء داء، وطالما زاد طَمعنا فيه، أن يسلك سبيل والده ويقتفيه، فيملك رئاسة القلم، ويشابهه في الأدبَ ومن شابَه أباه فما ظَلَم، فما تَمَّ ذلك الطمع، لما شرى برق حَتْفه وَلَمَع، ووقع عليه قَطْر الإستسقاء وهَمَع، ونصب له الموت شراكَه، وهصر من واديه الخصيب بانه وأراكه، وأولاَه الهُمُود في الجدث لمَّا سَلَبَهَ حَرَاكَه، فامتد في أفقه من الاستسقاء عارضُه، وأمطر الدّموع إشفاقاً عليه فذوَى بها مِن نباتِه بارِضُه[2] فمات ولُمُته سَوْداً، ولم يخضب كافور المَشِيب له فَوْداً، وشِعْرُه قليل جداً، وبحر عروضه لم يألف جزراً ومَدًا، أنشَدَني من لفظه لنفسه قوله من أبيات:

بـرزت كـشـمـس الأفـق إلاّ أنـهـا ... سـتـرت بـطـرتـهـا شـعـاع جـمـالِـهـا
بـدويـة سـبـت الـعـقـول بـأسـرهـا ... فتـنـنـت لـواحـظـنـا بـطـيـف خَـيَـالِـهَـا
كـم لائـمٍ قـد لامـنـي فـي حـبّـهـا ... حـتـى تـولّـع قـلـبـه بـوصـالـهـا
لـو أنـهـا نـزلـت بـأرض كُـثـيّـرٍ ... لـم يـسـبـه مـن عَـزّ حـسـن دلالَـهـا
كـلاّ ولا نـظـم الـقـريـض تـغـزلا ... فـيـهـا ولـم يـثـمـل[3] لـذكـر خِـصـالـهـا

وقوله أبيات:

قـلـبـي مـن الـشـادن الـبرّي قـد نـصـبـا ... لـمـا تَـولّـى ثـوى فـي الـقـلـب مـا صـعـبـا
نـثـرت درّ دمـوعـي فـيـه مـنـتـظـمـاً ... تـرى لـديـه عـقـود الـجـيـد مـخـشـلـبـا[4]
قد فارق القلب جسمي في هواه وكم ... قـلـبٍ عـلـى رمـح قـدٍّ مـنـه قـد صُـلِـبَـا

---

(١) ساقط من (ز).
(٢) البارض: أول ما تخرج الأرض من نبت قبل أن تتبيّن أجناسه، ونبت الأرض، يقال طلعت الأرض بأرضها أي نبتها.
(٣) في (ب) و(س) يمثل والإصلاح من (ز) والنشر.
(٤) المخشلب: الجزع والردي من الجواهر.

كم ليلةٍ بتُّ أرعى النجم من قلق والقلب يخفق حتى غاب واحتجبا

قوله: «وكم قلب على رمح قدٌ منه قد صُلِبَا»، هذا تخيل لطيف يذوقه أرباب الأدب ونُقَّاد الألفاظ.

وقد أتَى لي في كلامٍ منثور ذلك لما قلت:

كلفت بحبّ قاسي الفؤاد، يترك جَمر القلب مضطرم الزّناد، فهو غصنٌ ولكن لا ينعطف، وظبي ولكن لا يلتفت إلى من به شُغِف، أحرق القلب بهواه، وجَرَّعه علقم بعده ونَوَاه، هو من مهاده في مَعَرَّة، يبيت لفقد المنام يرعَى النجوم ويرد نهر المجره، وكم يذنب في هواه ذنباً يفضي إلى حده، فكم عامله معاملة المذنب حتّى صلبه على عامل قدّه انتهى.

عَمنَا ذُو الوزَارَتين أبو الفضل القاضي الخَطيب عماد الدين يحيى بن الحسن الحيمي(١)

كامِلٌ وَزير، جليس للعلياء وَزيرِ، ذو آراءٍ تُقْضَى بها المغارم، لو طبعت لما كانت إلاّ صوارم، فرايُه الأجل، أمضَى من السيف والأَجَل، كان للدنيا جمالاً، وللمسنتين في الشدة ثِمَالا، فهو عمادٌ لهم وأي عماد، يغشون إلى ضوء ناره لأنه وافر الفحم(٢) كثير الرّماد، واحد الضِّيافَة فطالما أشعل لها نارَه، وثاني الغيث في الإنالة، وثالث النَّيرين في الإنارة، ينقذ المقترين من الفجائع، ويود لو أنه ينزل بناديه في كل يوم ألفُ جائع، سهلت حزونه، وَتَبَجّست بالجود عيُونه، ذو طلاقة ونَدى، وقد غدا على سجيّة يفوز بها غدا، فله من النَّوال أوفَرُه، وله ربيع أفضالٍ وهو أبو الفضل تدفّق جعفره، ومِسْك صيتٍ بالمكارم تَضَوَّعَ أذفره، يطعن بيراعه من العدا نحورا، ويقذفهم بمعروفه من كل جانب دحورا، فالقلم في النوال رمحٌ

---

(١) ترجمته في (النشر ٢/٨٣٦) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) في (ز) الجم.

مبنَّد، والمعروف كما قيل جند مجند، خطيب ذلق، ذو جوادٍ في الوعظ منطلق، ولي الخِطَابة قَبْل أن ألِيْها أنا، فمالت به أخشاب المنبر مَيلان الأغصان والقنا، حَتَّى حُسِدت أعواده الشاحبة، غصونٌ رطيبة هي لذيول أوراقها ساحبة، ووَدَّت بأن تكون تحت أقدامه، ولا تكون تحت سواجع الرَّوض من حَمامِه، ورغبت في القرب منه على الظَّمأ مفارقة للنُّهور، ورَضيت بالعَطلِ متجّردة عن حلل الأوراق وقَلائِد الزّهور، طاب في الخِطَابة سنيُّ خَبرِه ومِخْبَره، فكان إذا رَقَي يوم العُرُوبة[١] درجات مِنْبَره، كأنما صعد إلى الأفلاك، ليتناول شهبها فَيَنظمها من سطور مواعظه في الأسلاك، وله في العلم مَشْرَب، منال زُحَلِ من منالِهِ فيه أقرب، سيما في العروض، فما أدركه[٢] من لجواده يروض، لأنه فيه ذو دائرة[٣] قد اتسعت، وقدم في المجرى[٤] ذات سَبَبٍ خَفيف لمَّا سعت، فهو الغاية وعليه الاعتماد، وكل بيت بالوزن قام عليه لأنه العماد[٥] وهو فيه الصحَّيح[٦] والسَّالم بوتده[٧] المجموع،

---

(١) يوم العروبة: هو يوم الجمعة، قيل أول من سماها جمعة كعب بن لؤي.

(٢) في (ز) أدكه.

(٣) الدائرة عند العروضيين: خطوط مستديرة كالحلقة ترسم في داخلها الأبحر وعلى محيطها علامات الحروف المتحركة والساكنة من أبيات تلك الأبحر، فعلامة المتحرك دائرة صغيرة وعلامة الساكن خط صغير مستقيم، وهذه الدوائر خمس إحداها تشتمل من الأبحر على الطويل والمديد والبسيط ويقال لها دائرة المختلف، والثانية تشتمل على الوافر والكامل ويقال لها دائرة المؤتلف، والثالثة تشتمل على الهزج والرجز والرمل ويقال لها دائرة المشتبه، والرابعة تشتمل على السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث ويقال لها دائرة المجتلب، والخامسة تشتمل على المتقارب والمتدارك ويقال لها دائرة المتفق.

(٤) المجرى عند العروضيين: حركة الروي كضمة الميم من قول الشاعر:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلّ والحرم

(٥) العماد: لقب لكل من يتسمّى بيحيى عند أهل اليمن.

(٦) الصحيح عند العروضين هو الجزء الذي لم يدخله زحاف أو علة.

(٧) الوتد: عند أهل العروض منه مجموع وهو ما كان على ثلاثة أحرف متحركين فساكن كعلى ولقد، ومنه مفروق وهو ما كان على ثلاثة أحرف متحرك فساكن نحو قال وكيف.

وشانيه الأبتر[١] المنهوك [٢] المنقوص[٣] المقطوع[٤] فلو أدركه الخليل[٥] لغدا منه كليماً، ولذاق من الحَسَد له عذاباً أليماً، قرأ فَسبق الأقران، على أخيه الذي حُفَّ بالغفران. وكان ذا حذاقة وفطانَة، اتخذهما لكماله بطانَة، ينفذ حَدَسه في الغوامض فلا يخطىء، ويسْرع في الخفيّات فلا يبطىء، ما ظن شيئاً إلا كان يقيناً، ولا لبسنا درع رأيه إلاّ كان من سهام المصائب يقينا، أنفذ من سهام ذات نِصَال، يوصلنا إلى مالا إليه - لولا رأيه - نَصَال، ما إياس ذكاء وعلما، وما الأحنف صبراً وحلْما، فهو ذو حلمٍ أصم، واحتمال به اعتصم، وَعَطَف وصَفَح، فلمسك حنوه تضوع ونفح، وحزم هو بمثابة الحلي من العَطَل، ورأي لا يقارنه الخطأ والخَطَل:

ويعرف الأمر قبل موقِعِه　　　فماله بعد فعله ندم

فهو أحزم من الحربا[٦] فكم نال بحرمه من الزمن إرْبا، وأدبه عن الحسن لا يخلو، وشعره كلما مرَّ في الأفواه يحلو، قال في عروض قصيده صُرّ دُرّ[٧] التي عند حلاوتها سُكّر الأهواز مُرّ:

بان الخليط فسال ماء شؤوني　　　وازداد وجدي في الهوى وحنيني
وتصعّدت زَفَرَات نفسٍ لم تزل　　　مأسورة بِظُبُا الظَّبَاءِ العِيْنِ

---

(١) الأبتر: عند العروضين البيت الذي دخله بتر.

(٢) المنهوك من النهك وهو عند أهل العروض حذف ثلثي البيت في بحر الرجز فالجزء الأخير أو ما بقي بعده يُسَمَّى منهوكاً.

(٣) المنقوص عند العروضين: هو البيت الذي دخله النّقص.

(٤) المقطوع عند العروضين الجزء الذي دخله القطع.

(٥) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي شيخ اللغة والعروض، وفاته سنة (١٧٥).

(٦) من الأمثال، أورده في (المستقصى ١/ ٦٥) قال: لأنه لا يرسل ساق شجره حتى يمسك بأخرى.

(٧) هو أبو منصور علي بن الحسن بن الفضل شاعر مدح الخليفة القائم توفي سنة (٤٦٥) (وفيات الأعيان ١/ ٣٥٩ والأعلام: ٤/ ٢٧٢) وقصيدته المشار إليها أولها:

أكذا يجازى ود كل قرين　　　أم هذه شيم الظباء العين

انظرها في ديوانه (٥٣ - ٥٦).

تَضبو إلى ثاني المعاطف ثالث الـ | قمرين مستغنٍ عن التَّحسينِ
ريم رَمى لمَّا دنا بلحاظِه | فأصاب مهجة مغرمٍ مفتونِ
رضوان حسنٍ مذ غدا لي مالكاً | أيقنت أني في عذاب الهُونِ
في خَدِّه خالٌ يخال سوادُهُ | مسكاً به يعلو على نِسْرينِ
وبميم مبسمه مُدَامٌ قَرقَفٌ | لا كالمُدام وكابنة الزَّرجون
من نون حاجِبِه وسين جبِيْنه | ما زلت أقرأ نون مع ياسين
إن قلت صلني صال جيش تغضبٍ | منه وصار مغاضباً ذو النونِ
كم صرت أشكو منه لما طالما | أجرى رقيق الدَّمع ذا تلوينِ
يا أهل وجرة[1] إن زخرف حسنكم | بالصدِّ أجرى مرسلات شُؤوني
للَّه ما صَنَعت لحاظ مَهَاتكم | في قلب كل مولَّهٍ محزون
ما كنت أحسب أن خشفاً سانحاً | من قبلها يَسْطو بليث عرين
أو أن بَدْراً طالعاً من تَختِه | غصن يميل على نقا يَبْرين
منوا عليّ بزورة أحيا بها | كرماً وفكُّو في الغرام رهون
فأنا العميد بكم وقلبي عندكم | يروي حديث صبابتي وشجوني
هَيْهات ما قَيس يقاس بحبّه | حُبِّي وليس جنونه كجنوني
فَمن المعيد عليَّ فضلة مهجةٍ | ذابَت أسى في سَاكني جَيْرونِ
ما زال منها الحال ينشد معلناً | أكذا يُجازَي وُدّ كلّ قرينِ

مطلعها كقول الأمير منجك الجركسي[2] رحمه الله تعالى في مطلع بعض قصائده[3]:

---

(١) وجرة: منزل من طريق مكة من البصرة بينه وبين البصرة أربعون ميلاً.

(٢) هو منجك بن محمد بن أبي بكر اليوسفي أكبر شعراء عصره من بيت إمارة توفي سنة (١٠٨٠ هـ). (خلاصة الأثر ٤/٤٠٩ وريحانة الألبا ١/٢٣٢ وسلافة العصر ٣٦٩).

(٣) انظرها في (ديوانه ٣٢ وريحانة الألبا ١/٢٣٦).

بان الخليط ضحى عن الجرعاءِ فمن المقيم لِشِدَّةٍ وعناءِ

والأصل قول ابن السراج القاري[1] مما أورده له ابن خلكان[2] في تاريخه المشهور:

بان الخليط فأدمعي وجداً عليه وتستهلُّ
وحَدا بهم حادي المطيّ[3] عن المنازل فاستقلوا

قوله: «ما كنت أحسب» البيت مثله قول التلعفري[4] رحمه الله تعالى:

ما كنت قبل لحاظ طرفك مثبتاً أن الظباء تصيد آساد الشَّرَى

وقول ابن لؤلؤ الذّهبي[5] رحمه الله:

وما كنت أدري أن غزلان حاجرٍ على كل ليث من ليوث الشَّرى تسطو

وكتبَ إلى صاحب الترجمة المولى الحسين بن عبد القادر رحمهما الله تعالى من مُخَيَّم الجهاد، الذي سقي من دم الأعداء بهامع العهاد، يُعاتبه على ترك المعاهدة في الرِّق، وهو إذاك بجهات المشرق، وقد طلع فيه بدره المُشْرِق قوله:

بصليل السيوف في الأعناق وصهيل المطهّمات العتاقِ
ما الذي أوجب الجفا يا أبا الفضل وقلَّ الوفا على الإطلاق
ألِعِزِّ المداد عَزَّ كتاب أم لِقِلِّ الأقلام والأوراق
لا كتاب ولا رسول ولا ردّ سلام من عهد يوم الفراق

---

(١) هو جعفر بن أحمد بن الحسين بن السراج القاري، أديب له «مصارع العشاق» توفي سنة (٥٠٠ هـ)، (وفيات الأعيان ١/ ٣٥٧) ط إحسان عباس.

(٢) (وفيات الأعيان ١/ ٣٥٧).

(٣) الوفيات: الفراق.

(٤) هو شهاب الدين محمد بن يوسف التلعفري نسبته إلى تل أعفر بين سنجار والموصل، شاعر أديب، له ديوان شعر، وفاته سنة (٦٧٥ هـ). (فوات الوفيات ٢/ ٢٧٧ والأعلام ٧/ ١٥١).

(٥) هو يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله الذّهبي عرف ببدر الدين من شعراء الدولة الناصرية بدمشق. له مقطعات طريفة، توفي سنة (٦٨٠ هـ) (الأعلام ٨/ ٢٤٦).

يا لها من إساءةٍ من صديق بلغت عندها النفوس التراقي

فأجابه بقوله:

لا تسل عن مودتي واشتياقي ونحولي لهول هذا الفراق
وغرامي الذي له كل يومٍ نار شوق قد آذنت باحتراق
وحديث الهوى الذي قد روته مرسلات من دمعه المهراق
ووداد قد صَحّ من كل شين وولاءٍ مؤكّد باتفاقِ
وغريم ملازم من غرامٍ لمعنّى في الصبر ذي إملاق
وعهود ما شانها قط مَيْنٌ وزمان قد مَرّ حلو المذاق
واذّكارٍ لمن نأى وهو دانٍ غير ناءٍ من قَلْبي الخفّاق
وأعد ذكرَ سادَةٍ قد أناخوا جَيْش عتبٍ في مهرق الأوراق
ضَمَّنوا نظمهم عتاباً لطيفاً فهو كالعقد راقياً في التراقي
يا بروحي ذاك النّظام وأفدي مرسِل العَتْب في المعاني الرقاق
شرف المكرمات من شرف اللّه (م) معاليه دائماً عن محاق
ماجدٌ أروع زكي ذكي طَيّب الخِيْم زاكي الأعراق
قد قَضَى اللّه أن يسود وأن يَصْعد (م) في المَجْدِ دائم الإطلاق
دام فينا مؤيّداً ما تغَنَّت فوق فَرْعٍ بديعة الأطواق

وله في رجل مسود الأديم، هو لبعض الحسان جليس ونديم:

أمسْوَدَّ الأديم لحاك ربي لقد أبدَيْتَ لي شيئاً عجابا
جنحت إلى الغزال فليت تدري بأن الرّيم لا يهوى الغُرابَا

وقد أذكرني هذا بقول الشيخ جمال الدين ابن نباتة المصري رحمه الله في بعض قصائِده[1]:

---

(١) (ديوانه ٢٨).

فقدت الهوى لما فَقَدْت شبيبتي وأوجع مفقود هوى وشبابُ
وكان يصيد الظَّبي فاحم لمتي وأغرب مَا صاد الظبَاء غرابُ

وله وفيه التَّورية:

أنا صبّ متيم فيك يا من قلت سَقياً للقرب منه وَرِغيا
متُّ شوقاً فجُد بوصلك فضلاً وامتناناً لرق حُبّك يَحْيى

ومثله قول بعض الأدباء:

يا من كسَتْه البدور حسناً إليك تَسْعى القلوب سعيا
قد مات قلب المحب وَجْداً زره بحق الإمام يحيَى

وقال آخر في مليح اسمه يحيَى:

يا لائمي في هَوى مليح تَسْعى إليه القلوب سعيا
مُتْ فيه غيظاً وخلّ قلبي في عشق هذا المليح يحيَى

وله يستنجز وعداً من بعض مشايخه بالقراءة في الخبيصي[1]:

تَمّم الوعد بالقراءة يا من جَاد فَضْلاً ولم يكن بحريصِ
أنا قد ذقت بالجهالة مُرّاً فأذقني حلاوةَ للخبيصي

المراد بالخبيصي هنا هو كتاب «الموشح على كافية الشيخ ابن الحاجب» رضي الله عنه، وهو مشهور، ومؤلفه كما قال الشيخ الإمام العلامة لطف الله بن محمد الغياث عليه السلام: هو محمد بن أبي بكر الخبيصي الكرماني، قال: ويؤيد ذلك ما ذكره في القاموس أن الخبيص[2] قرية بين فارس وكرمان. انتهى كلامه رحمه الله تعالى. وفي هذا النَّظم التورية لأنَّ الخبيصي شيء من المأكول[3] حلو،

---

(١) اسم كتاب في النحو ينسب إلى مؤلفه الخبيصي سبق ذكره مراراً وسيأتي شرحه للمؤلف.

(٢) قال في المراصد: مدينة بكرمان ذات حصن وبهاتمور. وفي (أحسن التقاسيم ٣٤٨): «مدينة عليها حصن بأربعة أبواب، جيدة التمور، الجامع وسط البلد، شربهم من قنى ونهر، ومدنها على تخوم المفازة وهن عامرات».

(٣) الخبيص: نوع من الحلاوات تعمله العرب من التمر والسمن وهو مأخوذ من الخبص بمعنى

وقد رشّح للتَّورية بقوله: «مُرًّا»، وهذا المعنى بهذه التَّورية قد طرقه كثير من الأدباء قال بعضهم:

حرصت على الفوائد طول عمري ... فنلتُ فوائِد الرجل الحريص
وذُقْتُ حلاوة الآداب طُرّاً ... فلا شيء ألذ من الخبيصي

وقال السَّيد ضياء الدِّين إسماعيل بن إبراهيم الجحّافي الآتي ذكره رحمه الله تعالى:

إن تجد من مسائل النحو مُرّاً ... فأزل ما تجد بطعم الخبيصي

وقال القاضي العلامة جمال الدين محمد بن إبراهيم السحولي الخطيب رضي الله عنه الآتي ذكره أيضاً، وقد ألجأته الحاجة إلى بيع كتاب الخبيصي المذكور:

فارقته واحتياجي ... إليه مثل قميصي
على سواه فؤادي ... ما عشت غير حريصِ
لكنني لم أجد عن ... فراقه من محيصِ
فمرَّ حالي لمَّا ... أن مرَّ وهو خبيصي

وقال السيد عبد الله بن علي الوزير فسح الله تعالى في أجله[1]:

بيع الخبيصي عندي ... مُعَلَّقٌ بالمُحَال
أبيعه وهو حُلْوٌ ... باللَّه دَعني وحالي

ولما توفي صاحب الترجمة المرحوم، لا زال طير الغفران على مرقده يحوم، وتزلزلت أكوان لمصرعه وأزجَا، وصِرت أطمع النَّاس في الثَّواب بعده وأرجا، لأني أصبت ما لا يصاب به غيري، ووقع في شباك الحزن العظيم به طيري، فَرثَيْته بمرثبة أرق من الدَّمع، وبكيته بها فأبكيت الجم من الجمع، وشققت بها القلب الكئيب قبل ولوجها في السَّمع، منها قولي:

الخلط. وفي فضالة الخوان (٧٣) يصنع من القمح والسمن.

(١) سيأتي، وكتابة المؤلف لكتابه هذا سنة (١١٤٤ هـ) أي قبل وفاة المذكور بثلاث سنوات.

أنار جحيم فيَّ أم مهجة حَرَّى وبحر خضم حال أم مقلة عبرا
ولكن عهدي النار والبحر دون ما أرى من فؤادي والدموع التي تَتْرى
أمن بعد رزءٍ جل أبخل بالبكا أبى اللّه إلاّ أن أنُظِّمه دُرًّا
فقد حجب التّرب الكثيف عمادنا وغيّب غَرْب اللّحد من وجهه بدراً
أبا الفَضْل يحيى جعفر الجود والنَّدى أنامله في البِرّ قد حكت البحرا
إذا جاءه المسكين يسرع حافياً لنيل نوالٍ منه زاد به بشْرَى
وإن قطع القفر المهامه مملقٌ إلى سوحه قصداً فقد قطع الفقرا
فتى حاز أسباب الرياسة والعُلَى وفي عمره نال الوزارة لا الوِزْرا
ومنطقه أزرى بكل يتيمةٍ من الدرّ لما شطَّ من أزره أزرَا

منها:

عماد الهُدَى أوحشت للفضل مربعًا وخلفته من بعد تأنيسه قَفْرا
وخلفت أعواد المنابر كلها ثكالى وأبكيت المناقب والفَخْرا
أذاك لذنبٍ قد جنته فهب لنا كما ألفت من طبعك الصَّفح والغُفْرا
وإن كان هذا حكم ربك في الورى فحمداً على السرَّا وحمداً على الضَّرَّا
ولو كان أمر الموت أمراً لغيره رددناه لا نخشى عواقبه قسْرا
ودونك حطَّمنا القنا السمر خِيْفة عليك وأعدمنا المشَطَّبة البترا
وخضنا عباباً بات يطفو من الردى ولم نخش من جيش الحِمَام إذا كرًّا
فنحن بنو عزمٍ إلى الشر إن دعا يزيدهم التَّحذير عن سَعْيهم إغرا
إذا برزوا للحرب فوق جِيَادهم فما أكثر القَتْلى وما أرخص الأسرا
لقد كنت سبَّاقاً إلى كل غاية يحاول مرقاها بنو آدم طرًّا
ولم تقتنع حتى سبقت إلى الرّدى وغير جوادٍ من تأخر في المسْرى
وخوض المنايا مَوْرد الخلق عن يد سيتبع منهم من تأخَّر من مرًّا
فلولا التّأسي في الأسى كاد مدمعي وقد سال منه القطر إن يعرف القطرا
ولا زال من سحب السماء ثقيلها يجود على ترب سكنت به قطرا

يزور ضريحاً قد ثويت بقعره إلى أن ترى من بَعد ذا الموقف الحشرا[1]
وعادتك من مَنَ الإله تحيّةٌ يضيع لديها المسك مذ ضوّعت نشرا

وَلَدُهُ صنْوُنا القَاضي علي بن يَحيَى الحيمي

فرع أصلٍ كريم، وخاطب علياء كريم، ظَهر مجدُه، وارتفع نجدُه، فمقامُه كاسمه علي، ونصّ فضله لا محالة جلي، ذو مقام في المروة نبيه، وسجية يعزّ لها النَّظير والشبيه، فطالما نزل بداره الوفد لأنه كثير الرَّماد كأبيه، يرفع نار القرى على القُلل، وينصب منها أعلامه الحمر بلا ملل، فمنْ أمّه فقد أمّ حاتما، ولاقى لأبوابه وللكرام منه فاتحاً خاتما، ووطّأ لما يَنْحره من ساحتِه مَراق الدِّما، مع حلم أحنفي، هَيْهات بأنَّا في وَصْفهِ نَفي، يمْلك به غيْظَه، وينزل منه في غَيْضَه، وله بجمع دواوين الشِّعر لهج، وبِقَلْبِه إلى تحصيلها نار تشتعل ذات وهج، فعنده منها ما لم يكن عند غيره، يشدو بمعانيها على غصون الأقلام ساجع طيره، وله ارتياحٌ مًا إلى شعر أبي الطَّيب، وسوق من بنات أفكاره إلى اجتلاء البِكر والثّيب، طالما عكف على ديوانِه، وأكل في كل وقتٍ من أطايب خُوَانِه، وكذا نظم خليلنَا إبراهيم بن صالح الهندي، فإنه عنده يوازي في الشغف به ما قاله الكنِدي[2]، وما برح بكوكبان كوْكباً، حتى عثر جواد عمره لمَّا كَبَا، فمات وسَلك طريقه، وترك الأعين من بعده في لجّ دمعها غَرِيْقة، طافت الرَّحمة بأركان قَبْرِه، واستدرك الرِّضوان كسره بجبْره، ما نثرت لآلىء القَطر من الغُيُوم، والتقط غَوَّاص الصبح من بحر اللَّيل جواهر النُّجوم، وشعره ذو محاسن مُخلَّده، عندها أذهان الأذكياء مبلدة، منه قوله:

للّه سفح شبام ما ألذّ به روض الزهور وقد هبّت نسيم صبَا
أنظر إلى النّهر فيه كاللُّجيْن غدا وذا الأصيل عليه قد جرى ذهَبَا

وقوله في التَّورية:

---

(١) في (ز): إلى أن نرى من ذا الموقف الحشرا.

(٢) يعني المتنبي.

طلا شِفاناً قد جرى دونها خَمْرٌ به يسكَرُ كُلُّ المَلاَ
قلت له إذ راق لي ريقه: يا ريم ما أحسن هذا الطلا

قلت: في هذا التَّورية الظاهرة، وفيه أيضاً ما لم يقصده ولم يرده وهو الجناس المعنوي، ذكره جماعة من علماء البديع، والمؤلِّفين، ومنهم من سَمَّاه تجنيس الإشارة وحقيقته أن تكون إحدى الكلمتين دالة على الجناس مَعناها دون لفظها وسبب استعمال هذا النَّوع أن يقصد[1] الشاعر المجانسة لفظاً فلا يوافقه الوزن على الإتيان بالمُجَانِسِ فيعدل إلى مرادفه، كما عَدَل صاحب الترجمة رحمه الله تعالى إلى قوله: يا ريم، عن أن يقول: يا طلا بفتح الطاء وهو الظَّبي الصَّغير، فلو أنه قال كذلك لكان الجناس لفظياً بين الطَّلا بالفتح والطِّلا بالكسر، فلما لم يمكنه أن يقول كذلك طلباً لاستقامة وزن الشِّعر ونفوراً من زحاف البيت قال: «يا ريم» فكان الجناس مَعْنوياً وهذا النَّوع يأتي في النَّظم فقط لا في النثر، لأنه إنما يضطر الشاعر إلى أن يأتي بالمرادِف ملاحظة لصلاح وزن الشعر، وأما في النثر فلا وزن يضطر معه إلى ذلك، وله في أشعار القدماء شواهد كثيرة، منه قول امرأة من بني عقيل[2]:

فما مكثنا دام الجمال عليكما بثهلان إلا أن تشد الأباعِرُ

أرادت أن تقول: أن تشد الجمال، لتُجانِس بين الجَمال بالفتح والجِمال بالكسر، فلم يوافقها الوزن والقافية فعدلت إلى ما يرادف ذلك وهو لفظ الأباعر.

وقد أذكرني نظم صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى بقول صدر[3] الأفاضل القاضي صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى[4]:

---

(١) ساقط من (ز).

(٢) انظره في (جنان الجناس) للصفدي: ٨١ ط العلمية وجنى الجناس للسيوطي ٢٧٩، وخزانة ابن حجة ٤٢).

(٣) في (ب) و (ش) سطر على عادة نطق أهل صنعاء في إبدال الطاء دالاً.

(٤) انظر (خزانة الأدب: ٣٠٥).

كؤوس المُدام تحت الصفا ... فكن لتصاويرها مُبطلا
وَدَعها سواذج من نقشها ... فأحسن ما ذُهّبت بالطّلا

ومنه [أخذ] القاضي زين الدين بن الوردي رحمه الله قوله(١):

دع الكاس من نقشها ... فصافٍ بصافٍ أحب
إذا ذُهِّبت بالطّلا ... فقد طُليت بالذهب

وقول الصّلاح الصفدي أيضاً في مليح صائغ(٢):

كلفي بظبيٍ صائغ ... كالبدر في جوِّ السماء
سكر المحبّ بريقه ... وغدا يُمَوِّه بالطِّلاء

أقول: في هذا توريتان لطيفتان، التَّورية الأولى في قوله: «وغدا يُموّه» لأن التَّمويه الزَّخرفة، يقال موَّهت عليه الحديث أي زخرفته وجعلت له ماءً ونضارة، حتى قيل من موّه الحديد إذا طلاه بماء الذَّهب ليظن أنه ذهب، ثم صار مثلاً في كل تزوير، وهو تفعيل من الماء، ذكره بعضهم وقال أبو البقاء(٣): التمويه(٤) التَّحسين لما باطنه قبيح وأصله من الماءِ لأنه يُحسِّن كل شيء، فقد ظهرت لك التَّورية في التَّمويْه بما ذكرنا.

التَّورية الثانية: في قوله: «بالطِّلا» لأن الطلا بكسر الطاء المشدّدة هو طِلاء الشيء بغيره، كطلاء الحديد بالذَّهب وهو أيضاً اسم من أسماء الخمر، وقد رَشّح للتَّورية بقوله: «سكر المحبّ بريقه» كما هو ظاهر، إلاَّ أني أقول: لو نسب الفاضل الصفدي رحمه الله تعالى، التمويه بالطلاء إلى المليح الصائغ لكان أحسن من نسبته إلى المحبّ، لأن التَّمويه بالطلا من صنعة الصَّائغ فهو أولى به من المحب الذي

---

(١) البيتان في مطالع البدور ١ : ١٣٣.

(٢) (خزانة الأدب ٣٠٥).

(٣) هو أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، من علماء اللغة، وفاته سنة (١٠٩٤).

(٤) (الكليات: ٢/١٠٦).

ليس هو من صنعته، وقد استدركت أنا هذا العيب ونظمت في المعنى مقطوعاً أسلمته عن الانتقاد وزدته حُسْناً لما ذكرت أنه نشوان المعاطف كما تَرَى، فقلت في المليح الصَّائغ:

كلفت بنشوان المعاطف صائغ من الذّهب الإبريز أو دمعتي الحُلى
بريقته ما زال يسكر دائماً ولكنه فينا يُموِّه بالطِّلا

وليت الشيخ صلاح الدّين الصَّفدي رحمه الله تعالى في مقطوعه هذا قال:

كلفي بظبي صائِغٍ هيهات ما هو كالطَّلا
من ريقه قد مال عن سُكْر ومَوّه بالطِّلا

فإنه بذلك يتم له الجناس كما تَرَى ويستقيم المعنى بنسبة التَّمويه إلى المليح الصَّائِغ. وذكر الطّلا في البيت الأول بفتح الطَّاء الذي هو ولد الظبية أنسب بقوله «كلفي بظبي» من البدر الذي قال فيه «كالبدر في جوّ السَّما» وإن كان البدر أنسب من الطّلا الذي هو ولد الظَّبية بقوله: «كلفي» لأن الكلف من لازم البدر، وقد أخذ معنى مقطوع الصَّفدي هذا الشيخ عزّ الدّين الموصلي رحمه الله تعالى ومَوّه بأنه من مبتكراته فقال[١]:

لأن شبّه السَّاقي المُدام بعسجدٍ فقد مال بالتَّشبيه عن صيغة[٢] الأدب
ولكن رآها جوهراً سميت طلا فَمَوَّه لما حلت الكاس بالذّهب

قلت: هذا النظم عندي هو الذهب الناطق بالمحاسن، الذي ذاب من حسده جسد الذهب الصامت في بوتقة الصائغ، مع التمويه بالنار، انظر ما أحسن قوله، فقد مال بالتشبيه لأن ذِكْر التشبيه هنا من المناسب وكذلك قوله أيضاً: «عن صيغة الأدب» بالصاد المهملة والياء المثنية التحتية والغين المعجمة ففيه مناسَبة للمقام فإنَّ التَّشبيه في الصيغة عبارة عن الغش للذهب والفضة بالنّحاس ونحوه، ففي قوله

(١) البيتان في مطالع البدور للغزولي ١: ١٦٣.

(٢) مطالع البدور: صنعة.

بالتَّشبيه تورية يُرشح لأحد وجهيها قوله في أول البيت: لأن شَبّه، ويرشح للوجه الآخر فيها الذي هو بمعنى الغش. قوله: «فقد مال» لأن الغش ميل عن الفعل المحمود من الإخلاص إلى ما لا يحمد من الغش. وفي قوله «طلا» بكسر الطاء تورية يرشح لأحد وجهيها قوله في البيت الأول «المدام»، ويرشح للوجه الآخر قوله: «عن صيغة الأدب»، وفي قوله «ممّوه» تورية أيضاً يرشح لأحد وجهيها ذِكر العسجد الذي هو الذَّهب، ويرشح للوجه الآخر قوله «بالتَّشبيه» بمعنى الغش، لأن الغش زخرفة وتَزوير للمصاغ حتى يكون له نضارة يُقْبل معها لِيُظَنّ أنه خالص عن مخالطة الرَّديء. وفي قوله: «لَمَّا حلت الكاس بالذّهب» بالحاء المهملة تَوْرية أيضاً لأنه يصح أن يكون من الحلية ومن الحلول، وهو النزول بالمكان إلا أنه لو قال في البيت الأول:

وما شبَّه الساقي المُدَام بعسجدٍ لميلته في القول عن صيغة الأدب

لكان أحسن لأنه رحمه الله تعالى حكم في بيته بأن الساقي المُشَبِّه للمدام بالعَسْجد مال عن صيغة الأدب ومَوَّه بالذَّهب، ومن مال عن الصِّيغة ولم يحكمها كيف يحسن أن يموّه بالذَّهب، والتَّمويه إنما يحسن ممن مال إلى الصِّيغة لا ممن مال عنها، وهذه مناقضة ظاهرة، وتَصْويبنا عن هذا النَّقد بمعزل لأنَّا أثبتنا للسَّاقي صيغة الأدب فالتَّمويه خليق به كما يعرف ذلك مَن صاغ من معادن الانتقاد حُلَياً، وأيضاً فإنه قال «لأن شَبّه» وبينه وبين قوله «ولكن رآها» غاية النَّبوة والمنافرة بخلاف بَيْن قولنا «وما شبَّه» وبين قوله، ولكن بينهما غاية الاتفاق ونهاية الاتحاد والله أعلم.

ولما كتب إليّ صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى كتاباً يلومني فيه على ترك مكاتبته، ويذكر لي حركته إلى باب خليفة الزمان، ويسألني عن حالي وحال الإخوان، أجبته من المنثور بقولي: سلام على أخي وشقيقي، ومن حَديثُه المُسْكر رحيقي، سلام أرق من الحديقة منظراً، وقد فكَّكت يدُ النَّسيم من وردها أزراراً بِلا عُرَى، روضُه مُريع، وسيف نهْره للعدوّ مُرِيْع، وعليه من الله رحْمة عميمة، وإكرام

يستطيب شَمِيمه، ما وردت حروف خطَابه فَسرَّتْ، ومَرّتْ ألفاظُه بسمع أخيه فحلّت عندما مَرّت، هذا وإنه وافاني مكتوبه العالي، وفاح مسْكُ مداده بما أرخص الغالية بِنَشْره الغالي، فأحيا مني مَيْتا، وأدار علَيّ وأركبني كُمَيْتا، فَجُلْتُ بِهِ في ميدان الأفراح، وتناولت من راحات سطوره كؤوس الرَّاح، وتجرَدْتُ به عن الأحزان، ودخلت حدائِقه المرصَّعة باللآلىء منْ قَطْر الأمزان، وحمدت الله على سلامَته، وتدرعت بلامَةِ لأسهم مَلاَمَتِه، على أنه لو علم الحقائق ما لام، ولو حَكّم الأحلام لعلم أن لذَّتي مع غيبته مثلها وإذا راعيت السَّجع قلت كالأحلام، فليحملني على ما ينبغي من التَّأويل، ولا يتَحوّل عن اعتقاده في أخ لم يُقارب في وُدّه التَّحويل، وذَكَر حَرَسه الله تعالى حركته، فالله المسؤول أن ينزل عليه فيها بَرَكَته، ويُقرن عَزْمه بالنَّجاح والظَّفر، ويجعل بلوغِ أمَله في ذلك السَّفَر، وما حَمَلَت نفسٌ ذات إبا، ولا تركت ما سنَّه من لزوم أبوابِ الخلفاء معاشِرُ الآبا، فالعنكبوت تمدّ حبال صَيْدِها على الباب، وخِرّيْت الصَّيادين يطرح شِبَاكَه على مَتْنِ العُباب، فكم بين من يتسلَّق على بابِه لمنال الأوطار، وبين من يقتحم لها لجج المهالك وعظائِم الأخطار، وكم بين جاثم خافي، وبين عازم في الفيافي، يتطلَّب العُلا حتى يَظفر، ويشقق جيب اللَّيل حتى يصادف الصّبح وقد أسفر، فقد أحسنت يا أخي بقلقلة ركابك، وأصبت بتحريك الهمة لسكابك[1]، لكي تنال إن شاء الله تعالى ما يحمد معه حسن مآبك، والله يجمع لنا بك من الشمل ما تشتت، ويصل حبل التَّلاقي بعد أن تبتَّت، وسألت عن حال الإخوان، فهم كما لا يَعْزب عنك خُوَّان، أكثرهم بل كُلهم عرف بالغدر، فرحم الله امرأً عرف منهم القدر، فلي نهار في مداراتهم أظلم من اللَّيل، طالما جاءَ بالكآبة ووفد بالويل:

وليـل كـان الـصّبـح فيـه مَـآرِبٌ نُـؤَمّـل أن تُـقْـضـى وخـل نُـصَـادقُـه

وأما فلان بن فلان، فإنه قد هَزَّ قنا المجد فلان، زُفَّت إليه عروس العلا لما عقد بِهَا، فتبرَّجت له عن جمالٍ زانه حسن أدبها، ما طلق منها حُرَّة لم تُشبهها

(١) سكاب: اسم فرس لأحد بني تميم. (الحلبة ٩٢).

أمة، فمن العجيب أنها لم تبن[1] على أنها عليه في نكاحه لها غير مُبْهَمَة، ولولاه لم ألق وافيا، ولم أنظم في المدح القوافِيَا، فهو أنسي لما استوحشت من النَّاسِ، فزماني به في غاية التَّأهيل ومُنْتَهى الإيناس، فالله يُبْقِيه ويُبْقِيك، ونسأله أن لا يُشقِيَه ولا يشقيك، ويسقيه من رحيق النّعيم المختوم كما يُسقيك، واعذر في هذا المكتوب المحرَّر، عن اختصار العبارة في وصف ما هو لديّ مُصَوَّر، فإني كتبته والخطوب بي حافَّة، وكف المسرات لبسطها عني كافَّة، واللِّسان معقودة، والألفاظ اللائقة بخطابك مفقودة، والقلم منكس رأسُه عُبُوسًا، والأيام لا تعرف إلاَّ شِدَّةٍ وبُؤسا، فأنا الكليم من الكَلِمْ لا من الكلام كمُوْسَى:

ولو كان رمْحاً واحداً لاتقيته ... ولكنه رمح وثانٍ وثالِثُ

والملتمس من الله الإعانة، على دهرٍ يتعمَّد الأفاضل الإهانَة، وزمان لا والله ليس بزمانٍ وإنما هو زُمانة[2]، يعامل معاملة الأعداء، وليس يوجد دواء ما يأتي به من الداء، وبالله من شرّه نعوذ، وبعروته الوثقى من كوارثِه نلوذ، والسلام.

قولي: «فمن العجيب أنها لم تبن» إلى آخر الفقرة للتعجب هنا مساغ لأن قولنا لم تبن مع أنها غير مبهمة يوهم التَّناقض، لأن ما لم يبن من البيان ضِدّ الإبهام كيف يكون غير مبهم، وليس المراد في الفقرة بقَولنا: «لم تَبن» من البيان وإنما هو من الطَّلاق البَائن كما يفهم من سياق الكلام، وقولنا «غير مبهمة» ليس هو من الإبهام ضدّ البيان وإنما هو من قولهم للمرأة التي لا يحل نكاحها للرّجل هي مبهمة عليه أي محرَّمَة، ومنه قول الإمام الشافعي رضي الله عنه في المرأة: لو تزوجها الرّجل ثم طلَّقها قبل الدّخول لم تحل له أمُّهَا لأنَّها مبهمة عليه أي محرَّمة لا يحل نكاحها.

وكتبتُ إليه وهو عامل بجهات حراز مناخةٍ وقد عتب علي في انقطاع مكاتبته

---

(١) سيشرح المؤلف هذه اللفظة فيما بعد.

(٢) الزمانة: العاهة.

ما صورته:

ما أهدى أَخٌ لأخيه النازح، أفضل من تحيَّةٍ يستَطْلع ماءها من بئره النازِح، ولا أتحف شقيق شقيقا، بمثل سلام لبس برده رَقيقا، فالسَّلام العاطر مسكاً وعنبرا، يُهْدِيه عني نسيم الصبح الذي انبرى، يرد إلى سفح مَناخة[1]، ويجعل بعيرُه بربعها مناخَه، وذلك حيث حطت الرئاسة رحلها، وأنزلت بالمرتع الخصيب فحلها، وهو مقام شقيق كان مقامه حديقة الورد، وحضرة أخ كأنه عند النِّزال الأسد الورد، يخلع عليه أبهى طراز، ويلج من مَضْربه حرز حراز، يتعاهده في الصبَّاح والمساء، ويُطيب له مُنْتشقاً ومَلْمَسا، ما نفض نسر السماء جناحه من المسرَّة، وتفتَّحت زهور الزُّهر في غصن من المجَرَّة، ومَا نثرت لآلىء الشُّهب وقد كانت في نسق، وخلط كافور الصُّبح المصفَّر بين مسك الغسق، والله يحفظ ذاته من كل طارق، ويحرس مجده الذي سارصيته في المغارب والمشارق، ويجعله على الاستمرار عاملاً يطعم البائِس، ويَطْعن في نحر العدو الذي هو عن مناله بسوء آيس، فإنه قد استفاض في الخافقين حديث بّره، وحُسْن معاملته لربّه في علانيته وسرّه، واقتصاده على أخذ العُمالة، لا كما قال الباغض جعل الله العمى له، بأنّه قد عسَف الرَّعيةَّ بجوره، وتعدى من الظلم دائرة طوره، فحاشاه ثم حاشاه عمَّا إليه نُسب، فما كسب أنفس من العدل مكتسب، وها أنا يا أخي[2] أشرح لك شوقي، وأسجع على غصْن القلم لأني طائر حُمِّلت من البعد فوق طوقي، أقسم بالله لو مازجت أشواقي إليك بارد الشَّراب لعاد حميماً، ولو تصعّدت أنفاسي في رَوضٍ لصار نباته هشيماً، ولو دنا مِنِّي الخليل لانقلب من نار جوانحي كليماً، ولو لاصق بدني صحيح الجسم لاستحال في الحال أليماً، على أنك قد جهَّزت إلي من الملامات، ما لو سمعه الكل من الملا مات، فلا تظن بي إلا ظَنّ الشقيق في شقيقه الشفوق، لا والله

---

(١) مناخة: مدينة في قمة جبل حراز غربي صنعاء بمسافة (١٢٠) كم، وهي مركز قضاء مناخة. (معجم البلدان والقبائل ٦٣٠).

(٢) في (ز) هاهنا.

فإشفاقي عليك يفوت إشفاقه ويفوق، فليس عدم مكاتبتي إليك من الأدلة على القَلى، وإحجامي عنها مما يكشف أني لم أكن في طريق المحبّة مُزْقلا[1]، وإنما آثرت صيانة سمعك عن مثل هذا الخطاب، وَأردت كفّ بنانِك عن هذا الجَنَى الذي لا يقال فيه: طاب، فما كل لفظ من سحر البيان معدود، ولا كل ما ارتفع لهِ ظلّ ممدود، ولا كل ما هطلت عليه السحائب رياض، ولا كل ما تحدّر فيه الماء غياض، ولا كل ما رسب في البحر دُرّ، ولا كل إنسان كريم الأصل حُرّ، ولا كل امرأةٍ حسنا، ولا كل مقلة وَسْنا، هذا ولا زلت ذا طرف قرير، مُتنعَماً من الرئاسة على أرفع سَرِير، ما رفع اللَّيل نِقَابَه وأزالَه، وأماطه عن ثغر الصَّباح وجه الغزالة[2]، فابتسم ذلك متفلجاً، وبدا هذا عن جماله متبلجاً، والسلام.

أخُو جَدِّنَا القَاضي صَلاح بنُ أحْمَد الحيمي

هو في الفقه بستان، سقى بالغيْث المِدْرار الهتان، فتفتحت في جوانبه الأزهار، وتَدلّت بأطايبه الأثمار، له فيه غاية الإحكام، مما يفوت به صاحب الأحكام[3]، فلو أدركه الأخوان[4] لكان لهما ثالثاً، ولو ذاكره المذاكرون لكان بهم عابثاً، ولو بارزه مؤلف «التذكرة»[5]، لصنع به ما صنع الصَّولجان بالكُرة، ولو ظفر بابن مظفر[6]، لأعاده مع بيانه ذا خدّ في ترب الجهل مُعفَّر، ولو عاين السَّيد

(١) مسرع.

(٢) الشمس.

(٣) يعني الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى المتوفي سنة ٨٤٠ هـ له كتاب الأحكام في الفقه.

(٤) يعني الأخوين الهارونيين المؤيد أحمد بن الحسين الهاروني المتوفي سنة ٤٢١ هـ والناطق بالحق يحيى بن الحسين المتوفي سنة ٤٢٤ هـ.

(٥) مُؤلَّف في الفقه، من تأليف العلامة الحسن بن محمد النحوي المتوفي سنة (٧٩١ هـ). (انظر كتابنا مصادر الفكر الإسلامي ٢١١).

(٦) هو يحيى بن أحمد بن مظفر من العلماء، من مؤلفاته: «البيان» في الفقه الآتي ذكره توفي سنة (٨٧٥ هـ). (مصادر الفكر ٢٢٥).

يحيى[1] نصوصه، لألقى الياقوتة من أنامله وأخذ فُصُوصه، فهو في الفروع من الأصول العريقة، وممن له فيها أوضح نهج وأبين طريقة، رَفعه الله بالعلم وفَضَّله، وفتح له الخِتَام من غوامضه وفضّ له، وكنت أستفيد من نفثاتِه، وأكتسب من نفائِس كلماتِه، فإنه كان لا يبرح في مجالس دَرْسي، ولا يزال لَدَي وأنا أسقي من نهر الطَّلب غرسي، وأستجلي على منصة الدَّفاتر من الفوائِد عرسي، يجاذب شَيْخي رداء العلم المُوشَّى، وينازعَه برد الإفادة المُحشَّى، ولي القضاء بعد أخيه جدُّنا الحسن، فاستراح به الحق وطعمَ لذيذ الوسن، وأحكامه ماضية كالسيوف، وفَتَاويه في آذان الدَّهر كالأقراط والشنوف، حتى صَدَمه حمامُه، وأصابته من الموت سهامُه، فأحبَّ لقاء رَبِّه، وتمتَّع من روض رضوانه بعَضْفِه وحبِّه، وقد رَثَيْته بقصيدة لاميّة، لا زالت سحائب الرَّحمة على قَبْره هامية، ولا برح في الخلد متنعماً، آوياً من جنَّات خالِقِه إلى أمنع حِمى، وشعره مما ينسى براحه، ويبرد القلوب الملتطيةِ بقَرَاحه، وله في جدُّنا ووالدنا مدائح، غَرَّد بها فأضحى الهزار من الغيرة أي نائح، أنشدني من نَظْمه قوله من قصيدة:

حَدِّثاني عن لعلع حدثاني ... وعن المنحنى وعن نعمان
ورُبَى رامةٍ ونَجْد وحَزْوَى ... والمصلَّى وعن ذرا عسفانِ
وأعيدا ذكر العقيق وما مَرّ (م) لنا من حديث وادي البان
وسِلا عن ديار ليلى ففيها ... طاب لي باللُّقا قديم زماني
فسقى روضها ومنْ حل فِيْه ... قطراتِ من الحيا الهتَّان
وسقى اللَّه حيَّها ورعاهم ... ورعى ما بها من الغِزلانِ
ليت شعري هل يرجع العيش صفواً ... في رباهم على الوصال الهاني
فأنا المغرم المتيّم والولهان (م) والصَّب والعميد العاني

---

(١) هو يحيى بن الحسين بن علي من فقهاء عصره توفي سنة (٧٢٩ هـ) ومن مؤلفاته كتاب «الياقوتة» في الفقه الآتي (انظر مصادر الفكر ٢٠٥).

وأنـا الـشَّـيِّـق الـمـولّـع بـالـحـبِّ (م) وشـأنـي فـي الـعـشـق[1] أعـظـم شـانِ

يـا ظـبـا حـاجـرٍ ومـرعـاه رفـقـاً ... بـفـؤادي وقـلـبـي الـوَلْـهـان

نـزحـت دار مـن أودّ فـأورى الـنـا ... ي فـي الـقـلـب لافـح الـنّـيـرانِ

مـن لـه لـفـتـة بـجـيـد غـزالٍ ... زَيَّـنـتـه قـلائِـد الـعـقـيـانِ

ولـحـاظ بـهـا سـهـام الـمـنـايـا ... حـاجـبـاه لـنَـبْـلـهـا قَـوسـان

وقـوام أزرى بـكـل رطـيـبٍ ... واحـدٌ مـال مـا لـه مـن ثـانـي

شـعـره الـلـيـل والـجـبـيـن نـهـارٌ ... عـمـرك الـلّـه كـيـف يـجـتـمـعـان؟!

وكتب من النثر إلى مولانا الوالد رحمه الله تعالى أيام إقامته بمحروس ضوران[2] الدامغ ما لفظه:

أشرف سلام وتَحِيَّة، وكرامات بليلةٍ نديَّة، ملابسها بالمسك والعنبر ذكية، تبلغ إلى مقام مولاي علاَّمة الزَّمن، وما لكي زينة اليمن، إمام العلماء وقائد جموعهم، ومحطّ الكرماء وعامر ربوعهم، من لا يجاريه الرَّازي[3] ولا السَّعد[4]، ولا يسابقه أحد من قبل ومن بعد، فجار[5] الله في التَّفسير عنده أسير، وطرف البغوي[6] يرجع عنه وهو حسير، وابن كثير[7] بالنَّظر إليه قليل الدِّراية، وأئمة الحديث عنده لا خبرة لهم في صحة الرواية، واحدُ الأصول الدِّينية، وخِرِّيت المسائل النَّحويَّة، واعظ الجمع في الجُمع، ومبكي السَّامعين فما طرف لهم إلاَّ

---

(١) في (ز) العشوا.

(٢) ضوران: مدينة هي مركز قضاء آنس، والدامغ جبل مشهور من أعمال آنس، تقع على سفحه الشمالي خرائب مدينة ضوران.

(٣) الرازي هو فخر الدين محمد بن عمر سبق ذكره.

(٤) هو سعد الدين التفتازاني سبق ذكره.

(٥) يعني الزمخشري محمود بن عمر سبق ذكره.

(٦) البغوي: هو عبد الله بن محمد أصله من بغشور بين هراة ومرو، له «معالم التنزيل في التفسير» توفي سنة (٣١٧ هـ). والأعلام (٤/ ١١٩).

(٧) هو إسماعيل بن عمر العلامة المحدث والمفسر، وفاته سنة (٧٧٤ هـ).

وقد دمع، الجامع بين فصاحتي النثر والنظم، والجابر للكسير من العظم، كثير الرّماد إن أقرى، وطويل النجاد إن أقرا، ذلك الولد الذي هو في جلالة الوالد، والعين الناظرة في الأفاضل الأماجد، جمال الإسلام محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي أطال الله له الأوقات، وجَنّبه من طوارق اللّيل والنهار الآفات، وحرسه من الأيام فيما هو آت، هذا وإنما جاءته هذه السُّطور على استحياء، مُعَبِّرة عن مشوق يعد في الأموات وإن كان من الأحياء، لمَّا طالت الغيْبة، التي هي للقلوب مذيبة، واسترسلت أيام الفراق، والبعد الذي لم يتخلَّله اتفاق، فأكرموا مثواها، وأحسنوا مَأواها، ولا استَغْنى منكم عن جواب، يأتي إلينا فيسكن جَوَى الالتهاب، ويُقر العين ويشفي الخاطر، ويَهْدي في الصّباح نَشْره العاطر، فالكتب عن التلاقي خليفة، سيما إذا كانت عن عبارة لطيفة، والله تعالى يرفع إلينا منكم كل ما يَسُر، ويجعل أيامكم في غير الابتهاج والأفراح لا تَمُر، ويحفظ خليفة أنتم في مقامه، ويطيل في شهوره وأعوامه، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما هزت النَّسيم الغصون وزهرت في اللّيل مشكاته آمين.

أخُوه القَاضي العَلامة الحُسين بن أحمد الحيمي الخَطيبُ(١)

خطيبٌ شحشح(٢)، بمثله الزمانُ قد شح، وجبين الروّض من الحيا لدى مواعظه يرشح، كم خطب في محافل، التقت بها الجحافل، والرِّماح ترعف بالدِّما، وقد أحجم من كان مقدّما، وبوارق السيوف تلمع، وسحاب القتام يهمع، وأجفان الصَّوارم بالنَّجيع تَدْمع، والنفوس في السلامة أبداً لا تَطمع، وهو في العُلُومِ ذو تَبَحُرٍ، قد استعبد في رقّه من الفوائد الكريم الحُرّ، أخذ من كل علم بنصيبٍ وافر، وأسلم بجامع طرسِه من ليل المداد كافِر(٣)، سيّما الفقه فقد مَهَّد قواعده، وأنجز فيه لمن طلب رشاده وقد قوى عِدَه، إن أفتى فقلمه ذابِل، وإن

---

(١) ترجمته في (نفحات العنبر ونشر العرف ١/٥٣٨) وتوفي مقتولاً سنة (١١٤٠).

(٢) يقال خطيب شحشح: بليغ.

(٣) الكافر: هنا الأسود الحالك السواد.

سقَى الأزهار فلا يذكر عنده الوابِل، وإن حكم في مجلس الخصام، فما لعروة تسجيله من انفصام، وهو تلو أخيه الحسن في الشجاعة، يعد من العار عن ورود المنايا ارتجاعه، فكم كتيبةٍ منه هُزِمُت فَفَرّت، لأنه طالما ترك القِرن وأنامله قد اصفرّت، فهو شجاع مخراب، بعامِله يتقّوم المَعنى المقتضى عن بناء الذّين للإعراب، ومقامُه في الاشتهار، أنور من وضَح النّهار، وهو أنضر من الحدائق أخلاقاً، يُلاقي مُلاطِفُه منه ألطف ما لاقى، وأوسع من الدّهنا ربعاً، وأرق من سقيط الطلّ طَبْعاً، وقد ساعدته اللّيالي، وتزيَّنت له من نجومها باللآلي، فما غُصّ منهَا بِكَرْب لا، ولا لاقى ما لاقاه الحُسين بِكْر بلا، ومات بمدينة ذمار، وتَزلْزل ركن العُلا بَعْدَه ومار، وتَحطَّم من منبَرِه عُودُه، ونحست بعده سعوده، لأنه كان خطيب ملكٍ قد استوطنها، واشتم من حدائقها وردهَا وسَوْسنها، فطَالَما طلعت نجوم مواعظِه في ليلٍ من عِثْيَر خيله وتَجَلَّت، وطالما سجع مطوقه من بين أعلامه تحت أوراقِ خُضْرٍ قد تَدَلَّتْ، وكنت وافيت من ذمار سَفْحها، واستنشقت من ساحاتِها نفحَها، فبينا أنا خِلال مَقَابِرها أدور، وأعتبركم تحت سحاب تُرْبِها من محجوب شموس وبدور، إذ ظفرت بقبره المعمور، وهو غير خَفّي ولا مغمور، وعليه لوحٌ من حجر، نبع من خلاله ندى نداه وانفجر، قد رُقم فيه بالنَّقر اسمه، وَرُسِم من تارِيخ وفَاتِه ما لا يَعفو بمرور الأيام رَسْمُه، فقعدت بجنب ضَرِيحه، أسْتنشق عرف الجِنان من طيب رِيْحه، وأدّيت من حق الزِّيارة ما يجب، وناديتُ شخصه الكريم وإن لم يُجِب، سَقَى الله طينه بماء من الرحمة معين، وأفاض عليه منه أضعاف ما أجراه في موقف وعظِه من دموع السّامعين، ما قَبَّلت نسيم الصّبا، وَجْنة الورد وثغر الأقاح في الرُّبا، ومن شعره قصيدة كتبها إلى أخيه صلاح، وقد أومض له برق وطنه ولاح، منها قوله:

سَلاها هل الصبّ المشوق سلاها | وهل هو من بعد الوداد قلاها
أبى اللّه أن ينسى المحبّ دنوها | وإن طال في هذا الزمان نواها
سقى دارها ساري الغمام بقطره | وروّى قبيل الصّبح منه ثراها

فتصبح رَوْضاً بالأطايب يانعاً ... وتحلو مذاقاً إذ يطيب جناها
ويعلن فيها بالمَسَرات صادح ... صبا فوق عِطْف الغصن نحو صباها
وأطواقه من زهرها قد تنَظَّمت ... وراقت بأسماط الغصون حلاها

ومنها قوله:

أخي يا صلاح المكرمات لقد نأت ... بك الدَّار عن عيني فعزّ كراها
تعرقب دَهْري في مواعيده اللقا ... فلَهْفي لقد زادت وطال مداها
وكم لي إليكم من تأوه زفرة ... شفاها إذا كان الحديث شِفاها
طُلاَبُ العلا لا غيره قد قضى لنا ... ببين تمادى قدره وتناها
ومن رام نَيْل المجد فليدَّرع لما ... يقاسي ولا يلزم مقالة آها
عسى رجعة من شارد صفوه وما ... ألذ الأماني تنقضي بعساها
ولا زالت الأيام تجري بجهدها ... لسعدك إذ عم الأنام شقاها
ودم ما تغنّت في الأراك حمامة ... وناحت لألف بالفراق شجاها

قوله: «تعرقب دهري» أي تشبه بعرقوب[(١)] وهو عرقوب بن معيد رجل من العماليق كان مشهوراً بالمواعيد الكاذبة والمَطْل فيها، وَعَد رجلاً ثمر نخلة فجاءه حين اطلعت فقال: اصبر حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت جاءه، فقال: اصبر حتى تصير بُسراً، فلما أبسرت جاءه، فقال: اصبر حتى تصير رطباً، فلما أرطبت جاءه، فقال: اصبر حتى تصير تمراً، فلما أتمرت عمد إليها من اللَّيل فجذّها ولم يعطه منها شيئاً، فصار مثلاً في المواعيد الكاذبة والمطل فيها.

قال الإمام القاسم بن علي الحريري رحمه الله تعالى في المقامة الرابعة عشرة من مقاماته المشهورة[(٢)]: فقلت للشيخ: هل ضاهت عدّتنا عدة عرقوب أو[(٣)] بقيت

---

(١) في (الأعلام: ٤/ ٢٢٥) أنه جاهلي قيل هو ابن سعد بن زيد مناة بن تميم، وقيل هو من الأوس أو الخزرج، وقيل: من أهل خيبر أو المدينة، وانظر (مجمع الأمثال: ٢/ ١٧٧).

(٢) (مقامات الحريري ١٣٥) ط سنة (١٣٤٨).

(٣) المقامات: «أو هل».

حاجة في نفس يعقوب.

وقال الشهاب الخفاجي رحمه الله تعالى فيما كتبه إلى الأديب الوزير محمد الفشتالي[1] ما لفظه[2]: أطال الله عمرك، طول مواعيدك، وجعل آمالنا الكَمُّونية مورقة من سحائب جودك، ولعمري لقد طال المطال فعُرقوب لا يبلغ عرقوبه، وزاد العتب على الإلحاح، والعتب بغير جُرم عقوبة. انتهى.

وقلت أنا في «توابع نوابغ الكلم» التي حذوتُ فيها حذو الإمام الزّمخشري رضي الله عنه في نوابغه: المتعرقب في وعده لا أقبح من جوده.

وقال كعب بن زهير في لاميَّته المشهورة:

كانت مواعيدُ عرقوب لها مثلاً ... وما مواعيده إلاّ الأباطيل

وقال المتلمّس[3]:

الغدر والآفات شيمته ... فافهم فعرقوب له مثل[4]

وقال آخر[5]:

وأكذب من عرقوب يثرب لهجة ... وأبين شؤماً في الجوانح من زحل

وقال جبيهاء[6] الأشجعي:

وعدت وكان الخلف منك سَجيّة ... مواعيد عرقوب أخاه بيثرب[7]

---

(١) المقامات: «أو هل».

(٢) ترجمته في (الريحانة: ١/ ٣٠٩).

(٣) النّص في (الريحانة: ١/ ٣٢٨).

(٤) هو جرير بن عبد العزى من بني ضبيعة، شاعر جاهلي من أهل البحرين، له ديوان شعر توفي نحو سنة (٥٠) ق هـ. (الأعلام: ٢/ ١١٩).

(٥) انظره في (المستقصى: ١/ ١٠٨).

(٦) في (المستقصى: ١/ ١٠٨ ومجمع الأمثال: ٢/ ٣١١).

(٧) في (ش) حبيبها، وهو جبيهاء (واسمه يزيد) بن خيثمة بن عبيد الأشجعي، ذكره في المفضليات. (الأعلام: ٢/ ١١٢).

ومما نظمته أنا في التورية وذلك في بعض عمّال بلاد كوكبان المحروس لما بقي في العرقوب[١] لمقتضى وهو محل معروف بالقرب من بندر المحويت[٢]، وطلب منه عامة الناس ما يعتادونه من كيلات الطعام، فما زال يماطل ويعد ولم ينجز حتى عاد إلى حصن كوكبان المحمي، واستمر فيه على مواعيده فقلت:

يماطل في العرقوب بالكيلة التي غَدًا الوعد فيها عندنا غَيْر مرقوب
وجَدَّد لي في كوكبان وعودَه فقلت: ألا هذي مواعيد عرقوب

وما أظرف ما جاء للشيخ جمال الدين بن نباتة المصري رحمه الله تعالى في تضمين المصراع الأول من بيت كعب حيث ناسب بين ذكر السَّاق والعرقوب لما قال في مليح ساقي[٣]:

سَقَى وواعدني وَصْلاً أُلَذُّ بِهِ عند المنام ولا والله ما وَصَلاَ
فيا له اللَّه من ساقٍ مواعِده كانت مواعيد عرقوبٍ لها مَثَلاَ

ومثله قولي فيه أيضاً مع زيادة ذكر الكعب:

أشكو إلى اللَّه من ساقٍ غدا أبداً ميعاده بازديارٍ منه مكذوبَا
ساقٍ غدا قول كعبٍ فيه أليق ما يقال لمَّا حكى بالمطل عرقوبَا

وقال الشيخ صلاح الدِّين الصفدي فيه أيضاً:

كلفي بسَاقٍ كل وعدٍ منه لي ما زال يخلفه على الإطلاقِ
حتى قطعت مطامعي من وصله ونسيت عرقوباً بهذا الساقي

ولما استعار الشيخ جمال الدِّين بن نباتة من الشَّيخ صلاح الدِّين الصَّفدي

---

(١) عزلة من بلاد المحويت في قطعة ابن حبيش (معجم البلدان ٤٣٩).

(٢) المحويت: مدينة بالشمال الغربي من صنعاء بمسافة (١٠٠) كم بها مركز محافظة المحويت (معجم البلدان للمقحفي ٥٦٨).

(٣) (ديوانه ٥٦٠) وفيه:

سقى وواعدني وصلاً ألذ به عند الرقاد ولا واللَّه ما فعلا
فيا له اللَّه من ساق مواعده كانت مواعيد عرقوب له مثلا

رحمهما الله تعالى كتاب «التشبيهات» لابن ظافر[1]، وَحَدَّ له أمد العارية ثلاثة أيام، فتأخر الكتاب عن الوعد المحدود كتب إليه الصَّفدي قوله[2]:

قد قلت أن ثلاثاً عُمْر غيبته ... عنّي وذلك وعدٌ غير مكذوب
وليس وعدك شاة ساقها الزمن الجـ ... ـاني فعلّقها منه بعرقوب

فأجابه بقوله، وهو ألطف من الابتداء[3]:

جاءت ومن طرسها ساقٍ يُدير على ... سمعي من اللفظ فيه خير مشروب
فحبَّذا هو من ساق نعمت به ... وإن تعرض فيه ذكر عرقوب

ويلطف إلى غايةٍ ما جاء لخليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى في بعض قصائده، فإنه ظاهر الحسن مع ذكر الرَّأس والكعب والجنب والكف والعرقوب، وهو قوله في مدح بعض الأكابر:

هو رأس النّدى فدع عنك كعباً ... فهو في جنب كَفّه عُرْقوبُ

وقال ابن أبي حَجَلة[4] رحمه الله تعالى في باب زويلة[5] وهو باب معروف:

برّت زويلة إذ أمْسَى يقول لنا ... باب لها قول صدقٍ غير مكذوبِ
إذا وعدت حَرَامِيّاً بسفك دم ... في الحال عُلّق من وعدي بعرقوبِ

قلت: عندي أن هذا النَّظم في غاية المناقضة لأنه قال أن باب زويلة يقول قول صدق غير مكذوب، ولذا إنه قال «بَرَّت زويلة» ثم قال على لسانِه في وعد الحرامي بسفك دمه أنه «عُلّق من وعدي بعرقوبِ» وعرقوب كما ذكرنا إنما هو

---

(١) هو علي بن ظافر الأزدي، أديب له «بدائع البدائه» و«التشبيهات» المذكور. توفي سنة (٦١٣ هـ). (الأدب في العصر الأيوبي ١٤٩).

(٢) انظرهما في الوافي بالوفيات للصفدي ١: ٣٢٥.

(٣) انظرهما في الوافي ١: ٣٢٦.

(٤) هو أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني، أديب له «ديوان الصّبابة» و«سكردان السلطان» توفي سنة (٧٦٦ هـ). (الأعلام: ١/٢٦٨).

(٥) باب زويلة: باب عظيم في القاهرة بناه بدر الجمالي على أيام الخليفة المستنصر الفاطمي.

ماطل في وعده غير صادق فيه، فهذا غاية في المناقضة وإن كنا نعلم أن مراده بعرقوب هنا عرقوب الرِّجل وهو مؤخَّر عقبها الذي يُعَلق به المشنوق، لكنه قصد التَّورية بهذا الرجل الماطل في مواعيده، ولذا قال: «إذا وعدت حرامياً» وأما لو كان عرقوب يضرب به المثل في الوفاء بالوعد وعدم المطل فيه لكان هذا النَّظم سليماً عن الانتقاد ولَّما رأيت ما فيه من العيب الصادر عن غفلة، نظمت مقطوعاً في استدراكه وفيه الاستخدام موصِياً بالمحاذرة من ملك عظيم البطش فقلت:

حاذر سُطَا من غَدَا في صدقهِ مَثَلاً ... إذا تَـوَعَّـد بـالإيـقـاع مـخـلـوقَـا
لم يَخلك في الوعد عرقوباً لذاك غدَا ... به المناوي له في الجذع مشنوقاً

ومما قلته أنا أيضاً في القول بالموجب(١):

قـالـوا وقـد مـطـل الـمـضـنـى زيـارتـه ... وظـل يـركـضـه فـي سـاعـة الـغـضَـب
لـقـد بـلـيـت بـعـرقـوبٍ فـقـلـت: نـعـم ... من رجله عند ركضٍ منه بالعقبِ

وكتب صاحب الترجمة رحمه الله تعالى من نَظمه إلى بعض إخوته وقد أهدى له دواة قوله:

أشـقـيـق روحـي لا بـرحـت بـنـعـمـةٍ ... وعـمـيـم بـرٍّ لا يـزال جـزيْـلا
مَـدّ الإلٰـه مـدى الـزَّمـان بـمـرّه ... ظِـلا من النعما عـلـيك ظـلـيـلا
هـاك الـهـديـة مـن أخٍ لـبـعـادهِ ... قـد عـاد من فرط الـتّـحـول ضَـئِـيلا
مـا طـاب لـي بـعـد الـفـراق وذا الـنـوى ... عـيـش ولـم أرض الـنَّـزيـل نـزيـلا
رمـت الـزيـارة والـزَّمـان بـجـوره ... مـنـع الـسـبـيـل فـمـا وجـدت سـبـيـلا
خـذهـا دواة كـتـابـةٍ قـد أحـكـمـت ... بـمـدادهـا لـعـيـونـهـا تـكـحـيـلا
خـذهـا لـتَـحـريـر الـعـلـوم إبـانـةً ... عـنـهـا وإلا لـلـنَّـدى تـنـويْـلا

---

(١) القول بالموجب: قال ابن حجة: لهم فيه عبارات مختلفة، منهم من قال هو أن يخصص الصفة بعد أن كان ظاهرها العموم، أو يقول بالصفة الموجبة للحكم ولكن يثبتها بغير ما أثبتها المتكلم. (انظر: خزانة الأدب ١١٦).

هزّت لطعن عداك من أقلامها رُمحاً ردينيّ القوام طويلا
مدّت لأن الكف منك مرادُها فَمُهَا إليك كطالبٍ تقبيلا
جاءت عن المملوك نائبة وقدْ أضحى بلُقْيَانا الزّمان بخيلا
لا زالت الأقلام عند صريرها تبدي لنا في راحتيك صليلا
هذا ودم ما ماس غصن رَدّدت من فوق عطفيه الحمام هديلا

قوله: فمها إليك، المصراع هو مضمّن، وأصله قول المتنبي في الناقة المزمومة[1]:

ويعيرني جذب الزمام لقلبها فمها إليك كطالب تقبيلا

وقد استعمله صاحب الترجمة رضي الله عنه هنا في محله ووضعَه في موضعه لا ينازع في حسن تضمينه منازع له؛ لأن محلّ المداد من الدَّواة يشبه الفم فجعله فماً ممدوداً لتَقْبيل الكفّ من المهدي إليه بديع، مع أن قوله في أوّل البيت «مدّت» يحتمل التَّورية المتمكّنة لأنه يصح أن يكون كما هو مراده من مَدّ الفَم والعنق ونَحْوهما، وهو معروف، ويصحّ أيضاً أن يكون من المداد وهو ما يُكتب به. يقال مَدَدت الدَّواة إذا جعلت فيها المداد، والمحل قابل لهذا المقصد وما أظنه قَصَده ولا أراده، وقد ضَمَّن مصراع المتنبّي هذا أيضاً الأمير مجير الدِّين بن تميم[2] رحمه الله تعالى فأبدع فيه، قال الشهاب الخُفاجي رحمه الله في الرَّيحانة[3]: إنه استعاره عباءة فردَّها ديباجة، وذلك حيث قال في وَرْدةٍ أهديت إلى بعض الملوك قبل أوان الورد:

سبقت إليك من الحدائق وردة وأتتك قبل أوانها تَطْفيلا
طمعت بلثمك إذ رأتك فَجَمَّعت فمها إليك كطالبٍ تَقبيلا

---

(١) (ديوانه ١٣٣).

(٢) هو مجير الدين بن يعقوب، شاعر من أمراء الجند، دمشقي استوطن حماة، وفاته سنة (٦٨٤ هـ). (الأعلام ٧/ ١٤٥).

(٣) (ريحانة الألباء ٢/ ٤٦٣).

قال الشهاب الخفاجي: ولو قال طمعت بلثم يديك حتى جمعت كما لا يخفى على من له إلْمامٌ بالأدب كان أحسن انتهى كلامه.

قال مولانا الوالد العلامة القاضي جمال الإسلام محمد بن الحسن الحيمي رضي الله عنه: أجاد في الانتقاد.

قلت: نعم أجاد وأحسن لأن مثل ما قاله ابن تميم لا يليق أن يُخَاطب به الملوك وإنما يليق بهم ما قاله الشهاب الخفاجي، ولا بأس بعبارة ابن تميم: لو كان الذي أهديت إليه هذه الوردة غلاماً جميلاً.

وبمثل هذا اعترض أبو الحسن القاضي الجرجاني[1] في كتاب «الوساطة» أبا الطَّيب المتنبي حيث قال[2]:

أغار من الزجاجة وهي تَجْري   على شفةِ الأمير أبي الحسين

وقال[3]: إنه أساء الأدب لأن هذه الغيرة إنما تكون بين المحبّ ومحبوبه، وأما الأمراء فلا يغار على شفاهها انتهى كلامه.

قلت: وابن تميم قطفَ هذه الوردة الغضَّة من روضة بعض الظرفاء لَمّا قال:

كم رَوْضةٍ تحكي لسبق الوردِ   طليعَةً تشرعت من جُنْدِ
قد ضَمّها في الغُصْن قرْصُ البَرْدِ   ضَمّ فَمٍ لقُبْلة مِنْ بُعْدِ

وقد أحسن وأبدع هذا الأديب لما قال من بُعْد، فإن ضمّ الفم من بعد للتَّقْبيل أشبه بالوردة التي لم تَنفتح غاية الانفتاح كما يعرفه من اشتم من حدائق الأدب وَرْده، وكرع من الانتقاد وِرْده، وذاق حلوه ومُرَّه، وراجع فكره في التّأمل مرةً بعد مَرّة، وميّز الغَثّ من السَّمين، وفَرَّق ما بين الجَزْع الرخيْص وبين العقد الثمين.

---

(١) هو علي بن عبد العزيز الأديب المتفقه، وفاته سنة (٣٩٢).

(٢) (ديوانه: ٧٨) بشرح اليازجي.

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٣٠٨.

وَلَدُهُ القَاضي يَحْيى بن الحُسين بن أحمد الحَيْمي

ظريف بماء قلمه القريض يَحْيَا، وَسَرِيّ مَدَّ على ساحات الفضل من شِيمهِ بارِدِ الأفيا، رئيس يُزاحم الشّمس، وفريدٌ في أيادي الأنامل الخمس، فهو أجود من كعب[١]، وهو في الفصاحة أشعر من كعب[٢]، كريم لا يحتكر، ومتواضع لا يحتقر[٣]، فله حسن أخلاق، يغني بكنزه ذوي الإملاق، وله شمائل لطيفة الأسباب، ألذّ عند المحب من نسيم ديار الأحباب، أرق من دمعِ ديمَة، وأروح من نسيم البُكر أهدى شميمه، شِبْل آسَاد، مخالبها السيوف وغابها ظهور الجياد، لا يَرْهبون بَوَائق الدَّهر، ولا يقودونَ صَعب الزّمن إلاّ بزمام القَهْر، كم أودعوا ذا نِفَاق في نفق، وغَيَّبُوا بُدُور مُشاقق من نجيعه في شفق:

قوم إذا لبسوا الدّروع حسبتها سُحُباً مُزَرَّرَةً على أقمارِ

وهذا الفرع الباسق، والبدر الذي طلع في ليل شبابه الغاسِق، قد أظهر الله في دَرَجات الفخار سُمّوه، وأعطاه بِقُوَّته كتاب المحامد وقال: يا يحى خُذ الكتاب بقُوَّة، ابتسمت في سماءِ العُلا ثُغور بوارقه، واحمَّرت في حدائِقها خُدُود شقائقه، له بُرد طبع رقيق اللُّحْمة والسُدَا، وله آثارٌ جميلة ما ذَهب عمره معها سُدى، عَرفْته وأنا صَغير، وخصاله الحميدة تغيظ الضّد وتُغير، ثم لما ارتحل بأهله وضاق عليه من كوكبان رَحِيب حزنه وسهله، ونزل من رياض صنعاء بظلّ ظليل وأصبح نسيم سفحها يخطر من نداه عن ذيلِ بليل، لم أره[٤] من بعدها، ولم تَنجز لي الأيام من الاتفاق به كاذب وعدها، ولَمَّا دَنَت منه المَنيَّة، وآن أن تخبأ بيد الحِمام زهرته

---

(١) هو كعب بن مامة بن عمرو الإيادي، يضرب به المثل في حسن الجوار، فيقال أجود من كعب بن مامة. قال أبو عبيدة: أجواد العرب ثلاثة كعب بن مامة وحاتم طي وهرم بن سنان. انظر (الأمثال للميداني ١٠٩/١ و١٢٣ والمستقصى ٥٤/١).

(٢) هو كعب بن زهير الشاعر المشهور وفاته سنة (٥٠).

(٣) في (ز) يحتكر.

(٤) في (ز) ثم أراه.

الجَنِيَّة، تَوَجَّه صُحْبَة الأعيان إلى عِيَان[1]، في جيشٍ يُطربهم صهيل الجُرد لا غِنَاء القِيَان، لتأدِيَة فَرض جهاد قد وَجَب، وتَمْكين قلب من الإسلام قد وجب، خَيَّم بِهِ من جُمْلة من خَيَّم، وشَيَّم[2] في زمرة القوم مع من شَيَّم، فركب في بعض المواكب، على جوادٍ له يزاحم الجبال بالمناكب، فتشمَّس به تشمُّس الظِّبا، وكاد أن يسبق في الجوّ نسيم الصَّبا، فَرَضَّهُ رضَّةً أسالت دَمَه، وأحدث به جنايَةً كانت لنتيجة تلافِه مُقَدِّمَة، وما هو إلاَّ جواد مُكَرَّم، جنَى عليه جواد مطهَّم، فكان ذلك لهلاكه سَبَبَا، لما سَعَى إليه الموت بقوائم حِصانِه خَبَبَا، فمات واختُرِم، وعُظِّم ضريحه واحْتُرِم، وهلك شاباً على أنه ما هلك في التَّحقيق من الكرماء إلا هرم[3]، سَقَى اللَّه جدثَه مِن القطر بهامِلِه، أضعاف ما سَقَى العفاة في حياته من وبل أنامله، وأشعاره الموزونة المستقيمة، تفعل بالقدود ما تفعله الأوتار الرَّخيمة، كم كسدت عندها اللآلي، ورخصت عند مسك مدادها الغَوَالي، وقد جمع ديوانه بنفسه، وأسبل على الغواني من بنات فِكْرِه خمراً من نِقْسِه[4]، فمن بُروده السَّابرية[5]، وأسحاره السَّامرية، قوله:

خَفِ الإله فوجدي فيك غير خَفي ... وها فؤادي منه في شفا جرُف
أقمت منك على حرفٍ مخافة أن ... ينهار حبُّك بي في أبحر التَّلف
قل لي فديتك ما في القول من عتبٍ ... وانطق بصدق لساني غير مختلفِ
ماذا يكون بقلبٍ قد وقفت به ... فلم يزَل خافقاً كالقرط لم يَقفِ
وما يكون بطرفٍ بات ذا سهرٍ ... يرعى النَّجوم وصبٌّ هائم دَنِفِ
وقد علمت الذي ألقاه من ألمٍ ... وما أعانيه من شوقٍ ومن شغفِ

(١) عيان: قرية في سفيان بالقرب من خيوان. (معجم البلدان ٤٧٥).

(٢) شيّم فيه: دخل.

(٣) يعني هرم بن سنان أحد كرماء العرب (سبق).

(٤) النقس: المداد.

(٥) برد سابري: ثوب رقيق نسبة إلى سابور وهي كورة في بلاد فارس على غير قياس.

كم ذا جفيت ولا ترثي وها أنا قد ... رثى لما بي حسودي مذ رأى كَلفي
أتى العذول بأقوالٍ يكلفني ... عنك العُذول فلما أن رآك كُفِي
يا أعدل النَّاس قدراً صار منعطفاً ... يا أجود النَّاس قلباً غير منعطفِ
يا من له مقلةٌ سوداء ناعسةٌ ... مريضة وُصفت بالسّحر والوطفِ
يا من يعير بدور التم حُسْن سناً ... يا من يُغير غصون البان بالهيفِ
رُمتَ الورود لثغر لم يرده سوى ... عود الأراك فيا لهفي ويا أسفي
حتى منعتُ بلا من خَطّ عارضك اللاَّ ... مي وخَطِّي قَدُّ منك كالألف
ما كان عذرك في منعي بلا سَببٍ ... وقد خلعت عذاري غير منصرفِ
إني وإن كنت من قومٍ أولي شرف ... راض بذلي بديلاً منك عن شرفي
أنا الوفيّ فكن إن شئت غير وفٍ ... في حفظ عهدي وكن إن شئت فيه وفي

مطلع هذه القصيدة كقول التلعفري رحمه الله تعالى[(١)]:

تولّهي بك شيء منك غير خَفي ... فراقب اللَّه في الهجران لي وخفِ

وكقول ابن صاحب تكْريت رحمه الله تعالى:

ما أَمْرُ عاشقك المضني عليك خَفي ... فراقب اللَّه في هجرانه وخفِ

وقوله: حتى منعت بلا، البيت هو كقول سراج الدين عُمر الوراق[(٢)] رحمه الله تعالى:

قلت: ما تعرف ما أوجب ذا ... قال لا أسأل عمَّا أعرفُ
إنَّ في وجهي للرَّاجي نعم ... وعلى ذلك دلَّت أحرف
حاجبٌ نون وعين وفم ... هو ميم ضاق عَمَّا أصفُ
قال: قد صرح من حسني بلا ... عارض لامُ وقَدٌّ ألفُ

---

(١) انظرها في (فوات الوفيات ٤/ ٦٥).

(٢) هو عمر بن محمد بن حسن، شاعر مصري مكثر وفاته سنة (٦٩٥ هـ). (فوات الوفيات: ٢/ ١٠٧).

وقول التَّلعفري:

إذا شكوت لترثي لي وترحم مَا ... تراه من جسدي المضني ومن كلفي
يردّني آيساً من ذاك عارضك الـ ... لامي والمنثني من قَدّك الألف

وقول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى[1]:

مَتَى يُحَقِّقُ وَعْداً مَنْ تُوَاصِلُه ... والمنع ينظر من طرفٍ إليه خَفي
في الخد لام وفي قَدٍّ له ألفٌ ... وآلة المنع بين اللاَّم والألف[2]

ويلحق بهذه المعاني قول ابن قَلاقس[3] الإسكندري رحمه الله تعالى[4]:

قَرَنْت بواو الصدغ صاد المُقبَّل ... وأبديْت لاماً عن عذارٍ مسلسل
فإن لم يكن وصلٌ لديك لعاشقٍ ... فماذا الذي أبديت للمتأمل

وقول الآخر:

لا تقولي لا فمكتوبٌ على ... وجهك المشرق نوراً نعم
بحروفٍ خُلقَت من قُدْرةٍ ... ما جَرى قطّ عليهَا قلمُ
نُونُها الحاجبُ والعين بها ... طرفك الفَتَّان والميم الفم

وقول الفاضِل الصَّفدي رحمه الله تعالى[5]:

علقتها من بنات الترك قد غَنيت ... بدمع عاشقها عن منَّة الشُّنُفِ
يا لِلْهَوى عَينها عينٌ وحاجبها ... نُوْنٌ وتَم العنا من قدها الألفي

وقال صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى:

---

(١) (ديوانه ٣٣٠).

(٢) في الديوان: «وآله المنع بين اللام والألف».

(٣) هو نصر الله بن عبد الله بن قلاقس اللخمي، شاعر مترسل. توفي سنة (٥٦٧) غرقاً (الأعلام: ٨/ ٣٤٤).

(٤) البيتان في الغيث المسجم ١: ٧٣.

(٥) انظرهما في الغيث المسجم ١: ٢٢٤.

قد خبرنا زماننا وبنيه ... لم نجد صاحباً ليُسْدي جميلا
فلك الله عِش خليّاً عن الناس ... ولا تتخذ فلاناً خليلا
واتخذ منزلاً بعيداً فريداً ... وتعزَّل عنهم قليلاً قليلا

وله في مليحٍ حُبِسَ:

لي حَشَا ذَابت من البين[1] لَمَّا ... خَلَّدُوا من أحب في الحبسِ ظُلْمَا
ما كفاهم تخليدُه في حشاي ... وحشاي أشد هَماً وغَمّا

وله:

قل لمن لم يكن لديه محل ... لنظامِ أتى كدُرٍّ ثمينِ
بنت فِكري وافت فكانت كبكْرِ ... ذات حُسْنٍ زُفَّتْ إلى عِنِّينْ

وله رُبَاعية:

أفدي رشأ بجفنهِ قد صالا ... الصبّ لحتفِهِ به قد صَالا
في غرته بنون حُسْنٍ لا لا ... لا يمكنه الكلام إلاَّ لا لا

ولَدُ أخيه صنونا القاضي يحيى بن الحسن ابن الحسين الحيمي[2]

كريمٌ مِن كرام، قضي له من المجد مرام، قصرَّ كل حازمٍ عن حزمه، وحلَّق نسر السماء في البروج بهمته وعَزْمه، ذو رئاسة وشهامة، ونَفَاسةً طارت أنفاسُها بين نجد وتهامة، ومروة قد اتسعت، وقدمٍ إلى المعالي قد سَعت، وهو أحد لداتي، ومن تنجز به في المقاصد عداتي، نازَعني الثُّديَّ في الرضاع، وجاذبني أخلاف أمَّهاتٍ لا توسم بالاتّضاع، ثم طاردني في ميدان التّلعاب، وحمل فيه ما حملته من الأتعاب، ثم قرأ معي، عن فطَانَة ألمعِي، قرأتُ أنا وإيّاه على خالهِ الذي هو والِدِي، فشاركني بتَشْميره في طريفي وتالِدِيْ، ومرَّت لنا أوقات بالدَّرس والإعادَة،

---

(١) (ب) و(ش) الحين.

(٢) ترجمته في (نشر العرف: ٢/ ٨٤٤) نقلاً عن كتابنا هذا.

وجَرَى معي على أحسن سَجِيَّة وعادة، وزار كما زُرت عليل الطَّلب وعادَه، وكنتُ أستنيبُه في الخِطَابَة، فيحلو من غصون المنبر رِطابه، ويسجع فوقها سجع مُطَوَّق، ويصيب الغرض بسهم من مواعظه مفوّق، وكان يتولّى بعض الأقطار، ويقضي من الإنالة الأوطار، ونَزَل إلى العُدَين[1] من اليمن، وإذا بارز المَنِيَّة له فيه قد كَمَن، فطلع وقد لزمه الألم لزوم ظلّه، واستأصل على معظم أمرِهِ وجُلّه، فمَات بمواهب الكريم من ذَمَار، وخاض من مقتحم المنية في الغُمار، أنزَلَه الموتُ الجَدَث، وحدث عليه حادثُ الحِمام وهو حَدَث، قَبْلَ أن تَبْيضّ لَهُ لمَّة، أو تضعف من الكبَرُ له هِمَّة، وقَبْرُه بها معروفٌ مُنَاف، وطيب طينتِه مما يُفْعم الآناف، وقد زرته مِراراً، وأعملت في مهجتي من الاعتِبَار غِرَاراً، ما رأيتُ قَبْرَه، إلاّ أصابتني حوله مِنَ العِبَر عَبْرَة، أكرم اللّه ضَيْفَه، وأغْمَد في خِلَلِ النَّبَاتِ مِنَ الجنَّة سَيْفَه، ومن نظمه الأسنى، ما كتبه إليَّ وقد رَحَلَ عَنَّا:

سلامٌ عليكم إن تَنَاءت بنا دارُ ... وفي القلب إذ شَطّ النوى بِكُمُ نارُ
أحبّتنا لا تحسبوا أن ذكركم ... يغيب وإن غابت بشخصي أسفار
رحلنا وفي طيّ الجوانح جمرةٌ ... وفي الخدّ غيثٌ صادق الهمع مدرارُ
شهاب الهدى اللّه يعلم أنّني ... أذوب اشتياقاً إن عراني تذكارُ
أحنّ إليكم في الصّباح وفي المسَا ... إذا جاء ليل أو تبلج إبكارُ
فأنت لنا مجدٌ عظيم ومفخرٌ ... إذا ما سما من نسل آدم فخَّارُ
إذا قمت من فوق المنابِر خاطباً ... فقد خُطبَت يوم البلاغة أبكارُ
وكم مجلس سامٍ أدرت لنا بِهِ ... شراب عباراتٍ لنا منه إسكارُ
أفدت وما في قومِنَا من يفيدنَا ... إذا عَزَّ للإشكال في الحال إظهار
ودمت مدى الأيام ما دام شوقنا ... إليك وسارت عنك بالفضل أخبار

فكتبت أنا من النظم والنَّثر إليه مجيباً عليه قولي:

---

(١) العُدَين: مدينة بالقرب من إب بمسافة (٣٠) كلم بها مركز ناحية العدين.

أروضٌ أريض فيه تضحك أزهارُ | لدمع غمامٍ قد جرى وهو مدرارُ
ومال ارتقاصاً ثامل الغصن بالنَّدى | وقد حركت عطفيه باللَّحن أطيارُ
وفي الصبح عن أيدي الصَّبا قد تفتحت | من الورد فيه إن تجرّد أزرارُ
أم الشعر من نظم العماد تبلّجت | لعيني منه بالملاحة أقمارُ
أخي وشقيقي في حدائق لَذّتي | وأدهم شعري بالصَّبابة كَرَّارُ
عماد الهدى من بعد بُعدك لم تطب | لصنوك في ليل التأنس أسمارُ
فليس يُسلِّي القلب عود مُحَرِّكٍ | ولم تقض لي من قرب دارك أوطارُ
عليك سلام دائمٌ ما تكللت | تكَلُّل تاج الملك بالقطر أقطارُ

تحية تَترى، وسلام يرد شَفْعَاً ووَتْراً، ليس لخمرٍ وراح، نشوة شرابٍ غدا به وراح، ولا للمسك المتضوِّع، نَشْر زَهره المتنوع، يُباكِر مقام أخ طاب أباً وجدًا، وفاتت خصاله الشريفة ألسن المادحين عَدًّا، شقيق تربّى في أمنع حديقة، وسقَتْه ماءها عين مجدٍ غديقة، فلبس بُرد النجابة، وداس ربع الفخر وجابه، أبقى الله ما حمد من خِلاله، ومَدَّ عليه من التَّنويل بارد ظلاله، وزاده سعادة إلى سعادته، وجرى به من اللّطف على أحسن عادته، هذا ومعاهدته وصلت فهيَّجت دفينًا، وعاثت بالوجْد المبرّح والأشواق فينا، طَيُّها الأبيات التي هي بالحسن منفردة، المتناسقة تناسق الجواهر في أسلاكها المطردة، طِشتُ بها وحقَّ لي أن أَطيش، لأنه كلَّفني بِهَا الجواب وما في كنانتي أهْزَعُ[1] ولا مرِيش، فإن البعاد أضاع لي حِسّاً، وأذهل لُبِّي فما ترشَّف شراب أدبٍ ولا تحسَّى، فإني صرت بعد الفِراق، ذا دمعٍ منحدر مُرَاق، أبكي مع الغُراب في الطَّلل، بدموع لأذيالها بي بَلَل، بعد أن اعتزلت الجُلَساء، وهجرتهم نهاراً وغلساً، ومن العجيب أن أقول بعد الاعتزال بقول غراب[2]، وأقف معه في أطلاق منازل هي لبعدك خَرَاب، وَصَدَر الجواب على

(١) الأهزع: هو آخر سهم في الكنانة رديئاً كان أو جيداً، وهو أفضل سهامها لأنه يدّخر لشديدة أو أردأها.
(٢) سيأتي شرحه.

تكلف، وعدم استيناس لفظةٍ منه بلفظةٍ ولا تألف، والله يصونك عن الطَّوارق الملمة، ويحفظك عُدَّة لنا في الحوادث المهمَّة، ما اطلع أبيض النَّرجس غرره، وصفف أسود الريحان طرره، والسَّلام.

قولي في النَّظم «فليس يسلي القلب» البيت فيه التَّورية في قولنا أوطاره، لأنه يصح أن يكون معطوفاً على قولنا «عود محرك» ومعناه أنه ما سَلَّى القلب عود ولا طار، ويصح أن يكون نائباً مناب الفاعِل لقَوْلنا ولم يَقْض لي، وقَضى الأوطار معروف وبذلك عرفت التَّورية.

ومثله في التَّورية أيضاً قول الشيخ العلامة شهاب الدّين أحمد بن علي بن حجر العَسْقلاني[١] رضي الله عنه في جارية تضرب بالكمنجا[٢]:

ما بالها هجرت وكم قد مرَّ لي ... منها الرّضى في سالف الأعصارِ
وقضيت منها إذ شدت بكَمنْجةٍ ... ما بين سَالف نَغمةٍ أوطار[ي]

وقال المولى العلاّمة محمد بن إسحاق[٣] بن أمير المؤمنين فسح الله تعالى أوقاته في إيهام التأكيد[٤]:

حدَّث سمير النجم عن بدرِ الحِمى ... فاليوم قد عَقَر الوشاة عُقَاره
فلعلها تُقْضى لسَمْع قَصْدُه ... زَمْرُ الحمى أوْطارُه أوْطاره

قولي في النثر: «ومن العجيب أن أقول بعد الاعتزال بقول غُرَاب» المراد بالاعتزال اعتزال الجُلساء وعدم الأنس بهم بعد فراق المخاطب، مع الإيهام

---

(١) هو شيخ المحدثين وخاتمة الحفاظ وفاته سنة (٨٥٢).

(٢) الكمنجا أو الكمنجة: من آلات الطرب ذات أوتار، وتعرف بالربابة وهي من اللفظة الفارسية.

(٣) من الأدباء الشعراء سيأتي.

(٤) الإيهام عند أهل البديع: هو عبارة عن أن يقول المتكلم كلاماً يحتمل معنيين متضادين لا يتميز أحدهما عن الآخر، ولا يأتي في كلامه ما يحصل به التمييز فيما بعده بل يقصد إيهام الأمر فيهما. (شرح الكافية ٨٩).

بمذهب الاعتزال وهو معروف. والمراد بغرب: الطائر المعروف مع الإيهام بغراب وهو الرّجل ولذا جعلت المحلّ محلّ تعجّب بقولي: «ومن العجيب» وهو رجل يُسمى غُراباً وإليه تُنسب الغُرابيّة[1] وهي فرقه من الأُمّة؛ لأنه كان رئيسهم: يَزعمون أنّ جبريل عليه السلام غلط في النزول على النبي ﷺ وأنه إنما بُعِث إلى علي عليه السلام فغلط؛ لأن عليّاً كان أشبه بالنّبي عليه الصلاة والسّلام من الغراب بالغراب.

ومثل هذه الفقرة قولي في النظم:

قد تعزّلت عن رفاقي وأصبحت   قرين الغُراب في الانتحاب
فاعجبوا في الهوى لمعتزليٍّ   قال بعد النوى بقول غُراب

وأنشدني صاحب الترجمة رحمه الله تعالى لنفسه وقد تولّى قطر مسور المنتاب[2] قوله:

إنما مسور قُطْرٌ   ليس لي فيه إرادة
صرت فيه ذا جنونٍ   فهو مس وزيادة

وقد وردت لهذا النَّظم نظائر كثيرة، وأشباه أثيرة، قلت أنا في رجل يلقب بالرّداعي يدعي العِرفان في الطبّ وربما أخطأ:

دع عنك طبّ الرّداعي   فالموت فيه عِيَادة
كيف الشفا من طبيبٍ   فيه الرّدى وزيادة

وقلت أيضاً في عَبْدٍ مملوك يُسَمّى رُنقوه، والرَّنْق بسكون النُّون كما لا يخفى هو المنكدر من الماء الذي لا يَصفو:

إنما رنقوه للتَّكد   يرقد ألقى قياده
كيف يصفو لخليلٍ   وهو رَنْقٌ وزيادة

---

(١) ذكرها البريهي في (البرهان ٧٣) وانظر ابن حزم الفصل: ١٨٣ والبغدادي الفرق بين الفرق: ٢٣٧ والحور العين نشوان الحميري: ١٥٥ والفخري في تلخيص البيان: ١٢٢ والقلائد في تصحيح العقائد للإمام المهدي: ٥٦ (ط) دار المشرق.

(٢) مسور المنتاب: ناحية كبيرة من توابع محافظة صنعاء كانت تابعة لحجة.

وقلت في رجل يلقَّب بالقطابِر[1] وكان ذا بَرْدةٍ في طبعه فإذا سَار تأنّى غاية الأناة، وبالقطا المشهور يُضرب المثل في بُطء السَّير[2]:

أمَّا القطابِر سَيْراً ... فقد أبان اتّئادَه
في الأرض يمشي الهوَينَا ... فهو القطَا وزيادَة

وقال المولى الأمير الحسين بن عَبْد القادر رحمه الله تعالى في المخاضَة من أرض كوكبان المحروس لَمَّا كثر في بعض السِّنين بها البزّ وكسد لكثرته:

إلى المخاضة بادر ... للبَزّ واغنم كسَادَه
إن شئت تأخذ منها ... فهي المخا[3] وزِيادَه

وقال آخر رحمه الله تعالى:

جوخك الخمريّ هذَا ... كُرِهَت فيه العِبَادة
كيف لا تُكره فِيْه ... وهو خَمرٌ وزيادَة

وقال جمال الدين يحيى بن مطروح[4] في مليحٍ اسمه بَدْرُون:

لك يا بدرون وجهٌ ... حاز عنوان السَّعادة
لا تَخَف نقصاً وَمحقاً ... أنت بدْرٌ وزيادة

وأنشدني صاحب التَّرجمة لنفسه قوله:

تعَمّد تَركي من شغفت بِحُبِّهِ ... على أنني واللّه مالي مُشَارِكُ

---

(١) كذا في الأصل بدون ياء النسبة، ولعله القطابري، نسبة إلى قطابر ناحية من قضاء جماعة في بلاد صعدة.

(٢) لم يذكر القطا في الأمثال ببطء السير وإنما يقال: أصدق من قطاة، وأهدى من قطاة، وأنسب من قطاة، والقطاة طائر معروف.

(٣) المخا: ميناء على ساحل البحر الأحمر غربي مدينة تعز بمسافة (٩٤) كم، كانت ترد إليه البضائع ومنها البز ونحوه.

(٤) هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح، شاعر كان ناظر الخزانة بمصر أيام الصالح أيوب توفي سنة (٦٤٩ هـ). (شذرات الذهب: ٥/٢٤٧، والنجوم الزاهرة: ٧/٢٧).

فلا يغترر يوماً به قط عاشقٌ ... فما هو إلا صانعٌ ثم تاركُ

وقد قَصَد في قوله: «ثم تارك» التَّورية لأنه أراد أن هذا المحبوب تارك له لم يواصله، يرشح لهذا المقْصَد قوله: «تعمَّد تركي»، وأراد أيضاً الكناية عن شتم هذا المحبوب لما ترك وصله لأنه يقال في الشَّتم فلان فاعل تارِك، والمراد بأنه فاعل للقبائح تارك لما يجب فعله وبذلك عُرِف الوَجْه الثَّاني الذي قصده صاحب التَّرجمة وتمت له به التَّورية، وإن كان لم يرشح لهذا الوجه الثَّاني بشيء كما تَرَى. وأحسن منه ما جاء لي في مليح صانع بالعين المهملة، والصَّانع الحائك في عرف هذا الزَّمان وتعارف أهل هذا الأوان، وهو قولي:

أهيم بصانعٍ ترك التَّلاقي ... ولم يمنعه عند الحوك مانِع

وقال: أَطِلْ إذا ما شئت شَتْمي ... فإني تاركٌ فيكم وصانِع

وقال صفي الدّين الحليّ في مليح فاعِل[(١)]:

وفاعلٌ أبدع في فعله ... وحسنِه مع فعله رائِعُ

أحسن في صنعته متقنا ... فقلت هذا فاعلٌ صانِعُ

وقال الفقيه الحسن بن علي الهبل[(٢)] الآتي ذكره:

لفعل الخير تشتمني ... وتركي بثَّ أسرارِك

فقل ما شئت في شتمي ... فإني الفاعِل التَّارك[(٣)]

وقال نور الدّين علي العُسيلي[(٤)] رحمه الله تعالى[(٥)]:

وفاعلٌ يتركني عامداً ... وهو لرقيّ في الهوى مالكُ

---

(١) ديوان الصفي الحلي: ٤٨٩ (ط دار صادر).

(٢) من كبار الأدباء في اليمن سيأتي.

(٣) (ديوانه ٤٩١) بتحقيق الأستاذ العلامة أحمد بن محمد الشامي.

(٤) من شعراء (ريحانة الألباء: ٢/١٩٧) انظر ترجمته في (شذرات الذهب: ٨/٤٣٤) ووفاته سنة (٩٩٤ هـ).

(٥) (الريحانة: ٢/٢٠١).

أقـول لـلـنـاس ألا فـاعـجـبـوا مـن صـنـع هـذا الـفـاعـل الـتَّـارِكُ

قال العلامة الأديب القاضي شهاب الدِّين الخفاجي رحمه الله تعالى في «ريحانته» في ترجمة العسيلي المذكور ما لفظه: الفاعل بلغة أهل مصر خادم البناء، ويقال الفاعل التارك عندهم كناية عن القبائح ففيه إيهام ظاهر، انتهى كلامه بلفظه.

إمام المجتهدين الشيخ الفقيه صالح بن المهدي المقبلي نزيل مكة المشرفة(١)

مجتهد غير مُقلّد، مفحِم للخصوم مُبلِّد، ورد من الاجتهاد ينبوعاً، وأبت له همته من أن يكون تابعاً لا مَتْبوعاً، فما قَفَّى لإمام مقالا، ولا شَدّ لبعيره في مرعى غَيْره عقالا، وإنما اكتفى بعلْمه، والعاجز من لا يستبد بأنظار حلمه، وتبع الأدلة الراجحة، ومَشَى مع المقاصد الناجحَة، فكان إماماً يقتفَى، وناظِراً في الأدلة باستنباطِه يُشْتفى، ما فتح أحدٌ باباً من العلم كبابه، ولا ركب جواد همته في مسابقته إلا كَبَا بِه، فهيهات لم يَذُق على موائد الإفادة شيئاً مِن كَبَابِه، عرفتُه في الصّغر، وقد فتح الزّهر فَمَه لِغَيْثه وَفَغر، وهو يقرأ العِلْم ويطلب، ويستدر ثُدِيّ المسائِل وَيَحْلُب، وهو من مشايخ والدي وصُدُورهم، وشموسهم التي لا يعتريها الكسوف وبدورهم، أخذ عنه ما أَخَذ عن والدِه الحَسَن، وشحذ صارمه باليد التي شحذ بها صارمه وسنّ، لأنه كان لجِدِّي من التلاميذ والأتباع، وممن أصبح به مرتفع السمك طويل الباع، وما بَرِح باليمن ثاويا، ولعنان الرّحلة عن الوطن لاويا، حتى صال على ذوي الرفْض بعض صوله، واعترف للصّحابة بالفضل ونظم من الشّعر قولَه:

قـبـح الإلـه مُـفَـرِّقـاً بـيـن الـقـرابَـة والـصـحـابَـة

---

(١) من علماء اليمن ولد سنة (١٠٤٠ هـ) بمدينة ثلا، ثم انتقل إلى كوكبان وبرع في علم الكلام والفقه من مؤلفاته «العلم الشامخ» و«المنار» وفاته سنة (١١٠٨ هـ) انظر ترجمته في (فوائد الارتحال للحموي (خ) والبدر الطالع: ١/ ٢٨٨، ونشر العرف: ١/ ٧٨).

مــن كــان ذلــك ديــنُــه فــهــو الــشــقــي بــلا اســتــرابَــه

فأجابه بعض ذوي الجهل، وانتصب لذمه وليس لمراجعته بأهل، فهو كالكلب ساور الأسد، وكالمجذوم قابل صحيح البدن بما فسد، فعتب على إمام العصر في رواحه وغدُوّه، ولامه لمَّا لم ينتقم له من عدّوه، وعدّ السكوت منه رضى فجرَّد من عزمه سيفاً قاطعاً ذا مُضا، وآلى على نفسه أليَّة، ليرحل على دارٍ أُبتلي الرفيع بالوضيع فيها أي بليَّة، ففي أمثال من مَضَى، السكوت أُخو الرِّضَى[١]، فسار بأهله للبيت العتيق قاصِداً، مُشَمِّراً لأن يكون لِزَرْعِ من الفوز حاصداً، فاستبشر الحرم لوفوده، وَغَرّدت حَمَائمُه من المَسَرّة على عُوْدِه، وهمَّت الكعبة أن تُمَزِّق من أسود الملبوس، ثوب الأسى الموهم بحصُول الحزن عند البوس، وتلبس البياضَ فَرَحاً، وتجر ذيلها من الافتخار به مَرَحَا، وكاد وجه الحجر الأسود أن يَبْيض من سروره، ويمرّ الركن لتلقيه بالرَّحب والسعة لِيَزْداد شَرَفاً بمروره:

قد رَحّب الـبـيـت شـوقـاً والـمـقـام بـهـم والـحـجْـر والـحَـجَـر الـمـلـثـوم والـمـيـلُ

ولم يزل من البيت تحت ظلالِه، مُزَيّناً لتلك الدِّيار بما طاب من خلالِه، يعظّمه الأشراف بنو الحسن، فقد حلّ من أماقهم محل الوسن، فَبِهِ لديهم يُقْتَدَى، ولذا رفعوه رفع المبتدا[٢]، وصدَّروه تصْدِير الاستفهام[٣]، إذ حَلّ من الدّراية مَحَلا يُقصِّر عنه ذوو الأفهام، وما بَرح كالبيت العتيق محترما، حتى وافاه ما يصير به الأجل مخترما[٤]، فمات وقضى الغريم، وقَرُب إلى الله لما كان جار بَيْته الكريم، فاسود وجه الحجر من الحَزَن، ومَزّقت الكعبة ملبوساً زُيِّن بالذهب فكأنه لمْ يُزن،

---

(١) من الأقوال السائرة. (انظر فرائد الأدب في منجد اللغة ٩٥٣).

(٢) يقول النحاة في تعريف المبتدأ: هو اسم مرفوع يقع في أول الجملة غالباً مجرداً من العوامل اللفظية الأصلية ومحكوم عليه بأمر. إلخ.

(٣) قال النحاة: الاستفهام له حق الصدارة في الجملة فلا يسبقه إلا حرف جرّ نحو «بمن تفكر» أو مضاف نحو «سيارة من هذه» الخ.

(٤) من مذهب الزيدية والمعتزلة أن الأجل أجلان مقدور ومخروم، يقول الإمام القاسم بن محمد: «قال بعض أئمتنا والبغدادي الأجل أجلان إن كان ذهابهما بالقتل أحدهما خرم».

ونَاحت حمائم الحرم وخلعت الأطواق، وحرمت خضاب أكفها عند الأفراح والأشواق، لا برح ضريحه كالبيت حوله يطاف، ولا زال جانياً لثمارٍ من الجنان سَهْلَة القِطَاف، وشعره لعلمه تكميل، يكحل الأبصار من قلمه بميل، كتب إليه والدي قصيدة بها يفاكهه، طَمَعَاً في أن تساقط عليه من بستان طرسه فواكهه، وحيَّاه من شعر الصَّبا، بنموذج ألطف جرماً من نسيم الصَّبا، فأجابه بقوْله، مما يُعَدّ من طَوْله:

عَرْفُ لُبنى شفيت أهلاً وسهلاً ... قف لنا من شميمها نتملَّى
صف لنا ما هُناك أفديك نَشراً ... من ذكيّ العبير أعلى وأغلا
أمْلِ لي الشَّوق يكتب الدَّمع عَنْه ... فوق خَدِّي من الحديث سجلاً
إن لبنى جعلت أفدي خطاها ... قلَّدتني من المحارة[1] غُلا
غادرتني كما تَرى في اغترابٍ[2] ... لحديث الشُّجون في الحُبّ مُلاً
قُل لها واخفض الجناح لدَيْها ... ما عهدنا الكريم يقطع وصلا
عَلّها تذكر الزَّمان الذي فيه ... (م) شربنا الوصال عَلاً ونَهْلا
فسقى ذلك الزَّمان عهادٌ ... وسقى الرمل والأراك المُظِلا
وسقى شعبها الظَّليل وضالاً ... وأراكاً هناك غضاً وأثْلاً
وسقى الآس والبشام ورَنْداً ... ووروداً وأقحواناً ومُقْلا[3]
وسقى يوم كنت في ربعها لا ... أحسب الخصب أن يُحَوَّل مَحْلا
حين جاءت إليَّ تمرح تيهاً ... بقوامٍ أولى المحبين قَتْلا
ككثيبٍ يُقلّ غُصناً عَلَيْهِ ... بدر تمّ وشعره صار ليلا
(قلتُ إذ أقبلت وزُهرٌ تَهادى ... كنعاج الملأ تعَسَّفن رملا)
وبدت غُرَّةٌ لها كزمانٍ ... عن سجايا محمَّدٍ قد تجلَّى

---

(١) في النشر: المجرة.

(٢) نشر: اعتزال.

(٣) المقل: هو الكندر الذي يُتَبَخَّر به (نوع منه).

من نشأ شخصه بحجر المعالي وتغذى العلوم في المهد طفلا
السري الحلاحل المصقع القرم حليف التُّقَى وزين الأجِلاَّ
هو بخرٌ فكل نحر من الخلقِ (م) بِدُرِّ القريض منه مُحَلَّى
لم يزل دون[1] كل قرمٍ بنيلٍ إن سعت حَلْبة العلوم محلاً
واحد ما لدهرنا من سواهُ أربٌ في الفخار حاشى وَكَلاَّ
هو في مركز الكمالات نَقْطٌ وهو في الاعتدال أحسن شَكْلا
وهو في العلم قدوَة لأولي العلم (م) وفي الحافلات صدر الأجِلاَّ
قد قفى في العُلا أباه بفخرٍ واضح فهو طاب فرعاً وأصلا
أوحد الماجدين نُبلاً وعلماً أصدق العالمين قولاً وفعلا
أعفني يا فداءك أهلي فإنيِّ لم أجِدْ لي لِكُنْهِ وصفِك عَقْلا
قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ دد والمجد والمكارم مِثْلا
أنت من ذلك الهزبر فحقَّاً أن يُرى في العرين أنتج شِبْلاً
مدحك المُرتدي الجلال الذي مِنْ (م) ضرب النحل والمكرر أحْلَى
هزّ من عطفي النشاط وأذكَى لهب الشوق فانتحَى الوعر سهلا
فتراني أتيت أمشي الهوينا خافضاً للجناح منّي ذُلاَّ
ونظامي الذي تنافر معنى وهو عن جَيّد العِبارة مُخْلا
لم أقل فيك لاحتياجك مدحاً فلأنت المشهور جوداً وفضلا
غير أني خشيت من أن أرى في شُكر نعماكم الجِسَام مُخلاَّ
فاعذروني فإنني صرت للعذر (م) لما مسَّني من النَّقص أهْلا
مرَّ دَهْري ولا يُرَى لي طرفٌ لاحظاً للعُلا ولا عِفتُ جَهْلاَ
فارفعوا لي الأكفّ فَضْلاً ونادوا ربنا امنحه عن خطاياه حلاَّ
وعليكم أسنى السَّلام دَواماً ما سرى البدر في الدُّجى وأهلاَّ

(١) كذا في (ب) و(ش) وفي (ز) أصلحه إلى «فوق».

وله تأليف ينتحس لديها السَّعد[١]، ويتصاغَر لدى عظيمها من سلف من العلماء قبل وخلف منهم بعدُ، في ليل المداد نجوم، وفي آفاق القراطيس[٢] لمردة المخالفين رجوم، قد تَزيَّن بها العصر، وتَمَّ للاعتقاد الصحَّيح بها النَّصر، لأنها رجفت على المشاقق من كُتبها بالكتيبة، وسَدَّدت من سُطُورها أسهم أدلة مُصيبة، وهو فيها كثير الاعتراض، فكم فوَّق عن أقواسِها نبْلاً فقرطس قَراطيس العلماء فإذا هي له أغراض، قد لهج بالمُناقَشَة فيها لهج الصبَّ بحبيبه، وأنس إلى الجدال أنس العليل بطبيبه، وهو لعمري بذلك خليق، وبه البحث عن الحُجج يليق، منها كتاب «العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ»[٣]، طالعته وطلعت إلى أقصَى شمْريخه، وارتقيت عليه حتى كدت أتناول من الفلك ياقوت مرِّيخه، وإذا هو علم في رأسه للجاحد نار مُحْرقة، وحوله خنادق لذوي الجهالة مُغْرقَة، ومنها «الأرواح النوافخ»، حاشية على العلم الشامخ[٤]، ومنها «حاشية الكشاف» التي بها للكون زان، تحط قدر العلوي[٥] وينتحس بها سعد تَفْتازان[٦]، لاحظَ عند شمسها للسّراج[٧]، وقد طلعت من خلال السَّطور في الأبراج، ومنها حاشية العضد التي حرّرتها أنامله[٨]، فإذا للعلماء بها راحة، ومنها حاشية[٩] البحر التي أدار على

---

(١) تورية بسعد الدين التفتازاني (سبق).

(٢) في (ز) لمراده.

(٣) من أشهر كتب المترجم له، طبع عدة مرات.

(٤) طبع مع كتاب «العلم الشامخ».

(٥) هو يحيى بن القاسم العلوي من علماء اليمن، دخل دمشق سنة (٧٢٩ هـ) وعرف بحاشيته على الكشاف المسماة «تحفة الأشراف» توفي سنة (٧٥٣ هـ) (مصادر الفكر الإسلامي ٢١٨).

(٦) السعد سبق ذكره، وتفتازان: قرية كبيرة من نواحي نسا وراء الجبل. انظر: (مراصد الإطلاع ٢٦٦).

(٧) هو سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني له حاشية على الكشاف بعنوان (الكشاف على الكشاف) توفي سنة (٨٠٥ هـ) (انظر كشف الظنون ١٤٧٩).

(٨) لم يعرف للعلامة المقبلي حاشية على العضد، ولعله اختلط عليه بشرحه على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه المسمّى «نجاح الطالب» منه عدة نسخ خطية.

(٩) وهي المسماة بالمنار، طبع أخيراً في مجلدين.

الأسماع بها في كاساته راحه، وفيها يُنقِّر على الإمام المهدي عليه السَّلام غاية التَّنقير، ويحقِّر عظيم ما جاء به أبلغ التَّحقير، رحم الله تعالى مُعترضاً ومُعْتَرَضا، وعاملهما بغاية القبول والرِّضى، وأدام العلم بمؤلفَاتِهما حتى لا يكون منقرضًا.

شيخنا السيد العلامة الحُسَيْن بنُ الحَسَن العَوَّامي [1]

سابق لا يدرك، ومنفرد لا يشرك، عقدٌ نظم على نحر المعالي، وحلة فخار تزينت بها اللَّيالي، قرأ على والدي فعُدّ أستاذاً، ولاذ بعقوته [2] فكان ملاذاً، فإذا هو إمامٌ به يُؤْتَمْ، وبدر عرفان في فلكه قد تَمَّ، له روض دراية، يرفع له من ورق دوحه راية، تبتسم في وجهه الحقائق، بثغرٍ من الأقاح المنتظم رائق، وقرأ أيضاً بصنعا، وأكبَّ على علم الصَّرف فما صادف له عنه مَنْعَا، وطلب النحو والمعاني، وهام بسائِر العلوم هيام عاني، مع حدّة كأنها جَذوة، وحرارة طبعٍ ما حذا أحدٌ فيها حذوه، إذا رجع فمنتقد، وإذا روجع فنار تَتَّقد، يرجع مباريه باليأس، لأنه في جمع الفنون ذو نَصٍّ ما له قياس، بِمُرْهَف ذهنٍ أمضى من أمْسٍ، وحجج نيّرة أضوأ من الشمس، يَهُزّ رمحَ يراعِه، فيهزِم من هَزّ رمحه عِنْد قراعه، إذا فَغَم مداده بالشَّميم، توارَى نَشْر المسك تحت أذيال النسيم، ثُم لمَّا عاد إلى قُطْره، وأحيا أرضَه هامعُ قَطْرِه، قَرأ في الفقه على والدِه، فجمع من فخري العلم بين طارفه وتَالدِه، وولّي القضاء فأنفذ أحكامَه، واستمطر ذوو التنازع ركامه، فأمطرت عليهم ثَلْجَا، وكان في العظائم إليه يُلْجا، يُخَاطب بالحق ويُنَاجِي، ولا يماري أبداً ولا يُدَاجي، لَمَّا عَلِمَ أَنَّ كُلّ مِرَادًا، فنال من ربه ومن زمانِه مُرَادًا، وكان عن أخذ بيوت أموال الله عفيفاً، فلم يزل سيره في طريق التَّورع هفيفاً، وَحِمْله من الأوزار حملاً خفيفاً، ومات بعد بلاغ الأربعين، وتكدّر من إفادته ماؤه المعين، وقد لازمت عليه القراءة، فَحَبَاني من الفوائد بأنفالٍ تشهد لي من الجهالة ببراءة [3]، وجنيت من غصنه إذ تأود

---

(١) ترجمته في (نفحات العنبر (خ) والجامع الوجيز (خ)) وفيه وفاته سنة (١١١٥ هـ).

(٢) العقوة: الساحة وما حول الدار.

(٣) توريه بالسورتين الكريمتين «الأنفال» و«براءة».

رطيباً، ما جناه من غصن والدي تضوع تُرابه طيبًا، وغراب شَبابي فاحم الجناح، وليس على من الزمن حرج ولا جُناح، وله شعرٌ إذا أصغى له الصَّخر لان، هو بمداده على وجَنات علمه خِيْلان، فمن لآليه التي صدفها بنو العُوَّام، وجواهره التي لا يستخرجها من قرارها العوّام، ما كتبه إلى السيد العارف، الحسين بن الحسن الأخفش نُشِرت عليه من الرَّحمة مطارف، وذلك قوله:

رماحٌ ولا أعني الردينية السُّمْرا إذا خطرت صار الأنامُ لها أسرى
وبرق من الثغر الشَّنيب تَلألأت بإيماضه أرجاء كاظمة الخَضْرا
وجيدٌ كما يعطو إلى البان شادنٌ تراه إذا أعطاك ملتفتاً شزرا
وبي رشأٌ لا يستطاع فراقُه ويفتك بي ظلماً ويمنعني النَّزرا
إذا ما رأى دمعي على الخدّ سائلاً يقول إذاً لا أمنع السَّائل النَّهْرا
وضيف من الطيف الملمّ بنَا سرى فقلت له أهلاً وسهلاً لك البُشْرى
عَسَى خَبَر عن ظبي نَجْدٍ ورَغْبِهِ تُزيل به عني لظى الفقد والحرّا
فقال: نعم، والحال ما تعهدونَه على أن سِرّ الهجر أظهره جَهْراً
أجَلْ وكذا المحبوب يظهر جفوةً ويزداد مهما قيل يحلو إذا مرَّا
فقلت: دعوني أترك الحبَّ سلوةً وأمدح من في العصر أكرمهم طُرَّا
كثير العطا جم النَّدى واسع الجَدَا به ازدان أهل العصر إذ زيّن العصرا
فَتى لا تطيق الشامخات لِحِمْلِه وبالهمة القعساء قد قارن النَّسْرَا
ويهزأ بالدُّر النظيم بِلَفْظِه على أن في معنى عبارتِه سِحْرَا
إمام له كل العلوم روايةٌ ولكنه دون الأنام بها أدرى
فما الأخفش المشهور في النحو والفَتَى الكسائي وعمرو سيبويه وما الفرَّا
كذلك في التفسير شيخ زمخشر بباعٍ قصير لا يساوي له فترا
وتَصْنيف سعد الدّين نحو مطوَّلٍ فأمرٌ يسير عند هِمَّتِه الغرَّا
على أنّ هذا سيّدٌ لشريفهم ومضطلعٍ لن تستطيع له شُكْرَا
لمنظره فينا جَلالٌ وزانه بخُلْقٍ به يستعبد العبد والحُرَّا

لـه أدبٌ كـالـرَّوض يـشـتـاق نَـحْـوَه فإن قلت أزرَى بالنباتي[١] فَلاَ اطرَا
فَـلاَ زال كـهـفـاً لـلـعـلـوم وأهـلـهـا فوجْدانِه باليُسْرِ قد بذَل العُسْرَا
ولا انـفـك فـي أمـنٍ يـروح ويـغـتـدي معافى بتحذير الزمان من الإغرا
عـلـيـه سـلام الـلّـه مـا ذَرّ شـارِقٌ وما انهملت غيثاً سحائِبُه الخَضْرَا

فأجاب وأجاد:

أيا ماجداً حاز النباهة والفخرا وخُص بعلم راسخ فَعَلاَ قَدْرَا
وحقق بالذَّوْق السليم حقائقاً تَحَيَّر فيها كل من أعمل الفِكْرَا
وغاص لإدراك الدقائق فارتقى مقاماً عَلاَ الجوزاء والشَّمس والبَدْرَا
وسابق فُرسان البراعة يافعاً فجلاً وحلاً أنه الآية الكُبْرى
نظامك وافى يخجل الدُّر نضْدُه وإشراقُه لكنه جاوز السِّحْرا
تَعالى عن الشعر المنقح وارتقى إلى فلك الشهب الثوابت والشِّعْرا
وقَصَّر عنه نظم كل محبِّرِ فما ابن دريد[٢] ما الصَّفي[٣] وما الورّا[٤]
وما الصاحب الكافي[٥] إليه وما البَهَا زُهير وقصدي كل من نظم الشِّعْرا
هم ابن عطاءٍ واصلٌ ونظامك البـ ـليغ إذا ما عارضوه كحرف الرَّا[٦]
وإني لقد أجْبرت فكري بحره ولكنني أستخرج الجزع لا الدُّرَّا
ولم يك من قصدي العراض وإنما تركت به الإعراض عن ذاتك الغَرَّا
ولولا اتساع القَول في وصف مجدك الـ ـعلي لما استطعت القريض ولا النثرا
لذلك جانبت النَّسيب ولم أقل رويداً بصبّ مغرم بكمُ مُغْرى

(١) يعني ابن نباتة الأديب المعروف (سبق).
(٢) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، لغوي وشاعر مشهور، وفاته سنة (٣٢١).
(٣) هو الصفي الحلي (سبق).
(٤) يعني السراج الوراق، شاعر، سبق ذكره.
(٥) هو المعروف بالصاحب بن عباد، إسماعيل بن عباد، شاعر وكاتب ولغوي مترسل مشهور، وفاته سنة (٣٨٥) هـ.
(٦) سيأتي شرح هذا البيت.

على أنني في حلبة الحبّ سابقٌ عَرفتُ الهوى من قبل أن أعرف الأمرا
وآيات شرعي في الغرام ثوابتٌ تجل عن الإنساء والنَّسخ والإعرا[1]
ومرسل دمعي سنَّةٌ غير أنَّه عن النار ينبي لا عن الجنة الخضرا
ويا حَبّذا نار الغرام وحَبَّذا الغرام وما أحلى الغرام وما أمْرا
فما الحي إلاّ من يُقارنه الهوى شباباً وشِيْباً ثم يقتله صَبْرا
ولو قام بالصم التعشق للدّمى الغواني لفاقت في نضارتها التّبرا
ودونك أبيات القصور جرت على طراز مبانيك التي تخجل الزُّهْرَا
ولم أُغْر قرطاساً حواها لمقتضٍ ويقبح ما بيني وبينكم الإغْرا
وعذراً عن التّرغيب في مذهب الهوى بقيت فإني ما شرحت به صَدْرا
ولي في كلام ظاهر فيه مَقْصدٌ سواه هو الأولى بذلك والأحرى
وفي منهج التّعريض مندوحة عن الـ قبيح ومولانا الكريم بذا أدرى
أليس رسول اللّه عَرَّض مخبراً لمن سألته الكشف عن حالها الأخرى
ولا زلت بَحْراً في المعارف كلها وبَرّاً وبدراً في سماء بني الزَّهرا

قوله في الجواب: هم ابن عطا؛ البيت مَعْناه ظاهر والمراد واصل بن عطاء الذي هو أصل مذهب المعتزلة، وكان يلثغ في كلامه بالرَّاء، وما زال يروض نفسه حتى أسقطها من كلامه في محاجته للخصوم وخطبه، وكان إذا عرضت له الكلمة التي فيها الرَّاء عدل عَنْها إلى ما يرادفها وله الخطبة المشهورة التي ارتجلها بحضرة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فأسقط منها الرَّاء، وقد ذكره الشُّعراء بذلك فقال بعضهم[2]:

ويجعل البُرّ قمْحاً في تصرّفِه وجانب[3] الرَّاء حتى احتال للشَّعر
ولم يُطِق مطراً والقول يعجله فعاذ بالغيث إشفَاقاً من المطر

---

(١) يعني الإعراض.
(٢) ابن خلكان ٦ : ٨.
(٣) ابن خلكان: وخالف.

وقال آخر:

تكلف القول والأقوام قد حفلوا وحَبّروا خُطباً ناهيك من خُطبِ
فقام مرتجلاً تغلي بديهتُه كمِرجل القَيْن لمّا حُفّ باللّهب
وجانب الراء لم يشعر بها أحَدٌ قبل التَّصفُّح والإغراق في الطلب

وفي مَعْنى بيت العلامة الأخفش رحمه الله تعالى في هذا الجواب ما جاء لإمام الأمداح النَّبويَّة البُوصيري[1] رضي الله عنه في همزيّته المشهورة حيث قال:

أيُّ حُبّ يصحّ فيه وطرفي للكرى واصلٌ وطيفك راءُ

وقال مولانا الإمام الوالد جمال الإسلام قاضي القضاة محمد بن الحسن الحيمي رضي الله عنه:

إذا جفاني حبيبي عن كراهتِه فلست أذكره سَهواً ولا غلطا
كأنما هو حرف الراء يعرض لي في كلمةٍ وكأني واصِل بن عَطَا

وقال بعضُ الشعراء:

لقد تجنَّبت قول العدل فيك كما تجنب ابن عطاءٍ لفظة الراءِ

وجاء لأبي محمد الخازن في قصيدته التي مدح بها الصَّاحب هذا المعنَى والمصراع في بيت فيها ولَمَّا وصل في إنشاد القصيدة إليه جعل الصَّاحب يصفّق بيديه وهو قوله فيها[2]:

نعم تجنّب لا يوم العطاء كما تجنب ابن عطاءٍ لفظة الرَّاءِ

وما أظرف قول الآخر[3]:

أجعلت وصلي الراء لم تنطق به وقطَعْتني حتى كأنك واصلُ

ولما جاء نَعْي صاحب الترجمة المرحوم، مَا برحت ذا طرف دامع وقلب

---

(١) هو شرف الدِّين محمد بن سعيد البوصيري من أشهر شعراء المديح النبوي، وله ديوان مطبوع. توفي سنة (٦٩٦ هـ). (فوات الوفيات: ٢/ ٢٠٥، والأعلام: ٦/ ١٣٩).

(٢) ابن خلكان ٦: ٩.

(٣) ابن خلكان ٦: ٩.

مكلوم، لما له علي من حقّ الإفادة، والإفضال بكَنز العلم الذي لست أخشى نفاده، وكتبتُ إلى أخيه الأكبر معزيًاً له من النثر قولي:

لا شك أنّ للدُّنيا فلكاً بالمحن طالما دار، وأنّها دار غدار فلذا أنّي في كلامي لَمْ أُلغ دار الغِدَار، فَتباً لها من مكدرة للصَّفْو، وممزّقةٍ مِنَ الحلل لما لا ينجع فيه الرفو، وأيم الله إنها لأيم[1]، تلدغ بَنِيها عن سُمٍّ من الضَّيم، تُعامل بنقيض المراد، وتَرْمي بسهمٍ من الحوادث ما له من راد، ومن أعظم ما تأتي به من النُّغَص، فِراق الأوِدّا الذي بشرابه اللهوات تُغصّ، فكم فَرَّقت بين أحباب، وتسبَّبَت في تشتيتهم بالموت وهو أوحش الأسباب، فإذا كان هذا لَهَا خُلُقاً وعادة، فالصَّبر على مُصِيبتها قِسم من أقسام السعادة، فاحتسب أيها السَّيد فأنت أهل الاحتساب، وانتسب إلى ذوي الصّبر فما أخلقك بالانتساب، وما جَزَعُكَ على راحِلٍ إلى ربِّه، أجْرُكَ بعده خير لك منه ومن قربه، وجوار الله خيراً له من جوارِك، وبرد أنهار الفردوس أنفع من لهب أوارك، ولا محيص عن أمرٍ وقع فيه الأول فالأول، وأصاخ سَمْعه إلى ندائه فمضى عن هذه الدار وتحوَّل، وكيف ينجو الأحباب والأجِلَّة، والدَّهر رام بأسهم النّجوم عن قسي الآهلة، أم كيف لا يبلغ منتهى المضمار، من يكرّبه أشهب النَّهار وأدهم الليل في حلبة الأعمار، والله إن الموت غاية ذي روح، وما أغنى[2] هذه الجُملة عند العارف عن الشروح، فما للَّبيب يعتمد الأنكار، وقد أقام الفناء بينته لدى حاكم الأفكار، شهود لا تجرح، ولا تهمل ولا تَطّرح، ولكِ في العَالم أسوة حسنَة، تُرجع إلى الطرف القريح وسنَه، وتُصَيّر كاللحظة المختطفة عَاماً وسنَة، فتَأسّ ففي التَّأسي للمحزون راحة، واقتْدِ فطَالما أدار الاقتداء مِنْ حُسْنِ العَزا راحة، فكم من مُصَابَ استعمل عند المصيبَة ما يليق من احتسابِه، وتناول كأس الصَّبْر فشَرب به خمرة السّلوان واحْتَسَى بِهِ، مع أنا لو أسفنا على ذلك المُفيد غاية الأَسف، وانمحق بعده بدر مَسَرَّاتِنَا المُنِير وانكسف، لَعُذِرنا ولم نُلَم، ولم يتوجَّه

(١) الأيم: الحية أو ذكر الأفعى.

(٢) في (ز) وما عنا هذه الحمل.

إلينا وجه توبيخ وَلَمْ وَلَمْ، فإن جزعنا فلمثلنا على مثله يليق الجزع، وإن صبرنا على الفزع برزيّته فهو أمان لنا يوم الأكبر من الفزع، تالله لو بكته العيون دَماً، وعاد وجودنا بالتّحرق عليه عدَماً، لقلَّ ذلك وحَقُر، فقد أجنّت عليه الضلوع حرارة عندها حر جهنم قُر، وقد بَكاه الفلك بما عليه، وسمح من نفائس دموع النجوم بما لديه:

وما كُلْفة البدر المنير قديمةٌ ولكنها في وَجْهِه أثر اللّطم

ما لاح برق إلاّ خلْتُه بلا شك ولا ريب، شق عليه من السّحاب المركومة الجيب، ولا أظلم الأفق بالليل، إلا اعتقدته لبس ثوب حدادِ طويل الذّيل، ولا أحمر فيه الشفق، إلاّ قلت هذا دم دمع قد اندفق، هذه العُلَى تَتَحسر عليه بعد العدم، فليس لأهلها إلاّ تأوُّه الأسف وزفرة النّدم، على أنه ما مات مَن ذكرُه حي، ولا توطّن قبراً من نزل لمَّا حميت هاجرة الخطوب من ظِلّ الأرض في فَيّ، فعليه من الرِّضوان الأعم، ما طاب في الجنان مقرُّه فانتعم، وعليك من التَّحية ما يبرد به الحزن في ضلوعك، ويكفكف بمنديله ما اندفق من دموعك، وفي الله من كل مصيبة عزا، وعنده على الصَّبر في هذه الرزية لك أحسن الجزاء، والسلام.

قولي: «وما جزعك على راحل إلى ربه» والفقرتان بعده هو في معَنى ما حُكي أن أعرابيًا عَزَّى ابن عباس رضي الله عنه في أبيه فقال[1]:

لا تجزعنَّ على أبيك فإنَّما سلك الزَّمان به سبيل النَّاس
واصبر نكن بك صابرين فإنّما صَبر الرّعية بعد صَبْر الرَّاس
خيرٌ من العباس أجرُك بعده والله خير منك للعبَّاس

قال ابن عباس رضي الله عنه: ما عزَّاني أحد في أبي أحسن تعزّية من هذا الأعرابي، انتهى.

ومن هذا ما جاء للمولى الأمير الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى لما

---

(١) في ابن خلكان ٤ : ٤٤ منسوبة إلى إبراهيم بن موسى بن جعفر العلوي.

توفي المولى الحسن بن الإمام المتوكل على الله[١] وعزّى بعض إخوته فيه فقال:

لا تـجـزعـنَّ عـلـى حَـسَـن ... كـل بـهـذا مـرتـهـن
واصـبـر لـذلـك واحـتـسـب ... فـالأجـرُ أحـسـنُ مـن حَـسَـن

جَدُّنا القَاضي العَلامَة صَلاح بن عَبد الله الحيِّي[٢]

نسلُ علماء زكا نجَارُهم، وبقيَّة كرمَاء عَزَّ جارُهُم، سِلْسلة من نضار متصلة الحِلَق، ونطفٍ صُوِّرت من النُّور وقد خُلق الإنسان من عَلَق، ما منهم إلا مجتهد قد مضى، أو نجم بازغ في أفق الطَّلب قد أضا، أو بدر كامِل قد طلع في فلك القضا، فهو للفضل كعبَة، قد رفع الله شأنه وأعلى كعبه، تقول حُلل العلوم في حقه نشر بهذا طيِّبْ، وتُنَادِي المعارف مُشِيرةً إليه: إذا كان الغير مَيِّتي فهذا حيِّيْ، روضٌ يشقّه من علم الأصول والفروع نَهْران، فهو في الفقه ذو يدٍ تبهر ابن بَهْران[٣]، جواد لا تباريه الغمام، وحديقة عوارف لها من الثنا حَمَام، رحْب الرَّبعْ، أصلب في المروءة من النبع، فاتح للنَّوال خاتم، أسمح من لافظة[٤] وأجود من حاتم، ذو قِراءةٍ وقِرى، فكم حمد العفاة في ليل الخصاصة عند صبح نارِه السُّرى، وكم وقع قاصده من فنائه في روضة وغدير، ونزل من أفناء كرمه في خورنق وسَدير، سابغ إنعام، في الضِّيافة والإطعَام، يطوف الوفد حول جفانِه، ويستجير الجائع من مخمصتِه تحت ظِلال رِغْفانِه، يخافه قُرص الشَّمس، وإن كان عزيز المنال متعذِّر اللّمس، من أن يتناوله لوفده، ويجعله من أقراص جوده ورِفْده، وهو

(١) هو الحسن بن المتوكل علي بن إسماعيل، كان من أعيان عصره وفاته سنة (١١٠٨ هـ) انظر ترجمته في (نشر العرف ١/ ٤٥٦ ـ ٤٦٣).

(٢) ترجمته في (نشر العرف ١/ ٨٠١). وفيه وفاته سنة (١٠٨٠ هـ).

(٣) هو محمد بن يحيى بن بهران من علماء اليمن، له عدة مؤلفات منها «جواهر الأخبار» توفي سنة (٩٥٧ هـ انظر: (مصادر الفكر ٥٦).

(٤) من الأمثال، واللافظة هي الحمامة لأنها تزق فرخها بما في حوصلتها. (المستقصى ١/ ١٧١).

جَدِّي من قِبَل الأُمّ، فها أنا أدفع بذكره من الخَطْب ما حُمّ، أتَّقي باسمه العظائم، وأدرأُ به ضيم كل ضائم، نُصِب للقضاء فرفع، وجاء بشاهدٍ من فَضْلِه ما دُفع، فَصفت بأحكامِه المشارب، وأشرقت بنور عدله المغارب، ودعا المبطل عنده بالثّبور والويل، لأن قلمه تحت مداده عليه أطغى من السَّيل تحت الليل، وولي الخطابَة فكان بالمواعظ كافِلاً، وطلع بدره في فلك المنابر فما رُئي آفلاً، وغرَّد على أعوادها صادحُه، فطوقه بطوق الثناء مادِحُه، إلى أن صمت عن هديله، ورضي غُصنه المائل ببديله، فمات والحداثة عليْه غالِبَة، ونفق عِلْقه لما كانت المنية في سوق الحِمام جَالِبَة، أدام الله عليه منائح غُفْرانِه، ورفع شأنه في الآخرة كما رفعه في الدنيا على أقرانِه، ولا زال حديثه القديم، تحفةَ الجليس وبغيةَ النَّديم، ما تختمت راحة الجوّ بفيروزج الصَّباح، وسمح النَّهار بدينار الشَّمس لَمَّا علم أن السَّمَاح من الرباح[١]، وشعره في حكم العدم، لأنه إن نظم شيئاً أدركه النّدم، فهو لا يرضى أن يلصق بعلمه الشّعر، ولا يرغب في لؤلؤ النَّظم وإن كان وافر القيمة غالي[٢] السّعْر، فلم أظفر له بعد الجد والاجتهاد، إلا بقوله في خطاب بعض الملوك وقد حثّ على الجهاد:

أسنى السلام يضيق منه النادِي ... أبداً كروضٍ بالغمامة نادي
يأتي إليك مبيناً شوقي الذي ... قد زاد حتى ضاق عنه فؤادي
هذا وإني قد نظرتُ ألوكة[٣] ... حَرَّرْتها معلومة الإسناد
وبها حَثَثْت على الجهاد وحَبَّذا ... جَهَرَ النّداء يقول يالجهاد
جاءت فواصلها كدُرّ نظْم الد ... ر الحقيقي في سموط كساد
لا غرو إن حُزت الفصاحة في الورى ... فأبوك أفصح ناطق بالضّاد
هذا ولا زلت المُبَجّل ما انثنى ... غُصن الرياض بعطفه المَيّاد

---

(١) إشارة إلى ما جاء في الحديث السماح رباح أي المساهلة في الاشياء تربح صاحبها.

(٢) في (ز) على.

(٣) رسالة.

والـلّـه يـحـرسـنـا بـصـولـتـك الـتـي ... مـا بـيـن بـيـضٍ جـرّدت وصـعـاد
ويـصـون هـذا الـثَّـغـر مـنـك بِـسَـطْـوةٍ ... تـسـطـو بـهـا فـي حـسّـد وأعـادي
ثـم الـصـلاة عـلـى الـرّسـول وآلـه ... والـصَّـحـب حـزْب الـهـدي والإرشـاد

قوله: «وأبوك أفصح ناطق بالضّاد» هو كما قال الرَّسول ﷺ «أنا أفصح من نطق بالضَّاد» ولذا قال الشيخ شمس الدين النواجي رحمه الله تعالى في بائيته عند مَدح رسول الله ﷺ:

مفصّح الضَّاد مروي الصاد من كلم ... تـتـلـو بـراعـتـهـا الأسـجـاع والـخـطـب

قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة حديث: «أنا أفصح من نطق بالضَّاد» معناه صحيح لا كما قال ابن كثير لا أصل له[1].

قال الحافظ حجة الإسلام في العصر القاضي وجيه الدين عبد الرحمٰن بن محمد الحيمي رضي الله عنه الآتي ذكر ترجمته في هذا الكتاب: يشهد لمعناه ما أخرجه ابن سعد عن زكريا بن يحيى عن يزيد السَّعدي عن أبيه معضلاً[2] بلفظ «أنا أعربكم أنا من قريش ولساني لسان بني سعد بن بكر» قلت: وقد كتب المولى الأمير الحسين بن عبد القادر رحمه الله تعالى إلى شيخه مولانا الوالد قاضي القضاة جمال الدِّين، محمد بن الحسن الحيمي رضي الله عنه أرجوزة يسأله فيها عن معنى هذا الحديث، وسماه (مروي الصَّاد) في بيان قوله ﷺ: «أنا أفصح من نطق

---

(١) كذا عند المؤلف، والذي في المقاصد ومختصره «تمييز الطيب» (٢٤): «معناه صحيح ولكن لا أصل له كما قال ابن كثير» وكذا في اللآلىء المصنوعة، وقال العجلوني: أورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد، ورواه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلاً بلفظ «أنا أعربكم أنا من قريش ولساني لسان سعد بن بكر» ورواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري بلفظ «أنا أعرب العرب» انظر (كشف الخفاء ١/ ٢٣٢) وانظر (الأسرار المرفوعة ٧٠ وإحياء علوم الدين ٢/ ٣٦٤).

(٢) الحديث المعضل: هو ما سقط من إسناده اثنان أو أكثر في موضع واحد سواء أكان في أول السَّند أم في وسطه أم في متنهاه «منهج النقد ٣٧٨».

بالضَّاد»، وأجابه بأرجوزة أورد فيها ما أورد من البحث العلمي، وقد أثبتُ كلا الأرجوزتين في كتابي المسمَّى «رعي الأبّ»[(١)] قال الجار بردي[(٢)] رواية عن شرح الهادي: من قال أن النبي ﷺ عَنَى نفس الضَّاد لصعوبتها فقد أخطأ لاستواء العرب الفصحاء في الإتيان بالحروف جميعاً على وجه الكمال انتهى كلامه، قال أبو الطيب المتنبي[(٣)]:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كلّ من نطق الضَّاد (م) وغوث الجاني وكهف الطَّريد[(٤)]

قال ابن جني في الكلام على هذا البيت: لا ينطق بالضَّاد إلا الفصحاء من العرب، فلو جاء بحرفٍ يشترك فيه كل لافظٍ لكان أمدح له وأحسن انتهى كلامه.

والذي أقوله أنا: إن كلام ابن جنّي هذا عندي غير متلقًّى بالقَبول، فتَخْصيص المتنبِّي للضاد من بين سائر الحروف كتَخْصيصك للشَّمس من بين سائر الكواكب، لأنَّ كلامه ينبىء على أنه من فصحاء العرب كما تقرر أنَّ الضَّاد تختَصّ بهم، والعرب كما هو ظاهر أشرف أجيال القبائل على الإطلاق، ولذا بعث ﷺ منهم فهو خيار من خيار كما في الحديث، فإذا كان على هذا أفصح العرب فبالأولى أن يكون أفصح سائر القبائل؛ لأنه قد صار أفصح من هم الغاية والنهاية فالمَغْنَى في بيت المتنبي على هذا أنه أشرف قومه، وقومه أشرف من نطق بالضَّاد، ومن نطق بالضَّاد أشرف القوم من سائر القبائل على العموم، فهات أرني ـ أرشدك الله تعالى ـ هل بعد بَيْتي أبي الطَّيب المتنبّي مع هذا المعنى غاية تُرتقى؟ لا والله ما علمت بغاية

---

(١) سبق ذكره.

(٢) هو فخر الدين أحمد بن الحسن بن يوسف الجاربردي، من مؤلفاته «شرح منهاج البيضاوي» و«شرح شافية ابن الحاجب» وفاته سنة (٧٤٦ هـ). (طبقات الشافعية ٥/ ١٦٩، والأعلام ١/ ١١١).

(٣) (ديوانه ١٧).

(٤) الديوان: وعوذ الجاني وغوث الطريد.

بعده، فنظمه كما تراه في غاية المدح لنفسه، فلا أصل لقول ابن جني أنه لو جاء بحرف يشترك فيه كل لافظ لكان أمدح له وأحسن. انظر إلى قوله ﷺ في هذا الحديث: «أنا أفصح من نطق بالضَّاد» وفي الحديث الآخر «أنا صفوة الصَّفوة» فقد كفانا مؤونة التكلم، أليس هو حكم أنه صفوة آبائه وقومه، وآباؤه وقومه صَفْوة سائر النَّاس؟! فهذا غاية في بيان محلّه من قومه ومحل قومه من سائر الناس، وإلا لقال: أنا صفوة العالم أو النَّاس أو نحوهما، فبيتي المتنبي في الذّروة العالية من المدح لنفسِه كما تراه، فاطّرح قول ابن جنّي جانباً، وسدّ عن استماعه صماخيك وكن عنه أصم السمع كصممه[1]، وقال ابن دريد: الضَّاد للعرب خاصة ولقليل من العجم، وزَعم المتنبي أنَّها للعرب لا غير، فأراد أنهم فخر العرب كلها انتهى كلامه.

أقول: وقد دَلّ أنها للعرب خاصة نظم الإمام محمود الزمخشري رضي الله عنه من قصيدة له قرأتها في ديوانه، ودلّ نَظْمه أيضاً بأنَّ الصَّاد المهملة تختص بالعجم وهي لا تخص بهم فإنَّ العرب كما تسمع ينطقون بها ولعله أراد باختصاصهم بها أنهم يضعونها في كلامهم محلّ الضاد المعجمة أو محل غيرها من الحروف لأنها مقصورة عليهم والله أعلم. وقد يكون أراد بالصَّاد من الصّد وهو الصرف والامتناع، يدل عليه قوله: فَصَدّ وهو بعيد، ونظم الإمام الزمخشري رحمه الله تعالى هو قوله في المدح:

ألقى التواضع في أحشائه مِقَةً ... فصَدَّ عن كبرياء النَّفس والصَّادِ
واختص بالصَّاد عجم لا خلاق لهم ... في المكرمات اختصاص العُرْب بالضاد

وكتب صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى إلى مولانا الوالد رضي الله عنه مجيباً عليه على كتاب كتبه إليه يعلمه فيه بأنه يريد تطهيري بالختانة أيام كنت طِفْلاً ما صورته ولفظه:

---

(١) في ترجمة ابن جنى في وفيات الأعيان ٣: ٢٤٦ «ويقال أنه اعور» ولم يذكره بالصَّمم فيحقق.

شرف الله مجامع العلوم، وأزال من الجهالات موجبات الكلوم، ببقاء سيدي القاضي العلامة في سائر الفنون، والمتبحّر في المعارف، فما وصلت إلى عرفانه الأوهام ولا بلغت الظنون، عزّ الهُدَى، والخيرة في الذين بهم يقتدَى، محمد بن الحسن الحيمي صان الله عن الحوادث مقامه، وأهدى إليه تحيتَه وسلامَه، وجعل شخصه في حماية عن كل كارثٍ وسلامة، نعم وصل منكم الكتاب المنطوي كلامُه على لآلىء، المُنبي على الجزم بإعذار الولد أحمد أهّله الله للمعالي، وتطهيره في هذه المدَّة القريبة، وتشذيب غصون شبابه الرطيبة، ولا بأس بإتمام هذه النيَّة، وتطييب هذه الثَّمرة الجنيّة، والإشعار لهذه السُّنة التي سَنّها إبراهيم خليل ربّه، والمُصْطَفى لِخُلَّتِه والمختار لِحبِّه، ولكن[1] قد عرفتم أن الواجب علينا الحضور، واللازم لنا ما لا بُدّ منه من خير الأمور، فأخّروا ذلك إلى الشهر الآتي وكل آتٍ قريب، حتى يتم لنا الوصول إليكم لنأخذ من هذه المسرَّة بنصيب، ونبالغ في إشعارها وإشاعتها، ونشر موسمها المبارك ويمن ساعتها، فالولد كما عرفتم ولدُنا، وبه يَنْمو إن شاء الله تعالى حزبنا ويتوفَّر عددُنَا، وله حق علينا لازم، يعد من أثبت الحقوق والمغارم، والله يبلغنا وإياكم فيه ما يُرْجَى، ويجعله بالفضل ممن يُمدح ولا يُهجا، ويوضح به كما أوضح بآبائه لطُرق العلى نَهجا، فَسمات النجابة عليه لائحة، وذاته الكريمة لكل مكرمة صالحة، والسلام.

القاضي المهْدي بن الحُسين الحَيِّي المَعْرُوْفُ بالقَدِيمي[2]

قديميّ حديث فضْله حديث، وروض محامده مُخْضَر أثيث، مَليء من الفضل لَمَّا صار غيره عديماً، مُسْتبِد به في هذا الزّمان كما قلت فيه قَدِيْمَاً:

كـلـمـا حـدَّث عـن فـضـل بـنـي الـعـصـر نـديـمـي
قـلـت دع قـولـك واسـمـع فـحـديـثـي فـي الـقـديـمـي

---

(١) في (ب) ولقد قد، وفي (ش) وقد.

(٢) ترجمته في (نشر العرف ٢/ ٧٥٩) نقلاً عن كتابنا هذا.

وقلت مضمّناً:

القديمي قدمته المعالي فهو منها والله غير عديم
مدحوه وهو الحديث فقلنا أولع النَّاس بامتداح القديم (ي)

نصب للقضاء فرفع، وشهد له تحقيقه بالسَّبق فما دُفع، قرأ في الفقه فحقَّق، وأدار[1] رحاه فيه فدقَّق، قطف بيد الفحص الأزهار، وتَنَاول بها ما يَنَعَ من الأثمار، فَقُصِد للفُتْيا والفَضْل، وعُرِف بقطع الشجار بعد الوصل، وهو في الأحكام فتيك، وفي المُشْكِل أحسن من يُفْتيك، ما توجَّه لمقفل إلا فكّه، ولا فتح باب حديقته إلا نزه المبصر وفكَّه، جعل العرفان ملاذَه، واستَعْذب روضُه وبَله ورَذَاذه، وهو من بيت عمرت بالإفادة أركانُه، وشرفت بالخصال المحمودة سُكَّانُه، ما غاب منهم عالم إلا بدا عالم، ولا انقضى كالم للجهالة إلا ابتدر كالِم، ما غرب نجمٌ إلا طلع نجم زاهر، ولا نام في لحده نائم إلا تيقَّظ بعده ذو جفنٍ لطلب العلا سَاهِر، وهذا القاضي له سيف همةٍ ماضٍ، يلهج بكتب العلوم والآداب غاية اللَّهج، ويمد في أفق التحصيل سحاباً ليست برهَج، بل هي غيدَاقة الأذيال، يرتضع من أخلافها الغصن الميَّال، ما سمع بشيء إلا نَقَلَه، وَجَلا بجوهر رقمه حسام قرطاسِه وصَقَلَه، وقد حَصَّل من عند والدي فوائد، ونقل من إملائي عليه ما يُعَد بتعوده سالكاً في أحسن العوائد، ما سمع مني لطيفة إلا هام بها حُبًّا، ولا اجتلى من بنات فكري مقصورةً في خيامها إلاَّ أنزلها من دفاتره سَهْلاً وأوسعها رُحْبًا، ولما طالعَ كتابنا المسمَّى «سلافة العاصِر»، أثنى عليه ثناء لا يحيط به اللَّفظ القاصِر، وجال في مدحه أيَّ جولة، وكتب عليه من نظمه قوله:

لله قاضينا صفي الدين شمس الهُدَى وإمام حور العين
بحر المعارف والعوارف والعُلا من جاء في علم له بفنونِ
ذاك الشهاب الفرد قاضي عصرنا بحر يغاص به بغَيْر سفِينِ

---

(1) في (ز) وأدر.

أبـدى لـنـا دُرّاً بـرائـق لَـفْـظِـه　　فاقت على معنًى صلاح الدين[1]
لـلَّـه درك أحـمـد بـنِ مـحـمـدٍ　　فـلـقـد أتيت بـلـؤلـؤ مـكـنـونِ
ولـقـد حويت بـمـا جـمـعتَ فـرائـداً　　تُـزْرِي بـعـقـد فـي الـنـحـور ثـمـيـنِ
أبـقـاك ربُّ الـعـرش فـيـنـا أوحـداً　　يـأتـي بـمـا هـو رَوْح كـل حـزيـنِ
وجـزاك عـنَّـا الـلَّـه خـيـر جـزائـه　　مـن بـعـد عـمـرٍ طـائـلٍ وسـنـيـنِ

وقوله: «وإمام حور عين»، هو كناية عن كتب العلم الشّريف كما قاله جَدُّنا الإمام العلامة القاضي نشوان بن سعيد الحميري رضي الله عنه في شرح رسالة «الحور العين»[2] التي أنشأها وهي مشهورة.

وقوله: «فاقت على مَعْنى صلاح الدين» المراد به الفاضل العلامة الأديب القاضي صلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي رحمه الله تعالى، وهو ظاهر لدى العارف اللَّبيب.

القاضي العَلامة الحُسَين بن علي العَبَّاسي المعْرُوفِ بسافُوف[3]

من تلاميذ جدّي وأتباعِه، وممّن طال بخدمته سمك باعِه، استفاد منه علماً ومالاً، ونال ما لم يخش نفاده وما لا، له خِلاَلٌ من الفضل قُدَّت، وأعناق همم إلى أرفع المعالي مُدّت، وطرق محامد عن غيره سُدَّت، وأرشية عزم بالنجوم شُدَّت، وشيم حميدة أفحمت الفصيح وقد عُدَّت، شَمَّر أذياله عن ساقه، ونظم عقد الطلب في غاية اتساقه، وفحص عن العلوم كدًّا، لما صار ذوو الجهل لديه كالدا، فحصل من علم الفقه ما رقَّاه إلى مراتب الفَتْوَى، ونال منه ما أشار إليه لأجْله رأس التَّحقيق رَتْوَا، ثم زاد في الترقي، حتى قال له القضاء هاك منشور رقّي، فولي الأحكام وعدل، وما لعطفه عن الضعيف من بدل، وله في علم

---

(١) يعني صلاح الدين الصفدي، سيأتي شرحه.

(٢) انظر (الحور العين ٥٤).

(٣) ترجمته في (نشر العرف: ١/٥٨٦) نقلاً عن كتابنا هذا، وفيه سافون بالنون.

المساحة والذَّرْع، علم يضيق عن معشاره الذرع، فهو في علم الفرائض إمام به يُؤتم، ومفرد بعرفانه يفتح الحديث ويختم، لما تفرغ لتحصيله وتجرد، وورث هذا العلم بالفرض[1] والردّ[2]، وتلقاه لا عن كلالة[3] لما قُسم له منه ما قُسم، وجاوز فيه الحد الذي لغيره رُسم، فدون عرفانه على المتشبّه به هول، فكم وقف عن حيرته عند تفسير المناسخة[4] والعول[5]، وله في هذا العلم خاصة مسائل مُحرَّرة، وفوائد على أثبت القواعِد مقرَّرة، وأراجيز منظومة نظم العقود النَّاسقة، ورياض مدبّجه في أوراقها ذات فروع باسِقة، يُجْتنى منها أحلى ما يجتنى، ويقتنى من فواكهها ألذَّ ما يقتنى، وله في علم الكلام، أرَاجيز أيضاً كالجنان تَدْخل بسلام، نظمها فأحسن لها سَبْكاً، يقال عندها لحاسده على مثل ذا يُناح ويُبكى، وكنت أراه على الدّرس مواظباً، يصيد بشباك ذهنه سوانح الظّبا، ويفصل الشجار، فَيَنْزجر المبطل عن هواه أتم انزجار، ويقسم المواريث بعد الضرب، ويفرج من الإشكال فيها عظيم الكرب، ثم إنه أصابه في آخر العمر خلْطٌ في عَقْله، فبطل من علمه ما حرره بنقله، اسْترق الألَس[6]، عقله الراجح واختلس، لا لكبر جاوز حدّه، أو لعمر طالت به المدة، فكان في بعض أوقاته يبكي أشد البكا، وينزح ما مقلته من الشّجو بالرُّكا، ثم إنه في أسرع من لمحَةٍ وأقْرَب، يَضْحك في أثناء بكائِه ضحِكاً فيه قد استغرب، لا لأمرٍ يوجب الأمرين أبداً، وإنما هو لشيء يبدو له ومن شأن الإنسان البدا، فهو من الذين يضحكون قليلاً ويبكون كثيراً، رفعه الله تعالى في الجنان مقاماً أثيراً، فما برح في بيته محجوباً، وما زال إناء قضره في قصره

---

(١) الفرض عند أهل المواريث: الحصة والنَّصيب.

(٢) الرد: هو توزيع ما فضل عن الحصص الأصلية لذوي الفروض لعدم وجود عصبة من الورثة.

(٣) الكلالة: مَنْ لا ولد له ولا والد.

(٤) من الميراث هو أن يموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم لم يقسم ثم لا يقسم إلا بعد أجيال.

(٥) العول: زيادة السهام على الفريضة، أو زيادة في عدد السهم ونقص في مقاديرها.

(٦) الجنون.

مَنْجُوباً، إلى أن أبكاه أجله المحدود، وأضحكه جزيل أجره المعدود، سقاه من الحيا مدرارُه، حَتَّى تتفتَّح من زهر ملْحده أزرارُه، ولَهُ شِعْرٌ شعار قلمه بالمداد عبَّاسي[1]، ونظم لما لطف قالت النَّسيم لقد استَرقَ أنفاسي، منه قوله[2]:

مرَّ زمان الصِّبا النَّضير فهل ... يقال للقلب بعد ذاك سَلا
وكيف لي بالسّلوّ في زَمني ... يوماً وخضب الشَّباب قد نصلا
شمس مشيبي عليّ قد بزغت ... فالليل من عارضي قد ارتحلا
ولم أزل عاكفاً على عَملٍ ... لا يرتضيه الإلٰه لي عملا
يا عين هِبِّيْ أراكِ نائمةً ... والجفن بالغمض منك قد كُحِلا
لهفي لدهرٍ مَضَى وما صنعت ... نفسي به الخير فانقضى هَمَلا
يا ربّ فامننْ بحسن خاتمةٍ ... ولا تخيب لآملٍ أملا

قوله: «قد نَصَلاَ» هو بالنون والصَّاد المهملة أي ذهب، يقال نَصَل الخضاب إذا ذهب من اللّحية، ونصلت اللّحية نُصُوْلاً وتنصَّلَت فهو ناصل: خرجت من الخضاب، ولذا قلت أنا في التورية:

نصول ذكر الشباب أدمت ... قلبي وقد فاتني وُصولي
إذ نَصَل الخضب عن مشيبي ... آهاً لقلبي من النُّصُوْلِ

التورية في قولنا «من النّصول» ظاهرة لأنها تحتمل أن يكون المراد بالنُّصول جمع نصل بسكون الصَّاد وهي حديدة السَّهم، ولهذا المقصد يرشّح قولنا «نصول ذكر الشباب أدمت» أي سهامه، ويحتمل أن يكون المراد بالنُّصول الإفراد، وهو نصول خضاب الشيب أي ذهابه، ولهذا المَقْصد يرشح قولنا: «إذ نَصل الخضب عن مشيبي» وبذلك تعرف تمكن التَّورية. ومثله ما ضمنته أنا أيضاً في الاستخدام بالضَّمير فقلت:

---

(١) القلم العباسي والمداد العباسي مداد خاص بالقضاة عند أهل اليمن تحرر به الأحكام.

(٢) نقلها صاحب (نشر العرف: ١/ ٥٨٧).

يا زمان الصّبا نعمت فذا الشيب (م) أعاد السَّواد منك قَميًّا
راع قلبي خضابه بنصول فبها قد غدا فؤادي رميًّا

وقلت في القول بالموجب:

قال لي المحبوب لما أن غدا خضب شيبي واضحاً كابن ذكا[1]
قد رمى قلبك شيبٌ أبيضُ بنصول قلت من أسهمكا

قوله: «شمس مشيبي عليّ قد بزغت» هو بالباء الموحدة والزاي والغين المعجمة أي طلعت، يقال بزغت الشمس إذا طلعت وبزغ القمر والنَّجم إذا طلع؛ لأن البزوغ الطّلوع ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾[3]، وجاء أيضاً بزقت الشمس بالقاف وهو بمعنى بزغت أي طلعت، والغين والقاف من مخرج واحد، وفي حديث أنس: «أتينا أهل خَيْبر حين بزقت الشمس»[4] هكذا في الرّواية بالقاف أي بزغت.

وعلى ذكر البزوغ هنا نُورد ما نظمته أنا في مليح يلقب بالبازغة فقلت:

من لي بخشف أصبحت مهجتي عن كل خُود دونه فارغه
لو لم يكن في الحسن بين الورى شمساً لما قيل له البازغه

وقلت أنا أيضاً في مليح حجّام وفيه القول بالموجب:

بزغ الدما حجّامنا حتى بَدَت كالدَّمع منا في السَّوالف حين مرّ
قالوا: أترضىَ حين أضحى بازغاً؟ فأجبت حُسنًا كالغزالة والقمر

وقلت فيه أيضاً:

لله حجامنا وقد بزغ النجـ ـيع منا كالسيل ينحدرُ

---

(١) ابن ذكاء: هو الصبح وذكاء الشمس.

(٢) الآية (٧٧) سورة الأنعام.

(٣) الآية (٧٨) سورة الأنعام.

(٤) انظر (النهاية في غريب الحديث: ١/ ١٢٥).

قـالـوا: غـدا بـازغـاً فـقـلـت لـهـم: بـــذا عـــلـــمـــنـــا بـــأنـــه قـــمـــرُ

معنى: «بزغ الدّماء» و«النجيع» في هذين المقطوعتين أي أسالهما، يقال بزغ دمه إذا أساله، والبزغ والتبزيغ الشرط بالمشرط وهو المبزغ. وفي الحديث: «إن كان في شيء شفاء ففي بزغة الحجام»[١].

صاحبنا القاضي الحُسَين بن عَبْد الله بن مَسْعُود

مسعودٌ في العلم وابن مسعود، وعارف يُورق من ماء معارفه العود، لو أدركه المسعودي[٢]، لقال له: هَزّ رمح قلمي والمَسْ عُودي، لكي يطعن ذاك في نحر المخالف، ويثمر هذا بما يطيب جَنياً للموالف، ينقاد إليه عن رغَبٍ وعن رَهَب، ويَهْوى لتقبيل أقدامه ويفرش لها «مروج الذّهب»[٣]، هو روض فَضْل ظله سَجْسَج، وخدوْد ورده قد عذرت بالبنفسج، منح الدَّهر من كماله، ما زاد في حسنِه وجمالِه، فوَشْيه فضفاض أنيق، وحديقته زاهية بين الأقاح والشَّقيق، حِلْف ذكاءٍ ونباهة، وبحر علمٍ لؤلؤه في صدف الفكاهة، له مِراسٌ في الفنون، وآثار لا تبلها السنون، فهو في كنوز العلم قارون، وأمَّا في علم القراءات السبع فقالون[٤]، بل هو فيه للطلبة نافع[٥]، ولأسهم الضلالة عنهم بمجن عرفانِه دافع، بل هو لكل

---

(١) ذكره في (النهاية: ١/ ١٢٥) وانظره في الفاظ مختلفة في مسلم: ١٧٣٠ والبخاري ٧: ١٥٩ بلفظ شرطه موضع (بزغه).

(٢) هو علي بن الحسين، مؤرخ وجغرافي ورحالة، وفاته سنة (٣٤٦ هـ). (وفيات: الوفيات ٢/ ٤٥ والأعلام: ٤/ ٢٧٧).

(٣) تورية باسم كتاب للمسعودي السابق الذكر.

(٤) هو عيسى بن مينا، أحد القراء المشهورين، وفاته سنة (٣٢٠ هـ). (غاية النهاية: ١/ ٦١٥ والأعلام: ٥/ ١١٠).

(٥) هو نافع بن عبد الرحمٰن الليثي، أحد أئمة القراءات العشر، وفاته سنة (١٦٩ هـ). انظر (المنجد في الأعلام ٧٠٥).

مسترشدٍ عاصم[1]، ولعُرى الجهالة قاصم وأي قاصم، به تقلل ابن كثير[2]، وتعرَّى السوسي[3] عن أثواب علمِه التي لا تذكر عندها مطارف الحرير، وهوى قُنْبُل[4] من سماء إقبَالِه، وتقلقلت عنده شوامخ أجباله، صنَّف وألَّف، وشابه البدر وما تكَلَّف، وهو من تلاميذ والدي معدود، وممن آوى لما أحرقته هاجرة الجهالة إلى ظل علمه المدود، على أنه ليس من بيت عرفان ولا من قوم راق لهم من العلم والأدب لهم صنفان، وإنما هو نابغة اجتهد وجدّ، وبذل نفسه للطلب حتى وجَد، والنّرجس من البصل، والذَّهب من التراب وهو أنفس شيء عليه المرء حصل، ولا تُعيب الماء القراح خسة المَنْبع، ولا يحط من شرف الرماح هوان المُنَبت والمَربع، لأنه من قومٍ عملهم الجِبَاية والوزَانَة، وإنما هذا الفاضل رفعه فضله وزانه، والدَّهر كالميزان يرفع ويخفض، كما أنَّه يأخذ تارة وتارة يرفض، ولما آبت شمسه منازل سقوطها، ورأت أن في الميزان [برج] هبوطها ترفعت عنه إلى دارة الحمل، فكان ذلك من خير العمل:

وكذاك شمس الأفق في أبراجها تعلو وبرج هبوطها الميزان

ثم لما نزَّله أهل الوطن مَنْزلة آبائه، ولم ينزّلوه منزِلة بلغ إليها عزم حَوَبائه، رحل وسار، وفَكّ نفسه من الإسار، ونزل بديار صنعا، فأحسنت به الأيام صُنْعا، وبيني وبينه صحبةٌ ووُدّ، وائتلاف ما منه براح ولا بُدّ، ولم يبرح للين عيشه يحتلب،

(١) تورية بعاصم بن أبي النجود الكوفي، أحد القراء المشهورين، وفاته سنة (١٢٧ هـ). (غاية النهاية: ١/٣٤٦ والأعلام: ٣/٢٤٨).

(٢) هو عبد الله بن كثير الداري المكي، أحد القراء السَّبعة، كان قاضي الجماعة بمكة، توفي سنة (١٢٠ هـ). (وفيات الأعيان: ١/ ٢٥٠ والأعلام: ٤/ ١١٥).

(٣) هو أبو شعيب صالح بن زياد السوسي، مقرىء ضابط للقراءات، توفي سنة (٢٦١ هـ) (الأعلام: ٣/ ١٩١) والسوسي عند أهل اليمن أيضاً نوع من الثياب.

(٤) هو محمد بن عبد الرحمٰن المكي المخزومي، من أعلام القراء، كان إماماً متقناً ولي الشرطة بمكة، توفي سنة (٢٩١ هـ). (غاية النهاية: ٢/ ١٦٥ والأعلام: ٦/ ١٩٠).

ومتاع فوائِده إلى أسواق الدَّرس يجتلب، حتى ولي القضاء من اليمن الأسفل، بذي السُّفال فبقي به أياماً ثم مات فكفله ربّه أحسن كِفَال، أكرم الله نزله إذ رغب في مجاورته، وسقاه مِن كؤوس الرِّضوان أضعاف ما سقاني من كؤوس محاورته، وأشعاره بلسان الأبد متلوة، وعروس معانيه على منصة الزّمان مَجْلُوّة، وكؤوس نفثاته من خمرة البلاغة مملوّة، ومن ميزان عروضِه، الذي لما أدركه رَأى رفض ميزان أبيه من فروضه، قوله من قصيده أنشدنيها من لفظه، وسمعته يمليها عليّ من حفظه:

حَيّا الحيا رَبع من ساروا ومن بانوا ... حَتَّى يُرى ماثلاً في روضه البَانُ
ما للمطايا غدَت تهوى المسير وما ... بال الحُداة فلا كانت ولا كانوا
في الصبّح عن غير من نهواهم[1] ظَعَنُوا ... يوم النوى وهُمُ في القلْب قُطَّانُ
بانوا فلا السفح سفح بعدما انفصلت ... عَنّا الركاب ولا الأوطان أوطانُ
لا ماس غصن النقا من بعد بينهمُ ... ولا أمالته بالتَّغْريد الحَانُ
ولا اكتسى حلة الأوراق إذ نسجت ... رقيقها فوق عطفِ منه أمزانُ
ولا انثنى ثَملاً لما أدير لَهُ ... كاس من القطر بالأدهاق ملآن
ليت الأحبة بعد البعد قد علموا ... حالي فلو علموها بعدهم لانوا

وكنت ذات يوم في مجلس الدَّرس، أتناول باكورة العلم من منهدل الغرس، أفيد وأستفيد، وأحَلِّي بفرائِد الفوائد كل جيد، إذ وفد عليَّ وفود الغيث بعد الجدب، وورد إلى مقامي ورود المسرّة عقيب الخطب، فأكرمتُ نُزْلَه، وتلقيته بما يليق أن يتلقَّى مِثْلي مِثْلَه، واستمرت المراجَعَة بَيْنَنا على العادَة، وتساقطت في مجلسنا من خلال الأوراق ثمرات الإفادة، وأملاني له أشعاراً، مما زادني بفضله إشعاراً، فممَّا خَصَّني به من نظمه الذي عَمّ، قوله في حصر أصول النِّعم:

ولِلَّه في النعما أصولٌ أفاضَها ... عَلَى الحَيّ لا تُرضى لَدَيْها النَّفائِسُ

---

(١) في (ز): في الصبح من غير أهواهم ضعنوا.

حياة وخلقٌ بعد هذين قدرةٌ مع الشهوةِ التمكّين والعقل سادِسُ

وقوله في حصر الواجبات على الباري عَزَّ وعلا - على رأي أهل الاعتزال[(١)]:

الواجباتُ على الرحمٰن تَجْمَعُها سِتٌ أبيِّنها في النظم تبيينَا
لطف بيان وتمكين كذا عِوَضٌ مع القبول ثوابٌ للمطيعينَا

وقوله في حصر ما يعمل فيه بالظّن:

وسبع يكتفي بالظّن فيها فتعديل وإفلاسٌ يسارُ
وارش جنايةٍ من كل جانٍ وقيميٌّ وملكٌ واشتهارُ

وقوله في الأيمان التي لا تُرَدّ:

وهاك سبعاً من الأيمان ليس لها رد وليس سواها عند من عرفا
مردودة تهمة تَمٌم مؤكدة قسامة ولعان وارم من قذفا

واجتمعت به في بعض اللّيالي، وقد نظمت السماء عقود الشهب لا عقود اللآلي، وانفض غراب الليل جناح جنحه، وأغلق باب الشرق خوفاً من هجوم صبحه، وقد سُدّد عن قَوْس الهلال سهم الذراع، وهزَّ كهف الثريا صارم المجرة للقراع، وتفتح بنفسج الظلما، وروى النَّسيم أخبار سَلمى[(٢)]، في مجلسٍ طاب، وراق به الخطاب، ونفح به الأرج، وطاش في محاسنه ذو العقل ولا حرج، وقد نام الرقيب وهدا، وأوضح النجّم السَّبيل وهدى، وطعنت أسنَّة الشموع في درع الليل، وأسلبت السجّوف علينا فضفاض الذَّيل، قبل أن يَخْضَرّ من الصبح شاربه، ويَثْمل من سراب الطُلّ غُضْنٌ هو شاربُه، وقد طاب الهَوى وما فَسَد، فهي ليلة

---

(١) يرى جمهور الزيدية رفض فكرة الوجوب على الله أيّاً كان المقصُود بها، ذلك أن كلمة الوجوب تعني الكلفة والمشقة، وذلك يوهم الخطأ في حقّه تعالى. وكانت فكرة الوجوب على الله التي قال بها البصرية والبغدادية وهو أنه يجب عليه فعل الأصلح في باب الدين الخ. انظر (الصلة بين الزيدية والمعتزلة للدكتور أحمد عبد الله عارف ص ٢٥٦).

(٢) اسم نبت.

أسعد من اللَّيلة التي بين الزّبانا والأسد، فأمليته من نظمي لمعة، وأملاني من أشعاره الطيّب الكثير من ذلك قوله في الشمعة:

وما قائم قد قام في نفع غيره ... على أنه في النّفع قد حَمَل الضُّرَّا
تَرَى دمعه يجري على صحن خَدِّه ... كذي شغفٍ أجرى على خَدِّه نَهرا
وما دمعُه إلا على فقد إلْفِهِ ... ولولاه ما أبدى دموعاً ولا أجرى
يبيت عليلاً كلما طال رأسُه ... ويمسي صحيحاً كلما زدته قَصْرا

ولمّا وقف على بعض مؤلفاتنا قَرظه نظماً ونثراً، لكنه فاتني إثبات ما قاله لأنه ذهب ولم أعثر له على عين ولا أثر، وقد كتبت أنا على كتابٍ له في النحو ألّفه وسمَّاه: «الإغراب في الإعراب» قولي:

يا حَبَّذا الإغراب لما راق لي ... نَمطٌ له في غاية الإغراب
كم قال للطُلاَّب حثوا عيركم ... لفوائدي واسعوا إلى الأعرابي[1]

ولما تجاذَبْنا من المذاكرة بالأهداب، وجرى في بعض المجالس بيني وبينه استطراد شيء من العلوم والآداب، وصل بنا البحث إلى حذف عاملٍ كان وقول ابن الحاجب رحمه الله تعالى في «الكافية»: ويحذف عامله أي وجوباً مع القرينة والعوض وجوازاً مع القرينَة، فقال صاحب الترجمة رحمه الله تعالى: المراد بحذف العامل أي عامل كان فقط لا سائر أخواتها وعبارة ابن الحاجب تقتضي حذف باب كان وأخواتها كما عرفتم، فقلت أنا: نعم إنما اختصت بالحذف كان فقط لكثرة استعمالها ولذا قال نجم الدين الرضي رضي الله عنه عِند عبارة ابن الحاجب هذه ما لفظه: يدخل في هذا خبر كان وأخواتها، وما كان ينبغي له هذا الإطلاق لأنه لا يحذف من هذه الأفعال إلا كان، فكان عليه أن يقول: وقد تحذف كان انتهى كلام نجم الدِّين الرضي.

ثم إني قلت: إطلاق العبارة من الشّيخ رحمه الله تعالى لا يضر لأن العبارة

---

(١) تورية بالأعرابي وهو محمد بن زياد بن الأعرابي صاحب النحو واللغة وفاته سنة (٢٣١).

إذا أطلقت في غير بابِها لم تنصرف إلا إلى أم الباب إذ تلك قاعدتهم كما قال في باب المنادَى، وقد استعملوا صيغة النداء في المندوب والمراد بها «يا» فقط، فحينئذ يندفع كلام نجم الدِّين حيث قال: ما كان ينبغي له أي للشيخ ابن الحاجب هذا الإطلاق إلى آخر كلامه. والعجب منه كيف جهل هذا وهو ابن بجْدة الكمال، ورئيس هذا العلم وفارس هذا المجال، ولم أر من دفع كلامه بما دفعناه، والله أعلم.

الفَقيه العَلامة يحيى بن محمَّد الحَارثي[1]

تسنَّم مقاماً أبيًا، وآتاه الله الحكم صَبِيًا، فشمَّر للطلب، وتدرع بالعَلَب[2]، وصَبر على الكدّ، أياماً لا تضبط بالعدّ، حتى أدرك مطلوبَه، وصادف محبوبه، وسهُلت عليه من العلم أوعاره، ولم يثلبه من الدَّهر نقصُه أوعارُه، ورث في تحقيقه سعد[3] الدين الحارثي[4]، فلو أدركه لقال هذا بلا شَك وارثي، له في كل الفنون أفنان، أثمرت[5] بما لا تثمر به الأغصان، مما حلا في اللَّهوات طعْماً، وسقاه في منابته بمداده وما سقاه بالما، له روضة معارف، نشرت من أوراقها مطارفَ، وتقلَّدت بفرائد الزَّهر، ونظرت محاسنها في مرآة النَّهر، تحمل نسيم المسألة منها نشرا، وثغر الأقاح يضحك في وجه دَاخلها بُشْرَا، سألته عن مسائل نحوية عويصة، فأذاقني بالجواب ما لم يذق الخبيصي[6] خبيصة، وأتحفني منه بزَهر نَيسان، وأتى بما يسلب عندُه كيس ابن كيسان[7]، ولم يزل بحره يقذف

---

(١) ترجمته في (نشر العرف ٢/ ٨٨٥) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) (ز) الصلب.

(٣) هو مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة (٧٩٣ هـ) سبق.

(٤) لعله يحيى بن محمد الحارثي، نحوي له «مفتاح الألباب في النحو» توفي سنة (٧٥٢ هـ) (الأعلام ٨/ ١٦٦).

(٥) في (ز): أثمر.

(٦) تورية بالخبيصي عالم النحو سبق ذكره.

(٧) يعني به: طاووس بن كيسان الخولاني من أكابر التابعين وفاته سنة (١٠٦ هـ). وإن أراد النحوي فهو محمد بن أحمد بن كيسان وفاته سنة (٢٩٩ هـ).

باللآلي، وبَدْرُه في فَلَكِه يطمس ظُلم اللّيالي، حتى وافاه الذي وافى، وأسقمه الذي طالما عافى، فعلقه ألَم في أقدامه، ومنعه عن حركته وإقْدامِه، فَظَلّ في البيت حبيساً، كأنه الأسد لَزِم خيْساً، إلى أن تَمَّ أمَدُه، وتزلزلت عُمُده، فمات وهو أقرب إلى الحَداثَة، وذَوى روضُه المُتَوَّج بزهور الدَّماثة، فأضحَى في الجَدَف، دُرَّةً مصونَةً في الصَّدف، تعاهَد الغيث مَضْجَعَه، وأحسن الله إليه مرجَعَه، ما نُشِرَت فوائده، وقُرِّبت للطلبَة منها موائِدُه، وله في شعر العلماء نصيب، وفي نظم الأفاضل سهم مصيب.

كتب إليه السيد الحسين بن الحسن الأخفش رعَى الله لهما عهدا، ووطَّأ لجنبيهما من إستبرق الجنة مهدا، يلومه على هجر الكَشَّاف[1]، وتناوله من (مقامات الحريري) خَمْرة الارتشاف، وَيُبَكِّت عليه باطراح «حاشية الكشاف» للسّعد[2]، وعدم نشر ذوائب صدورها من المداد عن الأثيث الجعد، وميله إلى حاشية العلوي[3]، وأنه بذلك سلك في المنهج الذي ليس بقويم ولا قوي، قوله:

يا عماد الهُدَى رَقَيْت ذُرَا الفضْل (م) فلم أستطع لمجدِك مدْحَا
لِم ضربتم بالله قل لي عن الكشا ... ف مَيْلاً إلى الحريري صَفْحا
وطويتم كشحاً عن الكشف لَمَّا ... أن طويتم على حواشيه كشْحَا
واصطفيت الحواشي العلويات (م) على السّعد وهو أحسن شَرْحَا
يشرح المشكل الذي يعجز النُّظَّار (م) عن شَرْحه فَيُسفر صُبْحَا
وقصارى أمر الحواشي الذي اختر ... ت معان تثير في القلب جرحا
يتجلَّى لكل من أبصرت عيناه ... حتى الجسور لا نال نُجْحا

---

(١) هو كتاب في التفسير مشهور من تأليف الزَّمخشري.

(٢) من أشهر حواشي الكشاف. قال في (كشف الظنون ٢/١٤٧٨) وهي ملخصة من حاشية الطيبي مع زيادة تعقيد في العبارة ولم يتمها.

(٣) هو عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي اليمني، توفي سنة (٧٥٠ هـ) سبق. قال في (الكشف ٢/١٤٨٠) له حاشيتان كبرى وصغرى الأولى تسمى (درر الأصداف) والثانية (تحفة الأشراف).

إن يصفها العدلي بالحسن أياماً   أتى الأشعري فأبرز قُبْحَا
فاعتزلها وعُد إلى نكت السعد   سريعاً فقد محضتك نُصْحَا
واغتفر إن تفوت مسألة التحـ   ـسين فالحسن ينتهي ثم يُمحى

فأجابه بقوله:

عقد دُرّ في نحر خودٍ رداح   قد طوت عنده عن الحُلي كشْحا
أمْ لآلِ منضَّداتٍ بثغرِ   أشنب نحوه الجمال تنحَّى
أم هي الشهب نظّمت باتساقٍ   وأَضاءت لنا فَلم نَرَ جُنْحا
ليس شيئاً منها وكيف وأنّى   من لها أن تُزِيل في القلب جُرْحا
بل نظام من القريض بديْعٌ   شَاد فوق السماك للسعد شَرحَا
صاغه مُنْشيء مُجَل فداوى   قلب من شفَّه البعاد فَصَحَّا
أنا لا أرتضي عن السّعد والكشا   ف غيراً بقول من بات يلْحى
لست أختار الرَّوض لما تدلّى   عنهما بالثمار مُذْ راق سَفْحَا
فقصارُى أمر الرِّياض ارتياحٌ   يكسب النّاظرين كدّاً وكَدْحَا

وكتبتُ أنا إليه مع مسائل نحوية سألته عنها من النَّثر قولي:

يا قَيْد الأوابد، ومغاص الفرائد، ومن هو في عصرنا العماد، فعليه يقوم قصر الفضل ويُشَاد، عليك من التحية شرفها، ومن البركة العميمة أظرفُها، ومن الرَّحمة أعلمها بقدرها وأعرفها، أنهي إليك هذه المسائل، التي تضيق عن بابها المسائل، وأجعلها إلى نيل عوارف معارفك من أعظم الوسائل، فإنها ما زالت في صدري تختلج، وما عرفت أي باب بها ألج، لتعطّل الزّمان إلا عن الجهل، وفقدان العصر عمَّن هو للمسألة أهل، أستغفر الله ما تعطّل زمان أنت فيه موجود، ولا عدم الإيضاح في عصر أنت فيه لحل المشكلات مقصود، فأبن في هذه المسائل وجْه الإعراب، وأغرب في إزاحة مشكلها غاية الإعراب، فلك في علم النحو، خمرة إفَادَة تُسْكر ولا صحو، أنت فيه الأعلم[١]، الذي برمح قلمه يُطْعن الجهْل ويُكْلم،

---

(١) سيأتي شرحه.

بل أنت أسدٌ أغْلب، لا يساوره بأماليه ثعلب[١]، لو أدركت الخليل لكنت له حبيباً، أو الكسائي[٢] للبس رُدْن إفادتِك قَشِيْبا، أو أبو علي الفارسي[٣] لكنت منه في الميدان أفرس، لا برح روضك الأريض بعين الله يُحْرس، ما دامت بك الإفَادُة، وما عظمت إلى باب علمك الوِفَادة، والسَّلام.

قولي: «أنت فيه الأعلم» في هذه الفقرة التورية لأن الأعلم أفعل تفضيل من العلم، والأعلم أيضاً شيخ من مشائخ العربية وأستاذ كبير من النحاة[٤] سُمِّي بالأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا، وكل من كان مشقوقها سمي أعلم، وبذلك عرفت التَّورية.

وقلت أنا في النَّظم وكتبت به إلى شيخ من مشائخ العربية وقد سألته عن مسألة نحوية أيضاً:

أوضح وقاك اللَّه ما أنا سائلٌ ... عنه وحقق ما بِهِ أتكلَّمُ
وأبن لنا في النحو مسألة بها ... حار اللبيب فأنت فيه الأعلَمُ

وقال الإمام محمود بن عُمر الزَّمخشري رضي الله عنه:

وأخَّرني دهري وقَدَّم معشراً ... وأنهم لا يعلمون وأعلمُ
ومُذ أفلح الجهال أيقنت أنني ... أنا الميم والأيام أفلح أعلمُ

والأفلح بالفاء والحاء المهملة وهو مشقوق الشَّفة السُّفْلَى من الفلح محركة وهو الشق في الشفة السفلى، ومعناه أنه مذ أفلح الجهال، أي فازوا ونجوا، وبقوا

(١) هو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، إمام أهل الكوفة في النحو، توفي سنة (٢٩١ هـ) وأماليه طبعت بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون سنة ١٩٦٠ م.

(٢) الكسائي هو علي بن حمزة الأسدي، من كبار علماء النحو وفاته سنة (١٨٢ هـ). انظر ترجمته في (نزهة الألباء ٥٨ ط السامرائي وإنباه الرواة ٢/ ٢٥٦ وبغية الوعاة ١٢٠).

(٣) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي، من كبار علماء النحو والعربية، له الإيضاح وغيره، وفاته سنة (٣٧٧ هـ) انظر (نزهة الألباء ٢٣٢)

(٤) هو يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري، من كبار علماء اللغة، له شروح الدواوين، توفي سنة (٤٧٦ هـ). (وفيات الأعيان ٢/ ٢٥٣ والأعلام ٨/ ٢٣٣).

في الخير، من الفلح محركة وهو الفوز والنجاة والبقاء في الخير، أيقنت أنّني أنا حرف الميم والأيام أفلح أعلم أي مشقوقة الشفة السفلى والعليا، معناه والأفلح والأعلم لا يمكنهما النطق بالميم فالأيام لا تنطق بي ولا تفوه ولا تذكرني مع الذين أفلحوا فيها أي فازوا منها بمطلوبهم ونجوا من شرّها، وبقوا على الاستمرار في خيرها.

القَاضي مُحَمَّد بنُ أحمَد النُّزَيْلي[1]

هو للعلوم أجلّ ناقل، يترك كل عالم عنده أعيا من باقل، تضلّع من الفنون، وأصابه في هيامه بالفوائِد ضرب من الجنون، ففارق للطّلب بلاده، واستعاض ذكاء عَنْ بَلاده، فصار كالجذوة المتقدة، مع بَصيرةٍ خبيْرةٍ مُنْتَقِدة، لم يقتصر على فنٍّ فأقول في فَنّ كذا، بل له في جميع الفنون عرفان يفوح عرفه بأطيب شذا، إلاّ أن قدمَه في علم المنطق أرسخ، وعقده فيه لا يُحل أبداً ولا يُفْسخ، فهو في عِقد أربابه واسطة، وحجته فيه لا يحتاج بينها وبين الوضوح إلى رابطة، مَلأت بضائع عِلْمه سُوْقاً فسُوْقا، وقمعت أحكامه من النّاس من أحْيا بسيرته فُسُوْقا، له قلمٌ كأنه مِزْوَد، لم يزل في يمينه يرعف عن دمٍ أسود، ولذا ما برح يستنشق كافور الطرّوس، ويسعى في أرضه البيضا[2] علىً الرُّؤوس، لعلمه بأن الكافور للدِّماء من الممسكات[3]، وأن دوام جريان الدّم من المهلكات، كنت لا أراه إلا مُتَهلّل المُحَيَّا، وأخلاقه ألطف من النّسيم إذا تضوّعت ريًا، كثير دعابٍ ومِزاح، فثوب الوقار عنه مُزاح، ما عبس له ثغر ولا قطَّب، فمسلكه مع أبناء الزّمن مسلك الطَّبّ، ولذا خفّ على الأرواح خفة النّسيم، وأقبلت إليه المسامع إقبالها على صوت الوتر الرَّخيم، وكان لدى ذوي الأمر مجدوداً، ومن صنف اللطفاء عندهم معدوداً، يفوز منهم بما يريد، ويسعون إلى نجاح قصده سَعْي البريد، لأن الزّمان

---

(١) ترجمته في (نشر العرف: ٢/ ٤٤٤) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) يعني أرض الطرس «البيضاء».

(٣) قال في (المعتمد ٤٠٤) من خصائص الكافور قطع الدّم المفرط.

ألجاه، إلى التهالك على الجاه، وله في شعر العلماء سهم، لأنه عن شعر الأدباء عاجزٌ جهم، من ذلك قوله:

أستغفر اللَّه من هذا الذي فتكت ألحاظه السود بالقاضي ولا وزر
رمته عن سهمها فاللَّه يعصمه ويصرف القلب عنها فهو مقتدرُ

قلت: ليته قال:

ما زال من سهمها باللَّه معتصماً ليصرف القلب عنها فهو مقتدرُ

ليكون في ذكر المعتصم والمقتدر من البديع التَّوجيه[1] بالخليفتين المشهورين من بني العباس، وإن كان في قوله: «فاللَّه يعصمه» بعض إلمام بهذا الغرض وليس هو من مراده ولا قصده قطعاً.

القَاضِيْ عَبْدُ القَادِرِ بن أحمَد النُّزَيْلي[2]

أظرف من كل ظريف، وأنضر من الرَّوض الوريف، دُرّ ظرافة بلا شك، فلو كانت اللطافة جسماً لما كانت إلاّ ذاته بلا شك:

أو مُثل الظَّرفُ جسماً لكان للجسم روحا

ارتحل إلى صنعاء للتحصيل، وحظي من أوقاتها بِسَحَر وأصيل، وقرأ فيها على علماء ما منهم إلاّ عريق وأصيل، ففاز بغاية المطلوب، وظفر بما هو ألذّ على الأكباد المحرورة من بارد المشروب، رجع بالغنيمة، وسَرّ من وطنه أنيمه[3]، وقد

---

(١) التَّوجيه عند أهل البديع: هو أن يوجه المتكلم مفردات بعض الكلام أو جملة إلى أسماء متلائمة اصطلاحاً من أسماء أعلام أو قواعد علوم أو غيرها توجيها مطابقاً لمعنى اللفظ الثاني من غير اشتراك حقيقي، كقول الشاعر:

عذارك ريحان وثغرك لؤلؤ وخدك كافور وخالك عنبر

فهذا توجيه باسماء أعلام من الخدّام «شرح الكافية: ١٢٣».

(٢) ترجمته في (نفحات العنبر (مخطوط) وطيب أهل الكساء (مخطوط) وكان قد تولى الوزارة، وأسس المسجد المعروف باسمه إلى الآن، توفي سنة (١١٥٤ هـ).

(٣) الخلق من الإنس والجن.

ملأ من بضائع الفوائد حقائبه، وأوقر من متاع العلوم ركائبه، وأما الآداب فما رأيت من جمعها جمعَه، ولا نظرت مثله من شنَّف بها من الدَّهر سمعه، سيما آداب ذوي العصر، فقد استقطر من وردها ما يَنْفَحُ لدى العصر، وهو أحد أترابي، ومصابيح نُدمائي في ليل شبابي، فكم مرَّة ساجلني وساجلته، وعاجلني إلى مجالس السَّرور أضعاف ما عاجلته، وكم نهار مرّ لنا أبيض المحيًّا، قد أتحفنا بأزاهير أنسه وحيًّا، وليل لم يزل أسود الذَّوائب، حتى وخطه بياض الصَّباح فإذا هو شائِب، وصَفْوِ وردناه لم يشبه من الكدر شائب، وليالي الوصال لا الصدود، تحكي في حسنها الشامات على الخدود، ولما أضمر الزَّمان عِزّه وأسَرَّه، لم يزل يرقيه في المراتب حتى أقعده من منازل الشمس أرائك وأسِرَّة، وإذا هو في سعادة حظها لا يُغلَب، فما قال معها له الزَّمان: لا في مطلب، فأيامه لا تحوي لا، وهو معها لا يخاف لنعمته تَخويلا، فهو الآن في عيشٍ أصفى من النهر، وأخضر من النبات وأنضر من الزَّهر، وقد أملاني له أَشعاراً، زادت بفضله إشعاراً، مما لو أملته الوُرق على العيدان، لطوقتها بدر الزّهور الأفنان، وخلعت عليها حلل الأوراق الأغصان، أنشدني له قوله:

أحِبَّة قلبي سَهّد الطَّرف بعدُكم | فعطفاً على مضناكم وله رقّوا
ولا تَسْألوا عن ملكة الصبر بعدكم | فأنّى يصحّ الملك وهو لكم رقُّ

وقوله:

ناديت من أهواه يا غصن النقا | هل عادل القدّ القويم يميلُ
فأجابني: بالغصن[1] شَبّه قامتي | قلت: النسيم رواه وهو عليلُ[2]

وقوله:

سألت غصن البان عن قطعه | وأي ذنبٍ كان في حَدِّه

(١) في (ز) من بالغصن، وأصلحه في (ب) مالك المخطوطة الوزير فايع.

(٢) العليل من النسيم والمعتل من رواية الحديث.

قال: شكا الريم لقاضي الهوى إنّي سرقت الميل من قدّه

وقوله مضمناً:

وافى الغزال وكُتْب الخل في يده وسيف لحظيه مشهور ليفتك بي
فقلت: ضع كُتْبه تكفي اللحاظ بنا (السَّيف أصدق أنباء من الكتب)

وقد سبقه إلى هذا من قال وقد أرسل إلى محبوبه بكتاب:

ها قد بعثت رسولي من كلفت به وفي كتابي ما ألقى من الوصب
فدع كتابي وسل عني لواحظَه (السيف أصدق أنباء من الكتب)

وقال آخر:

خط العذار نهاني عن محبّته وقال أقصر فقد لحيت في الطلب
وقال لي لحظهُ سلوانه غلط (السَّيف أصدق أنباء من الكتب)

وقوله مضمناً:

قال الفؤاد: ألا تشكو لوجنتِه جور التَّلهب بي من نارها الساري
فصرت لما أطعت القلب في حُرقٍ (كالمستجير من الرمضاء بالنَّار)

وأحسن منه قول الأمير مجير الدين بن تميم فيمن على خدّه خال:

رأيت حَبَّة قلبي حين لاح لها محبوبها نفرت من حَرّ أفكاري
ثم استجارت بخدٍّ منه فهي به (كالمستجير من الرمضاء بالنَّار)

[وقلت أنا(١):

قد استجرت بِخَدّ الحبّ حين غدت لوافح الهجر تكوي قلبي الواري
فكنت في مثل تلك الحال حين جرت (كالمستجير من الرمضاء بالنَّار)

والأصل في هذا كله قول كليب في عمرو بن الحارث بن ذُهل بن شيبان:

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من (ز).

المستجير بعمرٍ عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنَّار][1]

وقوله مخاطباً للسيد العالم الأديب عبد الله بن علي الوزير فسح الله في أجله، وقد حضر هو وإياه بمجلس بعض الأكابر وقام للخدمة خادم من العبيد جميل يُسمَّى السلطان:

يا من تذل له الأكابر طاعة والبدر يعنو خاضعاً لمقامه
ومن الشموس تودّ طوعاً أنها تدنو مُقَبِّلة إلى أقدامِه
يهنى الوزير ويالها من نعمة إذ أصبح السّلطان من أخدامه

وقوله يخاطب بعض الوزراء بحصن الخضراء[2] ويُعولِ عليه في قضاء ما يريد قضاءه من إمام الزَّمان، ويحثه على المبادرة بالسَّعي في انفصاله بعد أن أَشَقَّ به البقاء وحصل له تأثر السَّوداء:

صَدْر الخلافة أن رقكم إذاً خالٍ عن البيضاء والصَّفراء
وتحرّك السوداء أثار تأثري فامنن بتخليصي من الخضراء
لا طاقة لي حين لا بات غَداً يُرْجَى لفتح قراءةٍ وقِرَاءِ

وقوله وهو مما كتبه على بعض مؤلفاتِنا لمّا طالعه ونظر فيه نَظَرَ مُتَأمِّلٍ لما حواه:

أسند أحاديث فضلٍ بها الشهاب تَفَرَّد
صحيحها في المعالي وفضلها ليس يجحد
وإن أردت بياناً فهاك (مسند أحمد)

وقوله وهو مما كتبه عليه أيضاً:

من يقس بابن نبيْه جاهلاً نَظْم قاضينا الرَّفيع الرُّتَبِ

---

(١) (اللسان: ٧/ ٣٦ المستقصى: ٢/ ١٩).

(٢) الخضراء: مدينة جنوبي رداع بمسافة (٢) كم، ابتناها المهدي صاحب المواهب وهي قمة جبل أخرم.

فلقد أخطأ قياساً إذ له معجزات ظَهرت في الأدب
بكتاب أحمد قد جاءنا ولكم بين نبيْه ونَبي

وله إليّ مكاتبات نظماً ونثراً، مما نصير بجواهرها وذهبها في سعة ونثرا، قد تبدّدت تبدد العقود وتفرقت، وذهبت أيدي سبأ وتمزّقت، وسأورد منها هنا جواباً لي عليه نثراً فإني لم أظفر الآن بغيره وهو قولي:

سلام يفوح في الأصائل والبكر، ويحلو لذي الأدب حلو معنى مبتكر، يتضّوع منه عطر له القِرطاس جُوْنَة، [ويُصَبّ من بارده قطرٌ جعل المداد في آفاق هذا الرّق جونه][(١)]، أرقٌ من قوام الغصن إذا تقلّد بعقد الزّهر واتّشح، وأندى من جبين الحديقة إذا ابتلّ بعرق الطلّ ورَشح، وقد أودعت سرّ نشرها مع الرّياح، ثم أدركها الندم فعضّت أصابع منثورها بثغر الأقاح، يهدى إلى مقام من لبس من المجد سابغ المطرف، ووضع على رأسِه تاج المعالي فلو وضع ابن جلا[(٢)] عنده عمامته لم يُعْرف، الذي أفصح بالسجع هِزَارُه، وتطرّزت من الشعر بالوَشْي الأنيق إزاره، فنضار أدبه بنار ذكائه مسبوك، وفضله متيقن على أن عِقْد كلماته الدُّرِّيَّة مشكوك، وصارت نفحاته في العلم نفحات عنبرٍ ومندَل، وسبيله سبيل مَن هَدَى الطُّلاَّب إلى سبيله ومن دَلَّ، فبحره العذب ذو لجب، ودُرّ كلماته ليس يُقْضَى عنده العجب، أدام الله ماله من العُلا، ومتّع بسجاياه التي من ذاقها فقد سفَّ كأس الطِّلا، وأبقاه ماضي الشبا طري الشباب، يبتسم في وجه أدبه فم الكأس بثنايا الحُباب، وسقى بماء الصحة روض شمائله، وأرضع ثُديَ المزن طفل أزهاره في مهد خمائِله، وقرن بالسعادة سانحة وبارحَة، وأدام ماله من لطف النّسمات التي مَا الصِّبا وقد هَبّت سُحْرة وبارحة، أما بعد، فإنها وردت إليَّ وأنا الحقير، مطارحته

---

(١) ساقط من (ز) قلت: جونه الأولى سلة صغيرة تستعمل للعطر والثانية: الشديد السواد.

(٢) هو ابن جلا الليثي. قال ابن سيدة: سمي لوضوح أمره. قال سحيم بن وثيل:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

انظر (لسان العرب ١٤/١٥٢).

التي أنا عن سواها غَني وإلى فِقرها فَقِير، فَهَزَّت عطفي يميناً وشمالاً، وألبسه بُرْد المسرة فازداد جمالا، وأدارت عليَّ شُمُولاً لست أصحو عن خِمارها، وزفّت إلي عروساً سلَبَتْ عقلي قبل رفع خِمارها، وأذكرتني بمنثورها الرائِق، منثور رياضٍ تَفَتَّح بين الآس والشقائق، من معاهد تقضّت فيها أيام الصّبا، وساجلتني في جوانبها بحديث الأحباب ورقاء الحمائم ونسيم الصَّبا، إذا مرَّت بها النسيم العليلة، برئت من السقام بعد أن يغشاها عرقُ الندى فتنتعش على أذيالٍ بليلة، فَقَدَحَتْ مني زنادا، وأَنْسَتْني من الدَّهر جفوةً وعنادًا، ونفت الأحزان والكروب، وأطربتني وكريم الطبع طروب، وأتت على الشرط والشرّط أملك[1]، فزدت بها فضلاً فلا أدري أيها المتفضل أصبح الفضل لي أم لك، فحَمْلتني على الجواب وإن كنت قاصراً، واستقطر لفظها مني كميت الفِكْر فكان عاصرا، والزَّند لا يورى إلا بعد القَدْح، والغصن لا يهتز إلا إذا سمع من الحمام الصَّدح، وتعَرَّضت أيّدك الله لسؤالي، والبحث بعد الفراق عن حقيقة حالي، فأنا للبعد في سكرة لو وليْت، سُكْر حزن لا سُكْر سرور كسُكر الكُميت[2]، لا أجدُ أخاً أسَاجِلُه، ولا نديماً توقَّدت بنار الذكاء مراجله[3]، ولذا استَبدلت الوحشة بالإيناس، لمَّا لم أجد إلاَّ بهائم جَهل أفرغُوْا في قالب النَّاس[4]:

صبيانهم في القُبْح مثل شيوخِهم   وشيوخُهم في العقْل كالصِّبْيان

وطبعي كما علمته كريم، لا يرتضى نقصان الجليس والنَّديم، فلو جالسني البدر، وأمنْتُ منه المكر والغدْر، لقلت متكلف يعروه النّقصان، فاللَّبيب من حفظ نفْسه عن مجالسته وصان، فلذا توحَّش أسدي ونفر، ولم يرض من أتراب الجهالة بنفر، على أن ماء النَّصَب قد نَضب وانماع، لما قطعت عن النَّفس علائق

---

(١) سيأتي شرح هذه اللفظة. وهي من عبارات الفقهاء.

(٢) من أسماء الخمر.

(٣) جمع مرجل: وهو القِدْر من الحجارة ونحوها.

(٤) من أبيات مشهورة لمحمد بن علي الهمداني «ياقوت: معجم البلدان ٥: ٤١٧ (همدان).

الأطماع، لأن الأمل من المحن، ومن زرع الرّجاء من أبنا الزَّمان حصد الإحن، والرَّاحة واليَّاس، كالخضر والياس، وسأرتقب فللدّهر فرص، وأجعل الصَّبر شيمة فلكل حرّ غصص، والرّضا بما وقع حَسْبي، إذ لو أحتمل لطال على الزّمان وبنيه عَتْبي، ومن أكثر الاحتجاج، غلبه الدَّهر باللَّجاج، وقد آن للقلم أن يثني عنانه، وينزع عن معركة الشكوى سنانه، والله يبقيك لي خليلاً وصديقاً، أستغفر الله من فرطات اللسان بل أخاً وشقيقاً، ما تَضوع مسك اللَّيل وفاح، وفَغَم طيبه مناخر الآفاق فَعطس لجدته الصَّباح، وما ارتشف من الشَنَب، شقيق النَّحل وأخو ابنة العنب، وما اشتاق محبّ إلى حبيب، فأكثر في الأطلال الدارسة من التَّشبيب، والسلام.

قولي في هذا المنثور: «والشَّرط أملك» قد أذكرني بقولي في النَّظم:

تملك قلبي الشَّرط من صدغ فاتني ... فكاد لفرط الوجْد في الحب يهْلكُ
فإن قيل وزدُ الخدّ قد صار مالكاً ... لقلبك قلت الشرط من ذاك أملك

وقول أبي عبدِ اللّه الفيُومي[1]:

بروحي من ظِباء الحبْش بدرٌ ... لأحشائي بفخّ اللّحظ أشرك
له شرطٌ على خَدّ رقيق ... تملك مهجتي والشَّرط أملك

وقول الشيخ جمال الدّين بن نباتة المصري[2]:

رُب ذي شرطٍ على الخَدّ (م) وذي خالٍ مُمسَّك
ملكا قلبي في الحبّ (م) وكان الشرط أملك

وقول شهاب الدّين المنصوري[3]:

---

(١) هو عبد البر بن عبد القادر الفيومي، من الأدباء، له مؤلف على طريقة الريحانة، وفاته سنة (١٠٧١ هـ) (نفحة الريحانة ٤/ ٥٤٦).

(٢) (ديوانه ٣٧١).

(٣) هو أحمد بن محمد المنصوري، شاعر ذاع صيته، وله ديوان، توفي سنة (٨٨٧ هـ). انظر (الضوء اللامع ٢/ ١٥٠).

يــا بــدر بــالــشــرط اســتــطــلــت فــزُر فــتــاك وخَــلّ مــطْــلــك
نــادى ألــيــس لــي الــمــحــا ســن والــبــهــا والــشــرط أمــلــك

وقول الشَّيخ عبد النَّافع بن عراق:

بي من سباني من بني الحبشان ورمى الفؤاد بأسهم الأجفانِ
لم أجن منه سوى الغرام بشرطه والشرط أملك للغريم الجاني

وقول الشيخ صدر الدين بن الوكيل[(١)]:

أرقتُ دمَ الراووق حلاً لأنني رأيت صليباً فوقه وهو مشركُ
وزَوّجت بنت الكرم بابن غمامة فصح على التَّعليق والشرط أملكُ

وقول صفي الدِّين الحلي رحمه الله تعالى:

شرطي بأن حشاشَتي رق لكم والشَّرط في كل المذاهب أملكُ

وقول شمس الدين محمد بن دانيال وهو مما ينقش على مشراط حجام وهو على لسانِه[(٢)]:

أنــا لا أكــلــم راضــيــاً إلا بــإذن مــنــه يُــمْــلــك
شــرطــي شــفــاء الــهــالــكــيــن من الــردى والــشــرط أمــلــك

وقول خليلنا الشيخ صارم الدين إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى:

بشرط الخد فنّ السحر قل لي لهاروت الكهانة صار أم لك
ملكت بسحر لحظك كل قلبٍ بلا ثمن نعم والشرط أملك

وقولي: «والرَّاحة والياس كالخضر والياس»، فيه الجناس الظَّاهر، والمعنى أن الرَّاحة واليأس أخوان كما أن الخضر والياس عليهما الصلاة والسَّلام أخوان، ففي الجامع الصغير[(٣)] عن أبي هريرة رضي الله عنه «الياس والخضر أخوان أبوهما من الفرس وأمهما من الرّوم فالياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالبحار» فافهم.

---

(١) الغيث المسجم ١: ٢٠٨.

(٢) الغيث المسجم ١: ٢٠٨.

(٣) انظر (الفتح الكبير ١/٢٤٦). أخرجه الديلمي في «الفردوس».

السيد محمّد بن الحسيْن بن يَحيى بن أحمد الحمْزي[1]

بدر كمال ساطع، وحسام ذكاء قاطع، حُلِل فَضْله رقيمة، ودُرّة ذاته مالها قيمة، وولود الأيام عن مثله عقيمة، ذو دوحة مثمرة، وليال من المداد مقمرة، شَمْلة شمائله ذات حواشٍ رقاق، وجواهر أدبه لها من الدّويّ حِقّاق، ألفاظه طلاسم وأسحار، وأوقاته أصائل وأسحار، ما زال على طلب العلوم عاكفاً، وعلى رياض الدَّفاتر غيثاً واكفاً، حتى زكت معارفه، وامتد من ظِلاله وارفه، فهو بَدْر في العلماء، يَظْهر عنده التكلف ببدر السَّما، إلا أنه حَطّ قدره، وشان عند ذوي الرَّجاحة بذْرُه، بالإكثار من الهزل والمجون، وألفاظ للبذاءة حديثها عنده ذو شجون، وله في الأدب عقود حلَّى بها الدَّفاتر، ورياض يغار لها الرُّوض من نرجسه بطرف فاتر، فبلابله فيه ذات رخَامة، يُغرّد من غصون أقلامه على خامة[2]، وكان إذا أعجبه معنى، وطاب له من أبيات غيره مغنىً، أغار عليه إغارة الجيش، وبادر إلى سلخه بِدَار طيش، غير مُبالٍ بملامة، قد لبس لأسهمها لامة، فهو أسرق من بُرْجان[3]، لطائره المتخطف من العيب والنَّقص بُرجان، سَهمه في التّلصص قامر[4]، ومن العجيب بأنه خارب وهو لأبياته عامر، ولمَّا أخذ من نَظمي شيئاً عاتبته شِفاهاً، فما نقع غُلّتي بجواب ولا شفاها، بل خلط الجدّ بالهزْل، وقال: لم أنسخ برودي بذلك الغزل، وغَلبني بسلاح من الوقاحة، وغَصب على روضَا جنى ورده وأقاحه، لأن الجدّ يذهب عنْده مجّانا، فإنه لم يزل في حركاته وسكناته

---

(١) من الأدباء الكبار، له ديوان شعر. وفاته سنة (١١١٢ هـ) ترجمته في (نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ٢/٦٠٦).

(٢) أرضه.

(٣) في الأمثال «أسرق من برجان»: كان لصّاً بالكوفة صلب فسرق وهو مصلوب، وذلك أنه قال لحافظه: مر إلى تلك الخرابة فإن لي فيها مالاً وأنا أحفظ برذونك، فلما غاب عنه قال لواحد مرّ به خذ هذا البرذون، فهو لك (المستقصى ١/١٦٦).

(٤) كذا يقسو المؤلف على بعض معاصريه من الأدباء الذين لقوا حظوة عند أهل عصره. والقامر: السهم الغالب في لعب القمار وهو الميسر.

مجَّانا، وقد جمع بعض إخوته ديْوانه، وعمر بأحجار من بقاء الذكر إيوانه، وحجمُه لطيف جذاً، وقد شممت من نفحاته نَدّى، وطالعته فما ألفيت له نَدىً، وكم معنى قد حبى به، كأنه الرَّاح تحت حبابه، ألطف من نسمات الأغاني، إذا هبت فمالت لتحريكها الأغصان من قدود الغواني، وهو ممن عاجله أجله، وعراه لدهم خطبه وجله، فاحتضر شبابه وأحرز في الضريح عبابه، وصرعه من الخَطْب رَيْبُه، فزرّ على ديناره من اللحد جيبه، تعاهدت السّحاب ترابه، وغشي من النبات من جدثه قرابه، ما دامت حلة الظلماء تنسج، وحديقة السَّماء تنفتح من نجومها ولونها عن نرجس وبنفسج.

وبيني وبينه من العلائق ما بين النسيم العاطر والحدائق، فكم أدار عليَّ خندريسه، وأطفأ بالمحاورة من الفؤاد رسيسه. وقد كتب إلي من أشعاره ما أورث الدّر مستدام عاره، كقوله وهو مما كتبه إليّ في شهر شعبان الكريم أحد شهور سنة سبع ومائة وألف سنة:

ليس في الدار بعد بعدك مَغْنى ... للمعَنَّى وأي مَغنى لِمَغْنى
عزَّ منك اللقاء وما عزَّ صبري (م) عنك إلا إذا تنائيت عَنَّا
لا يظن السلّو إلا حبيب ... بالتلاقي على المتيّم ضَنَّا
قد دخلنا بحر الغرام ولو ملت (م) عن الهجر عندما ملت غصنا
فعلام النفور والميل تَيْهاً ... يا غزالاً رنا وغصنا تثنى
يا مغير الغصون حَتَّام تجني ... بالتَّجني وما عَهِدْناك تجنى
كيف حال المشوق بعدك لمّا (م) ناح شوقاً إلى لقاك وأنَّى
طرب المستهام شوقاً ولما ... أن تبدت زياض خدك غَنَّا
إن يكن ورد وجنتيك عن الأز ... هار أغنى فإن أنفك أقنى
يا خليلي كيف حال مشوق ... قد تجافاه حِبّه وتجنّى
سلَّ سيف المنون للصب لما ... فرض القلب حبه ثم سنى

مـن عـيـون نـواعـس فـاتـنـات　　فـاتـرات تـسـبـي الـغـزال الأغـنـا
سـلـبـت صـحـتـي وفـيـهـا سـقـام　　وسـبـت نـوم مـقـلـتـي وهـي وَسْنَـى
مَـقـل مـع حـواجـب تـنـظـر الـسـحـر (م) عـلـيـهـا مـن قـاب قـوسـيـن أدنـى
إن مـن قـاس بـالـقـيـاس لـمـخـط　　فـيـه لـكـنـنـا ذهـلـنـا فـقـسـنـا
مـثـل مـن قـاس أحـمـداً بـسـواه　　حـيـن أبـدى فـهـمـا شـريـفـاً وذهـنـا
حـسـن الـجـد والـفـعـال ومـن حـاز　　خـصـال الـكـمـال لـفـظـاً ومـعـنـى
إن نـصـب الـتـمـيـيـز رفـع لـمـن طـاب　　أبـاً فـي الـمـكـرَمـيـن وابـنـا
لـيس ذكـر الـشّـهـاب فـيـنـا بـمـحـمـود[١]　　لأنَّـا لأحـمـدٍ قـد حـمـدنـا
جلّ مـن زاده عـلـى الـحـسـن إحـسـانـاً　　فـأعـطـنـي زيـادة ثـم حـسـنـى
زاد قـدراً عـلـى ابـن زَيْـدون لـمـا　　زاد فـخـراً بـه الـزمـان وزِدْنـا
هـو حـاوي الآداب نـثـراً ومـنـظـو　　مـاً ومـحـيـي الـعـلـوم فـنـاً فـفـنَّـا
شـاع عـنـه الـتَّـصـنـيـف مـن حـيـن جـلا　　فـي طـريـق الـعـلا ونـحـن نـقـلـنـا
صنّف (العطر)[٢] و(السلافة)[٢] حتّى　　طـاب ذكـراً بـذا وعـن تـلـك أغـنـى
وخـطـيـب كـم هـدّ بـالـوعـظ صـخـراً　　ودمـوع الـخـنـسـا تـسـاقـط مـنّـا
فـبـيـوت الـتـقـي تُـشـاد لـنـا إن　　قـد فـعـلـنـا بـالـوعـظ مـنـا وتـبـنـا
فـجـزاه الإلـه عـنـا ثـوابـاً　　وجـزانـا الـجـمـيـع لـطـفـاً ومـنّـا

فأجبته بقولي:

سـكـنـت زفـرة الـجـوارح مِـنَّـا　　حـيـن جـادوا بـالـوصـل فـضـلاً ومَـنَّـا
ذكـر الـعـهـد بـعـد طـول تـجـافٍ　　وظـفـرنـا بـالـقـرب مـنـهـم وفـزنـا
كـاتِـبُـونـا فـكـل صـبٌ مـعـنّـى　　لـم يـزل بـعـدُ فـي الـمـحـبـة قِـنّـا
ألـف سَـهـلاً مـنـهـم بـمـن حَـلّ قـلـبـاً　　لـنـواه وطـول ذا الـبـعـد مـضـنـى

---

(١) إشارة إلى الشهاب محمود بن سلمان المتوفى سنة ٧٢٥ هـ سبق ذكره.

(٢) إشارة إلى كتابين للمؤلف هما عطر نسيم الصبا وسلافة العاصر سبق ذكرهما.

لحظه ينصب الفؤاد لهمٍّ   وهو عند العتاب يكسر جَفْنا
كم لقينا على هواه هواناً   وهوينا فيه اكتئاباً وحزنا
رشأ شاكل المحب بخصرٍ   ذي اختصار قد كاد للسقم يفنى
خَضَّب الكفّ بالمدامع لَمَّا   أنَّ شوقاً إلى لقاه وحَنَّا
آه لهفي على النقا وهو خَد   وَرْدُه الغضّ باللَّواحظ يجنى
رمت كَتْماً فلست أوّل صبٍّ   بالنَّقا في الهوى عن الخدّ كَنَّى
مثل ذِكْرى للرّمح وهو يراع   جاء فينا بمابه قد عجزنا
فهو رمحٌ على الحقيقة إلاَّ   أنَّنَا في عُلاَه لم نَرَ طعنا
بيمينيّ محمدِ طالما هُزَّ (م)   فأعيت فيه المدائح قرنا
سَيّد لو نظمت فيه الدَّراري   مِدَحاً قيل أين مِنْك وأنَّى
لا تراه يرتاع خوفاً ولا يجعل (م)   هَمَّ العُلا طعاماً وجُبْنَا
قد حكى النَّجم في العُلا والتَّسامي   وهو منه أدق في النحو ذِهنَا
هو ركنٌ للدّين وهو عليه   زاد في العلم وهو أصغر سِنَّا
في رياض العلوم قِلنا لديه   فلهذا فيه المدائح قُلْنَا
وسمعنا وهو المبرّد في النحو (م)   لأقلامِه على الطِّرسِ لحنَا
وجَنى الحِلْو من رياض علومِ   وعلى من نوازل المجد وَجْنَا[^1]
أحرزَ المجد وهو في النَّظم عنه   جلّ قدراً وجلّ لفظاً ومعنَى
نَظْمه الدر في النحور لهذا   منه عند التَّحبير أحكم وزنا
عجز القيراطي[^2] عن وزن نظم   بلآليه خَصَّني منه مَنَّا
وأرانا من نظمه الغضّ أفنا   ناً تدلّت بها الحواسد أفنى

---

(١) العارض من الأرض.

(٢) هو إبراهيم بن عبد الله الطائي، شاعر اشتغل بالفقه والأدب، له ديوان مطبوع بعنوان «مطلع النيرين» طبع سنة (١٢٩٦) هـ. توفي سنة (٧٨١ هـ). انظر (الدرر الكامنة: ١/ ٣١ وشذرات الذهب: ٦/ ٢٦٩ ومعجم المطبوعات: ٢/ ١٥٣٥ والأعلام: ١/ ٤٩).

ذُقت مكروه بُعْده وهو نَدبٌ   لسيوف أباحت الضّد سنّا
هاك مني الجواب يا ابن حسينٍ   جاء يرجى من الحيا منك رُدْنا
وابق فينا للفَخْر عيناً وللسُّؤد   د والمجد والمعالي ركنَا
لج بباب العُلا إذا نحن عنهُ   لقصورٍ عن الولوج رُدِدْنا
أنت عينٌ فلست من الحاجب (م) تحتاج في دخولك إذنا
وسلامٌ عليك يا مفرد الدَّهرِ (م) دواماً ما الغصن تَنيهاً تثنى

ولما وَرَدَ زَمَنُ الربيع، وجَاء هَنْدَسِيُّه بدائرةٍ من كؤوس القَطْر لا تحتاج إلى تربيع، وتفتَّحت الوُرود، لما طاب لها من ماء الغمامة الورود، وسرق النَّسيم حُليّ الزَّهر، فَجَرَّد لقطعه سَيْفُ النهر، كنا نجتمع في حدائق تُجلى بمنظرها الأحداق، ويُمْلي علينا بها الوُرق أحاديث المسرَّة من الأوراق، فَعَرض لهُ ما أوجب طلوعه من شِبَام إلى كوكبان، فأوحش الخلطاء وكَدَّر الصَّفو على النَّدمان، فكتبت إليه مرتجلاً، لما لم أزل مِن فِرَاقه وجلاً:

أيا بَدْر دين اللّه أكملت في العُلاَ   خصالاً وروّعت المحبّ بذا البينِ
وأخفى سَريعاً كوكبان برَبْعِه   عن العين بَدْراً منك[1] جل عن الشين
ومن عجبٍ أنْ يَخْفي البدر بَعْدَ ما   تكامل حسناً كوكبان عن العينِ

فأجابني بقوله:

أيا شمس علم أطلعت أنجم السّماء   ويا من سما بالفخر فوق السماكين
ويا واحداً للبدر والشمس ثالث   بغير اختلاف فيه ما بين اثنين
لئن حال دون القرب ميل فلم يكن   سِوَاؤك دون الميل يدخل في عينِ
فَلَو نظر الجامي[2] منك فوائداً   لما حَطَّها إلا على الرأس والعينِ

---

(١) سقط من (ز).

(٢) الجامي: هو نور الدين ملا عبد الرحمٰن بن أحمد، ولد بجام، وهي من بلاد ما وراء النهرين وبرع في علوم الصوفية والبلاغة، له «الفوائد الضيائية» أو «شرح ملا جامي على الكافية في النحو» طبع عدة مرات. توفي سنة (٨٩٨ هـ).

نظرت بعين المجد إذ صرت عينَه وأفضل من بالنَّظم فاه بلامينِ
فإنك شمس لا يعاب ضِيَاؤهَا كبدر اللَّيالي بالتَّكلف والشينِ
فلا زلت إنسان المكارم والعُلاَ وأُنساً لمن روّعته أنت بالبَيْنِ

قوله: «على الرأس والعين» فيه تَوْرية ظاهرة بالعلامة العَيْني[1] صاحب كتاب «الفرائد شرح الشَّواهد النحويّة»[2] ولذا إني قلت في مليح نحوي:

نحويُّكم في هواه قد كثرت شواهد الحبّ بعد ذا البينِ
وشرحها في الخدود متضحٌ يُملأ له مِن فرائد العيني

وكتبت إليه ببعض الأيام، وهو بكوكبان وأنا بشبام، أدعوه إلى متنزَّهٍ يقال له الحظائر، قد عُدِمت الأشباه له وعَزّت النَّظائِر، بعد أن وقع بالعشي مطر غَصَّت به السَّواقي، وبلغت معه نفوس المسائل التَّراقي، ما لفظه وصورته:

نحن والندماء عِقْد بلا واسِطَة، وعصابَة من الأقراط الذَّهبية بلا رابطة، وحديقة بلا نسيم متضّوعة، ولا زهور ممطورة متنوعة، ولا شك أنك الواسطة والرابطة، والنَّسيم التي هي منْ جنان الفردوس هابطة، والزَّهر المتفتح لتلك الحديقة، التي لا تبرح مَدامع السّحب عليها غديقة، فباللّه عليك إلاّ ما بادرت بوصولك، ومتَّعتنا بكونك لدينا وحصولِك، فأنت تتمة الأنس، بحسن محاضرتك التي لم تنس، بك يكمل السّرور ويتم، وحديثنا بدىء بالتّمني لحضورك وخُتِم، فنحن في روض واسعٍ غير ضنك، قد استغنى بما عنده من المحاسن إلا عَنك، عيون أزهاره إلى الطريق شاخصة، وقدود أغصانِه لغناء الوُرق غير راقصة، قائمة على سوقها، قلقة لفرط شوقها، فإذا وصلت هَزَّت من المسرة ناعم أعطافها، وأذالت حلو الثَّمرات لاقتطافها، وشاركنا في السّرور فقد جزنا أقصاه وأدناه، وعُد

---

(١) هو بدر الدين محمود بن أحمد العيني، من علماء الشام الأفاضل، عاش بمصر، له مؤلفات عدة. توفي سنة (٨٥٥).

(٢) طبع بهامش «خزانة الأدب» للبغدادي سنة (١٢٩٩) هـ.

عليل النَّسيم على أرائِك الحدائق فإنا قد عُذْناه، واستدرك رمقه فإنه في آخر جزء من الحياة، وقد كاد أن يموت لذوبان أنفاسِه، لولا رشنا له بالبارد من المياه، يتَنَفّس الصُعدا لبعدك، ويتابع الزَّفرات لفقدك:

وأمسى نسيم الرَّوض في فرش الربا عليلاً فكم نسعَى له ونزوره

أمَا تشوقُك هذه السُّيول، المتسابقة في ميادين الريَاض كأنها خيول، قد صاغت لسيقان الدوح خلاخل فضة مَضبوبة، وأحسنت في سبكها على نارٍ من الشقائق مشبوبة، زبدها يذهب جفا، ونبات الأرض لا يعرف منها جفا، قد تَكَسر ماؤها من رؤوس الجبال، وقطعت صوارمها فإذا هي نصال النِّبال، مَلأَت من السَّهْل فجَاجَه، وأديرت شمولها من الزُّجاجة، فالبِدَار دَامت أيَامُك مقصود، قبل أن يجَذّ زرع عمرك بمناجل الأهلة محصود. والسلام.

قولي: «وأديرت شمولها من الزجاجة» فيه تورية، لأنَّ الزجاجة للشَمول وهي الخمر معروفة، والزُّجاجة محل معروف من منافس جبل كوكبان المحروس تنصب منه السُّيول أيام المطر.

وقد ذكرتُ هنا ما كتبته معتذراً إلى بعض الرُّؤساء من الأصحاب، وقد استَدْعاني للخروج إلى «الزجاجة» المذكورة وكنت إذ ذاك أسمع الجامي الذي هو «الفوائد الضيائية شرح الكافية»[1] على بعض مشائخي فقلت:

عُذْراً إليك أخا العليا فما رضيت نفسي بتضييع أوقاتي وأيَّامي
وقد تعوَّضت لكن لستُ منتقصاً عن الزجاجة في التَّرويح بالجامي

وذكرت أيضاً ما نظمته مضمناً للبيت الأخير برمّته، وقد خَرَجت إلى الزُّجاجة

(١) سبق ذكره قبل في ترجمة مؤلفه، وهو من الكتب المهمة في الدراسة عند أهل اليمن، فرغ منه مؤلفه سنة (٨٩٧ هـ) طبع حجر ببمبي في الهند سنة (١٢٧٨ هـ) وسنة (١٢٨٢ هـ) بكلكتاو وسنة (١٣٠١ هـ) وسنة (١٣٠٧ هـ) وسنة (١٣١٢ هـ) وسنة (١٢٥٧ هـ) بالآستانة وسنة (١٣٠٦ هـ) بقازان. (انظر معجم المطبوعات ٦٧٢).

المذكورة وكان قد وعدني بعض الأصدقاء بالخروج معي فتخلف عنه فقلت:

خرجت إلى سفح الزُّجاجة قاصداً لترويح قلبي والسحابة تمطرُ
ومحبوب قلبي في شبام وأعيُني إلى سفحها ترنو وقلبي يَشْعُر
وقفت كأني من وراء زجاجةٍ إلى الدَّار من فرط الصَّبابة أنظرُ

وكتبت إليه أيضاً لما تهجَّم على قصيدةٍ لي نونيَّة وأخذ معانيها ومعظم ألفاظها، وكان بيني وبينه من الأنس ما يوجب عدم الاحتشام، وذلك قولي من النَّظم والنثر:

أنت واللَّه خضت بحر عروضي منه لي قد أخذت دُرّاً ونُوْنَا(1)
من مغاصٍ له تناولت غَضباً عن تجاريك لُؤلُؤاً مكنونَا
فَخُذ العَتْب من محبك بالكيل (م) فقد حُزت دره الموزونَا
غير أني إذ صرت أنت غريمي في الذي كان لم أكن مغبونَا
فتهَجَّم واسرق وحَرّف وبدِّل واجعل الجدّ في العتَاب مُجُونَا
وابق واسلم ما دمت تأخذ من روض (م) قريضي بغير إذنٍ فُنُونَا

يا واحد الدهما(2)، وغرة فرس الليالي الدهما، ومن إذا ما خط وكتب، حل من البلاغة بأرفع الرُّتَب، السلام عليك، ابتداؤه منك وانتهاؤه إليك، ما لاث الجوّ من الغمائم، على قمم الشَّوامخ سود العمائم، وقفت لك على قصيدة كل المعاني الغريبة بشباك خطها مصيدة، إلاَّ أنك أضرمت نار جوانحي، لما أمسكت بتلك الشباك جملةً من سَوانحي، فإنك أغرت على قصيدتي النُّونية إغارةً تركت أبياتها بلاقع، ورفعت عن مخدرات معانيها من أسْود المداد براقع، فهلا أبقيت لعرقها نَبْضاً، وأخذت من نظم الغير بعضاً:

---

(1) النون: الحوت.

(2) الدهماء: جماعة النَّاس.

سَـرقـاتٌ مـنـي خُـصُـوصـاً فـهَـلا مــن عــدوٍّ أو صــاحــبٍ أو جــارِ

فكم سللت اللُّؤلؤ من سمط سردي، وكنت محمد بن الزيات[١] على الحقيقة أو ابن الوردي، لقد سلكتَ مسلكاً غير حميد، وفُقْت في التهجُّم والأخذ سعيد بن حميد[٢]، أما عرفت أن للبيت ربّاً يحميه، وأن للسّماء شُهُباً متى استرق المارد فهي ترميه، فلم أغب عن تَهجُّمك في غابي، ولم أعتمد قول بعض الحكماء: الكرم مكيال ثلثاه التَّغابي، ولعلك اعتمدت على اتحاد حالِك وحالي، واستعرت قلائدي فإذا جيدي عاطل وجيدك متجمل وحالي، ولم تقل شَغَل الحُلْي أهْلَه أن يُعَار[٣]، ولم تخف من التَهجم وصمة عيب وعار، وقد علمتَ أن من سَرَق من حرزٍ يقطع، وأن الصّبح على اللصّ في اللّيل يسفر ويسطع، وأنه يستحق الحدّ، من تجاوز في افتضاض[٤] الأبكار سفاحاً غاية الحدّ، فأعيذك من مثل هذا الإقدام، الذي يُقْطَع بجنايته الأيدي والأقدام، والسلام.

قولي في هذا المنثور: «وكنت محمد بن الزَّيات على الحقيقة أو ابن الوردي»، أما ابن الزيات فهو الذي ذكر شهاب الدين الخُفاجي رحمه الله تعالى في ريحانته[٥] وقال في حقّه إلاَّ أنه كان مولوعاً بالسرقة ولص البيت لا يؤمن، فإذا أنشد شعْراً قيل له: أحسن النَّاس ولله در من أحسن:

ومِـن الـعـجـائـب أنــه لا يُـشْـتَـرى ويُـخاف[٦] فـيـه مع الـكـسـاد ويُـسْـرقُ

وأما ابن الوردي فالمراد به الشيخ زين الدين عمر بن مظفر الوردي رحمه الله

---

(١) سيأتي ذكره بعد قليل.

(٢) أديب له «انتصاف العجم من العرب» انظر: (وفيات الأعيان: ٣/ ٨٠).

(٣) من الأمثال، انظر: (مجمع الأمثال: ١/ ٣٧٤) قال في تفسيره: أي أهل الحلي احتاجوا أن يعلقوه على أنفسهم فلذلك لا يعيرونه.

(٤) في (ز) اكتضاص.

(٥) انظر: (الريحانة: ٢/ ٩٧).

(٦) الريحانة: «يخان».

تعالى، فإني لما تتبعت معاني نظمه وجدتها مَأخوذةً إلاَّ نادراً، فهو كثير السّرقات الشعرية فأغلب أشعاره ومعانيها منتحل من أشعار غيره، وقد تهجَّم من أدباء عصره على الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى وأخذ من معاني نظمه كثيراً، حتى قال الصَّفدي بعد أن أورد من سرقاتِه عليه ما أورَد في كتابه المسمَّى «ألحان السَّواجع، في المُبَادي والمُراجع»[1]، ما لفظه: ولما أكثر من هذه السَّرقات الفاضحة كتبت إليه:

أغرت على أبكار فكري ولم أغِر ... عليها فلا تَجزع فما أنا واجدُ

ولو غَيْر مولانا استباح حجابها ... أتَتْه من العتب الأليم قَصَائِدُ

قواطع تحميه دروع اعتذارِه ... وألسنها عند الخصام مبارد

ولكنه لا فرق بيني وبينَه ... يَبِين لأنَّا في الحقيقة وَاحِدُ

فأجابه بقوله:

وأسرق ما أردت من المعاني ... فإن فقت القدَيم حمدت سيري

وإن ساويته نَظْماً فحسبي ... مساواة القديم بذا الأخِير

وإن كان القديم أتَمَّ معنى ... فهذا مبلغي ومطار طيري

فإنَّ الدِّرْهم المضروب باسمي ... أحبّ إليَّ من دينار غيري

قولي: «وفقت في التهَّجم والأخذ سعيد بن حميد»، هو سعيد بن حميد الكاتب الطوسي، ذكره القاضي شمس الدين بن خلكان[2] وغيره من المؤرخين، وقالوا في حَقِّه: سعيد بن حميد يكنى أبا عثمان، وكان كاتباً شاعراً مترسّلاً عَذب الألفاظ، مقدّماً في صناعِته، جيّد السَّرقة، قال بعض الفضلاء: لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع إلى أهلك لما بقي معه منه شيء.

---

(١) هذا الكتاب من كتب الصفدي المخطوطة، منه عدة نسخ، نذكر منها مخطوطة رباط تريم بحضرموت وهي نسخة جيدة.

(٢) (وفيات الأعيان: ٣/ ٨٠).

أَخُوْهُ السَّيد أَحْمَد بنُ الحُسَيْن بن يَحْيَى[١]

سلالة أكابر، يفتح للنّطق بالثناء عليهم أفواه المحابر، تألفهم الرّماح والصَّوارم، وتنتسب إليهم المناقب والمكارم، ما اشتبكت في الأفق النّجوم، إلاّ ظُنَّت أنها أسنة قناهم المشتجره على الخصوم، ولا مد ثَوْب اللَّيل، إلاّ أعتقد أنه دروعهم الفضفاضة الذّيل، ولا سأل محمر الشفق، إلاّ قيل هذا دم أعدائهم قد اندفق، وهذا الفرع، قد امتَرى من العليا أحفل ضرع، مع وقارٍ ورجحان، وقرارٍ لا يزلزله الكارث إذا حان، وله خط كأنه مصفف الطُّرَر، على الأبيض الواضح من الغُرَر، يُعَد في سماء القِرطاس زُهْراً، وفي حدائق الدّفاتِر زَهْراً، وفي سوالف الأوراق عذاراً، وفي معاصم الصدور نقش العذارَى، وله شعر قليل، وذيل أدبٍ بليل، أنشدني له في المنثور[٢] الأصفر، وقد رُصِّف في صحنٍ وحُفَّ بالمنثور الأحمر، فبدَا كَترس ذهب لطخت بالدَّم منه الأطراف، أو رصعت بالياقوت الأحمر الشَّفاف، قوله:

منثورنا[٢] الأصفر حفَّت بِهِ ... حاشِيَةٌ من أحمرٍ في نَسَق
كأنه ثوب أصيلٍ وقد ... طَرّزه الغرب بلون الشفق

وقوله في تشبيه الورد الأحمر:

انظر إلى الورد وقد ... أبْدى لنا منه العجب
كاسات مَرْجانٍ بها ... لطيف زَهْرٍ من ذهب

وقوله في القول بالموجَب:

تزَوَّج المولى عماد الهُدَى ... بغادةٍ تُخجل ظبي الفَريق[٣]
صغيرة السن وقالوا لنا ... تَكَلَّفت قلنا: لما لا تطيق

---

(١) ترجمته في (نشر العرف: ١/ ١٣٤) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) المنثور: اسم مفعول نبات ذو زهر ذكي الرئحة ويعرف في بعض البلدان بالخيري.

(٣) القطيع.

وقوله[1]:

زَوِّج الماء بالمدام لنشهد عقدها يا نديم كالأبكارِ
قد جعلنا العقول مهراً وهذا حَبَبُ الكاس فوقها كالنثارِ

وقوله مضمناً:

أخجلت يا ثغر الرَّشا بارقاً لَمَّا شَرَى ما بين تلك الغمام
فغاب في السُّحب وأبدى الحيا فما يُرى قط له إبْتَسام

وقوله في مليح يُلَقَّب بالجَيْشي[2]:

همتِ بغِزلان الظَّفير الذي ما لَذَّ لي من هجرهم عيشي
عيونهم قد حاربت مهجتي والقلب مأسورٌ لذا الجيشي

وأحسن منه ما نظمته أنا في بعض ذوي الأمر، وقد طلب منه إمام الزمان الحساب في الحاصل من البلاد، وكان له وزير بارع يلقّب بالجيشي أيضاً:

لا تَخْش يا أحمد المحمود مَهْزُمةً لدى الحِسَاب ودم في أطيب العيشِ
فقد غَدَوت بذا الجيشيّ منتصِراً وقَلّ ما هزم المنصور بالجيشي

وقوله:

أعلمت يا شمس المعالي أنَّني أبداً إلى تلك المكارم شَيّقُ
فهجرت لما أن نزلنا سوحكم فكأنني ولقاك ثغر أفرقُ

وأحسن منه قول الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى[3]:

أجاور من أهوى ولا وصل بيننا كأني ومن أهواه ثغر مُفَلَّجُ

---

(١) أورده في النشر: (١/ ١٣٤).

(٢) أورده زبارة في (نشر العرف: ١/ ١٣٥).

(٣) (ديوانه ٩٦).

وقول ابن نُبَاتة أيضاً في قصيدةٍ أُخرَى[1]:

فيالك معطوف[2] العذار هجرتُه ... فما عَرَّجت عيني له حين عَرَّجَا

دنت داره مني وشطّ مزارهُ ... فهل أبْصَرَت عيناك ثغراً مُفَلَّجا

ولما استعار مني كتاب «المثل السائر»[3] لبث لديه مدة، فاستدعيته من عنده وقلت في خطابِه:

أنت شهابٌ لست ذا حاجةٍ ... إلى اصطحاب المثلِ السَّائر

وإنما أنت لذا عارف ... مفتقر للفلك الدائر

هو لا يخفى مرمى هذا النظم فإن الشهاب مفرد الشهب التي هي الدراري وهي النجوم، والفلك الدَّائر محلها، فهو الأليق بالشهاب الذي هو كنية صاحب الترجمة كما لا يخفى، و«الفلك الدائر على المثل السائر»[4] هو كتاب عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد[5] رحمه الله تعالى، ولذا كتب إليه أخوه موفق الدِّين[6] قوله[7]:

المثل السائر يا سيدي ... صنَّفت فيه الفلك الدائِرا

لكن هذا فلكٌ دائِرٌ ... أصبحت فيه المثل السائرا

وكتبت إلى صاحب التَّرجمة من النَّثر أستدعي منه ما وعدني بنقله من نظمه

---

(١) (ديوانه ٩٠).

(٢) الديوان: مقطوف.

(٣) من الكتب الأدبية للأديب أبي الفتح نصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة (٦٣٧ هـ) طبع أول مرة سنة (١٢٨٢ هـ) بمصر.

(٤) طبع لأول مرة بالهند سنة (١٣٠٩) في ١٨٤ صفحة، وأعاد طبعه محققاً الدكتور بدوي طبانة طبع دار الرفاعي سنة (١٣٠٤ هـ).

(٥) من الوزراء الأدباء له «شرح نهج البلاغة» و«القصائد العلويات» وفاته سنة (٦٥٥ هـ) (فوات الوفيات ٢/ ٢٥٩).

(٦) هو أحمد بن هبة الله بن أبي الحديد، أديب متفقه، توفي سنة (٦٥٦ هـ). (فوات الوفيات ١/ ١٥٤).

(٧) البيتان في (فوات الوفيات ١/ ٥٥).

المتقدم ذكره في المنثور وفي الثَّغر المفلج ما لفظه:

أيُّها الشِّهاب الذي تلالا، والنجيب المشرق جلالا، لا زلت محفوفاً بكل مَبَرَّة، ما سَبحَ حوت النُّجوم بنَهْر المَجَرَّة، ورَدَ المسطور، بنفَثَات المصدور، مستنجزاً وعدَك بمنظومك في المنثور، فإنك وعدتَ بنقلِه، وأمسكت لما سمعت بأن شعر المرء تمثالُ عَقْلِه، وذاك النَّظم المرفوع، على حجاك الموفور شاهدٌ غير مدفوع، فقد أخبر عن ذوقِك السَّليم، لما رفعت به شأن المنَثْور حسى[1] حَسدَه الوردُ فوقع من نار عصرهُ في العذاب الأليم، وغَار النَّرجس فبكت عيونه بدمع الطَلّ، ورمى بكأس الذَّهب من عَلَى رأسِه وذَبَل واعتل، وكذلك نظم الثغر المفلجَ، فإنه مما يبتسم له بثغر الأقحوان الرَّوض المُسَيَّج، والسَّلام.

أخوهما السيد إسماعيل بن الحسين بن يحيى البصير[2]

كاتبٌ ناسخ، مالآية فضله ناسخ، له خط قويم قوي، منهجه في الملاحة منهج سَوِي، أرق من زرد العذار وألطف، وقد لبسها الخدّ خَوْفاً على وَرْده من أن يقطف، أو خشية من أن يُجْرح، بأسهم أبصار في نَضارته تسرح، يكتب من الخط بديعاً، فكان الرَّوض بريحانِه لم يزل له وديعاً، ويزخرف الطومار بالذَّهب، فيعود قِرطاسُه كالجذوة من اللَّهب، تتمنَّى عين الشمس أن تكون له عين تبر، ويود اللَّيل المظلم أن يكون له حالكاً من الحِبر، فكان في بابِه للدَّهر زيناً، ولكنه حَسده فأفسد منه عيناً، فكُف بصرُه، وأصابه في البيت حَصرَهُ، وخَذَله الزمانُ الذي نَصرَه، فاستراح من رؤية الأغمار، ومشاهدة الشياطين التي حَلَّت منازل الأقمار، والنَّظر إلى من لبس حُلل الثَّراء وهو خليق بالتَّعَرِّي، فما أقول في حَقِّه إلاَّ ما قاله بعض الأدباء في خطاب أبي العَلاء الْمُعَرِّي:

أبا العَلاَ يا ابن سليمانَا ... إن العمى أولاك إحسانَا

---

(١) كذا في (ب) و(ش) وفي (ز) حتى.

(٢) ترجمته في (نشر العرف ١/ ٣٥٥) نقلاً عن كتابنا هذا.

لو عاينت عيناك هذا الورى   ما عاينت عيناك إنسانا

طالما في ظلمته تاه، لَمَّا بخِلت عليه بالنور كريمتاه، فاحتاج إلى قائد، وطرقه من الألم ما لا يفتقر معه إلى عائد، واستبدل عن قلمه العصا، لما تمنّع عن طاعَته وعصى، ولم يحمل العصا فيما تَسمْع عنه وترى، لكبر سنه حتى يكون لقوسه وَتَرا، وإنما أمسكها لتكون له أيّ هاد، وحملها بيمينه وقالت لسان حاله في الاستشهاد[1]:

حملت العصا لا الضعف أوجب حملها   علي ولا إني انحنيت من الكبر

كنتُ قَبل أن يُصيبه العَمَى، وقد أصبح إناء سغده مُفْعماً، أجتمع أنا وإياه بمواهب الكريم، وقد لزمه الإقبال لزوم الغريم، وهو ينسخ لإمام العصر مصحفاً شريفاً، ويمدّ من زخرفته على أوراقه روضاً وريفاً، وقد أفاض عليه من نواله سنيّاً، ودلّى فوقه من ثمرات أسْدائه جنياً، ممّا عاد به بعد الافتقار غنيًا، فكنا نتجاذب من المُذاكرة أطراف الإزار، ولا ندع المواصلة ولا نترك المزار، لما غرّد على غصن الإقبال الهزار، وقد غازلت الغيد في الرّياض، عيون نرجس كعيونها مراض، وهو حسن المحاضرة، بديع المُباراة والمُناظرة، تسكر من ألفاظه الحُميًا، وترقص للطَّرب بها مَيّا، ثم لاقيته بصنعاء بعد أن كُفَّ طرْفُه، ولعب بدينار عيشِه من الدّهر صَرفُه، وقد ذَوَى زَرعُه، وضاق من الحزن ذرْعُه، وجَفَّ من غُصْنِه الرَّيّان فَرْعُه، وَتَمَزّق من سابغة الصَّبْر درعُه، لما استحال سبج ناظِره فِضّة، وعادت عينُه من الحزن مُبيَضّة، وقد زَاد بذاءة ووقاحة، وسقا لا بحياء الحَيَاء سوسنَه وأَقَاحَه، وله نظم ذو جوهرٍ يُنْثر، وشعر في المدح كثير وهو في الهجو أكثر، اخترت له من قصيدةٍ نظمها في يوم غَدير، وذكر فيها الإمام عليًا حيّاه من رحمة ربه الرَّوض النّضير، ومدح بها بعض ذوي الأمر، قوله مما يدير في رقيق جامه الخَمْر:

---

(١) البيت في كتاب (العصا) لأسامة بن منقذ (٤٣١). مع بيت آخر. قال محققه الأستاذ حسن عباس: البيتان في (عيون الأخبار ٢/ ٣٢٣ وأدب الدنيا والدين ١١٦) دون عزو، وهما لمحمد بن وشاح بن عبد الله كما في (الوافي بالوفيات ٦/ ١٧٤).

كثرت لقربِ مَقَامِه من ربه ... محنٌ له والأجر يكثر بالمحن
إن فاتت الدُّنيا عليه وملكها ... فاللَّه نَزَّهه عن الدنيا وعن

منها:

ومع الوصي الحق قال محمدٌ ... ولعكسه هذا بذلك قد قرن
في الأمهات حديث أني تاركٌ ... فيكم كتاب اللَّه صح وفي السنن
ما إن تمسكتم به من عترتي ... ثم الكتاب فلن تضلوا عن سنن

ومنها في ذكر الممدوح:

كم دَولةٍ قامت به وأزالهَا ... وَعَلا على سرر الممالك واطمأن
والمال مبذولٌ فسل من علمه ... عمَّا بدا وعن النَّدى لا تسألَنْ
خذها أخا العليا إليك فصيحة ... ما في اللِّسان بها وحاشاها لكن
والآل ذُخري في المعاد وعدتي ... ما غَرَّدت ورقٌ على أعلى فَنَن

السيد أحمد المهدِي بن يحيَى الحَمْزي

شاب ترقرق ماء شبَابِه، وتَتَوَّج شرابه بِلُؤْلُؤ حَبَابِه، تألَّق بَرْقُه، وأنار بطلوع الشَّمس شرقُه، تفجرت جداول سماحَتِه وجَرَت، وتخطَّرت نسيم لُطْفِهِ وسرَت، فهو أندى من الرّباب، ومن رياض الحُسْن جَرَى عليها مَاءُ الشَّبَاب، وله مكارِم زَيَّنت منه بديع السِّمات، وأحيت صِيْت آبائه وقد مات، فالمروَّة عليه قَدْ قُصِرَتْ، وأسباب الفضائل فيه قد حُصِرتْ، مع سِعةٍ في المال وثروة، قد ألبسته حُلَلاً وَفَرْوَة، فهو ذو ذيلٍ أخْضَر، وروض رفاهيَّةٍ أنضر، في عيش لو كان في ثَغْر لكان لعَسًا، ونعْمةٍ لم يَقُل معها لعَلَّ وعَسَى، أنْعم منْ خُزَيْمٍ وَحَيَّان[1]، فغُصن شَبابه

---

(١) في الأمثال يقال: أنعم من خزيم. وهو خزيم بن عمرو من بني مرة بن عوف، ويقال له خزيم الناعم، وسأله الحجاج عن تنعمه فقال: لا ألبس خلقاً في شتاء ولا جديداً في صيف، انظر (المستقصى ١/ ٣٩٤) ويقال: أنعم من حيان، هو رجل من بني حنيفة كان في نعمة البدن ورخاء العيش، وكان ينادم الأعشى، فضرب به المثل (المستقصى ١/ ٢٩٣).

مائس العِطْف ريَّان، ألينَ لَمْساً من الحريرِ، وأحسن منظراً من وجه مليحَةٍ تُجلَى على سرير، وأصفى من دمعة، وأنورُ من شَمْعَة، ولم يَزل مطْرف نغمته رقيقاً، وزَهْر عَيْشه ورداً وشقيقًا، إلى أن قَصرُ مَدَاه، وبعد السَّماع صُمَّ صَدَاه، واخترمَهُ الأجل، ونحا نَحْوَه من الموت الحادث الأجل، ووافاه هادم لذَّاتِه على عَجَل، واستحيا زمانُه لمَّا فاجأه بالحمام فإذا الشفق في خُدُوده حُمرَة خجَل، فإنه مات وشبابهُ غضّ، وماء نَضَارته الصَّافي يرفَضّ، فجع به الموت وأراب، ولمُتّه أشد سواداً من حَنَك الغراب، ومن شعره ما كتبه إلي، وقد عَوَّل في أمرٍ عليّ، وهو إذ ذاك بمحروس العارضة[1]، في مقام أنسٍ غدَت النفس لكل مقام عنده رافضة:

أتاك قريضي من العارضة ... يُخبِّر عن حالةٍ عارضه
من الأنس تمت لنا عندها ... عيون الخطوب بنا غامِضه
فتمَّم لنا أنسنا بالذي ... وعدت فكفي له قابضه
شهاب المعاليْ لكم همَّةٌ ... إلى نيل ما أرتجي ناهضَه
فبادر ولا زلت في نعمةٍ ... لقصدك موجبه فارِضَه

فأجبته بقولي:

زهورٌ لزهر الرُّبا غائِضَه ... عيون النُّهور بها فائِضَه
أتتني تطالب في حجةٍ ... من العذر واهية داحِضَه
أتتني من حيث حَلّ النَّدَى ... وحيث الأسود به رابِضَه
فخذها صفي الهُدَى نفثةً ... أتتك لجامحها رائِضَه
وهاك هشيمي الذي قد غَدَا ... يقابِل من نظمكم بارِضَه[2]

---

(١) العارضة: قرية في جبل كوكبان تشرف على مدينة شبام، وفيها بنو العارضة من آل الحمزي رهط المترجم له.

(٢) البارض: أول ما تخرجه الأرض من نبات.

ولا زلت بالنظم ذا قُوّةٍ إذا أنا ورّيتُ في العارضه

وكتبت أنا إليه من المَنْثور وقد أهدى لي شيئاً من العنب البياض[1] ما صورته ولفظه:

سلام على نسل السّادة القروم، سلام أنضر من الحدائق وأحلى من عنب الكروم، يستَمرُّ منه الأداء، ويتجدّد من حُلله الرّداء، ما طار غُرَاب اللّيل ونَسْرُ الفلك، وسلك بهما الفرع من هجوم باز الصُّبح إلى حيث سلك، على من طَمّ سيل نَوَاله وَهْدي[2]، وقلت في حقّه أحْمد المُهْدِي وهو أحمد المَهْدي، لا زال ذا مقام شريف، ما سَرنا الزّمان بفاكهة الخريف، هذا وإنها وصلت الهدية السّنية، والفاكهة الحلوة الجنية، وهو العنب البياض الذي هو القبض الدّاخل، فله طريق إلينا منك أيها الكريم إذا كان له عُقْلة من باخل، عِنبٌ جاد به الروض الأنضر، كأنّه حَبّات الذَّهب لُفّت مِن الخلب في أوراق زمرّدٍ أخْضر، خِلْبٌ يخْلِبُ العُقول بنضارته، ويجلب السرور والأفراح بغَضَارته، فعلى ذلك العنب مِنْ خلْبه غِطَا، خلْب كَرْمٍ كأنّه الرّاحات من الكَرام وَقَد مُدَّت عَنْ ذهب العِنَب بالعَطَاء، لا كما قال من شاع قوله في الشرق والغرب، إنّها أكُف غَدَت تستغفر الله للشّرْب، فللّه مَكارِمُك وما صَنَعت، وفواضلك التي صرَفَت همتّها إليَّ وَمَا منَعَت، أهدت إلينا من متنزهاتك نَمُوذَجاً حِلْواً، وجاءت مِنْها بِمَا أخبر عِنْ نَضِيْرها بأنّه المُقَدَّم إذا كان غيره تلْوَا، فيَالها الله من حظَائر، قد عَزَّت لها الأشباه والنظائر، كأنّ عرشها عرش المهيمن السَّلام، وكأنَّ حبَّات العِنَب في خُضْرتها المدهمَّة نُجُوم تشتعل في الظّلام، أوضحت للمسرّة شِرْعة ومنهاجا، فراح إليها كل طالب لَذَّةٍ ومنْهاجا، مَدّت دون عنبها من الكرم خُضْر السجوف، وعلّقت من عناقيده الأقراط الذهبية

(١) من أنواع العنب.

(٢) الوهد: الأرض المنخفضة.

والشُّنُوف، أقراط سبكت بنار الله فخلصتا عن الزَّغل[1]، وحفظت في سقف مرفوع قيدُ الجاني عنها تُغلّ، وقضدي بالجاني من الجناية لا من الجنى، فأمَّا هو فقد فاز منها بالقصد وظفر بالمنى، فالله تَعالى يُديم لك فيها السّرور، ويصرف عنك في جنَّاتها الآفات والشُّرُور، والسلام.

قولي: «أقراط سبكت بنار الله» المراد بنار الله الشمس فإنها تكنَّى بها قال ابن الجون[2] في أبياتِه المشهورة التي خاطب المنصور العبَّاسي لما حبسه[3]:

أمن صهباء صافية المزاجِ كأنّ شعاعها ضوّ السراج
وقد طبخت بنارِ اللَّه حَتَّى لقد صارت من النطف النضاج
أقاد إلى السجون بغير جرم كأني بعض عُمَّال الخراج

السَّيد محمد بن أحْمَد بن يَحْيى بن المفضل[4]

نديمٌ خَفَّ رُوْحا، ونسيم أهدى ريحاناً وَرَوْحا، قرأ من النحو ما عُدّ به مُهذباً، واعتمد من درسه ما عاد به بعد التبعيد من الفضل مُقَرّبا، وله خط لم يخل عن الملاحة، كم جَرَّد من رماح ألِفَاته وسيوف راءاته بسلاحه، مع ذهن دقيق في النقوش والتدبيج، وإحكام لا يلحق في الزَّخرفة والتعريج، فكم روض مهرق قد دّبجه، وبالحجب اللَّطيفة قد سيَّجه، مع حِدَّةٍ وحَرَارة، تجرد من غمد الوقار غراره، إلاّ أن مشْيبه في أرض الفضل هوْن، فبينه وبين أخيه عبد الله في الدّراية بون، وكان في طليعة العُمْر، لا يسمح من أوقاته بساعة تمر، إلاً في لهو

---

(١) الزغل: المغشوش من الذهب ونحوه.

(٢) هو المعروف بأبي دلامة زند بن الجون، أديب متظرف وفاته سنة (١٦١ هـ). انظر: (وفيات الأعيان: ٢/ ٣٢٠).

(٣) الأبيات في (معاهد التنصيص: ٢/ ٢٢٠).

(٤) ترجمته في (نشر العرف: ٢/ ٤٤٧).

واجتماع، وغناء مطرف وسماع، وغير ذلك مما يقتضيه جنون الشَّباب، وتنظمه الحداثة نظم اللآلىء من الحباب، فهو على الخلاعة أوثب من فهد(١)، وفي ميدان البطالة أسبق من نَهْد، في زمن هو الزمن، قبل أن تتَغَير أحوال اليمن، ونسيم الجوّ إذا سرى، فتح من النَّور الأزرار والعُرى، وعامل النّهر بالتَّشويش، وباشر وجنات الورد بالتجميش، ولما قلب الدَّهر ظهر المجن، وبدَّل أيام المسرَّة بالشّجن، ضاق به العيش وطاش عقله أي طيش، فخرج من كوكبان طريد الاحتياج، وقد مُزج علقم الفقر بشرابه أشد الامتزاج، فلم يزل يطوف في الآفاق، ويروم من زمانه الإسْعاد والوفاق، فاختار صنعاء له دار إقامة، وداوى في مصرها من عيشه سقامه، فسقط على رياضها سقوط النَّدى، وغَنَّا الطير بفروعها فرحاً بمقدمه وشدا، وأصبح رَبْع كوكبان بعده خالياً، وقد كان عاطله بمنظوم درره حالياً، ولم يزل بها جاثماً، بعد أن غدا الزَّمان بما صنعه به آثماً، إلى أن قضت منه المنيّة أرباً، وأودعه الحافر من اللحد سرباً، عَوّضه الله عن ذلك الامتحان، جنة محفوفة بالروح والرَّيحان، وقد أسمعني من نظمه جُمَلاً، وأودع أذني منه ما يذْهِبُ الدرّ معه هَملاً، منْ غزلٍ ومَدح، قد تنزَّها عن وَصْم وقدح، وشعره يُفض الدّنّ عن رحيقه، فهو أرق من شعر أخيه وأنضر من زهور شقيقه، منه قوله من قصيدة أسمعنيها رحمه الله تعالى:

أفدي التي بوصالي قطّ ما سمحت ... ولا بما أرتجي من قُربها منحت
قد صرت من أجلها مضنى الفؤاد ولي ... نفْسٌ على بُرحاءِ الشوق ما برَحت
ما ضرَّ من عذَّبتني في محبتها ... عن ذَنب مغرمها لو أنها صفحت
أهوى التي قد حوت كل الجمال ومن ... قد فاقت الحُور إن جدت وإن مَزَحت
لها جبين حكى بدر الدُّجى ولها ... ذوائب لسواد الليل قد شرحَت
كالغصن قامتها كالبدر طلعتها ... كالظبي لفتتها والجيد إن سَنحَت

(١) المثل في المستقصى ١/ ٤٢٧.

الورد في خدّها والخمر في فمها ... وسحر هاروت في الألحاظ إن لمحت
باللّه بلّغ سلامي يا نسيم لمن ... سهام مقلتها للقلب قد جرحت
وقل لمن نَزَحت عنّي فلم أرها ... لكنها عن سواد القلب ما نزحت
ما بالها سكنت سفح الغضا فلقد ... نيرانه في فؤادي والحشا لفحت
ولا عجيب إذا ما كنت ذا ولهٍ ... ومقلتي بلآلي الدمع قد سمحت
فإنها البدر لكن ما به كلف ... عيون أهل الهوى في حسنها طمحت
لا بل هي الشمس لكن غير آفلة ... وعن جوانح قلبي قط ما جنحت
شمائل حسنت فيها كما حسَنت ... شمائِل في صلاح الدين قد صلحت

قوله: «نفس على بُرحاء الشوق ما برحت» هذا المصراع هو بعينه مطلع قصيدة السَّيد جمال الدِّين محمد بن عبد الله بن شرف الدين رحمه الله تعالى المشهورة وهو قوله:

نفْسٌ على برحاء الشوق أطويها ... ولوعة بُتّ أخفيها وأبديها[(١)]

غير أنه وضع مكان قوله أطويها قوله ما برحت، فأحسن غاية الإحسان لأنه حصل له من البديع ما يشبه تجنيس الاشتقاق بين قوله «بُرحا» وبين قوله «برحت» كما ترى.

وقوله: «ما بالها سكنت» البيت فيه الاستخدام بالضَّمير كما لا يخْفى، ومثله قول مولانا الوالد قاضي القضاة جمال الدين محمد بن الحسن بن أحمد الحيمي رحمه الله تعالى في بعض القصائد:

ولا عجب إن همت في ساكني الغضا ... غراماً فقد شبّوه في كبدي جَمْرا

وقد ذكر الشيخ صفي الدِّين الحلي رحمه الله تعالى في شرح بديعيته[(٢)] أن

---

(١) (ديوانه ٢١٠).

(٢) انظر (شرح الكافية البديعية للصفي الحلي: ٢٩٧) ط دمشق سنة (١٤٠٣) بتحقيق الدكتور نسيب نشاوي.

الاستخدام بالغضَا غير صالح لأنه يشترط في الاستخدام الاشتراك الوضعي ولا اشتراك وضعي بين الغضا الذي هو الشجر المعروف وبين المحلّ الذي سمي باسم ملازمه، لأنه إنما يقال وادي الغضا أي الشجر المعروف وإلا فليس ثم محل يُسَّمى الغضا في أصل وضع اللغة، وكلام إمام المحققين سعد الدين رضي الله عنه يُنَافي ما قاله، فإنه قال: إنه يجوز أن يكون كلا المعنيين في الاستخدام حقيقيين أو يكونا مجازيّين ويجوز أن يكونا مختلفين، وحمل قول البُحْتري[١]:

سقى الغضا والساكنيه وإنْ هم شبّوه بين جوانحي وضلوعي

على المجاز فمع حمل الغضا على المجاز في معنييه يبطل ما قاله الحليّ مع أن أهل اللغة ذكروا أن ثَمَّ مواضع تُسمَّى الغضا منها أرض بني كلاب ووادٍ بنجد[٢].

واعلم أن الاستخدام كما أشار إليه العلامة الأديب القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد بن[٣] عمر الخفاجي الفَنْدي[٤] ا لمصري رحمه الله تعالى في ريحانته[٥]: قد يتعدَّد وقد يكون بالضَّمير من غير اشتراك، وقد يكون بالضَّمير المستتر في حال أو نحوه، وقد يكون بالتَّمييز من غير ضمير، وقد يكون باسم الإشارة، وقد يكون بالاستثناء وأتى لكل من هذه الأنواع المذكورة بشاهد.

---

(١) في (الديوان: ١/ ٢٠١) ط دار صادر:

فسقى الغضا والنازليه وان هم شبوه بين جوانح وقلوب

وهو كذا في (شرح الكافية للحلي ٢٩٧ والإيضاح للقزويني ٣٣٣).

(٢) قال في (المراصد ٩٩٦) الغضا أرض في بني بكر وبضم الغين ماء لبني عامر.

(٣) كذا في الأصل بهذه الزِّيادة، ولم أجد من سمَّى جدّه محمداً. انظر ترجمته في (خلاصة الأثر: ١/ ٣٣١ وسلافة العصر ٤٢٠).

(٤) مخففة من الأفندي، قال في (تاج العروس: ٢/ ٤٥٥): اسم يطلق لصاحب الفنون زادو ألفاً عند كثرة الاستعمال إن كانت عربية وقيل رومية معناها السيد الكبير.

(٥) (ريحانة الألباء: ١/ ٣٣).

وقال هو أيضاً رضي الله عنه في كتاب «طراز المجالَس»[1] عند ذكر الاستخدام ما لفظه: ومنها أن يكون باسم ظاهر قيم مقام الضمير كقول محمد بن حكينا[2] يعاتب أمير الدَّولة بن صاعد لما قاطعه بعدما أضرّ بَصَرُه وافتقر وقد قَطع عليه عادة كسوة كانت له عليه:

وإذا شئت أن تُصَابح بَشًّا ... ر بن بُرْدٍ فاطرح عليه أباهُ

ومنها أنه يعطفه على لفظٍ باعتبار معنى آخر لازم له كقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾[3] فإن المعنى لا تدخلوا المساجد جُنُباً إلاَّ عابري سبيل، فعطف جُنُباً على الصلاة باعتبار محلها كما أشار إليه بعض المفسرين. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وسألني صاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى عن معنَى قول أبي العلاء المَعري في بعض قصائده:

وقال الوليد النّبع ليس بمثمر ... وأخطأ سَرب الوحش من ثمر النَّبع

فقلت له: أراد بالوليد البُحْتَري وذلك لأنه قال في شعْره[4]:

وعيَّرتني خلال العُدْم آونه ... والنَّبْع[5] عريان ما في عوده ثمرُ

يعني النبع الذي تعمل منه القسي، ومعنى بيت المعرّي أن البحتري أخطأ في بيته هذا بقوله أن النبع ما في عوده ثمر؛ لأن القوس إذا عملت من النبع وصُيد بها

---

(١) كتاب للخفاجي المذكور جعله في خمسين باباً؛ ضمنها فوائد علمية وفكاهات أدبية طبع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة (١٢٨٤ هـ) في ٢٦٩ صفحة.

(٢) في (فوات الوفيات: ١/ ٣١٩) الحسن بن أحمد بن محمد بن جكينا شاعر من أهل بغداد، ظريف توفي سنة (٥٢٨ هـ) انظر: (تاج العروس: ٩/ ١٨٣) وضبطه بالحاء المهملة كما هو هنا.

(٣) سورة النساء الآية: (٤٣).

(٤) (الديوان: ٢/ ٣٠٨).

وعيرتني سجال العدم جاهلة ... والنّبع عريان ما في فرعه ثمر

(٥) الشجر.

صيد من الوحش فهو من ثمرها وهو ظاهر كما نصَّ عليه الشارحون.

وسألني أيضاً عن قول أبي الطَّيب المتنبّي:

فيه الفصاحة والسماحة والتُّقَى والباس أجمع والحجى والخيْرُ

وقال: ضبط في نسخة صحيحة الخير[1] بكسر الخاء المعجمة وصحح عليه فما الخير فقلت له: الخير بكسر الخاء هو الكرم كما في الصِّحاح، وكذا في القاموس. وقال العلامة شيخ الإسلام عبد الرؤوف المناوي[2] رضي الله عنه في كتاب «التوقيف على مهمات التَّعاريف»[3]: الخير بالكسر الجود والكرم، وبالفتح ضد الشر[4].

وكنتُ أنا وهو بمدينة عَمْران[5]، وقد استدار لي في سماءِ الأُنس من الأنيس والجليس قَمَران، وكان لا يبرح من مقامي، ولا يفارقني مُدَّة مُقامي، يميل إليَّ ميلان الغصن الوَرِيق، ويأنس بي أُنْس الحمامة إلى الروض الأنيق، فتخلف في بعض الأَيَّام عن بِدَارِه، ومكث لمُثَّبط بِداره، فكتبتُ إليه أطلب وصوله، وصِلْت عليه بالعِتَاب أيَّ صولة، ما لفظه:

اللَّه المستعان، على خِلّ للدَّهر بالجَفا أعان، فيانعم المُنادم، ومن هو عليّ أجلُ قادم، ألست تعلم إلى مثْلك شوقي، وأن مفارقة المؤانس في هذا المحل لا يدخل تحت طوقي، فما بالك بعد الوصل صرمت، ولذلك الاجتماع الملتئم خَرَمت، فإن وافتك هذه البطاقَة، فتناولها كما عهدتك بإطاقة، واجعل جوابي،

---

(١) ساقط من (ز).

(٢) هو زين الدين عبد الرؤوف بن محمد المناوي، من العلماء المحققين، من مؤلفاته «شرح الجامع الصغير» و«كنوز الحقائق» في الحديث توفي سنة (١٠٣١).

(٣) هذا الكتاب من أهم كتب المؤلف جعله في تعاريف مصطلحات العلوم، وهو أكبر من تعريفات الشريف الجرجاني، وقفت منه على مخطوطة جيدة ثم طبع أخيراً بدمشق.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف: ٣٣٠.

(٥) عمران: مدينة كبيرة بأعلى البون، شمالي صنعاء بمسافة (٤٨) كم.

إزالة جوىً بي، وإن كنت قاعداً فقم واستقم، أو قائماً فامش على عجلٍ ولا تُقم، أو ماشياً فأسرع أو مسرعاً فأَدهق كأس وفودك عَليّ وأترع، فما بيني وبينك بون وإن كنّا فيه، فإنا في مجلس محفوف بالاستخدام لمن يصطفيه، وعدني الزمان به فأنجَز، وبالغ في تنقيته عن الأكدار فأعجز، وقد يصدق الكذوب، فيبرد قلباً بنار مطله يذوب، والصَّفو يغنم، حيث لا يشاع إلاَّ نسيمٌ عاطرٌ نَمّ، لا زلت إلى مرام خليلك ساعياً، ما دمتُ لك إلى المنادمَة داعياً، والسلام.

قولي: «فما بيني وبينك بون وإن كنا فيه» هذه الفقرة فيها الاستخدام بالضَّمير ولذا قلت في الفقرة الثانية: «فإنا في مجلس محفوف بالاستخدام» إشارة إلى هذه النكتة وتورية باسم النوع كما هو ظاهر، فالمراد بقولي: «فما بيني وبينك بون» أي مسافة، فإن البون بالفتح مسافة ما بين الشَّيئين، وقد يُضم، والمراد بالبون المشار إليه بالضَّمير في قولي «وإن كُنَّا فيه» البلاد المعروفة، لأن أرض عمران وما خلفها تسمَّى البون، وبذلك عرفت نكتة الاستخدام في هذه الفقرة.

ومثله ما جاء لي أيضاً في التَّورية وقد سُئلتُ هل ثم فرق بين السَّيد الفاضل محمد بن الهادي[(١)] عليه السلام المقبور بمدينة ثُلا[(٢)] وقبَّته بها مشهورة مزورة وبين الإمام الشَّهيد أحمد بن الحسين[(٣)] عليه السلام المقبور بذيبين[(٤)] ومشهده فيه أشهر من أن يذكر، وبينهما من البلاد البون المذكور، فقلت:

---

(١) لعله العلامة محمد بن الهادي بن تاج الدين الذي أكمل كتاب (المقنع في أصول الفقه) للإمام الداعي يحيى بن المحسن. انظر مطلع البدور (خ).

(٢) ثلا: مدينة تقوم على السفح الشرقي من الحصن (حصن ثلا) على بعد (٤٥) كم من صنعاء بالشمال الغربي.

(٣) هو الإمام المهدي لدين الله أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم، حكمه سنة (٦٤٦ هـ) قتل شهيداً سنة (٦٥٦ هـ) (إتحاف المهتدين ٦٠).

(٤) ذي بين: مدينة بالشمال الغربي من صنعاء بمسافة (٩٤) كم بها مركز الناحية التابعة لقضاء عمران.

قد قيل هل محمدٌ في فَضْله كأحمدٍ وفضل هذا قاهرُ
فقلت: لا بينهما لمن دَرَى قدريهما في الفضل بون ظاهرُ

ولا شك أن بلاد البون يقال لها بلاد الظاهر أيضاً، ففي قولنا «ظاهر» تورية ثانية ظاهرة.

صاحبُنا السَّيد مُحمَّد بنُ الخضر بن مُحمَّد(١)

ذو الأخلاق الباسمة، والنفحات المتعطرة النَّاسمة، والخَفر والحياء الأوفر، الذي عَلَّم وجنات الورد والشقيق كيف تحمر، بَدْر لم يَعْتره محاق، ولم يبرح بلا تكلف ذا إشراق، ما زال يجمع الأدب مشغوفاً، وبالمروءة وصنع الجميل مذكوراً موصوفاً، وله في العلم أجلّ سمت، وأبين سبيل لا عوج فيه ولا أمت، سيما في الرَّمل(٢) فله فيه أوضح طريق، وروض عرفان ما حُمْرته إلا من زهور الشَّقيق، فقبضه فيه داخل، وبياضه يُوَلّد ما جهله غيره من المسائل، وكان على والدي جُلّ تحصيله، ومنه اكتسب ما جمع من تجميله وتفصيله، وهو لي أجلّ نديم، فغصن شبابي لا يتَرنح إلا بأخلاقه التي هي النسيم، إذ هو أحد أخداني، وممن طاردته من الشباب في ميداني، وتناولت بأنامل منادمته ثمر لذّةٍ داني، في زمنٍ يتهلّل وجه شمسه، ويضحك أفقه بثنايا الأنجم لفرط أنسه، يسفر ذلك الزَّمن، الذي أخضرَّ عذار ربيعه لا كاخضرار الدِّمَن، عن محيّا وسيم، يترقرقُ فيه مَاء النَّعيم، كما أسفر الرَّوض عن غُرَّةٍ، زانها من الرَّيحان الأسود مصفف الطُرَّة، فكم مَرَّت لي وله من ليالٍ، كأنها في سمط العُمر لآلي، في مقامات سنيّة، ورياضٍ ثمارها جنية، حيث لا عليل سِوَى النَّسيم، ولا سقيم إلا طرف الحِبّ الوسيم، ولا منتحب إلا

---

(١) ترجمته في (نشر العرف ٢/ ٦٤٩) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) الرمل: هو علم يعرف به الاستدلال على أحوال المسألة حين السؤال بإشكال الرَّمل، وهي اثني عشر شكلاً على عدد البروج. قال صاحب (كشف الظنون ١/ ٩١٢) وأكثر مسائل هذا الفن تخمينية مبنية على التجارب فليس بتام الكفاية.

الحمام، ولا باكٍ إلاّ الغمام، ولا متدفقٌ إلاّ النَّهر، ولا ذارف إلا عبرة النّدى من عيون الزّهر، ولا راهبٌ إلا قلبُ البُهار[1] المصفر، ولا خجل إلا خدّ الشّقيق والورد المُحْمَرّ، وطرف الشموع، يُجري من حرِّ أنفاسِه ساخِن الدُّموع، والمجامِر تدور على النَّدمان، كأنها جياد تركض في ميدان السّرور وقتامها الدّخان:

إذ تـغـنَّـت لـنـا الـحـمـائـم حـتَّـى ... تـركـت أعـيـن الـجـداول عَـبْـرى

ولما ضاق عيشُه، وخالطه من الفقر طيشُه، وتكدَّر وِردُه، وذَوَى من روضِه ورْدُه، فارق وطنَه رائِداً، وخرج طالباً من زمانِه الصِّلة فما رؤِي عائداً، وأدركه الموتُ بمدينة تَعِز[2]، التي كانت لنزوله بها تفْخر وتعزّ، فمات وهو إلى الصِّبَا أقرَب، وبُني عليه قَبْرُه على أنه عن الاستبداد بالفضائل أعرب، وغار في الحفرة نَهره، وذَوَى تحت التُّراب زَهْره، فسَاءني مَصْرَعُه، وسقاني علقماً أتجرعه، وصرت في الدِّيار بعده وحِيداً، أتذكَّر من أنسه زماناً سعيداً، أتأسف من الشَّبِيبَة، على أرديَةٍ مطرّزةٍ قَشِيبَة، أخلقتها اللَّيالي فما أبقت، وغسلتها الدّموع فما أنقَت، سقى اللّهُ عظامَه، ورعى عهده الذي بدّد الحمام نِظَامَه، وحَيَّاه بنظير أخلاقِه، وبلّ ثراه من دَمع السَّحائب بمرُاقِه، وله أدب وشِعر، أسمعني منه ما لم يَبْقَ عندَه لقلائد الأعناق سِعر، منه قوله في بعض قصائِده:

قِف بـالـكـثـيـب فـلـي فـيـه مُـقَـالاتُ ... ولـي بـآرام واديـهِ لُـبَـانَـاتُ
وعج بـوجـرة[3] واسأل عن فـؤاد شجٍ ... قـد تَـيَّـمـتـه صـبـابـات قـديـمـاتُ
يـمـيـل إن مـال غـصـن الـبـان منعطفاً ... وكـلـمـا صـدحـت فـيـه حـمـامـاتُ
ومـا تـهـب نُـسَـيـمـات بِـه سَـحَـراً ... إلا وتـزعـجـه تـلـك الـنُّـسـيـمَـاتُ

---

(١) البهار: من الزهور معروف.

(٢) تعز: بفتح التاء وكسر العين، مدينة مشهورة من أمهات المدن اليمنية بعد صنعاء.

(٣) وجرة: منزل من طريق مكة من البصرة، بينه وبين البصرة أربعون ميلاً، وقيل غير ذلك. انظر (المراصد: ١٤٢٦).

أستودع الله قلباً في الهوى سلبت ... منه الوقار عيونٌ بابليات
يا جيرة السفح من وادي العقيق لقد ... أجْرَتْه بالسفح في الخد الصّبابات
وبي غزال كناس لم أزل كلفاً ... بحبه فله الأحشا كناسَاتُ
سلطان حسن أطعنا أمره فله ... على قلوب محبيه ولاياتُ
قد خِفْتُه فلقلبي عند رُؤيَته ... خفقٌ كما خفقت في الجيش راياتُ
لم أنس إذ زَارني ليلاً وقد غفلت ... عَنَّا الوشاة وبانوا ليتهم ماتوا
وجاد لي باعتناقي غصن قامته ... فطاب لي منه تقبيل وَرَشفاتُ
وبتّ أوسعه ضَمّاً وأنشدهُ ... يا غايةَ ما لعشقي فيك غاياتُ

وقوله من أخْرى:

أرجٌ بأرجاء الشنيّة يعبقُ ... عَرْف الأحبة منه لي مستنشقُ
أهلاً به نشراً غدوت لأجله ... بالذيل من نسماته أتعلّق
كم قد روى لي من رياض ربوعهم ... خبراً به دمع الأماقي مطلقُ
بأبي غزال نافِر عن صبِّه ... بالذّعر عني لا لذنب يفرق
بدرٌ له في القلب مني مغربٌ ... وله الجوانح من ضلوعي مَشْرِقُ
ما اهتَّزَ منه القدّ إلا خلتُه ... غُصْناً بمخضر الغلائِل يورقُ
للَّه أيامٌ مضت مِن وَصْلِهِ ... لو أنها دامت لصب يقلَقُ
يمضي عليه نهارُه في فِكْرةٍ ... والليل منه يمر وهو مُؤرَّقُ

وأبوه الخَضِر، روض سيادتِه غَض نَضِرٍ، شَرِب ماءَ الحياة من ظلمات مِدَادِه، وخَرَق سفينة الجهالة فأغرقَها في يَمّ كدحِه واجتهادِه، أقام جِدار الفضائِل، ولبس دون غيره شملة الشمائل، وطاب عُنْصُراً ونَجْراً، ونال بعمله الصَّالح ثواباً فلم يقل له الغير ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[1]، وله مروءة وكرم، يأوي الخائف من الدّهر عنده إلى حرم، وهو من تلاميذ جَدّي، الذي أدركتُ بسرّه من الفضائل

---

(١) الآية القرآنية (٧٧) سورة الكهف.

جَذّي، ولمَّا منحه منه فهماً وحلماً، قالت لسان حالِه في حقّه: هذا الخضر آتيناه من لَدُنَّا عِلْمَا[١]، أدركتُه في أواخر عُمُره، وقد حَطَمت الأيام مَا استقام مِن سُمْرِه[٢]، وانصدع ما التأم من جَبْره، ودنا رحيلُه من هذه الدَّار إلى قَبْره، لمَا لصق بعارضِه غبار المشيب، بعد أن طار بأفراع الحوادث غراب شعره الغربيب[٣]، وقد ندف قطن لمته من الدهر حلاجه، وألقت على رأسه الزَّبد إذ خاض بحر الهموم أمواجُه، وله شِعْرٌ قاله، كقولِه يتظلم من الدَّهرِ ويصف حاله:

سحقاً لهذا الدهر ما باله ... يرفع فوق العالِم الجَاهِلاَ
يخفض قدراً من رفيع سمَا ... يُحلُّه منزلة السَّافِلا
يا دهرنا مالك لا تنتبه ... فعن صَوَابٍ لم تزل غافِلا
مضى أخلاَيَ إلى ربهم ... وعاد رَبْعي بعدهم عاطلا
وخلفوني لخطوب عَرَت ... لاقيت منها الأصعب الهائلا
لا كان هذا الدهر من كائنٍ ... وخائنٍ يستنقص الفاضِلا

السيد علي بن يحيى بن إبراهيم بن العارضة[٤]

سيد مقدام، مُثْرٍ من الكمال ومن النّقص معدام، لا يُنَال رفيعُ مَنَارِه، ولا يصطلى أبداً بنارِه، ذو فضاضةٍ وحزم، وإقدام شائِع وجزم، لا يبالي بالخَطْب إذا والى عليه أو صابَه، فسيَّان عنده من عدوّ الزمان أأذاقَه حلوَهُ أوْصابَه، وله في المروءة نصيب، وفي اصطناع المعروف سهمٌ مصُيب، مع وفرٍ في المال، وعيشٍ أبرد من نَسْمة الشمال، وبيني وبينه من الودّ القويم، ما بين الرياض المونقة والنَّسيم، بل بيني وبينه من التلازم ما بين الفرقدين، فكلّ منا يَرى الاتصال بالآخر كأنه عليه دين، طالما اجتمعنا في مقاماتٍ حريرية الوشي، يكاد الحازم إذا مشى

---

(١) الآية ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا﴾ (٦٥) الكهف.
(٢) السمر: هو شجر الغضى، ولعلّه هنا يقصد الرماح لاستقامتها.
(٣) الغربيب: الأسود.
(٤) ترجمته في (نشر العرف ٢/ ٢٣٠) نقلاً عن كتابنا هذا.

عليها أن يقع في المشي، بطائنها من إستبرق، وجامها من النّجوم أشرق، على أحاديثِ وأنبا، يصير بها الحَزَن نهبًا، لأنها أروح في الكاسات من الصَّهبا، وآداب مَرْتعها غير وخيم، وأحاديث صوت أوتارها رَخيم، ينتعش عند سَمَاعها عليل النسيم، ويتهلَّل وجه البدر الكامل الوسيم، وله شعرٌ غالبه الإجادة، ونظمٌ علق على عاتق مجدِه نِجَادَه، ومكاتبات إليَّ كثيرة، ومحاورات نبيلة أثيرة، فمن قوي عارضته، ونَظْمه الذي جَلّ عن مُعارضته، قصيدةٌ كتبها إليَّ بادياً، ورائحاً في طريق المحاورة وغادياً، ومغرداً على غصن القلم شادياً، وداعياً إلي بلسان المودَّة ومنادياً، منها قوله:

تذكرتُ سِرْباً بالعُذَيب وملعباً ... ومرتبعاً من ذلك السفح مخصبا
وأيام أنسٍ طاب لي حسن لهوها ... فللّه ما أحلى جناها وأعذَبَا
فمن لشجٍ يبكي من العيش صفوه ... ينوح على ما مَرّ في ذلك الخِبا
يطارح ذات الطَّوق شجواً وطرفُه ... يساجل وطفاء الغمامة صيِّبا
يذوب اشتياقاً من غرام شواظُه ... يزيد على مرّ اللّيالي تلَهُّبَا

منها قوله في المدح:

بعثت لنا الأصداف يا خير عالم ... فمن درّها نلنا بفضلك مطلبا
وأوضحت فيها بالإبانة مشكلاً ... وأنبأت عمَّا لا يطاق له نبا
شهَاب المعالي قد أتيت بمعجز ... أرَى زُحَلاً منه مع البعد أقربَا
وصنَّفت أيام الشبابِ فوائداً ... بميدانها ذو الشيب بالعجز قد كبا
لك الفخر في علمِ أرى الفخر قاصراً ... لديه وما قد قلت هذا تعصبًّا
وكم لك في الآداب من روضَةٍ لها ... أزاهير يسبي طيبها روضة الربى
فهيهات لا واللّه ما ابن نباتَةٍ ... ولا غيره يدنو إليك تقربا
وكم قد سمعنا منك يوم خطابَةٍ ... خطاباً يذوب الصخر منه تهيبا
يميل به عن شوقِهِ عود منبَرٍ ... كما مال غصن الروض من نسمة الصّبا

لك اللّه كم فنّ سلكت سبيلَهُ ... من الفضل لما أن غدا لك مذهبا
وكم من ضروب في المقال تفنناً ... أتيت بها منقادةً وتَلَعُّبا
حباك إلٰه الخلق ما قيل عندُه ... أدام عليك اللّه من هذه الحُبَا
ليهنَ أباك العالم الفرد مفخَرٌ ... أتيت به قد عمَّ شرقاً ومغربَا
إمام علوم دافع الخصم إذ أتى ... أتيت به يوم الجدال بمذهبًا
ولقَّاه من أقلامه كُلَّ أسمرٍ ... وجَرَّد من ذهنٍ دقيق له الظُّبَا
فلا زلت فخر الدَّهر مُذ عَزَّ فخره ... ودام لك العلم الغريزي مذهَبا

ولما طاب الجوّ عُرفاً، وَراق ذات يومٍ ورد المَسَرَّة غَرْفًا، وأصبح الأفق لِبُرد غيمه لابساً، وضحك في الرياض ثغر الزَّهر بعد أن كان عابساً، ودعت الحدائق الندمان، بعد أن فرشَت لهم سندس نباتٍ تَطَرَّز بشقائق النعمان، دعاني إلى منزلِ بدارِه، فأسرع قدمُ شوقي إلى بِدَارِه، وسرت إليه أرفل في حلل المسرة، وأجرّ ذيل الأفراح على الفلك حتى أثَّر ذلك بسحَب المجرَّة، فوافيته وقد هيَّا مجلسًا، يترك طرف النَّرجس في حسنه مُبلِسًا، كأنما هو نموذَج الجِنَان، وقرة العين وصقيل الجَنان، ويَدُ الكدر قد غُلَّت، ويمينه عن يوم سرورنا قد شُلَّت، فعند ذلك نُكِّست من الأحزان الرؤوس، ودارت بيننا من المنادَمة الأدبيَّة الكؤوس، بخمرة لم تحتج إلى مزاج، ولم تحبس بباطن الدنّ والزجاج، والكُتُب النَّفيسة بنَا قد حُفَّت، وأوراق الدَّفاتِر بروض أنسنا على ثمرات الآداب قد التفَّت، ومن جملة ما حلا في ذلك المقام، ديوان الجمال النُّباتي(١) سقت ضريحه الغمام، فأشرت إليه باستعارته، لأبرّد به جوى قلبي عند استعارته، فقال: أنت المالك في الحقيقة لذلك الكتاب، فإذا انقضى المجلس أخذته فإلى مثلك تزف عرائس الآداب، ثم لما انقضى لنا ذلك اليوم، الذي انتبهت به عيون المسَّرة من النَّوم، وسها عنه من الزَّمن حادثُه،

---

(١) كان ديوان ابن نباتة من أشهر الكتب المتداولة في اليمن في ذلك الوقت، وكان لا يزاحمه في المكانة سوى (ريحانة الألبا) للخفاجي. انظر كتابنا: الأدب اليمني: عصر خروج العثمانيين من اليمن).

وغفل عن صَفْوِه من رقيب الكدر كارثُه، وحان الانتشار من مقامِه الذي راق، وتبدَّد عِقْد ذلك الجمع وآخر كل جمعٍ الفراق، وقد تضوَّع من اللَّيل مسكُه، وانتظم على جيد الأفق من حُلي النجوم سلكُه، فَسِرتُ عنه وأنا كالنَّشوان، وعزمت ولم أستَصْحب الدِّيوان، فلما طلع صباح اليوم الثاني، وأصبح نسيم الشوق إلى ذلك الديوان لعطفي كالثَّاني، رفعت له من كلامي ما يعيه، وكتبتُ إليه على الفور أستدعيه:

وسع الله لكم في البقاء، ما اشتاق محبّ إلى النَّقَا، وشرح لكم بالنّعمة صَدرًا، ورفع لكم في مراتب الرِّياسة قَدْرًا، وخصّكم بسلام شذاه أفشى من النَّمَّام، وأطيب مما أخرجته أنامل الأغصان من الأكمام، سواجعه كثيرة الهدير، وحدائقه زاهية النَّبت متدفّقة الغدير، كنت عند ذلك الجمع الذي هو جمع سلامة، والإكرام الذي هو على نفاسته أكبر علامة، أردت أخذ ديوان الجمال النُّباتي، فَأَطال ما أدرتموه من كاسات الإكرام في مهد الغفلة سُبَاتي، وصَدَّني سُكّر إكرامِك عن نَبَاتِه الذي حَلا فهو أحلى، وأنسانيه عسل فواضلك التي أنحلتني فما ذكرتُ بعدَه نحلا، وذهلت عن ذلك ذهول السكران، وتشاغلت بما تُنوقِل في ذلك المجلس من حديث الأقران، حتى وصلتُ البيت، قائلاً بعد الإفاقَة: ألا ليت، فلكم جَزيل المِنَّة، بِتَحْقيق ظن المحبّ بعدم الضِّنة، وإرساله إلينَا إرسال النسيم البارد، إلى الغزال النَّافر الشارد، لننظر فيه نظرة بها يهون الخطب، وننتشق من آدابه ما تذهب به مع الرياح نفحات العنبر(١) الرطب، فللّه در ذلك الأديب، كما هان عند كلماتِه من نسيب، وكم تَحلَّت الأقلام بفرائد نظمه، وتزيّنت خدود الطرُوس بعذار رقمه، فما الوجه الجميل برقعة الحيا، وما الرَّوض النَّضير وافاه الحيا، بأبهج من كلماته التامَّة، ولا أخصّ من نفثاته العامَّة، وعندي نسخة منه إلا أنها سقيمة ولا كسقم النَّسيم، وروضة لطيفة إلا أنها غير متضوَّعة من ريحان الخط بالشميم، فامنن بذلك فمن عادتك المن، واقرن السؤال بالجود فطالما بأفضالِك يقرَن، ولا برح لك

(١) كذا: لعله المندل الرطب.

المجد ملبسَا، ولا زال عيشك أنعم من الحرير ملمساً، ما راض جِرَان الدَّهر فارسُه، وَرَوْض جنبات السَّفح من القطر بَاسمة لا عابِسة، والسَّلام.

السيد حسين بن القاسم بن محمد

عالم عارف، جمع له التليد والطارف، أعطاه الله رفعة وأجزل في عطيته، حتى بلغ السَّماء فما البدر فيها إلاَّ أثر فِرْسِن[١] مطيته، وكان في الابتدا ذا حال مضطرب، بينا هو جليس تَالٍ فإذا هو قرين ذي خلاعَةٍ طَرب، إن تابع هواه وما توقَّف، فنديمُ مطربٍ وصريعُ قرقَف، وإذا كف وتاب، فحليف مسجد وضجيع كتاب، ثم استمر به الحال، على ملازمة العلم فإذا جِيْده حال، فَكَسَر زجاجَتَه، ولبَّد عَجَاجَتَه[٢]، وتَيقَّظ مِن كَرَى، فما أتى مُسْكراً، هَبَّ مِن نَوْمة شَبَابِه، ورمى من كَفْه الكاس مُتَوَجَاً بحَبَابه، فَلَه مُذْهَبٌ مِن نومِه طِراز[٣] مُذْهب، وله سماتٌ لا ينصفها المادح لما أسهب، فُتِح عليه بالفوائد أيّ فتوح، وإذا نهره خليج وبئر مَتُوح[٤]، ولَمَّا اجتلى الأهِلَّة، ونظر نظر عارف في الأدلَّة، التزم في صلاته الرفع[٥]، ودفع من رام جدالَه أي دفع، فنفر عنه من نفر، وكفر نِعْمته من كفر، فسار ورحل، وهو أبين شؤماً من زحل، وشمر للجوار بمكة، ومحا باليقين ظنه وشكّه، فاعتكف بظلال البيت، ولم يُفه بلَوْ ولا ليت، وتغَرّب عن وطنه، إذ حثَّ بازِلَ عزمه عن عَطِنه، فلم يَلق من الاغْتراب، إلا زيادة غمٍّ واكتراب، ولما لم يُنجِز له الزَّمان وعْدا، قالت لسانُ حالِه: أينما أُوَجِّه ألقَى سَعْدا[٦]، فرجع إلى

---

(١) حافر البعير كالخف للدابة.

(٢) يقال لبّد عجاجته: كف عما كان فيه، ومنه قول الحريري من مقامته الصنعانية: «ثم إنه لبد عجاجته وغيض مجاجته» أي سكنها وهي كناية عن النزوع والكف عما كان.

(٣) الطراز (علم الثوب) معرب.

(٤) أي منزوع ماؤها.

(٥) أي رفع اليد عند تكبيرة الاحرام في الصلاة خلافاً لبعض الفقهاء في المذهب الزيدي.

(٦) من الأمثلة الشائعة، قال الزمخشري: سعد هي قبيلة الأضبط بن قريع، وكان سيدهم، فرأى

داره، بعد أن اصطلَى من البعد بِنَارِه، فألقى عصا المسير، وقنع من وطنِه بأحقر سمير، ورضي من سفحِه بِمُنَادمة الحمير، ومن فقد الآساد رضي بالثعالب، ومن لم يجد أرباب العُلا قنع بأهل المثالب:

مـا أطيـب الأوطـان إلا أنـهـا ... لـلـمَـرءِ أحـلـى أثَـرَ اغـتـرابِـهِ
كـم عـودةٍ دلـت عـلـى دوامـهـا ... والـخـلـد لـلإنـسـان فـي مَـآبِـه

ولما رجع وعاد، وفاه الحِمَام فكأنما كانا على ميعاد، فمات عقيب وُصُولِه، ونَثَلث يَدُ المنيَّة ما أودع في الكنانَةِ مِن نُصُولِه، وله شِعْرٌ يُشْعر عن فضله وطَوْله، لم يحضرني منه الآن من قصيدةٍ غير قوله:

شجت مهجتي فوق الغصون البلابلُ ... وقد سترتها في الأصيل الخمائل
وحركت الوَجد الذي ظلَّ في الحشا ... وقامت عليه بالدموع الدلائلُ
وظلت من الأوراق تملي غرامهَا ... فما بينها يوماً وبيني تماثل
وأذكَرت المضنى أحبته الألَى ... حمتهم سيوف في الحَمى وذوابل
فكم أسدٍ من دون ستر خدورهم ... يرى غيره في حيهم وهو صائل
فيا دهري الماضي بهم عد تكرّماً ... عليّ سقَى ما قد ذوى منك هاطل
وباكر روض المنحنى صوب ديمةٍ ... بسيل به من جانب الروض سائل
فذاك هو العيش الهني فلا تلم ... محبًا غدا من بعده وهو سائل

قوله و«ظلت من الأوراق» البيت معناه حسن إلاَّ أنه لم يُؤدِّ المعنى كاملاً لأنَّهُ قصد أن ما بينه وبين البلابل تماثل لأنها تملي غرامها من الأوراق وهو يملي غرامه عن ظَهْر الغيب وشَتَّان بين الحالين.

وأحسن منه ما جاء لي من النثر المسجوع في الفصل الثاني من كتابي المسمَّى «عطر نسيم الصبا» وهو فصل الحمامة(١) وذلك قولي في خطابها: أنى تباريني في

منهم جفوة ففارقهم فرأى غيرهم يجفون ساداتهم كذلك، فقال ذلك المثل، يضرب لمن يتلقاه الشرأية سلك (المستقصي ١/٤٤٩).

(١) (عطر نسيم الصبا: ٣٨ ط) الدار اليمنية.

الوجد والهيام، وتطارحيني فنون الكمد والغرام، وأنا قد جعلت أمري في الهوى سِرًا، و أنت بُحتِ بهواك لمن في حماك طُرًا، وأنا فارقت غصني وأنتِ عانقت قدود الأغصان الرِّشاق، وأنا أملي هواي من خاطري وأنتِ من الأوراق، انتهى.

وهو كقول ابن لؤلؤ الذهبي رحمه الله تعالى في الحمامة أيضاً حيث قال في النظم(١):

أنَّى تُبَارِيني جوى وصبابَةً ... وَكآبَةً وأسَى وفيض مَآقِي
وأنا الذي أملي الهوى من خاطري ... وهي التي تملي من الأوراق

والأصل فيه قول أبي الفتح نصرِ الله بن الأثير رحمه الله تعالى في إنشاءٍ له أجاب به على بعض إخوانه وهو:

ولما سرَّح الخادم فيها نَظره وَجَدَ شوقه حمامةً تغردّ في أكنافها، وتردّد الشَّجا لبعد أليفها إذا رددته الحمائم لقرِب أُلأَفِها، وهذا قولٌ له عند إخوان الصَّفا علامة، وإذا تمثَّل كتابُ الحبيب روضه فهل يتمثَّل شوق مُحبّه إلاّ حَمَامة، وأيُّ فرق بين هذه وبين أخواتها من ذوات الأطواق، لولا أنها على شجوها تمليه على صفحات القلوب وتلك تمليه على عذبات الأوراق، انتهى.

وحضر صاحب الترجمة رحمه الله تعالى ذات يومٍ بمقامي وأنا في إبَّان الطلب أعَدُّ في الحقيقة من الصِّبيان، وصادف درسي على شيخي الفقيه العلامة الفاضل الصالح الحسن بن عبد القادر النَّاظري رضي الله عنه في حاشية السيّد(٢) المشهورة على الكافية، ونحن في بحث التنازع عند قول ابن الحاجب رحمه الله تعالى: وحذفت المفعول إن استغنى عنه وإلاّ أظهرت وذلك في باب حسبت، قال

(١) البيتان في (ريحانة الألبا: ٢/ ١٢٤).

(٢) هذه الحاشية من أشهر كتب النحو عند أهل اليمن، يتدارسها الطلبة في الدراسة، ومؤلفها هو العلامة محمد بن عز الدين بن صلاح المؤيد توفي سنة (٩٧٣ هـ). انظر: كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي ٤٢٦).

السيد رحمه الله تعالى: فلا يجوز حذف المفعول الثاني من الفعل الأول، فلا نقول وحسبني وحسبت زيداً بمنطلقا معناه، بل تقول حسبني منطلقاً وحسبت زيداً منطلقاً، قال: وذلك لأنَّه في الأصل خبر والمفعول الأول مبتدأ ولا يجوز حذف خبر المبتدأ إلاَّ لقرينة ولا قرينة هنا انتهى كلام السَّيد.

فقلت أنا لشيخي قدس الله سره: في كلام السيد نَظَر لأن القرينة موجودة وهي منطلقاً الآخر، وكأن القياس التَّعليل من السَّيد بما سيأتي ذكره في أفعال القلوب فإنه قال عند قول ابن الحاجب رحمه الله تعالى: ومن خصائصها أنّه إذا ذكر أحدهما ذكر الآخر ما لفظه لأنهما في المعنى مفعول واحد إذ معنى علمت زَيْداً قائماً، علمت قيام زيد، فأما شيخي عليه السلام فاستجاد قولي وسَلَّم ما نبَّهته عليه، وأما صاحب الترجمة فأكثر المهاترة، وأطال في الجدال والمكابرة، وظهر عليه دليل الحسد، وكاد أن يفارق روحه الجسد، وآخر جداله في مقاله أن قال: كلام الجامي يغني عن هذا فقلت: كلامنا في عبارة السَّيد لا في غيرها فوجم عن قدح، وصمت قُمريَّه عما لا يطرب من الصدح، سامحه الله تعالى وعفا عنه وغفر له آمين.

صاحبنا الفقيه الأديب يوسف بن علي بن هادي(١)

هو علي المقام وابن علي، لذا ظمئت حدائق الفضل فهو فيها خليفة الولي(٢)، إمام أدبٍ بلا لبس، وذو جواد مطلق بلا حبس، من أنكر فَضْلَه فقد أنكر الشَّمس، ومن ترك الثناء عليه فكأنما ترك الخمس، كم أبرز من غادة رود، واكتض(٣) من بكر خرود، أدرك فَضِيْلَتَي المنظوم والمنثور، وجاء فيهما بحديقة

---

(١) من الأدباء الكبار توفي سنة (١١١٦ هـ) انظر ترجمته في (نفحات العنبر (خ) البدر الطالع ٢/ ٣٣٥ ونشر العرف ٢/ ٩٤٢ وما كتبناه عنه في مصادر الفكر الإسلامي ٣٨ والأدب اليمني عصر خروج العثمانين (٥١٧) ودراسات في التراث اليمني ٨٥).

(٢) الولي: رذاذ المطر.

(٣) كذا في سائر النسخ.

تُوّجت بالورد وقلدت بالمنثور، مع خطّ بديع الحروف، أرقَامُه للبهاء والحسن ظروف[1]، فقلمه فيه جواد، وطرسه كعبةٌ ألبسَها من نفسه السّواد، مِداده مسك تبّت[2]، إذا ذكرت لديه سائر الأطياب قال: تَبَّت، إلاّ أنه كان كثير الإغارة على المعاني، فأبياته من بنات أفكار الغير ماهولة المغاني، سيّما شعر الجمال بن نباتة، فكم قطف زهرهُ وجذّ نباته، وكنتُ أراه يتهالك على ما يسْمعه، ويودّ أن يأتي على آخر ما يجمعه، فلا يفوتُه معنى إلاّ طرقَه، ولا كنز أدبٍ إلاّ سرقَه، ولقد قال له بعض العظماء: ما حملك على التهجُم وما وما، فأفّ لك من السّرقِ أف، فقال: يا مولاي لا تستنكر السرقة من يوسف، على أنه عندي للاستراق غير محتاج، فإنه أهل لأن تنتج فكرته بديع الإنتاج، ويأتي بجواهر يُفصَّل بها العقد ويرصع بها التاج، وأنا أنزّهه عند هذه اللّجاجة، أن أقول في حقه كما قال ابن الخيمي: هذه سرقة عادة لا حاجة، وقد ألفَّ كتاب «طوق الصّادح[3]، المفصّل بجوهر البيان الواضح» وكتاب «سوانح فكر الأفهام وبوارح فقر الأقلام»، وله همزية سمَّاها «البغية المقصودة في السيرة المحمودة»، وديوان سَمَّاه «محاسن يوسف» لخمرته المنشية شراب أدب قد سُفّ، وجمع من شعر جمال الدين بن نباتة المصري ديواناً حافلاً، وبمعظم لطائفه الخالي عنها ديوانه المتداولُ كافلاً، وكان يتطاول تطاول ابن حجة، فما طرق كلامَه سمعاً إلا مَجَّة، فهجاه الشعراء وألقوه بالعراء، فما أحجمت الألسن أن هجته، ولا قرّت النفوس حتى سلكت من ذمَّة نهجاً أنحته، حتى قال بعض الأفاضل، ممن له يجادل ويناضل: سأضع كتاباً أسميه «كسْر الراووق، في سرقات الطوق»، وقد جرت عليه أحداث، آلت به إلى حلول الأجداث، فحبس

---

(١) قلت: وجدت من خطه مجلداً ضخماً في الطب من تأليف الواقدي الحارثي اليمني في مكتبة جامع صنعاء وهو كما قال المؤلف خط في غاية الحسن والجمال.

(٢) تبت بلد بالصين ينسب إليها المسك الجيد.

(٣) من أشهر كتبه الأدبية. انظر ما كتبناه عنه في (دراسات في التراث اليمني ص ٨٥ ـ ٩٤).

مراراً، ولاقى بدره مع كماله سَرَاراً، وقد كان أفضى إلى الهلاك أمره، وزاد مع بعض الملوك في الاحتدام جمرَة، فقال في حقه: السيف والنَّطع، وأطيع أمرُه عند الناس ولكنه عند المقدور لم يُطع، ثُمَّ لمّا حُبس بزَبيد، ووُكّل به ذو فظاظةٍ من العبيد، أصابه غَم له كَلَم، فتألّم وأطلق من السجن في أثناء ذلك الألم، فأركب على بعض الجمال، واحتمل مشقة السفر أشق الاحتمال، فسقط من فوقه فانكسرت إحدى يديه، وسُقط في يده لمَّا حانت مُفارقة من الآداب لما لديه، فَنَاح طيرُنا حُزناً بعد ما شدا، وحاش لله لم أقل في حَق يده المنكسرة مُنشداً:

تـأخـر الـقـطـع عـنـهـا وهـي سـارقَـةٌ فجاءها الكسرُ يستقصي عن الخَبَر

ثم لمَّا استقر في بيته، وقد تعلّل صديقُه بلوّه وليته، مات وهو أقرب إلى الصّبا، زارت ضريحه عنّي نسمات القبول والصَّبا، وبيني وبينه وُدّ مُؤكّد، ومشرب مُحبَّة غير مُكدِّرٍ ولا مُنكّد، ومكاتبة ومراجعة ومحاورة، ومناقلة للآداب اللطيفة ومعاورة، وشعرُه أنشر من العَلَم، وأشهر من كل نظمٍ مرّ على لسان القَلَم، ما في حُسْنه خلافٌ ولا جدال، من ذلك قوله وهو بمنتزههم[1] المشهور المعروف بسدال[2]:

فـــلـــقُ الأمـــانـــي قـــد تـــبـــلـــج وشـــذا الـــمـــسَّـــرة قـــد تَـــأرَّج
والـــدهـــر قـــد وهـــب الـــحـــبـــو ر وهـــبَّ روح رضـــاه ســـجـــســـج
وأتـــى الـــرَّبـــيـــع يـــجـــرّ فـــضـــل مـــروطـــه لـــمَّـــا تـــبـــرج
فـــتـــزخـــرفـــت لـــقـــدومـــه الـــدُّ نـــيـــا بـــمـــا أبـــهـــى وأبـــهـــج
والـــجـــوّ أصـــبـــح لازور[3] دي الـــمـــطـــارف لـــم يُـــضَـــرّج

---

(١) منتزه مذكور في مقامة «أقراط الذّهب».

(٢) نقلها صاحب (نشر العرف ٢/ ٩٤٥).

(٣) اللازوردي: ما كان بلون حجر اللازورد، وهو معدن مشهور يتولّد بجبال أرمينيا وفارس، وأجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة.

والــــــــــروض زاهٍ زَاهـــــــرٌ خُـضْـرٌ مـلابـســه مـزبـرج[1]
حـســن الـنـضـارة قـد كـسـي حـلـلاً مـن الأزهـار تـنـسـج
والـقُـضْـب غـنّـاهـا الـحَـمـا م فـهـزّهـا طـربـاً وأزعـج
وكـأنـمـا الـنّـارنـج فـي أغـصـانِـه جَـمْـرٌ تـأجَّـج
أو لا فَـكَـالأكُـرِ الـتـي مـن عـسْـجَـدٍ والرّيح صولـج
ومـجـامـر الأتـرجّ قـد فـاحـت بـعـرفٍ قـد تـوهـج
والأقـحـوان كـأنّـه حَـبَـبِ الـسُّـلافـة حـيـن تـمـزج
أو شـبـه تَـوْشـيـرٍ[2] غَـدَا مـلـقـى عـلـى ثـغـرٍ مـفـلّـج
والـطَّـيـر أنـشـدنـا مـن الـ أوراق مـا أنـشـا وأنـشـج
واحْـمَّـر خَـدُّ الـورد مـن خَـجَـلٍ وعُـذْر بـالـبَـنـفـسـج
وكـأن زنـبـقـنـا كـؤوسٌ مـن لُـجَـيـنٍ لـم يُـبَـهْـرَج
ومـقـامـنـا قَـدْ شَـقَّـهُ نَـهْـرٌ بـسـاحَـتِـهِ تـثـبَّـج
نـهـرٌ تَـراه كـصـارمٍ أو مـعـصـمٍ لأبـضّ أدعـج
وفـراشُـنـا فـيـه بـسـا طٌ بـالـزّهـور غَـدَا مُـدَبَّـج
وسـحـابـنـا فـيـه دخـان يَـلـنـجـج[3] لا عـرف عَـرْفـج
وشـرابُـنـا مـن قـهـوةٍ كـالـمـسـك بـل أروى وأروج
زِنـجـيـة أضـحـت بـدرّ حـبـابـهـا الـصـافـي تـتـوّج
إن أفْـرغَـتْ فـي كـاسـهـا خِـلْـتَ الـدُّجى في الـصـبـح يـولَـج
مـع فـتـيـة هـم فـتـنَـةٌ كـالـشـهـب بـل أبـهـى وأبـهـج
مـا مـنـهـم إلا مُـرَّى بـالـحـجـى شَـيْـحـان أبـلـج

---

(١) مزبرج: مزيّن.
(٢) في النشر: دينار أصلحه من عنده وتتفق سائر النسخ على ما أوردناه، والتوشير هو أن تحدد المرأة أسنانها.
(٣) اليلنجج: هو عود البخور.

سـمـح الـسَّـجـيَّـة بـاهـرٌ ... بـاهِ قـريـن الـلـطـف دهْـمـج[1]
نـطِـقٌ عَـرِنْـقٌ فـي الـفَـصـا ... حـة إن تـكـلَّـم مـا تـلـجـلـج
فـانـهـض وأدلـج فـالـمـهـذّ ... ب مـن إلـى الـلـذات أدلـج
ودع الـتـشـبـط وانـتـهـز ... فُـرَص الـسـرور ووافِ مُـزْعِـج

وقوله مضمناً لمصاريع من قصيدة أبي العلاء المعري اللامية المعروفة في الحماسة:

دَنَت سَحَراً بالجزع من مُغْرَم لَهُ ... (عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ)
فغارت نجوم الأفق من شمس وجهها ... (وقال الدجى للصبح لونك حائل)
وقد أسبلت سَتراً لتخفى ومن لها ... (بإخفاءِ شمسٍ ضوؤها متكامل)
مهَاةٌ عَصَت عُذَّالها في وصاله ... فأهون شيء ما تقول العواذلُ
غدا الخصر منها يدّعي فضل ردفها ... ويُظهر نقصاً ردفها وهو كامل
(فواعجَبًا كم يَدَّعي الفضل ناقصٌ ... ووا أسفاً كم يظهر النقص فاضلُ)
أرى قرطها من بُعد مهواه يزدهي ... (ويقصر عن إدراكه المتناولُ)
وما النبل إلاّ من رناها فإن رنت ... (نكصن على أعقابهن المعابل)
تطاول ليلي كي يشابه شعرها ... (وعند التناهي يقصر المتطاولُ)
تصدّ فَتبكيها جميع جوارحي ... ولو بان زندي ما بكَته الأنامل
علمت الهوى لكن لأجل عواذلي ... (تجاهلت حتى قيل أني جاهِلُ)
ونَمّ بوجدي مدمع سائل وهل ... (يصدّق واشٍ أو يخيب سائلُ)

وقوله:

ما أنت بدرٌ فوق غصنٍ تحته ... دعصٌ يروق الناظرين ويبهج
فالبدر يكسف وجهه والغصن قد ... يَذْوَى ودعص الرمل لا يترجرجُ
وأراك وضَّاح المحيا تلجم العذ ... ال فيك على الغرام وتسرجُ

---

(١) الدهمج: العظيم الخلق.

ونَضير قدك لا نظير لحسنِه   أبداً تضير به الغصون وتحرجُ
والرِّدف مرتدف ترجرج موجه   يامن به تلهو القلوب وتلهجُ

قوله: «واراك» البيت هو كقوله أيضاً:

قد ألجم اللاَّحي محيا   هُ غداة أسفر ثم أسرج

وأحسن منهما قول جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى، ومنه أخذ المعنَى(١):

قد أسرج الحسن خدّيه فدونك ذا   سراج خَدّ على الأكباد وَهّاج
وألجم العذل فاركض في محبتِه   طرف الهوى بعد إلجامٍ وإسراج

وكان لما أملاني له قصيدة بائيّة في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأيتُه مستحسناً لمطلعها رحمه الله تعالى وهو قوله:

ثَوَت الغزالةُ في كناس المغرب   فذَرَتْ على البطحاء مسك الغيهب

فقلت له: هذا مأخوذ من قول العلامة القاضي الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي أفندي رحمه الله تعالى مما أورده في ريحانته من فصوله القصار حيث قال(٢): إذا فَرَّت الغزالة إلى كناس المغارب، ألقت في سرر(٣) البطاح مسك الغياهب، انتهى.

ولا يخفى حسن استعارة الشِّهاب السّرر للبطاح لأن السرر موضع المسك من الظّباء كما قيل:

ولقد عهدت المسك في سرر الظبا.

وهي مما فاتتك في بيتك فإنك لم تقل غير: ذرت على البطحاء مسك الغيهب، وهو ظاهرُ فَسَلَّم لما قلتُ لما لم يجد للجدال مجالاً، ولا للمجادل

---

(١) (ديوان ابن نباتة: ٨٦).

(٢) (ريحانة الألبا: ٢/ ٣٦١).

(٣) الريحانة: سرور.

مصالاً.

وقد كتبت أنا إليه قصيدة ورسالة طويلة وذلك في شهر ربيع الآخر سنة أربع ومائة وألف سنة، وقد رحل عني وفارق مقامي، وكانت رحلته من شبام كوكبان المنيف، إلى صنعاء اليمن المحروسة ذات السفح الوريف، أصف له قدوم الرَّبيع علينا، وأنعت له الرِّياض الذابلة لدينا، وأشوّقه إلى شبام، وأتوجّع من الفراق الذي رمتنا به الأيام، وأشكو من البين الذّي أحدث في القلب قروحاً، وأودعت آخر الرِّسالة لغزاً في الشَّمس هو مثلها وضوحاً، وكنت أودّ هنا إثبات الكل من الابتداء والجواب، ورسمهما في صفحات هذا الكتاب، لكنهما فاتا عليَّ فإذا هو قد عَبث بالقلب جَوَى به، فلم أظفر الآن من الرِّسالة بغير الإلغاز في الشّمس وجوابه، وهو قولي:

نعم وسنح لي أن أسالك عن مخلوقة لا برحت مثلها في الاشتهار، طالما أمليء كأس الذكر لها في الذكر والخُطب والأشعار، إذا قلبت كان طَرْدها مع التَّصحيف في عكسها، هي جارية وعند التحقيق فيها حُرُوْرٌ، يُعرَف من نفسها، لا تُرَى إلاَّ سائرة، ولا تبرح تصل الهائم وهي هاجرة، تَرَى رأسها بالمشيب مشتعلاً، منذ أحكم تصويرها خَالقها جَل وعلا، لا تموت مع طول عمرها، وكم قد دُفِن من شُبَّان، وشيْب في عصِرها، ومع ما ذكر من المشيب، والعمر الذي زاد، فإنّها تقطع في كل يوم وليلةِ مسافة لا تتمكن من قطعها مسومة الجياد، لا تلامس شيئاً من الجوارح، وأنت طالما تنظرها من الطَّرف والقلب في مسارح، في قلبها سُم وهي مما تجفِّف العفونات الزائِدة، ثلاثية الحروف وما هي عند التّحقيق سوى عين واحدة، رتبتها سامية، لا تحميك إن استجرت بها من العدوّ وهي لك في كل حينِ حامية، وفيما علمناه من النَّقل، أنها ليست من ذوي الجنون ولا ممن له عقل، وبها مَس يعلم، وهي مما لا رائحة له على أنها لا تخلو من شمْ، عينها تريك كم من صَاد، لا يَعلم كيفية خلقها إنسان وهي ظاهرة لجميع العباد، لا تنطق وهي قائلة، كم قَلَتْ من خليل بلا سبب وما هي عنه مائلة، لا تسمع إذا جارت الشُّكَا،

ولا تفهم إذا خُوطبت وهي ذُكا، لا تشرب ماءً عذبًا، ولا تحن إليه مع أنها قد اتخذت لها غَرَبًا، لا تنظر وهي عَيْن، ولا تأكل ولها بُطَين، لا ينقصُ مدى الدّهر جرمها الوافر، إذا أتتك أتاك أخوك المسلم وإذا غابت عنك جاءك الكافِر، غَزَالة لا تهاب الأسَد، وطالما رُئيتْ ببَطنه لما التقمها وازدرد، لا ترى بها من النبات نَوْراً وهي مُنَوَّرة في أكثر الأزمان، منها عُرِفت سورة الضُّحَى وهي لا تفوه بحرفٍ من الفُرقان، لا تزول إلاّ في القيامة ولها في كل يومٍ زوال، ولا ترجع من حيث مضت إلاّ في آخر مدتها وذلك يومُ المآل، لا يَشرقُ بها شارب وهي مُشرِقةٌ لكل من في الأرض، لا يسع البحر جرمَها على أنها تلج ببطن الحوت مع ضيق طوله والعرض، لا تفْجِر الدَّمامِل وكم تابعت الفَجْر، ولا تعرف الكميت من الخمرة على أنها كم رُئَيْت له في عصر، لا تحسن في البلاغة نظماً ولا نثراً، ولكنك إن أمعنت الفكر قد تَجدها عارضَت الشِّعْرى، لا تعرف الوصول إلى عرفات ولها في كل حَجَّةٍ وُقُوف، ولا تتمكن الحسناء من لَمْسها وكم قد علقتها في جيدها من جملة الأقراط والشُّنُوف، تستتر فقد يبكي حَمارها لفقد طلعتها المنيرة، فإذا برزَت من الحجاب ارتشفت أدمعه الغزيرة، طبعها يميل إلى الحرارة فهي لا تترك استعمال السناء، وما هي عند التَّحقيق إلاّ خالية عن الأربع الطَّبائع الجالبة للأمراض والعناء، لم يخلِق الله لها إبطاً ولا عرفاً طيباً ولا منتناً يَسْتنشق منها كغيرها، ومن العجائب أنه لا يعرف النَّشر الذّي ينعش الأموات إلاّ في تكويرها، لم يقتدر النَّاس على حبسِها وكم منهم من أحكم لها سورة، إذا نظرت منازلها وجدتها لا تخلو عن قوسٍ وليس من عادتها الرَّمي بالقِسيِّ الموتورة، لا يُمكِن منها في الادكار الولوج، ولا تألف شيئاً من الطَّير مع أنها طالما صحبت النسر في البروج، لا أنامِل لها ومنها تعرف الخمس، هذا ولا برح مفخرك ظاهراً ظهور الشمس، والسلام.

فأجَابني بقصيدة ورسالة طويلة منها في جواب الألغاز قوله:

وأما ما سألت عنها فأنت سائل ومتفضّل، فتبرجت لنا من بدائع بدائهك بزينة لا بلبسة متفضل، فأقسم بالفجر وليال عشرٍ، لم نر مثلها في الضُّحَى كما لم نر

مثلك في العَصْر، تستوقف الأبصار بمحاسن حُرِّ وجهها وهي جارية، وتلبس حللاً من السنا غير ساترةٍ لها ولا مملوكة بل هي لربها فهي عارِيَة، أصيلة تنتج الأصيل تُعْرَف منها الدَّقائق وهي لا تعرف الجليل، تظهر منها القسوة ومن غيرها لا يعرف الشَّفق، وتختفي من العين فيها فتتلو عند ظهورها الفلق، تخفى سنتها الحسنَى عند الوجوب، وتسقط فتبرزُ الجواري لابسةً للحداد ومَا ذاقت مكروهاً لمندوب، ليس لها في حسنها ثانٍ ولها ثانية، ولا تظهر في آنية إذا اختفت في آنية، ولا تُقِيل المشتري إذا غلبته وهي قائلة، ولا تحول مع حرارة طبعها عن ملازمة السَّنا وهي به عن معرفة ذاتها حائلة، حسناء لا تستتر من الحيا وكم عليها فاستترت عن الأبصار، غزالة إذا رأى الأسد عينها غاب في غاب الاستتار، تنقلب عين كل راءٍ عنها حسيرة وما اقتنص نوناً[(١)] من بحرِها ولا صاد، تدلّ الرّائِد ولولاها لما عرف وقت طَفل[(٢)] ولا راد[(٣)]، معمرة كم غارت الجواري منها فأظهرت ألعاب، وقلن لم يخف على الأبصار صغرنا وقد سَال منك للكبر اللُّعاب، ولم يخف لحَنُهنّ في الحجّة وَبَها، إذا غَرَبن فقلن نحنُ السِّت وقالت أنا سيدتكن حُسْناً وبَهَا، تكسر العين إذا أخذته في ارتفاعها بالتحديق، وتنزل في منازل لا تضيق عنها وهي أكبر منها على التَّحقيق، لا يزيد طول عمرها على العرض، تسير فوق الرؤوس وهي مَرْميّةٌ على الأرض، يظهر منها النَّجم ويستتر الشِّهاب، إذا ولّى جرمها قيل ولّى كانون وإذا رجع قيل ما سواه آب، إذا لم يكن لكل طلوع في الأجساد فجرٌ وعَصْرٌ فهو مالك طلوع منها ماراب، مليحة لعينِها حاجب ما خلطه ببياض فَيقول شاب، جارية ذات محاسن برى القلم لتحريرها الرّق فشكرت الباري، وأسجدها من ثنائه

---

(١) نوناً: حوتاً.

(٢) الطَّفل: العشي آخره عند الغروب، أي اختلاط أول الليل بضوء النهار من لدن ذرور الشمس إلى استكنانها الأرض، ومنه قول الطغرائي:

مجدي أخيراً ومجدي أو لا شرع والشمس رادا الضحى كالشمس في الطفل

(٣) الراد: الضحى، وقيل هو الساعة الثالثة من النهار والضحى الساعة التي بعدها.

ليوسف ولا عجب إذا رأى يوسف سجود الجواري، هذا ما سنح للخاطر من الجواب على ذلك السُّؤال، مع أن البادي أمير والمراجع مأمورٌ فالعذر عن التَّقصير ظاهر كبدر الكمال، انتهى جواب الألغاز.

قلت: كان الأحسن في هذا الختام، والأولى لو قال: هذا ما سنح للخاطر من الجواب على ذلك السُّؤال الذي راق، مع أن البادي أمير والمراجع مأمور فالعذر عن التَّقصير ظاهر ظهور الشّمس في الإشراق. وهذا التَّصويب لا يخفَى حسنه إلاّ على من جهل الشَّمس لأنه لو قال كما قلنا لكان فيه إشارة إلى الإلغاز في الشَّمس فلو كان الإلغاز في البدر لحسن منه ما أتى به في ختام جوابه، ولذا يظهر حسن ختامي في الابتداء إذ قلت ولا زال مفخرك ظاهراً ظهور الشَّمس.

ويظهر أيضاً حسن ختامي في إلغاز في القمر كتبته إلى المولى الأمير الحسين ابن عبد القادر رحمه الله تعالى وهو ما لفظه:

فالبدار منه أيده الله تعالى بتبيين ما احتكل أمره، واحتلك دامسه على الأفكار فإنه لا يجلِّيه لوقته إلاّ بدره.

ويظهر أيضاً حسن ختام المولى الحسين المذكور في جوابه إذ قال: وكل هذه الأقوال واضحة كما تَرى، ولا تَخْفى إلاً على أكمهٍ لا يعرف القمرا، انتهى.

قولي في هذه الألغاز: وهي مما لا رائحة له على أنها لا تخلو من شم، هو مما لا ينكتم رائحة حسنهِ ومنه ما نظَمته أنا أيضاً في التَّورية مع الاكتفاء فقلت:

قد فاح عرف الورد من خدّها   ووجهها شمسٌ تزيل الظُّلم
فها أنا بالخد والوجه قد   ظفرت في الحالين منها بشَمْ [س]

وكتبت إليه من النَّظم ملغزاً في غزالٍ قولي:

قل لضياء الدِّين من حاز كمالات الخِصَال
ما اسم لشيءٍ لا يُرَى سرابُه وفيه آل
في طرده غَزًا وما يعرف ما يوم النِزّال
إن زال منه أوّلٌ رأيت منه الكل زال
أوضحه لا زلت فتى يقصد منَّا بالسُّؤال

فأجاب بقوله:

يا شمس هذا العصر لا داناك ما عشت الزَّوَال
ويا خطيب دَهْره ومن به المنبر مال
ألغزت في شيء له عنقٌ حكى ذاتَ الجَمَال
ما غالها فإن يزل ثانيه منه قيل غال
هذا ودم في نعمةٍ ما دار باللغز مقال

القطب الفقيه أحمد بن عبد الرحمٰن الولي النزيل الطرائفي

هو الوسمي وهو الولي، ذو البرهان الواضح الجلي، من أهل الطريقة، وأرباب المجاز إلى الحقيقة، قطب الزَّمان الذي عليه دار، وواحد أبداله الذي ثبت له فوق قطب النجوم دار، غوث غيثه صائب، وطرازٌ على رأس الكون من العصائب، الحاضر الغائِب الفاني، القائِلة لسان حاله كل لاحق ما ٱلْفاني، توالت أفعاله على الموافقة فَدُعي وَليا، ولقّب بالولاية لمَّا حاز في رتب العرفان مقاماً عليًا، اتفقت له من الكرامات، ما لو نظرها الحاسد في الكرى مات، ما رواه الثقة، وحكاه العدل لغيرِه فَصدَّقه، وقد نظرت أنا كرامة له تلحق بالمعجْز، ، ولا يصفها الواصف المطنب والموجز، ليس هذا الموضع بمحل ذكرها، هيهات هيهات استطاعة الجاحد لنكرها، وهم أهل بيت ما لشكر هم من صحف الإمكان محو، وليس لسكرهم المعروف عند الصوُفيّة أبداً من صحو، فالسلف منهم والخلف، بدورٌ في البراهين ما شانها الكلف، أفاض الله علينا من أسرارهم، وحبانا من رياض القبول بأزهارهم، وكان كثيراً ما يشملني بدعائه المقبول، وبحثّ

والدنا على ملازمة الدعاء لي كما هو عليه مجبول، ومن سننه كثرة التَّزويج، فلبضائع النساء بسوقه ترويج، عملاً بقول سَيّد الذكور والإناث، «حُبّب إليّ من دنياكم ثلاث[1]» وكان كثير الجوب للبلاد، والتّنقّل في كل ناد، ويصحبه من تلامذته جم غفير، فكأنه بين العالم وبين ربهم سفير، يدعوهم إليه أحسن دعا، فمنهم من تصامم ومنهم من وعى، وله في المحاضرة طرائف، وفي المحاورة ما يدل على إنجاب بلده الطرائف، فكان لا يخلو عن فائدة، فطالما حلق في العلم مع قُرْبه من النساء على المائدة، فأكل منها أطايب علوم، وشفاء من ترياقها داء كلوم، وقد ألّف كتاباً سماه «سلوة الحياة والممات في المضحكات والمبكيات» وله شعرٌ كقوله على منهج التّصوف، وطريقة أهل الخشوع والتخوف:

قفا بي على باب الكريم أناديه وأنزل مع قومٍ كرامٍ بناديه
فلي فيه من حق اليقين لوامع تحقق أسرار الفؤاد وما فيه
عسى العبد بالتحقيق يحظى فسّره مصونٌ وخوف الحال بالجمع يكفيه

أقول في هذا النظم ألفاظ تفتقر إلى بيانها على مقتضى اصطلاحات أهل علم التصوف فيها.

قوله: «من حق اليقين» حق اليقين عندهم حقيقة ما يشير إليه علم اليقين وعَين اليقين، وعلم اليقين هو ما يحصل بالنظر والاستدلال، وعين اليقين ما يحصل بطريق الكشوف.

وقوله: «لوامع» اللوامِع أمارات طلوع شموس المعارف وتبقى زماناً، وهذا هو الفرق بين اللوامع واللّوائح فإن اللوائح أمارات طلوع شموس المعارف ولكنه يكون زوالها بسرعة.

---

(١) انظر الكلام على هذا الحديث في (كشف الخفاء ١/ ٤٠٥) يقول: «هكذا اشتهر على الألسنة وترجم به النجم لكن ذكره في المقاصد وكثيرون بدون (من دنياكم ثلاث) وقال: رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن أنس رفعه، وكذا الخطيب في تاريخ بغداد.

وقوله: عسى العبد بالتمكين، التمكين: هو دوام استيلاء سلطان الحقيقة.

قوله: «فسره»: السر لطيفة مودعة في قلب الإنسان يجيل فيها المشاهدة، وسر السر ما لا اطلاع عليه إلا للحق سبحانه.

وقوله: و«خوف الحال»، الخوف أن يخاف من نفسه أكثر، مما يخاف من عدَوّه، وقيل أن لا يخاف غير الله. والحال معنىً يرد على القلب من غير تعمل واكتساب.

قوله: «بالجمع يكفّيه» الجمع أن تكون الهموم كلها همّاً واحداً فيصير ذلك حالاً له وقيل جمع الأسرار بأن ليس منه بدو قهرها، فيه إذن شبه له ولا ضد، والله أعلم.

وكقوله:

عليك بعبلة السَّاقين خود ... لها ردف ككثبان مهيله
وخصرٌ للنَّحافة ليس يبدو ... وعينٌ ذات أهدابٍ كحيله
يسيل الحسن منها في خدود ... كذوب التّبر جامدة أسيله
بديعة قامةٍ كالغصن ليناً ... ترائبها كمرآةٍ صقيله
عليك بها إذا ما رمت حَسْما ... لشرِّ الداء من مهجٍ عَلِيْله

الفقيه العلامة أحمد بن عبد الواحد المحيرسي(١)

شهاب لا يجانسه شهاب، له في سماء المعالي اشتعال والتهاب، فكأنَّهُ البدر إنصافاً، يهتدي به الصَّديق إن صافى، طويل القامة، سامي العنق والهامة، له في العلوم مناهل صافية(٢)، هي لعليل الغليل بشرابها شافية(٣)، يفضل معها على

(١) لم يذكره أحد من أهل التاريخ سوى كتابنا هذا، وآل المحيرسي جماعة من العلماء يُنسبون إلى محيرس بلدة من أعمال الشاحذية.
(٢) تورية بكتاب «المناهل الصافية» في الصرف للعلامة لطف الغياث مخطوط.
(٣) تورية بالشافية، كتاب ابن الحاجب في الصرف معروف.

غيره، ويغرد بها ساجع طيره، مع زهادةٍ لا يقول معها: ﴿إن تَـرَنِ﴾[1]. وعِفَّة لم يقرن به أويس[2] القَرَني، إلاّ أنه كان في زيّ مجنون[3]، فصارمه بيد الطيْش والخفَّة مسنون، وكان يُكنِّي نفسه بالمَهدي، ويقول: طالما لاحت على المخائل وأنا في مهدي، مع فتك وإقدام، يفضي وجود من ناوأه معهما إلى الإعدام، وكانت تخافه البانيان[4] واليهود، لأنه لا يراقب في ضعيفهم الذمم والعهود، فكان يرى وجودهم من المنكر العظيم، ويعد ظهورهم بين ظهراني المسلمين من الفادح الجسيم، ولذا قال في شعرٍ له يخاطب به إمام الزّمان، وقد ضرب عليهم الجزية وأعطاهم الأمان:

أتـرضـون أن الـبـانـيـان بـأرضـنـا ... يـصلّون لـلـعجـل الـطـويـل الـخـراطـم

فما لقي أحدهم إلا جرَّد لقتله نصله، وأولى رأسه على الفور فَصْله، فسيفه لا يحط عن عاتقه، ولا يفارق كفّ فاتكه وفارقه، وفي آخر مدته لاذ بالبيت العتيق، وتطَيّب من تُرابه بالمسك الفَتيق، حيث لا يُعَاني كيداً، ولا يرى يهودياً أبداً، وجاور حيث يحمد منه الجَوار، وأطفأ بماء زَمزَم ما بقلبه من الأوار، حتى صادته المنية في الحرم، ودلَّ موته هنالك على التَّوفيق لا جرم، لا زال يسقط عليه ثلج الرحمة بارداً، ولا برح وقد فارق ماء زمزم من الكوثر واردا، ودام لديه جمع الحور جمع كثرة[5] لا جمع قلَّة[6]، وسَقَى الجوُّ تربَ ضريحه وبِلَه وطَلَّه، وله

---

(١) من الآية (٣٩) سورة الكهف.

(٢) هو التابعي المشهور وفاته سنة (٣٧) هـ. انظر: (الأعلام: ٢/ ٣٢).

(٣) إشارة إلى قيس بن الملوح المجنون الشاعر المشهور. انظر أخباره في (الأغاني: ١/ ١٦٧).

(٤) البانيان أو البنيان: كلمة هندية معناها «التاجر»، وقد عربت هذه الكلمة إلى باناني والجمع بانانية: وتعني أيضاً الملاح أو التاجر الهندي. انظر: (عجائب الهند ١٨٨٣) ط ليدن (العرب والملاحة) لحوراني ص (١١٠).

(٥) جمع الكثرة: هو ما دل على عدد يزيد على عشرة (وقيل على عدد يزيد على ثلاثة ما عدا صيغ منتهى الجموع؛ التي تدل على عدد يزيد على عشرة) وصيغه كثيرة تزيد على الثلاثين، نحو: فُعْل ومثالها صفر، وفُعُل: نحو عمد، وفعول: نحو تمور الخ.

(٦) جمع قلة: هو ما يدل على عدد محدد لا يقل عن ثلاثة ولا يزيد عن عشرة، وصيغه أربع

أشعار منظومة وآداب مرقومة، منها قوله:

يا أيُّها الإخوان لا تنكروا ... حرَّة ذي الشمس وأحراقَها
فإنها مملوءة حسرةً ... لما رأتْ في الأرض من فاقها

وقوله وهو مما كتبه إلى من استعار منه كتاباً، فلم يرجع له جواباً:

طلبنا منك عارية كتاباً ... فلم يرجع لنا فيه جوابا
فإن يك منك إهمالاً لحقي ... وقد كنتُ الإمام المستجابا
فسوف أريك صبري واحتمالي ... وخير الصبر ما أرضى الصحابا
فيا حَسَن الفعال لك التهاني ... بتَعْزيتي بتركك لي جوابا
فلو عزَّيتي أوتيت أجري ... لقول أبيك من عَزَّى مصابا[1]
فليس لعالم فضلٌ إذا لم ... يجد للجهل في الناس انتسابا

الفقيه عبدُ الله بن علي الهُتَاري[2]

هُتاري ما كلامه بهتْر[3]، وفاضل يفتر من الأنامل في رقم فضائله الفتر[4]، يَقظٌ زان[5] بندر المحويت، وأديبٌ ما صغَر عنه زمانُه[6] اللّيت[7]، بل وجَّه وجهه إليه، وعَوَّل في تَزْيينه عليه، فزَان أوقاتَهِ بشيمه، وروَّى سفوحه من دِيمه، سمعت

وهي أفعلة نحو أغذية أدوية أمسية، وفعلة نحو صبية فتية غلمة، وأفعل نحو ألسن أرجل أعين، وأفعال نحو أعناق أعمام أبطال.

(١) إشارة إلى قوله ﷺ: «من عزَّى مصاباً فله مثل أجره» أخرجه الترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود (انظر الفتح الكبير ٣/ ٢١٢).

(٢) ترجمته في (نشر العرف: ٢/ ١٣٤) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٣) الهتر: الكذب.

(٤) الفتر: ما بين طرفي الإبهام وطرف السبابة إذا فتحهما.

(٥) المحويت: مدينة بالشمال الغربي من صنعاء بمسافة (١٠٠) كم.

(٦) في (ش) إن.

(٧) في (ش) الليب والليت صفحة العنق.

به ولم أره، وطالما هزّني بوجوده الفرح والفره[1]، وكنتُ أترجّى لقاه، واسأل الأيام بقاه، فمات ولمّا نجتمع، وكان الموعد الحشر لمن قد سمع.

وقد رأيت بخَطّه في الأدب تعليق، وولجت باباً من نقلِه ما له تغليق، جَرَى قَلَمه فيه كما يحسن ويليق، من اعتراضات دَالة على فهم وذوق، وتحريرات انضد من جواهر الطّوق، وتنبيهات على أشعار مأخوذة من غَيْرها باللفظ أوالمغْنَى، وتَضويبات أحدث رمح قلمه فيها على بعض الأدباء طعنا، فعبَّرت لدي عن فضله بأفصح لسان، وعلمت أن وراء الستر من قراطيسه خُرَّد حِسان، فلو كُشِف غطاء البعد عنا ما ازددت في فحوليته يقيناً، لأني نظرت ما ازداد به عندي في رتب الفضل مكاناً مكيناً، وله شعرٌ منظوم، به ربُّ حَسْنَاء ذات كشحٍ مهضوم، منه قوله:

أنـا فـي عَـيـشٍ هـنـيّ خـامِـلٌ ... قـط لا أذكـر فـيـمـن قـد ذُكِـر
ونـديـمـي مـن كـتـابـي حـاضـرٌ ... أتـمـشـى مـنـه فـي ورضٍ مُـطـر
قـط لا أسـأل عـن هـذا وذا ... إذ نَـهـى هـذا وهـذا قـد أمـر
فـالـتـزم مـن مَـذْهـبـي سـمـتـاً بـه ... ركـن لـذّاتـي جـمـيـعـاً قـد عُـمـر
واطّـرح صـفـقـة مـغـبـونٍ لـه ... مـتـجـرٌ فـيـه لـه الـويـل حـسـر
قـد بـذلـت الـنـصـح فـاقـبـلـه فـمـن ... قـبـل الـنـصـح فـبـالـخـيـر ظـفِـر

القاضي زَيْد بن عبد الوهَّاب المسُوحي

مفيد زها به سَوْح المسُوح، وروض علم هو من الروض الحقيقي أروى وأروح، ذو أصالة أرسى من الطَّوْد، وأوصاف أجمل من الخوْد، قرشي يهزأ نسبه بالأنساب، وعريق يسبق حسبُه سائر الأحساب، جمع من الفضل خِصاله، وأنفذ في شواكل القاصيات نِصَاله، وأطال في معارك المجد على الأعداء مصاله، وشبّ في حجر المعاني بعد أن حمدت حمْله وفصالَه، فللّه درّه من ذي همّة تنَهْنه في

(١) فره الرجل: نشط وخف.

مَهْده، ومن ذي تَشْمير في الفخر بلغ غاية جَهْده، ومن فارس في حلبة الفضل جال على نَهْده، وهو من السادات الطلس[1] مَعْدود، وفضلِ كل ذي فضلٍ إليه مَرْدودُ، وله ترسلات تطول، وكلمات بينه وبين النَّقص تحول وأفراسٌ من البلاغة في الميدان به تجول، ولمَّا تُوُفِّي عَمُّنَا العماد، وتَصدّع عليه من الحزن حتى الجماد، وصل إلينا لِرَدِّ كلمة العَزَاء، فَجَرَى شرطه فينا على وفق الجزاء، فنلت من الاجتماع به إرْبا، وإذا قدري بمجالسته على الشهُب قد أربى، تمايل به عطفي تمايل الغصن من مرور الشَّمَال، وقد أودعته أسرار الأحبة فقلبته الأفراح يميناً إلى شِمَال، فإذا هو في سعة الرِّواية بحرٌ لا يُلفَى له خليج، وفي موفور الدِّراية روضٌ نَضِير مُزْهرٌ بهيج، وله نثر أثير، وشعر كثير، منه قوله مما كتبه إلى بعض أصدقائه:

يـا أشـرف الـخـلـق فَـضْـلا ... وأكـمـل الـنَّـاس عـقـلا
وأطـيـب الـقـوم فَـرْعـاً ... وأكـرم الـخـلـق أصـلا
إن قـلـتَ بـالـشـرع فـيـهـم ... قـامـوا فـراراً وجـهـلا
وإن سـعـيـتَ بـصـلـح ... ودّاً ورِفـقـاً وعَـذْلا
عـدُّوا الـمـلـيـح قـبـيـحـاً ... وبـدَّدوا مـنـه شَـمْـلا
وشـاهـد الـحـال يـكـفـي ... فـيـمـن دَنَـا وتـدَلَّـى
والـلَّـه يـعـلـم أنِّـي ... مـا حُـزْت فـي الأمـر أصـلا
ولا رقـمـت بـخـطـي ... إلا الّـذي صَـحّ نَـقْـلا
فـكـيـف بـي يـا مـلاذي ... أي الـطـريـق أُدَلَّـى
لا بـارك الله فـيـمـن ... لـلـمـسـوحـيـن تـولَّـى

---

(١) الطلس: جمع أطلس: وهو الذي لا لحية له خِلْقة، ومنهم جماعة من أشراف العرب منهم: الأقرع بن حابس وعبد الله بن جدعان وعمير بن الحباب وقيس بن سعد وسويد بن منجوف وعمير بن الحباب. انظر: (البرصان والعرجان: ٣٢٦).

الفقيه المهدي بن يحيى المسوري الثلائي[1]

روضٌ مخضر الأعشاب، بَهَر الروض الحقيقي حتى رأيناه ببياض الثلج قد شاب، ذو فهم أصرد[2] من السَّهم، حسن الهيئة جميل الثياب، لم يرض في اعتنائِه للفضل بالإياب، وخَطّه بديع، كأنّما خدّ المليح المعذّر عن لامه له وديع، تَسْتعير عيون الغيد من عيونه الحَوَر، وتَرمي عندها لحاظ الحسان بالعمى والعور، أَلِفَاته أطعن من حراب، ومداده أغرب من غُراب، وطبعه من الماء أرق، فلذا يُصيبه في بعض الأحيان منه الغرق، وزمانه بإسعافِه غير سموح، فعلاجه مع ذلك أصعب من ردّ الجموح، فكم استعار من الحلي وسواسه وهجر لنفوره أخلاّه وجُلاَّسَه، وتخلَّى لطارق الهموم، ونادم ما لا يرتضيه من الغُموم، وكان إذا غضب، جفّ ماء حلمه ونضب، فلا يملك لغضبه سورة ولا يستر لطيشه عورة.

أخبرني أنه نسخ الصحيفة[3]، وأبرز أوراقها كالروضة الوريفة، واعتنى في تنميقها غاية العناية، ثم إنه جنى عليها أبشع جناية، فمزَّقها لأمر أغاظه، وشيء عدّ في احتماله عليه غضاضة، وله أدبٌ أدبّ في الأعضاء من الخمر، وشعرٌ كالذهب المسبوك عقيب خروجه من الجمر، قد أراني منه قطعاً متجاورة، وأبدى لي من حليّه عقوده وأساوره، أنضر من المرج، وأبرد على الأفئِدة من الثلج، وألذّ من لُبس حلة رقيقة النسج، أيام حَجِّه إلى كعبة والدي ووفوده، واستمطار منائحه من سحاب وعوده، واهتزاز غصنِه لها مع نواله وعوده، والدَّهر ربيع، وصفو العيش بالكدر ما بيع، فله منه منائح، وله فيه قصائد طنَّانة ومدائح، أدار منها خمرةً صفرا فاقعَة، قد مدّ على صفحتها من الحَبَب فواقِعه، فإذا هي بحرٌ مِنَ الذَّهب المُمار، قد طرحت عليه شباك اللآلىء التي يصاد بها كل سانح من الأفراح ومارّ، ومات وهو أغدف الشَّعر، وبحر شبابه المظلم لا يدرك له قعر، قبل أن يصبح ليله،

---

(١) ترجمته في (نشر العرف) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) سهم صارد: نافذ.

(٣) هي الصحيفة السجادية المنسوبة إلى الإمام علي بن الحسين زين العابدين، في الأدعية.

ويتعطّل في ميدان الأيام خيله، لَمَّا عاد من البيت الحرام، ونال من مناسك الحج أقصَى المرام، فأحرم لموته من ميقاته أجله، ولبس ثياب أكفانه وتجرّد عن حُلَله، وحلق وقَصَّر بأقطع مُدْيَة، وتعطّر من حنطِه بالطيب ولم يجب عليه إخراج فِدْيَة، رَعَى الله دَهْرَه، وسقى في روض الضَّريح بماء الغفران زهره، ومن شعره المستَلْطف، وثمر أدبه الذي بأهداب العيون يقطف، قوله من قصيدة مدح بها مولاي الوالد، وأثنى عليه بما هو على صفحات الدَّهر خالد:

سلو أهل نجد هل سَلْوا مغرماً مُغرى ... أطاع الهوى لم يُعص نهياً ولا أمرا
أذاك لواشٍ قد وشى بمقاله ... يزخرفها زوراً أم انتحلوا عذرا
شرحت لهم من متن وجدي أسطراً ... وما شرحوا لي باللقا منهم صدرا
ولا وضعوا وِزراً من الهجر شفَّني ... وأسهرني طرفاً وأثقلني ظهرا
ولا رفعوا لي حين ساروا عن اللوا ... وأزعجهم بالشوق حادي السرى ذكرى
أأسعَى إليهم حافياً ثم أنثني ... خفي حُنين إذ رأت أعيني بذْرا

وقوله:

بعثت رسولي نحو مولىً لجوده ... يُقرّ من السحب الثقيلة هاطلُ
تطاول غيث السحب يحكي نواله ... (وعند التناهي يقصر المتطاولُ)
وكم بين ما إن جاد فالماء جودُه ... وبين الذي تبر الندى منه سائلُ
إذا قسته بالغيث فالفرق واضحٌ ... وبينهما إن أشكل الأمر فاصلُ

قوله «وعند التناهي يقصر المتطاول» هذا مضَّمن من بيت أبي العلاء المعري وهو مشهور وقد ضمنته أنا في مدح فقلت:

تطاول رمح الخط يحكي يراعَه ... (وعند التَّناهي يقصر المتطاولُ)

وقد ضمنه أيضاً شهاب الدين ابن جلنك[1] في مدح أقطع فقال[2]:

---

(١) ترجمته في (وفيات الوفيات ١/ ٦٠) وفيه أحمد بن أبي بكر أبو جلنك الحلبي، قتله التتار سنة (٧٠٠ هـ).

(٢) الأبيات في (الغيث المسجم ١/ ١٢٠).

وبي أقطع ما زال يسخو بماله ومن فضله في النّاس ماردّ سائِلُ
تناهت يداه واستطال عطاؤها (وعند التّناهي يقصر المتطاولُ)

قلت: هذا التّضمين معدود عند الأفاضل من التّضامين الكاملة، كما أثنى عليه الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى في كتاب «غيث الأدب الذي انسجم، شرح لاميّة العجم»[1]، وهو باعتبار معناه كذلك وإن كان عندي في ألفاظه مجال للنّقد وما ذاك إلا أنه قال «تناهت يدَاه» بلفظ التّثنية، والأنسب بالسخاء إنما هي يدٌ واحدة وهي اليمين، لأنها هي التي تسخو فتعطي ولكن لا بأس بهذا، فربما كان فيه مبالغة في وصف سخاء الرّجل الممدوح كأنه مع ذلك يعطي باليدين معاً لفرط السماحة، فقد جاء في الحديث في وصف الباري تعالى «وكلتا يديه يمين»[2] وقال: «عطاؤها» وكان الأنسب أن يقول «عطاؤهما» بتثنية الضمير لأنه يعود إلى اليدين وهو مثنى ثم إنه جعل في صدر البيت الثاني المتناهية يديه والمستطيل عطاؤها، فلم يراع التناسب الكلي بين الصّدر وبين العجز المضمّن، لأن قوله «يقصر المتطاول» يعود مع ذلك إلى العطاء والعطاء ليس هو الذي قصر لأنه لا يلزم من قِصَر المحل وهو اليد قصرُ الحالّ فيها وهو العطاء، وأيضاً لو لزم ذلك لكان في حق الممدوح ذمّاً صريحاً لأنه نسبة إلى قصر العطاء بعد استطالة فكأنه شحّ بعد أن كان كريماً والكريم لا يقصر عطاؤه لو قُطّع إرباً إرباً، فكيف وما المقطوع منه سوى عضو واحد، وهذا كما عرفت مما يأباه مقام المدح، وأيضاً فإن المقصورة حقيقة إنما هي يداه قُصرت بقطعها لا العطاء فهي المرادة بالقطع، وكان حق العبارة مع ذلك أن يقول فيها تقْصرُ المتطاولتان بالتّثنية أي اليدان، وهذا قبيح إذ به يفسد الوزن ويخرج البيت عن عروضه ووضعه الأصلي وينافر قوله و«استطال عطاؤها» فلزم بالضرورة أنه ما قصد بالقطع قطعاً إلا العطاء، وأيضاً فإنه قال في صدر البيت «واستطال» أي العطاء وهذا حسن وقال في العجز «يقصر المتطاول»

---

(١) هو من أشهر كتب الصّفدي، طبع أول مرة سنة (١٢٩٠) بالمطبعة الوطنية بالإسكندرية.

(٢) انظر: (النهاية في غريب الحديث ٥/ ٣٠١).

ولفظ المتطاول ربما كان ذمّاً لأنه قد[1] يتطاول وليس بطويل كما يقال فلان يتسامح أي يتصنَّع السماحة، وليس بسموح كما قيل لأحمد بن الحسين الكندي المتنبي أي أنَّه ادّعى النُّبُوة وليس بنبّي، ولذا قال له ابن خالويه النَّحوي في مجلس سيف الدَّولة: لولا أنك جاهل لما رضيت أن تدعى بالمتنبي لأن المتنبّي معناه كاذب ومن رضي أن يُدْعَى بالكذَّاب فهو جاهل، فقال المتنبي: لست أرضى أن أدعى بذلك وإنما يدعوني به من يريد الغضّ مني ولست أقدر على الامتناع، هذا على أني أقول ليت ابن جلنك رحمه الله تعالى قال:

تَطوَّل كف مِنْهُ طال تناهيًا (وعند التناهي يقصر المتطاول)

لكان فيه تقليل من وجوه الانتقاد، معَ أن ذكر التَّطول الذي هو من الطول بفتح الطاء وهو الزِّيادة والفضل يناسب المتطاول، وقد يكون في قوله «يقصر المتطاول» مع ذلك إيهام التورية في المتطاول من الطول بفتح الطَّاء والطول بضمها، لأنها لم تكن تورية حقيقية لأنه إنما يقال متطوّل حيث كان من الطَّول بالفتح لا متطاول.

وقد ضمنته أنا في الذم مع إيهام التَّورية وذلك في رجل يدعي الفضل قطعت يده في بعض مواطن الحروب فقلت:

تطاول كف وادَّعَى الطول فريَة فأولته قطعاً قاطعات مناصلُ
تناهى بدَعْواه الأباطيل في النَّدى (وعند التناهي يقصر المتطاولُ)

فإيهام التَّورية في المتطاول ظاهرة لأنه من الطُّول بالرَّفع المرشح له بقوله تطاول، ومن الطَّول بالفتح المرشح له بقوله وادّعَى الطَّول أي الزِّيادة والفضل.

وقال صاحب الترجمة رحمه الله تعالى في قهوة القشر:

هات لي قهوةً من القِشر فاتت قهوةً من كروم روضك تُعْصَر

---

(١) في (ز) ذمّاً له قد يتطاول.

وأدرهـا كـمـا تُـدَار مـدامٌ ثـغـرهـا بـالـحـبـاب كـالـدر يـفـتَـرّ
عن سوادٍ في أبيض الصِّين[1] تُجْلى فـوق مـرج مـن الـغـضـارة أخـضـر

وقلت أنا في النَّثر عند وصفها ما لفظه: قهوة تَسري في الأقداح، كما سرت الأرواح في الأشباح، زنجية بلُؤلؤ الحَبَب تَحلَّت، وحبشية تحت خمار دخانها الرقيق تجلت، يُصَبّ مسكُها في كافور الكاس، فينعش الهمم برائحته ويحيي مَيِّت الأنفاس، لا يُجَاري الكميتُ أدهَمَها، كأنها سَمَاء من المسك أبرزت من الحبب أنجمها، تنوب عن المدام، وشتَّان ما بين حلال وحرام انتهى.

وكتب صاحب الترجمة إلى مولانا الوالد رضي الله عنه من المنثور وقد أهدى له نسخة كتاب بخطِّه ما لفظه:

أطال الله أوقات من يليق به أن تطول أوقاته، وَمدّ في ساعات من يحسن أن تمتد في بني الدَّهر ساعاته، فمصلحة طول أوقاته على المسلمين ظاهرة، ومنفعة امتداد ساعاته في صلاح شأنهم لكل فساد قاهرة، وهو سَيِّدي مُفْرد العلماء الذي ماله ثاني، ومولاي المشيد من المعارف شامخ المباني، قاضي القضاة في يوم الفَصْل، وزاكي النَّجار وكريم الأصل، إمام علماء الفروع والأصول، والشَّامخ عليهم في الدَّرجة فما إلى درجته وصول، جمال الإسلام محمد بن الحسن الحيمي عنوان الفضلاء الأعلام، صانه الله تعالى عن كل طارق، وحفظه عن كيد كل ماردٍ مارق، وخَصّ مقامه بالسلام العاطر، والإكرام المشابه للحدائق باكرها العارض الماطر، ورحمه الله ما ارتفع علم، وتجرَّد لخطابه في بطون الأوراق قلم، هذا وإني أرفع إليه، أن تَعْويلي بعد الله تعالى عليه، في أمور نابت فليس لها غيره من كافي، ومضائق توالت فما سواه وقد قصر بنو الدّهر وافي، فلينظر في أمري، زاد الله في عُمْره من عمري، فإنِّي صِرتُ في حيرَة، أتوقَّع شر أهل الزَّمان هذا وانتظر خَيْره، فليصدق فيه ظنِّي وفي الحقيقة يقيني، وليحفظني في حُصْنِه الحصين من

---

(١) أبيض الصِّين: هو فنجان الزجاج منسوب إلى الصِّين.

مصائب الغموم ويقيني، وقد نسخت هذا الكتاب برَسْمه، وحصلته مقروناً باسمِه، فصدر راجياً منه القبول، طامعاً في مقاصده على الحصول، قاطعاً بنيل كل مأرَب، حاصلاً على المراد في لمح البصر أو هو أقرب، فإنه من العون على الزَّمن الصَّعب في الارتقاء، وممن استخلصه خاطري لنيْل الوطر وانتقى، فكم ألفت منه البر في المعاملة، ونلت منه أملي وكم نال أمله من أمَّ له وأمّله، والله يبقيه ما بقيت مكارمه، ويحفظه لذي حاجات طَالما قضيت منه مغارمُه، والسَّلام.

الفقيه عبد الله بن علي المهلاً[1]

شاعِرٌ ناظِم، وجليسٌ منادِم، كلماته خالية عن التَّعقيد، ونَفَثاته أحلى من اليعقيد[2]، كان يلازم والدي ملازمة الأنامل للرَّاحة، ويدير من مدحه والثناء عليه في مجالس النّدماء راحة، فله فيه مَدَائح مطوّلة، وآمالٌ من جودهُ مُنَوَّلة، عَرَفتُه قبل أن يختط عِذَاري، ويغرّد بمثل هذه الأسجاع هَزَارِي، وبَيْنه وبين ابن عَمِّ والدنا يحيى بن الحسين، مكاتبات ومشاعرات يُفَدِّيها معدن الذَّهب بالعين، فهو له من الجُلَسَا، لا يفارقه صَبَاحاً ولا غَلَسَا، في دَهْرٍ لم تشعر به النَّوَائب، وزمان له من ليالي الصفو ذوائب، ولَمَّا رغب في الغُرْبة وبادر الوداع، فارق مساكنه ونزل بمدينة رداع[3]، وركب جَنَاحَي الطائر، فإذا نهرُه عن مجاريه غائر، فلم يستنشق لوطنِه نسيماً، ولم يَجْتل لهذه المنازل وجهاً وَسِيْمَا، ونسي من أمارات لذاتِه فيها علامَةَ وسيما، حتى وافاه الأجل فمات، وعظمت على أترابِه بعده الندامات، رحم الله غربَتَه، وسقَى بماء الغفران تُربَتَه.

لم يحضرني من أبياته المحكمة الأساس غير قَوْلِه من لَطيف الجناس:

لـمـا تـوطـنـت شـبـام الـذي ... عـن كُـلّ سـوءٍ ربُّـنَـا قـد حَـمَـاه
وذقـت مـن نَـهْـرٍ لـهـا شـربَـةً ... ناديت ذا العـاصـي وهـذي حَـمَـاه

---

(١) ترجمته في (نشر العرف ٢/ ١١١) نقلاً عن كتابنا هذا.
(٢) اليعقيد: عسل يعقد بالنار وطعام يعقد بالعسل.
(٣) رداع: مدينة كبيرة شرقي ذمار بمسافة (٥٣) ك. م، وتُعرف برداع العرش.

و«العاصي» بالعين والصَّاد المهملتين نهر حماة وحمص المحروستين وهو مشهور، وللأدباء أشعار ولطائف يذكرونه فيها، قال بعض الظرفاء:

حماة في بهجتها جنَّةٌ ... فهي من الهمّ لنا جُنَّه
لا تيأسا من رحمة اللَّه قد ... أبصرتما العاصي في الجنَّه

وقال آخر:

حمص لمن يدخلها جَنَّةٌ ... يدنو إليها الأمل القاصي
حل بها العاصي ألا فاعجبوا ... من جَنَّةٍ حل بها العاصي

وقال صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى:

ناعُورة[1] حَنَّت وأنت فقد ... شوقت الدَّاني والقاصي
قد نبهتني للهدى والتقى ... لما غدت تَبْكي على العاصي

وقال برهان الدين القيراطي رحمه الله تعالى:

لما حَدَا بالركب حاديهمُ ... وأسمع الداني والقاصي
أطاعني دمعٌ جرى نهرُه ... فمدمعي الطائع كالعاصي

وقال آخر:

نواعيرُ[2] في وادي حماةَ إذا بكت ... تهيِّج لي من عبرتي مدمعاً قاصي
وإني على نفسي لأجدر بالبكا ... إذا كانت الأخشاب تبكي على العاصي

وقال الشيخ جمال الدِّين بن نباتة رحمه الله تعالى في بعض قصائِده يمدح الملك الأفضل صاحب حماة وقد كان تزهَّد وأظهر التنسك[3]:

وأعلا منار العدل حتى بلاده ... وَسُكَّانُها جَمْعٌ تبوَّأ مسجدا
فلو أمكن العاصي بها نزع اسمه ... مخافة أزكى الناس عهداً ومعهدا

---

(١) في (ب) و(ش) ناغورة بالغين المعجمة.

(٢) في (ب) و(ش) نواغير بالغين المعجمة.

(٣) لم أجدهما في ديوانه المطبوع.

وقال هو أيضاً في مرثية الملك المؤيد صاحب حماة رحمه الله تعالى[1]:

هـذي حـمـاة أغَـصّ الـدمـع واديـهـا وطـاوع الـحـزنَ فـيـه دمـع عـاصِـيـه

وقال السيد شهاب الدين أحمد بن الحسن بن أحمد بن حميد الدين رحمه الله تعالى المتقدم ذكره في بعض قصائده التي يذكر فيها نَهْراً:

يطيع لـه الـعـاصي وتـخـضـع دجلـةٌ وتَـرخـى بـنـيـل الـمـصـريـيـن ستُـور

ولصاحب التَّرجمة وقد رمي بعض العظماء شاشةُ بالبندق فأحرقه:

يـا سـادةً قـد أصـابـوا مـهـجـتـي ألـمـاً وأخطؤوا إذ رموا عـن مـقـصـدِ شـاشـي

لا تـنـكـروا حقَّ مثلي وانظروا عـجـلاً فـيـمـا أريـد فـقـلـبـي مـنـكـم شـاشـي[2]

قلت: شيءٌ في البيت الثاني، المعروف في اللّغة أنه بفتح الشين المعجمة وهو هنا كسرها ليتم له الجناس، ولا أدري هل قد جاء كسرها في لغةٍ صحيحة أم لا.

الفقيه حسين بن صلاح الحجاجي[3]

نسبَةٌ إلى بني الحجاج[4]، سقاها من القطر الهامع الثَّجّاج، وهو فقيه حسن الطبْع، له في سفوح الفضل رَبْع، كنت أراه على نسخ الكتب مُكِبّاً، ولجمع الفوائد والآداب مُحِبّاً، مع خَطٍّ حسن مقبول، ورقمٍ بشباكِه على صيد القلوب مجبول، ذو سماتٍ ركينَة، تظهر عليها آثار الوقار والسَّكينَة، كثير الخمول، لابس لثوبٍ من الإعدام سَمُوْل، له نشوة بالقناعة ولا نشوة الشمول، رضي برُمامَة العيش، غير مستفزٍّ له الطيش، وكان ينظم من الشِّعر قليلاً، ويصير ذيل نسيمه به بليلاً، كقوله مجيباً على بعض أحبابِه، وأخِلاَّئِه الذين ساجلهم في روض شبابه، وهو نَظم حديثه ذو شجون، يذهب عند جِدّه مجّاناً ما لابن حَجّاج[5] من الهزل والمجون:

---

(١) (ديوانه ٥٧٢).

(٢) علق في (د) بقوله: كسر الشين هنا غير معروف. قلت: نَبّه المؤلف على ذلك فيما بعد.

(٣) ترجمته في (نشر العرف) نقلاً عن كتابنا هذا ص ٥٦٠.

(٤) من عيال سريح على مسافة يوم من صنعاء شمالاً.

(٥) ابن حجاج الشاعر المشهور من شعراء اليتيمة (سبق).

أهـلاً وسـهـلاً بـنـظـامٍ أتـى فـفـاح مـنـه الـمـسـك والـعـنـبـرُ
أزرى بـجـيـدِ أتـلـعٍ زانـه نـضـاره الأحـمـرُ والـجـوهـرُ
مـمـن لـه فـي مـهـجـتـي والـحـشَـا بـيـتٌ لـه الأعـيـن لا تـنـظـرُ
حـافـظ عـهـدي ووداديِ ومـن يَـغَـار مـن نـغـمـتـه الـمـزهـرُ
ورد ربـيـع الـروض فـي خـدِّه وفـي لـمـى مـبـسـمـه الـكـوثـرُ
ذكـرت مـا تـلـقـاه مـن وحـشـةٍ فـفـي الـحـشـا أكـثـر بـل أكـبـرُ
وقـلـبـك الـشَّـاهـد يـا مـنـيـتـي هـو الـذي عـن وُدِّنـا يـخـبـرُ
وكُـلَّـمَـا لاحـت بـروق الـدجـى فـالـوبـل مـن دمـعـي يـسـتـقـطـرُ

الفقيه أحمد بن محمَّد الزُّريقي[1]

أديبٌ تبلجت أقمارُه، وظريف طابت في ليل شبابِه أسماره، ارتدى ثوب رِقَّةِ تَرُوق، كما ارتدى الجوّ مِرطَ السحاب المطرّز بذهب البُرُوق، بسق غُصْنُه وأثمَر، ونما هلاله وأقمر، قرا من العلم ما عد به فقيهاً، وحاز منه ما صار لأجله نبيهاً لأنه من قَوم، طالما هجروا النّوم، وعكفوا على الطّلب، ولبسوا مِن الصَّبْر اليلب[2]، خِدمَةً للعلم ورغبَةً فيه، واقتفاء لما لامقت فيه لمقتفيه، وهذا الشَّاب، مِمَّن سَدَّد إلى غَرَضِه النُّشَاب، وكان ذا مُحَيًّا وسيم، سقمت للتهتُّكِ بحُبِّه النَّسيم، ينحني خِدمةً له الهلال، ويرمي البدر لديه بالكلف والكلال، مع أخلاقٍ تُغْصَر الخمرة من غُصُونها، وتقتطف الأزهار والأثمار من غصُونِهَا، أروح من نسْمة الشَمال، وأرقَ من وقت الأصيل إذا تَرنح به الغُصن سُكراً ومال، وقد مَرَّت له في الخلاعة أيمات، انتعش بدوائها النَّافِع من الراحَة مامات، في أوقات طاب سحرها وأصيلها وجرت به فيها جياد اللّهو وما غير جَرْس الأوتار صهيلها، طالما طلعت نجوم الكؤوس في ليل شبابه، وطالما أصداد الفرح من كاسِه بشباك حَبَابه، متعلّقاً من

(١) (نشر العرف: ١/ ٢٥٨) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) اليلب: الترس أو الدروع اليمانية من الجلود.

اللّذة بالمُحَال، مائلاً إلى الخلاعة وهو ينشد بلسان الحال:

إن الــخــلاعــات طــراز الأدبــا وإنــنــي فــيــهــا نــســيــج وحــدي

ثم لمَّا نبا به الوطن، قلقل ركائبه من العطن، وخرج من حصن كوكبان، وناءَ شخصه عن مَنازِله وبان، وانقض انقضاض العُقّاب من وكْره، وغاب إنسانُه المُحَبَّب ولم يَغِب جميل ذِكره، وسكن من اليمن الأسفل بجبله[1]، إلى أن صرم الدهر بِمُدية الحِمَام حَبْلَه، فقُبِر ولُحد، وفضله أبداً مَا جُحِد، رحم الله ذُلَّه، وكساه من الرِّضوان حُلَّة، ونقع له من الكَوْثر غُلَّة، ومن نَظْمه النظيم وبنات فكره التي كشحها هَضِيْم، قوله:

أحـبـابـنـا هـل لـهـذا الـبـعـد مـيـقـاتُ أم هـل تـعـود لـنـا بـالـوصـل عـاداتُ؟
وتـرجـع الـدَّار بـعـد الـبـعـد آنِـسـةً بـكـم وتـجـمـعـنـا فـيـهـا الـمـسرَّاتُ
أحـبـابـنـا فـمـتـى نـحـظَى بـقـربِـكـم لـتـنـطـفـي بـتـلاقـيـنـا حـراراتُ؟
فـإن فـي كـل عـضـوٍ كـل جـارحَـةٍ وكـل جـارحَـةٍ فـيـهـا جِـرَاحـاتُ
أحـبـابـنـا مـا اقـتـرفـنـا ثـمَّ مـعـصـيـةً فَـلِـمْ غـدا الـشَّـمـل مـنـا وهـو أشـتـاتُ
سـقـيـاً لأيـامـنـا الـغـرا بـقـربـكـم كـنـتـم بـهـا حـور عـيـنٍ وهـي جَـنَّـاتُ
أيـام كُـنَّـا بـطـيـب الـعـيـش فـي جـذَلٍ إذ كـان يـجـمـعـنـا روح وراحـاتُ
والـعـود يـشـدو بـألـحـان مـرخَّـمـة ولـلـكـؤوس بـأيـدي الـقـوم رَقَـصَـاتُ
والـمـغـرَم الـصـبّ مـسـرورٌ بـفـاتـنـة هـذا هـو الـعـيـش والأيـام مـشـكـاةُ
لَـهْـفـي عـلـيـهـا فـكـم أبـدت لـنـا تُـحـفـاً وسـاعـدتـنـا بـمـا نَـهْـوى الإراداتُ
فـإن قَـضـى الـدَّهـر فـي تـفـريـقـنـا أبـداً قـضـى ومَـا قُـضـيـت مـنـكـم لُـبَـانـاتُ

ولمَّا قال المولى جمال الإسلام علي بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل[2] بن القاسم عليهم السلام:

---

(١) جبلة: مدينة مشهورة بالجنوب الغربي من إب بمسافة (٧) كم.
(٢) سيأتي.

أما ترى الأرض لما جادها المطرُ ... وألبست حُللاً من دونها الحبرُ
والروض يضحك ثغر الأقحوان به ... والسُّحب مدمعها بالماء منهمر

قال صاحب الترجمة مذيلاً لنظمه ومجيزاً له، ومن خطه نقلت:

والورد يحمّر من فرط الحيا خَجلاً ... كأنما هو في خدّ الرُّبَا شرَرُ
والنّرجس الغضّ لولا لون صفرته ... حكى اللّحاظ ولكن فاته الحَوَرُ
والدّوح يرقص إذ غنّى الحمام على ... هام الغصون وثنت عطفها الشجر
وللمياه انسيابٌ في جداولها ... فَصَاعدٌ من لجين الما ومنحدرُ
كأنها جنة الفردوس إذ سفرت ... لو تربها المسك أو حصباؤها الدُّررُ
أو لو تدلَّت بها الأشجار مثمرةً ... لكنها مثل شعري ما له ثمرُ
وقد أجزت نظام الملك معترفاً ... بفضل من طاب منه الخُبْرُ والخَبَر
ما كل من رام نظم الشعر يحكمه ... مثل الجماليّ عنه يقصر البشرُ

ونقلت له من خطه قوله رحمه الله تعالى:

حبيبي روى مكحول طرفك قصةً ... بأنك في وُدِّ العميد تَحِيْفُ
فما صحّ عندي ما سمعتُ لأنه ... مقال رواه الطرف وهو ضعيف

وهو مأخوذ من قول الشيخ جلال الدين خطيب درايا[(١)] رحمه الله تعالى[(٢)]:

شهدت جفون معذبي بملالةٍ ... مني وإن وداده تكليف
لكنني لم أنأ[(٣)] عنه لأنه ... خبر رواه الجفن وهو ضعيف

وله:

لا تكسبن سوى الفعل الجميل فكم ... برّ أتى من جميل كنت واضعه

---

(١) هو محمد بن أحمد بن سليمان الأنصاري الخزرجي، أديب كثير التصانيف، له ديوان شعر مخطوط، توفي سنة (٨١٠ هـ) (الأعلام: ٤/ ٣٣٠).

(٢) خزانة الأدب لابن حجة الحموي ٢: ٢١٠.

(٣) الخزانة: أفأ.

لم يخط من جعل المعروف شيمته ... بل قد أصاب وإن أخطا مواضعه

وفي الحديث عنه ﷺ: «اصطنع الخير إلى كل برّ وفاجر، فإن لم يوافق أهله فأنت أهله»[1].

وفي المثل العربي: «اصطنع المعروف ولو إلى كلب» يضرب في إجداء الاصطناع على الرجل كيف ما كان[2].

الأمير محمود بن سنبل علي[3]

من أولاد حام، الذين ما طار طائر من عش النّجدة إلاّ عليهم حام، ولا سعّرت نار حرب إلا كان منهم لها اقتحام، كان أميراً على الخيل، فالضّرب يعرفه والطّعن، والسيل والليل، بل يعرفه اللواء والعلم، وإذا كتب عرفه القرطاس والقلم، طالما راض المطهمة عن الجماح، وعلمها الولوج بين السّيوف والرّماح، وصَيّرها كالبوازي المنقضة والرّكاب لها جناح، حتى عجز النّسيم عن مسابقتها وأحجمت الرّياح، كم ركب الجياد، فعاد الشّامس منها سلسل[4] القياد سعد في عنفوان الدّولة، وصال على عدّو الزمان أي صولة، ورقا ارفع صهوة، واحتسى من كاسات الإقبال أي قهوة، وورد من نمير عيشه صفوه، وجدّد برد الأدب فأحسن رفوه، وكان ذا وقار ورجحان، ونسك يستنشق به في الحياة الرّوح والريحان، وقد خاض في بحور العروض أي خوض، ونظم من الشعر ما يخجل به الروض، فلذا جبينه بالحيا

---

(١) حديث: «اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس هو أهله فإن أصبت أهله فهم أهله وإن لم تصب أهله فأنت من أهله» رواه ابن النجار في تاريخه وهو منقطع، وقال في المغني: حديث رواه علي بن الحسين عن أبيه عن جده، ذكره الدارقطني في العلل وهو ضعيف، وفي مسند الشهاب من رواته جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلاً بسند ضعيف، انظر (مسند الشهاب: ١/ ٤٣٦ والمغني عن حمل الأسفار: ٢/ ١٩٣).

(٢) أورده في (المستقصى: ١/ ٢١٢) وعنه نقل المؤلف هذا الشرح.

(٣) ترجمته في (نشر العرف نقلاً عن كتابنا هذا ٢/ ٧٣٦).

(٤) كذا في (ش) وفي (ب) سلسلس وفي (ز) سلس وهو الصواب.

يرشح، سيما الدوبيت[1] والحميني[2] والموشح[3]، فله فيهما نهج مستلطف، وحديقة طيبة الرائحة ناعمة المقطف فعقد نظمه منضود، وشمس أدبه تقهر نور الشهاب محمود[4]، كم كشف نظمه عن حلا في الارتشاف، فإذا شراب العسل كالممرض وشرابه كالشاف، ما ذاقه طاعم إلا قال: لقد جاء محمود[5] بكشاف، بل جاء في شعره بالفائق[6] وصاغ المفصل[7] من تيجان المفارق، من ذلك قوله في رباعية:

يا من لك في الجمال أوفر قسمه	ارحم دنفاً هواك أوهى جسمه
من سقم رناك سقمه مكتسب	ذا السقم بمقلتيك قل لي من مه

وقوله في رباعية أيضاً:

أهوى رشا حوى المعاني أحوى	قد صار له صميم قلبي مثوى
يهوى تلفي ومهجتي تهواه	يا أهل شريعة الهوى ما الفتوى؟

ولما دنا منه حمامه، ولم تفرّ من بازي المنية حمامة، قتل في معركة قتال، وأنفتل إليه خصمه أسرع انفتال، فأريق دمه في غير حق دمه، وأدرك مباشره ندمه، لأنه قتل مع سَوْرة غضب، ونفحة غيظ حملته على أن صبغه بنجيعه وخضب،

---

(١) مصطلح عروضي مركب من (دو) الفارسية بمعنى اثنين، و(بيت) العربية، وهو ضرب من الشعر استحدثه العرب بتأثير من النظم الفارسي وشيوع الزجل في العصور المتأخرة، وهو مؤلف من بيتين يتفقان في الوزن ويلتزمان على الأغلب قافية واحدة في عروضي البيتين وضربهما، وقد يكون الدوبيت بثلاث قواف ويُسمَّى الأعرج.

(٢) هو الشعر العامي الموشح عند أهل اليمن.

(٣) هو نمط خاص في بناء القصيدة عُرِف عند الأندلسيين ولهم فيه كلام طويل (انظر كتب هذا الفن).

(٤) يعني الشهاب محمود بن سليمان بن فهد الحلبي المتوفي سنة (٧٢٥ هـ).

(٥) يعني الزمخشري وكتابه الكشاف (معروف).

(٦) كتاب في (غريب الحديث) للزمخشري (سابق الذكر).

(٧) كتاب في النحو للزمخشري.

والسَّبب صدور كلمة منه إليه ولفظة يسيرة يطلّح بها عليه، لا قدس الله الغيظ من رفيق، ولا رعاه من شراب يندم متجرّعه إذ يفيق، وما هو إلاً حديقة اطلعت من الزَّهر شقيقة، وعند ذلك باشر ولده القاتل فمات، ووثب عليه وثبة أسد مفترس ففات وأزهق روحه قبل زهاق روح أبيه، وأسال نفسه قبل سَيَلان نفس ذلك النبيه، ولما أصبح محمود جار الله في الضريح، نضب بعده من الأدب لَبَنَهُ الصَّريح، ألبسه الله من الرَّحمة أبرد بُرد، ما بكته في ميدانها العتاق الجرد، وقد قال خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى عند مصرعه، وإقفار سفحه وخلو مربعه:

نأى عن الدَّار محمود فقد أسفت ... من بعْده الخيل حُزْناً وهو مفقود
قد كان جار المذاكي في إمارته ... واليوم أصبح جار الله محمودُ(١)

صلاح بن فرحان صَغير(٢)

ما هو صغير بل كبير، تمد الرشا من السطور لأخذ ماء أدبه العذب لأنه كبير، ظريف به الأدب كأبيه فرحان، وفصيح له من النظم والنثر سرْحان، من أولاد العبيد السودان، لكنه جَنَّة جناها المنزَّه عن السوء، ممن قال فيهم الرسول: «دونكم يا بني أرْفدة»(٣) ولذا يقول في حقه لسان الوجود: ليت لي كنز الغنا فأرْفده، أسود اللون، مع أنه أشرق به الكون:

---

(١) تورية بجار الله الزمخشري وهو محمود بن عمر (سبق).

(٢) ترجمته في (نشر العرف ١/ ٨٠٠) نقلاً عن كتابنا هذا.

(٣) من حديث عائشة، قالت: دخل رسول الله ﷺ وعنده جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه، فدخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعهما» فلما غفل غمزتهما فخرجتا، وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال «تشتهين تنظرين» فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول «دونكم يا بني أرفدة» حتى إذا مللت قال: «حسبك»؟ قلت: نعم قال «فاذهبي» رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وابن حنبل والنسائي.

مثل حبّ العيون يحسبه النا س سواداً وإنما هو نورُ

فهو في خد الزمان خال، وفي عين الدَّهر كحل يخال، وفي ثغر كوكبان لمن شام، لعس مستحسن وشام، كأنما هو مرود من السَّبج، تكتحل به عيون الحسان الموصوفة بالدعج، قرأ[1] وتهذّب، وجالس الأفاضل فتأدب، وكان يكتب من الخط حسنا، ويخلط في رياض الطروس بين أقلام الريحان سَوْسَنا، فخطّه أنفس من خط أخيه محمد المرحوم، الذي هو تلميذ والدي في المنطوق من العلوم والمفهوم، وكان هذا ينظم الشّعر وذاك لا، وذاك زَهرٌ في جنبات العرفان وذا كلا، إلاّ أني سمعت في شعره لحناً ولا كلحن الحمائم، قطت منه زهرات أدب لها من عدم الإعراب كمائم، مع أن له نظماً لا شك في حسنه ولا ريب، وله نفثات أقلام تسحر لولا ذلك العيب، وقد اخترت من نظمه قوله من قصيدة:

دمع الغمامَة من فوق الرّياض (همى) والزَّهر من دمعها ما زال متبسما
فانهض وباكر إلى اللَّذات مطرحاً أثقال همّ وكن للصفو مغْتَنما
فالطير يدعوك من فوق الغصون وذا نشر الصّبا بأريج المسك قد نسما

منهَا:

بي غادة هي روض في محاسنها تبدي أناملها من خضبها عَنما
غدا بها الدمع فوق الخد منتشراً وقد بدا درها في الخد منتظماً
لها المحاسن في الغِزلان قد قُسِمَتْ والوجد لي في هواها اليوم قد قُسِما
الردف والخصر منها إن مشت ومضت هذا من الثقل موجود وذا عُدِما
وصالها صار أشهى من معانقةٍ لِلْبُرء من جسد يا طال ما سقما

هذا البيت الآخر معناه من كلام النَّظَام، في مدح عبد الوهاب الثقفي المحدّث رحمه الله تعالى حيث قال: هو والله أحلى من أمن بعد خوف، وبرء بعد سقم، وخصبٍ بعد جدب، وغِنى بعد فقر، ومن طاعة المحبوب، وفرح

---

(١) في (ش) قوله.

المكروب، ومن الوصال الدائم، مع الشَّباب الناعم، انتهى كلامه.

ومنه قولي في كلام منثور أيضاً: وإذا أيام العمر، ألذّ من حلو بعد مرّ، وجَبْرٍ بعد صدع، ووصلٍ بعد قطع، وشرابٍ بعد ظمأ، وبصر حديد بعد عمى، وفرج بعد ضيق، ونديم بعد فقدان الرفيق، ولحم مع قَرَم، وشباب بعد هرم، وقَطْرٍ بعد اقفهرار، على روضٍ تفتحت فيه الأكمام والأزرار، وصوت هزار مِطراب، بعد نعق بوم وغراب.

وقولي في منثورٍ آخر: هو أحلى من النَّوم بعد الأرق، ومن الأمن بعد الفَرَق، ومن الإطلاق بعد الأسر، ومن الجَبْر بعد الكسر، ومن عتاب الحبيب، ومن مجالسة الأديب.

وقولي في منثور آخر: قربك أحلى من الشهد، وألذّ من غفوة الصبح بعد السهد، وأشهَى من وعد اللُّقَا، وأرق من دعاب غزلان النقا، إذا أجدّت في المجون، ودار شَرابٌ غير أجُوْن.

انتهى القسم الأول، ويتلوه القسم الثاني

في ذكر أفاضل صنعاء اليمن

بعون اللّه ومنّه

القسم الثاني

شعراء صنعاء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القسم الثاني

في ذكر أفاضل صنعاء اليمن من كل من تقلّد من علمه وأدبه بسمط غالي الثمن وسما بمعاليه قدراً، وبدر في سماء الفضل بدرا

لمّا هزّت عطفي، نسيم الشوق، وغردت لي على فروع الرحيل ذات الطوق[1] تذكّرت من صنعاء المحميّة سفحها، واشتنشقت من رياضها على البعد نفحها، وقد أعظمت[2] نار الأريحية في جوانحي لفحها، قمت إليها مبادراً، مسبلاً لرداء السفر سادرا[3]، لما طار من الليل غراب مجازي، ونعق الغراب الحقيقي بعبوري ومجازي، وقد تضوّع وفاح، في أثر مسك السحر كافور الصّباح:

كأنّ سواد الليل والفجر طالعٌ ... يلوح ويخفَى أسودٌ يتبسمُ

وقد فُتِح من الشرق باب، وبقيّةُ الأنجم في السما لؤلؤٌ متفرق أو حَباب، كالعقد إذا تبدّد في النّحر، والجوهر إذا تشتّت في المغاص مِن البحر، وقد انحاز جيش النجوم إلى الغرب، وانهزم من سيف صبح قد جرّد للضرب، وأمِنَت الغزالة، لما طرد سرحان الفجر أسد الظلام وأزاله، وطُويت من الدّرارى شباكها، وفُكّك من عُرَى الآفاق حباكُها، فخرجت من كناس الشرق، وما بينها وبين المليحة مِن فَرْق، وبقيّة الظلام في الآفاق، كباقي النّقش في كفّ رَعْبوبَة[4] قد حُطّت فيها أوفاق.

---

(١) الحمامة.

(٢) أعظم بمعنى عظم (معروف).

(٣) أي آت من غير جهته.

(٤) بيضاء حسنة رطبة حلوة وناعمة.

فتأهبت للسُّرَى بعد الصَّحو من خمرة الكرى، وركبتُ على ظهر نجائِب، لها في سيرِها عجائِب، وقد زمَّها الحادي وسَرَى بها، لا في اللَّيل ولكن في الهاجرة وسَرَابِها، آل التَّسيار، بها إلى آل، لا يُقطع بحره إلاّ على كلال.

يَـــغُـــمـــن مِـــنَ الآل فـــي لُـــجَّـــةٍ   إذا مـا عـلا الـشـخـص فـيـهـا رسـت

فَدَخَلتُ من تلكَ المدينة مصرهَا، وارتني بعد المّد في المسير قَصْرها[1]، دخلتها وقد آن من النهار طمسه، وفتح الغرب فمه لالتقام قرصِه وهو شمسه، وإذا أنا في رَوْضةٍ طلاها الأصيل بذهَبِه، وسماءٍ كَلُها النرجس النظيرِ شُهُبهِ، قد لبِست من النَّبات سندُسَا، وتَدَّرعت من مُدَّهِمَ الأسجار حُنْدُسَا، فدخلْتُ على الحقيقة جَنَّةٌ، هي للغريب من هموِمِه جُنَّة، فكأني في الفردوس نازِل، وللحور الوِلدان فيها مغازِل، فرشَت لي ديباج مروجِها، ورفعتني على أقصى ما يكون من بروجِها، لا يكشف عوارها فلها مِن أبوابِها سِتْران[2]، وليس لها في البركة قَدرٌ واحد بل قَدْران[3]، فلا يُنكر فضلها إلاّ من طبع على قلبِه فالطَّبع عليه قد رَان، ونِلت ما لم أقل فيه: ما خَلا وما عَدَا، لَمَّا تنفَّستْ رياضُها في وجهي لا كتنفس الصُّعداء، فعطَّرت بتنفسها أذيالي، وقامت غُصونها في وجهي تُرِيد بذلك إعظامي وإجلالي، ولم ألقَ من أَهْلِها إلاّ هُمَامَا، هَمَتْ عارِضَتُه[4] نُضَارا إذ العارض هُمَامَا[5]، يُعَدُّ في الأفاضل الفتَى، إن نَظَمَ أزْهَرَ الرَّوضُ في فصل الشّتَا، فزهر الغصن ضمن بنانه وطيلسانُه[6] من الأوراق طيٌّ لسانه، فهو ريحان مِصْرِه ووِرْد الأدب في عصره، من

---

(١) يعني به قصر صنعاء المشهور، وهو المعروف بقصر غمدان يقع على ربوة مشرفة على صنعاء من جهة الشرق.

(٢) تورية بباب ستران من أبواب صنعاء، وهو الباب الجنوبي لقصر صنعاء المذكور.

(٣) تحقق هذه التورية، وأظنه اسم موضع بصنعاء في ذلك الوقت والله أعلم.

(٤) العارضة: صفحة الخد، والعارض السحاب وهو المعنى هنا.

(٥) تورية: والهمام والمهموم السحابة الصّبوب.

(٦) طيلسان: كساء مدور لا أسفل له، لحمته أو سداه من صوف يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ، وهو من لباس العجم معرّب تالسان بالفارسية.

كل عارفٍ عالم، جَمْعُه للفضائِل جَمْع سالِم[1]، قد أدّاه علمه إلى الاجتهاد، فهدى[2] قومَه ولكل قوم هاد، بات في ليالي الطلب بِلَيْلَةِ أَنْقَد[3]، إلى أن انشق المشرق بصارم الصباح وانقد، وكاد سِرحان[4] الفجر أن يلفِظَ من فِيهِ الغزالة وكأن قَدْ، يُقَلَّد بفتح اللام في المذهب، ويُقَلِّد بكسرها الأعناق من أدبِه بالدُرّ والذَّهَب، فذاك التقليد يميز الحقّ من الباطل، وهذا التقليد يزيّن العنق العاطِل، وبهذا يَحْصل تَحصيل التقارض، وليس فيه مناقضة ولا تعارض، **ومن كل أديبٍ** قد لطف ففات الصَّبَا، وهام في رياض منثورِه ومنظومِه وصبًا، لا يكسب التراث[5]، بل يجعل الأدب خير ميراث، فَنَبات سُكَّرِه، مما يحلو في الأفواه طعم مكرِّره.

منهم: وهو أجلهم نُبْلاً، وأوضحهم في مناهج الفضل سُبْلاً، لَمّا امتطى من الثُّرَيَا الهامَة، ووفَّر الله عليه في أنظار العلومِ إلْهَامَه، فَجَاء بطريقةٍ أعيا غيرَه نَيْلُها، وفاض من أصَابعه بالمِدَاد نيْلُها، فهو إمام في الفنون، محقّق تعجز عن كنهِه الظُّنون، فاعل للخير فهو مرفوع، كامل فعلٍ لم يك بمدفوع، فأفعاله غير ناقِصَةٍ عن الكمال، مع أنها وُضِعت لتقرير الفاعل على صفةٍ ذات جمال[6]، فلذا جعلته لأهل هذا القسم قائدا، وأرسلت قلبي في جَنَبَات الأوراق لنبت أدبِه رائدا، فهو

---

(١) من مصطلحات النحو معروف انظره في كتب هذا الفن وقد سبق شرحه فيما مضى.

(٢) في (ش) فهذا قوامه.

(٣) من الأمثال يقال بات بليلة ابن أنقد قال الزمخشري: أي ساهر لم ينم، وابن انقد القنفذ كذلك. يقال اجعلوا ليلكم ليلة أنقد، وسرينا ليلة ابن أنقد وقال الطرماح:

فبات يقاسي ليل أنقد دائماً ويجدر بالحقف اختلاف العجاهن

انظر المستقصى ٢/ ٤ وفي الميداني ١/ ٩٧ بات بليلة أنقد وهو القنفذ معرفة لا تدخله الألف واللام.

(٤) السرحان هو الذئب والغزالة الشمس (معروف)، وهو يورّي بالسرحان وهو الفجر، والغزالة وهي الشمس. قال أهل اللغة وسمي الفجر الكاذب بذنب السرحان على التشبيه ومنه قول الحريري: إذ لألأ الأفق ذنب السرحان، أي الفجر الكاذب.

(٥) التراث: الأرث (معروف).

(٦) انظر في ذلك كلام النحاة على الأفعال الناقصة. وهما كان وأخواتها وكاد وأخواتها. في كتب هذا الفن.

أوّل درّة فيهم ضمَّها من هذا القسم السِّلْكُ، وغرة جواهر تناولتها ببنان الأقلام وحاشاهَا من مذلّة الملك، وأدبُه انداء زهرِ جناه القاطف، وألذّ مطعوم يقاوم الناطف[(١)]، وعنوان دنانير ضمها كِيْسى، ومبتدأ كؤوسٍ أدرتها على جَلِيْسي.

المولى الإمام ضيا الإسلام زيد بن محمد بن الحسن بن الإمام[(٢)]

أجهده الطلب فاجتهد، وشَمَّر فيه فوطأ فراشه على الفلك ومَهد، فلو كانت المجَرة نهرا، والسماء روْضة فتحت الزُّهر زَهْرا، لَوَرَدَ ذلك النَّهر بهمّته، واقتطف ذلك الزّهر بعَزْمَتِه، إمام جَرَّد نفسه للعلم تجريدا، وأفاض عيون المعارف للأعادي تَجْري دا، فهو في العلم ذو أيْد[(٣)]، فدع ذكر عَمْرُوٍ عند زيد، تَزيّنت به مدينة سام لأنه ذو محلٍّ رفيع ومقام سام، دَوْحَةُ عِلمٍ، وجَبَل حِلْمٍ، يتعب البحر من راحته، ويغار الروض من ساحتِه، لم يزل لأحداقِه في حدائق العلوم مُجِيلا، حتى سبق زُمْرةٍ من العلماء وجِيلاً، له من العلم والأدب مَجْدان، وفواد العلى لوُجْدانه وَجْدان، روضَتهُ يانعة، وحميّته لرتبته مانعة، وقد زيّن علمَه بوقارِه، ولم يستفزّه من الأدب مُدَار عُقَارِه، وكان في الصدور صدرا، يرفع له العظماء على منزله الشمس قدرا، يُنْظر بِعينِ الجَلالَة، لأنه وَرِثَ المحامد لا عن كلالة[(٤)]، ما ورد

---

(١) الناطف: نوع من الحلوى سمي به لأنه ينطف قبل استضرابه أي يقطر.

(٢) هو زيد بن محمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد ولد سنة ١٠٧٥ وبرع في علوم العربية ومن أشهر مؤلفاته المجاز على الإيجاز في البلاغة توفي سنة ١١٢٣. انظر ترجمته في ذوب الذهب (خ) والبدر الطالع ١/ ٢٥٣ ونفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١/ ٦٨٩ ونسمة السحر (خ).

(٣) الأيد: القوة.

(٤) الكلالة: من لا ولد له ولا والد وما لم يكن من النسب لحًا، ومن تكلل نسبه بنسبك كابن العم وشبهه أو هي الأخوة للأم أو بنو العم الأباعد، وما خلا الوالد والولد، أو هي من العصبة من ورث معه الأخوة للأم. وفي الصحاح: والعرب تقول هو ابن عم الكلالة وابن عم كلالة إذا لم يكن لحًا وكان رجلاً من العشيرة، ويقولون أيضاً لم يرثه كلالة أي لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحقاق. قال الفرزدق:

ورثتم قناة الملك غير كلالة ... عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

ندياً[1] إلا ضاق من التصاغر[2]، ولا دخل محفلاً إلا هوَى مِن أبانِه[3] السادات الغُرّ، تَنحط له عن الفلكِ الشمس، وتشير إليه اليمين بأناملها الخمس، وهو مع وقارِه وجلالتِه، يكاد يسيل من اللطف فلا تبقَى غير غلالته[4]، بحديثِه يزول الدا، وبمنطقِه ينهر الدرّ[5] رَدّا، فله قَوارير ألفاظِ تنم على ما حوته من شراب المعاني، كما نمَّت النَّسيم بلسان نشرِهَا على رياض المغاني، فإذا هي قد وصفت، مُدَامة أدبٍ بها رقّت وصَفَت، رأيتُه بدارِه دار الزوم[6]، وقد حلّ من عين الفَضْل محلّ النوم، وله إلى مخدّرات العلم أيّ طرب، وما لإنسان عينه غير ابتكار عقائل المسائل من أرب، وسمعت منه ما سمع النّشوان من الوتر، وغازلَتْني غاده مُرَاجَعَتِه بِطَرف قد ذبل وفتر، وهو ينثر من حفظِه الجواهر، ويُطْلع في النهار الأنجم الزَّواهر، من أدبٍ منسجم، كَمْ من ماردٍ بشهابِه قد رُجم، وهو في عنفوان شبيبَتِه، يرتشف من حسناءِ أيّامه ما يرتشفه الصَّبُّ مِن ثغر حبيبته، ثم رأيته بعد مُدَّة، وقد بلغ أشدَّه، وهو يُدَرِّس بالمدرسة[7]، ويُدلّي على من آوى إلى ظِلّه مغرسه، وكُلّ

---

(١) الندي: هو النادي مجلس القوم ومتحدثهم (معروف).

(٢) المهانة والاحتقار.

(٣) كذا في (ش) و(ب) وفي (ز): أربابه.

(٤) الغلالة: بكسر الغين شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع أيضاً، وفي المفصّل بأسماء الملابس لدوزى ٢٦١ الغلالة ثوب مفرط في الشفوف والخفة.

(٥) ينهر: يظهر أو يسيل، والدرّ معروف، ولعل قصد المؤلف غير هذا والله أعلم.

(٦) من الدور الكبيرة في ذلك الوقت، يقع شرقي صنعاء قريب من باب شعوب، وقد كان في الأصل من عمارة الإمام شرف الدين في القرن العاشر، ثم تحول إلى أملاك صاحب الترجمة، وفي سنة ١١٦٣ أمر المهدي عباس بعمارة دار النصر قبالة دار الزوم، ولهذه التسمية قصة طويلة. انظرها في نشر العرف ١/ ١٨١.

(٧) من المساجد العامرة يقع شرقي صنعاء غربي الطريق النافذة من باب شعوب، كان محله مسجداً صغيراً، قيل إنه من عمارة سعد بن أبي وقاص وكان يسمى المسجد الأزهر فوسعه الإمام المتوكل على الله يحيى شرف الدين سنة ٩٢٦ هـ وفي هذا المسجد قبر صاحب الترجمة. انظر (مساجد صنعاء للحجري ٩٦).

مُحَلّق حوله مُقَصِّرٌ عن سعيه[١]، قد أسام[٢] طلب الإفادة سوحِه فحظى بِرَعْيِه. ألّف كتاب المجاز[٣]، وأذِنَ للكون روايتَه وأجاز، فرواه عنه بلسان نَشْرٍ قد انتشر، وأذاعه حتى شاع بين الخواص من البشر، والمجاز أبلغ من الحقيقة، والكناية أحسن من التصريح عند من سلك من نهج المبالغة طريقَة، وفي بدرِه الذي لا يَعْرُوه مَحَاق، يقول المولى الإمام العلامة محمد بن إسحاق[٤]:

يا طالباً علم البلاغة إذ عفت ... آثار متبعي أبي يَعقوبِ[٥]
هذا المجاز على الحقيقة موصل ... للسالكين به إلى المطلوبِ

ولم يزل للدرسِ متجردا، متلفعاً من المذاكرة بأبدع رِدا، إلى أن أصابه دَاءُ الاستسقا، وهمل عليه عارِضه وَدْقا، وقد عجبت لروضٍ لمَّا سُقِي ذَوَى، ولِزَهرٍ ذَبَل لمَّا شَرِب وارتَوَى، فمات ودفِن بصرح المدرسة، وثوى منها بمكانٍ كان في الحياة مدْرَسَة، وعليه قُبّة تُزَار، لا برحت تُمطر ما غَرَّد الهِزَار، ومن شعره الذي بفضلِه أشْعَر، ولنار الغيظ في أفئدة الحساد أسْعَر، قوله[٦]:

من لي برشف رحيقٍ حَلّ في فيكا ... ففي الفؤاد[٧] حريق من تجنّيكا
سل المدامع عن حبّي فليس سوَى ... نجيعها بغرام الصبّ يُفْتِيْكا
أفديك من شادنٍ أسحار مقلتِه ... لا تستطيع لها الأفكار تَفْكِيْكا
وفاتِنٌ ما تبدَّى نور غُرَّتِه ... إلاّ وأصبح نور البَدْر مشكوكَا
وفاضح الغصن قدٌّ منه ذو هيفٍ ... دم المحبّ به قد صار مَسْفوكا

---

(١) هنا تورية بالتحليق والسعي وللحاج وفي معناهما اللّغوي المعروف.

(٢) أسام الإبل: أرعاها أو أخرجها إلى المرعى.

(٣) كتاب المجاز إلى حقيقة الإيجاز للمذكور هنا، شَرَحَ فيه مؤلفه كتاب الإيجاز للغياث الظفيري منه مخطوطة بجامع صنعاء. انظر كتابنا مصادر الفكر الإسلامي: ٣٨٨.

(٤) من أدباء عصر، سيأتي ذكره في كتابنا هذا.

(٥) أبو يعقوب إسحاق ابن السكيت من علماء اللغة انظر ترجمته في انباه الرواه ١: ٢٢٠.

(٦) أوردها زيارة في نشر العرف ١: ٦٩٥.

(٧) النشر «فؤادى».

بِدُرٍّ لفظِك قد صَيَّرت كل فتًى خُرْ على كل ما يرضيك مَمْلوكا
ولا محاسن للظبي الغرير ففي سموّ جيدك ما عن ذاك يغنيكا
إن قلت تفديك روحي فهي قاصرة فمن على الأرض بالأرواح يُفْديكا
حَلَلْت عقد اصطباري بالبعاد وقد حَلَلْت قلبي وقَلَّت حيلتي فيكا
ولم تمنّ بوصلٍ للمحبّ ومَا قد نال من زَفَرات الهجر يكفيكا
رضيت ما ترتضيه من تَلاَفِيَ إن كان التلاف لمن يهواك يُرْضيكا
فكن كما شئت إني لا أزال عَلَى عهدي القديم وقلبي ليس يسلوكا
واسلك بصبّك ما تختار من طرقٍ مسلوكةٍ أو طريق ليس مسلوكا
فليس عنك بديل في الملاح ولا أرى الملاح بمُغْنى الحسن تُحْكيكا
عَذّب بما شئت واصنع ما تريد سوَى تحريق قلب محبٌ فَهْو يأويكا

وقوله:

يا ساجعات غصون البان هل وجدت منكنّ ساجعة بعض الذي أجدُ
فقد تُشَابهني حالاً إذا سجعت حتى يُظن بأن الحال مُتَّحِد
وبيننا أيُّ فرقٍ فهي خاليةٌ عن لوعةٍ حرّها في القلب يتّقد
من أجل ذا خضَّبت كفاً وصار لها طوقٌ وغَنَّت على غصنٍ به مِيَدُ

وقوله[1]:

أحمامة الوادي لقد اشعلتِ في قلبِ المشوق من الغرام جحيماً
وسقيته كاس السجوع معتَّقاً لو لم يكن منه المزاج حميمَا

وقوله[2]:

ومهفهفٌ ما البَدْر عند جبينه إلاّ قلامَه
ما زال يستر ساقَه عن مغرمٍ يهوَى التثامَه

---

(١) انظر نشر العرف ١/٦٩٨.

(٢) انظر نشر العرف ١/٦٩٨ .

ويـروم كـشـفـاً عـنـد كـشـف (م) الـصّـبـح عـن لـيـلٍ لـثـامَـه
فـيـقـول دعـنـي إنَّ كـشـف (م) الـسـاق فـي يـوم الـقـيـامـه

وقوله:

يـسـألـنـي الـحـبّ وقـد شـاهـدت ... عـيـنـاه دمـعـي سـافـحـاً هـامـلاً
مـا شـأن هـذا الـدَّمـع قـلـت الـهـوى ... فـقـال لا قـلـت سَـل الـسـائـلا

وقوله[1]:

نَـظَـمَـتْ دمـي عـقـداً وتَـزعـم أنـه الـ ... يـاقـوت تَـثْـقُـن نـظـمـه وتـنـضّـدُ
وتـقـلـدت ظُـلْـمـاً بـه وكـأنـهـا ... لـم تـدر أن دمـي الـذي تـتـقـلـدُ

وقوله[2]:

وشـادنٌ مـجـتـهـدٌ فـي الـفَـتْـك بـي ... يـظـن سـهـلاً فـي هـواه مـا أجِـد
قـلـت لـه أنـت بـذا مـقـلـدٌ ... فـقـال لا غَـرْو فـإنـي مـجـتـهـد

وقوله:

وفـاتـنٌ فـاتـر طـرف لـه ... سَـهْـمـان أغـرَى بـهـمـا قـلـبـي
قـلـت لـه تـنـكـر قـتـلـي وعـن ... دمـي روى خـدّاك مـا يـنـبِـي

وقوله[3]:

جـمـع الـحـسـن فـأضـحَـى ... سـاكـنـاً بـيـن ضـلـوعـي
بـأبـي جـامـع حـسـنٍ ... وَقْـفُـهُ جـارى دمـوعـي

وقوله:

سَـلْ سـيـف جـفـنـيـك كـم أطـلّ دمـاً ... إن كـنـت لـم تَـدْر قـدر مـا سـفـكـا
واسـتـخـبـر الـدَّمـع عـن قـديـم هـوى ... حـديـثـه فـي الـغـرام مـا أفـكـا

---

(١) (٢) انظرهما في نشر العرف ١/ ٦٩٨.

(٣) نشر العرف ١/ ٦٩٧.

وقوله في ثقيل جاء هو وأخوه إلى مقامِه:

جـاء الـثـقـيـل وصـنـوُه ... وكـلاهـمـا فـرسـا رهـانِ
أو مـا كـفـاه إن أتـى ... فـرداً فـأوحـشـنـا بـثـانـي

ولما سمع بكتابنا المسمّى «عطر نسيم الصَّبا»، بالغ في استنشاقه لما تضوّع بعرف أيام الصِّبَا، فاستدعاه مرّة في إثر مرة، فبعثت من رقه نحوه محيّا عليه من المداد طرّة، وكتبت إليه صحبته من النظم والنثر قولي:

نـسـيـم الـصـبـا وافـى إلـيـك بـعـطـرِه ... وحَـيَّـاك مـشـتـاقـاً بـأطـيـب نَـشـره
روى طـيـب ذيـل بـلّـه واكـف الـنـدا ... عـن الـروض في وقـت الـربـيـع وزهـره
أتـى سـائـلاً مـن رقّـةٍ فـهـو سـائـلٌ ... لـه الإنـس فـضـلاً آمـلٌ غـيـر نـهـره
فـإن يـك مـن در الـكـلام يـتـيـمـه ... فـحـاشـاك مـن ردّ الـيـتـيـم بـقَـهْـره
وعـامـلْـه مـن حـسـن الـتـلـقـي بـسنَّـةٍ ... تـلـيـق وخـلّ الإعـتـزال لـجَـبْـرِهِ
بـقـيـت لـدهـرٍ قـد تـعـطّـل حـلـيـةً ... مـنـضـدةً كـالـدر تـبـدو بـنـحـرِهِ

المولى العلامة الأرفع، ومن شاهد فضلِه في الوجود لا يُدْفَع، البدر الذي ما له أُفول، واليقظ في أموره فلا يطمع فيه الغفول، ضياء الإسلام الساطَع، ومرهف المشكلات القاطع، زيد بن محمد بن الحسن، مدّ الله لجواده في التَّعمير الرسن، وأدام عليه من النعمة سَابغا، ولا برح مَاءُ إفادته من كل جهةٍ نابغًا، وعليه من السلام أوفره، ومن الإكرام ما يضوع أذفره، سلام تشدو على غصون هذه السطور حمائِمه، وإكرام يَهْطل على روض مقامه المنيف غمائِمه، حمائم ألحن من قينتي يزيد[1]، وغمائم لا يبرح صوتها كل ساعة في مزيد، ما هَدَت الحائر فوائده، ومُدَّت بطعام العلم وهُزَّت من قضب أقلامه موائِده، وردّد طَيْر الفصاحة الجميل،

---

(١) قينتا يزيد، هو يزيد بن عبد الملك كان له قينتان هما سلاّمة وحبابة يضرب بغنائهما المثل فيقال ألحن من قينتي يزيد قال الزمخشري: وكانتا ألحن قيان النساء في دولة الإسلام ومن فرط استهتار يزيد بن عبد الملك بحبابة أهمل الخلافة وتخلى بهما. (انظر المستقصى ١/ ٣١٤).

على غصن يراعِه المهدول الهديل، هذا وإنه ما زال يَسْتدعي مؤلفنا عن شوقِه، ويضدح طائِره في التطلّع إليه بما خرج عن حَدِّ طوقِه، وهو (عطر نسيم الصّبا) وشقيق زهور الرُّبى، وصرتُ من إرساله بين إقدام وإحجام، لأنّي إن أرسلته كنت كمن أدار الماء الآسِن على من لديه معتّق الجام، فإنه المؤلف الذي لم يحمد في ليل المداد سُرَاهُ، ولم يوافق موضوعه اسمُه فسماعك بالمعيدي خير من أن تراه[1]، ما هو إلاّ أهون من تبالة على الحجاج[2]، وأخف من سمسمة[3] على ظهر البحر العجاج، وأحقر من سقى زهرةٍ واحدةٍ على الغيث الثَّجاج، بل هو أضعف من قارورةٍ بلا خمر، وأغدم في النفع من كانون بلا جمر، فلا يستسمن أيّده الله تعالى ذا وَرَم، ويَطَّمع من الرَّماد في اقتباس الضّرم، ولكني لم أجد من تَجْهيزه إليه بُدًّا، ولم أعمُر بيني وبين امتثال أمرِه سَدًّا، فعدم طاعته مما لا يستطاع، ولله در عبدٍ امتثل أمر سيده وأطاع، ذلك عندي أصعب من رد الجموح، وأثقل من الظِنَّة بالحقير على الكرم السموح، فصَدَر إلى شريف حضرته على استحياء، وأنا من الخجل أعدّ في الأموات لا الأحياء، وهل أهدى درٌّ إلى يَمّ، أو سِيْق القطر النزر إلى الدِّيَم، أو رمي بزهرة واحدة إلى روضٍ وارف، أو كسى عباة من على أعطافِه رقيق المطارف، أو اتحف مغاص الدر بالحصَى، أو الرمح الخطي بالعصا، أو غزال المسك بالتراب، أو الحمام الصادح بنعب الغُراب، ما أضيع السراج لدى الشمس، والبجاد الخشن عند الاستبرق النَّاعم في اللمس، والمرأة الشوهاء عند الغادة الجميلة، والعَنْز السائمة عند ظَبْي الخميلة، ولكني أعلم منه قبول ما أهْدِي، وتجاوزه عن حَنْظلي القادم عليه لا شَهدي، كما عُهد من أخلاقه المعروفة، وسماته الممنوعة عن غيره وهي في كسب المحامد مصروفَة، وسلام عليه ما نزل بربعه

---

(١) مثل. أنظره في المستقصى ١/ ٣٧٠.

(٢) مَثَلٌ. شرحه الزمخشري بقوله: هي بلدة باليمن وليها الحجاج أولاً فسار إليها فلما قرب منها قال للدليل: أين هي؟ قال: تسترها عنك هذه الأكمة فقال: أهون علي بعمل تستره عني أكمة. ورجع عن مكانه (المستقصى ١/ ٤٤٥).

(٣) في الأصول: سمسه.

نازل، وأجدّ في المسير إليه ما ليس بذي سمنٍ ومن العجيب أن يجدَ الهازل، يدوم ما محا الصبح الليل وأزاله، وولد سرحان الفجر وقد مدّ ذَنبه الغزالة، فرضَعَتَ درّ الطل الغزير، من أخلاف الأشجار وأكمام الرَّوض النَّضير، والسلام.

فأجاب بقوله:

ألا حبّذا بحر حبانا بِدُرِّه ... وأفق معالٍ قد هَدَانا بزهرِه
أتى منه عطرٌ قد تضوّع نشره ... فهاج به الوجد الدَّفين بجَمْرِه
ودلّ على فضلٍ لمُنْشِئِه لم يكن ... يقابل من ذي الفضل أصلاً بنكرِه
وهيّج منّا الشوق نحو مؤلفٍ ... له فاد منّا في الورى طِيْب ذكرِه
خطيب بيانٍ إن رقى فوق منبرٍ ... فَدَعْ ساجعاً في الرَّوض ما بين زهره
فدام على مَرِّ الزمان منعّماً ... ولا زال ما ضاعت نَوافِجُ عطره

القاضي الفاضل حقيقة، الناهج بمحاسنه أغرب طريقة، العارف علماً، والأديب نثراً ونظماً، خطيب العَصْر إن قيل أين خطيبُه، والسّاجع من المنبر على غصنٍ مال طرباً لفِقَرِه وطيبُه، شمس العُلا وشهابُها، أحمد بن محمد بن الحسن الحيمي الكوكباني زَهَتْ به من المدارس رحابها، ولا زال بالعلم موصوفاً، وبالأدب الغضّ معروفاً، وأتحفه السلام بعطرٍ يطيب طِيْب عِطْره، ويتضَوع في أفق محاسنه تضوّع ذكره، هذا وإنه وصلنا مؤلَّفُه النفيس، ومحرره الذي يظلمه من بالدرّ له يَقيس، فدخلنا منه رياض آداب قد تدلَّت غُصُونها، ومشينا منه في حدائق قد تدَفّقت بالماء العذب عيونها، ونشرنا قراطيسه عن عطرٍ فائح، وخلنا سحاب أوراقه، وإذا برق الإجادة من جوانبها لائح، فللّه درك أيها المنشىء لأعطافنا بما أنشا، ولله أدبك الذي طرّز ملابس علمك ووشّى، ما رأينا لمؤلفك نظيراً، ولا للفلك في ليل مِداده سميراً، لقد تمكّنت قدمك في الفَصَاحة غاية التمكين، فَذَبح القضاة لديك نفوسهم للغيرة والحسد بغير سكين[1]، فاللّه يُبْقيك لهذا العصرِ زينة،

---

(١) إشارة إلى قوله (ﷺ): من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين: أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً به.

ولا فَجَعَنَا برحلة فضائلك عن ربع للعُلا هي به قَطِينة، ولا زالت أقلامك لكل مُعْجز قَرينة، والسّلام الأتمّ الأوفى، يتعاهدك برحيقِه المصَفّى، ما دام في الوجود ذكرك يطيب، ومنابر المجامع تفتخر بك أيها الخطيب.

المولى العَارف محمَّد بن عبد اللَّه بن الحسين بن الإمام القاسم[1]:

جوهرة استخُرجت من بحر الحسب، ودوحة امتدت فروعها في روض من شريف النسب، فَرْعٌ بَسَق في أزكى المنابت، وفاضل لو كان فضله للنجوم لكانت جميعها ثوابت، تطرّز به كُمُّ المجد، وهامت به العلياء عن وَجْد، وجرت النَّسيم تلتمس مثله في السّهل والنجد، فما أَلْفَت له شبهاً تعطّر بحديثه ذيلها، وتهدي طيب ذكره إلى الغصون فتكثر ميلها، قمرٌ اتخذ الفخار منزلةً وهالة، وثابت لا يرهب خوض بحرٍ من العلم رَاعَ غَيره وهالَه، وعقدٌ لاح في جيد العُلا فعقد الغواني عن تصاغرِ وَهْي له، اختط له داراً مقام النجم الساري، لما فاح عرفه[2] طيباً فقال له: هذا على الحالين داري، إمام علوم، وحاسم كلوم، سيّما في الفقه وفنّه، فهو للمستفيد فوقه ظنّه، فالبحر لديه وشَل، يطرؤ لمصنفه عند مراجعته الفشل، والبستان ذاوي الأوراق، مقفهر[3] الجوانب بعد منظره الذي راق، والغَيْث والوابل عنده زنين[4]، وكل باب في الفقه غناؤه مع التدفيف المثلث أنين، مع خط يسلب الحجى بمشقه[5]، وكل قوسٍ من نوناته يصيب المهج برشقِه، كأنه نقش العَذَارى أو رَقْم العِذَار على خدود غضَّة، أو شباك السَّبج مدَّت على أرضٍ من الفضَّة،

---

(١) هو من الأدباء المحققين مولده بذمار وأخذ عن علمائها حتى برز وفاق مشايخه في علوم الفقه وانتقل إلى صنعاء، وفي سنة ١٠٩٤ رحل إلى يافع ثم عاد إلى صنعاء، توفي سنة ١١٣٦. (انظر ترجمته في نسمة السحر (خ) ونفحات العنبر (خ) والبدر الطالع ٢/ ١٩٠ ونشر العرف ٢/ ٦٧٤ _ ٦٨١).

(٢) علق في (ب) على هذه اللفظة بقوله: لو قال مسكاً كان أنسب بالداري.

(٣) مقفهر: مكفهر: ضارب لونه إلى الغبرة مع تعبس.

(٤) زنين: مطر قليل.

(٥) مشق في الكتابة مد حروفها.

رأيتُه بكوكبان زاد سموا، وغُصنه الريَّان يطول في روض الشباب نمُواً، وعذاره أسود من الليل، ونشاطه أسبق من الخيل، في زمنٍ هو العمر، ومروج الإقبال تسرح فيها الظباء لا الحُمر، وعيش الصَّفْو والنعيم، أصفى من الماء القراح فرَّكَتْه النسيم، والدَّهر كله نَيسان، والزّمن لا يعرف الإساءة وإنما يعرف الإحسان، فساجلتُ منه ماجداً لبيباً، وجالست من يُعدّ لحسم داء الحزن طبيباً، ولفظه كالدرّ من الصّدف قد انسلّ، فعلمت أنه آخر من أُرسِل بالبلاغة وما بَعْد محمد بن عبد الله من مُرْسل، مع حفظٍ للآداب عظيم المجال، وطيب إنشاد ترقص عند إنشاده ذاتُ الحجال، وصناعة تعبير تَخْلب لديه ألباب الرّجال، ثم رأيته بصنعاء بعد دَهر، لما قُطف من شبيبته أطيب زهر، وقد ابيضّ فَوْده وعارضاه، والدَّهر لم يسُدّ سَمْعه عنه فيسخطه وإنما عارَضَاه، وله مع المشيب، بُرد لطافَةٍ قشيب، فقطَفْتُ بأنامل المراجعة ثَمَره، واسْتَطَبْتُ في ليل المحاورة سَمره، وانتفعت بفوائده، وأكلت الأطايب من موائده، وردتُ نهره، وشممت زهره، ولاحت لي أنجم هدايَتِه، في نهاية الحديث وبدايته، كأنها الزَّهر المصون، بين غُصُون الرطيب من الغصون، ولما خرج عن مدينة صنعاء مهاجرا، ونفر عن إمام الزّمان منابذاً له مُشَاجِرا، لأمرٍ أحرج صدره، ووضع عنه قدره، ومَحَق بعد الكمال بَدْره، طمع في نيل الخلافَة، وبادر إلى فَضّ المختوم عن السلافة، فوصَل قرية الرَّجو[1]، صحبه قومٍ لم يبلُغوا ما رجوا، جرت الرياح بما لا تشتهي السُّفن، وأفاق عن سكرة رأيٍ قد أفِن، وعلِم أن حول الخِبَا، أسُود رابِضَة تحت ظِلال الظُّبَا، لا يمكن معها اقتناص غزال مِن سِرْب الظِّبَا، فَعَضّ من النَّدم أَنامله، لمَا بدا لنَفْسِه ما لم تكن له أمِلَة، ولَمَّا أَيِسَ عن وُصُولِهِ إلى الحَسْنَا، إذْ أَعرضَت عن مغازلتِه بمقلتها الوسنى، ثارت عليه الحرَارة، ورماه الغَيظ بِشَرارة، جار عليه الجيَّار[2]، واعتَرَى طبيعته

---

(١) الرّجو: قرية من أرحب في الشمال الشرقي لمدينة صنعاء بمسافة خمسة ك.م.

(٢) الجيّار: حرارة في الصّدر من غيظ أو جوع أو سعال وفي اللسان ٤/١٥٧. الجيار الذي يجد في جوفه حرّاً شديداً والجائر والجيار: حرّ في الحلق والصدر من غيظ أو جوع. قال المتنخل الهذلي وقيل هو لأبي ذويب:

كـأنـمـا بـيـن لـحـيـيـه ولـبّـتـه   مـن جُـلْـبـة الـجـوع جـيّـار وارزيـز

الغَيار، فاحترق جسده وتفجّر، واختطّ أَجلُه بقعة ضريحِه وتحجَّر، فمات في بعض القُرَى، وانفصمت منه العُرَى، وأصبح من قبرِه منبوذاً بالعَرَا، في محلٍّ لا يزوره فيه زائر، ولا يطأ تربتَه من أهل وُدّه أسدٌ زائرٌ، حيث النّسيم سَمُوم، والأفراح همومٌ وغُمُوم، بين قومٍ أضداد، ليسوا له بأنداد، إسلامهم مُختل، فذيله بالماء الحميم مُبْتَل، اللهمَّ أنْس بقربه منك غربتَه، ولا تَسْقِ من الأرضِ الجُرْز إلاّ تُرْبَتَه، وله نَظْم يُبْهى وَيَبْهر، وليتيم الدرّ يَقْهر.

كَتَبَ إلى مولانا الوالد يخطب من محاورتِه حسنَاء خَوْده، وَيَسْتدعي منه سَيْرَة[1] والده التي وضعها بعد رجوعه من ديار الحبشة وعوده، من النَّثر والنظم وذلك في شهر رجب الفرد سنة ثمان ومائة وألف ما صورته:

صَدْر مجالس العلم على الإطلاق، وواسطة عقد الأدب الذي تُزَان به الأعناق، وكَوْكب المجد المشرق غاية الإشراق، وإنسان عين العلماء الأماجد، والمفرد في فضلِه على رغم أنف الجاحد، والواحد المشار إليه إن قيل أين ذلك الواحد:

محمد بن الحسن المنتقَى	من أحمد الحيمي عين العيون
قرة عين المجد بل روحُه	صدر قضاة العصر حاوي الفنون

رفع الله شأنه وتولاَّه، وصانه في أمنع حرز من حراستِه وكلاه، وعليه من السلام جزيله، ومن الإكرام ما يعظم نَزِيلُه، هذا وأنها صدرت هذه البِطَاقة[2]، باسمة الثغر في وجه من توجهت إليه عن بِشْرٍ وطلاقة، مجدّدة بكم عهداً، ومذكرةً

(١) يعني سيرة الحبشة (سبق ذكرها).

(٢) البطاقة رقعة صغيرة يثبت فيها مقدار ما يجعل فيه (أي في الثوب) إن كان عيناً فوزنه أو عدده وإن كان متاعاً فثمنه، قيل سميت بذلك لأنها تشد بطاقة من هدب الثوب فتكون الباء حينئذٍ زائدة يقول البستاني: وعندي أنها معربة بتاكيون باليونانية بمعنى الورقة والرسالة ومنها حمام البطاقة لأنها كانت تعلق برجله فيحملها من مكان إلى آخر ولعل بطاقة الثوب مستعارة من هذه لمشابهة بينهما (محيط المحيط ٤٤).

لكم وُدًّا، وموصِلَةً إلى مقامكم العالي شُهْدا، ومهدية إليكم من الأدب الغضّ أفضلُ ما يُهْدَى، ولا أقول كما يقال، على لسان من تمادَى عليه البعاد وطال المِطَال، من غاب عن الناظر[١]، واسترسل به النَّوى غاب عن الخاطِر، بل أقول، وأنشد ما ينشده ذوو العُقُول:

سيبقَى لكم في مضمر القلب والحشا ... سريرة وُدٍّ يوم تُبْلَى السرائرُ

وصدرت هذه الأبيات عن لفظها الموزون، عسى أن تكون باعثةً لكم على مَا يَسْتروح به القلب المحزون، وقد طال العهد بمثلها زمانا، حتى ما ظننت أن القريحة تريكم حَصَى فضلاً عن أنها تنظم جُمَانًا، فقابلوها بالقبول، وأجبروا خاطرها كما هو المظنون فيكم والمظنون والمأمول، وذلك حيث تنطق بمقامكم الأرفع فتقول[٢]:

في أفرق الثغر النَّظيم ... هواي لا في ريم حاجِر
قمرٌ أبات لأجلِه ... جَنْح الدُّجى أرعى الزَّواهِر
وغَدَوْت من كَلَفي بِهِ ... مثلاً من الأمثال سائِر
غصنٌ من العقيان معسول (م) اللَّمى المسكي عاطِر
عذبُ الثنايا طرفُه (م) الفتَّان للألباب ساحِر
سامي التليل[٣] مُوَرَّد الـ ... خدَّين ساجي الطرف فاتِر
كالغصن ليناً ينثني ... بين القطائف والصراصِر[٤]
وله من البلّور جسم ... ناعم الأعطاف ناضر
ريم ولكن كم سبَا ... بلحاظه الأسد الخوادر
يهدي بضوء جبينه ... من ضل في ليل الغدائِر

---

(١) أصله من المثل العامي من غاب عن الناظر غاب عن الخاطر.

(٢) انظرها في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ٢/ ٦٧٦.

(٣) التليل: العنق.

(٤) القطائف جمع قطيفة، والصراصر من ملابس النساء في ذلك الوقت.

دع ذِكر غزلان الحمَى ... إن ما ذكرت وريم حاجر
وإذا ظفرت بمثل من ... أهوى فقُلْ[1] إن كنت قادر
لكن وأين نظيره ... هيهات عزَّ له المناظر
مَا الْبَدَر ما شَمْس الضُّحَى ... تُحْكيه حسناً وهو سافِر
كم قُلْت للبدر المنير ... وقد بدا في الأفق زاهر
هَب إنّ قد حاكيته ... وجهاً بديع الحسن باهِر
أتراك تحكي شعرَه ... متجعُداً والفَرْقُ ظاهر
وإليك يا قاضي القُضَا ... ة الغرّ يا زين المحاضِر
يا واحد البُلَغا الذي ... تسمو بطلعته المنابر
نَظْماً من السحر الحلال ... بمِثْله تزهو الدفاتِر[2]
أنشأته عن قادحٍ ... ما زال طَرْفي منه ساهِر
وأرحت فِكْرك من عِتابِ ... دونه ضَرْب الخناجر
وطويت ذكرك للجفا ... من ريم حاجر فهو نافِر
ووعدت نَفْسي إن للـ ... هجران هذا منه آخر
ولِلَيْل هذا الصَّد صُبح ... أبلج بالنُّور سافِر
فأجز نظامي أنت أفصح ... ناظِمٍ عندي وناثر
ولك الكلام العذب والنـ ... ظم الذي يُزْري الجواهر
واسمح بعاريةٍ لسِيْرة ... من غدا عين الأكابِر
أغْنِي به الحسن بن أحمد ... بَدْر هالات المغافِر
أصل نماك بِظِله ... ظِل العوامل والبواتِر

---

(١) في (ز): فصل.
(٢) جمع دفتر معروف، وفي المحيط الدفتر جماعة الصحف المضمومة يستودع بها الحسابات ونحو ذلك من الأعمال التي يراد حفظها، قيل أصله الكتاب المكتوب، ثم استعير لما لا كتاب فيه (فارسي معرب).

فـلـنـا إلـيـه تـشـوّقٌ شـوق الـغـصـون لـسَجْـع طـائـر
ولـك الـسَّـلامـة والـكـرا مـة مـا سَرَى فـي الـلـيـل سـائـر
وبـقـيـت لـلآداب رُكْـنـاً شـامـخ الـبـنـيـان عـامِـر

المولى السيد العلامة الحسن بن الحسين بن القاسم(١)

بحرٌ خافق، ونهرٌ دافق، شمس معارف طلعت من فلك المجد، وروضة علم تضوع نشر أزهارها ما بين تهامةٍ ونجد، ذو الهمة التي بلغ بها من شامخ الفخر القمّة، زاكي المَنْبت، وثيق الحبل الغير المُنْبت، حكى جده الحسن بن علي، فيما يعدّ به بين أترابِه ذا النَّصِ الجلي، وجانَسه في الخلقِ والأخلاق، إلاّ أنَّه منكاح لعرائس المعالي غير مِطْلاق، إمامٌ تفرَّد بعرفانِه، واشترى نفائِس الفرائد بنوم أجفانِه، مَا مَاج [أحدٌ] بحر علمِه إلا توقع الغرق، ولا أشرعت أرماح أقلامِه إلاَّ أصاب جيش الجهالة الفَرق، فإذا كان في حلِّ المشكلات مُرْتَجَى، فتح بمفتاح قَلَمِه باباً منها لم يزل مرتجا، ما أقرأ في فَنٍّ من الفنون، إلاّ أبرز جنَّةً تحفها نهورٌ وعيون، وأمَّا في علم المنطق فإنه واحده، وابن بجدته الذي قام على ما يدَّعيه فيه شاهده، يعرف فيه **الإيجاب**(٢) ولكن من قلوب عداه، **والسلب** ولكن من أموال مخالفيه الذين قَصَّروا عن مَدَاه، لم يخالف أربابه بعيبٍ فيه ولا دُنَس، إلا أنه **نتيجة** فضلٍ لم يوجد في **مُقَدَّمتي** أبويه الأخس، ففي علمه **الآلي**، هو المقدم وغيره التالي، قضَيّته فيه كُبْرى، وقضية من رام مزاحمته صُغْرى، كلماته المقبولات،

---

(١) هو علاّمة عصره في ذلك الوقت مولده بحصن ضَوْران سنة ١٠٤٤ وارتحل في سنة ١٠٥١ بعد وفاة والده إلى ذمار فأخذ بها عن العلامة الهادي بن أحمد الجلال ثم رحل إلى صنعاء واستوطنها وله مؤلفات كثيرة من أشهرها شرح الورقات للجويني ووفاته سنة ١١١٤، انظر ترجمته في (نفحات العنبر) (خ) ونسمة السحر والبدر الطالع ١/١٩٧ ونشر العرف ١/٤٦٨ وكتابنا مصادر الفكر الإسلامي ٥٥٦ وفيه مؤلفاته.

(٢) هنا يأتي المؤلف بمصطلحات أهل المنطق: «الإيجاب» «السلب» «المخالفة» «النتيجة» «المقدمة» الخ وذلك لشهرة صاحب الترجمة بهذا الفن.

تَؤول بالمجادل من حَيْرَتِه إلى **المظنونات**، لا يعرف في مراجعته **المغالطة**[١]، ولا يخطى **وهميَات**[٢] المبادي له **بالسَّفسَطة**[٣]، **فمركَّب** غيره فيه **ناقصٌ** ومركبه **تام**[٤]، **ودلالته بالوضع** فيه مسكُ الختام، له فيه أعلى المراتب، وفلك العرفان الذي يهوي عنده النجم الكاتب[٥]، صَنَّف وألَّف، ولاح في منازل العلوم بدراً وما تكلَّف، فآثاره تدل عليه، ومحرَّراته تسوق حَمْل الثناء إليه، وهو الآن في العصر شمس الضَحى، وقطب الإفادة الذي دارت عليه الرّحى، إلا أن زهرته التي لم يشنها الذَبول، متفتّحة بنسيم اللّطف في خمائل الخُمُول، فقَلّما تمتَّعت به العيون، والدرّ يَزْداد حسناً إذا وُصِف بأنه مكنون، فهو من خبايا الزَّوايا، وممن يَوَدّ أن لا يظهر ما له من حميد السجايا، كم عكف في بيته على بساط الإستراحة، وكم ورد من منهل التفرغ والتجرُّد قراحه[٦]، وله في التَّصوف والطريقَة، مشرب أوضح به سَبيله وطريقَه، وله خَطٌّ كالعذار، إذا دبّ في العارض واستدار، فهو روضٌ زهوره غضَّه، إلاَّ أنَّ نباته من السَّبج[٧] وأرضه من الفضَّة، وأشعاره حسنة، لم يقف أحدٌ فيها سننَه، منها قوله:

---

(١) المغالطة قال في التعريفات ٢٨٥ ط دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٥: قياس فاسد إما من جهة الصورة أو من جهة المادة أما من جهة الصورة فبألا تكون على هيئة منتجة لاختلال الشرط بحسب الكيفية الخ. وأما من جهة المادة فبأن يكون المطلوب وبعض مقدماته شيئاً واحداً وهو المصادرة على المطلوب.

(٢) الوهميات: هي قضايا كاذبة يحكم بها الوهم في أمور غير محسوسة كالحكم بأن ما وراء العالم فضاء لا يتناهى والقياس المركب منها يسمى سفسطة (التعريفات ٣٣٠).

(٣) السفسطة: لفظة مشهورة من الكلام اليوناني. وهي الاستدلال والقياس الفاسد أو الذي يقصد به التمويه والباطل.

(٤) المركب الناقص والتام من مصطلحات المناطقة. انظرهما في التعريفات ص ٢٦٩.

(٥) هو نجم الدين علي بن عمر بن علي الكاتبي القزويني ويقال له دبيران حكيم منطقي من تلامذة نصير الدين الطوسي من أشهر مؤلفاته الشمسية في المنطق وحكمة العين، توفي سنة ٦٧٥. انظر ترجمته في ابن شاكر ٢/٦٦ والاعلام ٤/٣١٥.

(٦) القراح: الماء الزلال.

(٧) السّبج: الخرز الأسود (فارسي معرب).

ما لاح برقٌ على أوطان نعمانِ　　إلاَّ وهيَّج أشجاني وأشجاني
حلا الهوى لفؤادي مذ حللتِ به　　يا مُذهِباً بالجفَا صبري وسُلواني
ما لي ومَا لعذولي في هواك وقد　　أبَحْت قتلي بطرفٍ منك وسنانِ
دام العذاب لقَلْبي في الغرام فإن　　أرضاك إتلاف روحي فيك أرضاني
باللَّهِ رِقّوا لحالي في محبتكم　　فقد رثا لضنائي كلُّ إنسانِ
نيراني قلبي في الأحشا قد اضطرمت　　فلا رعى الله من في الحب يَلْحاني
دع عاذلي عذَلي فيما مُنِيت بِه　　فمسمعي رجبٌ عن قول شعبانِ[1]
إن رمت كِتْمان وجدي خانني سقمي　　ومدمعي وصباباتي وأحزاني
ومَذْهبي في الهوى أن لا أبوح بِه　　إلاَّ إلى من برا جسمي وأضناني
دَعَوت ربي أن أحظا بوصلكم　　فطال صَدّي وإبعادي وهجراني

السيد العلاَّمة الزاهد صَلاحُ بن الحسين الأخفش[2]

الماهر بصنعاء الخبير، وإمام المحراب فيها بالجامع الكبير، فهو إمام همام، أقام الفضل بناديه فما زيارته[3] له لمام، سيّدٌ ما في السّيادة لغيره نصيب، ولا لغرضها أبداً سواه ذو سَهْم يصيب، مُفيد في كل العلوم سابق، مسك [مداده][4] بنفحات العرفان عابِقْ، وأمَّا في النحو فهو إمام، وروض تضحك فيه زهور الكمام، أحيا بفوائده ذكر من سلف، فالأخفش[5] فيه صار خلفاً عن خلف، لو

---

(١) علق في (ب) على قوله هذا: رجب تسميه العرب الأصم وشعبان العاذل فما أحسن هذا التلميح ومثل قول المتقدم عليه:
يلومني العاذل في حبّه　　وما درى شعبان أني رجب

(٢) عالم ومجتهد من كبار علماء الزيدية ولد بصنعاء وأخذ في النحو عن إبراهيم بن أحمد السحولي عن القاضي علي بن يحيى البرطي وغيرهما وتولى بمسجد داود إمامته ثم بجامع صنعاء، ووفاته سنة ١١٤٢. انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) والبدر الطالع ١/ ٢٩٦ ونشر العرف ١/ ٧٨٩.

(٣) في (ز) رناته.

(٤) ساقط في (ب) و(ش).

(٥) إشارة إلى الأخفش العالم النحوي وهم ثلاثة الأخفش الكبير وهو: عبد الحميد بن عبد المجيد والأخفش الأوسط وهو: سعيد بن مسعده. والأخفش الصغير وهو: علي بن

أدرَكه ابنُ متَّوَيْه[١]، لقال عند هلاكه من الغيرة مُتُّ ويه، فهو عالم عنده مقصد الطَّالب وبغية المريد، وكريم ذهبت إحدى كريمتيه فهو من العينين وفي الفضل فريد[٢]، كأنَّ عينه غارت، فتفجرت ينابيع علم من صدره فارت، أو كأنه لما رمى بسهم كأنه عن قوسِ عِرفَانه، أغمض أحد عينيه فاستترت تحت أجفانِ، فله عين أصابت من المناظرين له كلَّ عين، وعينٌ أصابتها عيون المشغوفين، بسماته فوقت سائر خصَاله الشين، فعَوره لا يُعد عيباً، ولا يشق له من حُلَل اسم تفضيله على غيره جيباً:

لولا استخف العالمين بأسرهم ... ما صار ينظرهم بعينٍ واحده

وهو بالعفاف أخلا الناس من الهم، فهو في حلبة الزَّهادة يسابقُ ابن أدهم[٣]، فقد شَقّ غُبارَه وعجاجه، وصرف نفسه بعنانِه فما جمحت إلى لجاجَة، لمَّا ركب من القنوع سرجا، وأَنِف من الدنيا عن ركوب العرجا[٤]، ووضع قدمه على أقوى ركاب، وألجم نفسه بلجامٍ لا يُشبهه لجام سَكاب[٥]، لا يلتفت من الدنيا إلى

سليمان بن الفضل انظر تراجمتهم في انباه الرواة وغيره.

(١) ابن متويه: هو الحسن بن أحمد بن متويه من تلاميذ القاضي عبد الجبار من أشهر مؤلفاته: التذكرة طبع منها الجزء الأول توفي سنة ٤٦٩ (فضل الاعتزال ٣٨٩) قلت: قد يشتبه بعلي بن أحمد ابن متوية الواحدي صاحب التفسير وأسباب النزول وشرح ديوان المتنبي المتوفى سنة ٤٦٨ ولكن المعني في اليمن هو المذكور أولاً لأن شهرة كتابه في اليمن أوسع من الثاني.

(٢) الفريد في اللغة الوحيد. والفريد في كلام أهل اليمن يطلق على الذي لا يبصر إلا بعين واحدة (أعور).

(٣) الأدهم من الخيل الشديد الوُرْقة سواد مع إحمرار وابن أدهم الصوفي المعروف.

(٤) العرجاء: الضبع والعرجا لقب للدنيا.

(٥) سكاب: اسم فرس كانت لرجل من بني تميم فطلبها منه بعض الملوك فمنعه إياها وقال:

أبيت اللعن إن سكاب علق ... نفيس لا تعار ولا تباع

مفَدَّاة مكرَمة علَيْنا ... يجاع لها العيال ولا تجاع

سليلة سابقين تناجلاها ... إذا نسبا تضمهما الكراع

فلا تطمع أبيت اللعن فيها ... ومنعكها بشيء يستطاع

انظر: أسماء الخيل لابن الأعرابي ص ٦٢ط بريل وأسماء خيل العرب للغندجاني ط بيروت ١٩٨٢ والمخصص ٦/١٩٥ والحلبة ٩٣ وحلبة الفرسان ١٨١ والقاموس والتاج (سكب) والأقوال الكافية للرسولي ٣٢٣ تحقيق الدكتور يحيى الجبوري.

زُهى[1]، ولا يلهج في حُطَامها ولذا أن العصر بِه زَهَا، ولا يرى هَذِه الدار لسهام مطمعه غرضا، ولا يرتضي بدلا عن جوهر الآخرة منها عَرضا، فهو لا يشكو في الزخرف تغابُنَا، ولا يحتفل بما كسبه المتهالك وبنى، يَرى التحريم في الملك[2]، لمَّا توفر منه الحجر وركب في بحر المعاطِبِ الفلك، فالدنيا لديه مقلوَّة، وإن كانت بالنفائس مقلوَّة:

ومـا حُـسْـن بـيـتٍ لـه **زخـرفٌ**	تـراه إذا **زلـزلـت** لـم يَـكُـن

وله إلى الاعتزال اعتزِا، فلم يزل لردن عرفانه بالخمول مطِرّزاً، فهو عن الناس ذو نفور، وبدرِه في سماء الاجتماع غير سفور، منقطع انقطاع الأسد في غابِه، متخلٍّ تخلي القوس عن لُغَابِه[3]، وهو الآن في صدف الخمول دُرَّة، ومِسْك صِيته المتضوع مودعٌ مِنْ زاوية بيته في سُرَّة، يقنع بحرفة الخياطة، ويحوط دينه من التَّعَفُّف بأحسن حِيَاطة، رأيته يَحْمِل حوائجه على عاتِقه، ويلبس طَرْح اطَّرَاحِ للخيلاء لم يحتج إلى راتِقِه، معرضاً عن الزَّهو والكِبر، متقلداً من التواضع بما تكسد لديه قلائد التِّبر، وقد سرى لرقم الفوائد العلمية في ليلٍ من الحِبْرِ، وشعره وجيزٌ وأي وجيز، من ذلك قوله في بعض الأراجيز، يمدح صنعاء اليمن المحميّة وسفحها، ويذكر رياضها المزهوة ونفحها:

قـد قـيـل صـنـعـاء جـنَّـةُ الـجـنـانِ	فـكـم خـصـالٍ قـد حـوت حِـسَـانِ
يـقـصـر عـنـهـا الـوصـف مـن حَـسَّـانِ	ابـن الـبـيـان حـاضـر الـمَـعَـانـي
حـديـقـة أزهـارهـا تـضـاحـكـت	وجـنَّـة لـجـنَّـة الـمـأوى حـكَـت
مـحـروسـةٌ مـحـمـيـة مـن الـنـكـتِ	فـعَـيْـن مـن يَـسْـكـنـهـا مـا إن بـكـت
يـأمـن فـيـهـا مـن إلـيـهـا قـد لـجَـا	سـفـيـنـة يـركـب فـيـهـا مـن نَـجَـا

---

(١) زها الدنيا: زينتها وزخرها.

(٢) الزخرف والتغابن والتحريم والملك الحجر والزلزلة ولم يكن أسماء سور من القرآن وهو هنا في معرض التورية.

(٣) اللغاب: السهم الفاسد الذي لم يحسن بريه والريش الفاسد مثل البطنان منه وهو خلاف اللؤام.

فـإن يـعـبـهـا عـائِـب الـخـصـومِ		فـعـيـبـهـا مـن جـمـلـة الـمـعـدوم
لا عـيـب إلاّ الـجـمـع لـلـعـلُـومِ		وأهـلـهـا الأفـاضـل الـقـرومِ
مـا بـلـدةٌ مـن الـبـلاد فـي الـيـمـن		مـن جُـدة الـقـصـوى إلـى أقـصـى عـدن
كـمـثـلـهـا جـامـعـة لـكـل فـنّ		غـيـر الـسّـمـاع لـلـمـوطـأ والـسُّـنَـن
فـكـم بـهـا مـن قـارىءٍ ومـقـري		مـن ذي الـيـسـار أو مـن اهـل الـفَـقْـرِ
كـلٌّ لـه فَـنٌّ إلـيـه يـجـري		لـكـي يـفـوز فـي غَـدٍ بـالأجـرِ
وكـم بـهـا مـن طـالـبٍ فـقـيـر		يـقـنـع فـي الأرزاق بـالـيَـسِـيْـرِ
لا يَـجْـعـل الـفَـقْـر لـه ذريـعـة		إلـى اطّـراح الـعـلـم والـشـريـعـة
مـسـتـخـرج بـفـكـرةٍ سَـريـعـة		جُـلّ مـعـانـي كُـتْـبـه الـبـديـعـة
مـوزّع أوقـاتـه شَـطْـريـن		عـلـى الـذي يَـنْـفـع فـي الـداريـن
فَـفَـازَ فـي الـحـيـاة بـالـنـوعـيـنِ		ولـو تـلاهـا عـاد بـالـخُـفَّـيْـن
وكـم بـهـا مَـسَـاجـداً مـشـهـورة		آثـارهـا بـيـن الـورى مـأثـورة
فـي كـل عـصـرٍ بـالـهُـدَى مـذكـورة		لـم تـحـو قـط مـا حـوتـه كُـورة[1]
وكـم مـصـلٌ تـارةً وتـالـي		وكـم بـهـا مـقـدّم وتـالـي
وجـامـعٍ يـغـصّ بـالأعـمـالِ		وجـامـعٍ بـيـن الـتُّـقَـى والـمـالِ
وبـعـض ذا فـي غـيـرهـا لا يـعـرفُ		بـل كـلـه فـي الـبـعـض قـد لا يـوصَـفُ
كـلٌّ لـمـا لا نـفـع فـيـه يـعـكـفُ		مُـعـتـذراً بـعـذر مـن لا يُـنْـصِـفُ
ثُـمّ هـواهـا فـي الـزَّمـان عـادلُ		لا بـارد ولا سـمـومٌ قـاتِـلُ

(١) الكورة: قال في معجم البلدان ١/٣٦ نقلاً عن حمزة الأصفهاني: الكورة اسم فارسي بحت يقع على قسم من أقسام الأستان (وهو الكورة) وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان كما استعارت الإقليم من اليونان فجعلته اسماً للكشخر، فالكورة والاستان واحد قلت ـ يعني ياقوت نفسه ـ الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة كقولهم داربجرد مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دار بجرد.

والـبـرد فـي بـعـض الـبـلاد هـائـلُ — كـأنـه مـن الـثـلـوج نـازِلُ
تَـرَى الـفـتـى عـنـد اشـتـداد الـبـرد — مُـزمّـلاً يَـحْـمِـلُ ألـفَ بُـرْدِ
وقـد يـصـيـح صـاح جَـارَ بَـرْدِي[١] — وراح ركـن[٢] الـديـن كـالـمُـنـهـد

السيد عز الدين بن علي العُبَالي

من طين النُبُوَّة، ومعدن الفُتُوَّة، فمجامِر[٣] جنَّتِه من الالوَّة[٤]، ذو مرتبةٍ صعد وأربَى بِها، فقُدِّم على ذَوِي العُلا وأربَابها، أحد مشايخ العلوم، ومن تُداوَى بِعُرفانهم الكلوم، فهو المثل السائِر[٥]، وقِرطاسُه بما فيه من نجوم الهداية الفلك الدائر[٣]، اتّسع في العلم سوحه، ونفح له من روضِه ريحانه وروحُه، ما التمس سائِله علمَه، إلاّ أزاح حيرتَه بنقس[٦] فتَاويه فأعجب لرفع ظلمةٍ بِظُلمة، تتلألأ الهداية من خِلاَل مِدَاده، كما تلألأت النجوم تحت ذيل اللّيل وسواده، وله من الأدب ما يهزأ بالحدائِق، ويُخجلها فتَخمر بها خدود الورد والشقائِق، وقد خلع الرَّبيع على الغصن قَطَائفَه، وأصبحت سواقي النّهور بالكاسات عليه طائفه، فَمن ذهنه الذي له الطَّرس مَنْجَم، ولؤلؤ نظمه النسيق وهو قَليلٌ من جَمّ، قوله في مليحِ من اليهود، تهيم بمحاسِنِه ذات النُّهود:

---

(١) تورية باسم العلامة أحمد بن الحسن الجاربردي من علماء الأصول والنحو من أشهر مؤلفاته شرح الشافية مطبوع، توفي سنة ٧٤٦. انظر ترجمته في الدرر الكامنة ١/١٣٣ والبدر الطالع ١/٤٧ وقد سبق ذكره في القسم الأول.

(٢) يعني به العلامة ركن الدين حسن بن محمد الأسترابادي عرف بركن الدين اشتهر في اليمن بشرحه على الشافية المسمى بالوافية. توفي سنة ٧١٧. انظر كشف الظنون ٢: ١٠٢١.

(٣) في (ز) فجامر.

(٤) الألوة: سبق شرحها في القسم الأول وهي العود الذي يتبخّر به.

(٥) المثل السائر والفلك الدائر تورية بكتابين مشهورين في صناعة البلاغة والانشاء أولهما من تأليف ضياء الدين ابن الأثير، والثاني لابن أبي الحديد (معروف).

(٦) النقس: المداد جمع أنقاس وأنقس قال المرار الفقعسي:

عـفـت الـمـنـازل غـيـر مـثـل الأنـقـس — بـعـد الـزمـان عـرفـتـه بـالـقـرطـس

سكن الكنيسة من إذا شاهدته هام الفؤاد به وصار عليلا
وإذا تلا التوراة تحسب أنَّهُ غُصْنٌ تحركه النسيم أَصِيلاَ

ومن هذا قولي فيه أيضاً:

شاهدتُ في ملإ اليهود شويدناً قد عزَّ ما بين الورى استيناسُه
ظبيٌ نفورٌ لا يزال مُلازِماً لكنيسة التوراة فهي كناسُه

وينبغي هنا إيراد قول الأزدبيلي[1] في غلام يهودي أيضاً:

من آل إسرائيل عُلِّقتُه أوقعني بالصدِّ في تِيْهِ
قد أُنزِل السَّلوى على قَلْبِه وأنزل المنُّ على فِيْهِ

وقال فيه القاضي علي بن صالح بن أبي الرجال الآتي ذكره:

ظبي الكنيسة يوم السبت يعتذرُ ففي حشا الصبّ من هجرانه شرر[2]
من آل يعقوب كم قُلْن النساءُ وقد بدت له طَلعةٌ ما هكذا بشرُ
في الجفن موسى وفي درِّي مبسَمِه ماء الحياة لنا والشارب الخَضِرُ

السيد العلاَّمة الحسن بن أحمد الجلالُ[3]

إمَامٌ به نُؤتَمُّ، وبدر معارف كمل وتمَّ، حلية الزمان المنظومة مِنَ الجمان، بحرٌ طام، كثير الالتطام:

به الفضل أصبح ذا رفعةٍ وَتُوِّج منه بتاج الجَلال

دَرَّس وأفتى، فما رؤِي أحد منه أَفْتَى، ما سُئل عن شَيءٍ فلم يُجِب، ولا أُستتر عنه غامض من المسائل فحُجب، انفرد في مذهَبِه، وخطر من ردن الاجتهاد

---

(١) يحقق اسم الأردبيلي المذكور والبيتان في ريحانة الألبا: ٢/ ٣٥.

(٢) في (ب) ضرر.

(٣) من مشاهير علماء اليمن ولد سنة ١٠١٣ ببلاد صعدة وتبحر في جميع العلوم وفاق أقرانه وله المؤلفات الكثيرة من أشهرها ضوء النهار ونظام الفصول ومنح الألطاف وغيره. توفي سنة ١٠٨٤. انظر ترجمته في بهجة الزمن (مخطوط) وخلاصة الأثر ٢/ ١٧، ونفحات العنبر، والبدر الطالع ١/ ١٩١، ونشر العرف ٢/ ٥٦٤ وكتابنا مصادر الفكر الإسلامي: ١٤٢.

في مذهَبِه، فما قلَّد ولا التزم لأحدٍ مذهَبًا، لأنه كان يرى بعض الأقوال عنده هَبًا، فهو على العلماء كثير الاعتراض، لأنه لم يرض أحدٌ جواد نَقْدِه كما راض، فكم أولجهم في مضائق، ورماهم من الحَصْر ببوائق، وكم فَخْلٍ عند جِدَاله وَجَم، وكم فَرَّق في حَلَقات العلم من عَدَدٍ كثيرٍ وَجَم، فصوارمه اليمانية، أقطع من السيوف البيلمانية[1]، هو في كل فَنٍّ الغاية، وفي كل صحيفةٍ من المعارف الآية، ما اقتصر على فنّ، وإنَّما هو عن اللُّبَابِ في كل فَنٍّ قد سَفَن[2]، وتأليفه غُرر ما بها تدليس ولا غَرَز، منها كتاب (ضوء النهار، المُشْرِق على صفحات الأزهار)[3]، وهو شَرْح (الأزهار) للإمام المهدي، المتن الذي هو لأصحابنا أفضل ما أُهدِي، ولكنه أَطلع ضوء النهار على تلك الأزهار فذَبَلت من حَرِّ الشَّمس، وأذهب بالاعتراض والتَّبْكيت رُوْاها فلم تَرُقْ لنظرٍ ولا شَمٍّ ولا لَمْس، لأنه هدم الأكثر من القواعد، وأخرب أركانه بقويٍّ من السَّواعد، وله أيضاً تمام حاشية (الكشاف) للعلامة سعد الدين[4]، وشرح[5] (الفصول اللؤلؤيَّة) أجاد فيه بما لم يبلغه سائر المجيدين، وله حواش أخر مفيدة الإبانة، قد رَضَع بها من التَّحقيق لِبانَه، وقد نظم بديعية[6]

(١) بيلمان: موضع تنسب إليه السيوف البيلمانية قال ياقوت: ويشبه أن يكون من أرض اليمن ينسب إليه محمد بن عبد الرحمن البيلماني، وفي كتاب فتوح البلدان للبلاذري البيلماني من بلاد السند والهند تنسب إليها السيوف البيلمانية (ياقوت: معجم البلدان ١/ ٥٣٤).

(٢) سفن الشيء يسفنه سفنا قشره قال امرؤ القيس:

وجاء حفيا يسفن الأرض بطنه ... ترى الترب منه لازقا كل ملزق

(٣) من أشهر كتب المترجم له، منه عدة نسخ خطية، وطبع أخيراً في أربعة مجلدات وهو على متن الأزهار في الفقه كما هو مذكور هنا.

(٤) تسمى (منح الألطاف في تكميل حاشية السعد على الكشاف) منه مخطوطة بجامع صنعاء انظر كتابنا (مصادر الفكر ٢٧).

(٥) يسمى (نظام الفصول) منه مخطوطة سنة ١٠٧٠ بجامع صنعاء وثلاث نسخ أخرى بنفس المكتبة. (انظر المصادر ١٨١).

(٦) وتسمى (السحر الحلال بديعية السيد الجلال) أولها (براعة الاستهلال والجناس التام والملفق والناقص والمطلق):

ماذا على الركب مما ذاع للآسي ... بُعْد الطبيب الذي في طيبه الآسي

أورد نصّها صاحب نشر العرف ٢/ ٥٧٣ ـ ٥٧٩.

سينيَّة القافية، هي بِجُمل من البديع كافلة كافية، خالف بقافيتها أرباب البديع، خَشيةً أن يقال له: أرجع الودائع فإنَّما أنت وديع، حتى قال في خطبة شرحها وما جاء شيئاً فَريًّا: وقد نقحتها بصافي الأفكار فاتبعني أهدك صراطاً سويًّا، وخالفت أهل النظم في ذلك قافيةً واختياراً ورويًّا، خشيَة أن يقول مُدّع للتحلي بهذه الصناعة لا يعرف منها جُمَلاً ولا تَفْصيلاً، إن هذه إلاَّ ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً﴾[1]، وشعره مثله حسن، كم شحذ سيف فكرِه له وسن، وكم باين للغوص في بحوره لذيذ وسن، طالما أبرز من بناتِ فكرِه، غادةً يستجلب بها حميد ذكرِه، طالما ذيل مرطها، وبعد مهوى قرطِها، فمن خمر جامِه، ولطيف انسجامه، قوله:

وزائــرٌ فــي الــمــنــام وافــى ... يــخــطــر فــي تَــيْــهِــهِ وعــجــبِــه
نــبَّــهــنــي لــلــشــقــا وولَّــى ... لا مــا هــكــذا الــخــاطــر الــمُــنَــبِّــه
شَــبَّــهــتــه الــبــدر إذ بــدا لــي ... فــلــم يــرَ الــجــبــر لــلــمــشــبِّــه[2]
فــصــار دمــعــي عــلــى خــدودي ... عــقــداً كــعــقــد ابــن عــبــد رَبِّــه[3]
ســلــســلــة تــبــطــل الــتَّــنــاهــي ... بــرهــان تــطــبــيــقــهــا بــصــبِّــه[4]
يــؤمــن بــالــغــيــب مــن رآهــا ... لــحَــرِّ وجــد الــهــوى وكــربــه
يــا قــوم هــل عــارف ســواه ... يــطــبِّــنــي فــي الــهــوى بــطــبِّــه
لا والــجــمــال الــذي سَــبَــانــي ... مــا لــي شِــفَــاءٌ بــغــيــر قــربِــه
والــحــبِّ إن كــان ذنــب قــتــلــي ... لا زلــت مُــغْــرَى بــحــب ذنــبِــه

ومما أوردت له في كتابي المسمَّى «طريق الاقتفاء في التورية مع الاكتفاء»[5] قوله:

---

(١) الآية ٥ سورة الفرقان.
(٢) تورية بأهل الجبر والتشبيه من أهل الفرق.
(٣) يعني كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (معروف).
(٤) التسلسل والتناهي والبرهان والتطبيق من مصطلحات علماء المنطق (تورية).
(٥) من كتب المؤلف المفقودة لم أقف منه إلاَّ على وريقات.

رفعت عمامتي فرأت بـ ... ـرأسي شيباً اشتعلا
غدت من بعد تَنكرني ... فقلت لها (أنا ابن جَلا)

ومنه أخذ حيدر بن محمد آغا الآتي ذكره ما نظمه في عِقَابٍ في طريق حضرموت وقد رأى أحد بني الجلال ماشياً برجله فيها وقد مات حصان له أشقر وهو قوله:

كأني بالجَلال وقد عزَمْنا ... وقد ذهبت بأشْقَره المنايَا
سينشد وهو سارٍ في عقابٍ ... (أنا ابن جلا وطلاَّع الثنايَا)

وقال صاحب الترجمة:

وشادنٌ أغرق أهل الهوى ... في بحره فابكِ على وارده
مذ لاح في الخد أخو أمّهِ ... رأيت تصحيف أخي والده

قلتُ: لست بمخط إذا قلت: هذا النظم بَذر، والتكلُّف عليه ظاهر، ومقصوده بقوله أخو أمّهِ **الخال** بالخاء المعجمة، وبقوله تصحيف أخي والده أخو والده **عم** بالعين المهملة وتَصْحيفه **غمّ** بالعين المعجمة، والمعنى: أنه لما لاح الخال على خَدّ هذا الشادن رأى غماً بالمعجمة ورؤية الغم لا يخفاك قبحها لأنها غير ممكنة فلو أنه قال: لاقيت ـ أو قاسيت ـ تَصْحيف أخي والده لكان أحسن مع أنها تتابعت فيه الإضافة فإنه أضاف تصحيف إلى (أخي)، و(الأخ) إلى الوالد، و(الوالد) إلى الضَّمير، ومثل هذا قد عدّه النُحاة من المستثقل، وجعله أرباب المعاني والبيان من المعاظلة[1] بالظاء المشالة، وهي قبيحة عندهم، وحقيقة هذا النَّمط منها أن يتضَمّن مضافات كثيرة متتابعة كقولهم: سرج فرس غلام زِيد، وأن زيد على ذلك قيل لِبْد سرج فرس غلام زيد، وهذا أشد قُبْحاً وأثقل على اللِّسان، وعليه ورد قول ابن بابك[2] الشاعر في مفتتح قصيدة له:

---

(١) المعاظلة: في الشعر جعل بعض الأبيات مفتقراً في بيان المعنى إلى بعضها الآخر.

(٢) هو عبد الصمد بن منصور بن الحسن بن بابك شاعر مجيد له ديوان شعر، وهو من شعراء اليتيمة ٣/ ٤٣٦ ـ ٤٤٥. توفي سنة ٤١٠. انظر ترجمته في ابن خلكان ١/ ٢٩٧ والأعلام ٤/ ١١.

حمامة جرعا حومة الجندل اسمعي — فأنت بِمَرأى من سعاد ومسمعِ

مع أن صاحب الترجمة أخذ هذا المعنى من قول الأول:

تصحيف أخي الأبِ لأزمني — لأخي أمٌ في وِجْنَتِه

وقال صاحب الترجمة رحمه الله تعالى:

لِلَّهِ أيامُ مقامِ لَنا — عهدتها من لازم العارضِ
ما كان أحلى طَيْرها ساجعاً — على أعالي دوحها الناهِضِ
والماءُ ينساحُ على صَخْرةٍ — كأنه الشَّيب على العارضِ

ونقلت له من خطّه رضي الله عنه قوله:

من غَرَّه زمن الشبيبة والصِّبا — وصفاء عيشٍ رَيِّق وسرورِ
فلقد تمسّك فوق موجٍ هائلٍ — حُمُقاً بأوهى عروةٍ لغرورِ
إنّي عرفت من الزمان وأهلِه — ما زادني جلداً على المَقْدورِ
وعلمت أن ليس النجاة لغير من — يَنْجو بعزلته عن المَحْذورِ
ما في مخالطة الأنام لعاقلٍ — إلاّ هوانٌ واكتسَاب وزورِ(١)

وقال رحمه الله تعالى:

خَلّ الوساوِس والهموم بمعزلٍ — وكُلِ الأمور إلى الكريم المفضِلِ
واحفظ فؤادك فهو حافظ سره — عن أن تَمُرَّ به ظنون مُغَفَّلِ
هذا مرادك مقبلاً من عنده — فَتَلَقَّه بِطَلاقَةٍ وَتَحَمّلِ
لا تأتِيَنَّ به وظنك سَيّءٌ — فتكون فيه فضيحة لا تنجلي
أو ما كفَا لك عِبْرَةً ما قد مَضَى — من كشفه لك كل كربٍ معضِلِ
في الحال والماضي عرفت جميلَه — وهو الكفيل بذاك في المُسْتقبلِ
فَدَع الهموم يكون همًّا واحداً — همّ اللقاء له لكَيْما تَنْسَلي

---

(١) ساقط من (ش).

وكتب إلى السيد عيسى بن لطف الله بن المطهر[1] رحمهما الله تعالى:

يا والداً لم يزل رئيساً ... عقداً غدا في العُلاَ نفيساً
قد مات أنس الزمان هذا ... فما رأينا به أنيسا
فابعثه حيًّا فليس يُحيِي ... قط من الموت غير عيسى
وآنسوا بالوصول عَضراً ... نجلى صدى أذهب النفوسَا

قلت: لو قال في هذا البيت الآخر نشفى بتأنيسكم نسيسًا لكان أمتن وأقوى من قوله (نجلى صدى أذهب النفوسًا) مع حسن شبه الاشتقاق بين التأنيس، والنَّسيس هو بقيةِ النَّفس ومنه قول المتنبي:

هذي[2] برزت لنا فهجت رسيسا ... ثمّ انثنيت وما شفيت نسيسًا[3]

ولده السيد محمد بن الحسن الجلال الخطيب[4]

خطيب ذَلِقٌ مِصْقَع، بشراب ألفاظه الغَليل يُنْقَع، رأيته يخطب من صنعاء بجامعها، ويملي من خُطَبِه ما يُفتِّت قلبَ سامعها، وهو يتوكَّأ على عصا الجوزا، ويمتطي من ظهر المنبر قوزا[5]، ما حشا درّ وعظه في صدف الآذان، إلاً وشاهدت در الدموع يتساقط من الأجفان.

يوم العروبة[6] يروى حول منبره ... لأنه بدموع العين مَمْطور

من خطباء الدولة المؤيديَّة[7]، وفحول وعَاظ الخلافة المحمديّة، يخطب لديه

---

(١) سبق ذكره في القسم الأول.

(٢) الديوان هذه.

(٣) ديوان المتنبي ٥١ مطلع قصيدة.

(٤) من العلماء الأفاضل ولد سنة ١٠٤٢ واشتغل بطلب العلم على والده فقرأ عليه النحو والصرف والبيان والتفسير ثم تولى الخطابة ووفاته سنة ١١٠٤. انظر ترجمته في نفحات العنبر ونشر العرف ٢/ ٥٦٤.

(٥) القوز: المستدير من الرمل والكثيب المشرف.

(٦) يوم العروبة: يوم الجمعة.

(٧) يعني دولة المؤيد بالله محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ١٠٩٧.

بمَغبَر[١]، وينحدرُ سيل مواعظه من جبل المنبر، فيسقي جهران[٢] جهرًا، فلا ينتظر بعده غيثاً ولا نهراً، وكان يعتريه عند وعظِه الخشوع، فيساقِط على أوراق خطبِهِ الدُّموع، فكأنَّها لآلٍ من عقد الحصَان[٣]، تودع في القرطاس لتحفظ وتُصَان، وقد جمع من خُطَبِهِ مُجَلَّدا، وترك ذكره به مُخَلَّدا، (سمَّاه المشرب الزّلال، من خطب السيد محمد الجلال)[٤]، طالعت فيه مع وُفوده إلى ديارنا، وقد أسعفتنا الأيام من ملاقاتِه باختيارنا، وساقته الأقدار إلى تعاهدنا وازديارنا، ولكني رأيته به شحيحاً ذا بخل، لا يسْمَحَ بما اختاره من فقره ونَخَل، فأرجعته له على الفور، قبل أن أحيط منه بالنجد والغَوْر، نظرتُ فيه نظرة عَجِل، وتصفَّحت معانيه تصفُّح وَجِل، وقد استمليته من شعره فأملاني، وشكرته على ما أعطاني من جواهره وأولاني، من ذلك قولُه مُضمّنا[٥]:

إذا[٦] الشباب تولّى وانقضى العمرُ ... فما الذي بعد هذا صار ينتظرُ
وما اغتباط الفَتَى بالعيش في زمن ... فيه تَرَادَفَت الآفات والغِيَرُ
تنوبُه كلُّ حينٍ فيه نائِبةٌ ... تغشاه من أجلها الأحزان والضجر
فقل لمن كان يهوى أن يعيش بِه ... (ما أطيب العيش لو أن الفَتَى حجرُ)[٧]

والمستلطف في هذا الباب تضمين المولى الحسين بن عبد القادر[٨] رحمه

---

(١) معبر: بفتح الميم وسكون العين مدينة بالجنوب من صنعاء بمسافة ٦٨ ك. م في وسط قاع جهران.

(٢) جهران: أرض واسعة في الجنوب من مدينة صنعاء بمسافة ٦٦ ك. م جنوبي نقيل يسلح وشمالي ذمار.

(٣) الحصان: مفرد الدرّة.

(٤) منه مخطوطة بجامع صنعاء، وأخرى بالأمبروزيانا ٢٠٢. انظر كتابنا مصادر الفكر الإسلامي ٣٧٦ ط ثانية.

(٥) أوردها في نشر العرف ٢/ ٥٦٥.

(٦) نشر العرف «أرى».

(٧) سبق ذكره.

(٨) انظرهما في نشر العرف ١/ ٥٦١.

الله تعالى في مليح قاعد على حجر وهو قوله:

وشادنٍ قاعدٍ يوماً على حجرِ ونور غُرّته الغراء يستعِرُ
فصرتُ أنشد من وجدٍ ومن كلفٍ (ما أطيب العيش لو أن الفتى حجرُ)

وقوله أيضاً: وقد كسر الجيش المنصور من المَشرق[١] وهزم جمعهم[٢] وهو فيهم، وقد قُتل الشهيد صفي الدين أحمد بن محمد بن الحسين بن القاسم في المعركة رحمه الله تعالى، وكان يلقب بحَجَرٍ لكثرة صمتِه[٣]:

وَدَدْت مصرع مولانا الصفَّى ولا الر جوع في زمرَةٍ من بعد ما كُسِرُوا[٤]
وصرت أنشد من حُزنٍ ومن أسفٍ (ما أطيب العيش لو أن الفتى حجرُ)

وأنشدني صاحب الترجمة له أيضاً مُوَرِّخاً لموت ولده الفُضَيل رحمه الله تعالى:

من فضلِ الله على ولدي وكرامَتِهِ وله المِنَّة
إن التاريخ لميتِته قد جاء فُضَيْلٌ في الجنَّة[٥]

ووَلدهُ هذا الفُضَيْلُ[٦] هو الفَضْل بِعَيْنِهِ

وليس تصغيره لتحقيره وشَيْنه، ما هو بتصغير تهضيم، وإنما هو تصْغير إجلال وتَعظيم، كتصغير الدُّوَيهيَّة التي تصفرّ منها الأنامل[٧]، أو صُغِّر ليعذب اسمه

---

(١) جهة الجنوب.

(٢) سنة ١٠٩٤. انظر تاريخ اليمن لأبي طالب ص ١٨٩ بتحقيقنا.

(٣) انظرهما في نشر العرف ١/ ٥٦٦.

(٤) في النشر

وددت مصرع مولانا الصفي ولا الـ ـرجوع في سلك قوم بعد ما كسروا

(٥) سنة ١٠٩٩. (انظرهما في نشر العرف ٢/ ٥٦٦).

(٦) أخذ عن والده ونشأ في العفاف والعلم وقرأ في العلوم توفي وهو في ريعان الشباب سنة ١٠٩٩. (انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ٢/ ٥٦٦).

(٧) إشارة إلى شاهد المغنى ١/ ٤٨.

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهة تصفر منها الأنامل

وهو للبيد.

في لسان كل كامل، نشأ في بُرْد النجابَة، ودعاه العَفَاف إليه فأسرع له في الإجابَة، فما الفُضَيْل بن عياض[1]، بجنب تقشفِه إلا كزَهْرٍ عند رياض، قرأ العلوم، وشفا بتَحصيلها الكلوم، وشَرَح بعض كتب جَدِّه، الذي حظي منه بميراثِ جده، إلا أنّه ما دبّ حتى درج، وقد كان ارتقى من العُلَى أعلى درج، ولا انبسط ظِلُّه حتى انطوى، ولا تفتح زهرُه بغيث الإفادة حتى ذَوَى، ما طَلعت شَمْسُه حتى غَرَبت، ولا بَعُدت شُقَّته في طريق المحامد حتى قَرُبَت، سُلِب حسْنَ السمات، فكأنَّما لدغه عقْرَب صُدْغِه لمَّا دبّ فمات، وقد كان في حلَقَاتِ العلم أقلق من الوِشاح، وأكثر جَرَساً من السلوس المُذَالة[2] بِطُلْية[3] الخَود الرَّداح، حتى صمت صموت الأَخجال، إذ أفحمته المنيَّة وعقدت لسانَه الآجال، زادَت الرحمة له مَلْحدا، ما حرَّك سائق العيش شوقها وقد حَدَا، وله شِعرٌ لمَّا تتَسع أبياتُه، ضاق كما ضاق من الأجل ميقاتُه، أنشدني له والدُه قوله[4]:

هَـذي الـنـسـيـم إلـيـكـمُ جـاءتِ بـمـا ... أودعـتُـهـا مـن سِـرِّ حُـبٍّ قـد زَكَـا
وتـضـوعـت نَـشْـراً فَـحَـازت غـايـةً ... مـا إن تُـنَـال ولـيـس تُـدرك فـي الـذكـا

أقول: لا شك أن في قوله في الذَّكا تورية لأن الذَّكا سُرعة الفطنة وقد رشح لهذا المقصد بقوله (جاءت بما أودعتها من سرّ حُبٍّ). والذكا أيضاً السّطوع في الرائحة من قولهم مِسْكٌ ذكيٌ وذاكٍ وذكيةٌ. وقد رشح لهذا المقصد بقوله (وتضوعت نَشْراً)، وقد سبقه إل هذه التورية غيره قال شهاب الدين الحاجبي[5] رحمه الله تعالى:

لا تـبـعـثـوا غـيـر الـصَّـبـا بـتـحـيَّـةٍ ... مـا لَـذَّ فـي سـمـعـي حـديـث سـواهَـا

---

(١) أحد رجال التصوف المشهورين توفي سنة ١٨٧ وهو أحد رجال الرسالة القشيرية ص ٩.

(٢) المذالة: المدلاة يقال ذلك الكرم بصيغة المجهول وليت عناقيده.

(٣) مفرد طلى وهي الأعناق أو أصولها.

(٤) أوردهما في نشر العرف ٢/٥٦٦.

(٥) لم أقف على ترجمته وهو معاصر للملك الأفضل صاحب حماه.

حفظت أحاديث الصَّبَا وتضوعت   نشراً فيا للَّهِ ما أذكاهَا

ومنه أخَذ صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى قوله[1]:

يا طيب نشرٍ هب لي من أرضكم[2]   فأثار كامن لوعتي وتَهتُّكي
أهدَى تحيتكم وأشبه لطفكم   ورَوَى شذاكم إن ذا عرفٌ ذكي

وقوله أيضاً في القول بالموجب:

صدَّق خلّي نَسَمات الصَّبَا   فيما روت عنك وما شَكَّا
وقال لا أَخبَرُ منها بِمَا   جاءت به قلت ولا أذكَا

وأخذ الشيخ شمس الدين محمد بن الحسن النواجي رحمه الله تعالى قوله في تائيته:

لا غرو أن نقلت أخبار نشرهم   ريح الصَّبَا فهي أنفاسٌ ذكياتُ

وقال العلامة شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني رضي الله عنه في بعض قصائده[3]:

أدركت ما قد خفى عنا وطبت شذا   لِلَّهِ ماذا على الحالين اذكاكِ

والأصل في الكل قول القاضي محي الدين عبد الله بن عبد الظَّاهر رحمه الله تعالى[4]:

شكرا لنسمة أرضكم   كم بَلَّغت عَنِّي تحيَّة
كم قد أطالت بل أطا   بت في رسائلها الزَّكية
لا غرو إن حفظت أحا   ديث الهوى فهي الذكيَّة

---

(١) البيتان في ابن حجة ٣٢٩.

(٢) ابن حجة: يا طيب نشر هب لي من نحوكم.

(٣) انظر ديوان ابن حجر ١٨٧ ط مصر سنة ١٤١٠.

(٤) البيتان عند ابن حجة ٢٥٣، والوافي بالوفيات للصفدي ١٧ : ٢٨٣.

(٥) انظرا بن حجة ٢٥٣.

القاضي الإمام فريدُ الحكّام الحسين بن محمَّد المغربي(١)

صدر الإفادة، ومجمع الرفادة، إمام بحث ونظر، وقدوة من بدا ومن حضر، له الكون بالانفراد قد شهد، كأنه حجة الحنابلة(٢) في أنه لا يجوز خُلوّ الزَّمان من مجتهد، بَذْرٌ ما علقه كلف، وبحر ما اقترن به تَلف، يفخر يومه به على أمسِه، ويطاول قلمه الرمح لما كان قرين خَمْسه، إمام طار ذكره، حتى ضاق بالبازي وكره، له في العلوم مزيَّة، تعد على الفخر الرازي رزيَّة، لم يزل سابحاً من العوم في لُجج، مُقيماً على الخصم أبين الحجج، وهو في علم المعقول، صارم مشحوذ مَصْقول، ما هو إلاَّ خاتمة المدرِّسين، وآخر المتدرّعين لمشقة الطلب والمترسين(٣)، إذا اصطكت سحائب علومه المغرقة، أرسلت على المخالف صواعقها المحرقة، فيموت حتف أنفه إذ تصيبه، ويُصَوِّح في الحال من روضِه خَصيبَه، له عرف عِرفان يطيب، وقلم فتاوٍ ألين من الغصن الرَّطيب، فما انحط عن منال العلى التي الأنجم فيها شموع، ولا انصرف عنها وكيف ينصرف وهو للطلبة منتهى الجموع(٤)، ساحات أرضه رِحاب، قد لبست من الدِّيباج ما نسجته أيدي السحاب، رأيته بروضة حاتم(٥)، وما لفضله من جاحد ولا كاتم، وحوله من الطلبة

---

(١) هو العلامة المحدث الحسين بن محمد بن سعيد بن عيسى اللاعي المغربي ولد بصنعاء سنة ١٠٤٨ وأخذ عن أكثر علماء وقته ومن أشهر كتبه (البدر التمام شرح بلوغ المرام) الذي اختصره العلامة محمد بن إسماعيل الأمير في كتابه الشهير (سبل السلام) وله غيره. توفي سنة ١١١٩، انظر ترجمته في طبقات الزيدية الكبرى (خ) والبدر الطالع ١/ ٢٣٠ ونشر العرف ١/ ٦٢٠ وكتابنا (مصادر الفكر ٦٤ ط ثانية).

(٢) في إرشاد الفحول ٢٥٣: «وقالت الحنابلة لا يجوز خلو العصر من مجتهد وبه جزم الأستاذ أبو إسحاق والزبيري ونسبه أبو إسحاق إلى الفقهاء» وانظر كتب هذا الفن.

(٣) في (ز) المتدرسين.

(٤) منتهى الجموع من مباحث علم الصرف وهي صيغ كل جمع تكسير بعد ألف تكسيره حرفان أو ثلاثة ثانيهما ساكن وأشهر أوزانها فعالل نحو عنادل وفعاليل نحو دنانير وأفاعل نحو أكارم وأفاعيل نحو أساليب الخ وصيغ منتهى الجموع ممنوعة من الصرف. انظر كتب هذا الفن.

(٥) روضة حاتم: هي ضاحية صنعاء على مسافة خمسة كيلو متر من جهة الشمال.

جم غفير، ولفظه بينهم وبين الفوائد سفير، وقد عقد بجامعها حُبَاه[1]، وأظهر ما منحه الله به وحَبَاه، وسيول الماء تتحدَّر من جبله الراسخ في شعاب، وقد ذلل من الإفادة ما عُدّ في الصِّعاب، ثم رأيته ثانياً بصنعاء في مسجد الأبهر[2]، وقد لاح من تحقيقه لتلاميذه ما يبهر، وصار بنور غُرَّته الجامع الأزهر، وهم حول كعبته، مقبَّلون[3] للركن من ركبته، ونَشرُ ذكره ضائع، وسوق الثنا عليه مملوءٌ بأنفس البضائع، وليس في علماء صنعاء من يُداني لحَاقه، ولا في بدورهم بجنب بَدره إلاَّ من أظهر نقصه ومحاقَه، ومن تأليفه شرح بلوغ المرام[4]، الذي حلت له فوائده وهي على غيره حرام، جاء فيه بما يكاد أن يعجز البَشَر، ولذا كثر له تحصيل النسخ وانتشر، ولم يزل يحكم ويُفتي، ويُبدي حدائق أوراقٍ إذا رأتها الرياض قالت: هذه أُختي، حتى هَرِم بموتِه من الفضائِل شَبابُها، ونزلت به شعوب فأُغْلِق لحزنِه بَابُه، لمَّا صُرِم حبلُه، وأودع في الكناية نبلُه، ودعاه هاتِف مماتِه، وانمحق البدر الكامل من سمَائِه، وغَلِق بيد الحمام رَهْنَه، وأصاب الدِّين بعده وَهْنُه، فركب مطيّة النَعش للسَّفر، قاصداً لمنازل الأحباب وهي الحُفَر، ومرَّ إلى ربِّه أحسن مرور، وأعاض الدنيا حُزْناً بعد السرور، فبَكْته صنعاء لما أَصْبَح في جوامعها يُنْعى، بعدما زكت به حدائقها يَنْعَا، واكتأَبت مدارِسُها، وندَبَتْهُ مغَارِسُها، فَشَقَّ الغصن جيبَ أوراقِه، وتعرَّى من الزَّهر عن حليته وأطواقِه، فإذا هو عودٌ قد شحب، وعليه الحمائم تنوح وتَنْتَحب، لا برح وارداً من الرَّحمة في حوض، ولا زال مقتطفاً زهور الرِّضوان من جِرْبَةِ الرَّوضِ[5]، ما اعتصرت خمرة الشفق من عنقود الثُّريَّا،

---

(١) الحباء: اسم من الأحتباء وهو أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه إذا جلس ليصير كالمستند.

(٢) مسجد الأبهر من مساجد صنعاء العامرة يقع في الجهة الجنوبية جنوبي الطريق النافذة من السائلة إلى جامع صنعاء (مساجد صنعاء ٥).

(٣) في (ب) و(ش) مقبول والاصلاح من (ز).

(٤) سبق ذكره وهو المسمى «بدر التمام» منه عدة نسخ مخطوطة. انظر كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي ٦٤).

(٥) جربة الروض من ضواحي صنعاء على الجهة الشمالية مسافة ٧ ك. م.

بعد أن قطف من روضةِ السماءِ المتضوّعة ريًّا، فأدارها زُنْجِيُّ الغسق، وقد انتظم عليها حَبَاب النجوم واتسق، ومن شعره قوله في مَدْح مُؤَلَّف، ما تعمق محرّره ولا تكلف[1]:

هــذا كـتـابٌ مـا رأيـنـا لَـهُ ... مـجـانـسـاً فـي حـسـنِ تـعـبـيـرِهِ
قـد جـاءَ لـلـمـذهـب فـيـمـا حَـكـى ... عـن خـاتـم الـرسـل بـتَـقْـريـرِهِ
حـرّره مـجـتـهـدٌ عـالـمٌ ... أرشـد مـنـه حـسـن تـحـريـرِهِ
حـبَّـره جِـبـرٌ أبـان الـعـمـى ... مـن الـهُـدَى مـحـكـم تـحـبـيـرِهِ
بـدا فـأفـلاك سـطـورٍ بـهِ ... بَـدْرٌ هَـدَى الـخـلـق بـتـنـويـرِهِ
قـد أوضـح الـسـبـل بـإنـجـاده ... فـي مَـسْـلـك الـهـدي وتَـغـويـرِهِ
فـقُـل لـمـن أَلَّـفـه دافـعـاً ... شـبـهـة[2] مـن جـاء بـتَـزويـرِهِ
مـهـلاً فـقـد أعـجـزت ذا هـمـةٍ ... لـم يـقـصـر الـسَّـعـي بـتَـشْـمـيـرِهِ
جـزاك أسـنـى مـا جـزاه الـورَى ... مُـقـدَّر الـعـبـد بـتـضْـويـرِهِ
ودمـت مـا حـرَّك حـادي الـسُّـرَى ... لـمَّـا حَـدَا الأشـواق مـن عِـيْـرِهِ

أخوه القاضي العلامة الحَسن بن محمد المغربي[3]

مصباح الزمان، والعقد النفيس من الجمان، كعبة عِلمٍ أَمَّها وفَّادها، وقلادة فضلٍ تزيّنت بها من الحسان أجيادها، له نسمات عِرفان ذات أَرَج، ورياض علوم مبذولةٍ ليس على مقتطف فواكهها من حرج، قرن علمَه بالتواضع، فقد طاب لها في حجر فضيلته التراضع، ما له عن التَّنزُّل من واق، حتى كاد أن يقال في حقِّه

(١) الأبيات في نشر العرف ١/ ٦٢٢.

(٢) في النشر شبيهة.

(٣) عالم جليل مولده سنة ١١٥٠ بمدينة صنعاء أخذ عن جل علماء صنعاء ومن مؤلفاته حاشية على شرح القلائد، وعكف على طلب العلم ولم يتزوج. توفي سنة ١١٤٢. انظر ترجمته في طبقات الزيدية (الكبرى) ونفحات العنبر ونشر العرف ١/ ٥٠٠ ومصادر الفكر الإسلامي ١٤٨.

(ما لهذا الرسول يأكل الطَّعام ويمشي في الأسواق)[1]، وله أخلاق يتلمس بها نسيم السحر فترق وتطيب، وفصاحة يتعلَّم الصادح منها فإذا هو على مَنْبر الدوح خطيب، ما هو إلا بسَّام الثنايا، وفي المَجْد والفخر طلاع الثنايا، وله في علم الحقيقة روض فاح وَرْدا، وفي مَشْرب التصوّف منهل طاب وِرْدا، فكم فيه لِلَّه من أسرارٍ خفيَّة، وكم له من سجايا هي بقيام حَقّ العبودية حفيَّة، ومن سُنَّته عدم التزويج، والتَّمتع من ربَّاتِ الحجال بحسنهن الذي يعظم به الوجد ويهيج، فما ساكن منهن مألفا، ولا ألْفى من نقَدَ مهورهن مائةً ولا أَلْفَا، ولا استنشق بمسك ظبائهن عرفَا، ولا هام لما شام من جمالهن جِيْداً وطرفا، ولا فاكه منهن ليلَى، ولا استجنَّ من شَعْرها ليلا، فأحسن وما أَسَى، فقَبْر العلم بين أفخاذ النِّسا، واستمرَّ على ذلك حتى لَصِق غُبار المشيب بلمّته، وعقل الكبرُ نشاطه فلم يُزعجه سوّاق همته، واستحال عنبره كافورا، وذهب شبابُه فلم يكن شيئاً مذكورًا، وصاح له النَّذير بأفصح لسانٍ، الصِّيام الصيام عن وصل الحسان، والبعد البعد والهجر الهجر، فقد تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وكان قد كُفَّ ناظره، ولم يَذْوِ من روضِه ناضره، فإذا هو بحرٌ مكفوف[2]، وروض في حُلل أوراقِه ملفوف، ثم برى مما أصابه، وزكّى من الصحَّة نِصَابه، فصار أبصر من الزَّرقا، يدرك السُّهى ويخْرق الخرقا[3]، وهو لي من أجلاّء الأصحاب، وبيني وبينه بالمكاتبة ما بين الأحباب، مُراجعة أنشأ من بنت الكروم، تُزفَ بين سادةٍ قُروم، وقد تُوِّجت بلآلي الحَبَاب، وزُوّجت من المِزاج بابن السحاب[4]، وكان إذا وَفَد إلى ديارنا، وحثَّته الأشواق على ازديارِنا، وفَدَت علينا المسرَّة تحت ركابِه، ومَشَت

---

(١) الآية ٢٠ سورة الفرقان.

(٢) المكفوف من الكف وهو في علم العروض حذف السابع الساكن وهو يتحول «فاعلاتن» إلى «فاعلات»، وتتحول «مفاعيلن» إلى «مفاعيل» و«مستفع لن» إلى «مستفع ل» ونجده في الهزج والمضارع والطويل والمديد والرمل والخفيف والمجتث.

(٣) في كتب اللغة مفازه خرقاء: بعيدة.

(٤) ابن السحاب: هو المطر. انظر (المرصع ٢٠٤ ط بغداد).

إلينا الأعياد خَلْفَ سَكَابِه[١]، فنظفر من قُرْبِهِ، بما ظفر النشوان عند شُرْبِه، فأيام ملاقاتِه هي الدَّهر، وليالي الاجتماع به هي الحديقة والزَّهر، فطالما حيانا من كلِماته بما أحيانا، وطالما متَّعنا بمحاورتِهِ المفيدة أحْيانا، وأنا من الشباب أمرح سُكْرا، وافتض من المسرَّة على فِراش الأريحية بكْرا، والأيام أعياد وَغُرَر، واللَّيالي المظلمة ذوائب وطُرَر، والحضْبَاء يواقيت نفيسة ودُرر، وله نظم ألطف مِن أخلاقِهِ جرما، وشِعْرٌ أبهَى من الرّياض جَرَت عليهَا مطّردات الما، ونثر تنثر الجواهر مِن خِلالِه، وتتزيَّن بقلائده عرائس خِلالِه، وقد دارت بيني وبينه مكاتبات، يَخْضَرّ على جنبَات الأوراق منها النَّبات، من كل مسطور، يَنْدَكُّ عند سماعه الطور، كتبت إليه من النظم والنثر قولي[٢]:

روض الحمى من دموع المقلتين سُقي ... حتى عدا مائساً في رفرف الورقِ
ذكرتُ فيه لياليـنا التي سلفت ... ولم أجد بعدها شيئاً سوى أرقي
وللأقاح ابتسام في جوانِبه ... إليّ عن أبيضٍ كالعقد مُتَّسِق
والنرجس الغض للأكمام يرفعني ... إذ صار منتصباً منه على الحدقِ
معْ فاتنٍ فات جيد الظبي ملتفتاً ... وفاق شمس الضحى في منزل الأُفُق
سَرَى بوحف[٣] من الشعر الأثيث كما ... سَرَى لعَمْرِك ساري البدر في الغَسَقِ
وخدّه الأحمر القاني وعاذل من ... قد هام وَجْداً به في الحالتين شقي
ذي غُرَّةٍ بسنا الأنوار واضحةٍ ... كنَهْج من قد هدانا أوضح الطرقِ
شيخ المعارف مطروز المطارف من ... له اللّطائف مِثْل القعد في العنقِ
قاضي الوَرَى فخر صنعا يوم مفخرهَا ... بشيمة هي أجلى من ضيا الفلقِ
حديث مَفْخرة قد صَحّ مسنده ... لمن رواه بجَمْع الفضل من طُرُقِ
بحر من العلم خُضْ للدرّ فيه ولا ... تخَفْ به أبداً من لجّه الغرقِ

---

(١) جمع سكب. وهو ضرب من الثياب رقيقة. انظر اللسان (سكب).
(٢) أنظرها في نشر العرف ١/٥٠١ (أورد نماذج منها).
(٣) الوحف: الشعر الكثيف والأسود الحسن.

لـه مـن الـفـضـل مـا ذَلّ الـنـضـار بِـه ... فـلـم يـزل مـنـه مـصـفـرًا مـن الـغَـرقِ
مـولاي يـا شـرف الإسـلام قـد صـدرت ... هذي السطور على المشكوّ من قلقي
فـارقـتـمـونـا فـفـارقـنـا الـلَّـذيـذ مـن الـ ... ـحـيـاة حـزنـاً فـأدرك بـالـلـقـا رمـقـي
سـقـت زمـان الـتـلاقـي مـنـك سـاريـةٌ ... بـهـاطـلٍ صـادق الأنـواء مـنـدفـقِ
ولا برحت بأهنى العيش ما سفكت ... أسنة الشّهب في الظّلما دم الشّفقِ
ومـا أقـيـسـت ريـاض مـنـك إذ زهـرت ... بالخلْقِ فانثال منها الطَّلُّ بالعَرَقِ

سلام أنفح من مسكٍ تضوَّع، وأنضر من روض بالزهور الجنيَّة تنوع، إذا حملته النّسيم برئت من علتها، وإذا تحَمَّلت به الحسناء رمت المطروز من حلتها، تنفح أذياله عَنْبرا، فما نَسيم الروض وقد انبرا، وما حدائق الآس، شربت معتق القطر في الأغلاس، فأصبحت بَلِيْلة الأذيال ذكية الأنفاس، يرد إلى مقام ما أنصفه زحل وقد تنحَّى له عن فلكه، ولا أعطاه حقه وقد اعترف بالرفعة لإنسانِه وفي الحقيقة لفلكه، مقام مَن لو استخدم القمر لقيل هو له عبد رق، ولو انضم البحر إلى علومه لقيل قد غرِق، ولو جاراه ثقيل السَّحاب لما كان أسرع بقطر غيثِه من أن شَرِق، واحد المعارف وما علمت له بثاني، وما لك عنان الفضل فما له عنه ثاني، شيخ المدارس، والجاني من رياضِها لثمر المغارس، وفارس حَلَبة الفخار وهل لها غيره من فارس، قاضي الشريعة وحاكمها، ومن انجلى ببيانه من المشكلات متراكمها، شرف الإسلام وحبَّذا هو من شرف، وصَدْر الحكام الذي ما فيهم إلاً من له اعترف، الحسن بن محمد المغربي، أعذب اللَّه من أخباره السَّارة مشربي، وأوصل إلينا من تلقائه، ما ينوب عن السرور بلقائه، ولا برح مقلّداً لجِيْد المعالي، بما أغاض الجوهر وقَهَر يتيم اللآلي، هذا وأنها وردت عليه من لديّ أبيات قافية، ومنظومة ما عذب لها بحر ولا راقت لها قافية، نائبة عنه في زيارتِه، داخلةً من بدره المنير في دارتِه[1]، متحملة من نار شوقي إليه شراره، فليحذر أيده اللَّه تعالى ملامسة ما لها من الحرارة، فقد تُحْرِقه بأنفاس عن السَّعير نابت، وإن كانت قد

---

(١) دارة القمر: هالته.

بردت لذكره فيها وطابت، وردت ولها جبين من الحياء يَنْدا، وعانقت إن شاء الله تعالى في رياض حضرته باناً ورَندا، مذكرةً له وإن كنت أعلم أنه ذاكر، روض أنسٍ طالما باكر إليه مِنَّا المباكِر، وقد رفع علَم الغصن ومال، في ميدان من الحدائق تطاردت فيه الصَّبَا والشّمال، فلهفي على زمن اجتماعٍ أعقب تفرّقا، وموسم تلاق أورث تلهفاً وتحرقا، دهرٌ ما مال في عهد صفائه ولا غدر، مضى وقد رضعنا منه درًّا ولا كدرٌ، زمانٍ كله كَدر، أتأسف عليه وإن كان لا يرجعه أسف، وأندب حمائمه المغردة وقد أنقض لها عقاب البين وأسف، فما أسفي على مليحة صدَّت أو جفت، وبِرغيل من خيل هجرانها أوجفت، فلينظر في الأبيات الصّادرة، والمنظومة التي نهضت إليه مبادرة، فإن كانت غادةً جميلة[1] أرخى عليها من سترِه خِمارا، وإن كانت عجوزاً شوهاء سَتَر من مساويها عوَارا، وهي ذريعة إلى الجواب، ووسيلة إلى دخول الرّوض المستطاب، كأنها تقدَّمت تأخذ لي الإذن منه بالدخول، وتلتمس فَتْح الباب قبل أن تقرع حَلقته ساعة الوصول، وقد قيل إنَّ ببعض الجزائر، البعيدة عن النازل بها والزائر، نفائس أحجار ثمينة، وبها قوم كالآساد الكمينة، فيحتال قوم من الخارجين عن الجزيرة، ويرمون من بها من القوم بالحجارة الكثيرة، فيأخذ أهلها من تلك النفائس ويرمونهم بها، وهذا هو الغرض الذي يريده الخارجون يعرفه من كان منتَبِهاً، فيصيبون من تلك الفصوص، ما يصيبه من مارة الطريق اللصوص، ويقعون على غنائم، وكم من مرزوقٍ يأتي إليه رزقه وهو نائم، وأنا قد احتلت برمي هذه الأبيات إلى مقامِه، وتوسَّلت بهذه الأحجار إلى دُرّه المتّسق في نظامه، عسَى أنه يقبل الرَّخيص ويسمح بالغالي، ويتَلَقَّى هذه الحصا بالإكرام ويقابلها باللآلي، فهي سجيّة منه معروفة، وسمة بالمسامحة مألوفة، والله يبقيه ببقاءِ الدَّهر، ويسقيه بالتَّعمير من أعذب نهر، ما تلثمت الشمس بكم الغمام، وشربت الغصون وصَفَّقت الأوراق وغَنّت الحمام، إن شاء الله تعالى.

---

(١) في ب جملية.

فأجاني من النَّظم والنثر بقوله:

يا حبَّذا ما سَرى من ريحه العبِق ... وحبَّذا ما شَرَى من برقِه اللَّمِقِ[1]

أهاج وجدي بلمعٍ منه فانهملت ... له الجفون نداً بالعارض الغدقِ

أهلاً بزائرةٍ قد عَطّرت أرجاً ... لما تمشّت إلينا سائر الطُّرُقِ

أنزلتها في فؤادي عن رضاي وقد ... حَلّت بمنزلة الإنسان مِن حدقي

جاءت إليَّ من المولى الشهاب كما ... جاءت نجوم منيرات إلى الأُفقِ

علاَّمة العصر من سارت معارفُه ... شَرْقاً وغرباً وجازت دارة الحلقِ

من شمر الهمة القعسا فنال بِها ... الجوزا ومرَّ بها في زيّ منتطقِ

وحل من منبرٍ راقٍ على زُحلٍ ... محلّ وُرْق المعاني من ذرا الورقِ

ما قام يخطب إلاقلت لا كَذِباً ... قد قام قُسّ عكاظٍ أيُّ مُسْتَبقِ

مولاي أحمد مهلاً بالمحبّ فقد ... أفنيت منه يسير الصبر حين بقي

هيّجت شوقي بتذكار اللقا رعيت ... أيامه وسقاه كل مندفِقِ

ما إن تمشّت نسيم نحو سفحكم ... إلاّ سَفَحت دموع العين في نسَقِ

رعى الإله زماناً كنت فيه بكم ... ألقاه مبتسماً عن وَجْهه الطَّلِقِ

أيام كنت ووردي غير ذي كَدَرٍ ... ولم أَقل أبداً ذا الورد لم يَرُقِ

وما تناسيت حاشا اللّهُ عَهْدكم ... وكيف أنسى وما النسيان مِن خُلُقِي

هذا وقد جاءني نثر ومنتظمٌ ... ما بين مختلف منه ومتّفِقِ

فهزَّ عطفي وما لي في القريض يَدٌ ... إلى الجواب فقابل بالحِجى حُمُقِي

واللّهُ يحرس شخصاً منك قد جمعت ... به المعالي ومن شَرّ الزمان وَقِي

ودمت ما غرَّدت ورقاء ذات هوًى ... في الغصن إذ وضعت طوقاً على العنقِ

مولاي الذي سادت بالفضل أخباره، وحُمدت في العلوم والآداب آثاره،

---

(١) علق في (ب) على هذه اللفظة بقول: لعله أليق بالهمز إذ لا معنى لوصف البرق باللمق فينظر اهـ. قلت لمق ولموقا لمقا: إليه نظر وإليه ببصره رمقه.

الوارد مِن البلاغة أعذب مورد، الحائز من الفصاحة القِدح المعلَّى والسهم المتفرِّد، الحاوي من التبيان ما لا يفتقر إلى مزيد، والجامع من البيان ما يقصر عنه الصَّاحبُ والصابي وابن العميد، السَّابق في مضمار البراعة، المجلي في حلبة الدراسة واليراعة، الغائص في بحار الألفاظ لجواهر المعاني، السابح في لجج الأنضار لسوانح المباني، المتقلِّد بقلائد العلوم، المتوشح بفرائد الفهوم، المؤيد بروح القدس من الحي القيوم، سماء المجد المكللة بدراري المعارف، وذات المحامد المتزينة بنفائس الطرائف، المتجملة بوَشْي الرقائق واللطائف، من لم يذكر عنده ابن الفارض وابن الخيْمي[1]، سيدي القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسن الحيمي، لا زال ثمر الأدب مقتطفاً من غصون أدبه، ولا برح زهر المواعظ منفتقاً عن كمائم خطبِه، واللّهُ يحمي ما اشتملت عليه أيَّامه من ذاته الكريمة، ويحرس ما انطوت عليه شهوره وأعوامه من سماتِه الفخيمة، ويهدي إليه السلام، الهازىء بالرَّوض باكره الغمام، المضاهي لأخلاقهِ التي هي أخلاقُ الكرام، ويتحفه بإكرامٍ يشابه سجيّتَه، ورحمةٍ وبركةٍ تعُمّ صباحَه وعشيَّته، وبعد فإنها وصلَتْني مواصلَة مولاي، الذي أعدُّ مودته ذخيرتي في آخرتي وأولاي، المشتملة من المحاسن على العجب العجاب، المفتَرَّة رياضها عن ثغور من زهور الآداب، المُسْتنبطة معانيها استنباط الدُّرر من العُباب، المعلنة في الفصاحة بعلو كعبه، المفصحة بَسْبقه لأقرانِه وصَحْبه، المنادية بشموخ قَدْرِه، المنبئة عن فضله في أبناء دهره، فكانت لدى مملوكه بمثابة البرء من السقيم، لمَّا وقعت عليه وقوع الترياق على السّليم، وصارت في مذاقه صيرورة الشراب الذي مزاجُه من تسنيم، وحمدتُ اللّهَ الكبير المتعال، على ما عليه مالكي من طيب المجالسة وشمول النّعمة الموفورة وقرار البال، وما زلت أتناول كؤوسها المتوَجَّة بالحَبَاب، وأعيد قراءتها مرةً بعد مرّة لمَّا أرجعت إليَّ نشاط الشَّباب، وذكَّرتني أيام التداني، ومقامات الأنس المحفوفة بالتهاني، التي فاتني بعدها المنى فأنا أتعلّل بالأماني،

(١) الخيمي: بالخاء المعجمة سبق ذكره في القسم الأول ص: ٨٣.

فسقَى اللَّهُ أيام أنسك ما كان أهناها، ورعى اللَّهُ أوقات مداناتِك التي مَا بَقي لنا بعدها غير أن نتمناها، إذ كُنَّا بداركم المحروسة في دِعَةٍ وإكرام، نصيد سوانح العلوم والآداب لا سوانح الآرام، وفَضْلكم علينا غَامر، وربع مكارمكم بالنَّوال عامر، لمَّا أطبتم القِرى ورفعتم مراتب الضَّيف، وطاب له المقام لديكم فمرَّت أيام إقامته كأنها طيف، فلِلَّهِ مكارمكم وما صنَعَتْ، ولِلَّه ثمار فواضلكم التي ينعت، واللَّهُ يجمع شَمْلي بمكارم تلك الأخلاق، التي النسيم في الأسحار دونها لطفاً، والمِسْك الذكيّ الأذفر لا ينشر بمثل نشرِها عرفا، فلقد هامت بشرابها الشمول، وتاهت عند حسن مواقعها العقول، وتحيَّرت في طيب أوصافها النقول، والمملوك من الشَّوق بمكان لا تبرح نيرانُه تشتعل، ولا تنفكّ طوارق وَسْوَاسه به تلهو وتشتغل، فهو ما بين غادٍ من الفكر ورائح، وعائم في لجحه المتصاككة وسابح، يَزجو من اللَّه تهيئة أسباب التَّلاق، ويأمُل قطع دابر التَّباعد والفِراق، وأحوال المحبّ منتظمة بخطور مولاي على خاطِره، وأموره مستقيمة لحلول سيدي بين جوانحه دون بادية وحاضره، والله يبلغه من مرامه نهاية الآمال، ويجمع لديه ما نفرَّق من أطايب الأحوال، ويزكي للجميع النِّيات والأقوال والأفعال، ويسلك نظام الاجتماع به في أكمل الانتظام، ويجمع شمل المحاضرة له في الآتي كما جمَعَهُ في الماضي من الأيام، ويونِّس بمقامات محاورته التي هي رياض مستطابة للقلوب والأفهام، والسَّلام عليه والتحية والإكرام، ما صدح صادحه في أوكار المحابر وفَنن الأقلام، وما تفتحت أحداق زهور بيانه عن أهداب الكمام، وما فاحت بورد معانيه روائح الإشمام، بمنِّه وكرمه.

وكتبت إليه أنا أيضاً من النظم والنَّثر عن أمر مولانا الوالد رضي الله عنه أستدعيه للضِّيافة إلى دارنا المحروسة بشبام وكان هو إذ ذاك بحصن كوكبان السَّامي ما صورته:

يا نسمة الصَّبح ألاَ فاذهبي   إلى مقام الحسن المغربي
نجم بيانٍ إن دجا مشكلٌ   بظلمة عمياء كالغيهبِ

ليث لدى التَّفسير يسطو بما حواه من علم على الثعلبي[1]
في المَذهب الأسمى غدا لابِساً لبُرده عن طَرْزه المُذْهَب
وبلّبغه خبراً طيِّباً مكَّرماً في المنزل الأرحبِ
هذا ولا زال بأفق العُلَى يزهر في الأبراج كالكوكبِ

يهدي المحبّ سلامه، ويقصِّر في وصف شوقِه كلامه، بعد أن تدرع من الصّبر ما غَدا له كلامَه، فلو شرحه لاستوعب الأقلام، ولو مرّ في الأحلام لاستفزَّها مع الاستخدام ومع الجناس أقول لاستفزّ الأحلام، فاللائق بأن أقول مولاي القاضي يعلم أن الأشواق إليه لا تتناهى، وأن الغرام بسماتِه قد شيَّد أركان الرَّغبة إليه وبناها، فليتفضل إلينا بالبِدار، وليعلم أن مقامنا فلكٌ ليس بغير شمسِه يدور ولا قد دار، فدارُنا لما انفصل عنها كادت أن تَمْشِي إلى سوحِه، وتستعير من حمام الحِمى ما شَجَا من بُكَائِه ونَوحِهِ، ومولانا الوالد، دام فَضله على الوجود أيّ خالد، منتظر لكم انتظار الحديقة للقطر الهامع، قد وقف شوقَه على شخصكم الذي هو للمحاسِن جامع، ولا شكّ ولا مرا، إن قد هيَّأ لكم أسنى القِرى، فلا يعوقكم عائق، عَمَّن شوقه إليكم شائق، والسلام. فأجابني من النظم والنثر بقوله:

تضوَّعت عن نشرِها الطيِّبِ وبلَّغتني منتهى مطلبي
حسنا أتت تختال في مشيها ونورُها في الأفق لم يحجبِ
جاءت من المولى الشهاب الذي ذكراه مثل العَنْبر الأشهبِ
العالم الخاطب في منبرِ بما به الخاطب لم يخطبِ
غضّ شبابٍ قد حوَى رتبةً منالها عَزَّ على الأشيبِ
ذكرت يا مولاي لي دَعْوةً رُوِينها عن أصلِك المُنجبِ
والعبد ذو شوقٍ إليكم له نوازعٌ يَضفو بها مشربي
حيَّتكما عني الصَّبا بالذي تضوّعت عن نشرِها الأطيبِ

---

(١) الثعلبي هو أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي المفسر المعروف من أهل نيسابور. وفاته سنة ٤٢٧. انظر ابن خلكان ١/ ٢٢.

وصلت الإشارة الكريمة، والبِطاقة الحقيرة على أنها عظيمة، من مولاي زينة اليمن، وأحد محاسن الزَّمن، شهاب الدين الذي سطع، وبَدْر المحامد الذي طلع، أدام اللَّهُ فضله السابغ، وأغدق ماء فوائده الذي هو من كل جهةٍ نابغ، وخُصَّ بالسلام الأوفَى، وألبس برد الفخر الأَضفى، ونهل إن شاء الله تعالى من مورد العافية الأصفى، وأنا إليكم أشوق، وسجعي بالثناء عليكم سجع المطوق، وسيِّدي والدكم أعزَّ الله مقامَه، وأهدى إليه في كل آنٍ سلامه، مخصوص بأسنى التحيّة، والمملوك إليكما مستعمل إسراعه ووحيَّة[1]، وهو في الأثر واصل، وعلى البغية من محاورتكما حاصِل، والسلام.

السيِّد العلامة هَاشم بن يحيَى الشَّامِي[2]

سيِّدٌ لعَظْم الحسود هاشم، وحاكم غير جائر في حكمه ولا غاشِم، بحرٌ عظيم الإمداد، إلاَّ أنَّ جُمَانه الكلمات وحَماتُه المداد، حمَل الفضائِل ثبجُه، وأثمر بالدر مِن المداد سبَجُه، تضلَّع من الفنون، وبلغ ما لا تبلغه الظنون، فإذا لم يَمْشِ غيرُه سبيلَ الفضلِ ولا غشاه، قلت ما مع لا يستحيل بالانعكاس[3]: هاشمٌ مَشَاه، ولي بصنعاء القَضاء، فاستنار أفقها به وأضاء، وكان يخطب بمنبر جامع حَدَّة[4]،

---

(١) الوحي: العجلة يقال في الاستعجال «الوحي الوحي» أي البدار البدار.

(٢) عَلاَّمة جليل ولد بقرية حدة بني شهاب من أعمال صنعاء سنة ١٠٨٧ وأخذ عن الحسين بن محمد المغربي وزيد بن محمد وأخذ عن غيرهما وله مؤلفات في فنون متنوعة. توفي سنة ١١٥٨. انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العوف ٢/ ٧٨٣ ـ ٨٠٠.

(٣) ما لا يستحيل بالانعكاس، من أنواع علم البديع قال في خزانة الأدب ٢٣٧ هذا النوع سماه قوم المقلوب والمستوى وسماه السكاكي مقلوب الكل وعرفه الحريري في مقاماته بما لا يستحيل بالانعكاس وهو أن يكون عكس البيت أو عكس شطره كطرده وهذا النوع غايته أن يكون رقيق الألفاظ سهل التركيب منسجماً في حالتي النثر والنظم وجاء منه في الكتاب العزيز «كلٌ في فلك» و«ربك فَكبّر» ومن الكلام الذي رق لفظه «أرض خضرا» وأورد الحريري في مقاماته «ساكب كأس» الخ.

(٤) حدة: من ضواحي صنعاء ومنتزهها تقع في الجهة الغربية بمسافة ٥ ك.م.

ويسن من سيف وعظه حدَّه، إذا أقام بها خليفة الزَّمان، وقد سمعتُ خطبة بحضرته وإذا هو ينثر الجُمان، كأنه وهو بالخطب يخاطِب، حمامَةٌ تصدحُ بين دون تلك الملاعِب، وكأنما نهر حميس[1] الذي رق، حول منبره دمعٌ غزيرٌ يترقرق، فلِلّهِ درُّهُ من بليغ هدّ حاسده وراع، لما اهتزت زهواً لأدبِ معاطف اليراع، تمكّن من الفصَاحَة، تمكُّن البنان مِن الراحة، بل تمكَّن منها تمكن الراحة مِن عِنَانِ الجواد، فسلَك بها في أي طريقٍ شاء ونزل بها في كل واد، فصيحٌ سُقي أَلْبَانه، ونسيم لطفٍ تتمايل له البَانَه، وكنت قبل أن تقع عليه عيني، وأقضي من الاجتماع به دَيْني، أقترح على الدَّهر لُقْيَاه، عسَى يتم لنباتي بغيثِه سُقْاه، مع شوقي إلى مثلِه، سوق الرّوض الضامي إلى وَبْله، أو شوق عاشقٍ إلى معشوق، طالما تمنّى اعتناق قَدِّه الممشوق، لأني في الوطن غريب، وأنا بعيد عن الأهل على أني قريب، فسمح الدهر مع بُخْله، وجمَع بصَنْعاء اليمن شملي بشمله، فاجْتَلَوت بنات أفكاره في خدورها، واستوضحت أنوار معانيه من مطالع بدورها، وتناولت الثَّمر من مغارسِه، واستخرجت من المعدن ثمين نفائِسه، وما زلت أجتمع أنا وإياه، وأجتلي منه واضح مُحيَّاه، يجري بيني وبينه ما يجري بين النّدامى، ويهطل عليّ وابله بذهَبِ من أدابِه إذا هطل الندى ما، ويتحفني بلطائفه، وينشر بين يدي رقيق قطائفه، ويملي عليَّ من نظامه، ما تلقيته بإجلالِه وإعظامِه، فله شِعْرٌ إذا سمعه ذو حجى، ما بقي له في ثبوت حلمه من رَجا، يهيم به هيَام صبّ، لدمع عينيه على الخدود صبّ، كما هامت على الغصون الحمائم، وقد فهمت ما نقلته النسائم، لمّا كتبت في طروس النهور سطورا، وأبانت بها عن أهل نجدٍ شيئاً لم يكن مذكورا، فمما أذكاه في ليل المداد مِن مصابيحه، ومما أعرب من أبياتِه اللطيفة عن تباريحه، ما أملاني في مجالس الأنس وأنشدني، من نظمه الذي يقول بلسان حالِه أنا أَنْشَيْت

---

(١) هو نهر حدّة المذكورة وفيه يقول العلامة محمد بن أبي بكر الدماميني:

ولقد مررت بحدّة وحميسها ... حمس على ساحاتها يتدفق

بي مثل ما بك يا حميس وإنما ... قلبي إلى وصل الأحبة أشوق

عزيزاً بخمرتي ولم أَنْثَ دني، قوله:

هات لقلبي عن الحمى هاتْ ... هيهات مني السلو هيهاتْ
من يسل عن ذكر خله مَا ... ظلَّ على مذهبي ولا بات
يا ماطلاً ما أفوز منه ... بنفي وعد ولا بإثبات
قد طلق الطَّرف في هواهُ ... نوم جفوني ثلاث مراتْ
شكية منك ليس فيها ... مدّ أكفٍّ ورفع أصوات
هل لنسيم الوِصَال نحوي ... من بعد هذا السكون هَبَّات
وهل تَرَى بعد ذا التنائي ... أيام وصلٍ مضت وأوقات
نقضي بها بعد ذا الجفا من ... فروض شرع الغرام ما فات

وقوله[1]:

ليس ما مولى وصالك ... إنما أبغي خيالك
إنك البدر فمن أين (م) ... لمثلي أن يَنَالك
حسب قلبي أن يقول النا ... س قلبي في الهوى لك
بعد سكناك فؤادي ... أنا لا أشكو مِطَالك
لم تشاهد مقلتي في الـ ... ـخرّد الغيد مثالك
يا قوام الغُصن الرطب ... وهل يحكي اعتدالك
ما الذي عن صبك المشـ ... ـتاق في الحبّ أمالك
أنا أهواك وإن ملـ ... ـتَ وطوّلتَ ملالك
هاك قلبي الصبّ وافعل ... بفؤادي ما بدالك
ما لقلبي يا أخا العذل (م) ... الذي طال ومالك
أتُرى أسمع يا عا ... ذل في الحبّ مقالك
سنة العشاق لي تو ... جب في الحبّ اعتزالك

---

(١) أوردها في نشر العرف ٢/ ٧٩٤.

يا سقى ربعك يا سفح (م) المصلَّى وظِلالك
لم أكن يا ربع لولا حبهم أشتاق ضالك[1]
أبشيري بالتداني قرّب الله مثالك
إن تدانت دار من أهوى فما أسعد فالك

وقوله[2]:

ردَّ لطرفي في الهوى رقادي وفكَّ قلبي من يد البعادِ
وخذ بوصل الصب فالفراق قد فَرّق بين الجفن والسوادِ
وشبّ ما بين ضلوعي طوله نار جوًى قد أحرقت فؤادي
واستمطر الأجفان وَبْل أدمعٍ غدت به كأنها الغوادي
تجري على الخد كأن ناظري أزعجه في طلب الرقادِ
يا بفؤادي وبروح هاجراً ما لأسير الهَجْر منه فادي
يفديه قلبي مَنَّ بالوِصال أو ضنَّ به وزاد في التمادي
لا نلت من لقياه مامولى إذا ملكت كفي غيره قيادي
ولا رقت مدامعي في وجنةٍ أو فارقت نواظري سهادي
ولا أمالت نسمةٌ من عطفِه إليَّ عطف قدّه المَيَّادِ
وعاذل لي عن هواه لم يزل يهيم في لومي بكل وادِ
حاول إرشاد فؤاد في الهوى ضل فأضحى فيه غير هادي

وقوله:

لكِ أن تهجُري وَلي ردَّ قلبٍ لم يزل من هواك من بلبال
شكر الله سعي قلبي فما غير ه عن هواك طول المطال
ليس منع المزار أعجب من بخلك عني بزورةٍ من خيالِ

---

(١) كذا في الأصول وفي النشر ٢/ ٧٩٤ «أهوى وصالك». والضال: السائمة من الإبل.

(٢) انظرها في نشر العرف ٢/ ٧٩٦.

يا رِفاقاً عن العقيق استقلوا بعد عهدٍ في سالفات الليالي
يا سقيَ معهد العقيق دهراً قد تقضًى صوب الحيا الهطال
معهد إن سالت عنكم صداه لم يجبني إلاّ بغير سؤالي
أيّها الواعدي بطيفٍ إذ أنا مت جفوني علقته بالمُحَالِ
قد هويت العذَّال من أجل ذكراك وإن لم أطعهم في مقالِ

وقوله[1]:

والحبِّ وهو القسم البالغ إنك عندي القمر البازغ
وحليُك الحسن[2] البديع الذي أغناك عما صاغه الصائغُ
وأنَّ قلبي لك طول المدى لا مائل عنك ولا زائِغُ
لم يثنه عنك عذول ولم يشغله عن[3] عشقك الفارغُ
لا أسمع العاذل في لومِه فإنما عيش الهوى السائغ

وقوله[4]:

بروحي نرجسي الطرف أحوى يلذُّ لأجله في الحبِّ هتكي
يشكّ برمح قامته قلوباً غدت في أسره من غير شكِّ

وقوله[5]:

قد قلت لما قال عني منكراً ما بي لفرط هواه من تبريح
قلبي عليه شاهد بخفوقِه فأجاب كيف شهادة المجروح

---

(١) النشر ٢/ ٧٩٣.

(٢) النشر (المغنى).

(٣) النشر (حبك).

(٤) النشر ٢/ ٧٨٨.

(٥) النشر ٢/ ٧٩٠.

وقوله:

رُذي لـمـا قـال الـوشـاة بـمـا ... قـالـت لـسـانـك أحـسـن الـرَّدِ
لـم لا أصـدق مـا يـقـول وقـد ... صـحـت روايـتـهـا عـن الـشـهـدِ

وقوله[1]:

قـلـت لـه قُـطْ لـنـا ... شَـمْـعـتـنـا لـمَّـا انـبـسـط
مـا فـيـك مـن عَـيْـبٍ سـوى ... فـرط تـوانـيـك فـقـط

وقوله وقد طلب بعض الرؤساء أن يمدح كُرْسياً له:

لا أمـدح الـكـرسـي يـا مـلـكـاً ... بـالـسُحـب جـود يـمـيـنـه يُـزْرِي
أنـت الـذي أتـلـو فـضـائـلـه ... أبـداً لأنـك آيـة الـكـرسـي

وقوله[2]:

قـلـبـي قـد ذاب فـلا تـحـسـبـوا ... مـبـيـضّ[3] دمـعـي فـيـض أحـداقـي
فـهـو دم الـقـلـب ولـكـنـهـا ... قـد صـعَّـدتـه نـار أشـواقـي

وهو في معنى قول البدر الذهبي[4]:

قـالـوا تـبـاكَـى بـالـدمـوع ومـا بـكـى ... بـدمٍ عـلـى عـيـشٍ تـصـرَّم وانـقـضـى
فـأجـبـتـهـم هـو مـن دمـي لـكـنـه ... لـمـا تـصـعّـد صـار يـقـطـر أبـيـضـا

وقول الفاضل بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى[5]:

---

(١) النشر ٢/ ٧٨٩.

(٢) النشر ٢/ ٧٨٩.

(٣) النشر: محمّر.

(٤) هو بدر الدين يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله الذهبي. شاعر توفي بدمشق سنة ٦٨٠، شذرات الذهب ٥/ ٣٦٩ وفوات الوفيات ٤/ ٣٦٨ ـ ٣٨٣.

(٥) كذا في الأصل ولعل صوابه الفضل بن عبد الرحمن بن العباس شيخ بني هاشم في وقته، وهو أول من لبس السواد على زيد بن علي ورثاه بقطع طويلة حسنة. توفي نحو سنة ١٧٣. انظر مقاتل الطالبيين ٢٥٤.

كانت دموعي جَمراً يوم بينهم فمذ نأوا قَصَرَتْها بعدهم حُرقي
قطفت باللحظ ورداً من دموعهم فاستقطر البين ماء الورد من حدقي

وأنشدني صاحب الترجمة لنفسِه أيضاً قوله[1]:

لم يبكني جور الغرام ولا شَجَى قلبي المتيّم بلبلٌ بسجوعِه
لكنه وعد الخيال بَوْصله طرفي فرشَّ طريقه بدموعِه

وهو مأخوذ من قول القاضي ناصح الدين الأرجاني رحمه الله تعالى[2]:

لولا طروق خيالٍ منك منتظِر يلمُّ بي راقداً ما ساءني سهري
كأن جفني إكراماً لزائره أمسى على قدميه ناثر الدُرَرِ

وجئت أنا في هذا النَّمط بأسلوب مخالف لهذه الطريقة فقلت:

عيني بكت بدموع كالجمان وقد تمنَّع الطَّيف في داجٍ من السَّدَفِ
فخلتها غادةً من جيدها نثرت منظم الدُّر عن حزنٍ وعن أَسفِ

وقلت في النَّثر: فيا من بعد منه المنال، جدُ على صبّك بطيف الخيال، وسامحه بزورة في النَّوم، ولا تجنح من العُذَّالِ إلى اللوم، فمذ هجرني الطَّيف، ولم ينزل بعيوني نزول الضَّيف، أمسيتُ ولي دمع سائل، وموج عبرةٍ بيني وبين السّلوان حائل، فكأن عيني غادةً نثرت عقدها من الحزن، لمَّا لم يلمّ بها طيفك في لذيذ الوسن، انتهى.

ولصاحب الترجمة أيضاً في ثقيل:

أقول لمدعٍ طبعاً لطيفاً وذاك من البهائم لا محالَة
لعمري ما انتسبت من البرايَا إلى الثقلين إلا بالثَّقالة[3]

وله مضمناً[4]:

---

(١) النشر ٢/٧٨٨.
(٢) انظر البيتين في ديوانه ١٦٢ (ط) بغداد وريحانة الألبا ١/٩٩.
(٣) يعني: الثقلين الأنس والجن.
(٤) النشر ٢/٧٨٩.

قل للذي نال الرياسة وهو من رتب الخساسة بالحضيض الأوضع
عزّ الرياسة إذ أتتك لأنها (هبطت إليك من المحلّ الأرفعِ)[1]

وله مضمناً في ذم معلّم يلقب أبوه بالفضلى:

ومن شك في سخف المعلم أو رأى خلاف الذي قد صَحَّ عند ذوي العقلِ
فقد صحّ عندي سخف كل معلمٍ ولا سيَّما إن كان من ولد الفضلِ

وله مضمناً في ذم ناصبي يلقب بالمهتدي:

ولقد أقول لمن يعاتب فاعلاً في مَيْله عن دين آل مُحَمَّدِ
دعه ولا تكثر نصيحته فإن الحق أبلج واضحٌ للمهتدي

ولما وقف على كتابِنا المسمَّى «الجواهر المؤتلفة، المستخرجة من البحور المختلفة»[2]، وهو مجموعنا في نظمنا الموشّح الحميني، كتب عليه من النّظم والنثر مقرظاً له قوله:

تأمَّلت ما اشتمل عليه ديوان القاضي الفاضِل، ونزَّهت طرفي في روض أدبِه ونهر رقته السائل، ورأيت أن منزلته من نظام أهل تلك الدواوين منزلة العين من الإنسان والإنسان من العين، ورتبتها منه رتبة الحصباء من الدرّ والصّفر من العين، فهو الدّيوان الموجب لقصر الإجادة عليه، وصاحبه الصّدر الذي تضرب أكباد الإبل إليه:

نظام مليك أدابٍ عليه لواؤه عُقِدا
مُشَبَّه نظمه بالدُّرِ والإبريز ما نقَدا
بجمع فضائل الآداب طرا صار منفردا
فما ضاهاه في أدبٍ أديب في الورى أبدا
لذلك طاح حاسده ومات بغيظِه كمَدا

---

(١) من قصيدة ابن سينا العينية المشهورة.

(٢) من كتب المؤلف الهامة المفقودة وهو ديوانه الكبير.

السيد العلاَّمة عبد اللَّه بن علي الوزير[1]

سلطان العلماء وهو وزير، ونهر العرفان المتدفق الغزير، إذا ماج في مناظرته فخضرم، وإذا وجَّه وجهه لدفع شُبْهَةٍ جاء بالطَّمِّ والرِّم، بحر يروع الضِّد خِبابُه[2]، وفصيح طفا على كاس أدبه حَبَابه، يتناول ثمر العلم الذي ملك طاعمة، من أوراق طروسِه النُّضرة الناعمة، وغصون أَلِفات خطِّه المنصوبة القائمة، من بيت كلهم علما، يرتشف من خلال دفاترهم ما لا يُرْتَشَف من اللمى، فقد جمع التليد والطارف، ونَشَر على أعطاف المعالي أبهج المطارف، مع أخلاق أفرطت في لطفِها، تسلب غادتها بمَهْزوز عطفها، ولطف لو تعلق من الحديقة بأذيال نسيمها، لما شعرت به خفَّةً ولما ثقل على سقيمها، وتواضع به يُرْفع، وَوِتْر فضله به يشفع، فهو عن الكبرِ قد تعزَّل، وبحسناء التصاغر قد هام وتغزَّل، وهو في الأدب الآن عين مصرِه، وواحد البلغاء في سفح صنعاء إذا مدّ بحره من قصرِه[3]، لا عيب فيه قطّ، غير أنه أوجب عقد[4] أقلام خطة الطعن في رماح الخط[5]، وأرخص بكلماتِه الجواهر، واستنزل بنفثاته النجوم الزواهِر، وترك كل غادة عند بنات فكره تحت خمارهَا، وأوجب ما بجتنى من غصون يراعاتِه كساد الرياض وثمارها، ما بدت نفثاته عن أوضاح غررها، إلاَّ ابتسمت لها أفواه الأصداف عن ثناياها دررها، فإذا ادَّعت الصهباء نشوة كلامِه، انتصب لها عنق الإبريق بتعنيفه وملامه، وجعل يقهقه

(١) هو الأديب الناثر صاحب المؤلفات الكثيرة. مولده سنة ١٠٧٤ وأخذ بصنعاء عن جماعة من العلماء وله من الكتب (طبق الحلوى) و(أقراط الذهب) الذي قمنا بنشره ووفاته سنة ١١٤٧. انظر ترجمته في نفحات الأسرار ونسمة السحر وطبقات الزيدية وذوب الذهب ونفحات العنبر والبدر الطالع ١/ ٣٨٨ ونشر العرف ٢/ ١١٣ ومصادر الفكر الإسلامي ٣٨٤ وما كتبناه عنه في مجلة العرب الصادرة بالرياض سنة ١٣٩٤ هـ عدد رجب.

(٢) خباب البحر: هيجانه.

(٣) بحر صنعاء هو ما يعرف بالسائلة ويقال له بحر رجرج مما يلي باب اليمن والقصر من صنعاء معروف هناك.

(٤) في (ز) عند.

(٥) رماح تنسب إلى بالبحرين.

منها عجبا، ويَبْتسم بثغر لؤلؤي يحسبه الجاهل حَبَبا، تحبس لذلك الدَّعوى في قواريرها، لا حَبْس الغَواني في خيامها ومقاصيرها، فإذا أطلقت بدت في صُفْرة ووجل، وظهر على جبينها عَرَق الحَبَاب من الخجل، ومن إنشائه (أقراط الذهب)[١]، ولي عليها ما سميته (شُكْرُ من وَهَب)[١]، وهي أقراط سبكت بنار ذهنٍ وقَّاد، يُفَضِّلها على أقراط الغانيات كل لبيبٍ نقَّاد، فما قرطا مارية، وما شنوف الحديقة سبكتها السحاب السارية، وأفرغتها في بوطة اللّطف[٢] أيدي النّهور الجارية، فخلّ مصاغ الذهب العين، وقل له إذ رام التَّشبه بها: وأين وأين، وله نثر شريف، ونموذج إنشاء ظريف، خلب الأسماع، وأذاب القلب الرقيق فانماع، وشعره من ذخائر الأدب، التي ينالها من شمّر في طلبها الهمة وانتدب، كثر وطاب، وراق فيه الخِطَاب، ومدحه شائع مستفيض، لما صان لسانه عن النّقيض، فما هجا لئيما، وقام بذمّه زعيما، بل أعرض عن أعراضٍ حقها أن تمزّق ويُفْرى أديمها، وترك مثالب عُصْبَة النَّقص سميرها والعار نديمها، فمن أبياته التي من دخلها فقد دخل من الجنان غُرْفة، ونهر أدبه الذي حلا فَم من اغترف بيده منه غَرفة، ومما نقش به معصم الطرف الأبيض بسواده، وقذفه بحر عروضه عن عنبر مداده، قوله من قصيدة يمدح بها بعض أقاربنا، لمّا سام سوائم آماله في مساربنا، وأوردها في هاجرة الاحتياج متدفّق مشاربنا:

لك اللّٰهُ هذا مورد الوصل قد صفا	وبرد الأماني بالوفا قد تفوَّفا
فقم بي إلى روض اللقا نغنم اللقا	فقد فاء طيب العيش وانتظم الوفَا
نغازل من زهر الأقاح لواحظاً	ونهصر من لدن الأفانين معطفَا
إذا حركت أغصانها نسمة الصَّبا	تمايل عطف الطير فيها وغَطْرفَا
يشنّف أسماع الندامى سماعها	إذا جاوبت فيها الغزال المشنَّفا
نَدير من السلسال صرفاً معتَّقا	ونركب للُقْيا كميتاً مصَرَّفَا

(١) مقامة طريفة في المفاخرة بين الروضة وبئر العزب وقد قمنا بنشرها سنة ١٤٠٦ مع معارضتها شكر من وهب الآتي ذكرها طبع الدار اليمنية في مئة صفحة.

(٢) البوطة: هي البوتقة الوعاء الذي يذيب فيه الصائغ الذهب (معرب بوته بالفارسية).

فلِلَّهِ دهراً بالوفا صار منصفاً شهدت به بدر الملاحة منصفَا
أضاف لوصلي كل فرع يجُرُّهُ قوامٌ فأنساني العِذَار المُعرَّفَا
وكف دنانير الوجوه إلى يدي فبَهْرج لي تبر النضار وزيَّفَا
غداة غدا سحر البيان بقَبْضتي بنَاني بتقبيلي البنان المُتَرَّفَا
أطالع من نقش الأكف رسالةً وأحفظ من شرح الجمال مصنَّفا
وأفسح من تحت الغلائل مَخسدا وألبس من سر المسرة مَطْرَفَا
أقدّ دروع البين وهي سوابغ إذا ما ضممت القدّ رَيَّان أهيفَا
وأطعن في نحر العذول بذابِل من القدِّ أضحى بالدلال مثقَّفَا
سقَى اللَّهُ أغصان القدود التي انثنت لوصلي بلُطْفِ ما ألذّ وألطفا
ولم أنسَ إذ أشكو الذي في من الضنا لها ورقيباً لا يزال معنِّفَا
على كلفي أغرى الحبيب ببعدِه وحمَّلني ذنباً عظيماً وكلَّفا
إذا ما صفا وُدي بوصل أحبَّتي فقد علموا أنِّي مقيم على الصَّفَا

منها في المدح:

أيا ابن عماد الدين يهنيك منصبٌ أفاءَ عليك اللَّهُ منه الذي أَفَا
به لبني الحيمي دونك رفعةٌ وما فيك من ذا المجد يكفي وقد كفَى
فإنك من قومٍ شفوا كل مهجةٍ بعزمٍ غدا منه الحسود على شفَا
فوارس تلك الصافنات التي إذا أغارت على الصّفوان أصبح صفصفا
بأيديهم الأرماح تنساب في الوغى تروم لأرواح الأعادي تخطُّفا
وبيض حداد ضامنات وكلَّما تعطشن أوردن الجماجم قرقَفا
يرون حمى الإسلام أعظم معقلٍ فيَحْمون شرع الله من أن يزحلفا[1]
أيا ملِكُ ابن الوزير أخا الوفا يمُتُّ إلى علياك بالوُدّ والوفَا
ويشكو زماناً سال بالغيظ وَدقُه وسَلّ عليه من ظُبا الضيم مُرْهَفَا

---

(١) زحلف الشي: نحاه.

وعندكَ في جبر الكسير عنايةٌ فألبسه جلباب الجميل الذي ضَفَا
فودِّي لكم يا آل أحمد خلقَةٌ بها لم أخف من رام ميلا وعنَّفَا
أباين فيكم بالصَّداقة جاهداً بوجه ودادٍ بارز ما له قَفَا
فحِظْني بودٌ إن أكن صادقاً وإن أكن كاذباً فاصدع بما شئت من جفا
ودم في نعيم كلما قال منشدٌ (لك الله هذا مورد الوصل قد صفَا)

قوله: أطالع من نقش الأكف رسالةً، فيه إيماء وإشارة إلى رسالة البليغ ابن زيدون المشهورة وشرحها للجمال ابن نباتة رحمه الله تعالى ولذا قال في البيت: وأحفظ من شرح الجمال مصنَّفا وهو المسمى «سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون»[1] ولنا عليه «الغيث الهتون المطلع لما لم يبسق من غصون سَرْح العيون»[2] وفيه استيفاء لشرح ما أخل به الجمال في شرحه من اعراضِه عن شرح فقر جمَّة من الرسالة، وتركه لما يعد تركه من التَّفريط بالواجب، وهو إمام نثر ونظم لطيف، وإن قصر باعه في التأليف والتصنيف[3]، وكتب على نسخةٍ لنا من كتاب ريحانة الشهاب أحمد بن محمد الخُفاجي المصري قوله:

إذا تنبَّأ أحمدُ فيكم يا أهل مِضرٍ غير مكفورِ[4]
فقد تحَدَّاكم بريحانَةٍ أوراقها جاءت بمنثورِ

وله في مليح يشرب الدخان:

ولم يشرب التنباق[5] خلي سوى وفاً بمعسول ثغرٍ لم أزل هائماً فيه
رأى عُذَّلي كالنَّحل عند شفاتِه فدخن لي كي أجْنِيَ الشهد من فيهِ

---

(١) كتاب مشهور في الأدب طبع لأول مرة سنة ١٢٩٠ ثم أعاد طبعه محققاً محمد أبو الفضل إبراهيم بمصر سنة ١٣٨٣.
(٢) من كتب المؤلف المفقودة لم نطلع عليه.
(٣) يعني جمال الدين ابن نباتة.
(٤) في (ز) منكور.
(٥) التنباق: هو التبغ وهو من اللفظة الإسبانية مأخوذ من لفظة تاباغا وهو اسم جزيرة في خليج المكسيك.

القاضي العلاَّمة محمد بن إبراهيم السحولي خطيبُ صنعاء اليمن المحروسة[1]

كنزُ معارفٍ لا يفنى، قد أغنى من فُقراء الطلبة من أغنى، إمامٌ أصبح في العلوم بحراً، لو وقع قطر الغمامة في عبابِه لاستحال دُرًّا، كم احتبى للدرس، وساقط على المستفيدين باكورة الغرس، توضيحُه يبين[2] المشكل وقد أَوَّلَهْ، وخصاله الشريفة للخصال عند التعداد أوَّله، وغادة مجده يطيش لديها كل ذي هيام أو وَلَه، فَريد الحُفَّاظ، استغفر الله بل قُس عكاظ[3]، روض مريع، دهره كله ربيع، كعبة حولها الفضل مبتهل وداع، ومستمسكٌ بأذيال ملابسها ولم يطف بها طواف وداع، قاضٍ أنست به من العلم شواردهُ، ورُعيت في سفوح أوراقه على مرِّ الأبد أوَابده، حاشاه من ميلٍ وَحَيف، فما بعد حُكمه النافذ إلاّ السَّيف، خَطيبٌ كُرسيّ الثريَّا منبره، وبحر مواعظ الأوراق ساحله والمداد عَنْبره، إذا قام خاطباً، لم يزل لأبكار المعاني البديعة خاطباً، تحسب الأغصان إذا كرعت في الرَّوض من غديره، أعدَّت ماءه دمعاً لموقف وعظه وتذكيره، واعظ إذا وعظ ودَّت العيون أنَّها مسامِع، فلا نَدري إذاك لشوقٍ إلى أستماعه أم لفرارٍ من لجج المدامع، لو سمعه قس بن ساعدة، لأبان من الغيظ من عضدِه ساعده:

ساجع تورق المنابر منه فتلذ الأسجاع فوق الغصونِ

كنتُ لمَّا رحلت إلى صنعاء، مشتاقاً إلى أن أصيخ لوعظه سمعا، وافيتها وهو في الغيبة، وعود منبرها يهتز لفراقِه كما اهتزت الغصون الرطيبة، وجامعها يكاد يطير إليه بجناحه شوقاً، ويخلع حُزناً لبعاده من قناديله المشتعلة طوقاً، ثمّ إني بعد

---

(١) هو الخطيب العلامة محمد بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن صلاح السحولي الشجري ولد بصنعاء وأخذ عن والده وغيره وكانت وفاته برداع سنة ١١٠٩. انظر ترجمته في طبقات الزيدية الكبرى (خ) ومطلع البدور (خ) ونسمة السحر (خ) والبدر الطالع ٢/ ٩٦ ونشر العرف ٢/ ٤٣٣ - ٤٣٦.

(٢) في (ز) لبين.

(٣) (ب) و(ش) عكاظي.

مدَّة، رأيتُ من بحرِه مدَّه، وسمعته في يومٍ سخن[١]، وطير خطابته يعرب باللحن، وذلك بحصن الخضراء[٢]، وقد انقاد إليه السعد قَسْرا، وهو يخطب بحضرة الإمام، ويتناول من غصون جوده ثمرات الكمام، في عيشٍ يطيب، وحظٌ مسعود بعدما كان حظه حظ الأديب[٣]، لمَّا أراشه الزَّمن بالانحال[٤]، فارتفع حاله ومن العجيب رفع الحال[٥]، وقد صار من الكبر في قيد، وصده عن ملاقاة عمروٍ أبو زيد[٦]، مع وقارٍ كراسخ الجبَل، وأخلاقٍ أحلى من اللّثم والقُبَل، ونسكٍ وبرارة، تتفجر له من عذب المشرب الحجارة، وشكٌ في الوضوء وحرج، يكاد معه أن يستقل البحرين اللذين لهما الخالق قد مَرج، ولم يزل على ذلك، حتَّى دعاه ربُّه لجوار رضوان[٧] على أنه لجواري الأدب مالك[٧]، فركب من النَّعش جواده النافِر، بعدما أنَّق منزل لحده حافرٌ، ولا بد لكل جواد من حافر، ونزل من الفردوس غُرفاً عالية، وافترش من تراب الجنَّة ما يرخص الغالية، لا برح ضجيع الولدان والحور، ما تقلَّدت لآلىء نظمه ونثره النحور، وله أشعار تقوم لها الأقلام على الرؤوس، وتخر ساجدةً لآياتها في جوامع الطروس، أعربت عمَّا له من لطف الشمائل، كما أعربت عن الرَّوضة الغنَّا نفحات الشمائل[٨]، وله إلى والدنا مكاتبة ومشاعرة، أوضح بها لأنه كعبة الأدب موافقه ومشاعره، فمن ثيابِه السحولية[٩] الرقيقة،

---

(١) يوم سخن: حاراً.

(٢) سبق ذكره في القسم الأول.

(٣) يعني حظ إقتار وعسر. انظر الكلام على حظوظ الأدباء في الغيث المسجم ١١٩/٢ - ١٣٨.

(٤) الانحال: العطاء من غير عوض يقال نحل فلاناً نحله نحلاً أعطاه شيئاً من غير عوض بطيب نفس.

(٥) أي أن الحال عند النحاة يأتي منصوباً وقد قالوا في تعريفه «الحال وصف فضلة بمعنى (في) منصوب يذكر لبيان هيئة صاحبها مثل «شرح المعلم الدرس واقفاً».

(٦) أبو زيد: كنية الكِبَرِ والشيب (انظر المرصع ١٩٥).

(٧) تورية: برضوان ومالك خازنا الجنة والنار.

(٨) الشمائل: الريح التي تأتي من جهة الشمال مفردها شمال.

(٩) الثياب السحولية: نسبة إلى السحول وهو القصار لأنه يسحلها أي يغسلها أو إلى سحول وهي =

وقصائده التي أحالت سحر البيان من المجاز إلى الحقيقة، ونفثاتِه التي عذُبت منها انسجامات، وأغاظ العدوّ ليل مدادها الذي إن سجى مَات، قوله:

هـــي أشـــواقٌ وأشـــجـــانُ ومـــن الأشـــواقِ نـــيـــرانُ
وحـــديـــث الـــوجـــد كـــان لـــه مـــن قـــديـــمِ الـــدهـــر ديـــوانُ
وهـــو مـــشـــهـــور وكـــم رُفِـــعـــت فـــيـــه أخـــبـــارٌ لـــهـــا شـــانُ
فـــارو لـــي عـــن مـــالـــكٍ[1] فـــأنـــا نـــافـــعٌ لـــي مـــنـــه رضـــوانُ
واتـــرك الأجـــفـــان تُـــرسِـــل[2] إن سـلـسـلـت[3] مـا سـحّ أجـفـانُ
فـــهـــو مـــقـــبـــولٌ[4] وإن جُـــرِحَـــت فـــيـــه بـــالإرســـال أوجـــانُ
وحـــديـــث الـــحـــبّ مـــنـــقـــطـــعٌ[5] جـــلَـــدٌ فـــيـــه وســـلـــوانُ

= قرية باليمن وفي الحديث «أنه كفن في ثلاثة أثواب سحولية لبس فيها قيمص ولا عمامة» انظر النهاية لابن الأثير ٣٤٧/٢.

وعلق في نسخة (ب) النسبة لأهل هذا البيت إلى السحول إنما هي طارئة لسبب ذكره صاحب الترجمة في أرجوزته المشهورة والاقالبلد بني شجر والنسب من أفخر شجرة وهي قريش كما ذلك مشهور وذكر صاحب مطالع البدور القاضي أحمد بن صالح أبي الرجال رحمه الله واستوفاه اهـ.

(١) هنا توجيه برجال الحديث ومصطلحاته «مالك» هو مالك بن أنس الأصبحي المحدث المعروف و«نافع» هو نافع المدني من أئمة التابعين في الحديث ثقة لا يعرف له خطا وفاته سنة ١١٧.

(٢) الحديث المرسل هو ما رفعه التابعي بأن يقول قال رسول الله ﷺ سواء كان التابعي كبيراً أو صغيراً.

(٣) المسلسل: في اصطلاح المحدثين: هو ما تتابع رجال إسناده على صفة واحدة للرواة أو للرواية.

(٤) المقبول: هو الحديث الذي سلم من وجوه الضعف.

(٥) المنقطع: هو الحديث الذي سقط من رواته راو واحد قبل الصحابة في موضع واحد أو مواضع متعددة بحيث لا يزيد الساقط في كل منها على واحد وألا يكون الساقط في أول السند.

والـــذي مــتــروكـــة[1] حــســنٌ | مَــلَــلٌ يَــثْــرَى وهــجــرانُ
وعــنِ الــرَّحــال حــدثــنــي | بــنــوى الأحــبــاب إذ بــانُــوا
ابــنُ بــطَّــالٍ[2] وخــرَّجــهُ | مُــسْــنــدٌ مــا فــيــه بُــطْــلانُ
لــيــتــه قــد كــان فــي نــســأ[3] | أو دنــت مــنــه خُــراســانُ
لــيــت مــســروقــاً[4] لــقــا أنــســاً[5] | مــعــه سَــعــدٌ[6] ونــعــمــانُ[7]
وروى عــن جــابــرٍ[8] خــبــراً | واصــلٌ[9] فــيــه وســلــمــانُ
يــا لــقــومــي مــن لــذي شــجــنٍ | كــلّــه والــلّــهِ أشــجــانُ
مــن لــحــيــرانٍ وكــل فــتــى | قــد بــراهُ الــشــوق حــيــرانُ
كــلَّــمــا غــنَّــى الــحــمــامُ لَــهُ | حَــنّ والــمــشــتــاق حــنّــانُ
أو شَــرى بَــرْق الــحِــمــى فــلَــهُ | ولــهٌ والــصــبُ ولــهَــانُ
أو سَــرَى روحُ الــصَّــبــا ســحــراً | فــهــو ســاهــي الــطــرف سَــهْــرانُ
أهــل نــعــمــان الأراك وهــل | عــائــدٌ لــلــصــبُ نــعــمــانُ
كــيــف أوحــشــتــم فــؤاد شــج | ولأنــتــم فــيــه ســكَّــانُ
إنــمــا قــلــبــي لــكــم وطــنٌ | وهــوى الأوطــان إيــمَــانُ

---

(١) المتروك: هو الحديث الذي يرويه من يتهم بالكذب ولا يعرف ذلك الحديث إلا من جهته ويكون مخالفاً للقواعد المعلومة.

(٢) هو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال عالم بالحديث له شرح البخاري في مجلدات، وفاته سنة ٤٤٩ شذرات الذهب ٣/ ٢٨٣.

(٣) نسأ: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان. انظرها في معجم البلدان ٥/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٤) هو مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني تابعي ثقة من أهل اليمن توفي سنة ٦٣.

(٥) هو أنس بن مالك الصحابي المعروف وفاته سنة ٩٣ وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة.

(٦) هو سعد بن أبي وقاص (معروف) روى ٢٧١ حديثاً.

(٧) هو النعمان بن بشير الصحابي المعروف روى ١٢٤ حديثاً.

(٨) هو جابر بن عبد الله من أعلام الصحابة (معروف).

(٩) واصل بن عطاء (سبق).

أو إذا لـــم فـــهـــو جـــاركـــمُ ... ومـــتـــى لـــم تُـــزع جـــيـــرانُ
أحـــســـنـــوا فـــالـــحـــســـن زيـــنـــتـــه ... عـــنـــد كـــل الـــنـــاس إحـــســـانُ
وارفـــقـــوا فـــالـــرفـــق يـــعـــرفـــه ... مـــن لـــه عُـــرفٌ وعِـــرفـــانُ
هـــل مـــن الإحـــســـان عـــنـــدكُـــمُ ... أن يـــذوق الـــمـــوت إنْـــســـانُ
وهـــو ظـــمـــآنٌ وحـــوضُـــكـــمُ ... بـــالـــزُّلالِ الـــعـــذب مـــلآنُ
هـــي أرزاقٌ مـــقـــسَّـــمـــةٌ ... وهـــي أقـــدارٌ وأكـــوانُ
أعـــلـــى الأيـــام مَـــغـــتَـــبَـــةٌ ... أم عـــلـــى الأيـــام سُـــلْـــطَـــانُ
آه مـــن بَـــخـــتٍ بُـــلـــيـــتُ بِـــه ... كـــلُّـــه قـــلٌّ ونُـــقْـــصَـــانُ
كـــم قـــلانـــي مـــن فُـــتِـــنْـــتُ بـــه ... أبـــداً والـــحـــســـن فـــتَّـــانُ
وسَـــبـــانـــي نـــبـــل ذي مُـــقَـــلٍ ... حـــظُّـــه فـــي الـــحـــســـن شـــنـــآنُ
لـــســـتُ أدري مـــن تـــلـــوُّنِـــه ... والـــهـــوى فـــي الـــحـــبِّ ألـــوانُ
هـــو صـــاحٍ حـــيـــن يـــفـــتـــك بـــي ... فـــتـــكُـــه عَـــمْـــدٌ وعُـــدوانُ
أم بـــكـــاسِ الـــعـــجـــب مـــغـــتـــبـــقٌ ... ثَـــمِـــلُ الأعـــطـــاف نـــشـــوانُ
فـــتـــرى أجـــفـــانـــه فـــتـــرت ... فـــهـــي وســـنـــا وهـــو يـــقـــظـــانُ
وإذا مـــالـــت مـــعـــاطِـــفُـــه ... مـــن دلالٍ قـــلـــتُ أغـــصـــانُ
وهـــو مـــن مـــاءِ الـــشـــبـــاب ومـــن ... كـــوثـــر الإعـــجـــاب ريَّـــانُ
ولـــه فـــي كـــل جـــارحـــةٍ ... مـــن فـــنـــون الـــحـــســـن أفـــنـــانُ
فـــهـــو بـــســـتـــان الـــجـــمـــال وقـــد ... قـــيـــل والـــمـــعـــشـــوق بـــســـتـــانُ

وقوله من أخرى(١):

تـــظـــن مـــا ألـــقـــاه فـــيـــك بـــاطـــلاً ... فـــلا تـــبـــالِ أن تـــكـــون مـــاطِـــلاَ
مـــددت حـــبـــلاً لـــلـــجـــفـــاء طـــائـــلاً ... فـــهـــل رأيـــت تـــحـــت ذاك طـــائـــلا
ولا كـــلام لا ســـلام لا كـــتـــا ... ب لا رســـول قـــد أتـــانـــي ســـائـــلا

---

(١) أورد نصها كاملاً صاحب نشر العرف ٢/٤٣٨.

لو سأل عن حالي من يمرّ بي | لما أجاب غير دمعي سائلا
لو مِلت نحوي أو عطفت مثلما | رأيت عطفيك الرشيق مائلاً
تحلو لقلبي إذ تمرّ حالياً | قلبك لي عن الحجاء[1] عاطلاً

وقوله من أخرى:

عَذل القوام قد عَذَل | من صبّه وما عدَل
وحلّ عَقْداً حلّهُ | مُخَزَّمٌ ثم ارتحل
فمن رأى بدر الجمَا | ل بُرجُه على الحمل
رغيا لمن ترحّلوا | وهُمْ حُلَى تلك الحِلَل
طلّوا دمي وطالما | بِهِم أمنت أن تُطَل

وقوله يرثي السيد العلامة الأديب شهاب الدين أحمد بن الحسن ابن أحمد بن حميد الدين[2] رحمه الله تعالى المتقدم ذكره[3] وقد توفي ليلة الثلوث ثامن عشر شهر محرم الحرام سنة اثنتين وسبعين وألف سنة فإنه كان له أَليفًا، وفي مجالس الإفادة والأنس حليفا، وبينهما من المكاتبات ما يستلطف، ومن المحاورات ما يحلو ثمره الذي هو بأنامل الأفكار يقطف، مما هو أرق من دمع المآقي، وأسرّ من ساعة التلاقي، يعرب عن مبنى وُدٌّ لا يهدم، وموجود حُبٌّ خالصِ لا يُعْدَم، وهو:

جزعي عليك مدى الحياة معي معي | حتى أوارى في الضريح البلقعِ
ويقل أن تجري عليك حشاشتي | وتفيض بعدك مهجتي في أدمعي
ويقلّ فيك إذا هجرت مشاربي | ومطاعم وهجرت بعدك مضجعي
ويقلّ أني لا يمر بخاطري | أحدٌ سواك ولا يمر بمسمعي

(١) في النشر «الجفاء».
(٢) سبق ذكره.
(٣) انظر القسم الأول: ٦٢.

لـو أنَّـنـي وفَّـيْـتُ حـقّـك كـان فـي ... مـيـعـاد مَـضـرعـك الـمـروّع مـصـرعـي
لـيـت الـمـنـون تُـريـدُ مِـنـا فـديـةً ... حـتَّـى بـمـثـنـى أو ثـلاث ومـربـعِ
أو لـيـتـهـا طـوعـي وكـنـتُ أمـرتُـهـا ... لـبـقـاك تـنـزع مـهـجـتـي مـن أضـلـعـي
فَـجَـع عـلـى فـجـعٍ ولا مـثـل الـذي ... أَلـقَـى لـفـقـدك مـن فـضـيـع تـفـجّـعـي
لـولا الـتَّـيـقّـن أنـنـي بـك لاحـق ... وكـربـعـك الـخـالـي سـيـخـلـو مـربـعـي
لقتلت نفسي أو لرحت مع الوحو ... ش العُصم في شُمّ الشوامخ ارتعي
سُـخـقـاً لـيـومٍ جـاء أشـأم طـالـعٍ ... ولـلـيـلـة طـلـعـت بـأنـحـس مـطـلـعِ
صـمـت عـلـيـك جـمـيـع آذان الـورى ... بـنُـعـيّ أزكـاه وأبـقـى مـن نُـعِـي
مـا مـثـل يـومٍ مَـرَّ يـومٌ فـي وجـيـع (م) ... الـرّزء حـقـاً أو فـضـيـع الـمـوقـعِ
صـدع الـقـلـوب ومـارت الـدنـيـا بـه ... ولـه الـشـوامـخ زلـزلـت بـتـصـدّع
والشَّمس كاسفة وقد طلعت علَى ... الآفـاق وهـي كـأنـهـا لـم تـطـلـعِ
ما مِثْل يوم رحلت نحو خزيمةٍ(١) ... وعـلـى سـريـرك رحـت خـيـر مُـشـيَّـعِ
قـد شَـيَّـعـتـك صـواهـل وذوابـلٌ ... ومـنـاصِـلٌ مـثـل الـبـروق الـلـمـعِ
وأئـمـة مـن آل أحـمـد سـلـسَـلُـوا ... لـحـديـث يـومـك مـرسـلات الأذمـعِ
فـارقـتـنـا كـرهـا بـرُغـم أنُـوفِـنـا ... وبـرغـم كَـمْ مـن أصـيـدِ سـمـيـدعِ

وله وقد سأله غلام جميل من الرق تحريرةً من خطِّه:

رأيـت ذا الـرق مـن إفـراط رقّـتـه ... إلـى الـكـتـابـة قـد أَلـقَـى مـعـاذيـرَه
وقـد قـصـدت إلـى الـتـحـريـر مـبـتـغـيـاً ... ثـواب ربـي وقـد أنـجـزت تـحـريـره

وله في مدح شرح نجم الدِّين الرضي على الكافية للشيخ ابن الحاجب رحمهما الله تعالى:

عـلـيـك بـالـنـجـم إذا مـا دجـت ... ظـلـمـة نـحـو إن أردت الـمُـضـي
من شاء يدعى الـسـيـد الـمـرتَـضَـى ... فـي قـومـه كـان أخـاً لـلـرَّضِـي

---

(١) خزيمة مقبرة صنعاء الجنوبية.

وفي قوله المضي تورية لأنه يصلح أن يكون من قولهم أضاء إذا استنار من الضَوءِ الذي هو النّور، ولذا رشح له بقوله: إذا ما دَجَت ظلمة نحوِ، ويصلح أن يكون من قولهم مَضَى يمضِي مُضيًا ومُضوًّا إذا نفَذَ وعبَرَ، ولذا رشح له بقوله عليك بالنَّجم لأن النجم مما يُهْتَدى بضوئه عند المُضي في الليل المظلم كما صرّح بذل الكتاب[١] العزيز والسيد المرتضَى هو أخو السيد الرضي جامع نهج البلاغة.

وله في مدح كتاب «المناهل الصافية في شرح معاني الشافية» للشيخ العَلاَّمة لطف الله بن محمد الغياث[٢] رضي الله عنه.

من شاء نقع الغُلَّة الصادية ... ببرد ماء النَّهلة الشافِيَة
فليغترف بالدلو من هذه الـ ... ـمناهل الموروده الصافيَة
فبينها حقًّا وبين السِّوى ... صرف كثير وهي الوافِيَة

وفي قوله كما لا يخفى «**صرف كثير**» تورية لطيفة لأنه أراد به علم الصَّرف الذي الكتاب المذكور[٣] مشتمل عليه، وأراد به أيضاً الفَضْل بالضاد المعجمة، لأنه يقال بين كذا أو كذا صرفٌ أي فضل وعليه قول أبي الطيِّب المتنبي[٤]:

وما الفضة البيضاء والتبر واحدٌ ... نفوعان للمكدي وبينهما صرفُ

ومع معرفة ذلك يظهر لطف تضميني مع التورية أيضاً لمصراع المتنبي هذا في مَدْح الشافية وتفضيل شرحها المناهل المذكورة عليها وهو قولي:

لشافيةٍ في الصرف شرحٌ يفوقها ... مناهل منها طاب للطالب الغرفُ
هما كنز محتاج العلوم كلاهُما ... (نفوعان للمكدي وبينهما صرفُ)

---

(١) في قوله تعالى: «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» سورة النحل الآية ١٦.
(٢) سبق ذكره في القسم الأول.
(٣) يعنى كتاب المناهل الصافية الوارد ذكره في الأبيات.
(٤) ديوانه ٦٦٩ شرح اليازجي.

وقلت أيضاً في تضمينه مع قصد التورية، وقد ظن بعض المغفّلين بأن صَرْف القرش بالدَّراهم النَّقد العددي[1] يماثل صَرْف الدينار في مِقْدار الدَّراهم النقد العددي أيضاً:

ألا لا تقس قرشاً بدينار صارفٍ   له إن تكن ممن له في الملا ظرفُ
فهذا وذا لا شك في نَفْع أيِّنا   (نفوعان للمكدي وبينهما صرفُ)

قلت: ومن تأمل بيت المتنبي وجده صالحاً للتورية متأهّلاً له وليست من قصدهِ، يؤهله للتورية في الصَّرف ويرشحه لها ذكر الفضة والتّبر في صدر البيت كما ترى، فعلى أيِّ وجهِ من وجهي الفضل والصّرف للدينار بالنقد حملت بيته وجَدْته صالحاً له.

أبو المعالي السيد ضياء الدين زيد بن يحيى بن الحسين بن المؤيد بن المنصور الإمام القاسم[2]

هو المعروف بصاحب دار حرير[3]، القاعد من المعالي فهو أبوها على أرفع سرير، شاب ظريف، وروض وريف، ودرٌّ نفيس شريف، بدر تَنَقَّل في البروج، وسار مسير السّوانح في المروج، يكاد الحميا تعصر من شمائله، وزهور اللطافة تقتطف من خمائله، ذو سيادة، لها على فضل الأقدمين زيادة:

يا عمرو ما مثل زيدٍ في الزمان له   على سيادات من مروا زيادات

---

(١) العددى في عرف أهل اليمن صغار النقود.

(٢) هو من العلماء الأدبا مولده بصنعاء سنة ١٠٧٧ وأخوه صاحب نسمة السحر. ونشأ صاحب الترجمة فحفظ القرآن غيباً وأخذ عن الحسن بن الحسين والفقيه الحسين بن عبد الله المسعودي وهنأ والد صاحب الترجمة بمولده الشاعر الكبير الحسن بن جابر الهبل بقصيدة أولها:

كنانة عز فوقت للعدى نصلا   وغاية مجد اطلعت للعلى شبلا

ومات عن تسع وعشرين سنة في عام ١١٠٤. انظر ترجمته في نسمة السحر ونفحات العنبر ونشر العرف ١/ ٧٠٠.

(٣) من دور صنعاء الكبيرة في ذلك الوقت.

دويُّه لمسك المداد سُرر، وخطُّه لجبين الطروس طرر، وألفاظه لصَدَف الدفاتِر درر، وكلماته لمسودّات المجامع غُرر، أُقْسم بالله قسم مَن برّ، أنه لأفصح من نصب له في جامع الأدب مِنْبَر، فله نظم يفاخر الجمان، وشعر عما خفي من فَضْله ترجمان، فلجواد ذهنِه مَراض، ولبنات أفكاره عيون مِراض، تسلب اللَّبيب لُبَا، ويهيم بها كما يهيم بالعيون الحقيقية حُبًا، وله محيًا كالشمس، يشير إليه كف الثريًا للتسليم عن أنامله الخمس، حسده البدر المكتمل، فألقَى نفسه من الغيظ بين جمر النجوم المشتعل، وقد حفَّ بوجهه مسودّ العذار، كما حُفت الهالة في الأفق بالأقمار، ومات وهو صغير، وقد كان للكهول بحسن أدبه يغير، بلغ عمره ستًا وعشرين سنة، ومرَّت عليه أوقاتها الزَّاهية كحلم في سنه، توفي يوم عيد الأضحى، فأصبح الأدب في مأتم وأضحَى، سنة أربع ومائة وألف، وقد حفَّت الكوارث[1] عليه الناس من أمام وخَلف، فانقلبت المسرَّات فيه أحزانًا، وأرخت العيون من المدامع أمزانا، فلو أدرك أبو الحسين الجزَّار[2] ذلك العيد، لما نحر فيه إلاّ القلوب أسفاً على هذا الإنسان السعيد، ولما كان من سَكْرة خَطْبه إلا غير صاحي، ولما أجرى إلاّ دم المدامع لا دم الأضاحِي، فإذا أيام التَّشريق، للعيون في دمعها أيام تَغْريق، سقى اللَّهُ لحده، وأنس فيه غربته وقد انفرد وحده، وما استرد الليل منَّا سبَجَه، وأتحفنا الصَّبح فأهدى لنا فيروزجه، وقد غرس أخوه يوسف[3] من نظمه حديقةً سقاها الحيا، وجمع من شعره ديواناً نفيساً سماه «طلوع الضِّيا»[4]،

---

(١) في (ز) الكواثر.

(٢) هو أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى الجزار شاعر مصري ظريف كان جزاراً بالفسطاط ثم أقبل على الأدب فأوصله شعره إلى الملوك والسلاطين فمدحهم وعاش بما كان يتلقى من جوائزهم، له ديوان. توفي سنة ٦٧٩ (فوات الوفيات ٢/ ٣١٩ وشذرات الذهب ٥/ ٣٦٤) والأعلام ٨/ ١٥٣.

(٣) هو صاحب نسمة السحر (سيأتي ذكره).

(٤) مفقود لا أعلم بمخطوطة منه. انظر كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي ٣٧٦).

أشرق في الكون نورُه، وتفتحت في روضِه بأنفاس الصَّبا زهوره، أشهى إلى ناظِر مُطالِعه من الوسن، وألذَّ فيه من مشاهدة الوجه الحسن، فمن وزنه المرقص المطرب، ونظمه المعجب المغرب، الذي أجَنَّه رقّه، ولمع من سحائب طروسِه برقُه، فكأنه قطرٌ في قراطيس غمامه، وزهر تحت سجف أكمامِه، ونفثاته التي هي الأسحار، ونفحاته التي هي رياضُ يمر بها نسيم الأسحار، وأبياته التي إذا ألمَّت بالنَّدامى فقد ألمت بهم صبا الأبكار، قوله يمدح أخاه يوسف بن يحيى، سقى الله عهديهما وحيا[(١)]:

ثُم فقد أَلممتْ صبَا الأبكار — واكتسى الأفق حُلَّة الأنوار
واحتلى جيدُه قلادة تبرِ — من سَنا الشمس بعد دُرّ الدراري
دبَّ جمر الصباح في فحمة اللّيل — فطارت نجومُه كالشرار
خال شمس الضحى عروساً فأضحى — ينفض الشهب قبلها كالنِّثارِ
وانجلى الزهر في الرياض زواهِ — قد دعَتْنا بألسن الأطيارِ
وكفَتْنا عن مِزْهَرٍ وربابِ — بغنا عندليبها والهِزَار
فرشت تحتنا النبات وأرخت — خِيماً فوقنا من الأشجارِ
شجر كالحسان أوراقها اللّبس — وفي جيدها حُلَى الأزهارِ
ويسل النّسيم فيها من النهرِ — حساماً لقَطْع مَحْل الديار
[لو طفت فوقه الحصى التي فيه — لبدت كالحباب فوق العقار[(٢)]][(٣)]
فاز من بات في الرَّبيع وأضحى — يلتهي بالجِنانِ والأنهارِ
يَعْقد الأنس فوق بعض السواقي — تحت ظلّ الغصون ذات الثمار[(٤)]

---

(١) أوردها أخوه في نسمة السحر ونقلها عنه المؤرخ زبارة في (نشر العرف ١/ ٧٠٢).
(٢) العقار: الخمر سميت به لمعاقرها أي لملازمتها الدن أو لعقرها شاربها عن المشي أو لأنها عاقرت.
(٣) هذا البيت ساقط من نشر العرف.
(٤) في (ب) القمارى.

بـيـن وردٍ ونـرجـسٍ وأقـاحٍ وشـقـيـقٍ وسَـوْسَـنٍ وبُـهـارِ[1]
يـحتوي فضَّةً من النرجس الغض ويُـخـظـى مـن ورده بـالـنّـضَار
إن ذوى نـرجـسٌ وورْدٌ بـكـاهُ لا عـلَـى درهـمٍ ولا ديـنـارِ
ما لـفصل الربيع في الحسن شبهٌ غـيـر أوصاف يـوسفٍ ذي الـفخَارِ
نـجم أفق العُلى الذي قد تسامى عـن مـحـلّ الـشـمـوس والأقـمـارِ
خُـلْقُـه كـالنسيم والخَلْق زهرٌ ونـداه كـغـيـثِـه الـمـدرارِ
مـفـرد العَـصْـر فـي فـخـارٍ جـلـيٌّ كـسـنـا الـشَّـمـس لاح لـلـنّـظّـار
وإمـام الـبـيـان فـالـكـل مـنّـا يـهـتـدي مـن ذكـاه بـالآثـارِ
فـكـرهُ جـمـرةٌ فـسـبـحـان رَبٌّ قـد قَـضـى لـلـخـلـيـل بَـرْداً لـنـار
يـنـظـم الـشّـعـر لـؤلـؤا وَيـداه تـنـثـر الـتّـبـر مـن نـداه الـجـاري
هـاكـهـا بِـنْـت فـكـرةٍ زَفَّـهـا الـفـهـم (م) إلـى كـفـوِهـا زفـاف الـجـوار
طـالـبـاً فـي صـداقـهـا صـدق وُدٍّ كـودادي فـي سـرِّه والـجـهـار
دمت ما قـال نـاشق الـفـوج صبحاً (قُـم فـقـد ألْـمـمـت صَـبَـا الإبـكـارِ)

قلتُ: أين ذوقك أيها الأديب، أين نقدُك أيها اللبيب، أين سمعك أيُّها السامع، أين اختيارك للأدب أيها الجامع، هنا واللّهِ تطيش ألْباب، وعند سماع هذا النظم يفتح من الطّرب الباب، ما سمعت أذني، ولا وقف ذهني، على نظم لهذا النظم يضارع، ولا يجانِس مصاريعه التي هي للحسود مَصَارِع، لِلَّه در هذا الشاب الظَّريف، الذي قصّر عنه ابن العفيف[2]، ما تحمَّل المنصف بنصيف نظمه هذا القشيب، إلاَّ قال قد يوجد الحلم في الشّبان والشِّيب، فشُلَّت يد المنية لما عاجلته، وعزاء لنجوم الأفلاك فإنها طالما ساجلته، رحم الله شبابَه، ورش بالطّل والوابل تُرابه.

وقوله من قصيدة وقد خطرت له النّسمة العطرة، وساومته الوُرق في مهجته

---

(١) البهار: سبق ذكره وهو نبت طيب الرائحة جعد ينبت أيام الربيع ورده أصفر الورق وأحمر الوسط.
(٢) هو الملقب بالشّاب الظريف (سبق ذكره).

تحت ظلال الدّوح فرضي الله عنها إذ بايعته تحت الشجرة[١]:

ماذا روت لك عنه النسمة العطرة حتى علِقت بأسباب الشجا الخَطِرة
هل بَشّرتك بوصلٍ منه حينئذٍ فاشتقت أم أهدت التسليم مقتصرة
بعتَ التصبرّ من وُرق الغصون ضُحى أرجو فلاح الهوى في بيعة الشجرة

وقوله في مطلع قصيدة[٢]:

من قَدَّر الليث لظبي الصَّريم (ذلك تقدير العزيز العليم)
ومن قَضى رب القنَا والظُّبا للابِس العِقد ولاوي البريم[٣]

ونزل بروضٍ صبحاً، بعد أن ألبسه الرّبيع محاسِنه لم يجد به قُبْحَا، ونشر الأفق فَوقه أرديةً من السحاب تُزين من بها خَطر، تطريزها البرق وأهدابها المطر، والجو بالغيم كصدور البُزاة، والبُروق تلوح من خِلاله كصوارم الغُزاة، وقد خَشِي ذلك الرّوض من سفك دِمَاء الشقيق، لمّا جُرِّدت سيوف الأنهار عن حدٍّ رقيق، فجاهُ الربيع من الأوراق والزّهور، بمناديل الأمان وخواتمه مُرسلاً عن النهور، فلاح لعينه فيه الورد الأبيض، ودموع المطر تتحدّر عليه وترفضّ، وقد تدلّى عليه ورقُه حُنوّاً وإشفاقاً، وغطّاه بأكمامه لئلا تطلع عليه الشمس فتُحرقه إحراقًا، كما تدلّى في خدّ المليح ورقُ العِذار المستبين، فستر ورد الخدّ النَّدي لئلاً تُحرقُه شمس الجبين، فقال له مشبِّهاً، وعلى حسنِه منبِّهاً:

مررت بالروض صبحاً وهو مبتسمٌ عن ثغر زهرٍ ذكي العرف ممطورِ
كأنما الطّل في بيض الورود طِلاً يديرها الروض في كاسات كافورِ

ذكرت هنا قول السّري الرَّفا[٤] رحمه الله تعالى في تشبيه الورد الأبيض

---

(١) أوردها أخوه في النسمة وانظرها أيضاً في نشر العرف ١/ ٧٠٣.

(٢) انظرها في نشر العرف ١/ ٧٠٥.

(٣) البريم: سبق شرحه في القسم الأول وهو من حلي المرأه.

(٤) هو السري بن أحمد بن السري الكندي شاعر وأديب من أهل الموصل توفي سنة ٣٦٦ (وفيات الأعيان ٢/ ٣٥٩ ط إحسان عباس والإعلام ٣/ ٨١).

أيضاً[1]:

بدا أبيض الورد الجنى كأنّما ... تنسّم للناشي بمسكٍ وكافورِ
كأن اصفراراً منه وسط ابيضَاضِه ... بُرادة تبرٍ في مداهن بلُّورِ

وهو أحسن من قول عبد الوهاب بن أحمد بن سحنون[2] الحكيم فيه أيضاً:

وورد أبيض قد زاد حُسناً ... فعِند الضد للخجل احمرارُ
يمثله النّديم إذا رآهُ ... مَداهِن فضّةٍ فيها نُضَارُ

وقلت أنا فيه أيضاً:

وابيض وردٍ فوق أغصانه غدا ... يلازم ظِلاً تحت أوراقِه النُّضْرِ
كجيش من الأروام حثّ خيولَهُ ... ليوم صدام تحت أعلامه الخُضْرِ

وقال صاحب الرجمة في الاقتباس:

قد رام ميلي عنكم ... قومٌ عن الرُشدِ مالوا
لم يفعلوا ذاك لكن ... (همّوا بما لم ينالوا)

وقال فيه أيضاً:

رَشَا بسيفِ لخظِهِ ... دمي المصون قد سُفِكَ
حديث سلواني له ... (يوفك عنه من أُفِك)

وقال لما خفّت الدراهم بدور الضرب:

بدور الضرب قد حدثت ... أمورٌ تسخط الخالق
وقد خفَّت بطارِقَها ... (وما أدراك ما الطَّارق)

---

(١) انظرهما في ديوانه ٢٩٤ ط بغداد ويتيمة الدهر ٢/٢١٣ ط العلمية.

(٢) هو شيخ الأطباء في دمشق له شعر وأدب ومن مؤلفاته في الطب «مفرح النفس» توفي سنة ٦٩٤ (فوات الوفيات ٣/٤١٧ وشذرات الذهب ٥/٤٢٦ والاعلام ٤/١٨٠).

وله:

بروحي من تعاتبني فابكي ... فتبسم حين تنظر ما جَرَى لي
ثناياها ومنطقها ودمعي ... لآلِ في لآلِ في لآلِ

وله في الاستخدام مع لزوم ما لا يلزم:

ألقيت بالصد في قلب الشجي كلفاً ... لما تنَزَّهت عنه يا أَخَا القَمَرِ
وردت روضة لبي وهي مؤنقةٌ ... بالحُبّ فيك فراق الرَّوض بالثَّمَرِ

وله لما وقع بَرَدٌ بجهات متنزه حَدّة المحروسة في فصْل طيب المشمش بها فأصابَه ونَثَره على الأرض:

في حدَّةِ البرد المرفضّ أعدمها ... برقوقها[1] إذ رمى في الأرض بالشهبِ
بيض نفت صفرةً عمري لقد ذهبت ... حبَّات دُرٌ بحباتٍ من الذَّهَبِ

وله مضّمنًا مع التورية:

الجوّ جاد على الرياض بوَبْلِه ... وغدا يقول لها وقد ذهب الصَّدَا
لسحابتي فضْلٌ عليك ومنَّةٌ ... وإذا صَحَوْت فما أُقصِّر عن ندا

ومنه قول الشيخ تقي الدين بن حجة رحمه الله تعالى:

جاد النسيم على الرُّبا ... بندى يديه وقال لي
أَنا ما أُقصِّر عن ندى ... وكما علمت شمائلي

وله أعني صاحب الترجمة مضمناً مع اللف والنَّشر المرتب:

قدر الحبيب خطير في الجمال فلو ... أَباح لُقْياه لم أحفل بأَخْطارِ
من لي بريقته والوَجْنتين ولو ... حَبْواً على الثلج أو مشياً على النَّارِ

وله في التورية:

أراد أهلي سُلوّي عن هوى رشأ ... من سحر عينيه لاقت مهجتي وَصَبَا
فصار يعصيهم قلبي الحنين ومَا ... أطاع أُمًا عليه في الهوى وأَبَا

---

(١) البرقوق: هو المشمش عند أهل اليمن.

وله لما أعطاه أخوه الأكبر علي بن يحيى حِصَاناً يُسمَّى اللؤلؤيّ نسبة إلى لؤلؤة[1] وهي محل معروف يغلب على الخيل المربية بها الجودة وكرم الطبع فهي تلحق بالخيل الشامية في النجابة:

احذر تقيس على عليّ غَيْرَهُ ليس الأسافل والأعالي تستوي
لو لم يكن بَحْر المكارم والندا ما جاد لي من فيضِه باللؤلؤي

وله وكتب به إلى من وعده بعارية ديوان الشيخ العَلاَّمة برهان الدين إبراهيم بن محمد القيراطي فتراخى عن إرسالِه

قد أخلف الميعاد بالديوان لي من لم يكن في الوعد بالمتباطي
إني بذلت له مثاقيل الوفا كرَماً فكيف يشحّ بالقيراطي

وما أرجح في أوزان العروض ما قاله الفاضِل القاضي صلاح الدين الصفدي في مدح القيراطي المذكور رحمهما الله تعالى:

وزنت أهل النظم في عصرِنا من غير تفريطِ وإفراطِ
فأهل مصر عند وزني لَهُم زادوا على الدنيا بقيراطِ

وله أعني صاحب الترجمة رحمه الله تعالى في القهوة مُورّياً بقشر[2] وادي شَرِس[3] المعروف وهو من الحسن بمحل عظيم[4]:

لِلَّهِ قهوة قِشرٍ في الإناء بَدت كالمسك في لونها المرموق والنفَسِ
أهدى لنا شَرِسٌ منها لطافته فاعجب للطفِ حويناه من الشرسِ

---

(١) لؤلؤة: قرية وواد ناحية همدان صنعاء على مغربة من (ريعان) وهو أحد منتزهات صنعاء الشمالية الغربية.
(٢) يعني قشر البن.
(٣) شرس: بفتح الشين وكسر الراء وإسكان السين المهملة وادٍ وبلدة أسفل مدينة حجة أكثر مزارعه البن.
(٤) أوردهما صاحب نشر العرف ١/ ٧٠٢.

وله مضمِّناً:

يـا مـن تـولـع بـالأصـداغ فـهـو بـهـا   إلْفُ الصَّبابة لا يخلو من الوصبِ
دعـهـا ومِـل نـحـو ريـقٍ فـي مـراشِـفِـه   فإن في الخمر معنًى ليس في العِنَبِ

قلت لو أنه قال في البيت الأول:

يـا مـن تـولـع بـالأصـداغ مـن رشـإٍ   قد أثمل العِطف منه بارد الشَّنَبِ

لكان أولى لأنه يأتي بلزوم ما لا يلزم، وهو نوع نفيس من البديع ولأنه يرشح لقوله فإن في الخمر بقوله قد أثمل العطف، ولأنه يعود الضمير من البيت الثاني في قوله في مراشفه إلى الرشاء المذكور في قوله من رشاءٍ لأنه أعاد الضَّمير إلى من لم يسبق له ذكر، وإنما دلت القرائن عليه بأنه يعود إلى المحبوب وهو تضمين لولا ما نبهنا عليه حَسَنٌ جداً، يقال عنده الفضل للمتأخر لا المتقدم كما سُمِع فإنه أحسن وألطف وأخف في هذه الأوزان الراجحة من قول المتقدم الشيخ برهان الدين القيراطي رحمه الله تعالى:

عـنـقـود صُـدغ الـذي أهـواه تَـيَّـمـنـي   فـقـال لـي ريـقـه لـمَّـا رأى وصـبـي
إن كـان فـي الـصـدغ عُـنـقـود فـتـنـت بـه   فإن في الخمر معنًى ليس في العِنَبِ

وله أعني صاحب الترجمة من قصيدة:

نـفـس الـمـحـبّ مـن الـلـوام قـد ألـمـت   إن صدَّها عنكم اللاحي فلا رُحمت
تنشي الدموع لكم عيني فقد ألفت   تلك القريحة نثر الدمع وانسجمت

القريحة الجريحة، ومعناه: أن عينه قريحة أي جريحة لكثرة البكاء ولذا ذكر الدموع، وفيه التورية بالقريحة التي هي الطَّبع، يقال: لفُلان قريحة جيدة أي طبع جيّدٌ في النثر والنظم، ولذا رشح للتَّورية بذكر الإنشاء حيث، قال تنشى الدموع وبالنثر والانسجام في قوله نثر الدَّمع وانسجمت.

وهذا النظم أحسن ظهوراً وأظهر نوراً من قول العلامة بدر الدين الدماميني المخزومي رحمه الله تعالى وإن كان الفضل للمتقدم:

لـقـد قـرَّحْـت مـن بـعـد الـتـدانـي   جـفـونـاً بـالـنـوى أمـسـت جـريـحـة
فـإن نـثـرت دمـوعـي لا تـلـمـنـي   فـهـذا الـنـثـر مـن تـلـك الـقـريـحـة

ولما توفي صاحب الترجمة رحمه الله تعالى، قال أخوه الأديب يوسف بن يحيى الآتي ذكره هنا رحمه الله تعالى:

مُـذ تـولَّـى الـضـيـا عـنـي وأَمْـسَـى   نـاظـم الـدُّر بـاطـن الأحـجـارِ
حَـزِنـت لـي الآفـاق حـتـى تـبـدَّت   عـن حـدادٍ تـبـدي ثـيـاب الـسـواري

في هذا النظم التَّورية لأن السواري السحب جمع سارية وهي السحاب تسري ليْلاً. والسواري[1]، أيضاً في عرف هذا الزمان ثياب سواد يليق بها أن تلبس أيام الحداد ولذا قال عن حدادٍ، وبذلك عُرِفت التورية وهي ظاهرة واضحة، وأكثر من يلبس الثياب من السواري نساء البوادي والعوام لا الخواص، ولذا إني قلت مضمناً مع التورية:

غِـيْـد الـبِـداوة فـي سُـود الـسـواري قـد   حـكـيـن فـي الـلَّـيْـلِ أضـواءَ لأَقْـمَـارِ
بـديْـن لـي تـحـت أثـوابٍ لـهـنّ زَهَـت   مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقلت أنا أيضاً مضمناً ومختصراً:

نـاديـتُ مـلـبـوسَـهـا إذْ   غـرَّتْـه ذات الـسّـواري
كـم قَـد تـردَّت بـثـوبٍ   مـا أنـت أوَّلُ سـاري

وقد علمَ اللّهُ تعالى أني نظمت التَّضمين الأول قبل أن أقف على تضمينه بعينه للسيّد الأديب العصري عماد الدين يحيى بن إبراهيم الجحافي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى حيث قال:

كـواكـبٌ فـي الـسـواري قد خرجن إلى   حـدائـقِ ذات جـنّـاتٍ وأنـهـارِ
تـنـوب هـذي عـن هـذي إذا ظـهـرت   مثل النجوم التي يسري بها الساري

---
(١) مفرد ساري وهو نوع من الملابس خاص بالنساء واللفظة هندية.

وقال هو أيضاً في قصيدة أخرى:

لبسَت قميصاً سارياً وسَرَتْ به ... فوقفت أعجب من جمال الساري

وقد أحسن السيد رضي الدين جعفر بن المطهر الجرموزي الأديب العصري لمَّا قرن ذكر الشُّقَّة(١) بذكر الساري في بعض أراجيزه مجيباً بها لما قال:

ولم أَقُلْ مقالتي مُجارِيَا ... لكم ولكن قلتُها تجارِيَا
لمَّا رأَيتُ شخص نظمي عَارِيَا ... قطعت شُقَّة الجواب سَارِيَا

أخوه السيد أبو إسحاق يوسف بن يحيى بن الحُسين(٢)

صِدِّيقٌ أتمَّ الله عليه ما كان أَمِلا، وعلَّمه من تأويل الأحاديث ما عُدّ به كامِلا، فهو من منهل العلم قد عبّ، وفي رياض الفصاحة يرتعي وَيلْعب، سجدت له كواكب الأدب تكريمًا، وانحنى له النَّيران تبجيلا وتعظيما، روضة أماني، ومجمع سرورٍ وتهاني، شبل الآساد، وغيظ الأعادي وكمد الحسَّاد، إلا أن زمانه ولع له بالعِناد، وأنزل كتائب حَزْبِه له بكل ناد، فما لِخُرقه رفو، ولا لكدره صفو، أعرضت عنه الدّينا وقَلَتْ، فرمت بجوهرته إلى بحر غُصصٍ وقلَتْ(٣)، فكم أُلْقِي من الهم في غيابات جُبِّه، وكاد أن يهلك لولا أن رأى برهان ربِّه، ولا يعيب الدرَّ وهَاءُ سلْكه، كما أنَّه لا يضرّ البحر انكسار فُلْكِه، والدَّهرُ للأفاضل ذو عقوق، ومُساعفته لهم أعزُّ من الأبلق العَقُوق(٤)، ينظر إليهم عن

---

(١) الشقة من أسماء الملابس أيضاً في ذلك الوقت.

(٢) من الأدباء مولده في صنعاء سنة ١٠٧٨ هـ وأخذ عن أبيه وعن غيره قال من ترجم له: وأدركته حرفة الأدب وقصد المهدي صاحب المواهب فخالطهم صاحب الترجمة وآنسوا به وله أرجوزة في ذكر أحواله ومن مؤلفاته كتاب نسمة السحر من أشهر كتب الأدب في اليمن، توفي سنة ١١٢١. أنظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) والبدر الطالع ٢/ ٣٧٢ ونشر العرف ٢/ ٩٩٥ وكتابنا مصادر الفكر الإسلامي ٣٨١.

(٣) القلت بفتح القاف النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء.

(٤) يقال في المثل: أعز من الأبلق العقوق يضرب لما لا يكون وذلك أن الأبلق من صفات الذكور والعقوق الحامل والذكر لا يكون حاملاً وإذا طلب الإنسان فوق ما يستحق قالوا: =

شوس[1]، ويعاملهم معاملة أحمق ذي هَوَس:

ما أولع الدهر يوماً بالجفاءِ لذي فضلٍ فمن لي به لو أنه عقلا

وكانت أخبارُه عليَّ ترد، ونهر صيته يتدفّق ويطّرد، فكنتُ أشوق إليه من صبّ، قد تجرع من البُعد حميم الوصَب، فكاتبته وهو المالك، ودارت بيني وبينه نجوم في ليل المداد الحالك، ثم بعد ذلك بلا ريث، وفد إلى كوكبان وفود الغيث، فبهرني بمحاضرته، وأصمتني عند محاورته، لأنه في الاطلاع، منيف اليفاع[2] والتلاع[3]، واجتمعنا جمعاً سالماً غير مكسّر، إلا أنّي غدوت به بعد المسرة في أقرب وقت أتحسّر، لأنه ما سلّم حتى ودَّع، وإذا أنف التلاقي بفراقِه قد تجدّع، وكان بلسانِه عُقدةٌ في الكلام، كأنها لسان موسى عليه الصلاة والسلام، ولكنها أحلى في الأسماع، من العسل الجاري إذا انْماع، طالعت كتابه المسمَّى (نسمة السَّحر)[4]، وقرظته بنثرٍ ونظمٍ أعدُّهما رقية لما عقده فسَحر، لم أظفر منها الآن بسهم، فلذ لم أسدِّد عن قوس الإيراد لها أنفذ سهم، ولم يزل في أذن الزمن شَنْفا، يشمخ به الكون ومن عليه أَنْفا، حتى عرضت له أطماع أشعب، فنزل اليمن الأسفل[5] فمات بعد رجوعه من بلاد شَرْعب[6]، فحزن لمصرعه كلّ إنسان،

= طلب الأبلق العقوق فكأنه طلب أمراً لا يكون أبداً. ويقال إن رجلاً سأل معاوية أن يزوجه أمه هنداً فقال: أمرها إليها وقد قعدت عن الولد وأبت أن تتزوج فقال: فولني مكان كذا فقال معاوية متمثلاً:

طلب الأبلق العقوق فلما لم ينله أراد بيض الأنوق

(انظر اللسان ١٠/٢٥٩).

(١) شوس شوساً: نظر بمؤخرة عينه تكبراً أو تغيظاً.

(٢) اليفاع: التل المشرف وكل ما ارتفع من الأرض.

(٣) التلاع: هو ما علا على الأرض.

(٤) من أشهر كتب الأدب في اليمن ومنه عدة مخطوطات. انظرها في كتابنا (مصادر الفكر الإسلامي ٣٨١).

(٥) اليمن الأسفل هي المناطق الوسطى من جهات إب فما بعدها إلى الجنوب.

(٦) شرعب: بالشين المعجمة وسكون الراء وفتح العين المهملة وسكون الباء الموحدة ناحية معروفة بالشمال الغربي من تعز بمسافة ٤٠ ك. م وتشتمل على عدد من العزل.

وندب فضائله بأفصح لسان، وسُرَّت لمقدمه عليها الحور الحسان، ومساءة بعض القوم عند البعض سرور، ما قضَت به الأيام السريعة المرور، ألبس جدثه مطرد النَّهر، حلَّةً من النبات مطروزةً بالزَّهر، ما قدح الرعد من البارق زندا، فسرت ناره في فَحمة اللّيل ولم تخمد بماء الأندا، وأيقظت الحمائم نسيم الصباح، وظهر سِرّ الصَّبا بنمَّام طيبها وباح، وله أدبٌ كالورد في مقاطفه، وقد حلَّى الغصن بياقوتِه ما لان من معاطفه، ما دخل بيتاً من أبيات أشعاره، إلا وقد حلَّته خريدةٌ من بنات أفكاره، فإذا أسبل حجاب نفسِه، راودته التي هو في بيتها عن نَفْسه، وقد أنشدني من نظامه، ما يقابله الروض بإعظامه، من قصائد طويلة النجاد، ومقطعات تقطع قلوب الحساد، من ذلك قوله من قصيدة:

نعم نفحت من حاجرٍ نفحة المسكِ ... وواصل مكوي الحشا شادن التركِ
على زهرٍ شبَّهته سلك ثَغْره ... فلولا اللمى لم تستبن شُبْهة الشَّكِّ
مُدامي حُميَّا ريقه وتفكّهي ... بتفاح خدَّيه ومن صوته جَنْكي[1]
هي الليلة الغرَّا التي بات بدرُها ... نديمي وبات النجم بالقُرط في ملكي
وما قلتُ أنت الشمس خشية واصمٍ ... بأني في التَّوحيد مِلت إلى الشِّرك
ولو لمحت باهي محياك ما بدت ... لأنوارها في الأفق تقدح أو تذكي
ولولا جنونٌ من جمالِك نالها ... لما قيَّدوها بالأشعة في الشَّبكِ

وقوله من أخرى:

عاصيتُ فيك ملامة العُذَّالِ ... وشريت حبَّك بالنفيس الغالي
أمواصلي والشَّعر يحجب حُسْنَه ... احذر أشعة وجهك المتلالي
نَعَّمتني بمراشفٍ ومعاطفٍ ... نابت عن المعسول[2] والعسَّال[3]
ولثمت منك الخال من ولهي به ... والمرءُ ذو شغفٍ بحبِّ الخالِ

---

(١) الجُنك: من آلات الطرب (معرب جنك بالفارسية).

(٢) في (ب) المسؤل وصححه في الهامش.

(٣) العسال: الرمح (من أسمائه).

وقوله من أخرى هنَّأ بها إمام العصر[1] بزواج له أشعلت فيه القناديل الكثيرة وصوَّر بعض العجم فيه شمساً كانت تضيء على مسافةٍ وعفريتاً عجيباً فقال:

ألَمَّ وقد صاغ الثُّريَا له شنفَا ... وصَفَّ نجوم الأفق في جيدِه صَفَّا
واطلع بدراً في دجنَّة شعرِه ... حوى منه بدر التَّم في تمّه النِّصفا
وماس بقدٍّ كالرُّديني أما ترى ... رداه عليه كاللُّواء قد التفَّا
وما خاف إلا من ترنّم حليه ... وإلا هلال الوجه إذ أسبل الوحفا[2]
وكان وصالي لحظةً برء علتي ... ولم أر حتفاً قبلها يدفع الحَتْفا

ومنها في ذكر القناديل والشمس المذكورة والعفريت:

وشمنا قناديل الزجاج كأنها ... نجوم غدت تبغي بخدمتك العُرْفا
حكين الثريا والسماك وربما ... حكت شمسها أنوار راحتك الوطفا
على قُربك الأفلاك تحسدها لذا ... بأنوارها أمست مغمِّضة طرفَا
ولو لم تكن فينا سليمان ما غَدا ... لخدمتك العفريت والحق لا يخفى
رأيناه طوعاً قد غدا لك خادماً ... وصخر سليمان النبيَّ عنى كَلْفا
ودونك وشياً من سري مهذبٍ ... ومثلك من يرضيه شعر السَّري الرفَّا

وقوله من أخرى يهنِّيه بعيد الفطر المبارك الميمون:

وتهنّ عيد الفطر مغبوطاً بما ... أولاك فيه الله ذو الإجلالَِ
أحييتَ فيه شعائر الدين الذي ... تحمي حماه حماية الرئبال
وخرجت فيه بالجيوش كأنها ... فوق الخيول شوامخ الأجبالِ
بصواهلٍ ومناصلٍ ملؤ الفضا ... وذوابلٍ ميَّاسةٍ ونبالِ
شُخبٌ عجاجته وبيض سيوفِه ... لمع البروق بعارضٍ هطَّالِ

---

(١) يعني به الإمام المهدي محمد بن أحمد صاحب المواهب وكان ذلك سنة ١١٠٨. انظر في ذلك تاريخ اليمن لأبي طالب ٢٥٦ بتحقيقنا.

(٢) الوحف (مصدر) والشعر الكثير الأسود الحسن.

وكأنما الرايات عقبان السَّمَا ... بقوادمٍ خفقت به وتوالي

من أحبشٍ كالليل أو رُوم كَما ... طلع الصَّباح بوجهه المتلالي

ومشهَّرٍ سامي الحِمَى من حاشدٍ ... ومتوَّجٍ من حمير الأقيالِ

وبنيك حولك كالأسود فأنت لا ... شكٌ ولا ريب أبو الأشبالِ

وقوله وقد وقع مطر الولي[1] المعروف وفيه التورية:

الروض أشرق حين جاد غصونه ... دمع الغمامة بعد عامٍ ممحِلِ

قد كاد يتلف بالظما لكنه ... نال الشِّفَا لما تبرك بالوَلي

وقوله في التشبيه:

وما راقني في الروض حين دخلته ... سِوى جلّنار[2] حسنه يدهش الفهما

كما أرخت العذراء كمًّا مورّداً ... ومِن جوخَةٍ[3] في لونِه قلّصت كمًّا

وقوله:

هذا غزالي لم يزل مائساً ... بحُلَّةٍ تَسْحب منها الذّيول

يَسْتره عن صبِّه بُرْدُهُ ... ويْلي على بردٍ كثير الفضول

وقوله في بعض القصائد التي ذكر فيها الشطرنج:

وما أشيم ثغور الزهر باسمةً ... وقد جفتني ثغور لولوياتُ

وعاذلٌ رام بالشطرنج يشغلني ... وكيف عن ظبيكم تُسليني الشاةُ

وقوله:

فديْتك هذا الوجه مذ لاح في الدجا ... غدا البدر نصف الشهر فيه محاقُ

عرفت بحالي ثم تجفو قساوةً ... وإن قلوب العارفين رقاقُ

---

(١) مطر الولي: المطر بعد المطر.

(٢) الجلنار: زهر الرمان (فارسية).

(٣) الجوخ: نسج من صوف يكتسى به والمعنى هنا نوع من الثياب في ذلك الوقت، انظر في شرحه كتابنا (مذكرات يمني في القرن الحادي عشر).

وقوله في جامع[1] عامر بن عبد الوهاب[2] برداع[3] المحروسة وعين نهره المسمّية بالمحجري

أكــرم بــجــامــع عــامــرِ فــشِــبْــهَــهُ لــم يُــغْــمَــرِ
عــيــن رداعٍ دهــرهَــا تــخــدمــه بــالــمَــخْــجــرِ

وقوله في رجل رحل وهو ذو سيرة غير محمودة:

ولابـن الـحـاج يـحـيـى طال فِـكـري وما هـو لـلـريـاسـة بـالـخـلـيـقِ
وقـالـوا سـار قـلـنـا قـد صـدقـتـم ولـكـن سـار فـي غـيـر الـطـريـقِ

وقوله:

لـمـا نـضـت مـحـبـوبـتـي ثـوبَـهَـا لـيـظـهـر الـحـجـل لـعـشَّـاقِـهـا
تـواثـبـوا كـي يـلـثـمـوا رجـلـهَـا وقـامـت الـحـرب عـلـى سـاقِـهـا

وهو من قول تقي الدين ابن حجة رحمه الله تعالى[4]:

يـا حـسـن سـاقٍ يـقـول إن ذهـبـت مُـدامـكـم تـكـتـفـوا بـأحـداقِـي
شـمَّـر عـن سـاقِـه لـنـا وسَـقَـا قـامـت حـروب الـهـوى عـلـى ساق

والأصل فيه قول ابن المشدّ رحمه الله تعالى[5]:

وربَّ سـاقٍ كـالـبـدر طـلـعـتُـه يـحـمـل شـمـسـاً أفـديـه مـن سـاقـي
شـمّـر عـن سـاقِـه غـلائـلَـه فـقـلـت قـصِّـر واكـفـف عـن الـبـاقـي

---

(١) علق في (ب) بقوله: هذا الجامع المذكور هو المسمى الآن بالعامرية فيه من العناية بالبناء والزخرفة ما ليس في جامع غيره من أرض اليمن (تمت) قلت هو من أشهر مساجد رداع وهو قائم إلى الآن.

(٢) هو الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر بن معوضة القرشي الأموي آخر سلاطين بني طاهر ولي الملك بعد وفاة والده سنة ٨٩٤ وكان شديد الشكيمة بطاشاً أقام بزبيد واستولى على صنعاء وامتد سلطانه في جميع اليمن وله مآثر كثيرة قتل سنة ٩٢٣ في معركة نقم. انظر في أخباره في الفضل المزيد لابن الديبع.

(٣) سبق ذكرها في القسم الأول.

(٤) البيتان في خزانه الأدب لابن حجه الحموي ٢: ٢٣٨ ط دار الهلال بشرح عصام شعيتو.

(٥) الأبيات في الوافي بالوفيات للصفدي (ترجمة المذكور) ٢١: ٣٦.

لـمّـا رآنـي وقـد فـتـنـت بِـهِ   من فرط[1] وجدي وعُظم أشواقي
غَـنَّـى وكـاس الـمُـدام فـي يـدِه   قامت حروب الهوى على ساقي

وكنت قبل الاجتماع بصاحب الترجمة رحمه الله تعالى قد كتبت إليه كتاباً من النثر المسجوع إلى محروس صنعاء المحمية لم أظفر به الآن أستدعي منه نظمه ونظم أخيه زيد بن يحيى رحمه الله تعالى، فأرسل إلي بالمطلوب صحبة جوابه فلم يصل فأعدت الكتابة إليه أيام نيسان ثانياً فأجابني من النّظم والنثر بقوله:

سـلام كـالـريـاض إذا تـمـشّـى   بِـعـاطـر نَـوْرهـا روح الـنَّـسـيـم
وأنـفـاس الـحـبـيـب لـدَى مـحـبٍ   تـعـلـل عـهـدهـا بـشـذا الـشـمـيـم
وكـالـصَّـهـبـاء مـن بـيـضـاء رودٍ   أدارتـهـا عـلـى الـخِـلّ الـنَّـديـم
ورنّـات الـحـمـام إذا أعـادت   عـلـى عِـيْـدانـهـا ذكـر الـحـمـيـم
وألـطـف مـن عـتـاب الـخـلّ سـرًّا   وصـوت الـمـوصـلـي عـلـى الـرخـيـمِ
عـلـى الـقـاضـي الـذي أهـدى إلـيـنـا   شـبـيـه الـسِّـحـر مـن سـجـعٍ قـويـمِ
وكـاتـبـنـا عـلـى رِقّ فـقـمـنَـا   بـفـرط ثـنـاً عـلـى الـمـولـى الـكـريـم
وقـلـنـا الـعـود أحـمـد فـيـه مـدحـاً   يـزيـد شـذاً عـلـى الـمـسـك الـفـعـيـمِ
ولـو لـم قـد غـدا روضـاً لـمـا جـا   ءنـا مـنـه بـمـنـثـورٍ نـظـيـمِ
عـلـمـنـا أنـه كـهـف الـمـعـانـي   بـمـا قـد جـاء مـنـه فـي الـرَّقـيـمِ
خـطـيـب مـا انـثـنـى لـلـوعـظ إلاَّ   وصـدَّع وعـظـه قـلـب الـصَّـمـيـمِ
وشـمـسٌ كـوكـبـان طـال مـنـه   وفَـضْـل الـشـمـس بـاد لـلـنـجـومِ
لـيـهـن شـبـام إن الـنـيـل فـيـهـا   وإن بـمـصـرهـا ورد الـشـبـيـم[2]
أحـن لـنـسـمـةٍ مـنـه سَـرَت لـي   حـنـيـن الـبـحـتـري إلـى نـسـيـم[3]

(١) الوافي «من عظم وجدى».
(٢) الشبيم: الشبم الماء البارد.
(٣) إشارة إلى ما يروى عن البحتري أنه كان له غلام اسمه نسيم فباعه فاشتراه أبو الفضل الحسن بن وهب ثم أن البحتري ندم على بيعه وتبعته نفسه فكان يعمل الشعر ويذكر أنه خدع وأن بيعه لم يكن على مراده فمن ذلك قوله: =

وأمــحــضــه الــمــودة إذ وفــا لــي   وفـاء الـغـيـث لـلـنَّـبْـت الـعـمـيـمِ
واسـألـه الـسَّـمـاحـة عـن قُـصُـورِ   بـأبـيـاتـي لـمـربـعـه الـعـظـيـمِ
بـقـيـت أخـاً لِـعَـلْـيـا فـقـت فِـيـهـا   وَجـدٌ فـي الـفـضـائـل مـسـتـقـيـمِ

ورد وردٌ في نيسان فحيًا بالنَّشر، وطوى المراحل في الصبح طي الكتاب لأنه ذكيٌ طاب بالشمس في العَصْر، أم عُقُود حلت نحر الطِرس فَحَلت، وعظمت في الصدور لمَّا من فضل منشيها انتحلت، أم نسمةٌ سرت من كوكبان فهي لا شك نسمة نجد، حققَّت أن منشيها بكوكبان ليس ببدر محاق بل شمس مجد، وهذا المطرب سجع ذوات الأطواق على العذبات، أم سجع الأقلام ذات العمائم الدّهم على بيض الورقات، أقرّ لها جاحدها بالفضل ووحَّد، ورجع المعرِّي في زمانِنا عن الجِدال إلى التسليم بمعجز أحمد، أحمد بن محمد بن الحسن الحيمي، القاضي الذي عزَل ببلاغته في المنثور عبد الرحيم الملقب الفاضل، وطيَّر في النظم رُوَاق ابن الخيمي، أدام الله ما منحه ولا أقول يزيده، لأنه قد بلغ السماك في كوكبان ونال من المنظوم والمنثور ما يريد، وأبَى أن يحيّى إلا بالجوهر لأنه البحر، وأن يغيظ به كل كاشح حتى يملأ بالغيظ منه الصَّدر والسَّحْر، وسرّني بما حباني لولا المساءة بتكليف الجواب، وأنَّى للسُّكَيت[1] في حلبة الآداب مجاراة الجياد العراب:

وابــن الــلــبــون إذا مــا لــزَّ فــي قــرَنٍ   لم يستطع صوله البزل القناعيس[2]

وكنت قد امتثلت أمره الماضي الذي له جدَّد، فامتثلت الآن إعادته ولهذا قلت العود أحمد، وضارعت بهذا الحديث من الفعل ذلك الماضي، وأعوذ بكماله من أن أُخالف حكم القاضي، على أني وجَّهت ركائب فكري إلى نقّاد الجواهر ولا

= أنــسـيـم هـل لـلـدهـر وعـد صـادق   فـيـمـا يـؤمـلـه الـمـحـب الـوامـق

انظر ابن خلكان الوفيات ٥/ ٢٦.

(١) السكيت: هو آخر خيل الحلبة سمي بذلك لأنه يسكت صاحبه.

(٢) من أبيات الشواهد لجرير. انظر اللسان ٥/ ٤٠٥ و٦/ ١٧٨ و١٨٤.

أدري ما يقول، وشعرِي وإن شمّر على الأقران فهو عندي كثير الفضول، وأما المُرْسَل إليه فشعره أشاب الوليد من حسَدِه، وعرًّا بمعانيه أبا العَلاَ المعرّي فهو المعري لما قابل هذا الذَّهب بجسده، وبغّض إلى أهل الذوق السليم حلاوة حبيب[1]، أبقاه الله للأدب ما أُعمِل في قصدة نجيب[2]، والسلام.

ولما وقف على كتابنا المسمّى «الأصداف المشحونة، بالجواهر المكنونة»، ونقل منه أشياء كتب عليه من نظمه قوله:

يا حبَّ هذا الشرح والشعر الذي ... هو لؤلؤٌ تبتاعه بالعينِ
بحران لاحت منهما أصدافُه ... فاطلب لنفسِك لؤلؤ البحرينِ

وكتب تحته ما لفظه: لأن اللؤلؤ المجلوب من البحرين أنفسه والقصد التورية في البيتين قال البحتري[3]:

إذا نضَون شفوف الرِّيط آونةً ... قَشَرن عن لؤلؤِ البحرينِ أصدافَا

المولى إسماعيل بن محمَّد بن الحسن بن القاسم[4]

ملكٌ مُطَاع، وصفه بالبيان لا يستطاع، عرف كل نعتٍ لغيره عنده بالانقطاع، جنَّد عسكره، وملا منهم دسكره[5]، يقول لسيفٍ منه غير كهام، إن لم تهمّ بمعالٍ

(١) يعني أبا تمام.

(٢) النجيب: الفاضل من الخيل والجمال ونحوها.

(٣) من قصيدة أولها:

يهدي الخيال لنا ذكرى إذا طافا ... وافى يخادعنا والصبح قد وافى

(انظر ديوان البحتري ١/ ٣٨١ ط دار صادر).

(٤) هو من الأدباء الفضلاء له اهتمام بالجمع ومن مؤلفاته (سمط اللآل في شعر الآل) توفي سنة ١٠٧٩ وقيل سنة ١٠٨٠. انظر ترجمته في مطلع البدور ونسمة السحر وخلاصة الأثر ١/ ٤١٦ والبدر الطالع ١/ ١٥٥ ومصادر الفكر الإسلامي ٣٧٣.

(٥) الدسكرة: القرية والصومعة والأرض المستوية فارسيتها دَسْكَرة ومعناها المدينة والبلدة (انظر معجم الألفاظ الفارسية ٦٤).

بها غيرُك هام، فلا تعلق من عاتقي بنجاد، ولا تهز بساعدِ مني طَالَ ما نوَّلَ وجَاد، يدفع عن الضعيف ظلمه، ويزيح من الجور الحالك عنه ظُلمة، سليل ملوكٍ تخافهم الآساد، وتسيل لهيبتهم النّفوس عن الأجساد، من ذريّة آل القاسم، وهم ملوكٌ روض محامدهم باسمٌ ناسم، فهو غصنٌ نما، من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السما، وآلاه الجدّ فانفتح له المقفل، وابتسمت له الثّغور فولّى اليمن الأَسفَل، وافاه السّرور بنفحاتِه، ولاح الاستبشار على صفحاتِه، وإذا هو كالمرآة صقيل، والوجه عنوان القلب كما قيل، فكان في عيشٍ أخضر من أعلامه، وأنضر من غصون رِمَاحِه وأقلامِه، مع كمال خلقةٍ جميلة، إذا بدت بُهِتَتْ عيون الأزهار في الخميلة، فللأقمار من مَحَّياه البديع اقتباس، ولها بالاستخدام في مقامِه تقيّدٌ وانحباس، واطّرادٌ بالائتلاف في طاعَته وسبَاق، لأنها ما جاءت[1] لحُسنه بتجنيس ولا طباق، وهو في البلاغة بقلمه أغضف[2] السهام، وفي التشبيب بكلماتِه أشجى من صبٌ مستهام، وله نسيم أخلاقٍ تهزّ عطفه، وطبع سلس لا تحكي الصَّبَا لُطْفَه، [ومتى حكى القيصور الجواد، أو شابه الأبيض اليقَق السَّواد، وأنَّى للعليل إدراك الصحيح][3]، وكيف يُسَاوي الكريم الشحيح، وقد جمع كتاباً، وقيَّد بسلاسِل سطوره آدابًا، سماه «سمط اللآل، في شعراء الآل»[4]، وقد قيل إن ذلك الكتاب، المتنفس عن عنبر الآداب، دينارٌ سبكه الغير، وصكَّه باسمه لكونِه من ذوي الخير، وكيف تنفذ إليه من الفَقْرِ السهام، وقد تدرع لها من الملك سوابغ الأنعام، وهو ممن عاجلته المنيَّة، وثمار شبابِه غضَّة جنيَّة، فما تفتَّح زهرُه بنسمات لطفِه، إلاَّ بادرته المنيَّة الجانية بقطفِه، فإذا اسماعيل بمُدية الموت هو الذبيح، وإذا غرب اللحد قد وارى بدرَهُ الصَّبيح، ولمَّا زاره الحِمَام، بغمَت عن السجع منه الحَمَام، وذوى جسدُه كالرَّوض إذا هجرته الغمام، سقَى الله ترابَه، وحملى من شقيقه

---

(١) في (ب) ماجت وكذا في (ش).

(٢) الأغضف من السهام: الغليظ الريش وهو خلاف الأصمع.

(٣) ساقط من (ز).

(٤) انظر مخطوطاته في كتابنا مصادر الفكر الإسلامي ٣٧٤.

بجواهر القَطْر قِرَابه، ما أضرم فحم اللّيل حمر الشفق، وخافت الغزالة أن تشوى به فاختفت من الأرض في نفق.

وله نظم يدخل الأدباء جنته بسلام، وشعرٌ يقال عنده كلام الملوك ملوك الكلام، كقولِه من قصيدةٍ يمدح بها والده، الذي تلقّى منه طريفَة وتالدَة:

هـذا الـلِّـوا والـبـان والـشـعـبُ ... مـا دونـهـن لـسـائـلٍ إربُ
فـمـقـيـلـهـا رحـبٌ ومـوردهَـا ... عـذبٌ وروح نـسـيـمـهـا رطـبُ
فسَقَـى الـحـيـا تـلـك الـربـوع ولا ... حـامـت بـحـول حِمَائِـهـا الـجـدبُ
ورَعَـى فـريـقـاً حـلَّـهـا زمـنـاً ... رحـلـوا فـلا بـانٌ ولا شِـعْـبُ
رحـلـوا فـروح الـصـبّ مـرتـهـنٌ ... فـي قـبـضـهِـم قـد ضـمَّـه الـركـبُ
فـاعـجـب لـروحِ ضـاعـنٍ ولَـهُ ... جـسـم مـقـيـمِ لِـلأَسَـى نـهـبُ
قـد خـيَّـمـوا فـي قـلـب مـغـرمـهـم ... فـالـكـلّ ودّ بـأنـه قـلـبُ
يـا جـيـرةً قـطـعـوا نـزيـلـهـمُ ... مـا هـكـذا يـتـعـاشـر الـصـحـبُ
إن كـان عـن ذنـبٍ فـلـيـس لَـهُ ... غـيـر الـوداد لـحـسـنـكـم ذنـبُ
لـكـن هـذا الـدَّهـر شـيـمـتـه ... عـكـس الـقـيـاس وصـدقـه كـذبُ

وله مِن أخرى:

عـجـبـاً مـا لـلأخـلَّـة ... اعـرضـوا مـن غـيـر عـلَّـة
وتَـجـافَـوْا عـن كـئـيـبِ ... هـائـم الـقـلـب مـولَّـه
مـسـتـهـام عـذَّبـتـه ... مـن غـزال الـرمـل مـقـلـة
وقـوام مـثـل غـصـن الـ ... ـبـان قـد حـلّ بِـرَمْـلَـة
ومُـحـيَّـا أورث الأنـجـ ... ـم والأقـمـار خـجـلـة
عـبـلـة[1] الـسـاق رداح ... دونـهـا فـي الـحـسـن عَـبْـلـة
غـادةٌ عـادتـهـا لـلـصـبّ (م) ... أن تـكـثـر مَـطْـلَـة

---

(١) في (ب) و(ش) علبة.

جعلت هجر المُعَنى ... في الهوى ديناً ومِلَّة
حرَمت من وصلهِ مَا ... خالق الخلق أحلَّه
وأحلّت قتله والـ ... ـلّهُ قد حرَّم قَتْلَهُ
يا تُرى في أيّ يومِ ... يَصِلُ المحبوبُ حبلَه
وبه في طيب عيشٍ ... يجمع الرحمن شَمْلَه
ويرى العاذِل فيهِ ... تاركاً في الحب عَذْلَه
ويعود الصبّ للمعهود ... من دون تِعلَّة

ولده السيد علي بن إسماعيل(١)

جواد سموح، ذو طرفٍ إلى المكارم طموح، ألبس حسناء المجد حجاله، وأبدى من شيمه الكريمة ما حكمنا معها أن الحِجَى له، وكان يميل إلى البَطَالة، فَكَم مدّ حَبْل لهوِه فأطاله، حتى أنفق نَفَائسه، مُغْرَماً بالقدود المائسة، مفتوناً بالوجوه الوسيمة، مستنشقاً من روض المحاسن نسيمه، مولوعاً بالظّباء الآنسة، هائماً منها بسوانح من المقاصير كانِسَة، فهو ذو طبعٍ من السلسال أرقّ، وطَرْف من الحبّ طالما عَرَض له أَرَقْ، فكم قطف من اللذّات ثمارها، وكم رفع عن وجوه الخلاعات خِمَارها، في مقامٍ تقابلت فيه بالابتسام ثغور الحَبَاب، وثغور الزهور المفلجة بدُرٍّ من قطر الرَّباب، يكربه من الليل أدهم، ومن المدام كميت يذهب بالهمّ، فيظّفر على ظهر ذاك بالصّباح، ويدرك على ظهر هذا المسرات والأفراح، وله همة تورده نهر المجرة في السماء، ويلتقط بأناملها لآليء النجوم من بين سبج الظَّلما، فكم وخدت نجائبه، فبدت مِن بحره عجائِبُه، طالما وفد إلى كوكبان منتجعًا(٢)، ينزل به أيّاماً ثم يركب جواده مرتجعا، كنتُ أراه عند أُمَرائِه مُعَظّمًا، وقد تقلّد عقد أَمَله مُنظَّمًا، جالسته أيام وِفادتِه، ولم يخل حديثُه لي عن إفَادته،

---

(١) أديب شاعر له معرفة بالحساب والفروسية توفي سنة ١١١١ هـ، انظر ترجمته في نسمة السحر (خ) ونشر العرف ٢/ ١٩١.

(٢) في (ب) و(ش) منتجا.

فجالست مُهذَّبا، مُصدِّقاً فيما يدعيه لا مُكَذِّبا، قد جعل الأدب له شِعَارا، وأورث من طاوله مذلَّة وعارًا، فهو أديبٌ إذا نطق أوْ فَاه، نال من قِسم الفَصَاحَة أوفاه، فكم من بنات فِكره من غادةً بهنانَة[١]، أسبلت على سالف القِرطاس من شعر المِداد فَيْنانة، وما برح على طليَة[٢] الأيام قُرْطا، وفوق قوامِها من الوشى مِرْطا، حتى نال من مورد المنيّة شِرْبَه، وفارق من ظباء المنحنى على الرّغم سِربه، برّد اللَّهُ لَحْدَه من الغيث بصيِّبه، وحيّاه من نَشْرِ الرضوان بطيِّبِه، ما جلَبَت دُرّ النّدى تجارُ[٣] الغيوم، وصرف النهار دينار الشمس بدراهم النجوم.

ومن لطيف انسجامِ، الذي يبعث الميّت من تحت رِجامه[٤]، ويدير على السامع صِرْفَ جامِهِ، قوله:

أسرّ غـرامـي وهـو بـالـدمـع مـعـلـمُ ... وأكـتـم وجـدي وهـو لا يـتـكـتَّـمُ
وسقـمـي لـمـا تُـبْـدي الـعـيـون مُـؤيِّدٌ ... بـأنـي الـعـمـيـد الـمـسـتـهـام الـمـتـيَّـمُ
ولـي زفـرات لـيـس تـخـفـى ومـدمـعٌ ... يـسـلـسـل أخـبـار الـمـحـبَّـة فـيـهـمُ
لحَى اللَّهُ من يلحو المتيَّم في الهوى ... ولـم يـدر مـا قـاسـاه فـي الـحـبّ مـنـهـمُ
وأنـي لـذو وجـدٍ وشَـوْقٍ مـبـرح ... إلـيـهـم وأشـجـان تـجـلّ وتـعـظـمُ
أبـيـت أراعـي فـي الـدجـنّـة بـدرهـا ... وقـد عَـبَـرت نـهـر الـمـجـرة أنـجـمُ
وما زلت في داجي الدُّجى أرقب السها ... وقـد فـارق الـطـرف الـمـنـام الـمـحـرمُ
لك اللَّهُ من وَجْدٍ تمكن في الحشا ... وهـدَّم أركـان الـتـصـبّـر عـنـهُـم
وشـاد ربـوعـاً لـلـمـحـبَّـة والأسـى ... وسـعّـر نـيـران اشـتـيـاقـي إلـيـهـمُ
وهـيـفـاء أمَّـا قـدُّهـا حـيـن يـنـثـنـي ... فـرمـحٌ وأمـا طـرفُـهـا فـهـو لَـهـذَم
تُـعـيـر الـغـصـون الـمـلـد لـيِّـن عـطـفـهـا ... وَتُـفـضـح ومـض الـبـرق إذ هـي تـبـسُـمُ

---

(١) البهنانة: المرأة الطيبة النفس والريح واللينة في عملها ومنطقها والضحاكة الخفيفة الروح.
(٢) طلية: جمع طلى، الأعناق وأصولها.
(٣) تجار: جمع تاجر (معروف).
(٤) الرجام: جمع رجمة الحجارة تنصب على القبر أو هو القبر نفسه، انظر اللسان (رجم).

وأما الجفون السّود وهي لواحظٌ فبيضٌ حدادٌ ماضياتٌ وأسهمُ
تعلّقها قلبي زماناً وما دَرَى رقيبٌ ولم يشعر بذلك لومُ

وله[1]:

قد كان طرفي قدماً هو الجواد المقدَّم
في السَّبق كان المجلّي والآن صلّى وسلم[2]

السيد أحمد بن الحسين بن الإمام القاسم[3]

سيفٌ طالت حمائله، وروض طابت خمائله[4]، طيّب الأصل والنجر، أبهى منظراً من نرجس النجم تحت ريحانة الفجر، ذو مجدٍ قد لبسه قميصاً، وقدرٍ يغمص من قدر الشّعرى الغُمَيصا[5]، قد شاد مَنزِله وداره، بربْعٍ اتَّخذ بِهِ القمر له هالةً ودارَه[6]، كان ذا فضاضةٍ وشجاعَة، وكرمٍ يعتمد المسنتون انتجاعه، وأخلاقٍ كَرَاح[7] إلا أنَّها أطهر من ماء قَرَاح، وبدنٍ وافر، وصورةٍ كأنها صورة عُذافِرٍ[8]، ولا غَرْو فإنَّه شِبْلٌ من آساد، تسيل النفوس لهيبتهم عن

---

(١) انظرهما في نسمة السحر (مخطوط) ونشر العرف ٢/ ١٩٢.

(٢) في نشر العرف ورد هذا البيت هكذا:

يفوق كل جواد واليوم صلى وسلم

(٣) أديب تفرد بذكره كتابنا هذا ولم أجده في غيره.

(٤) الخميلة الأولى: الشجر الكثير المجتمع الملتف، والثانية الموضع الكثير الأشجار.

(٥) الشعرى الغميصا: هي الشعرى الشامية النجم الذي في الذراع، يقال من خرافات العرب أن سهيلاً أقبل من ناحية اليمن وأقبلت الشعريان (اليمانية والشامية) من ناحية الشام حتى انتهى المسير إلى المجرة وهي نهر في الفلك فوقف كل من الفريقين على شاطىء المجرة وخطبهما سهيل فأجابتاه إلى الزواج وعبرت إليه اليمانية منهما فقيل لها الشعرى العبور، ولم تقدر الشامية أن تعبر فوقفت تبكي حتى لم تقدر تفتح عينها من كثرة البكاء فقيل لها الشعرى الغميصا.

(٦) الدارة: هالة القمر.

(٧) أي كالراح: الخمر.

(٨) عذافر: بالعين المهملة الأسد.

الأسجاد، تمائمهم السيوف، ومجالس أنسهم الصفوف، وأعراسهم مآتم الحتوف، يَبْتسمون فلا يعرفون ندمًا، إذا بكت عيون الطعنات لفراق الحياة دِمَا، وله في الأدب منهج لم يُسْلك، وشرطه فيه دون غيره أملك، ديناره فيه موزون، لم يصرفه الزمان لأنه في صناديق الدفاتر مخزون، قد أُحْرز في أمنع ظرف، فأحمد ودينار أدبه ممتنعان عن الصَّرف، امتطَت بنات فكره من الدفاتر سريرا، فما أَجال الأديبُ طرفهُ فيها ولمسها إلا أدرك جنَّةً وحريراً، سطور دفاتره ثعابين سود، تلْدغ بما تظهره من الكلمات الفصيحة قلب كلِّ حسود، وكان لديه من كُتُبِ الأدب أوفر قسم، ومن نفائسها ما يدلُّ على لطفها لطف الإسم، ملكتُ أنا منها بعضاً، ممّا أوقع بيني وبين الرياض العداوة البغضاء، لأني معها لم ألتفت إلى ما زخرفته، ولم أرفع طرفي إلى ما نَضَّدته الغمائم بغصونها ورصَّفته.

ومن شعره قوله في شجرة القات، فإنها كانت عنده للسرور ميقات:

لا تطمعن براحةٍ في مجلسٍ ... أضحى الحديث بها[1] عن الأقواتِ

واصرف همومك عن فؤادك كلها ... واقنع بقوت الصالحين القاتِ

وقوله في الاقتباس:

لما رأيتُ الفراقَ جدًّا ... ولم أجد مِنْهُ لي ملاذَا

نادى سريعاً لسانُ حالي ... (يا ليتني متُّ قَبْلَ هَذا)

وقوله:

ثلاثةٌ من يَكُنَّ فيهِ ... أسعدَهُ اللَّهُ إن أطاعه

ونالَهُ كلُّ ما يُرجَّى ... الصبرُ والصِّدقُ والقناعَة

وقوله:

---

(١) كتب في (ب) به ظناً.

مـا فـي الـدُّنـى لـي مـونـسٌ غـيـر الـلَّـطـيـف مـن الـكُـتُـب
فـكـمـصـحـفٍ أنـا بـالـحُـصَـيـن[1] وكــل مــن فِــيــهِ جُـنُـب

وقوله في غلام يلقب باليتيم:

لِـلَّـه خـشـفٌ نـافـرٌ قـد حـكـى بـالـطـرف والـجـيـد ظـبـيّ الـصـريـم
أبــوه مــوجــودٌ ولــكــنَّــهُــم إذ كـان دُرًّا لـقَّـبـوه الـيـتـيـم

ذكرتُ هنا قول محمد بن عُمر العرضي[2] رحمه الله تعالى فإنه جوهرٌ يتيم في غلامٍ مات أبوه[3]:

إن ذاك الــرشــأ الــخــشــف الــذي مــات عــنــهُ والــدٌ فــهــو كَــظِــيــم
زاده مَــوْت أبــيــه قِــيــمــةً كــان دُرًّا فــغــدا الــيــوم يَــتــيــم

وقول الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى لما مات ولده عبد الرحيم[4]:

آهـاً لـشـمـلٍ قـد وَهَـى سـلـكُـهُ وكـان ذا درٍّ بـعـبـد الـرحـيـم
فـلـيـتـنـي لاقـيـتُ عـنـه الـردى وعـاد[5] ذاك الـدُّر درًّا يـتـيـم

وقولي في طفلة تسمَّى درَّة مات عنها أبوها:

يـا درَّة صـبـراً إذا الـمـوت اعـتـدَى وأتـى بـبـدر أبـيـك مـغـرب لـحـدِهِ
لا تـجـزعـي فـلـقـد فـخـرتِ عـلى الـورَى لـمـا غـدوتِ يـتـيـمـةً مِـنْ بـعـدِهِ

---

(١) الحصين بلدة من أعمال آنس وكانت مقر آل القاسم في ذلك الوقت.
(٢) هو محمد بن عمر بن عبد الوهاب العرضي الحلبي كان من الفضلاء الأدباء تولى القضاء مدة ثم اشتغل بالتدريس وولي إفتاء الحنفية بحلب سنتين ثم سافر إلى الروم توفي سنة ١٠٧١. انظر ترجمته في ريحانة الألباء ١/ ٢٧٤ وخلاصة الأثر ٤/ ١٠١.
(٣) البيتان في ريحانة الألباء ١/ ٢٧٦ وخلاصة الأثر ٤/ ١٠٠.
(٤) ديوانه ٤٨٠.
(٥) الديوان: عاش.

وهذا جميعه أحسن من قول الشيخ العلامة برهان الدين القيراطي رحمه الله تعالى في بعض قصائده:

وانشر دُرَّ دمعي في ثُغُورٍ ... بها عِقدٌ من الدُّرِّ النَّظِيمِ
تبسَّم عن يتيم الدُّر مِنها ... ومن عجب الهوى ضحك اليتيمِ

ومن قول القاضي زين الدين بن الوردي رحمه الله تعالى[1]:

تقويم قدك صحّ يا من ثغرُهُ ... درٌّ يُقصِّر دونه التقويمُ
إني لأبكي من جفاك ولي أبٌ ... والثغر يضحك منه[2] وهو يتيمُ

ومن قول الباخرزي[3] رحمه الله تعالى وهو الأصل في هذا كله[4]:

وأني لأشكو لسع أصداغك التي ... عقاربها في وجنتيك تحُومُ
وأبكي لِدرِّ الثغر منك ولي أب ... فكيف يديم الضّحك وهو يتيمُ

وإنما قلت: انما تقدم من النّظم أحسن من نظم هؤلاء الثلاثة الأدباء رضي الله عنهم إلاّ لأنهم جعلوا ضحك اليتيم من العجيب وليس منه في شيء لأن اليتم غير مانع من الضحك كما لا يَخْفى، وقال جمال الدين محمد بن نباتة المصري في بعض القصائد يخاطب الممدوح[5]:

وكم رأيناك لنظم[6] الثنا ... أَباً فجيناك بدُرٍّ يتيم

---

(١) ديوانه ط استانبول سنة ١٣٠٠ هـ ص ٢٨٢.

(٢) الديوان: منك.

(٣) هو أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي شاعر مشهور اختص بملازمة الشيخ أبي محمد الجويني ثم شرع في فن الكتابة واشتهر بكتابه (دمية القصر) المطبوع، توفي سنة ٤٦٧ مقتولاً. انظر ترجمته في وفيات الأعيان ٣/ ٣٨٧ وشذرات الذهب ٣/ ٣٢٧.

(٤) أوردهما ابن خلكان في الوفيات ٣/ ٣٨٨.

(٥) ديوانه ٤٣٧ من قصيدة يمدح فيها قاضي القضاة ابن العديم أولها:

صيرني في كل واد أهيم ... من حظ قلبي منه هاء وميم

(٦) الديوان: لمربى.

السيد الحسين بن علي بن الإمام المتوكل على الله[1]

كريمٌ معين جوده منضاح، وجوادٌ يجيبُ رَفْدُه مَن صاح، يهبُ ولا يهابُ، السَّماح منه حشو الثياب والإهاب، يلوح بارِقُ العطا من أكناف راحته، ويُقذف عنبر الإنالة من خضم سماحَتِه، فهو شقيق الغيثِ نَوَالا، وتوأَم الزّهر المنيرة مَقَالا، كم أذكى في ليل المداد من النَّوَالِ سراجَه، وكرَّ في ميدان الطروس بأدهم قلمِه فأثار التَّتريب عجاجه، يعتمد من ماله إنْفَاقه، ويطاول كل كريم فما برح إلى أن فَاقَه، ولي بعد أبيه اليمن الأسفَل، وفَتح فيها من الرياسة بابها المُقْفَل، فما أَوَى أبوه إلى الجَدَث، إلا أودَع فيه أسْرَار الخِلافة وهو حدث، كما أن الشمس ما أوت إلى غربِها، إلا أودعت ضياءها من الآفاق في شهبِها، ثمَّ سد عليه ذلك الباب، وضُرِب بينه وبين غادة المملكة بحجاب، ثم ولي القُطر الكوكباني، فأشرقت من السرور تلك المباني، وكنت أجتمع أنا وإياه، فإنه صرف إليّ بمحيّاه، لولوعه بالأدب والحِوار، وشغفه من الرقائق بذات الشَّنف والسوار، فمرَّت لنا أوقات، هي للإحرام إلى كعبة المسرَّة ميقات، في دهرٍ كل من راح ومن جاء، وجد بجنابه له من الخطوب منجى، يخجل الورد من أَرَجِه، ولا يرتقي النجم الصاعد إلى درَجِه، فعرفت منه سُقي عهدُه، ما لو عرفه ابن سيّد الناس[2] لقال: أنا عَبْدُه، فهو قرط كمال، ونسمة شمال، يقصر مادحُه، لمَّا تطوَّق بالمعالي صادِحُه، وله أدبٌ ولطافه، وثمر فصاحة يعتمد قِطَافه، فدهره مع وجوده غير محتاج إلى فصل الربيع، وزمانه مع أدبه غير مفتقر إلى روضٍ مَريع، أَجْرى ما رقَّته وأساحه، فإذا أدبه

---

(١) هو الحسين بن علي بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم بن محمد مولده في ضوران سنة ١٠٧٢ وكان كريماً شاعراً تحول آخر عمره إلى العبادة والزهد وتعرض لبعض الأذية والسجن وكانت وفاته سنة ١١٤٩ بمدينة صنعاء. انظر ترجمته في نفحات العنبر (مخطوط) والبدر الطالع ١/ ١٢٢ وكتابنا الأدب اليمني (عصر خروج العثمانيين الأول من اليمن) ص ٦٠١ ـ ١٧ ونشر العرف ١/ ٥٧٣ ـ ٥٨٦.

(٢) ابن سيد الناس هو لقب العلامة أبو الفتح محمد بن محمد ابن سيد الناس اليعمري الربعي مؤرخ وعالم بالأدب من أشهر مؤلفاته (عيون الأثر في السيرة) توفي سنة ٧٣٤ (فوات الوفيات ٢/ ١٦٩ والدرر الكامنة ٤/ ٢٠٨).

مخضرَّ السفح معشب الساحة، فلورد شعره الغضّ، دمع من الندا على وجناته يرفضّ[١]، كم له من خريدةٍ ساحرة الطرف، عذبة المقبّل طيّبة العرف، سيما في الموشح الرقيق، والحميني الذي هو لرياض النظم شقيق، فلَهُ فيه طريقَه، كريمة الأصل عَرِيقة، فَمن دُرَر كلمه، التي طوّق بها جيد قلمِه، فسجع بين أوراق دفاتره بما راق، ولا غرو للمطوق أن يسجع في الأوراق، قوله:

يـا بـانـةً بـالـسـفـح مـن لَـعْـلَـعِ ... مـيـلـي لـتـغـريـد الـقـمـارى مـعـي
فـبـي هـوًى أظـهـرتـه كـامـنٌ ... بـالـجـزع لـولا ذاك لـم أَجْـزَعِ
وفـي الـنَّـقـا مـن تـلـعـاتِ الـحـمى ... قـلـبٌ مـعـنًّـى بـالـرشـا الأتـلـع
ذاك الـذي لـو شـام بـرق الـدُّجـى ... مَـبْـسـمـه الـبـرّاق لـم يـلـمـع
أفـديـه درّيّ الـشـنـا لامـنـي ... عـلـيـه لُـوَّامـي فـلـم أسـمـع
ويـا سـقـى الله زمـانـاً مـضَـى ... كـوَمْـض بـرق بـالـدجـى مـسـرع
قـضـيـتُـه وصـلاً وسـعـد الـقَـضَـا ... يـشـهـد لـي فـي بـرجـه الأرفـع
وأنـت يـا جـبـلـة[٢] حُـيِّـيْـت مِـن ... صَـوْب الـحـيـا بـالـصَّـيِّـب الـمُـمْـرِع
فـفـيـك لاحـت لـي بـدور الـهـنـا ... سـعـيـدة الـمـغـرب والـمـطـلـعِ

وله:

قـسـمـاً بـمـن سـوّى قـوامـك فـتـنـةً ... يُـسْـبـي الـعـقـول إذا تـأوّد أهـيـفـا
إن الـهِـلال حـكـى جـبـيـنـك إذ بـدا ... جـهـلاً ولـو رُزِق الـكـمـال لأنـصـفَـا

وله:

مـا عـلـى الـبـرق مـن وراءِ الـثـنـيـة ... لـو أتَـى مـن أحـبـتـي بـتـحـيَّـة
وقـرا لـلـمـعـشـوق كـشـاف حـسـنٍ ... لـطَـفـتـه الـحـواشـي الـشـلـبـيَّـة[٣]

---

(١) يقال: ارفض الدمع ارفضاضاً ترشش.

(٢) جبلة من المدن اليمنية (أنظرها في القسم الأول).

(٣) الأول: تورية بالكشاف كتاب في التفسير للزمخشري معروف والثاني تورية بالحواشي الشلبية: نسبة إلى مؤلفها أحمد بن محمد الشلبي المصري المتوفى سنة ١٠٢١ جعلها على شرح الأجرومية للشيخ خالد الأزهري وقد اشتهرت هذه الحاشية في اليمن (هدية العارفين ١/ ١٥٣).

كتبت أنا إليه أيام ولايته لقطر كوكبان المحروس وقد عيَّن لنا من المقرر المعلوم شيئاً إلى رجل يلقب بالدَّالي فأرجع الخط وما برح يماطل في مواعيده معتذراً أنه لم يبقَ عنده من الدفع شيء يسلمه منه، وهو قولي في التورية:

أمولاي أشكو إذ تمادى بي الجَفَا   وزاد الهوى في حب مَن منه بلبَالي
وطال عنائي من لئيم ملقبٍ   لَدَيْنا ومِن صُدغ المعذَّر بالدَّالِ [ي]

المولى شرف الهُدى، السابق في العُلا إلى محلّ بعيد المَدَى، لا برح بأدبه الغضّ يُبَاهي الحمائم، ولا برح بجوده المرفضّ يساجل الغمائم، ما مالت غصون البان، وارتجت أرداف الكثبان، وما دامت نسيمُ الصّبا، مفتّحةً لأزهار الرُّبَى، أرفع إليكم ما يستوجب الرفع، بأن الخط الشَّريف لمَّا ينفع لدى الدالي وما عهدتُ خطكم إلاَّ عظيم النّفع، فقد دفع شاهده بأن قال لم يبقَ عنده وجهٌ للدفع، ومثلنَا لا يحوج إلى كثرة الجدال، فما مِن رَغْي حقنا وتوقيره باء ودال، فإن ترجّحوا جانب المنع فهو لدينا أرجح، وإن تروا أن لا بد من نجاح تسليمه فهو لكم بالذّكر الجميل أنجح، والسلام عليكم ما دامت قدود الأغصان، بعد أن تقلدت دُرر قطر في قطن السحابة يُصان.

أخوه العماد يحيى بن علي بن المتوكل على الله(١)

فرع نما أصله، وزها على عاتق الدهر نصله، من أولاد الأئمة الذين طاب ملكهم وأنقذت سيوفهم المسلمين لمَّا حَان هَلْكُهُم، فطال بهم الدين طول رماحهم، واندفق نصرُه اندفاق سَمَاحهم، عرفتُه وهو في دون شَبَابِه يخطُر، وعارض عارضه على روض ذاتِه لم يمطُر، ولكنه من ماءِ نضرة النعيم يرشح ويقطُر، وهو في سعدٍ وإقبال، يخضع من أجلهما الرئبال، وقد ألبسته النّعمةِ

---

(١) أديب له يد في الرئاسة مولده سنة ١٠٩٦ بمدينة إب وتولى قيادة الجند، وكان وفاته سنة ١١٢٠ مقتولاً في معركة يافع. انظر ترجمته في نشر العرف ٢/ ٨٧٢.

برودها، فأوردته الرفاهية بَرُوْدها، ولم يزل متنقلاً من بطون الغُرَف، إلى ظهور خيول عُقِد بنواصيها الخيرُ والشرف، إلى أن توجَّه للجهاد، ومهُدت له المنيَّة بئس المهاد، وسار ولم يعص لإمامٍ أمراً، فأدارت له أنامِل الرّماح من الموت الذعاف خمرا، وقُتِل بيافُع يافعاً، ولم يجد الدُّورِيَّ[1] من الخيل له عاصِماً ونافِعاً، وهو إذ ذاك غَضَّ شَبَابِ نَضِر، قبل أن يجتمع في شاربه موسى والخَضِر[2]، فأبين رأسُه، ونفد للصّعاب مِراسُه، وأُريق دمُه على الصفَاح، وَغَرق شخصُه في يَمّ الكفاح، وتبدَّل خَدُّه عَنْ وردِ الخَجَلِ من دَمِهِ شَقِيْقَا، واستحال دُرُّ ثَغْرِه المَنْسوق من نَجيعه عقيقاً، واشتجرت السمر على طعنِه لمَّا أغاضَها قَدُّه، وأراقت البيض دَمَه غِيْرَةً مِنْ طرفِه الذي فضحها حَدُّه.

أخبرني من حَضَر الواقعة التي يذوب بجنبها الحديد، ولا يُنقِذُ إلاّ الرحمن في حَشِرها من الهول الشديد: بأنَّه لما حُزّ رأسُه وحُمِل، وبكى الكَوْن لمصرَعِهِ بدمعٍ منهَمل، بَقِي جَسَدُه ملقَى بَينَ القُتلى، إلى اليوم الذي تعقب يوم المعركة وَتَلا، ثم جعل أصحابُه يتعرفونه، وقد تصعَّد الجوّ من الدما بالعفونة، فأخذوه وَوَاروه مكفناً بِدَمِهِ المسفوكَ، وقالت له لسان حال الحصا: لَمَسْتُ فَاكَ، بعد أن لم يُلْمَس فوك، ومَضَى إلى رَبِّه فائزاً بالشهادة، وطَّأت الحور الحسان في الفردوس مَهَاده، ما شَبَّ النَّسيم بالنفس لما هَبّ، جمر الورود في مجامر الأترج المخروطة من الذَّهب، وقد وُضِعت تحت أذيال الشجر وأكمام الزَّهر، وتضوَّع بها نشر العنبر بعد أن رَشَّها بمائه النَّهر.

وله شعر قَلّ لقلة أيَّامِه، ولو يمتد سبَبُه كما لم يمتد ما عُدّ من أعوامِه، منه قوله:

حيتك ريح الصبا بالمسك والطيب ... عن مولع القلب باكي العين مكروب

---

(١) الدوري هنا اسم خيل المقتول وأراد به التورية بالدوري المقري المعروف وكذا عاصماً ونافعاً فيقهم.
(٢) الخضر: كناية عن الزرع والبقول والتورية واضحة هنا.

إن حجّبوك ببيض الهند إن معي   سيفاً لقتل الأعادي غير محجوبِ
فإن شوقي لنهدٍ منك كلّفني   ركوب نهدي لادلاجي وتأويبي
كم ذا أبيت لعذب الثّغر في أسفٍ   على اللقاءِ وفي هَمٍّ وتعذيب
مروّع اللب من سيف النوى أبداً   مروّع السمع من عذلٍ وتأنيبِ
صَبٌّ إذا لم يكن يسقي ربوعكم   غيثٌ سقاها بدمع منه مصبوب
إذا تمَنَّيت من دَهْري قضا أربي   ومطلبي فلقاكم كل مطلوبِ
يا ساكني الرَّوضة الغَنّا أعوذ بكم   من أن أكون مُحِبًّا غير محبوبِ
عودوا بوصلٍ فكم أبدى النوى جزعاً   مكنون سر الهوى فيكم وتقريبِ
وزَوّدوني من ريح الصبا أرجاً   يطفي لهيب حشى بالوجد مسلوب
مورق الجفن تذكي نار لوعَتِهِ   وُرق الحمام بترجيعٍ وتطريبِ
للّه يوم بشرقيّ الحمَى ومَا   حواه في الدَّهر من حُسْن ومن طيب
والروض يَضْحك مفتراً أزاهره   والسُّحب يبكي بدمع فيه مسكوبِ
والطاس في كأسها الفضي دائرةٌ   مخضوبة من رطيب الكف مخضوب

وله:

في الروضة الغنا معنى   وزهورها كالزهر حُسْنَا
غنًّا بمغناها الحمام (م) فحبذا مَغْنَى ومَغْنَى
تزهو بأنواع الزهور (م) كما زهت في الحَلْي حَسْنَا
تَثْنى فراداً من جداول (م) فضَّة فيها ومثنى
لكن أخلاق الحسين   ألَذُّ من هذا وأهنَى
تندى بعذب مكارمٍ   وتلوح إحساناً وحُسْناً
وتفوح طيباً عطَّرت   منه الصَّبا ذَيلاً ورُدْنا
حيّاكَ مشتاق يُحَيِّيه (م) الهوى صبحاً ووهنا
وصحيح وجدٍ صحّةً   ما زال منها الجسم مُضْنَى

وله:

نفس على أحبابها حَسْرَى ... وحشى تذوب ومهجة حَرَّى
وأحبةٌ بانوا فبان لهم ... صَبْري وهل أبقى النوى صَبْرَا
يا ساكني صنعاء، لا بَرِحت ... سحب الغمام عليكم تَتْرى
حيتكم عن مغرمٍ دنفٍ ... مُضنى الفؤاد بحبّكم مُغْرَى
يبكي إذا ما البرق لاح له ... ويذوب أن ريح الصبا مَرَّا
واستخبروا عنه النَّسيم ضُحًى ... إن النَّسيم بحالهِ أدْرَى
نفسي فدا ريًّا قد بعثت ... ريًّا به طيّ الصبا عَطرَا
مكسورة الألحاظ تسكرني ... ألحاظها الفتانة السكرَى
سمراء إن هَزَّت معاطفها ... هَزأت بِقَدّ الصعدة السَّمْرَا
يا حبذا دهر الصباءِ مضت ... أيامه كالرَّوضَةِ الخضرَا
وَظِلالَ عيشٍ كم ظللت بِهِ ... في ظل دوح الأُنس والسَّرَّا

وله:

بتُّ أُبْدِي الذي لَدَيّ من الشوق (م) إليها واشتكي ما ألاقي
ثم قابلتها بقلبٍ خفوقٍ ... وحشاءٍ ذابت ودمعٍ مُرَاقِ
فاستلانت عطفاً عليّ ومالت ... مثل ميل الغصون في الأوراقِ
ولوت معصماً عليّ كلون الدرّ (م) يشفى به أليم الفِراق
وأبانت من الغرام الذي ما ... لم أكن احتسبه قبل التلاقي
فعلمنا أن القلوب شهودٌ ... بشهود الدّموع في الآماقِ

وله:

يا حبذا روض المُصلّى الأنيق ... فيه الهوى مثل فؤادي رقيق
تشابهت فيه غصون الرُّبا ... وكل هيفاءِ بِقَدٍّ رشيق
والنَّرجس الغض ولحظ الدُّمَى ... والوجن الحمر وزهر الشقيق

السيد الحسين بن محمد بن الحسن بن حميد الدين(١)

واحدٌ ما له ثانٍ سما حتى أدرك خمسه الأشبار(٢)، وفاضل نفق عنده ذو الفضل وما بار، أديبٌ أتته المعاني طوعاً، وظريف جمع فأوعى، فهو ذو منطقٍ لم نلق لجنسه نوعاً، طالما أسهب في القول، وطال من نُضار كلمه بالطول، فأذهل العقول، بما حرره من المنقول، فَكَمْ لإسْهَابِهِ، مِنْ سُكْرِ أسهَى به، وأنْسَى مَنْ حَقُّه أنْ يُذْكَر من أَنْسَابه، فهو الواسطة في عقدهم، وهو الذَّهب الخالص في نقدهم، إطَّرَحْتُ عنده منهم أعرق نَسِيب، لمَّا أغناني عن آدابِهم بما نظمه من النسيب، وله خَطٌّ رقمه لحروفِهِ المكتوبة، أبدع من نقش الأكف الرعبوبَة، فخطُّه بديع النمط، كأنه في السلك من السطور للدرّ النفيس قد سمط، تستعير عيون الغيد من عيونِه الدعج، وتلتمس ثغورهن من سيناته التوشير والفلج، كتب فإذا هو للأعداء قد كبت، وجرت به جياد همَّته فإذا خيول الكتاب خلفه قد كبت، وكان ذا ميلٍ إلى الدِّعة، قد أودع صدف خمولِهِ من دُرِّهِ ما أودَعَه، لازماً لِكَسْرِ بَيْتِه، مُشْتغلاً بترصيف قَصِيده وبَيْتِه، وله إليَّ مُكَاتَبَةٌ في الرِّقِّ، أسْفَر في ليل مِدَادِها بَدْرٌ مُشْرِق، أعدُها مِنَ الحَسَناتِ للدَّهر، وأُفاخِرُ بها المُتفتح من الزَّهْرِ، اجتمع بي بشبام كوكبان، فَكُنَّا في حجر اللَّيالي رضيعى لُبان، في مَقامٍ هو سماءٌ إلا أن نجومها النُّدْمان، وشفقها الممتد في آفاقها زهر شقائق النعمان، نتحاور بما تُفَضِّله الغانيات على عُقودِها، ويفوق في التحقيق على نُهُودها، في أوقاتٍ بهيَّة، وساعات إقبالٍ شهِيَّة، لَمَّا سَكِرَت نَسْمَةُ السَّحَر، فتعثرت لسكرها في الأذيال من عذبات الشَّجر، وقد أدار عليها زنجي الليل الفاحم، خَمْرا خَمْرَه من الشفق كأنها جمرة الجاحم(٣)، بعد أن صبَّها من زجاجة السماء الزَّرقاء في كأس الثريا، وانتظم حبابها من النجوم وفاح عرفُها رَيًا.

---

(١) انفرد بذكره كتابنا هذا ولم أجده في غيره.

(٢) كأنه من كلام المولدين قال في المحيط: التشبير الإشارة باليد والأصابع عند التكلم، من كلام المولدين اهـ والله أعلم.

(٣) الجاحم: المكان الشديد الحر والجمر الشديد الاشتعال.

وله أشعارٌ تبعث دفين البَلبال[1] وتهيّج قلباً مَشُوْقاً بَلْ بال، لَمَّا رَضَى بها، واحتسى من رِضَابِها، إلاّ أنه لم يحتفل بتقييدها، ولم يحاذر من تبديدها، فانتثر عقدها، وصُرِف نقدها، لا زال عقده المنظوم في نسق، ما فَضَّ كافور الصبح ختام مسك الغسق، وحف بنهر المجرة من النجوم النرجس الغضّ، وعضّ زنجي الظَّلام خد القمر فإذا سواد الكلف فيه أثر العضّ، ومات وهو إلى صِبَاه أقرب، به بعض أريحيه منه يشرب من معتقها فيطرب، نادمته الحور الشبيهة ببنات فكره، ولا برح يتضوّع مسك تراب لحده تضوّع العنبر من ذكره.

ومَمَّا صدتُ من سوانحه، التي كان مرعاها بين جوانحه، قوله:

يا نديمي عانق حبيبك والزم   مثل سمر الرماح منه قَوَامَا
أقطف الورد في الخدود وحاذرْ   من عذار في صدغه النَّمامَا

المراد بالنمام هنا نَبْت معروف عطري قوي الرائحة سُمِّي نماماً لطيب رائحته كأنه ينم على حامله، وفي النظم التورية بالنَّمام وهو رافع الحديث بين القوم على جهة الإفساد والشر، وقد ورَّى به جَمٌّ غفير من الظرفاء قال سيف الدين بن قزل المشدّ رحمه الله تعالى[2]:

ومجلس راق من واشٍ يكدِّره   ومن رقيبٍ له باللوم إلْمامُ[3]
ما فيه ساعٍ سوى الساقي وليس به   على الندامَى سوى الريحان نَمَّامُ

وقال صفي الدين الحلي رحمه الله تعالى[4]:

أقول وطرف النرجس الغضّ شاخص   إلي وللنمَّام حولي المامُ
أيا ربّ حتى في الحدائق أعيُنٌ   علينا وحتَّى في الرياحين نَمَّامُ

---

(١) البلبال: شدة الهم والوسواس والبرحاء.

(٢) البيتان أوردهما المؤلف في حدائق النمام ٢١. تحقيقنا ط دار المدينة، وانظرهما في فض الختام للصفدي ١٣٩، وخزانه الأدب لابن حجة ٢٧٦ وتمام المتون للصفدي ٢٣٦.

(٣) تمام المتون (إيلام).

(٤) ديوانه ٥٥٩ وخزانة الأدب ٢٦٧ وتمام المتون ٢٣٦.

وقال الظريف يوسف بن لؤلؤ الذهبي رحمه الله تعالى[(١)]:

وأكتم أحاديث الهوى بيننا فَفِي خلال الروض نَمَّامُ

وقال الشيخ محمود بن سلمان من فهد الحلبي رضي الله عَنْهُ[(٢)]:

إذ لا نخاف بها الوشاة وحولنا فيها العيون وعندنا النَّمَّامُ

وقال تاج الدين عبد الباقي اليماني[(٣)] رحمه الله تعالى[(٤)]:

بخلت لواحظ من رأينَا مُقْبِلا بِرُموزها ورموزهنّ سلامُ

فعذرت نرجس مقلتيه لأنه يخشَى العِذَار فإنَّهُ نَمَّامُ

وقال غيره:

وهموا إذ توهموا الحسن يخفى مُذ تبدَّى لام العذار فلاموا

قلت هَيْهَات يختفي حسن وجهِ وعلى ورد خَدِّه نَمَّامُ

وقال إمام الأدب الشيخ جمال الإسلام محمد بن محمد بن محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى في مليح يقتلع من خَدّه شعر العذار، وقد أدرك بدره منها السرار[(٥)]:

وقالعٌ من جنَّتِي خَدِّه نبتاً به العشاق قد هاموا

يقول محتجًا إذا لمته (لا يدخل الجنّة نَمَّامُ)

---

(١) انظره في خزانة الأدب ٢٦٧ من أبيات أولها:

باكر إلى الروضة نستجلها فثغرها في الصبح بَسَّام

(٢) نقله المؤلف في كتابه حدائق النمام ٢٢ بتحقيقنا مع أبيات أخرى.

(٣) هو عبد الباقي بن عبد المجيد بن عبد الله اليماني المخزومي أديب مؤرخ من مؤلفاته (بهجة الزمن في تاريخ اليمن) طبع بتحقيقنا ووفاته سنة ٧٤٣. انظر فوات الوفيات ٢/ ٢٤٦ والدرر الكامنة ٢/ ٤٢٣.

(٤) البيتان في فوات الوفيات ٢/ ٢٤٧.

(٥) ليسا في ديوانه.

وقلت أنا قبل أن أقف على نظم الجمال هذا وإن لم يكن بين المعنيين جامع كما ترى:

واعـجـبـاً روضـتـكـم جَـنَّـةٌ ... نَـمَّـامـهـا بـالـطـيـب نَـسَّـامُ
هـذا وقـد صـح عـن الـمـصـطـفَـى ... (لا يـدخُـلِ الـجـنَّـة نَـمَّـامُ)[1]

وقلت أيضاً وفيه القول بالموجب من البديع:

يـقـول الـبـاغـضـون وقـد رأوهُ ... يـمـيـل لـعـاذلٍ يَـبْـغـي شـتـاتـي
تـراه عـن ودادِك مـال ظُـلْـمـاً ... إلـى الـنَّـمَّـام قُـلْـت مـن الـنَّـبـاتِ

القاضي العَلاَّمة أحمد بن صالح بن محمد بن أبي الرجال الخطيب[2]

روضٌ أثمرت من اليراعات غصونُه، وجبل معارفٍ لا تُدْخَل عَنْوَةً حصونُه، سلطان علومٍ مُجاب، بارزٌ في مجلس افادته فما عليه حجاب، تميد له رماحُ الأقلام، وتخفق من الأوراق فوقه الأعلام، وهو لوالدي مِن خُلَّصِ الأحباب، ومن المشايخ الذين فتحوا له من مرتج الفوائد كذا كذا باب، فهو بمعارِفِهِ لاذ، ولبس شفوف إفادةٍ كأنها في الرقة منسوج لاذ[3] وقد أجازه إجازةً شاملة، وأطلق في تحرير رقمها أنامِلَه، وأجاب عليه في مسائل إليه حَرَّرها، ومَهَّد القواعد على

---

(١) حديث لا يدخل الجنة نمام أو قتات رواه أحمد ٥/ ٣٨٩ و٣٩٢ و٤٠٢ و٤٠٤ والبخاري ٦٠٥٦ ومسلم ١٠٥ وأبو داود ٤٨٧٢١ والترمذي ٢٠٩٥ وصححه الطيالسي ٢٢١٥ والطبراني في الصغير ١/ ٢٠٣ والكبير ٣٠٢٠ من طريق همام به وله طريق أخرى عن حذيفة عند أحمد ٥/ ٣٩١ و٣٩٦ و٤٠٦ ومسلم وابن حبان في روضة العقلاء ١٧٦ بلفظ نمام بمعنى قتات والشهاب للقضاعي عن همام عن حذيفة قال: سمعت النبي ﷺ «لا يدخل الجنة قتات». انظر الشهاب ٢/ ٥٨ وعنه نقلنا التخريج.

(٢) هو العلامة والمؤرخ الكبير مولده سنة ١٠٢٩. وتولى الخطابة في زمن المتوكل على الله إسماعيل وألف المؤلفات الكثيرة وفاته سنة ١٠٩٢ انظر ترجمته في (خلاصة الأثر ١/ ٣٢٠ والبدر الطالع ١/ ٥٩ وهدية العارفين ١/ ١٦٢ ومصادر الفكر الإسلامي ٢٤٨).

(٣) نسج من الحرير واللفظة من الفارسي.

الوِفاق وقَرَّرَها، وأزاح ما أشكل، وشَحذ من الأفهام صارماً قد كَلّ، أعاد الحرب من المشكلِ سِلْماً، وصاغ من معدِن فِكْرِه حليّ كِلم يُزَان بها جيد سَلْمى، وهو مع ذلك خطيب، يُذَكِّر عود المِنْبَر أيامه وهو غصنٌ رطيب، ويعيد عليه سجع الحمائم، ويميل عطفه كما كانت تميله النّسيم في حُلَلِ الكَمائم، وكانت مخدرات البديع تبدي له زينتها، وتبرز له محاسنها التي خَمَّر باريها من المسك والكافور طِيْنَتَها، فتلوح له النكت البديعة على منبره، فيمليها في فقره إملاءً يطيب به وعظُه في خَبَرِه ومخْبَرِه، وإن لم تكن في القرطاس مكتوبة، ولا إلى سطوره منسوبة، حتى قال له إمامُ الزمان في بعض الجمع، وقد همل على روض الجامع غيث خطبتِه وهمع: أكثرت يا قاضي من البديع، وجئت منه بما أخرس الحريري والبديع، عَرَّفت ما حَقَّه التنكير، فإنما هذا المقام مقام وعظ وتَذْكير، فقال يا مولانا: إنا هي لطائف سنحت، وبدائع سمحت بها البدائة ومنحت، عرضت عند الإملا، على أن القرطاس لم يستقل بها حملا، فهو ذو بديعة بديعة، تسلب حجى اللبيب لا عن خديعة، وإنما يسلم عقلَهُ لها طائعاً، ويسيل لها من الرِّقَّة مائعاً، لِمَا يجد لها من لذَّةٍ على قلبه، ولما يدركه لها من الوقع الحسن على لُبِّه، فهي في عين رائِها أجمل من البدر، وفي مهجة سامعها ألَذَّ من شفاءِ غليل الصدر، أعطر في الأنوف من نسمة السحر إذا ابتَلَّ منها الذيل، وتعلَّق به مسك الظلام المتضوّع عن نافجة الليل، وأحْلى في الأفواه من الضَّرب، وأحسن موقعاً على المهج من نيل الأرب، تُقَهقه لها من الشراب أباريقُه، وتباري في العذوبة رضاب المليح وإن أبى ريقُه، فهو ممن طال في البلاغة إمكانُه، واستراض في مربع الأدب مكانُه، فكلامه والدُّر سيَّان، وغصن قلمه مائل الأعطاف ريَّان، مع حِدَّةٍ وبراعةٍ، يهدد بها قرطاسَه ويروع يَرَاعَه، وقد ألَّف تاريخاً سماه «مجمع البحور، ومطلع البدور»، سمعت والدي يفصح عليه بالثَّنا، فكم ساقط عليَّ من خلال أوراقه حلو الجنى، ولم يزل ينشر فوائدَه، ويَمُدّ بين يدي مفهوم العلوم موائده، لَمَّا اسودّ من الشباب جُنْحُه، ووضح لمن له عينان من المشيب صُبْحه، حتَّى قصر الأجَل مدَّه، وبلغ رسم عمره حدَّه، فمات بموته السرور، لا برحت عاطرات النسائم على قبره في

مرور، ما تختَّمت راحة الأفق أول النهار في الشرق بالفيروزج من الصبح، وتزينت أجِزّه[1] في الغرب بالياقوت الأحمر من الشفق الحسن فما به قُبح.

وله أدب تميل به المعاطف، وثمر فصاحةٍ يتدلّى عن أطيب المقاطف، من نظمٍ تنظم لآلى البلاغة في سموط من الفات خطه، ونثرٍ تتزخرف وجنات الدفاتر بالخضاب من شكله ونقطه.

قال من قصيدة، بها الجوارح مصيدَه:

عَسَى عهد وادي البان عندك لا يُنسى ... فيعطف قلباً منك كالحجر الأَقسى
وتذكر ظل الأثل في وسط الضّحى ... وبرد رضاب كالمدامة إذ يُخسى
وصوت هِزَارٍ في الصباح مغرّدٍ ... وتطريب قمري الأراك إذا أمسى
وأيامنا بين العُذَيب وبارقٍ ... وصَيْد ظبا الوعساء في قاعة الوغسَا
نغازِل فيها النعاسات ونجتلي ... لواحظها النعسا وأفواهها اللُّغسا
بنفسي أفدي العهد لو يقبل الفِدا ... فما ادخر العلق النفيسَ ولا النفسا
أأحباب قلبي كيف أنتم مع النّوَى ... وهل تذكرون اليوم يا سادتي أمْسَا
فإني على وُدّي الذي قد عرفتُم ... وعهدي كثهلان الشّمارخ أو أرْسَى

وقال رحمه الله تعالى في ذكر روضة حاتم المحروسة بالله تعالى[2]:

روضة قد صبا لها الصَّغْدُ شوقاً ... قد صفا ليلها وطاب المقيْلُ
جوّها سجسج وفيها نسيمٌ ... كل غصنٍ إلى لقاه يميْلُ
صَحَّ سكانها جميعاً من الدّاء (م) وجسم النَّسيم فيها عليلُ

وقال أيام البرد في جزْم[3] له عتيق وفيه مع ما لا يخفى الجِناس:

---

(١) كذا في (ب) و(ش) وفي (ز) أخر.

(٢) القصيدة أوردها المحبّى كاملة في كتابيه نفحة الريحانه ٣/٤٨٦ وخلاصة الأثر ١/ ٢٢٠ والشرواني في حديقة الأفراح: ٥.

(٣) الجرم في عرف أهل اليمن ثوب غليظ يصنع من الجلد والشعر ويلبس أيام البرد.

نَحى جَرْمِي الضعيفَ قويُّ بردٍ ... بِلا ذَنْبٍ أتيت ولا بِجُرْمِ
فصِرتُ أنا المُبَرَّد في كِسائي ... أرى الفَرَّاء يُفرِحني بجَرْمي[1]

وكتب إلى بعض الأعيان الأدباء، كلاماً تسقم لحُبِّه وَحَسدِه نسيمُ الصَّبا، جاءَ فيه بالجوهر الفرد، يشفع لغلام له اسمه قبول لما عامله بالعكسُ والطَّرد، فقال في الاستخدام مع التورية باسم النوع كما تُسْمع وترى، وهو كلام يطرب له النشوان فلا يستطيب عنده وترا، وهو ما لفظه.

الصادر إليكم خدَّامكم قبول لكم الفضل عليه به فهو أهل للاستخدام انتهى.

وكتب أيضاً إلى بعض الحكام يُعَدِّل شخصاً من أصحابه يلقب بالخشبي نسبةً إلى بلاد الخشب[2] ما صورته.

حفظ الله غرة القاضي عزّ الهُدى، واتحفه بالسَّلام كالأزهار غِبَّ النَّدَى، ولا جعل للأعداء عليه سبيلاً، ما طلب قاضي القضاة للشهود تزكيةً وتعديلا، ذكر الحاج فلان الخشبي بأنه شهد لديكم شهادة مقررة، وطلبتم بعد الشهادة تعديله كما قضت بذلك الشريعة المطهرة، وهو لنا من الخلطاء والأصحاب، ولا نعلم عليه أمراً يوجب التشكك في قبول شهادته والارتياب، يؤدي ما فُرض من الواجبات، ويجتنب ما أمر بإجتنابه من المقبَّحات، وقد خبرناه في سفرٍ وحضر، فما علمنا عليه من سوءٍ أو ارتكاب خطر، فهو عندنا عدل ماله عديل، باطنه يعلمُه الله وظاهره جميل، وهذا يكفي في عدالته وإن كان قد قيل:

إن الغصون إذا عدلتها اعتدلت ... وليس ينفعك التعديل في الخشب

أخوه القاضي علي بن صالح بن محمد بن أبي الرجال[3]

من ذوي العرفان، فله من العلم والأدب صنفان، أما سهم قلمه فواقع، وأمَّا

---

(١) في هذا البيت الفراء والكسائي والمبرد والجرمي وكلهم من علماء اللغة والقراءات.
(٢) بلاد الخشب: وطن من أرحب شمالي صنعاء (معجم البلدان والقبائل اليمنية ١٢٥).
(٣) شاعر بليغ مولده بصنعاء ومدح أعيان آل القاسم وديوانه في مجلد ضخم. توفي سنة =

نهرُ نفثاته فقد طفَت عليه مِن الرِّقَّة فواقِع، وهو ممَّنْ خَانَهُ الزَّمن، وصاده الاحتياج لمَّا كَمَن، أُضْرِمَت نَارُ الخطب، ففاح فوقها عُوْد أدبه الرَّطب، بعد أن حمد بثقله وصلابة لمسه، واسوداده الذي هو نظير سواد نفسه، فرأيته لمّا سلك به الزمان أقبح سُلُوك، يلتزم أبواب لصوص يزعمون أنهم ملوك، جودهم مكدود، وظلهم قالص غَيْر ممدود، لا يُحْسنُون إلاّ في طريق الجور سلوكاً، قُطّاع طريق صاروا في ظنّهم ملوكاً، ففي هذا الزّمن قد فات، وجود رئيس يخلّص من الآفات، ويُرْشِد للسداد، فما لِنَخْل الأمل عنده جَذَاد، حتى بطل مذهب المهركية[1]، كما وصفه عنهم أرباب النقول والعقول الزكيَّة، فملوك هذا الزمان، الغنيمة منهم الأمان، فلو أدركهم الحارث بن هَمَّام، لأنشد فيهم قول أبي تَمَّام[2]:

مضى الأملاك وانقرضوا فأمست سُرَاة ملوكنا وهم تُجارُ
وُقوفٌ في ظلال الذمّ تُخمى دراهمهم[3] ولا تُخمَى الذمارُ

شاهدته وهو لديهم مجهول الدر، قد عاملوه معاملة الكلف للبدر، فكم غَصَّ منهم بالريق، ورجع عنهم أيأس من غريق، لا يلتفتون منه إلى الشعر، فأدبه لديهم رخيص السِّعر، مع تكثيره لمدح من يستحق الذَّمْ، ومن يكن أهلاً لتقليده بالشَّفْرَة فكيف باللَّهذم، وما أحسن الشعر إذا لم يُبْتذل، وما أعزّ صاحبه إذ لم يكن بالأطماع قد ذلّ، وقد خَلَتِ الديار، وعَزّ الأزديار، فلا مليح يُعشق، ولا مليك لديه الغرض يُرْشَق، فالأمل خائب، والنائبة في وُجُود النائب، فللّه درّ رَجُلٍ يرفع

= ١١٣٥ هـ، انظر ترجمته في نسمة السحر (خ) ونفحات العنبر (خ) والبدر الطالع ١/٤٥٦ ونشر العرف ٢/٢١٧ وما كتبناه عنه في الأدب اليمنى (عصر خروج العثمانيين من اليمن) ٥٥١ ـ ٥٨٠.

(١) لم أقف على معنى هذه اللفظة. ولعلها المزدكية من الأديان المجوسية.

(٢) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي (٢/ ١٥٤ ط دار المعارف من قصيدة يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شبانة أولها:

نوارٌ في ضواحيها نوار كما فاجاك سرب أو صوار

(٣) الديوان: دراهمها.

إلى الأسماع، بأنه قد غَسَل ثوبه من درن الأطماع، وهو الآن موجود، لكنه مع كبره في العدم معدود، يمشي على ثلاث، بعد أن مَرَّت عليه الشبيبة كأضغاث، أكل عليه الدهر وشرب، وبَعُد أجلُه فليس بمقترب، فهو بادي اللَّواطف[١]، منحني القامة شاحب المعاطف، يعجز عن حملِ الحِبَر[٢]، وترعَش يَدُه مِنَ الكِبَر، فإذا هو بَحْرٌ رَجَّاف، مملوء بِدُرَر الأصداف، لأنه أعمر من لُبَد[٣]، قد خُلِق من مُدَارارة الأنذال في كَبَد، ومن شعره قوله:

خَلِيلي جوزابي فليس عَلَيْكُمَا ... غَوَاي الذي أغوى ولا لكما رُشدِي
ولا تحسبا أني أميل عَنِ الهوى ... إذَا صَدّ من أهواه أو مال عن قَصْدي
فلي هِمَّةٌ تعلو على كل ثاقبٍ ... وعزمٌ يشق الهام كالصارم الهندِي
وشان الهوى يدعو المذلّة للفتى ... وليس الرِّضى بالذُّل من شيمة الأُسْدِ
وإني جديرٌ بالعلى ويحق لي ... بأن أقطع البيداء سعياً إلى المجدِ
فإن أبلغ العليا فقد فزت بالمُنَى ... وإلاَّ فقد أبلغت في نيلها جهدي
وإن صدني عنها أناسٌ لظنّهم ... خمولي وإني لا أقوم بها وحدي
فقلت لهم مهلاً فلا بُد أن يُرَى ... شَرَار الوَغَى يعلو الشوامخ من زندي

وقوله مضمناً في رجل تزوَّج بامرأة ولها أخٌ جميل كان يميل إليه ما لا يميل إليهَا[٤]:

تمتع به كالظبي جيداً ومقلةً ... بِقَدٍّ كغصن البان أثقلهُ الردفُ
وخصرٍ عليه البند يرتج[٥] تحته ... جبال جبال الطور في جنبها قُفُّ[٦]

---

(١) اللواطف: من الأضلاع ما دنا من صدرك وهي مأخوذة من معنى القرب.
(٢) جمع حبرة ضرب من البرود ورداء تلبسه النساء.
(٣) في المثل أعمر من لبد قال الزمخشري: هو نسر لقمان العادي سَمَّاه لبدا معتقداً فيه أنه لبد فلا يموت ولا يذهب ويزعمون أنه حين كبر قال له: انهض لبد فأنت نسر الأبد.
(٤) الأبيات في نشر العرف ٢/٢٢١.
(٥) البند: من الفارسي بمعنى الرباط أو نحوه.
(٦) القف: ما ارتفع من الأرض وفي نشر العرف (حقف).

ودع أختــه تـخـتـال فـي درحـلـيـهـا　　محجبةً قد حال من دونها السَّجْفُ
وفـي إذنِـهـا شـنـفٌ وهـذا إذا بـدا　　لعينيك مثل الظبي ليس له شنفٌ
(وما الفِضَّةُ البيضاء والتبر واحدٌ　　نفوعان للمكدي وبينهما صَرْفُ)[1]

وقوله: ينوح مع الطير وقد ناح، وليس عله جُناح في مجاورته ذات جَنَاح، فكم أرشدَ شادي البَلابِل، إلى طريق الهَيَام وسبيل البلابل، فما ضلّ بعد إرشاد شاد، ولا هَدَم من مباني الصَّواب ركنه المشاد، فالمساعدة لذِي الوَجد من لطفِ الشمائل، والمعاونة للباكي تُعَدّ من نفحات الشمائل[2]:

ولـقـد أقـول وقـد تـغـنَّـت بـالـحِـمَـى　　ورقـــاء ذات صـــبـــابـــةٍ وَوُلـــوعِ
والـعـود فـي يـدِهـا يـمـيـل وإلْـفُـهـا　　يـخـتـال بـيـن خَـمَـائـلٍ وَفُـرُوع
والعين قد سفحت وهاج لها البكا　　تَـــذْكـــارُهـــا لأَحِـــبَّـــةٍ وَدمـــوع
أحـمـامَـةَ الأيـك الـتـي قـد هـيَّـجَـت　　شـجـو الـكـئـيـبِ بـأنَّـةٍ وسُـجُـوع
مَهْلاً فنفخك للسوالف في الغَضَا[3]　　أذكَى غَضى الأشجان بين ضلوعي
فَدَعِي الهوى ثم انتحي[4] فَتَخَيَّرِي　　دُرًّا لـطـوقِـك مـن بـحـار دمـوعـي

وقوله في مليح بفرد عين بين اثنين مثله في الملاحة وهو يفوقهم:

ثــلاثــةٌ مــا فِــيْــهُــمُ واحــدٌ　　إلاّ رشـيـق الـقـد صـافـي الـبَـدِيْـد
تـجـمـعـوا كـالـدُّر فـي سـلـكِـه　　والـدُّر أغـلـى مـا يـكـون الـفَـرِيـد

أخوهما القاضي الحسين بن صالح بن محمد بن أبي الرجال[5]

عُزِّز أخواه منه في الفضل بثالث، فهو فاضل تَنوب كلماتُهِ عن طرب المثاني والمثالث، أينعت جِنَانُه، وقَهْقهت دِنَانُه، بَدْرٌ ذو بهجةٍ، لَهِجٌ بِصدق اللهجة،

---

(١) تضمين بيت المتنبي (سبق).
(٢) الأبيات في نشر العرف ٢/ ٢٢١.
(٣) النشر: الفضا.
(٤) النشر: اسجي.
(٥) ترجمته في نشر العرف ١/ ٥٥٤ ولم يحدد وفاته.

وروض مُذهَبْ، بِهِ جُلاءُ الغَمّ والهَمّ، وَجَوادٌ قُصرت عليهِ المكرمات، وميمون نقيبَةِ حَياته الوفا والمكرمات، أدرك المعالي وهو في القماط، وحسر عن وجهها خمار الخفا وأماط، ما هو إلا أن في طلبها شَرَع، وإذا قد أدرك الكمال فمجدُه أخيراً ومجده أولاً شَرَع، نَقَل عَنهُ المُخبِرِ مَا نَقَلَ النَّسيم عَنِ الحديقة، وأنزل على الفؤاد من ذكر سجاياه ما أنزل الغيث من شآبيبه الغَدِيقة، حَتَّى قَرّ طرفي بأخباره الطيِّبة، وثلج صدري بقطرات الثناء عليه فهي صيّبه، وله نفثات في المنثور والمنظوم، تخجل من حسانها ذاتُ الحِجْل المَلآن والكشح المهضوم، فلآلي كلماته بأسماط سطوره في نسق، وقِرطاسُه لمَّا جَرَى عليهِ نِقْسه[1] تَكَوّن مِنْ صُبْحِ وَمِن غَسَق، تتكَلَّم دُرَرُ الفصاحة في أقفاصِ من حروف خَطِّه، وَتَزْهَرُ في لَيلِ حِبْرِه نُجُومٌ تَرْمي الفلك الأرفَع بحطه.

أنشدني له بعضُ الأدَبا، مِمَّن أَجْزَل لي مِنْ إهداء آداب العَصْريين الحُبَا، قوله في مُزَيِّن لا يُحْسِن الحلاقة، ما بينُه وبين أحكام الصنعة من علاقة[2]:

هـذا الـمـزيِّـن قـد غـدت أمـواسُـه   في حـلـبـةِ الـتَّـقـصـير وهـي شـوامسُ
ونـظـرتُ فـي مُـغْـبَـر فـوطَـتِـه وقـد   قـالـت أنـا الـغـبـرا وهـذا داحِـسُ

وقوله في رجُلٍ اسمُه الشطر قَطَّ لديه ذُبالة مصباح وفيه التَّورية:

تـسـلـط لـلـسـلـيـط الـشـطـر لَـمَّـا   أنـار سـراجُـه حـتَّـى تـسـلـط
وقـطّ ذُبـالـتـي لـيـنـال سـرقـاً   فـلـم أر مـثـلَـه فـي سـرقـةٍ قـطّ[3]

وقد سبقه إلى هذه التورية ابن لؤلؤ الذَّهبي لما قال[4]:

وذي قـــوامِ أهـــيـــفِ   بـيـن الـنَّـدامـى قـد نـشـط

(١) النقس: المداد الذي يكتب به.
(٢) اليتان في نشر العرف ١/ ٥٥٤.
(٣) قط: القلم ونحوه قطع رأسه.
(٤) البيتان في ريحانة الألباء ٢/ ٥٠.

قــام يــقــط شــمــعــةً فــهــل رأيــت الــذّئــب[1] قــط

وقال شهاب الدين الخفاجي رحمه الله تعالى في مدح ابن الذئب[2]:

لــلــذئــب نــجــل فــضــلــه لاح عــلــى غــيــر نــمــط
حــكــى[3] أبــاه فــي الــعــلا فــهــل رأيــتَ الــذئــب قــط

وأصله قول الأول من الشواهد النحويَّة[4]:

حـتـى إذا جَـنَّ الـظـلام واخـتـلـط جـاؤا بـمَـذْق هـل رأيـت الـذئـب قـط

القاضي أحمد بن عبد الله الهبل[5]:

هذا يُلَقَّبُ بالكحيل، لأنه كان ذا طرف أدعج وخَصْرٍ نَحِيل، قد نال من الجمال ما يرجوه، وفي الحديث «أطلبوا الخبر عند حسان الوجوه»[6] روض علمه طرير، فلنهر الأدب به خرير، لم يزل في طلب العلم كادحا، بعزم ما سمعت الآذان به قادحًا، دخل حدائق الإفادة من أبوابها، وقد لبست غصونها من الأوراق مُخَضر أثوبها، وسقط عليها سقوط الندى في الصَّباح، على وجنات الورد وثغور الأقاح، فجَنَى منها ما هو أحلى مِنَ المنّ، وسمع من طيورها ما هو أطرب من

---

(١) كذا في الأصول والذي في الريحانة «الظبي».

(٢) ريحانة الألباء ٢/ ٤٩.

(٣) في الريحانة: حاكا.

(٤) من شواهد المغنى الشاهد رقم ٤٠٥. وانظر اللسان ٤/ ٢٤٨ وج ١٠/ ٣٤٠.

(٥) أديب ذكره صاحب نفحات العنبر نقلاً عن كتابنا هذا وقال لعل وفاته نحو سنة ١١١٠. انظر نشر العرف ١/ ١٨٢.

(٦) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه، رواه القضاعي في مسند الشهاب عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً ورواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج ٥٢ وأبو الشيخ في الأمثال ٧١ والخطيب في التاريخ ١١/ ٢٩٥ وابن عدي، وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، ثم قال ٢/ ١٦٣ فيه محمد بن عبد الرحمن بن المجبر، قال يحيى: ليس بشيء، وقال ابن حماد: متروك الحديث، وسئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال: كذب (انظرا لشهاب ١/ ٣٨٤).

الوتر إذا رَنّ، وعُدّ من العلماءِ والصدور، والمبرزين الذين عليهم رحى الإفادة تدور، ونزل بفضله منزِلَةً نازعت الشموس والبدور، فسيفه ماضي الفولاذ، ورِداءه الفضفاض من ألطف اللاذ[١]، وكان بينه وبين والدنا أتم علاقة، وأوفر مودّة تَلَقَّاها الروض بالبشر والطَّلاَقَة، وَلَمَّا وفد إلى كوكبان رسولا، أنجح إلي الزمان من لقائه أرباً وسُؤلاً، فكنت أجتمع به بمقام أبي، واسمع من محاورتِه ما خُلِب به حجاي وَسُبي، مِن علمٍ يخوض في يمه، وأدبٍ يجني زهوره من كمِّه، والشَّمط قد أخذ بلحيَتِه ورأسِه، والوقار قد احتبى تحت ظل غِرَاسه، فرأيتُه في كل العلوم ذا يَدٍ ليست بمغلولة، ودرايةٍ ما أحاديثُها أبداً بمعلولة، سيما في المعاني والبيان، فَلَه منهما القسمان الأوفيان، مما يغنى الإيجاز فيهما عن الاطناب، والكناية والتلويح عن الاسهاب.

وله شعر طَفَت على مائِهِ من الحُسنِ فواقع، وتبلجت خرائد معانيه من المداد تحت سود البراقع، أنشدني له من قصيدة قوله:

تركتني في الهوى حيران ذا قَلَقِ ... وقد تصبّرت حتى لات مصطبر
تمر بي وتثني غير ملتفتٍ ... كأنما أنت من وصلي على حَذَرِ
تسارق اللحظ نحوي تشتهي تلفي ... تيهاً عليّ وما حظّي سوى النَّظَرِ
يا قاتل الله ألحاظاً تسارقها ... ترمي فؤادي عن قوسٍ بلا وتَرِ
أكنى بغيرك محبوباً مغالطةً ... وأنت أنت حبيبي منتهى وطري
يا نَصْب عيني ما في الجر فتح عنّى ... والضم في الوصل للمجرور لم يَجُرِ
والضم جار بمرفوع المحل فلا ... تجزم بَمْنعٍ ولا صرف له تزر

وأنشدني له أيضاً من قصيدة أخرى:

أما ترق لِصَبٍّ دائم الأرقِ ... مبلبل البال مجبول على الزَّهَقِ
دامت له زفراتٌ في جوانِحِه ... لما يكابد من شوقٍ ومن قَلَقِ

---

(١) اللاذ: جمع لاذه ثوب حرير أحمر صيني.

لا يستطيع لتسليم مننت به ... ردًا وقد غشيته رِعْدَةُ الفَرَقِ
وكيف يدخل لفظٌ تحت قدرة من ... أضحى لرقَّته في آخر الرَّمَقِ
أهيم فيك ولا تدري وكيف وبي ... حُبٌّ أظل به سكران لم أفِقِ

وأنشدني له أيضاً في التورية[1]:

بداني من أحب فقلت أهلاً ... وقد شاهدتُ منه علي عَطْفا
وقلت سيمنح المطلوب منهُ ... فناول إذ دنا كُمًّا وكَفًّا

وأنشدني له في عقد الحديث[2]:

لا يخدعنك حسن الظن في أحدٍ ... فإنما الحزم سوء الظن بالناس
ولا تَعَرَّضْ لِما تُبْلِيه مَعْذِرةٌ ... واستغن عما بأيدي الناس بالياسِ

وأنشدني له في الحكمة[3]:

إذا رُمتَ كُلَّ العِزّ أعياكَ نيلُه ... وَفَوَّتَ مِنه البعض في طلبِ الكُلّ
فإن نلت بعضاً منه لازمت حفظَهُ ... ولم يختفظ إلا بجزءٍ مِنَ الذُّلَّ[4]

الفقيه الحسن بن علي الهبل[5]

عظيم ولذا قيل له الهبل[6]، هو الصائح المحكي وغيره ابنة الجَبَل[7]، توطّن

---

(١) البيتان في نشر العرف ١/ ١٨٣.
(٢) نشر العرف ١/ ١٨٣.
(٣) نشر العرف ١/ ١٨٣.
(٤) نشر العرف (الكلي).
(٥) من أشهر شعراء اليمن في ذلك الوقت، مولده سنة ١٠٤٨ وتولى منصباً مهماً للإمام أحمد بن الحسن، وتوفي وهو لا يزال في ميعة الصبا سنة ١٠٧٩. يقول الشوكاني: هو أشعر شعراء اليمن بعد الألف على الإطلاق، ترجمته في مطالع البدور وبهجة الزمن (خ) ونسمة السحر (خ) والبدر الطالع ١/ ١٩٩. ومصادر الفكر الإسلامي ٣٧٣ والأدب اليمني عصر خروج العثمانيين من اليمن ص ٤٧٧ ـ ٤٩٥.
(٦) الهَبَل: في اللغة الرجل العظيم أو الطويل.
(٧) ابنة الجبل: كنية الصيحة بين الجبال يسمع لها دوي شديد، وقيل هو الصدى الذي يجيب =

السما علاً ورفْعة، فما رأى بها الناظر لوتْرِه شَفْعَة، ولا ثبت لغيرِه في مَقَامِه بالخُلطة والجُوات[1] شُفْعه، فَمَا المَجَرَّة إلاَّ أثَرٌ لذيلِه المجرور خلْفَه، ولا البدر الكامِل إلا قرين له قد اتَّخَذَه إلْفَه، هو في معاني الأدب أبصر من الزرقا[2]، وحاسده الأنكد في مساعيه أشْأَم مِنَ الزَّرْقا[3]، تاهت به الأيام، وزهت بأدبه الأقلام، لأنه من الفصاحة مُفْرَد، ما لحجتِه فيها من جحدٍ ولا رَدّ، يستفاد السحر من نفثاته، ويستنشق الطّيب من نسماته، ينفح أدبُه بمسك دارين[4]، فَيَطيبُ عَرفُه لقومِ دارين، فهو ألَذُّ من الشباب، وأبرد مِن قطرِ الرَّباب[5] وأطرب مِن نغمات الرَّباب، وانسق من جواهر الحَبَاب، فَكَم سبَكَ التِّبر، على نارٍ من ذكائِه وفحمٍ مِن الحبر، وديوان شعره، أغلى من الدر في سعره، وهو غُرَّةٌ في جبهة الزَّمن، وفَخْرٌ لا يبرح لأهل اليمن، ومِن الناس من يرغب فيه، ويبالِغ في اقتناء نفثات فيه، ومنهم من يرغب عنه فينفُر، ولا يرتقب في ليل مداده صبح أدبه الذي يُسْفِر، والعَالَمُ سالبٌ وواهب، وللناس كما يقال فيما يعشقون مذاهب، لأنه غالى وأطال

= الصائح من الجبل فإذا سمع الرجل الشيء العظيم وعند تفاقم الأمر الشنيع قال: صمي ابنة الجبل: أي لا أسمع، ويضرب مثلاً لمن يكون مع كل متكلم تشبيهاً بالصدى، قال امرؤ القيس:

بدلت من وائل وكندة عدوا ... ن وفهماً صمّي ابنة الجبل

انظر المرصّع ١٢٩ ط بغداد.

(١) الجوات: دعاء الإبل إلى الماء بجوت جوت أو زجرها به.

(٢) أبصر من الزرقاء: مَثَل أنظر قصته في المستقصى ١/ ١٨.

(٣) أشأم من الزرقاء: مثل والزرقاء هنا هي الناقة التي زرقت عينها أي مالت وظهر بياضها وأنها تكون نافرة (المستقصى ١/ ١٧٨).

(٤) دارين: سبق ذكرها في القسم الأول، وهي ميناء على ساحل البحرين يجلب إليه المسك، فنسب إليها.

(٥) الرباب: السحاب الأبيض أو السحاب الذي تراه دون السحاب الأعلى ويكون أبيضاً أو أسوداً.

الكلام، في مدح الإمام عليٍّ عليه السلام، فَمَا أخطأ ولا كاد، بل زان الوجودِ بُحِلَىٰ صاغَه على جمر ذكائه الوقَّاد، فَجِيَد وَصايتِه زَانه النَّص، وطير خلافته لَم يشنه لِجَنَاحِه القُصّ، فهو الإمام لا مَحالة، فما طمسه الطَّامس ولا محى له، وإنْ تَعَمَّق المتعمق زُوره ومَحَال، ولعل للجماعة في التَّقدم عليه عذرٌ والغَبِيُّ يلوم، اللهمَّ تداركنا في مَزَالق الحوب واللُّوم، والمحل محلّ خطر، لا ينقضي للمتأمل فيه من الحقائق وطر، والتوقّف أولى، والعين الصحيحة خيرٌ من الحولا، وأما صاحب الترجمة، فقد أسرج جواد نقمِه وألجمَه، حتى جاوز في الرفض حَدَّه، وحَكَّم سيفُه في الصحابة حَدَّه، والتزم حردا[1]، ولبس مِن ثيابه جردا، حتى قال بالتكفير، ونَفَّر المتوقّفين غاية التنفير، وقد حَصَّل بعض الوافدين من العجم إلى اليمن، ديوانه المذكور قائلاً ليس لما قَرَّت به العين ثمن، لأن لهم إليه رغبَةً مَّا، وفي القيامة يُقتص من القرناء للجمَّا[2]، وعند الله تجتمع الخصوم، ويُعْرَف في ذلك المقام المُنَزَّه وذو الوُصوم[3]، وقد أثبتُّ من نظمه هُنا، ما تتجمل بقلائده الدُّنى، مما تبتسم له ثغور الأقاح، عن شَنَبٍ من القَطْر وَشَّرته أيدي الرياح، كقوله[4]:

هات عن أهل الحِمَى ما فَعَلُوا ... هل أقاموا بعدنا أم رحلوا

إن يكونوا رحلوا عن ناظري ... فبأكناف فؤادي نَزَلوا

---

(١) الحرد: الغضب.

(٢) حديث أن الله يقتص من القرناء للجماء ورد من رواية أبي عثمان النهدي عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال: إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة. وفي رواية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء بنطحها. رواه أحمد في المسند ٧٢٠٣ ومسلم ٢/ ٢٨٣ عن طريق إسماعيل بن جعفر والترمذي ٣/ ٢٩٢ من طريق الدراوردي كلاهما عن العلاء. قال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

(٣) جمع وصم وهو العار والعيب.

(٤) ديوانه ٣٠٢ بتحقيق الأديب العلامة أحمد بن محمد الشامي ط الدار اليمنية ١٤٠٤ هـ.

عمرَكَ[1] الله إذا ما جئتهم ... وتراأت لك تلك الكِلَلُ
قل لهم بالله عني إنني ... حافظٌ ميثاقهم أن يسألوا
أي سرٌ في فؤادي لهمُ ... غير مأمونٍ عليه الرُّسُلُ
صف لهم حالي وخُذْ في شرحه ... علَّهم أن يعلموا ما جهلوا
واطّرح ذكر دمي عندهُم ... ليس يودي عندهم من قتلوا
كم أثاروا من جوًى في مهجتي ... عندما قالوا سلا قلتُ سلوا
كلُّ شيء متلقى منهُمُ ... بقبولٍ قطعوا أم وصلوا
آه كم أُتبعُ زفرات الهوى ... زفراتٍ بعدها تتصلُ
بأبي من أن تثنى أورنا ... تَخْجَل البيض ويعنُو الأَسلُ
وتغار الشَّمس منه إن بَدَا ... ويغور القمر المُكْتَمِلُ
مقلتاهُ سحرت لُبِّي ولا ... تَسْحَرُ الألباب إلا المُقَلُ
كيف كتمان صباباتي بِهِ ... وبها يُضْرَبُ فيهِ المَثَلُ
أترى يصرفني عن حُبِّهِ ... عاذ لي إن طال مِنْهُ العَذَلُ
لا ومن أخرسني عن عذلِهِ ... ذاك أصلٌ عنه لا انتقِلُ

وقوله[2]:

عيناي فيك بأسياف الهوى[3] اجترحَا ... هذا وما اقترفا ذنباً ولا اجترحا
يا من رأيتُ الهوَى من أجْلِهِ حسناً ... فيه ولو أنه في غيره قَبُحا
ومن حوى الحسن دون الخلق عن كملٍ ... حتى غدا كيف شاء الحسن واقترَحا
مَا ضَرّ لو سمح المولَى بزورتِه ... لمُغْرمٍ في الهوى بالروح قد سمَحا
أضَلّ وجهُك حسادي عدمتهم ... حتى رأوه هلالاً وهو شمس ضُحَى
والله لو أن حسادي إذا نظروا ... أثيث فرعك بان الفرق واتضحا

---

(١) العمر: الدين، وفي القسم يقال لعمري أي لديني.
(٢) ديوانه: ٢٨١.
(٣) الديوان: البكي.

زد خاطري ضرراً[١] أو ناظري سهراً ... وزد عظامي نحولاً والحشا بُرَحَا
أنا الذي ما شكا ثقل الهوى أبداً ... ولا أصاح للاحٍ فيك حين لَحَا

وقوله[٢]:

يا جبين القمر التِّم ... ويا قدّ القضيبِ
والذي أمرض جسمي ... في الهوى وهو طبيبي
لا تطل هجران صبٌّ ... مُغرَمٍ فيك كئيبِ
فلقد طال لطول الهجر ... حزني ونحيبي
واعتراني الشَّك هل أنت ... عَدُوِّي أو حبيبي

وقوله مضمنا مع اللف والنشر المرتب[٣]:

وثلاث لما بدت لي منها ... سلبتني بهن ثوب وقاري
حاجبَاها ومقلتاها وما ... تنشر من در لفظها السَّحارِ
كالقسي المعطفات وكالأ ... سهم مبريَّةً وكالأوتَارِ

وقوله[٤]:

أما الوشاة فأنت أعلم منهُم ... بجميع ما أخفيه أو أبديهِ
وكذا العواذل قد سددت مسامعي ... عن عذلهم ما عشت لست أعيهِ
صِنْفَان أمرهما يسيرٌ هيِّنٌ ... أما الرقيب فحار فكري[٥] فيه

وقوله وقد أكسف البدر[٦]:

---

(١) الديوان: شررا وأصلحها في (ب).
(٢) ديوانه ٣٢٤.
(٣) ديوانه ٣٦٠.
(٤) ديوانه ٣٦٥.
(٥) الديوان: أمري.
(٦) ديوانه ٣٤٦.

لا غَـزْوَ[1] أن يـخـسـف بـدر الـسَـمـا ... ذاك لأمـرٍ[2] قـد تـحـقـقـتُـه

لـمَّـا بـدا لـي وجـهـه مـشـبـهـاً ... وجـه عـذولـي[3] حـيـن فـارقـتـه

ذكـرت مـحـبـوبـي فـمـن أجـلـه ... صـعّـدت أنـفـاسـي فـأحـرقـتـه

وله[4]:

مـشـروطـة خـطـرت تـرنـح قـامـةً ... يُخزِي[5] الـذوابـل لـيـنـهـا وشِطَاطُـهـا

قـامـت قـيـامـة عـاشـقـيـهـا فـي الـهـوى ... مُذ أسـفـرت[6] وبـدت لـهـم أشـراطـهـا

قلت: قَصَد التورية وهي ظاهرة لأنه قد رَشَّح لأحد وجهيها بقوله مشروطة، ورشح للوجه الثاني بقوله قامت قيامة عاشقيها فتمّت له التورية في قوله أشراطها، مع شمة اقتباس فإن الله تعالى يقول: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[7] الأشراط هنا جمع شَرَط بفتح الشْين والراء وهو العلامة كفرس وأفراس وولد وأولاد، ومنه قولهم أشراط الساعة كذا وكذا أي علاماتها، هكذا قال بعض العلماء، وقال بعضهم: الشَّرط بفتح الشين وسكون الراء مفرد، وهو ما يتوقف عليه الشيء، وجمعه شروط كعقدٍ وعقود، وفلس وفلوس، ومنه شروط الصلاة كذا وكذا أي مَا يتوقَّف عليه صحّتها وكلا الوجهين مطابقان للمقصود لأن الوسم في الحبشي علامة، فكأن شرطا بالفتح للشين والراء معاً، وهو أيضاً شَرْطُ كمال حسنه، ومما يتوقف عليه كماله فكان شرطاً بسكون الراء، وله أيضاً[8]:

---

(١) الديوان: لا بدع.

(٢) الديوان: لمعنى.

(٣) الديوان: وجه حبيبي وقد علق في (ب) قوله «القياس وجه حبيبي وهو المحفوظ».

(٤) ديوانه ٣٥٧.

(٥) الديوان: يخزي.

(٦) الديوان: لما بدت وبدت لهم أشراطها.

(٧) الآية: ١٨ سورة محمد.

(٨) ديوانه ٣٧٨.

أيا شادناً أغرى السهاد بمقلتي[1] وانحل جسمي حُبُّه وبراني
تعيش وتبقى أنت في نعمةٍ فما أراك إذا طال الصدود تراني

وله[2]:

جزى الله بالحسنَى عذولي وإن يكن أثار لهيباً في الفؤاد وسعَّرا
وما ذاك إلاّ أنه حين لامني توهَّم سهوا في فؤادي فذَكَّرا

وله[3]:

غالطتني بقولها لي وقد بَرَّح القلى
سوف آتيك في الكرى قلت رُدِّيه أوَّلا

وله[4]:

وبابليٍّ لحاظِ ذي قامةٍ سمهريَّة
سكرت من مقلتيه لأنها بابِليَّة

وله[5]:

وساتر خَده بمصحفة قلتُ له والفؤاد في قَلَقِ
خفت على الورد من لواحظنا يا غصن حتى استترت بالوَرَقِ

وله[6]:

أنا من إذا سمع الورى غزلي الرقيق ومَا حَوَى
قالوا أجاد وما دروا إني نطقت عن الهَوى

---

(١) ديوانه: بناظري وأصلحه في (ب).
(٢) ديوانه: ٣٥٤.
(٣) ديوانه: ٣٧٥.
(٤) ديوانه: ٣٧٦.
(٥) ديوانه: ٣٣١.
(٦) ديوانه: ٣٣٦.

وله[1]:

يـا مـن بـطـول الـتّـجـافـي والـهـجـر أمـرض صَـبَّـه
أنـت الـطـبـيـب فـمـن لـي مـن ريـق فِـيْـك بـشـربـه

وله[2]:

لاذقـت حَـرَّ صـبـابـتـي وكُـفِـيـت مـا ألـقـى بِـهَـا
فـالـنـار مـن أسـمـائـهـا والـمـوت مـن ألـقـابِـهَـا

وله[3]:

حـمـامـة الأيـك مـهـلاً فـقـد أطـلـتِ نُـوَاحِـي
أتـشـتـكـيـن بـعـاداً وأنـتِ ذات جـنـاحِ

وله[4]:

مـالـي وقـد أتـيـتـكـم فـي غَـرَضٍ قـد عـرَضَـا
سـدَّدتُ سَـهْـمَ أمـلـي ومـا أصـبـتُ الـغَـرَضَـا

وله لما كُسِي النَّاس ببعض محلات الملوك ولم يكس ففيه التورية[5]:

يـا لَـهَـا خـطّـة خَـسْـفٍ عـنـدهـا عَـزّ عَـزَائـي
كُـسِـي الـنـاسُ جَـمـيـعـاً ونـبـذنـا بـالـعـراءِ

وله[6]:

رويدك من كسب الذنوب فأنت لا تطيق على نار الجحيم ولا تَقْوى

---

(١) ديوانه: ٣٧٣.
(٢) ديوانه: ٣٧٤.
(٣) ديوانه: ٣٤٠.
(٤) ديوانه: ٤٩٢.
(٥) ديوانه: ٥٤١.
(٦) ديوانه: ٩٣.

أترضَى بأن تلقَى المهيمن في غدٍ … وأنت بلا علمٍ لديك ولا تقْوَى

وله[1]:

ثق بالذي خلق الورى … ودع البريَّة عن كَمَل
إن الصديق إذا اكتفى … ورَأى غناء عنك مل

وله[2]:

إفزع إلى الباري وكُن … مما جنيت على وَجَل
وارج الإله فلم يخب … راجي الإله عَلاً وجَل

وله في ذكر من يشرب الخان وفيه تورية واقتباس[3]:

أهل المدائع[4] كلهم … عن حلّة الإيمان عاري
إن المدائع هذه … ستحلهم دار البوارِ

وله لما مات السيد شهاب الدين أحمد بن الحسن بن أحمد بن حميد الدين[5] رحمه الله تعالى المتقدم ذكره في القسم الأول من هذا الكتاب[6] وقُبِر من مقابر مدينة صنعاء اليمن المحروسة بخزيمة بضم الخاء المعجمة وفَتْح الزاي[7]، وهي أعظم مقابرها في الاشتهار[8]:

يا قبر أحمد كم حويت … مكارماً ومحامِدَا

---

(١) ديوانه: ٩٨.

(٢) ديوانه: ٩٧.

(٣) ديوانه: ٤٧٩.

(٤) المدائع: جمع مداعة وهي النارجيلة في عرف أهل اليمن ويسمى التبغ الذي يوضع عليها «التتن» وهو الدخان، والتتن لفظة تركية بمعنى الدخان، ويسمى أعلى النارجيلة الحجر وفي كلام أهل مصر ونحوهم «البوري» جمعه بواري.

(٥) سبق ذكره.

(٦) انظر القسم الأول ص ٦٢.

(٧) هي مقبر صنعاء الجنوبية، سبق ذكرها.

(٨) ديوانه ٥٢٠.

شهدت بذاك خزيمة وكفى خزيمة شاهدا[1]

ذكرت هنا قولي في الجناس:

خزيمة درتُ فيها فلم أجد قطُّ رأفة

لم ألق رافة قلبي وقد نزلت القرافة

والقرافة بالقاف والراء والفاء أعظم مقابر مصر المحروسة سعة وأشهر ذكراً وبذلك عرف الجناس.

القاضي علي بن محمد العنسي[2]

ذو درايةٍ وعرفان، وعلمٍ وأدب يروق منهما الصّنفان، عرفانه في مفاوز الجهل صُوى، ومورد علمه يمنح أفواه الرواة الرُّوَى، صيغت لغادة المعالي به الحُلِي، ورجعت له شمسها ولا بدع إذا رجعت الشَّمس لعلي[3]، أينع ثمره وطاب، فامتلأ منه للمجتني وطاب، له فضائِلُ أما سَعْيُه فقد أمَّها أمَّا، وأعلنت ألسنتها بالثناء عليه فَلِذا عددنا الإغراق في مديحها ذمّاً، روض حلا ثَمَرُه، وبدر طاب في ليل شبابِهِ سَمَرُه، ولي القضا بالعدين[4]، ورآه فرضاً كأنه عليه دين، فأحسن به سيرتَهُ وسمته، فلذا قيل لمادحه بعدم الانصاف لقد وَسَمْتَه، مَشَى من

(١) إشارة إلى الحديث الشريف «من شهد له خزيمة فهو حسبه» أخرجه الحاكم في المستدرك والطبراني وخزيمة بن ثابت صحابي جليل.

(٢) من أشهر أدباء اليمن، اتصل بالأدباء وكاتبهم وعمل في ناحية العدين مدة من الزمن، ثم تقلد القضاء بوصاب، وبرع في نظم الشعر ومدح الأعيان، ووفاته سنة ١١٣٥ هـ، انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) البدر الطالع ١/ ٤٧٥ نشر العرف ٢/ ٢٨٠ وما كتبناه عنه في الأدب اليمني ٥٨١ ـ ٦٠١.

(٣) إشارة إلى حديث «أن الشمس ردت على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، قال الإمام أحمد: لا أصل له، وقال ابن الجوزي: موضوع لكن خطأوه، ومن ثم قال السيوطي: أخرجه ابن منده وابن شاهين عن أسماء بنت عميس وابن مردويه عن أبي هريرة وإسنادهما حسن وصححه الطحاوي والقاضي عياض (انظر كشف الخفاء ١/ ٢٥٥).

(٤) العدين: تصغير عدن (سبق ذكرها).

العدل على قانون، وسبح في بحْر المعضلات سبح نُون[1]، فما مال في حكمٍ ولا حاف، بل غدًا به روض تعفّفه من كل جهاته أيّ حاف، فحديقته بالرفق ذات زهور، وبمياه سيرته الحميدة متدفقة النّهور، ثُمَّ تولّى القضا ثانياً بوصاب[2]، فهمع غيث أحكامه على جهاته وصاب، وفُضّ الدنّ[3] من علْمِهِ عَنْ مُدَامَةٍ طاهرة حَلَت، وطَفَت على كأسها جواهر الحباب فَحَلَّت، ونلَتْ فوائدُه بِكُلّ صدرٍ قد ثلج بِهَا وَحَلَّت، ثم تَوَلَّى القَضَا ثالثاً بجهات الحيمة، وضَرَب بها أطناب العدل ومدّ منه الخيمة، وإذَا ظِلُّها أبرد من ظلّ الدوح، تخطُر في جنباتها النَّسيم بأروح رَوْح، فتُوفِّي هُنالك، وسلك الطريق التي كلُّ إنسانٍ بهَا سالك، وَنَزل بجوار رضوان وما عرف جوار مالك، باكَرَه مباكر الرياض، وتدفق حول ضريحه ما تدفق من الحياض.

وله في الأدب نهج بلاغة[4]، أدَّاه إليه الحظّ الأوفر فأحسن بلاغَه، فنفثاته الغُرَر، تُظْلَم إذا قِيسَت بالدُّرَر، وشعرُه عَلاَ وَفاق، ونثره قد جَرَى بِهِ علَى وَفَاق، فإنه أجاب عَلَيَّ في رسَالة، وأراق ماء بَلاَغِتِهِ في روض طرسِه وأسَالَه، كنت كتبتها إلى بعض الأُدباء مُحَاوِرَا، وأرسلت ثعبان قلمي لَهُ مُسَاوِرا، مع خط له من الحسن قِسْم، وله الروض صِفَة والريحان المُصَفَّف اسم، لاقيته بصنعاء في يوم عيد، وَفُزْتُ منه بما فاز به من العقود الجِيد، ولكنه ما اعتمد إنساني ثَمَر بُسْتَانه فَقَطَفَه، لأني اجتمعتُ به في لحظَةٍ أقصر من جلسة الخطيب فهيَ مختطفَة، وقصائده المطوّلات فاتَ بها الأدبا، واتخذ سبيلَه في بحر عروضها سَرَبا.

ومن بديع نِظامه، ولطيف تفوهه وكلامِه، قوله مضمناً مع اللَّف والنشر المرتب والتورية وذلك في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

---

(١) النون: الحوت.

(٢) وصاب: مخلاف كبير باليمن، انظر في تاريخه الاعتبار للحبيشي بتحقيقنا.

(٣) هنا تورية بالدّن المعروف، والدن البلدة من ناحية وصاب العالي.

(٤) تورية بكتاب نهج البلاغة (المعروف).

يقولون لي صف عن عليٍّ أكان للـ   غُلُوّ بحسن المدح أهْلاً فنَطْنِبَا
وما وصفوا من خُلْقِه فلقد غَدَا   ثناه من الألحان أطرى وأطربا
ومن قَدَّ في أيام خيبر سيفُه   فقلت لهم أهلاً وسهلاً ومرحَبا

قلتُ: مرحبا هذا الذي وَرَّى به هو الرجل[1] الذي ضربه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بالسَّيف ضربته المشهورة فإنه ضربه على البيضة فقدها وقده نصفين، وما أحسن قول أبي الحسين الجزار رحمه الله تعالى في مدح علي بن سيف الدين فَليخ[2]:

أقول لفقري مرحباً لتيقني   بأن علياً بالمكارم قاتِلُه[3]

ولصاحب الترجمة قوله:

كيف تجفوني وفي جيدك من   دُرّ دمعي يا رشا عقدٌ مُنَضَّد
وعلى الحالين يا حالي اللُّمى   أنت من دمعي وفي ظلمي مُقَلَّد

وقوله:

يا محرقاً قلبي بنار صدودهِ   ومُشَرِّد النوم اللذيذ عن المُقَل
أحرقت قلباً أنت فيه ساكِنٌ   بالله عطفاً يا حبيب على المَحَل

وقوله:

قد حسدت السواك لما غدا ير   شف يا حالي اللَّمى من لَمَاكَا
فلهذا قد صرت يا نور عيني   ومُنَى القلب لا أحبّ سواكا

---

(١) مرحب كمنبر: اسم اليهودي الذي قتله الإمام علي كرم الله وجهه يوم خيبر، انظره في كتب السيرة.

(٢) كذا في الأصول بالفاء والحاء المهملة صوابه سيف الدين علي بن قليج بالقاف وآخره جيم معجمة من الأسماء الأعجمية وهو أحد أمراء دمشق في القرن السابع، وفاته سنة ٦٤٣، انظر ذيل الروضتين لأبي شامة ١٧٧.

(٣) البيت في مقدمة فض الختام للصفدي ٤١.

وقوله مع حسن التعليل:

مِن خَدِّكَ الوَرد اكتسى حُمْرةً ... وكان عن ثوب البها عاري
لكن بنعماك غَدَا جاحداً ... لأجل ذا عُذِّبَ بالنارِ

وقوله:

يا خلّ خَلّ التَّجَنّي ... فما يليق بحالك
فقد بدت لك ذقنٌ ... من السواد بحالك

وقوله:

ولاحِ لحانا فيك يا غاية المُنَى ... وقال بماذا كلكم صار يهواهُ
فلاح عذار منك قام بعذرنا ... لذلك إنَّا في هواك خلعناهُ

وقوله:

لاما عذار الحبيب قد أسرا ... قلبي المغنَّى وأرّقا عيني
ملكته القلب إذ نظرتهما ... فالقلب ملكٌ له بلامينِ

وهو من قول العَلاَّمة بدر الدين الدماميني رحمه الله تعالى[(١)]:

لاما عذاريك هُمَا أوقَعَا ... قلبَ الشجيّ الصب في الحَيْنِ
فَجُد له بالوصل واسمح لهُ[(٢)] ... ففيك قد هام بلامَيْنِ

وقد وقع لي نظير هذه التورية جناس في نثرٍ كنت وصفتُ به مليحاً من الشجعان فقلت:

لم أنس مليحاً من الشجعان، هو للأعداء عليّ بصدوده قد أعان، وأنا هائمٌ فيه بلامين، على أني دفعت من عِذاره وملبوسِه بلامين، فلم أصل إلى ورد خَدِّه

---

(١) البيتان في خزانة الأدب لابن حجة ٣٤١.

(٢) الخزانة: به.

قطفاً، وإلى نرجس عينٍ منه ذابلة وَطْفا، فصدغه واو تحت لامه، وقدّه غُصنٌ تحت صعدةٍ قد أشبهت قوامَه، وطرفه فوق سيفٍ بقصر عنه في الحدّ، وعِذَارُهُ أطل على درعٍ قد جانَسَهُ في الرَّسم والحَدّ، على قامَتِه تشاجرت الرماح، وفي حُبِّه زادت الخيل في الجماح، هجر وليتُه لم يهجر، وجُرّ الرمح وهو قوامُه لحرب عُشَّاقه وَلَيْتُه ماجُرْ، فهو إلى منازل الوصل لا يجوز، قد عامل صَبَّه منه بما لا يجوز، انتهى.

قولي هنا: لا يجوز هو بالجيم والزاي من جاز الموضع إذا مرّ فيه وجاوزه فالمعنى أنه إلى منازل الوصل لا يجوز أي لا يمر ولا يصال.

وقولي في الفقرة الثانية: بما لا يجوز، أي بما لا يحل، ففي الفقرتين الجناس، وقد ذكرتُ هنا قول الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى[1]:

على الباب المُعَظَّم عبْدُ رقٍ ... لعادات اللُّقا الماضي يجوزُ
يجوز الآن عن أذنٍ شريفٍ ... وإلاً فهو شيء لا يجوزُ

وقوله أيضاً[2]:

ما يقول المقام أيّده الله ... ولا زال للسعود يجوزُ
في وليٍّ لبابكم ترك الخلق ... ووافى يجوز أم لا يجوز

ومنه أخذ زين الدين بن الوردي قوله[3]:

ماذا تقولون في مُحِبٍ ... عن غير أبوابكم تَخَلَّى
وَجَاءكم زائراً عفيفاً ... عن مالكم هل يجوز أم لا

---

(١) لم أجدهما في ديوانه.

(٢) ديوانه ٢٦١.

(٣) البيتان في خزانة الأدب: ١٢٩ ولم أجدهما في ديوانه المطبوع سنة ١٣٠٠، وهما في ديوانه المطبوع سنة ١٤٠٧ هـ: ٢٢٠..

الفقيه محمد بن علي بن لطف الله الخواجة الشيرازي أصلا الصنعاني منشا ومحلاً(١)

غيث أدب انسجم، وفرعٌ بسق في رياض العَجَم، ولكنه أثمر في ديار العَرَب بكل ما يُشْتَهَى، وكانت عنده جَنَّةُ المأوَى كما كانت عند سدرة المنتهى، فَطِنٌ ذكي، عَرْفُ أدَبِه ذكي، له في كل عِلْم مشرب، ومقامٌ فلكُ زُحَل منه أقرب، ما تعرَّض له المستفيد سائلاً، إلاَّ ألْقَى نهر إبانتِهِ وتوضيحه سائلاً، فعلَى الخبير سقط، وللدر من المغاص قد التقط، خَضمٌ عُبَاب عاد به الزَّمن إلى الشباب، فتَاهَ به فتَاهُ، وافتخر بحميد سَمْتِهِ لَمَّا أتاه، فَحَمدُه يُتْلَى بكل لسان، ودهره يلبس بشيمه أخضرِ الطيلسان، طال في البلاغة إمكانُه، واستراض في مراتع الأدب مكانه، بُلَّ بما اللطف ذيله، من قبل ما أغدف بمسودّ شعره ليله، في عيشٍ أنعم من لمس القطائف، فهو كعبة فضلٍ يطوف حولها مِن الرِّق كذا كذا طائف، ذو ثروةٍ لا تبيد، وسِعَةٍ قد نقَّطت خد زمانه الأبيض بخيْلاَنِ(٢) الإماءِ والعبيد، فأبوه من كُبَراءِ التُجَار ذوي المال، وممن قُضِيت لهم من الدنيا الأوطار والآمال، أوسعته وَفْرَا، وَمَلأَتْ حقائبه من البيضاء والصفرا، وله خط كأنه نقش البنان من العقيلة(٣)، أو كأنه عذارٌ دَبّ في السوالف الصقيلة، زهت ديباجته وراقت، وبَهرت رُقاعه العيون وشاقت، فهو لحلل الأوراق طراز، ولا غَزْو لحسن خطِّ أصله شيراز، ولم يبرج في برج النعمة بدرا، يرفع له الانتصاب للدّرس قدرا، يُسْقِي روضه بوابل وطَلّ، حتى نزلت بعقر داره أم قسطل(٤)، فرحل عن الأوطان، ومات وهو عريض البطان(٥)، وله شعر تَنَزَّه عن اللكنة العجمية، وصِيْن وجوده عن الصفات العدميَّة، فَكَم جلا من الكلام حِسانَه، وانقاد له مِن أبيّهِ الصَّعبُ فالعُقْدَة لا تَعرِف لِسَانه.

---

(١) ممن تفرد بذكرهم كتابنا هذا ولم أجده في غيره.

(٢) من الخول: ما يملكه من النعم والعبيد والحاشية، مأخوذاً من التخويل أي أن ذلك هبة من المعطي وفيه تورية بالخيلان جمع خال (حبَّة الخد السوداء).

(٣) العقيلة: المرأة الكريمة المخدرة.

(٤) أم قسطل: كنية المنيَّة.

(٥) يقال فلان عريض البطان: أي رخي البال.

منه قوله من قصيدة كتب بها إلى السيّد شهاب الدين أحمد بن الحسن بن أحمد بن حميد الدين رحمه الله تعالى، وقد انفصل عنه من معمور مدينة صنعاء اليمن المحروسة إلى حصن كوكبان الشامخ لا زال مَخمِيّاً:

فؤادٌ له في الظَّاعنين[1] مسيرُ — وجسم بصنعا موثقٌ وأسيرُ
أأحبابنا إن فرَّق الدهر بيننا — وعاد صفاءُ العيش وهو كدير
وذبت اشتياقاً للقا وصبابةً — وهاج بقَلْبي لوعَةٌ وزفيرُ
فكم رمت أن أمضي إليكم مع الصبا — فيَمْنعني دهري وتلك تسيرُ
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة — بوادٍ وحولي صاحبٌ وسَمِيرُ
وهل لي إلى جيران جيرون عودَةٌ — ومن جور أيام الفِرَاق مُجِيْرُ
لقد عيل صبري بعدهم وتكاثرت — همومي ولكنّ المحبّ صَبُورُ
سَقَى الله أيّاماً تقضَّت بقربهم — بها للتصابي نضرةٌ وسرورُ
وقالوا أتبكي في أزالٍ[2] من الأَسَى — وعنها جيوش النائبات تسيرُ
عهودٌ تقضَّت أم رسوم تقادمت — وكَرٌ عليها شَمْألٌ ودبورُ
فنحت وأسرابٌ من الطير عُكّفٌ — وعَبَّرت والريحُ السحابَ تثيرُ
فعلّمت ورقاء الحِمَى كيف تنحنِي — وساريةِ الأنواءِ كيف تَسِيْرُ
وقلتُ لهم أبكي شموساً سرت بهَا — إلى كوكبانِ أنجمٌ وبدورُ
وهل نافعي أن الرياض تدبَّجَتْ — وظلّ بها للسّاجعات هديرُ
وألبسها فصل الربيع برودَهُ — وفاح شذاها مَنْدَلٌ وَعبِيرُ
وغَنَّت على فرع الغصون حمامُها — وصفّق فيها جدولٌ وغَدِيرٌ

قوله: **مندَلٌ** وعبير المندَل هو بفتح الميم وسكون النون وفتح الدَّال المهملة بعدهَا لام صنفٌ من أصناف العود الهندي وهو من أجوده بخوراً وأطيبه رائحة ومزاجُه كما ذكر الحكماء حار يابس في الثانية ترياقي يقوّي القلب ويُسَكّن الخفقان

---

(١) في (ب) و(ش) الطاعنين.

(٢) أزال: من أسماء مدينة صنعاء.

البارد ويُقَوِّي الأحشاء وينفع الخلوة السوداوية والدماغ البارد وقد يَضُرّ المحرور ويُصَدِّعه.

نعم والمندل أيضاً كتاب[1] معروف يتوصل به إلى استحضار الروحانية ولذا قصد التورية شهاب الدين الحاجبي المصري رحمه الله تعالى بقوله في بعض قصائده[2]:

يا صاح علِّلني بكأس مُدامَةٍ ... عن ذكرِه أن الحبيبَ مُعَلَّلُ
صهباء إن جُنّ الفَتَى بخمارهَا ... فَبِها[3] شفاه وفي شذاها المندَلُ

أخذه من قول سيف الدين المشدّ مورياً أيضاً رحمه الله تعالى[4]:

مسكية الأنفاس تملي الصبا ... عنها حديثاً قط لم يُمْلَلِ
جننت لَمَّا أن سَرَى عرفُها ... أما تَرَى مَن جُنّ بالمندَلِ

وقد ضمنت أنا هذا في مليح يعرف بالمنْدَليق ففيه مع حسن التَّضمين التورية مقرونة بالاكتفاء كما ترى فقلت:

بمندليقٍ من ذوي الحسن قد ... جُننْتُ والله وجسمي بُلي
فابسط فدتك النفس عذري به ... أما تَرَى من جُنّ بالمندلِ

وقال صاحب الترجمة:

مُوَرَّدَ الخدّ ابن حربٍ قلبُه ... وفي لحاظ جَفْنِه ابن ذي يَزَن
قد جاءَ بعد الاعتزال واصلاً ... مُذ لاح في عارضه أبو الحَسَن

---

(١) هو اسم للكتاب الذي يحوي هذا العلم، والمندل علم عند أهل التعزيم، وهو عبارة عن دائرة يخطها المعزم على الأرض ويجلس أصحابه داخلها عند دعاء الأرواح لأجل الاستعلام منهم على أمر من الأمور (محيط المحيط).
(٢) البيتان في خزانة الأدب ٣٣٠.
(٣) الخزانة: فهي الشفاء.
(٤) البيتان في الخزانة: ٢٧٦.

أقول: هو لا يخفَى مغزاه في هذا النظم فالمراد بقوله ابن حربٍ قلبُه أي صخر وقوله ابن ذي يزن أي سيف، وقوله أبو الحسن أي الأشعري، وهذا تخيّل حسن مع ذكر الاعتزال، ولطف أيضاً ذكر الاعتزال مع قوله واصلاً لأن واصل ابن عطا أصل مذهب الاعتزال، وإليه ترجع المعتزلة، والمعنى في النظم أن هذا المحبوب المورد الخَدّ قلبه صخر في القساوة، وفي لحاظه سيف، وأنه جاء بعد أن اعتزل المحبّ بهجره واصلاً له لكن بعد أن صار خَدّه المورد ذا شعر، معناه وهذا كما قيل:

دعتني لوصلٍ حيث لا ينفع الوصلُ[1]:

وهذا النظم ألطف من قول الشيخ شمس الدين محمد بن الحسن النواجي المصري رحمه الله تعالى في قصيدته التائية المشهورة:

بأشعريّ خدودٍ قد فتنت وما ... لي عنه في سُنّة العشق اعْتزالاتُ

وقال صاحب الترجمة أيضاً رحمه الله تعالى:

إني امرؤ لي في الرضا مشربٌ ... أقطع فيه جُلّ أوقاتي
أقنع بالقوت إذا جاءني ... وقهوةٍ تنشط أوقاتِ[2]

وقال أيضاً:

أكرم بمن حَرَّر قولاً فائقاً ... أكرم به من فاضلٍ أديبِ
فهذه رسالة من منطقٍ ... هُذِّب فينا غاية التهذيب

ومن هذا النمط قول السيد عبد الله بن علي الوزير المتقدِّم ذكره:

لمَّا سكرتُ بريق من أحببته ... حَتَّى كأنّي شَارِبٌ لِمُغتَّق

---

(١) من بيت أورده في الزهرة ١/ ٩٨.
دنت وظلال الموت بيني وبينها ... وأدلت بوصل حين لا ينفع الوصل
وهو منسوب لامرىء القيس فتى من الأعراب.
(٢) يعني القات المعروف عند أهل اليمن.

بالغت في وصفي محاسن ثغره   حتى وضعت رسالةً في المنطقِ

قلت: تكرر لفظ حَتَّى في المصراعين الأخيرين وذاك مما يمجّه السمع ولا يرضاه فَنُّ البلاغة وأيضاً لم يتعرض في البيتين لحسن منطق من أحبّه ورخامته فيكون ترشيحاً لقوله حتى وضعت رسالة في المنطق، فليته قال في البيت الأول:

لمَّا طربت بمنطقٍ لمعذبي   ما نغمة الوتر الرّخيم الريّق

ومما نظمته أيضاً فقلت مع الجناس:

أطريتُ إذ أطربت سمعي بلاغةُ من   حاز الجمال فلا قَيْدٌ لمطلَقِه
لذاك أني قد حَرَّرت مجتهداً   هذي الرسالة في تهذيب مَنْطِقِه[١]

وقلت أنا أيضاً:

تَكَلّم المحبوب عن نَغْمَةٍ   طابت فقد فاح شَذَا الوردِ
مهذّب المنطق قد ضاع من   نكهته لي فائح اليزدي[٢]

زيني العجمي الصنعاني الناسخ[٣]

هو للأدب زين، ولسمائه ومحجره ومعدنه ومجراه في الأربع الحالات عين، عجميّ الأصل عربي اللسان، له نتائج فكرةٍ جميلةٌ حسان، كان يكتب من الخط أنيقاً، ويرقمُ ما يصير لريحان العذار شقيقاً، فخَطُّه أبدع من كلِّ بديع، فما نقش الأكف عن حسنِه له إلاَّ وديع، إذا طرَّف بنان السطور بمدادِه، ونقش معصم القرطاس الأبيض بسوادِه، سَحر إنسان العين، وجاء بما هو كاسمه زين، مع رجاحَةٍ ووقار، وذِهْنٍ أقطع من ذي الفقار[٤]، سَكر بصحبة هذا الأديب

(١) التهذيب في المنطق اسم كتاب مشهور في علم المنطق من تأليف سعد الدين التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٢ (انظر شروحه في كتابنا جامع الحواشي والشروح).

(٢) اليزدي: حاشية تنسب إلى مؤلفها العَلاَّمة عبد الله بن الحسين اليزدي الأصبهاني المتوفى سنة ١٠١٥ وهي على شرح تهذيب المنطق للتفتازاني السابق الذكر، مطبوعة.

(٣) انفرد بذكره المؤلف ولم أجده عند غيره.

(٤) اسم سيف ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب.

الخُوَاجَة[١]، لمَّا دارت عليه من آدابه خمرة الزُّجاجَة، فكان مُلازماً له ولأبيه، نازلاً منهما في منزل الكامل النبيه، ثاوياً في دارهما، مقتبساً من مقدارِهِما، إلى أن مات، وفقدت منه تلك السِّمات، حاضر العلماءِ والأدبا، وترتَّع في مقاماتهم العليَّة واحتبى، وسابقهم وباراهم، وجال في الميدان بجوادِهِ وجارهم، فجاءَ بآدابٍ تروق، ولمعت من آفاق حسنها له بُرُوق، ولم أجِد من نظمِهِ الآن، سوى قوله وهو على فضله برهان:

ومليح كالغصن نصباً فمن لي ... أن أدانيه في تثنية ظَمَّا
قد سبا مِن أهَيْل صنعاً ومنّا ... يا أساة الغرام عُزباً وعُجماً

وقوله يمدح ظاهراً ويهجو باطناً ففيه تورية:

تصدَّى جمال الدين للمجد والعلى ... بربعٍ له فوق البسيطة شادَا
ترقَّى إلى أعلى المعالي فنالَهَا ... وأربى على كل الأنام فسادَا

ومثله ما جاء للشهاب الخفاجي المصري رحمه الله تعالى في الجناس من فقر مقامته التي أنشأها في ذم بعض القُضَاة قُضَاة الروم[٢] فقال: حُراقه فساد، قَدَح شرَر فساد، اهـ. وقلت أنا في بعض الأبيات:

فقلت نعم قد أفسد الدين في الورى ... وساد بهم قدراً فساد فساداً

وكتب علاَّمة العصر الزَّاف من نظمه إلى الأسماع لخريده القصر، السيد جمال الدين محمد بن إبراهيم بن المفَضَّل رضي الله عنه إلى بعض الأدباء يستدعي من نظم زيني المذكور قوله:

أخلاقك الزّهر يا مليكي ... تجلو صدى خاطري وريني

---

(١) الخواجه: اسم علم لأديب سياتي ذكره، والخواجه لفظة فارسية بمعنى تاجر أو كبير أو صاحب أو وزير، وقد يطلق على الخصي.
(٢) ريحانة الألباء ٢/ ٢٨٧.

نطلب من فضلك المُرَجَّى إرسال نظم الأديب زيني

ولمَّا مات صاحب الترجمة رحمه الله تعالى رثاه أيضاً شيخ والدنا المذكور السيد العلامة جمال الدين محمد بن إبراهيم بن المفضّل نَشَر الله من علمِه أعلامه وناهيك فَضْلاً بِمن يرثيه مثل هذا الأستاذ الأكبر، ويندبه في جامع طرسٍ من السّطور على منْبَر، فقال:

يا ربيع الآداب أوحشت رَبْعاً كنتَ فيه تجلو صدى كل رَيْنِ
بك كانت له بدايع تحسين (م) فَقُبْحاً لَهُنَّ من بعْد زين

خليلنا الشيخ صارم الدين إبراهيم بن صالح الهندي[١]

صارمٌ هنديٌّ حقيقة، لفولاذِ بالقطع في الإبانة أمْضَى طريقة، هو لا شَكّ عندي، في فَنِّ النحو الفاضِل الهندي[٢]، أديبٌ طائره في علم القوافي، له قوادم سريعة النهوض وخوافي[٣]، فهو أكثر شعراً من الطَّيْس[٤]، لأنه أمدح من الكندي وأغزل من امرىء القيس، وكان في عنفوان الشبيبة، ذا خيلاء وزهوٍ بآدابه الغَرِيبة، يَجُر خلفَه ذيل الافتخَار، ويتيه على من لم يظفر بمعدن فَصَاحَتِه من ذوي الافتقار، فهو أتْيَه مِنْ عُمَارة[٥]،

---

(١) أديب كبير له ديوان شعر في مجلد ضخم، يتشبه في مدحه بأبي الطيب، وكان والده من جملة الواصلين إلى صنعاء وكان مجوسياً فأسلم وحسن إسلامه، ولما تولى الحكم الإمام المهدي صاحب المواهب وفد إليه المترجم وشفع المصحف في نفسه فقبل المهدي الشفاعة ثم حج ومات عقيب عوده سنة إحدى ومائة وألف. انظر ترجمته في سلافة العصر ٤٧٧ ـ ٤٨٧ ونفحات العنبر (خ) ونسمة السحر، والبدر الطالع ١/١٦ ونشر العرف ١/٢٩ ونفحة الريحانة ٣/ ٥٦٥.

(٢) هو محمد بن الحسن الأصبهاني عرف بالفاضل الهندي من مؤلفاته شرح التلخيص وتفسير القرآن، توفي قتيلاً سنة ١١٣٧ (معجم المؤلفين ٩/ ٢١٢).

(٣) من الطير: ريش إذا ضم الطائر جناحيه خفيت (انظر انتهاز الفرص ١٣٣).

(٤) الطيس: العدد وكل ما في وجه الأرض من التراب والقمام، أو هو خلق كثير النسل كالذباب والسمك والنمل والهوام.

(٥) هو عمارة بن حمزة مولى بني هاشم وهو من ولد عكرمة مولى ابن عباس، كان أحد الكتّاب =

على قوم عُرفوا بالغَمَارَة[1]، والغَنِيُّ طويل الذيل ميَّاس، وذو الوفر متطاول على ذوي الإقلال مِنَ النَّاس، ولا بِدْع إذا تطاول، فإنه بلغ إلى مقام يَصْعب منه المُتَنَاول، يتوق إلى بنات فكرته من تاق، مع أنها كثيرة الانتاج منتاق، فقد استنزل عِصم البلاغة من صياصيها وجذب الفصاحة إليه لما أخذ بنواصيها، يشيب من شعره الوليد، ويَلْتقط الجواهر من عِقْده الفريد، وينقصُ لديه أبو تَمَّام، ويقر المتنبي له بالرسالة غير ناقم ولا ذمَّام[2]، ويلاقي المَعَرِّي مِنْه معرَّتَه، ويفقد للحزن من حسده مسرّته، تَمَرَّن في الشّعْر وتدرب، ونال فيه رتبة يبعد عنها ابن المقرَّب[3]، فهو خليل لا يُذْكر عنده حبيب، وهو أديب لا يمدح بعده أديب، إذا همع ربيع أدَبِه قطراً، استحال ماؤه في صَدَفِ الأسماع دُرًّا، فَنَظْمُه يظهر من الذهب شينه، فلا برح في غيظه واسخن الله بجمر صائِغِه عَيْنَه، طالما هَزَّ ببلاغتِهِ أعطافنا، وأعطى الأحباب منها وُجُوداً على أنه للأعدَ أعْطَى فَنَى، وله في المروءة عقد ثمين، فإذا نزل به القاصدون فلا تسل عن ضيف إبراهيم المكرمين، فهو أبو الضِّيفان، يرى كُلَّ شيءٍ من المعالي غير إكرام الغريب فان، عَذُبَتْ حِيَاض مَرُوءتِهِ وِردَا، وطابت رياض مكارِمِه وَرْدَا، كان يرد إلى كوكبان مادحاً، ولزَنْد ثنائه على عظمائه وأعيانِه قادحاً، فيعود حَمَامُه بعد تطويقه بالأنعام عليهم بالثناء صادحاً، ينزل فيه بدارِنَا، ونحن نَنْهض إلى إكرامه عن بِدَارنا، ينزل على والدي نزول القطر، فيولّى وَجْهَهُ حرم ذاتِه كُلُه ولم يُوَلُه الشَّطْر، وَيُقْبِل عليه بغاية الإنصاف، ويعامله من الإكرام بما لا تحيط به الأوصاف ثم ينقلب عن عطاءٍ موفور، ويعود بإنعام

= البلغاء. يقول الخطيب البغدادي: وكان أتيه الناس حتى ضرب بتيهه المثل فقيل أتْيه من عمارة، وكان سخياً جواداً (انظر تاريخ بغداد ١٢/ ٢٨٠).

(١) الغُمارة: الجهل وعدم الخبرة.

(٢) أي لائم، يقال افعل كذا أو خلاك ذم أي خلاك لوم (اللسان ١٢/ ٢٢٠).

(٣) ابن المقرب: هو علي بن المقرب بن منصور بن المقرب الربعي العيوني شاعر مشهور له ديوان شعر. مطبوع، توفي سنة ٦٢٩ هـ (الأعلام ٤/ ٢٤).

ليس بمكفور، وكنت أجالسه وأساجله، وقد غلَت بما أرخص النِّيران مراجِلُه[1]، ووقف على كتابي المسَّمى «عطر نسيم الصَبا»، الذي روت عما فاح من طيبِه أزهارُ الرُّبَى، فقرَّظه بتقريظ عليٍّ ضاع وذهب، ولم يسلني عن مُسَدِّد قَلائِدِه دُرٌّ وذهَب، وديوان شعره المسمَّى بالعرف النَّدي، من نظم[2] الشيخ إبراهيم صالح الهندي، متضوّع تضوّع الند في الآفاق، غير ضائع بالذَّهاب لما عند مُلاَّكِهِ من الضنَّةِ به والاشفاق، تتهاداه الدُّوَل وأربابُهَا، وتفتح لأبياتِه من قصورها أبوابُها، وغُرَر مدائحه في المهدي أحمد بن الحسن[3]، فبمنائحه وعطاياه ذاق على فراش التَّرفيه لذّة الوسن، فلسان حاله يقول: أنا نائم في مهدِيْ، وأنا في زمان خصيب وكذاك يكون زمان المهدي، وفي آخِر عُمْرِه، وقد قَلّ هَزُّه من الأقلام لِسُمْرِه، مال إلى طريق أهل الطَّريقة، وأنقذ نفسه التي هي في لجج شهواتها غَرِيْقَةً، فَرَأيتُه على حالٍ يُحْمَد، قد استعاض فيه الجَزْر عن المَدّ، فإذا هو أحسن حال، عُنُق أيامِه بالأبهَى من عقده حال، وقد استبدلَ ذكرَهُ، عن إملاء نظمِ شَغَل به فِكْرَهُ، فَكَانت لا تفتر عن الأذكار لسَانهُ، ولا تهزّه عندها من السَّفح حِسَانُه، وحجّ في بعض الأعوام، وقرَع باب رَبِّه من جملة الأقوام، فإذا هو ضيف قَد أُكْرِم، وَنَال وقد أحرم ما فات القاعدَ وقَد أحْرِم، فعَزّ هناك مقامُ إبراهيم، لمَّا ساهم أرباب السعادة في أجورهم فلم يبق له مِن بديع أدبِه سِوَى التسهيم[4]، رآهُ بعضُ أخلائي وقد تعلَّق بأستار

---

(١) جمع مرجل: وهو القِدر.

(٢) ديوان مخطوط منه نسخة بمكتبة رامبور بالهند، انظر كتابنا مصادر الفكر الإسلامي ٣٧٦.

(٣) من أئمة اليمن تكرر ذكره.

(٤) التسهيم: عند أهل البديع هو نوع من البديع مأخوذ اسمه من الثوب المسهم وهو الذي يدل أحد سهامه على الآخر الذي قبله لكون لونه يقتضي أن يليه لون مخصوص لمجاورة اللون الذي قبله ومن المؤلفين من جعل التسهيم والترشيح شيئاً واحداً والفرق بينهما أن الترشيح لا يدل على غير القافية والتسهيم تارة يدل على ما دون العجز وتارة على العجز، وتعريفه أن يتقدم من الكلام ما يدل على ما يتأخر تارة بالمعنى وتارة باللفظ كأبيات أخت عمرو ذي كلب، فإن الحذاق بمعاني الشعر وتأليفه يعلمون معنى قولها:

فـاقـسـم يـا عـمـرو لـو نـبـهـاك إذا نـبـهـا مـنـك داء عـضـالا =

البيت، وقَطَع بأنه سيغفر من ذنوبه كيت وكيت، وَهوَ يُرِيقُ دمْعَه، ويَشِيم من بارِق الفوز لَمْعَه، ويقول اللهم يا ربَّ إبراهيم الخليل، ارحم عبدك إبراهيم الضَّارع الذليل، وعاد مِن حجّه فَمَات، ولاحَت عليه مِنَ التوفيق سِمات، فَمَا أَلْقَى عَصَاه مِن عَاتِقِه، إلاّ ركب من النَّعْش على ناتِقِه[1]، ولا خَلَعَ مِن الإحرام ثِيَابَه، إلاّ لَبس أكفانه وقد توجَّه لِسَفَرٍ لا يرجو صديقُه منه إيَابَه، أَدَامَ الله عليه مَنَائح غفرانِه ورفع شأنَهُ في الآخِرَة كما رُفع في الدنيا على أقرانِه، وشعرُه عن فَضْلِه ترجمان، فهو أقراط ذهبٍ وعقود جُمَان، سلك في القصائد المُطَوَّلة طريق أبي الطَّيِّب، إلا أنه كلل رياضها من البديع بلؤلؤ القطر الصَّيِّب، ولَهُ في المقطعاتِ رقٌ مُطيع، وعروض يبادر فؤاد المعارض له بالتَّقطيع، كنت أوَدّ أن أرصِّعِ هَذَا التاج بجواهرِهَا، وأورد هنا ما أورد من جواهرها، إلا أنه لم يحضرني من نظمه الآن، غير هذه القصيدة يمدح بها بعض ملوك الأوان، وهي قوله:

هي الدار عج نقضي اللبانة من لُبنى	ونظفر بالحسنِ البديع وبالحُسْنَى
بنفسي مَغْنَى زين بابنة مالكٍ	وبالغانيات الهيف يستحسن المغنى
فما شرف البنيان حسن طرازها	ولكن بسكان الحِمَى تشرف السُّكْنَى
نعم دون هاتيك المعاقل دميَةٌ	عقيلةُ أسدٍ بالقنا تحرس الأَقْنَا
فَصِلْها وَصُلْ إن جُزْت أقدام صبوةٍ	ولكن أخا السَّيف الصقيل احذر الجَفْنَا
وإن رُمت تجنى الخد رمت جناية	من الصدغ واحذر حَبَّة القلب أن تجنى
فلا خير في أمرٍ يَسُرّك أوّلاً	ويوشك في عقباه أن تقرع السِّنا
ومن كان ذا عزمٍ ولا حزم عندهُ	ففارس طعنٍ ضيَّع الأسمر اللَّدْنَا
فلا تتناعس أن طفقت مزاوراً	هنا لك واستيقظ لمقلتها الوسنا

= دون غيره من القوافي لأنه لو قال مكان داء عضالاً ـ ليثاً غضوباً أو أفعى قتولاً، أو ما ناسب ذلك لكان الداء العضال أبلغ إذ كل منهما ممكن مغالبته والتوقي منه، والداء العضال لا دواء له (انظر خزانة الأدب ٣٧٤).

(١) الناتق: الرافع.

وتلك فتاة الحي فاسر لسربها
مِن الليل في إشراق مطلعها الأسنَى
إذا ما ادعت أسرابها شبَّها بها
تبلَّج صبح الفق من فاحم جَنَّى
وَفَرَّدها حسن الدلال بذاتِها
ولكنه للغصن من عطفها ثنى
وتحقيق ذاكَ النِهد يقضي برفعها
وتدقيق معنًى دار في خصرها المضنى
وليس اشتباه الشَّيء بالشيء قاضياً
له باشتراكٍ في خصائصه الحُسْنَى
إذا أنت شبهت القضيب بقدِّها
تلفَّتَ منها الجيد كالظبية الغَنَّا
له الله جِيْداً ما أُحَيْلاَ التفاتة
واسناه إن لم يمض ملتفتاً عنَّا
تراءى به عِقْدٌ كأن نضيدَهُ
أخو الثَّغر لكن فَاتَهُ ذلك المَغْنَى
ومن أين للدرّ الشَّنيب نضيدُه
وحُسْن ابتسامٍ عنه بالبرق لا يُكْنى
إذا رامتِ الراح امتزاجاً بريقه
يقول حَباب الكاس إياك تَفْضحنا
كما أن هَتَّان الغمام إذا ادَّعَى
نَدَى أحمد المحمود قُلْنا له ضَنَّا
مُحَيَّا الحيا يَهْمي عَبُوساً وأحمدٌ
يُنِيل بوجهٍ بشره يذهب الحُزْنَا
وخير الندى ما كان مِن وجه باسمٍ
كريم الثنا لا يتبع المِنَّة المَنَّا
وشَرُّ الندى مِن عابس الوجه كالحٍ
يكاد إذا ما فارق المال أن يفنى
سَخَا أحمدٌ بالتبر في الزَّمنِ الذي
يَعِزّ على أهليه أن يبذلوا التبنَا
إذا وكفت كَفُّ الصفيّ وصوَّبت
يكاد بطوفان اللُّهى يغرق المُزْنَا
لَهُ كَرَمٌ طامي العُبَاب إذا انبرتْ
أوَاديه[1] أجرت في جداولها السفنا
وإن أمَّ بالجيش اللهام منيعَةً
حواهَا ولو كان السماك لها حِصْنَا
وقد كلّف الخيل الكريمة عَزْمُه
ولم تلتمس إلا بأسيافه أُذْنَا
تَدُور رَحَى الهيجَا وماضيه قطبُها
فيطحن هامات العِداة به طَحْنَا
أفَاد العلا نوعاً وجنساً حُسَامُه
بِحَدٍّ أبَى أن يأخذ العَرَض الأدْنى
وكم ندَبت من هامةٍ وَجَبَت به
وقَدْ فرضت ضرباً ومن أجل ذا سَنَّا

(١) أواد وأوادية: جمع وادٍ (معروف).

فسبحان من أسراه في قُلَلِ العلا ... وأنطق في إمداحه الألسن اللّكْنَا
فَوَاختُ آمال العُفَاة بسوحِهِ ... قَدِ اتَّخذت في روض إحسانِه ركناً
وَمَن يَشر بالأعطا رضى الله محسناً ... إلى خَلْقِه لم يخش في صفقَةٍ غَبْنَا
كَرِيمٌ صفوح بالتقى متدثر ... وكم ليلةٍ في الله قد أسهر الجَفْنَا
يحقّق في العرفان كل مُفِيدَةٍ ... وأصبح بحر العلم في صدره ضِمْنَا
تواضع في ثوب الهُدَى ومقامُهُ ... على النَّجم أضحى يسحب الذّيل والرُّدْنَا
وينفر عن عُذَالِهِ في صلاتِهِ ... كما ينفر النَّحويُّ إن سمع اللحنا
يهزّ بديع الشعر أعطافَه كما ... يَهُزّ النَّسيم الرطب في الروضة الغُصْنا
ويمنحنا كيل الصِّلاَت تَفَضُّلاَ ... ونُهْدِي إليه دُرّ أشعارنا وَزْنا
ويا رُبّ بيتٍ مُغْرَبٍ في مديحِهِ ... حَلَلْنَا بِهِ بَيْتاً بأيدي العُلا يُبْنَى
سأشكره شكر العُفاة مُحَمَّداً ... سليل إمام العصر أشرف من يكنى
أبو القاسم العزّي ذو الكرم الذي ... أبَى بذلُه أن يودع الذهب السّجْنَا
وماذا عسى الدينار في السجن صانعٌ ... وقد صار مثل الميت إذ يشتكي الدفنا
تؤم حروف العيس نحو دِيَارِهِ ... فيرجع منها كل حرفٍ له مَغْنَى
إذا أنت حاولت ازدياد نوالِهِ ... ظفرت وأدركت الزّيادة والحُسْنَى
ومهما قريضٌ عاقَه البطء حَثه ... وأورى زناد الود واقتدح الذهنا
غَدَا الشعر مصباحاً وجدواه دهنُه ... وهَل يقِد المصباح إن فقد الدُّهَنا
كريم مصون السِّر لله غَيْبُه ... ومشهده لم يبق في صدره الشَّحْنَا
أفاض علينا من أياديه كوثراً ... واسكننا من ظل إحسانه عَدْنَا
يلذّ له بذل الصلات ولم يَزَل ... يعود إلى إحساننا كلما عُدْنَا
يسُرّ بإجراء المروءة مثلما ... نُسَرُّ بوجه الأحمديّ إذا زرنَا
فَقُل للألى نحو الصفي تحملوا ... ببدنهم في الحج لا تَعْقروا البُدْنَا
وقد بلّغتكم خير حُرٌ نزيلُه ... يَجِلُّ ويُضْحِي الدهر في طوعه قِنّا
تَوَدُّ أيادي الغيث أنّ يَسَارُه ... يَمِينٌ لها أو مِنْهُ قَبّلَتِ اليُمْنَا

إذا استسلم[1] الزُّوَّار رُكن حَمائِه   فقد لثِموا الحجر المشرَّف والرّكْنا
يحثُّ عتاق الخيل وهي عوابسٌ   أمام خميسٍ يَسْحب السحبُ الدُّجْنَا
يثير مِن البِيْد المرامي عجاجه   فينسجها في الجوّ أرديَةً دُكْنا
إذا أرهبتها أنجم الليل في السُّرى   على العَدْوِ صار المشتريّ لها رَهْنَا
ولو أشرعت نحو السماكين في الدُّجَا   اسنتها لم يسطع الرامح الطَّعْنَا
أيا مُرْهَفَ الإسلام زرناك زورةً   نهنّيك بالعيد الذي حاول الضعنا
ونُذْرِك عِيْداً من لقائك ثانياً   ونظفر بالأجر العظيم إذا أُبْنَا
ودونكها جوّابَةَ الوخد قد رَعَتْ   أزاهر فكري مثل ما ترتعي الوَجْنَا
وقد وردت نهر المجرَّة وانثنت   بأغْزَالها تستلب الزهرة الحسْنا
وحكّمْتُها باتت بصدر عُطاردٍ   تجوس وقد أصغى لأمثالها أُذْنَا
وَرَوَّعتِ المريخ منها حماسةٌ   يُحَاوِل من أمْدَاحها البَدْرُ أنْ يُدْنا
وَمَا حَسُنَتَ إلا بحسنِ خِتَامِهَا   بِذِكر رسول الله ذي المَنْصب الأسنى
عليه صلاة الله ما تُلِي الضُّحَى   وما دام يتلى قاب قوسين أو أدْنَى

قوله سخا أحمد بالتبر، البيت فيه الجناس بين التّبر والتبن وهو بذلك يشير إلى بعض بُخلاء ذوي الأمر وقد طلب منه شيئاً من التّبن علفاً لمركوبه فأبى أن يسمح له بشيء منه فَعَرَّض به في البيت.

وهذا الجناس مأخود من نظم الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى في بعض قصائده وهو قوله[2]:

أيا جائداً بالتبر في حال عسرة   لمن[3] لم يَكد من مسها يَجِدُ التبنَا

ونفثات نثره، تنحط عن درجة شعره، وفِقَره في السَّجع المرصوف، تَرِك

---

(١) في (ذ) ستسكم.

(٢) ديوانه: ٥٠٧.

(٣) الديوان: لنا لم نكد فرطها نجد التبنا.

عماله من النظام الموصوف، منها ما كتبه على أول نسخةٍ أخرجت إلى اليمن من كتاب «ريحانة الألِبَّا» للشهاب الخفاجي رحمه الله تعالى وقد أخرجها بعضُ العظماء لما حج إلى بيت الله الحرام، ونال من يلمسه بالحجر الأسود منتهى المرام، وصورته:

طالعتُ هذا الكتاب، فوجدتُه ريحانةَ تستشمها معاطِس الآداب، بل روضةً باسمة الثغور بهيجة، ونفحاته كنوافج المسك أرِيْجَة، كل فقرةٍ منه دُرَّةٌ يتيمة، وكل فاصِلَةٍ خريدةٌ وسيمة، غَنيَّة الجيد عن القلائد، وكيف وقد اطلع شهابٌ في لَبَّاتها فَرَاقِد، فما طالعه أديب إلا واهتزّ منه إلى (ألحان السواجع)، ومن شهده فقد أنار له (الضّوء اللامع)، فَنَاهيك به من كتاب، ومن ريحانة ألِبَّاء أولي ألْباب، ولا شك أن مؤلفه في جنح المشكلات شهاب، ولعَمْري أنه قد أصبح ثاقب البيان والتّبيان، ولا سيما وقد حوى مدار فَلَكه كوكبان، وطلع في سماءِ السادة الكرام، واستقل ببرج مولانا وجيه الإسلام، ولله سليلُه عينُ السِّيادَة، والسيف في جفن النجابة والنَّجادَة، فَلَقد أدرك بحجّه الحُسْنَى وهذا الكتاب زيادة، جاء بسحره من البيت الحرام، جعله الله ميمون المطلع مقروناً بحسن الختام.

ولمَّا وفد إلى حصن كوكبان آخر وُفوده، وقد أخذ المشيب بلحيته وفَوْده، كنا نجتمع أنا وإياه ووالدي اجتماع الأنجم في الأفلاك، وننتظم في مجالس المذاكرة انتظام الدُّر في الأسلاك، طالما تنازعنا أردية الآداب، وتجاذَبْنا من أطراف المحاورة الأهداب، من نفيس فوائد، إذا مُدّ خُوانُها وبَدَت غصونُها قيل في الحالتين هذه موائد، فاملأ الشيخ من قصائده ما أصفر عنده الذَّهب وذلّ، وساقط علينا من مقطعاتِه ما صيّر الدُرّ كالحصى المبتذل، فَكَم عطفٍ منْهُ قَدِ اهتَزّ، وقَدُ مِنَ الملاح قد مال في حلل الخزّ.

فقال لي: ما شأنك لا تملي علينا شيئاً من شعرك، لنعرف في الفضل به مقدار شعرك.

فقلت: وهل يحسن عند الشمس إظهار السّراج، أم هل يليق إدارة الماء الكدر عند خمرة الزُّجاج، وماذا عسَى تأتي به الشّوهاء لدى الحسْنا، ومَا حظ

العين الشهلا عند المقلة الوسنى، ثم أمليته من نظمى ما حضر، وعرضْتُ عليه ما اختاره النَّظر، ثم قلتُ له قد نظمت معنًى وفي ظنّي أني لم أسْبَق إليه وهو قولي:

رِيْمٌ سقمتُ بِهِ غَرَاماً وهو في ... قلبي العميد مع التنائي نَازِلُ
جِسْمِي مُجِدٌّ في هواه تطلُّباً ... للْحُبِّ وهو على الحقيقة هَازِلُ

فقال: ما أعلم فيما اطلعتُ عليه من الأداب، أن أحداً قد طرق من هذا المعنى حلقة الباب.

ثم قال: زدني زادك الله مما أولاك، ورفع قدرك على مناكبِ الأفلاك، فأمليته من شعر الصِّبا ما أمليتُ، وأوليتُه من الحُكْم فيهِ ما أوليتُ، ومن جملتِه قصيدة رائية أُعْجِب بمعنى بيتٍ فِيْها، وقال: هذا من المعاني التي اصطفيها، وهو قولي:

وطُرَّةٌ صُفِّفَت فَهَامَتْ ... عُشَّاقُها في الأنامِ طُرّاً

وَلَمَّا كان في مجلس آخر، قد باهى الرَّوض المونق وفَاخَر، أشتاق لحضوري فاستدعاني، عَن إزعاج مُحِبٌ وحثّ عاني، فأقبلتُ إليهِ إقبَال النَّسيم إلى الروض المَطِير، وكِدتُ إلى الاجتماع لو كنتُ ذا جناح أطير، فوافيته وقد أَعَدّ ما يتم به أُنسِي، وهَيَّأ ما يكاد أن ينسى الإنسانُ به كربَهُ وقَدْ أُنسِي، وقد استصحبت من كتب علمٍ وأدب، ما ألفاظها في أعْضاء اللّبيب أسرَى مِنَ الخمرة وأدَبّ، فَلَمَّا أطمأنَّ المجلس بِنَا، واشتمل على حركة إعراب من المجاورة لا على حركة بِنَا، وافانا بعضُ الحُكَّام اللُّطَفَا، ممن طاب روض عِرفانِهم مُقْتَطفاً، طمعاً في المحاورة، وشوقاً إلى المناوبة للآداب والمعاورة، إلاَّ أنه وَفَد وخلفَه مِن ذوي الشِّجار عُصْبَة، ومِن المتحاكمين زُمرَة وَدَدْنا معها أن نرفع نَصْبَه، فتكدر بديع ذلك المجلس باللف الذي ماله نشر يطيب وذوي من ذلك الغرس غصنُه الرَّطيب، فزوى الشيخ وجهه وقطَّب، وكلّ صارمه الهندي علَى أنه مُشَطَّب، لأنه كان ذا طبعٍ منحرف، ونهرٍ يكدره اليسير من المغترف، يتكدَّر صفوه في أسْرع من لمحة الطرف، وتخبُث نسيمه وإن كانت طيبة العرف، والتفت إليّ بعد أن دارت بالملامة رحاه، وقال: يا سيدي، ولهذا أن القاضي يستثقل عند النجاة ثم قام من المجلس وخَرَج، وتركنا

فيه ولا حَرَج، فاستحَيْت من القاضي، واستقبلتُ في الحال سيفه الماضي، ثم قلت: له طبع الشيخ قد عُرِف، ودينار نقده طالما صُرِف، ثم خرجنا في أثَرِه، وتكدَّرنا لِكَدْرِه، وخطر في بالي نظم هذا المعنَى فقلتُ:

رُبَّ قاضٍ قد كَدَّر الصفو فينَا بعد أن صار كالحُسَام صقيلا
ولهذا القاضي غدا عند ذي الفضل (م) جميعاً من النُّحاة ثقيلا

وقلت في حاكمٍ مليح وفيه اللّف والنشر المرتب:

وحاكمٌ بالملاح يزري قد زاد في الطَّبع منه لطفُ
قالوا غدا ناقصاً ثقيلاً فقلت خصر له وردف

ولما ارتحل الشيخ عنا وكان قد وعدني بشيء من نظمه مع استقرارِه بوطنه كتبت إليه كتاباً من إنشاء أيام الصغر أصْلحنا منهُ الآن بعض فِقَرِه وهو ما صورته:

أدام الله تعالى أيام الشيخ العارف، ونشر على ذاتِه من برود العافية مطارف، وزيّن بحور الليالي بعقدٍ منه نظيم، ونبّه عيون أزهار الأدب بشمائله التي هي نسيم، وعقد على هامة البراعة من أيّامه عصائب، وأطلع في سماء الفصاحة من كلماتِه النجوم الثواقب، فهو الذي نَظَم في سمط يراعِه جواهر البيان، وفصَّل تاج الطروس بيواقيت نفثاتِه الحسان، واجتنى زهرات البلاغة من خمائلها بأيدي هِمَمِه، والتقط دراري الأفلاك فإذا هي معدودةٌ من كلمه:

تكاملت فيك أوصاف خصَصْت بها فكلنا بك مسرور ومغتبطُ

خصّه الله تعالى بسلام لا يبرح متلُوًّا بألسنة الأقلام، مرقوماً في دفاتر الليالي وصحف الأيام، يُقْتَطَفُ من حدائقِ السطور غَضُّ أزهَارِه، وَتُغَرِّد حمائم اليراعات بنغمات سجعه وآثارِه، وإكرامٌ تتأوّد بنسيمه غصون المُحَاوَرَة، ويَتَنَمْنَمُ نَبَاتُه بجوانب المطارحة والمُسَامَرَة، مَا جَنَى كَفُّ الصُّبحِ مِنْ غُصْنِ المَجَرَّة نَرْجَسَ النُّجوم، ونثر الأفق على زمرّد الروض جُمَان القَطْر من حِقاق الغيومُ، أمّا بعد فصدور السطور، منهية إليكم ما هو من خير الأمور، وهو تحقيق الشوق إليكم وإن كان لديكم

مُحقَّقاً، وتَدْقيق ما فعل الفِرَاقُ بالمُهَج وإن كان عندكم مُدَقَّقاً، فَبِالله أقسم ما مَرَّ لَنَا صَباحٌ أو مَسَا، إلا وذكرك كأسٌ تُدَار بين النُّدَمَاء والجُلَسا، ولا عرض بحث أدب إلاّ وعرض طيب ذكرِك، ولا خطرت على البال بنات الأفكار إلا بُدي ببينات فكرك، ما حَلاَ رُطَب عيشٍ مَرَّ مِنك بالنَّوَى، ولا أخضر روض أُنسٍ بعد انقشاع غمامِك قد ذَوَى، فَرَعْياً لأيام قُرْبك ما كان أهناها، وسقياً لأيام دُنوِّك التي لم تُبْقِ لَنَا إلا أن نتمنَّاها،

نعم أُذَكِّرك بنجاز وعدك، واستمطر ما تراكم من سحبك وزَمْجر من رعدِك، فإنك وعدتني بنقل ما يطيب نقلُه، ويَلِذُّ من ثمرَه الجَنِيّ ثَمَرُه[1] وزَهْرُه وَبَقْلُه، مِن شعرِك الذي هو خمر الإسكار، ونظمك الذي يسقَمُ تهتّكا فيه نسيم الأسحَار، فأبْطَأتَ إبطاءَ فِنْد[2]، كأنَّكَ بعثتَ له مِن بلاَدٍ أصلُكَ مِن تُرْبها وهي الهِنْد، فَمُنَّ بذلك على العَجَل، ولا تُطِل الوعد مِن بعدُ أطال الله لك الأَجَل، لنتخِذ الغُرَر مِن آدابِك، عِوَضاً عَمَّا عَزّ مِن خِطابِكَ، فمن فاتَه الوصل قنع بطيف الأحلام، ومن عزّت عليه المشافهة اكتفا بنفثات الأقلام، ومن لم يصل إلى الحديقة، ولم يمش بين نهورها الغديقة، رضى مع البعد بزهرها المقتطف كما رضي من فاته الدُّر بغشائة من الصَّدْف، ومولانا الوالد جمال الإسلام، محمد الحسن لا بَرِح زينة الصُّدُور الأعلام، يُهْدي إليكم من السلام ما يفوح، ومن الإكرامَ ما يغدو بأطيب أريج ويروح، ومن الرحمة ما يسري في الأجسام مَسْرَى الروح، وكذلك جليسنا المُهَذَّب طِبَاعاً، الطويل في المعالي سمكاً وباعاً، طيّب النجار والخيم، شهاب الدين أحمد بن عبد الرحيم، متَّعنا الله بمساجَلَته ومجالَسَته، وجعل لي بدلاً عن موانستِك ما لَذَّ عندي من موانَسَته، والله يبقيك لأعناق الحُسَّاد صَارماً، ويجعل جمعك للآداب جمعاً سالماً، مَا ضَلَّت الغَزَالة في مراتع الغَرْب المدهمَّة، فبادت البدر في أثَرِها وأوقد شموع الأنجم لاستضائها تَجرّد الهِمَّة، لكي تُدْرِكُ ضالتها

(١) كذا في الأصول ولعله تَمره بالتاء المثناة من فوق.

(٢) ضعيف أو خرف.

المنشودة، ويقع من الظَّفَر بها على البُغيَة المقصودة، وحسبي الله تعالى وَكَفى، فإني قد فقدت بعدك أهل الصَّفا والوفا، والسلام.

السيد يحيى بن أحمد العباسي الوزير[1]

عَبَّاسيٌّ قَصَّر عنه ابنُ بَسَّام، وَفَاضِلٌ بالغ في وسم غَيْرِه بالنَّقْص فَهو وَسَّام، لوْ أدركه عبد الرحيم العَبَّاسي[2]، لقالَ هَذَا عُدَّتي وَلِبَأسي لِبَاسي، وَلأَبْدَى له في العموم أي تخصيص، ولنَشر ذِكره الطَّيِّب في «معاهد التنصيص»، سيِّدٌ ينتسب إلى العباس، وفصيحٌ يتلعَّب بالبلاغة فَمَا عَلَى مَنْ قال له إلْعَبْ بَاس، مَاجِدٌ حلَّى بسمط محامده اللَّيالي، فاْختَفَت مِنَ الخَجَل في حُجْب الأصداف اللآلي، مُتَرَسِّلٌ يغار من قلمه المُبنَّد، وتتنفَّس المَجَامِر حَسَداً لطيب كلماته تنفُّس الصُّعَدَا بِدُخان النَّدّ:

قَـلَـمٌ يـنُـصّ عـلـى إمـامَـةِ فَـضْـلِـه فَـيَـرُوقُـنَـا بـشـعـارِهِ الـعَـبَّـاسِـي

لَهُ نَفَثاتٌ تُبهَى وتَبْهَر، إذا نظَم لآليها في عقود السُّطُور أزرَى بعقود الجوهَر، ذو أخلاق مَا جِرم النَّسيم في لُطْفها، وَمَا نُضَارَه الرَّوضَةَ التي طابت في عَرْفِها وقَطْفِها، يتكلل حَبَّاً منها بِعَرَقِ الطَّلّ جَبِينُ الحَدِيقة، ويبكي طرفُ النَّرْجس بِدَمعه مِنَ الندى غَديقة، فهو بَسَّام الثَّغْر غير عَبَّاس المُحَيَّا، وهو متهلل الوجه الذي سَلَّم عليه الأَقاح وَحَيَّا:

بَـسَّـامُ ثَـغْـرٍ فـيـا فَـوْزَ الـنـفـوس إذَا لَـمْ يـلـقَـه عـنـد رُؤيـاهِ بـعَـبَّـاسِ

ولـم تَزَل الأيام تُضْمِر رفعتَه وتُنْوِيهَا، حَتَّى نال منها رتبَة زاد بها صيتاً وتَنْويهَا، فولي الوزارة لبعض المُلُوك، وصان بدرَه عن النَّقص وشمسَه عَنِ الدُّلوك[3]، واستغنى برائِه عَنِ الإبصار، لَمَّا أدرك في صلاح المملكة ما لا تُدْرِكُه

---

(١) أديب ومؤرخ كان من العلماء، تولى الوزارة للإمام المهدي صاحب المواهب ثم نكب فآثر العزلة، ووفاته بعد سنة ١١١٠، انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ٢/ ٨٢١.

(٢) هو الأديب الكبير عبد الرحيم بن أحمد بن عبد الرحمن العباسي من العلماء، له كتاب «معاهد التنصيص» المشهور، توفي سنة ٩٦٣ (الأعلام ٤/ ٣٤٥).

(٣) دلوك الشمس: ميلانها إلى الغروب.

الأبْصار، وَإِذَا آراؤه للدولة تَمَائم، وأقلام إنشائه في روضها حَمَائم، إلى أن نوى الدَّهرُ بِهِ أَخْبَثَ نِيَّة، وغَشِيت سوح الفخَار ريحٌ قسطلانيَّة[(١)]، فأخرَب مِن عزّة دارَه، وَمَحا سَيْفُه ما قاله ابنُ داره[(٢)]، فَلَزِم زاوية الخُمُول، وَقُصِرت عليه الرزايا بعد العموم والشمول، وانقلب كأس سعادتِه فتَعَطَّل، عن الراح الشَّمُول، وحَصَل مِنَ الجَفَا على ما حَصَل، وَظَلّ عَارِياً عن حُلَلِ الريَّاسة وقد كان أكسى مِن بصل[(٣)]، ومَا برح من الزمان يتجرّم، ويطفي بدموعِه نَاراً منه تَتَضَرم، ويشكو في مكاتَبَتِهِ إليّ دَهْرَه، وأنه أذوى عيشه النضير على أنّه أَبْدَى لَهُ نَهْره، مَا وَعَدَهُ الزَّمان سِوَى عِدَه، ولم يشد بالانجاز سواعدَه، وإذا نَجَاز وَعْدِه غير مرقوب، وقَدفَتْ الزَّمانُ في عَضُدِهِ واصفر راحته بمطل عرقوب، والمَطْل في المنيحة شين، ولو فاضَتْ مها بَعْدَهُ على الممنوح من الذَّهب بلا حاجبِ عين، فقَد أصاب تلك العين القَذَا، وقد سبق قبل حصول المَنّ الأَذَى، وما برح مكلوماً مَجْفِيّاً، إلى أن عاد في لحدِه مَخْفِياً، فأنساه الموتُ تعبَهُ ونصبَه، ومَدّ الدهر لاقتناصِه فَخَّ هِلالَه ونصَبَه، فَمَضَى عَنْ دارِ جَفاهُ سُكَّانُها، وَنَزَل غُرْفَةً مِنْ غُرَف الجِنان رَحْب مكانُها، وَشِعْرُه لا يخْلُو عَنْ إجَادَةٌ، ونثرُه يُترجم عَمَّا لَهُ مِنَ المَجَادة، ومِن نظمه «نفخُ الصور، في ذكر آل القاسم المنصور»[(٤)]، وهو نظمٌ تَغْلِبُ عليه رِكَّةُ المعاني، وأبيات واهية الأساس والمَبَاني، فَمَا بعثر لنفخِه مَن في القُبُور، ولا حُصِّل بسطوره ما في الصدور، ونظمُه جميعُه عَنِ المَعَاني البَديعة مَغْسُول، وثغر بَنَات فِكْرِه عند الارتشاف غير معسول، مِنْ ذلك قولُه رحمهُ الله تعالى مُجِيْباً، وقد سلك مسلكاً عجيباً[(٥)]:

---

(١) ريح قسطلانية: كثيرة الغبار.

(٢) هو سالم بن مسافع بن عقبة الجشمي، عرف بابن داره نسبة إلى أمه داره شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، توفي نحو سنة ٣٠ هـ (الإصابة ١٠٨/٢ والأعلام ٧٣/٣).

(٣) المثل في المستقصى ٢٩٥/١ ومجمع الأمثال ٩٨/٢.

(٤) منه مخطوطة بجامع صنعاء الأوقاف برقم ٢٠ تاريخ. . انظر مصادر الفكر الإسلامي ٤٩٥.

(٥) الأبيات نقلها صاحب نشر العرف ٨٢١/٢.

سل فؤادي هل حلّ فيه سواكا … فهو يُنبيك أنه مَغناكا
يا صديقاً له حميد السَّجايا … وحبيباً للحاسدين شَجاكا
أنت عندي عين الوجود وأنّي … أتمنّى في كل حينٍ لِقاكا
ولك الودّ خالصاً من قديم … ليس يبلى وإن أراد عِداكَا
أنت في مهجتي مقيمٌ وإن قا … ل أناسٌ إنّي سلوت هواكَا
لست أسلو وإن شُغِلت عن الوصـ … ـل بما لا أظنّ أن يخفاكَا
غير أنّي أشكو إليك زماناً … قد أراني من أهله ما أراكا
ورسيساً من الهوى لِفريقٍ … لم أجد قط عن هواهم فَكاكا
إن تباعدت عنهم عَنَّفوني … أو تدانيت أرصدوا لي الشباكا
كل يومٍ يبدي لي الدَّهر منهم … خُلُقاً كم أطلت فيها العراكا
أنت أدرى بهم ويا ليت شعري … هل يفيد الشُّكَا لو نتشاكا
أيها الماجد الذي جَلَّ قدراً … وسما رتبةً تفوت السِّماكا
والمُجيد الرسائل الفاضليات[1] (م) … على رُغم حاسدٍ ناواكَا
والذي ينظم اللآلي كباراً … وإذا شاءَ ينثر الأسلاكا
لا تلمني وخَلِّ عتبي فإنّي … قد سئمتُ الولا إلاّ ولاكا
أنا في شغلةٍ بترميم عيشٍ … قصَّرتني عن عاليات ذُراكَا
لا تَقُل إنَّني سلوتُ غراماً … لك عندي فما أودّ سواكا
كل من في حماك يهواك لَكِن … أنا وحدي بكل من في حماكَا
واسألِ القلب فهو ينبيك عنّي … واطَّرح قول حاسدٍ قد أتاكَا
أنت في القرب والبعاد صديقي … كل من يدّعي الوفاء فِداكا
كيف تَرضى عِتاب خِلٍّ وَفِيٍّ … لو تَخلّيتَ عَنه ما خَلاَّكَا
واقبل العُذر عن قصور نظامي … فخطائي قد قَصَّرت عن خُطَاكَا

---

(١) نسبة إلى القاضي الفاضل (معروف).

مـن يُـجـاريـك فـي الـقـوافـي أو مَـن (م) يـدّعــي أنــه يُـدانــي مَـدَاكَـا

أنـت فـي الـفـضـل واحـدٌ كُـلُّ نـدبٍ مـن عـيـون الـزمـان يـدري بـذاكـا

وهـنـا الـعـيـد مـنـك وافـى وإنـي لَـجَـديـرٌ بـأن أهـنّـي عُـلاكَـا

فـابـق لـلـعـيـد يـا جـمـال الـمـعـالـي زيـنَـةً بـالِـغـاً بِـكُـلِّ مُـنَـاكَـا

سـالـمـاً غـانـمـاً بِـكُـلِّ نـعـيـم شـاكـراً ذاكـراً لِـمَـن أولاكَـا

وعـلـيـك الـسـلام مـا شَـنَّ مـزنٌ ومـشـى الـكـاتـبـون تـحـت لـواكَـا

وقوله:

كَـلَّـت الأقـلامُ يـا فـخـر الـهُـدى مـا الـذي نَـصْـنَـع فـيـمـا قـد كُـتـب

قـد أيـسـنـا عـن حـلاوات الـلُّـهَـى وأنـسـنـا بـمـرارات الـكَـذِب

كـل يـومٍ نَـسْـأل الـدهـرَ وفـاً فـيُـريـنـا سـخـطـاً مـا لا نُـحِـب

مـا تـرى فـي حـالِـنَـا هـذا الـذي صَـفْـوُه فـي بـرج نـحـسٍ مـنـقـلـب

قـد تَـوَلّـى الـجـود والـمـجـد ولـم يبق إلا شظف العيش الجَشب[1]

أيـهـا الإخـوان مـن يـنـصـحـنـي إن نـصـحـي مـن مـعـالـكـيـم يَـجِـب

أنـا فـي تـرمـيـم عـيـشٍ نـكـدٍ وشـجـون كـل حـيـنٍ تَـلْـتـهـب

لا أرى فـي الـنـاس مـن يَـنْـجـدنـي غـيـر أقـوامٍ حـيـاهـم قـد سُـلِـب

يَـمْـنـحـونـي مِـن نـداهـم مِـحَـنـاً هـي وصـفـاً عـضـه الـكـلـب الـكَـلِـب

نعم: وبيني وبينه ود على السّماع، ومكاتبات تنوب عن الاجتماع، أكرم بها من مكاتبات ليست تصبح عند بيت الشعر تصديةً ومُكاءتبات.

كتب إلي من النَّظم والنثر قوله، أَسبَغَ الله عليه من الرّضوان طوله:

سلام على القاضي الذي قد غدا صدرا وزاد بـمـا قـد حـاز مـن فَـضْـلـه قـدرا

سلام كـنـشـرِ الـروض بـاكـره الـحَـيَـا وفَـتَّـح فـي أكـمـامِـه بـالـنـدَّى زهـرا

---

(١) الجشب: الطعام الغليظ أو كان بلا أدام.

يُـؤدي لـه حَـقًّـا ويـشـرح لـوعـتـي إليه فشوقي سوق من عدم الصبرا
ورُبَّ هَـوًى قـد كـان لا عـن تـزاورٍ ورُبَّ غَـرام بـالـسَّـمـاع وبـالـذُّكـرىٰ
ونـسـأل مـن رب الـسـموات جـمـعـنـا بدار اللّوى الأقصَى وروضته الخضرا
ولا زال مـن هـذي الـسطـور تـوجّـهـت إلـيـه بـعـيـشٍ قـد حَـلاَ كُـلَّـمـا مَـرَّا

أوحد الأفاضل في الزَّمن، وإنسان عين أقطار اليمن، من زها به العصر، وتاه بكريم سجيته الدَّهر، صدر العلماء الذين برّزوا، وواحد الأدباء الذين عرجوا بُرْد الفصاحة وطرّزوا، سيدنا القاضي العلامة الخطيب، الناشِر من الوعظ رداءه القشيب، هَزَاز غصون المنَابر، والساجع فوق أعطافها بمحفل الأكابر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن الحسن الحيمي الكوكباني، لا زال أكرم عامرٍ لربع الفضل وباني، والله يصون ذاته التي هي عين الكمال، ويحفظ شخصه الكريم عن الطوارق فإنه لدهرنا جمال، ويبقيه مَا بقيت آثاره متلوَّة، وطريقته في الفضائل متبعة متْلُوَّة، ولا بَرِح في نِعَمٍ لا تُحْصَى عَدًّا، وقِسَمٍ من مَنَائح العطايا لا يستطيع باغضُه لها ردًّا، والسلام الجزيل عليه، ما حن الفؤاد إليه، يخدم مقامه الحقيق بالخدمة، ويَرِد إلى سوحِه بأتَمّ فَضْل وأكرَم نِعْمة، والإكرام اللائق بدرجَتِه العالِية، والرَّحمة المتتابعة المتوالِيَة، وبعد فإنه حقَّق لي القاضي العَلاَّمة الحسين بن عبد الله بن مسعود، ما أنتم عليه من الشَّغَف بالعلوم والآداب وفتح بابيهما المسدود، ووصفكم فأطرى، وأمعن في حقكم ذِكراً، فعلمت صدق ما وصف فإنه خبير، واشتقت إليكم اشتياق النبات إلى النّهر والغدير، مع شغفى بأهل الفضل وبَحْثي عمَّن بقي منهم، وميلي إلى من حَدَّث بما يشتاق إليه عنهم، ولا شك أن البيت الطيب لا يخلو من عامرٍ يعمر أركانه، ويُشَيِّد على هام السماكين منزله ومكانَه، فالسَّلف بحمد الله نعم السلف، ولا شك أن الخلف بعده إن شاء الله تعالى أحسن الخلف، فخطر في البال بأني أعاهدكم، وأُرسِلُ مِنَ السّطور ما كَأنّي مَعَهُ أُشَاهدكم، وأخطب بنات أفكاركم وإن كانت غالية المهر، وكفؤها غير موجود في هذا الدَّهر، وإن لم يتقدم بيني وبينكم معرفة تستوجب المكاتبة، ولا أنس يقتضي دوران المعاهدة والمخاطبة، وأما والدكم فبيني وبينه ما بين الأحباب، ولي وله شراب وُدٌ

لا يستحيل مع طول الزمان إلى سَرَاب، واستحسنت أن أرسل إليكم بنفخ الصور، لتنظروا فيما أودعناه من سيرة آل القاسم المنصور، وتعرضوه على والدكم فإنه بقيَّة من به يفتخر، والله يُهْنيه هذه المِنَّة العظيمة وهي ما شاع من فضلِك واشتهر، ويُقِر عينَه بوجودك وقد فعَل، ويجعلكما في هذا الزمان ممن يضرب بعرفانِه المثل، فترونه صدر إليكم في حفظ السّميع العليم، وعليكم من الله أهنى التحية وأكرم التسليم.

فأجبته من النظم والنثر بقولي:

بديع نظامٍ طاب في لفِّه نشَرا ... أدار علينا من بدائِعِه خمرا
رويدك يا مهدي النظام بذي حجًى ... بعثت له في طي أسطرك السِّحْرا
وجئت به عقداً نضيداً تقلَّدت ... به الغيد إذ زانت به الجيد والنَّحْرَا
وكلفتها بعض القلائد عنده ... فما نظمت دُرًّا ولا رصفت تبرَا
فمهلا عماد المكرمات لقد سَبَا ... بزُخْرفِهِ ذاك النّظام لَنَا حِجْرا
بعثت بنفخ الصور حتى بعثت لي ... رميم نشاط كنت أودعته قبرَا
فقمت لتحبير المَقَالِ بِنَشْوَةٍ ... وثَقَّفتِ مِن أقلام عارضتي سُمْرَا
بقيت تزين العَصْر فضلاً وتنثني ... لخمرة آدابٍ بِنَا تحكم العَصْرَا

وصلني الطومار[١] الشريف، وتمثال الروض في أيَّامِ الخريف، وقدْ شُلَّت يَمِينُ الشّتا عن أن تعبث بنباته الوريف، مِن تلقاء المولى الذي سرني منه ورود السطور، ونزل علي نزول الرَّوض الممطور، فكان أشهى إلى العيون من الغفوات، وأحسن موقعاً على النفوس مِنَ الظّفر عقيب الفوات، وأحلى من عناق الحبيب بعد بعاد، وألَذَّ من زورته بلا ترقب ولا ميعاد، فما الوجه الجميل بَرْقعه الحيا، وما طمأن الروض وافاه الحيا، اهتزَّت له رياض شبَام وربت، ودنت غصونها فرحاً من بعضها البعض واقتربت، وتتحير نسيم الصبا مروراً، واستغرب في الضحك ثغر

(١) الطومار: الصحيفة.

الأقاح سروراً، وقامت الوُرق من الطرق على معاطف الأغصان تصدح، وتجردت أصابع الزّنبق الغضّ لنار الشقيق تقدح، رعى الله عهد من أرسله على حين فترة، وصان مُحَبّره الذي هو الفخر في العترة، سيّدٌ زُوّج بالمعالي فما منحها طلاقَه، وتهلّل وجهه بالبشر فعليه منه طلاقه، جاء لنا بكل نفثَةٍ رقيقة، فهو العماد الكاتب على الحقيقة، خدمه السلام عني خدمة المملوك، وورد عليه الإكرام دُرًّا في سموط النسمات مسلوك، ما مَزّقت جيوب الدّوح أيدي الصَّبا، وشَقَّ قلوب الحدائق من النّهر صارمٌ ماضِي الشَّبا، فتكلّفتُ الجواب وَإذا أنا في المُجَاوبة الصدَّى، وقُمْتُ شاكِراً لمهديه وقد نقعَ من فؤادي الصَّدَى، جئت أيها السَّيّد بما لا يرتضى ثَمَناً لِدرك، وقابلت بعبدي الهجين ما كَرُم من حُرّك، فأعْتِقه بالقبول، وتلقاه بما أنت عليه مِن حُسْنِ الأخلاقِ مجبول، فقد أتيت من الفصاحة بما أعجز، وجئت بما لم يصل إليه متكلم أطنب أو أوجز، ونشرت على بنات الأفكار حُلَلاً راقت من لطيف الخزّ، وأما عُذْر المُحِبّ في قصر باعِه فواضح، وأمَّا عيوبه مع كثرتها فهُن له في دعوى الكمال فَوَاضح، والحمد لله الذي جعل لنا ألسِنَةً مِنَ الأقلام، نتخاطب بها ونُبثّ ما أجنته الأحلام، من أشواقٍ لا تقوى عليهَا الجوانح، ولا تتفلت من شباكها السَّوانح، وقد سكن قلبي وقلبُك بالمودّة على السَّماع، وكُسِر الأول منهما في الذّكر وهو قلبي لما لم يحصل التلاقي والاجتماع، فواعجباً مما ظهر وبدا، أيُكسَر الأول ولَمَّا يَلتَقِ الساكنان أبداً(١) ونسأل من جمع بين القلوب بالتوَدّد، وَكَرّر لمتنافرها إلى مراتع التآلف ما حمدت عليه من التردد، أن يكْتب تلاقي الأشباح، كما كتَب له المنّة ائتلاف الأرواح، ونفخ الصور وصل فنعش المرموس منَ الهم، وبعث مِنَ القرائح ما عُدّ في البالي مِنَ الرِّمَم، فلو عرف بذلك إسرافيل، لَمَا شخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخ فإنه به كفيل، أحييت به مِنّا ما أماته الدّهر، وأرجعت الأرواح إلى أجسادٍ فاجأها حمامها من الغيظ والقهر، والسلام.

---

(١) سيشرح المؤلف هذه العبارة فيما بعد.

قولي في هذا المنثور: وقد سكن قلبي وقلبك إلى آخر الفقرة الرابعة وهو قولي أبداً، مَغنى هذه الفقرة ظاهر لأنه لا يحصل الكسر للأول من السَّاكنين عند النحاة إلاً مع تلاقيهما، وهذا المعنى الذي جئنا به مُبرَّأ عن العيب سالم من الاعتراض كما ترى، لا كما قال شمس الدين محمد بن العفيف التلمساني رحمه الله تعالى في النظم[1]:

يا ساكناً قلبي المُعَنَّى ... وليس فيه سواه ثاني
لأي مَغنىً سكنت قلبي ... وما التقى فيه ساكنان

قال الفاضل القاضي صلاح الدين الصفدي رضي الله عنه في كتاب «غيث الأدب الذي انسجم شرح لامية العجم»[2] ما لفظه: قلتُ: هذا المعنى فيه نقص لأن القلب ظرف لاجتماع السَّاكنين والكسر إنما وقع على القلب لا على أحد الساكنين ومن تأمله حق التَّأمل ظهر له هذا الإيراد موجهاً انتهى كلامه بلفظه وحروفه.

أقول أنا: نعم هذا الإيراد لازم من غير تأمّل فإنه ظاهر، ففي معنى هذا النَّظم اختلال واضح، ومثله أيضاً قول الآخرِ من الأدباء عفا الله عنه:

لا كان لا كان قلبٌ ... فيه التقى ساكنان
فهو الجديرٌ بكَسْرِ ... في علم أهل المعانِي

وقد نظمتُ في هذا المعنى نظماً أسلمته عن العيب المذكور فقلت:

للقلب محبوبان أولهم هوًى ... لم ارع في عشقيه عهداً أوّلاً
فيه تلاقى الساكنان فلم أزل ... في حيرةٍ حتَّى كسرتُ الأوّلا

وقلت أيضاً وهو ألطف من الأول:

---

(١) ديوانه: ٢٢٩ ط شاكر هادي.

(٢) انظر الغيث المسجم ٢/ ٢٢ ط دار الكتب العلمية.

طَرْف الحبيب وثغره سكنا هوًى   وتلاقيان بقلب صَبٌّ قد أسر
والطرف أوّل ساكنٍ من ذا وذا   في القلب فهو مع التلاقي قد كُسِر

السيد محمد بن علي بن محمد المعروف بابن صاحب العُدَيْن[1]

سمح به الزمان على بُخله، وتَدَلّى بيانع عثاكِلِه باسق نَخْلِه، فساقط علينا رطبه جَنِيًا، وأصبح بفضل عَمّن سِوَاه غَنِيًا، نَسَمَات أدبه طيّبة الأرج، وجياد فكرته سليمة من العرج، اجتمع بي بحصن كوكبان، ثم رحل عن منازلنا به وبان، وقد كنت طلبتُ منه نقل شيء من نظمه فلم يَتِمّ، ووَعدني بالفَضّ لدن شعره فهو بالمسك من مِداده قد خُتِم، فَمَا زلت على ما فات ذا أسَف، لمّا طار قُمْريّه الغَرِدُ مِن رياضِنَا وأسَفّ، ثم لَمّا حثني إلى صنعاء المحمية الشوق، ودخلتها مجذوباً بزمام التَّوْق، وغَرَّدت بين أفنانها مِن أيّامي ذوات الطّوق، اجتمعت به مِنَ الزمان على رغم أنفه، وعَلّقتُ على غادة أدبي من نظمِه لطيف شنفِه، وأملاني له ما أملى، وأفعم كأس دقائقه لي وأملا، فَثَمِلت عطفاً، وازددت كالنسيم لطفًا، واستكملت ثمرات آدابه قطفًا، وعقيب انفصالي عَنِ الرّبع، وتركي عن نبات صنعا للغرب والنّبع، جاءني خَبَر نَعْيِه، جاهداً في خطوات سعيه، أكْسَفَ بعد الكمال بَدْرُه، وانحط جِسْمُه في اللّحد ومَا انحط قدر، سقى الله مِنْ جَسَدٍ شاحِبَه، ولا زالت الغمائم لأذيالها على ضريحه ساحبة، ما برز الغصن في الملبس الأنضر، فابتسم ثغر الأقحوان عَنْ لَعَسِ النَّبت الأحوى الأخضر، فَمِمَّا أنشدني لِنَفْسه، واطلع عليَّ من نجوم ألفاظه في ليل نفسه، قوله من قصيدة:

يا ساجعاً في الفَنَنِ   بِرُبَّ معنًى حَسَنِ
وتاركاً سِرّي الذي   أكتمه كالعَلَن
هيَّجت لي شوقاً إلى   أحبتي ووطني

---

(١) تفرد بذكره كتابنا ولم أجده في غيره.

أظـنـه قـد اغـتـدى ... مـن بـعـدنـا كـالـدِّمَـنِ
مـالـي وَمـا شـرّدنـي ... عـن أهـل صـنـعـا الـيـمـنِ
قـل لـي هـي الـدنـيـا الـتـي ... تـولـي الـمـنـى وتـنـسـنـي [1]

وقوله:

ما تـرى يـومَـنـا رقـيـق الـحـواشي ... كيف أضحى الـهوى به في انتعاشِ
نـشـر الـروض نـشـره فـاغـتـدى الـهَـمّ (م) وقـد هـبَّـت الـنـسـيـم كـلاشـي
ودمـوع الـغـمـام أضـحـكـت الـزَّهـر (م) سـروراً وغـاب لاحٍ وواشـي
وَرِدائـي مـن نَـوره وإزاري ... وبـسـاطـي ونـزهـتـي وفـراشـي
فـاغـتـنـم رقّـة الـزمـان وَمُـره ... يا حـلـيـف الـنـدى بـنـسـج قُـمَـاشي

قلتُ: لو قال واغنم الروض في الرَّبيع ومره إلى آخر البيت لكان هذا القُمَاش ناعم الملمس، يُخْلَع على الغصن منه خضرة الرَّفرف إذ يُلْبَس، لأن الروض أولى من الزمّان بنسج القماش، وذلك من خضرة نباته وأوراقه المطرزة بأنواع الزّهور، سيما مع قوله (يا حليف الندى) لأن الندى هو السّخاء والإفضال من قولهم تندَّى إذ تندَّى وأفضل كأندَى فهو نَدِيُّ الكَفُّ أي سخيّه ومفضله، وهو الذي أراد صاحب الترجمة رحمه الله تعالى، والنَّدَى أيضاً هو المطر والبلل، وهذا الوجه لم يرده في بيته، ولم يدل عليه فيه شيء لخلوّ البيت عَمَّا يُشعِر بأنه مُرَاد كما أشعر فيه على مُقْتَضَى تَضويبنا له ذكر الرّوض والربيع فهو مع ذلك يتم له التَّورية في الندى المرشحة بذكر الرَّوض والربيع، لأن الندى الذي هو المطر والبلل يناسبهما ويصير المعنَى في البيت: إنك يا حليف الندى تأمر الرّوض بنسج القُماش، أي أنك تهطل عليه بالمطر والبلل، ومع ذلك فما عذره عن أنه لا يخضَرّ ولا يورق، وقد وقع عليه الندى الذي هو المطر والبلل، وقد سخيت به عليه وأفضلت وببيان ذلك تظهر التورية.

---

(١) ورد هذا البيت مضطرباً في (ب) و(ش) فأصلحناه من (ز).

وكنت سألتُ صاحب الترجمة رعَى الله عهده عن مقصده في البيت بنسج القماش فقال: قصدت ما يَصْنعه أهل مدينة زَبيد ونواحي تهامة فإنهم ينسجون للعروس ليلة زفافها حُلَّة مِن الفلّ الذي هو الياسمينُ فيكون لها مع ذكا العرف رُواءٌ ومَنْظر عجيب.

فقلت: ومع هذا القصد يتأكّد حسن تَصْويبنا للبيت لأن الروض أيام الربيع هو الأحق من الزمان بأن ينسج من الفلّ الذي هو الياسمين قُمَاشاً نضيراً مع وقوع النّدى عليه.

وأنشدني من نظمهِ لِنَفسه أيضاً قوله في صديقٍ له اسمه علي مَا زالت تَرْتَقي به الحال حَتَّى نُصِبَت عَلَيْهِ المَظَلَّة المعروفة التي توضع على الملوك وذوي الأمر فتغيّر منه ما عهده مِنَ الودّ والوفاء فقال:

مَــن لــي كــمــثــل عــلــيٍّ ... فــيــمــا أحِــبُّ وَمَــنْ لــه
وقــد وفــا لــي وَلَــكِــن ... قــد شــمْــتــه الــمَــظَــلَّــه

وقوله في الاقتباس من الحديث مع الاكتفاء:

ولـرُبَّ شـخـصٍ لـيـس يـبـرح دائـمـاً ... ذا شُـغْـلَـةٍ بـعـيـوب أبـنـاء الـزَّمَـن
يـا لـيـتَـه سـمـع الـحـديـث تـأدُّبـاً ... فـكـفـاه قـولُ مُـحَـمَّـدٍ طـوبَـى لِـمَـنْ[1]

وَلما تراخى بنقل ما طلبتُ نقله مِن نَظْمِه، وكان قد خرج من مدينة صنعاء المَحْمِيَّة إلى روضة حاتِم أيام الخريف، كتبت إليه وقد أزمعت على الرّحيل من صنعاء إلى ديارنا ديار كوكبان المنيف أحثّه على البدار بذلك قولي مِنَ النثر:

السلام على من هو للعصر قد زان، ولذهب الآداب وَدُرّه بميزان العروض قد زان، سلام كأنه الرياض التي نزل من أفيائها ممدوداً، والحدائق التي رونقها غَدَا من رونقِ الجِنَان مَغْدُوداً، هذا وإنّي قد التمست من نظمكم نقل ما أمكن، وعولت عليكم باتحاف المحب بشيء منه لا يقدر عليه العَدُوّ الألكن، فوعدتم به وعداً غير مكذوب، وكادت المهجة شوقاً إليه أن تذوب، فبادرو بالمطلوب،

---

(١) إشارة إلى قوله ﷺ «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» رواه الديلمي في الفردوس عن أنس بن مالك مرفوعاً (الفتح الكبير ٢/٢١٦).

وأجلبوا إلى سوق دفترنا منه خَيْر مجلوب، فإن السرج على سَكَاب[1]، والرّجل كما يُقال في الرّكاب، والرّمح على العاتِق، والكُوْر[2] على الناتِق، والنزيل على الرَّحيل، وبين المحبّ وبين ما يشتهي من الإقامة قد حيل، ومن المعلوم أنه لا يكتحل بالمَنَام لِفِراقكم بَعْد قَطْعِه المِيْل، فَإِنّ البَيْن كَشَر له عن ناب، وأضرم بقلبه النّار وليس من عنّاب[3]، فتفضّل من نظمك ولو باليسير، وَمُنّ على محبّك من شعرك بزاد المسير، فأنا مُنفَصِل عنكم في الصّبَاح إلاّ رقادي، وعازِب عن ربعكم الشريف إلاّ فُؤداي، فإنّي قد سمحت بالأوّل لجفون مَن تناسَى الأَخِلاّ، وتركت الثاني بمقام مولاي لئلا أُعد في المَوَدّة مِخِلاً، وكنتُ أوَدّ لكم وَدَاعي، ومصافحة الراحة الكريمة التي أنا لها شاكر وَدَاعي، لكن خشيت أن تصبكم من نار قلبي شرارة لافحة، أو تغرق سوحكم المَغْمور بحار دموعي فإنها طافحة، ولا تشتغل حرسك الله تعالى عن نقل رياض المنظوم المشرقة، ببقل رياض المنثور من زهور الأكمام المورقة، ولا تلْه من هذه الحظائر بطيب أعنابِهَا، على أنه لا لوم عليك فقد اعتنى بشأنِها غيْرُك ولكنّك أغْنَى بِهَا، ولا غرو أن تستميل الجَنان رياض هي على التَّحقيق تمثال الجِنَان، لا زلت فيهَا سارِحَا، ولصدرك في ظلالها شارحاً، ما فارَق مُحِبٌّ أَحْبَابَه، وانفصل عنهم وقد مُلِي فؤاده مِن الكَآبة، فسار وسيرُه خطوةٌ والتفاتة، وَمَضى مُتَأَسّفاً والله العاصم على ما فَاتَه، والسلام.

قولي: وأضرم بقلبي النَّار وليس مِن عُنَّاب، فيه مع الفقرة التي قبله الجِنَاس وهو ظاهر، والمعنى أن قلبي سيلتهب مع اضرام النَّار فيه فإنه ليس مِن عُنَاب، لأن النار لا تنقدح مِنَ العُنَّاب قال في كتاب «مطالع البدور»[4] أنه ليس في الأرض

---

(١) سكاب: اسم الفرس.

(٢) الكور: الرحل والناتق المرتفع أو الناقة السريعة الحمل.

(٣) سيشرح هذه اللفظة فيما بعد.

(٤) (كتاب مطالع البدور في منازل السرور) كتاب في الأدب يشتمل على وصف دار الملك وما يحتاج إليه من إنشاء وطب ونعيم وعلم وهيئة ونديم وشراب الخ. . . من تأليف علاء الدين =

شجرة إلاّ وتنقدح منها النّار إلا العُنّاب[1]، وذكر الجاحظ رحمه الله تعالى في باب النيران من كتاب الحَيَوان[2] أنّ بكزمَان خشب لا تحرقه النّيران، انتهى كلامه.

ولذا أني نظمت في مليحة قَطّت الشمعة فاحترقت أناملها، وأنامل الحَسْنَاء تُشَبَّه بالعُنّاب كما أطبق عليه معاشِر الأدباء في أشعارهم، قال الواواء الدمشقي[3] رحمه الله تعالى[4]:

وأمطرت لؤلؤاً من نرجسٍ وسقت ... ورداً وعضّت على العُنّاب بالبَرَدِ

وقال أبو نواس في مليحة تلطم خدّها في مَأتَم[5]:

يا قمراً أبصرت في مَأتَمٍ ... عرفتها من بين أصحابي[6]

تبكي فتذري الدُرّ من نرجسٍ ... وتلطم الوردِ بِعُنّاب

والنظم هو قولي:

قد أُحرِقَت أنمُل من قد سبت ... بمنتهَى الحُسْنِ الذي قد مُدح

عجبت من ذاك فعهدي بأن (م) النّار في العُنّاب لا تنقدح

= علي بن عبد الله البهائي الغزولي الدمشقي المتوفى سنة ٨١٥. طبع سنة ١٣٠٠ في مجلدين.

(١) مطالع البدور: ٢: ١٨.

(٢) الحيوان للجاحظ ٥: ٣١٠.

(٣) هو أبو الفرج محمد بن أحمد الواواء الدمشقي شاعر مطبوع حلو الألفاظ له ديوان شعر، توفي سة ٣٨٥ تقريباً (فوات الوفيات ١٤٦/٢ ويتيمة الدهر ٢٠٥/١ والأعلام ٣١٢/٥).

(٤) البيت في فوات الوفيات ٢٤٠/٣ ط إحسان عباس، ويتيمة الدهر ٣٣٧/١ ط العلمية وقبله هذا البيت:

قالت وقد فتكت فينا لواحظها ... كم ذا أما لقتيل الحب من قَوَد

وأسبلت لؤلؤاً من نرجس وسقت ... ورداً وعضت على العناب بالبرد

قلت: هذا البيت مشهور وقد بنى الحريري مقامته الثانية عليه.

(٥) ديوانه: ٢٤٢ ط الغزالي.

(٦) الديوان:

يا قمراً أبرزه مأتم ... يندب شجواً بين أتراب

قولي: لكني خشيت أن تصيبكم من نار قلبي، والفقرة التي بعدها هما في معنى قول خليلنا الشيخ إبراهيم الهندي رحمه الله تعالى في بعض قصائده يَعْتذر إلى مولانا الوالد رضي الله عنه وقد ترك وداعه لَمَّا رحل عن مقامه الشَّريف رفعه الله تعالى:

يا قاضي العلياء قد وردت   من فخر دين الله ذي المجدِ
نفثات عَتْبٍ كان باعثها   ترك الوداع وذاك عن قصدِ
إني خشيت لدى وداعكمُ   أن تَخرقُوا بالنار من وَجدي
أو تغرقوا بمدامعٍ وَكَفَتْ   كالغيث بين الوَجد والوَخْدِ

وقول الشيخ إبراهيم أيضاً رحمه الله تعالى:

يا صفيّ الهُدَى ويا ابن العمادِ   أنت والله بُغْيتي ومُرَادي
ما تركت الوداع سهواً ولكن   خِفْت أن تحرقوا بنار فؤادي

وقوله:

يا أيها المولى الذي كلماته   أبداً تدير على الأنام رحيقَا
إني رحلت ورحت غير مُوَدعٍ   فاعذر فتًى بيد النَّوى موثوقَا
إني خشيتُ عليك مِن ماء البُكَا   غرقاً وَمن نار الفؤاد حريقَا

وهذا كله أحسن من قول الشيخ حسن بن محمد بن كمال الدين القرطبي[١] رحمه الله تعالى وإن كان آخذاً له منه[٢]:

يوم الوداع بدت شواهد لوعتي   نار الخليل تُشَبّ في الطوفانِ
وأردت اعتنق الحبيب فخفت أن   يغشاه يَمٌّ أو لظى نيرانِ

وقال الشيخ عفيف الدين التلمساني رحمه الله تعالى:

إني لأكظم أنفاسي إذَا ذُكِروا   كَيْلاَ يحرقهم من زفرتي اللهبُ

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى:

لم أطرح يوم الوَدَاع عِناقه   مللاً ودمع المقلتين سكوبُ

---

(١) هو الحسن بن محمد بن كمال الدين القرشي القرطبي الكركى الصفدي توفي سنة ٧٢٣هـ انظر ترجمته في الوافي بالوفيات ١٢: ٢٥٦ والدرر الكامنه ٢: ٢٤ وشذرات الذهب ٦: ٦١.

(٢) البيتان في أعيان العصر للصفدي ١: ٣٢٩ ط المانيا المصورة.

إلاَّ مخافة أن يفتر عن برد فتبدوا حرقتي فيذوبُ

وما ألطف قول القائل رحمه الله تعالى:

ما اخترت ترك وداعكم يوم النوى والله مِن مَلَلٍ ولا لِتَجَنُّبِ
لكن خشيت أن أموت صبابةً وَيُقال أنت قتلته فتقاد بي

وقد أجابني صاحب الترجمة سقَى الله عهده عن هذا المنثور الذي كتبته إليه بمنظوم له يتعرَّض فيه لذكر شيء من تآليفنا، وقد أرسل بتمثالٍ من شعره فقال:

ألا يا إمام العصر في النّظم والنثرِ وفي سبك أقراط المصفَّى من التِّبر
ويا ساجعاً فوق المنابر خاطباً بما مال تطريباً له ساجع القُمْرِ
ويا عالماً يملي من الصَّدْر جملةَ (م) الفوائد فينا ليس يملي من السطرِ
لقد جئت بالمنثور من زهر الرُّبَا ولوّنته بالحسن في ذلك النَّثرِ
رقى كوكبان حين أصبحت فخره فجاوز مرقاه صعوداً على النَّسْرِ
وعنك سمعنا من تآليفك التي أفادت كثيراً ليس تدرك بالحَصْر
«نسيم الصبا» طيَّبت منها ذيولَها وقد خطرت بين الحدائق بالعطرِ
فما ابن حبيبٍ[1] عنده غير قاصرٍ فهيهات أين النجم من رتبة البَدْرِ
وقالوا لنا «الأصداف»[2] جئت بها وذا دليل على ضَمِّ النفيس مِنَ الدُّرِ
وإنك بَحْرٌ ليس يدرك قَعْره لذلك أني قُلْتُ حدّث عنِ البَحْرِ
وهاك من المَنْظوم ما قد طلبته فاسبِل ثياب السِّتر منك على شِعْري
وما أنا أهلٌ أن أزاحم معشراً ولا أنا أهل أن تُبَالغ في ذِكري
ولكن قَضَت منك المكارم والعُلاَ بذاك فحمدي دائم لك مع شكري
سأشكر ما أوْليت حَيّاً فإن أمت فشكر عظامي واجبٌ لك في قبري

(١) ابن حبيب هنا هو مؤلف كتاب نسيم الصبا المطبوع سنة ١٣٢٠ هـ وهو بدر الدين الحسن بن عمر بن حسن بن حبيب المتوفى سنة ٧٧٩ (سبق) وعارضه المؤلف بكتاب عطر نسيم الصبا.
(٢) يعني كتاب المؤلف الأصداف المشحونة (سبق).

عـليـك سـلام مـا تـخـطَّـرت الـصَّـبَـا صَـبَـاحـاً عـل الأرجـاء طـيـبـة الـنَّـشْـرِ

السيد المحسن بن الحسن الزباري[1]

عالِمٌ ألبس دَهْرَهُ مِنَ التَجمّل حُلَله، وفاضِلٌ أحيا بالدَّرس من دارس العلم طَلَله، له في العِرْفَان غرائب، تصلح أن تكون عُقود أعناقٍ وقَلائد ترائب، طلبَ الفوائد حَتَّى طُلِبت فوائِدُه، وأكل مِن موائد شيوخِه حتى بُسِطت مَوَائِدُه، فقرا عليه الغير، وغَرّد بكلماتِه الطير، إلاَّ أن الزمان لم يُنصِفْه، ولم ينظم عِقْد عيشِه ولم يرصِفْه، مع أنه يعلم صِفَاتَه الحميدة إذا قيلَ له صِفْه، والدَّهر للفاضِل عَدُوّ، لا يصفو في رواح له ولا غُدُوّ، ولا يُذِق عينَه لذّة تهويم ولا هُدُوّ، يشون[2] من زيْنُه، ويَمْطُل مَنْ دَيْنَه، يُحَارب المُسالِم، ويظلم غير ظالِم، يتجاهل عن عرفان، وَلا يكرم أحداً مِنَ الضِّيفان، فلسان حال هذا الفاضل ينشد، ويهدي العاقل بما يورده ويُرْشد:

ومـن كـان مـثـلـي ذا خـصـالٍ حـمـيـدةٍ فـلا بُـدَّ أن يـلـقَـى مِـن الـدهـر مَـا يـلـقَـى

فهو يقول كم في جوانحي، مِنْ جُزح لم يُوس ومن جوىً نُجِي، وما نحاه إلاّ مكلوم محزون، كال له الدَّهر أحزانه لأجل أدَبِه المزون، وله بِنَا علاقة نُسْبَةٍ ومُصَاهرة، ونكاح لا يعروه طلاق أو مظاهرة، فله بجنابِنا اختصاصٌ ما، وتعلق أرفع الأكناف أسْمَى، وله بكوكبان إقامة، نَفَت عن نسيمه سَقَامَه، ودبَّجت رِيَاضَهُ بِزُهُورِهَا، وسَجَّفَت حُلَل حَدَائِقِهِ بِزُرْق نُهُورها، وأطلعت في سمائه من شِيَمِهِ نجوماً بها يستضى، وضَوَّعت في أرجائها مِن نسماتِه أرَجاً مَلأَ الفَضَا، ثُمَّ أن الدَّار به تَنَاءت وَنبت، بعدمَا بَقّل مخضرّ روضه ونبت، فرجع إلى صنعاء رجوع الشَّباب، وهمع علمه بساحاتها كما همع قطر الرَّباب[3]، وحَظّه ينحط عن قَدْرِه، ومحاقه

---

(١) أنظر ترجمته في ذوب الذهب الجاري (خ) ونشر العرف (استطراداً ١/ ٤٩٩).

(٢) في (ز) يسوء.

(٣) السحاب الأبيض المتراكم (سبق).

طالما حَفّ ببدره، فقد عانده الدَّهر عِنَاداً، وكذا الأفاضِل طالَما أولى صحيح حظهم منه عَنَادًا، ولكنه مع ذلك بالدُّوْن قَانِع، لا يَرَى بحلمه أن الدَّهر له مانِع، فاستراح مِنَ الغَمّ، وخلص من أدوَى الهَمّ، ونام عند فوادح لا تخفَى، تبيتُ لها عين النجم ساهرة لا تغفَى، وابتسم عند خطوب، لا يبرح لها الرَّوض عن ثغر إقاحه في قُطُوب، وشِعره حَسَنٌ كأبيه، يصغ عند إملائه ابنُ النَّبيه[1]، من جوهره الفرد، ما أنشدني له وهو قوله في الورد:

يا أيها الورد في الرَّوض النظير لقد ... أبحت للزُّهر في أكمامِه مَلِكَا
يكفيك فخراً عليه طيب مائك إذ ... يبقى ويكفيك تشبيه الخدود بكا

وقوله في متنزه حدة المحروس وبها إذ ذاك رجل يلقّب بالسّلطان وآخر تلقّب بالوزير يُؤنسان من وصل إليها ويتعاهدانه بما يحتاج إليه:

يا صاح ليس لِحَدَّةٍ مِنْ مُشْبِهٍ ... في نَهْرها الجاري وفي جَنَّاتِها
سلطانها وكذا الوزير تجَرَّدا ... في خدمة الآوي إلى حافاتِهَا

وكتب إلي مضمناً لبيت البحتري لما تخلفتُ عن الخطابة لعذر بمحروس شبام المُقَدَّس المعمور:

قولا لمولاي الشهاب ومن له ... مِن قسمة المجد النَّصيب الأوفَرُ
لم ذا هجرت منابراً من فوقها ... أمْلَيْت ما سحبان عنه يقصرُ
«فلو أن مشتاقاً تكلف فوقَ ما ... في وسعه لسَعَى إليك المِنْبَرُ»

وَلَمَّا وفد في بعض أيَّامِهِ إلى كوكبان زائراً، وسُمع أسده في عرينِه بأدَبِهِ زائراً، ووصل إلى منازِله الشامخة مايراً[2]، وأكرمناه بألَذّ ما يذوق وأحسن مَا يرى، كُنَّا نتطارد من الأدب في ميدانِه، ونتمايل ما يمليه طير المحاورة على عيدانِه، والروض يفوح رَيًا، والغُصن يميل رِيًا، فأصبح ذات يوم متجرداً لِسَفَرِه، بعدما

---

(١) ابن النبيه: الشاعرعلي بن محمد المتوفى سنة ٦١٩هـ (الأعلام ٤: ٣٣١).

(٢) اسم فاعل من الميرة: وهي الطعام يمتاره الإنسان.

صاد طائر أمَلِه بشباك ظَفَرِه، فَثَبطته أنا لإكرامِه، طمعاً في أن أقتنص من الفوائد سوانح آرامِه، سواء نُحِي بالسهم نحو سوانحي، أم بردت بتركها في مراعيها جوانحي، ولم أقبل منه غير تأخير عزمه في ذلك اليوم المُسِيء بالفِرَاق، وأوجب على نفسه المساعدة إلى مَا ندبته إليه من التَّأخير، وكتب إليّ قوله من نظمه الذي راق:

يا أيها المولى الشهاب الذي ... جِيْد النّبَاتي[1] عنده عاطلُ

وقفتَني ذا اليوم يا مالكي ... والشوق للعَزْم معي حاصلُ

وقفت للصاحب مستمثلاً ... فإنك «الغاية» و«الكافلُ»[2]

قد قمتُ بالفصل فلا غرو أن ... أقول أنت «القاضي الفاضلُ»

ولما جاءني في إثر ما كتبه إلي قال لي: يا مولاي إنما قلت في الأبيات وقفت للصاحب ملاحظةً لذكر الصَّاحب مع ذكر النّباتي وذكر القاضي الفاضل مناسبة ظاهرة، وإلا فإني كنت سأقول وقفتُ للمالك مستمثلاً سيما مع قولي في البيت الأوَّل: يا مالكي لأنه أنسب لأنك في الحقيقة المالك لا الصَّاحب، فإن لفظة الصاحب تقصر عن مقامِك العظيم، وفيها عندي إساءة أدب فأقبل مني وابسط عذري عند مراعاتي لما ذكرت.

فقلت له: ما عرفتُ لك إساءةً قط، وكذا لو حصل لك أن تقول:

أُصُولُ أفْضَالِكَ إذ وُقِّرت ... أنت بها «الغاية» و«الكافلُ»

فإن البيت بقولك هكذا لم يخرج عن المعنى الحسن فلم يفته اللطف الأدنى بذكر الأصول مع ذكر «الغاية» و«الكافل» فإنهما الكتابان المعروفان المشتملان على

---

(١) نسبة إلىٰ ابن نباتة الشاعر المعروف.

(٢) تورية بكتابين من كتب المذهب الزيدي أحدهما: الغاية وهو كتاب غاية السول في علم الأصول من تأليف الحسين بن القاسم المتوفى سنة ١٠٥٠. والثاني: الكافل بنيل السول في علم الأصول من تأليف العلامة محمد بن يحيى بهران المتوفى سنة ٩٥٧ وكلاهما في علم الأصول.

علم الأصول، فقال: والله لو تنَّبهت لهذا لما قلت إلا كما ذكرت زاد الله تعالى بك عصرنا هذا إجمالاً ووفر بوجودك للأفاضل كمالاً.

ولما كتب إلى بعض الأخوان بعد انفصاله عنّا قصيدةً أخذ منا فيها السَّلام بعد أن أجبنا عليه في كتاب كتبه إلينَا فبلغنا عدمُ وصول الجواب إليه فعزّزناه بجواب ثان، فقال في ذكرِنا ذَكَرَه الله بكل برٍّ وخير:

وكنت أودّ القرب منكم وليتني ... ولكن دهري بالمنى غير مُسْعِد
رعى الله ذاك السفح أسنى رعايةٍ ... وباكره صوب الحيا المتردِدِ
فلم أنس أُنساً في شبامٍ بقربكم ... أعض على تفويته من يدي يَدِي
وَبَلِّغ شهاب الدّين من صار شأوُهُ ... يقصّر عنه كل فَذٍّ مُمَجَّدِ
ومن نَعَش الله العلوم بهمةٍ ... له قد أوت في الأفق منزل فرقد
فألّف فيها كلما فات غَيْرَه ... وصنّف كُتباً جَمَّةً في التَعَدُدِ
ومنْ جَدَّد الآداب فهو إمامُهَا ... فذلك يُدْعَى بالامام المُجَدِّد
شريف سلام ما تغنَّت حمامَةٌ ... على شوقها أو شجوها فوق أملد
وقد جاءني الجوابُ منه مُعَزَّزاً ... بثانٍ من الدرّ النّفيس المُنَضَّدِ
له الفضل في الحالين بادٍ ومبتدا ... فإني له في الودّ رق التَعَبُّدِ
وما عَدم القرطاس أو قلَّ حبرُه ... ولا عزّ عنه القول في كل مَقْصَدِ
أطال له الباري من العمر أحْقُباً ... وصان حماه عَنْ هوى كل مُفْسِدِ
وزان به ذا العصر ما لاح بارقٌ ... وما مال غُصْنٌ بالحمام المُغَرِّدِ

السيد يحيى بن أحمد بن عبد الله حيدرة الغُرْباني الصنعاني(١)

عظيم قدرِ نبيل، ما إلَى إنصافه بالمقال سبيل، ما أجلده على حمل العظائم وما أقدرَه، وما أشجعه في المعارك حتى قال: أنا الذي سَمَّتني أمي حيدرة، كان

(١) أديب بارع نشأ بصنعاء واستوطن مدينة زبيد وكانت وفاته بعد سنة ١١٢٥، انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ٢/ ٨٢٥ نقلاً عن كتابنا هذا.

رئيساً غير مرؤُس، معدوداً في الصدور والرؤوس، حَبْرٌ في الأعيان أي حَبْر، قد جَبَر كسر أولاده بما كسب من المال ولا يُنكَر الكسب من ذوي الجَبْر[1]، لأن حديث ولايته معنعن، فإنَّه كان عاملاً[2] وإن لم يكن فيه مطعن، فهو أكسب من فهد[3]، وأجرأ في تحصيل المال من نهد[4]، أوسع الزمانُ في الحُبَى لَه، وقد مَدَّ من الولايات الحُبَالة، ولَمَّا نزع الشَّيطان بينه وبين إخوته، وضاق عليه أن يتدرّع لباس صبرِه وإسوَته، أنسلّ من صنعاء إنسلال النسيم، ورضى بمفارقة ربعها وهو روض وسيم، ولم عيدر أن للمنيَّة عُشباً، طال مَا رُعِي فيه الإنسان وَسِيم، فأتْهم بعد الإنجاد، وشحّ عليه الزمان بعد أن جاد، فاستوطن مدينة زبيد، وخَدَم نفسَه بعد الإماء والعبيد، وبقي من خموله في زاوية، وإذا نفسه إلى بارد الظلّ آويَة، واستراح مِنَ الأُسود الزائِرَة والكلاب العاوية، قائلاً: غَثُّكَ خيرٌ من سمين غيرِك[5]، وجواد سواك لا يقوم مقام غَيْرِكَ، لم يزل في حُلَلِ نِعْمَتِه رافلاً، يحسب الحادثَ الجلل عنهُ نائماً وغافلاً، حتى سدَّد الموت إليه سِهَامَه، وقال كما اسْتبدلت عن الانجاد بالاتهام فاستبدل الضريح عَنْ تِهَامَة، فمات ومن مات استراح، ودار عليه كأس المنيَّة لا كأس الراح، لا زال الغيثُ على لحدِه يَنْهَمِل، ولا برح له الصَّعب مِن الحساب ينعَمِل، وله في المعالي إدلاج وإبكار، ومن بنات الفكر عُوْنٌ وأَبْكَار، فإنه كان ينظم الشعر نظم الجواهِر، ويطلع منه ما يُجَانس النّجوم والزّواهر، كقوله[6]:

بضياء وجهك وهو أحسن مطلِع ... وبسالفٍ من فوق جيدٍ أتلِع

---

(١) إشارة إلى مسألة كلامية تتعلق بالجبر وكسب الأعمال يجدها القاري مطولة في كتب هذا الفن.

(٢) العامل: هنا الرمح وفيه توريه بالعامل المنصب الذي يشغله صاحب الترجمة.

(٣) المثل في المستقصي ١/ ٢٩٥.

(٤) نهد: قبيلة من قضاعة القحطانية.

(٥) المثل في المستقصي ٢/ ١٧٦ قال: يضرب للحريص أي أقنع بالغث الذي في يدك ولا تمدن عينيك إلى ما في أيدي الناس وإن كان سميناً قال:

غيث الموالي أبا لك فاعلمن ... خير وأطيب من سمين الأبعد

(٦) الأبيات في نشر العرف ٢/ ٨٢٦.

وَبـقـامَـةٍ ألـفـيَّـةٍ مَـا حُـرِّرَت ... إلا لـوصـلِ بـيـنـنـا لـم يـقـطِـع
وبـسَـهْـم لـحظٍ عن قسي حواجبٍ ... مـتـشـرع لـقـتـال صَـبٌ مـوجَـع
وبـغـرةٍ مـن تـحـت شعـرٍ فـاحـم ... كـالـشّمس قـد حُفَّـت بـلـيل أسفـع
وذوائـبٍ فـوق الـنـهـود تَـفَـرَّعَـت ... وبـلـيِّـتـي مـن أصـلـهـا الـمُـتَـفَـرِّع
وبـبـارقٍ مُـتـألِّـقٍ مـن مـبـسـمٍ ... مـا افـتـرَّ إلاّ فـاض وابـل أدمـعـي
مـا حَـلَّ غـيـرك في الـفـؤاد ولـم أجد ... لسوَى هَـواك بمُـهْـجتي من مصنعي
مـالـي ولـلـتَّـشـبـيـب بـالأطـلال من ... سـفـح الـعُـذَيـب وبـارقٍ والأجـرع
مـا الأبـرقـان ولا الـعُـذَيـبُ ولا الـنـقـا ... بـسـوى ثـنـايـاك الـعـذاب الـلُّـمَّـع
ومـقـام مـن أهـوى وإن شَـطَّ الـنـوى ... بين اللوى والـمنحني من أضلعي
يـا مـن تـحـجَّـب بـالأسـنـة والـظـبـا ... لا بـالـبـرود ولا بـوَشْـي الـبـرقـع
أقـسـمـت لـو رأت الـبـدور وقـد بـدت ... لـك غـرة قـد أسـفـرت لـم تـطـلـع
والشمس لو نظرت لحسنك بهجة ... (هـطـبـت إلـيـك مـن الـمـحـل الأرفـع)

السيد أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أمير الدين(١)

من أعيان السادة، ومِمَّن أركس حسَّادَه، ذو شيمة، طابت وهو في المشيمة، فلم تزل مخائل النجابة عليه لائحة، وخمائل الفضل مِن خلاَل سماتِه فائحة، حَتَّى تَمَّ كَمَالُه، وبلغ الغاية جَمَالُهُ، وإذا هو في زمنِه فَرِيد، قد سلك من المجد طريقاً كما يُرِيد، بَحْرٌ لا وَشَل، وأسَدٌ لا يعرفُ الفَشَل، لأنه من قوم هُمْ القَوْم، يخافهم الفهد فلا يعرف النوم، تثمر بساحتهم غصون القنا، ويدور براحتهم على الأعداء كأس الفَنَا، وله أدبٌ كالزّهور إذا ضحكت، وقد صرخ الرّعدُ بصوتِه والغمامة بَكَت، ينظم ما يُغير العقود نظماً، ويُجْرِي من شعرِهِ نهوراً تحن إلى ورودها نظماً، فماشِيَة أدبه غير جَمَّا، وكنز فَصَاحَتِه يُغْني من أحبّ المال حُبًا جمًا، قال في مدح

(١) تفرد بذكره كتابنا هذا ولم أجده في غيره.

كلامِ منظوم، وشعرِ بصخور الجواهر مرضوم:

هـراكـلُ الـغـيـد أم عـيـن مـن الـحُـوْرِ ... أم قـاصـرات لـحـاظِ فـي الـمـقـاصِـيْـرِ
أم الـخـرائـدُ مـاسـت فـي غـلائـلـهـا ... تَـيْـهـاً بـأطـراف مـطـروزِ ومـنـشـور
أم الـزواهـر فـي الأفـلاك طـالـعـةٌ ... أم الـجـواهـر أم روض الأزاهـيـرِ
أهـديـت روضـة آداب شـقـائـقـهـا ... مـن نـشـرهـا عـرف نَـسـريـنِ وكـافـور
قـد أودَعـت مـن بـديـع الـنَّـظـم أبـلـغـه ... وحُـبِّـرَت بـالـمـعـانـي أي تَـحْـبِـيـرِ
جاءت بإيضاح مَعْنى في البيان كما ... جـات بـأنـواع تـنـقـيـح وتـقـريـر
حـوت قـواعـد قـانـون الـبـديـع فـمـن ... نـظـم الـغـريـب لـهـا أحـكـام تَـحْـرِيـر

القاضي العارف أحمد بن الحسن السحولي[(١)]

حاكم أزيح[(٢)] بعلمه الجهل المتراكم، واستدرك به «الإيضاح»[(٣)] ولا غرو من كون المستدرك للحاكم[(٤)]، تتحدَّر منه علومه تحدُّر السيل مِنَ الجَبَل، وتَلذُّ مواقِع أقلامِه فهي على وجنات الأوراق بمنزلة القُبل، أمال بأماليه الأعطاف، وقد سعى قلمه بخمرة منها وطاف، جاء بحُجج في العلم وأدِلَّة، وأطلع في سماء قرطاسِه منها ما تنحني إجلالاً لَهُ الأدِلَّة، يَسْوَدُّ من حَسَد مِدادِه المسك الأذفَر، ويتلوَّن المنثور من نَظْمِه ونثرِه فإذا هو يحمرّ ويصفرّ، كَمْ سَبَك مِن آدابِه التّبر، على نارِ مِن ذَكائِهِ وفحمِ مِنَ الحِبْر، ناظم ناثر، حَمِيد خلالِ وَمَأثر، شمس أدَبِه يُشْرِق مِن فلك الطروس، وبنات فكرِه تدور على الندّمان بالكُؤوس، وله في أشعاره مجموع، وديوان بآذانِ القبول مسموع، جَمَعَهُ بنفسه، وخالط لآليه بين سَبَج نِقْسِه، فازداد

(١) تفرد بذكره كتابنا هذا ولم أجده في غيره.

(٢) في (ز) أزيل.

(٣) الإيضاح: كتاب في أصول الدين لأحد أسلاف صاحب الترجمة وهو العلامة إبراهيم بن يحيى السحولي المتوفى سنة ١٠٦٠ (انظر كتابنا مصادر الفكر الإسلامي ١٤٠).

(٤) كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري كتاب مشهور في علم الحديث.

حسنًا، وسلب الألباب كالمقلة الوسنى، وقد جَرَت عليه فادِحَة، كانت لزَنْدِهِ قادِحَة، طاش لها حجاه، وأيس مَعها عَنِ النَّجاة، إذ نَزَل بِه عظيم مِنَ الخَطْب، سلبه مِن نفيس عيشه اللؤلؤ الرطب، فَإِذَا السّقام قد ملك جِسْمِه ملكاً، وصار من فَرْط النحول لدرّ دمعه سلكاً، يقول في ذلك الحال لسان حالِه، لما نهكته الهموم بإنْحَالِه، ولم يسعده دهره في مقصَدِه بإنحالِه: يا أيّها الزّمن في ميدان حزني لقد حلتَ، وما زلت تقصر بالمطل لي في المواعيد فحين ما طَلْتَ ما طُلْت، حتى فَرَّج الله همَّه، وأزاح عَنْهُ غَمَّه، فاستبدل عَنِ العُنْبر يُسْرًا، وتناول أربَه باليمين وترك يُسْرَى، وكان النّازِل به مِنَ الشّدّة إلى الظفر جَسْرًا، وعطف زمانه بالإشفاق، بعد أن قابل أَمَلَهُ بالإخفاق، وربما كان الضيق إلى المخرج الوسيع سَبَباً، والصَّبْر لدفع سهام الشدائد يَلَبًا[1]، وقد استوزره بعض من ملك، فَجَرَى في وزارته بسعدِه الفَلَك، وهو أحسن مَن وَزَر، وَعقد حُلَّة التدبير وَزَرّ، يتقلبُ في الدَّسْتِ بآراءٍ مُسَدَّدَة، ويترنَّم قَلَمُه في الدّرج بأغاريد مُرَدَّدَة، وشعره كأبيه حسن، انقادت له فيه الجزالة بألطف رسن، نقلتُ له مِن خَطّه قَصيدة، هي ظبيةٌ سانِحَةٌ في شباك هذه الأسطر مصيدة، منها قوله:

فَرَّجتَ كربي بحسن المنظر البهج ... يا ظبيةً في سوى أحشاي لم تَلِجِ
نَزَّهت طرفي وقلبي عن سواك فما ... للقلب غيرك يا ذات الجمال نجي
فقد تفردت بالحسن البديع كما ... أصبحتُ في الحُزْن فرداً أي منزعج
ملكت قلبي بما أبديت من ملقٍ ... ومن دلالٍ ومِن تيهٍ ومن غنج
يا منية القلب قد فقت الغزالة من ... جبينك الواضح الأنوار بالبَلَج
وما عيون غزالات الصّريم حكت ... ما في عيونك من سحرٍ ومِنْ دَعج
لله لحظُك كم سهمٍ يريش لَنا ... عن قوس حاجبك المقرون بالزجج
لولاك لم اتخذ سفح اللوى وطناً ... وحين يذكر لولا أنت لم أهِج

---

(١) اليلب: الترس أو الدروع اليمانية من الجلد.

فيا فؤادي عَرِّج بالمحاجر من ... سفح اللوى تلق من تهوى به وعج
وحين تُسأل من ذا أنت ذاك فقل ... أنا القتيل بلا إثمٍ ولا حرج
فإن أعاد سؤالاً عنك أين فصخ ... ما بين معترك الأحداق والمهج
عَسَى لضعفك يرثي من فتنت به ... فليس يُرحم بين الناس غير شجي
ولجّ في طلبٍ للوصل تحظَ بهِ ... وباب ذل الهوى عن رغبَةٍ فلج
يا ظبية السَّفح رقي للكئيب فقد ... أرقت طوع دمٍ بالدّمع ممتزج
إني وحقك لا أقوى على بُعُدٍ ... من يجهل السَّبْح لا يركب على اللجج
ما أنت والهجر والثَّغر الشنيب سبا ... لُبي وألباب كل الناس بالفَلَج
أفديه دُرًّا به المرجان حُفّ كما ... من خال خَدُّك حَفّ الورد بالسبج
سكنت بالمنحنى من أضلعي فردي ... من أدمعي أبحراً لولاك لم تهج
أما لوصلك من وعدٍ فأرقُبُه ... لَعَلَّه بمسرّات القلوب يَجِي
عَسَى تقولين إذ ألقاك مُنحَنِياً ... طوعاً لأمرك قول المانح الفَرَج
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ... ذُكرت ثَمّ على ما فيك من عِوَج
فعندها أخلع الأثواب عن بدني ... طوعاً وأصبح مِن مَرآك في فرجِ

وله قصيدة أخرى رحمه الله تعالَى:

يا حادي العيس هذا الرّمل والبانُ ... فقف بنا فقصارى السؤل نعمانُ
حَيَّا الحَيَا ما عهدنا من معاهدَها ... وهُنّ للسُؤل والأوطار أوطانُ
إذ للصَّبَا والتَّصابي والصَّبا زَهرٌ ... وللهوى من زهور اللهو بُسْتانُ
أيَام وصلٍ خَلاً مَرَّت وقد تركت ... في القلب لوعة قلبي وهي نيرانُ
سَقَى العُذَيب وأيّاماً بِهِ عَذُبَتْ ... شانٍ من الصَبّ هامي الصب شَنَّانُ
ويا محل أناسي والوَليّ ألاَ ... سقاك سارٍ من الوسمي هَتَّانُ
وعاد وصل الغواني فيك بعد جَفَا ... ولا رقت للغوادي فيك أجفانُ
من كل غانيةٍ بالحسن غانية ... عن التحسن منها الطَّرف وَسْنانُ
أضحى يُنَبّه أشواقي لرويتها ... ساج لها بفتور الحسن نعسانُ

وله من أُخرى:

أطـلـعـة بـدر تَـمٍّ أم غَـزَالِ — غَـزَت بـالـحسـن ألـبـاب الـرجَـالِ
رأت مُـقَـل الأنـام دنـت إلـيـهـا — فَـجَـاءت مِـن رُنَـاهـا بـالـنِّـبَـالِ
سـلـوهـا قـبـل تـطـلـع أيـن حلَّت — أكـانـت قـبـل تـلـعـب في الـرِّمـال
أم ابـتـهـجـت بـهـا غُـرَفٌ حِـسَـانٌ — مـبـانـيـهـا الـجـواهِـر والَّـلآلـي
فَـإن بَـهَـاءهـا والـجـيـد منـهَـا — يـفـوق عـلـى الـغـزالـة والـغَـزَالِ
مـهـفـهـفـةٌ إذا مـاسـت أبـانـت — لـغـصـنِ الـبـان مـيـلاً بـالـدلالِ
غـذتـهـا الـحـاضـنـات لـهـا وهَـنَّـت — بـأهـنـى الـزاد والـمـاء الـزُّلالِ
فَـجَـاءت بَـضَّـةً بـيـضـاء تـبـدو — بـوجـهٍ دونَـه بَـدْر الـكـمـالِ
تُـظـلـل جـسـمـهـا بـالـشعـر منـهَـا — فـتـهـدي حـيـن ذلـك بـالـضَّـلاَلِ
زَهـت قـدمـاً زَرُوْد بـهـا فـفـاقـت — جـنـان الـخـلـد والـسّـبـع الـعـوالـي
لـقـد كـانـت تَـمُـرّ عـلـى رِيـاضٍ — بـه فـتـضُـوع عـن عـرف الـغـوالـي
ريـاض مـا جـنـان الـخـلـد تـحـكـي — مـحـاسـنـهـا بـخـدّ وانـتـحـالِ
مَـضَـى لـي فـيـه عـيـشٌ أيّ عـيـشٍ — وبـالـي مـسـتـجِـدٌّ غـيـر بـال
فـعـارضـني الـزمـان عـلـى نـعـيْـمـي — وكـابَـدنـي بـأوجـالٍ طـوالِ
إلـى أن رحـت أسـنـد مـخـبـراً عـن — خـطـايـاه الـقـبـيـحـة في الـفـعـالِ
رمـانـي الـدّهـر بـالأرزاء حـتَّـى — فـؤادي فـي غـشـاءٍ مـن نِـبَـالِ
فـيـا أسـفـي عـلـى مـا فـات قَـسْـراً — وواحَـزنـي عـلـى تـلـك الـلـيـالـي
أقـول لـمـن يـسـامـيـنـي تـرفَّـق — بـنـفـسِـك عـن مـسـامـات الـجِـبَـالِ
ألا إن الـهـوى صَـعْـب الـمـراقـي — هـوان الـمـرء فـيـه بـلا مـحـالِ
فـإن حـاولـت حـظًّـا مـنـه فـاسـمـح — لـنـفـسِـك بـالـتـهـاون والـتـقـالـي
وصـن كـفـيـك عـن فـعـلٍ لـشـيءٍ — وصـن فـكّـيـك عـن قـيـلٍ وقـال
فـكـم بـاسٍ لـه يـسـطـو اقـتـداراً — عـلـى الأكـبـاد مـن هـجـران قـالـي
لـقـد ذقـت الـهـوى فـطـعـمـتُ مـنـهُ — مَـذَاقـاً مَـرّ لـي مـن قـبـل حـالـي

وكـافـحـتُ الـرقـيـب بـه كـفـاحـاً		بـأقـوال تـنـوب عـن الـنـصـالِ
إلـى أن ضـقـت بـالأهـوال ذَرْعـاً		وخـانـنـي الـزمـان عـن اغـتـيـالـي
وبـالـغ فـي مـحـاورتـي وكـفّـي		عـن الأهـوى بـأهـوالٍ ثِـقـالِ

وله رحمة الله تعالى:

أقـبـل مـثـل الـغُـصُـنِ الـمـائـس		وارتـاع مـثـل الـجـؤذر الـكـانِـسِ
ظـبـيٌ مـن الأنـس لـه مـقـلـةٌ		تَـنْـهـب لـبَّ الأسـد الـفـارسِ
يَـنْـفـر عـنّـي وهـو بـي آنِـسٌ		يـا تـعـبِـي بـالـنَّـافِـر الآنـسِ
تـيـمّـنـى الـحـبُّ بـه فـاغـتـدى		عـقـلـي فـي لـيـل هـوًى دامـسِ
لا مـسَّـنِـي الـعـطـف إذا كـنـت مـن		شـغـلـي أدرى بـيـد الـلاّمِـس
بَـدرٌ غَـدَا عـن صِـلَـتـي شـامـسـاً		واعـجـبـاً مـن بـدري الـشّـامِـسِ
صَـوَّرَهُ الله لـنـا فـتـنَـةً		يـعـبـث بـالـقـائـم والـجـالِـسِ
ألـبَـسـه مـن نـورِه حُـلَّـةً		والـتـبـس الـمـلـبـوس بـالـلابِـسِ
أهـيـف أقـنَـى ألـعـسٌ أحـورٌ		أزجّ يـصـمـي كـبـد الـقـايـسِ
نـعـسـان إلاّ أنَّـه نـابـهٌ		واحـيـرتـي فـي الـنـابـه الـنـاعِـسِ
مـمـنـطـق الـخـصـر لـه مـنـطـقٌ		يـذهـل لُـبَّ الـفـطـن الـفـارِسِ
مُـوَرّد الـخـد ولَـكِـنَّـهُ		لـم يـخـل مـن عـيـنـيـه عـن حـارسِ
لا تـسـألـوا عـن أصـل دائـي بِـهِ		فـالـعـشـق لا يـخـفـى عـلـى الـحَـادِسِ
واسـتـعـطـفـوا لـي حُـسْـنَـهُ عَـلَّـهُ		يـرثَـي لـضـعـف الـجـسـد الـنـاكِـسِ
فـإن فـي الـحـسـن زكـاة عَـسَـى		يـصـرفـهـا فـي الـعـاشـق الـبـائِـسِ

ومن نظمه أرجوزة سماها «أسلاك الدُّرَر، في نسب العربي من خير البشر»، أتحف بها بعض الملوك، وسرد نسبه فيها كما تُسْرَد الَّلآلي في السّلوك، منهَا قوله رضي الله عنه:

إذ فـيـه مـا فـيـهـم مـن الـكـمـالِ		كـأنَّـهـم فـي نـسـقٍ لآلـي
بَـرٌّ كـريـمٌ لـو حـكـاه الـبـحـرُ		مـا كـان فـي كـل الـبـلاد بَـرُّ

اجتمعت في طبعه الشروط كأن ذاته لها سموطُ
مؤيّداً بإخوةٍ ما اعتقلوا رِمَاحَهُم إلاّ وَدُكَّ الجَبَلُ

منها:

أمَّ بهم سيف الملوك الشرقَا يسوق رعداً للعِدَا وبرقَا
فَخَانتِ الشقوةُ للرَّصَاصِ ورام يحمى النجد بِالرَّصاص
أرشدَه عِزُّ الهدى فأعرضَا وطال ما كَنَّى له وَعَرَّضَا
لم يدر أن أحمدَ المُكَرَّما إن صدم الصخر الأصم انحطما
بَاكَرَهُ أبو الحسين الأسدُ يوم الخميس في خميس يَقِدُ
فدكَّ نجدَهُ وتلك النَّجْدَة وَحَدّ في بيت الصريع لَحْدَه
وافترقت تلك الجموع خاسرة قد قتلت عقبانها المُكَاسِرَة
حتى أجاب الشحر أصوات الظبا وجاب شرقاً وجهها وَمَغْرِبَا

وله:

بي من برا الظبي عينيه فيسقط في عُرَى الحبائل مَبْهوتاً مِنَ الحَوَرِ
حلو الشّمائل يبدي من تَدلّله تَيْهاً فيُمْزجه الإدلال بالخَفَرِ
رأيتُه فكَسَاني لون وجنتِهِ ثوباً مِنَ الجمر لا يطفى مَدَى العُمُرِ
بالبَيْت أُقسم والأستار مرسلةً والطائفين به والحجر والحَجَرِ
إنّ الهوى هو مَعْنى النار يدركُهُ الفَتَى فَيُدرك حَرّ النار في الأَثَرِ

وله مُضَمِّناً:

ملوك زماننا رفعوا سفيهاً فما حطوا له أبداً جنابا
رقى وهو الوضيعُ على الثريّا وفتح فوق هامتها قِبَابَا
فأخطوا في الذي فعلوا بجهلٍ ألا يا ليتهم عرفوا الصَّوابا
ولو كان الذي رقّوه جِرواً لَسُبَّ بذلك الجرو الكِلابَا

وأصله قول الشاعر[1]:

ولـو ولـدت قـفـيـزة جـرو كـلـبٍ ... لَـسُـب بـذلـك الـجِـرو الـكـلابَـا

هذا البيت من الشواهد النحويَّة، وقفيزه بضم القاف وفتح الفاء بعدها يا وزاي وها، وهي أم صعصعة بن ناجية بن عقال جدّ الفرزدق، وهو همام ابن غالب بن صعصعة المذكور، ذكر ذلك صاحب النقائض[2] وإن قُفَيْزَة ليست قَبِيلة وفيها اضطرابٌ، فمنهم من يقدم القاف على الفاء ومنهم من يقدم الفاء على القاف مع الراء المهملة، بعضهم يرويها بالزاي المعجمة مع تقديم القاف على الفاء وبعضهم يرويها بالزاي المعجمة مع تقديم الفاء على القاف، فعلى هذا يكون تصغير فَقَزة وعلى الوجهين الأولين تَصغير قَفْزَة أو فَقْزَة وبعضهم يرويه فُكَيْهَة وروي صاحب البرهان عن الفَرّاء:

ولـو ولـدت عُـمَـيْـرَة كَـلْـب سُـوْءٍ ... لَـسُـبّ بـذلـك الـكـلـب الـكـلابَـا

والأكثر على تقديم القاف على الفاء، والبيت حجة للأخفش والكوفيين في جواز إقامة غير المفعول به مقام الفاعل مع تَغْيير الصّيغة، فإنه أقام الجار والمجرور مقامه، وهو قوله بذلك الجرو، ولو أقام المفعول به لقال الكلابُ بالرفع، ومن حججهم أيضاً قِراءة أبي جعفر في قوله تعالى «ليُجزَى قوماً بما كانوا يكسبون» بنصب قوماً.

قال العَلاَّمة بدر الدين الدّماميني رضي الله عنه في كتابه «المنهل الصافي في شرح الوافي» ما لفظه:

ومن ملح الأخبار ما حدثني به شيخنا قاضي القضاة ناصر الدين بن البُستي[3] المالكي تغمده الله برحمته قال: حضر مولانا أرْشَد الدين مِن أكابِر فُضَلاء العجم،

---

(١) سيأتي شرحه للمؤلف.

(٢) النقائض ٤٢٧.

(٣) كذا في الأصل وأظنه التنيسي، وهو ناصر الدين أحمد بن محمد بن التنيسي المتوفى سنة ٨٠١هـ(الضوء اللامع٢: ١٩٢ الأعلام ١: ٢٢٥) وانظر خزانة الأدب ٣٤١.

وفاضل آخر أعجمي يُنْبَز بالكلب بمجلس الأمير يَلْبُغَا أو غيره ـ الشكُّ منّي ـ فتجاذبا أطراف البحث إلى أن انتهى الكلام في مسألة إقامة غير المفعول به مع وجوده، فاختار الأرشد المذهب الكوفي، وأخذ في نصرته فعارضه ذلك الفاضل واستطال، وكان فيه حِدَّة مفرطة فقال له الأرشد: لو لم يكن للكوفية من الأدلَّة إلاَّ قول الشاعر[1]:

ولو ولدت قُفَيْزة جرو كلبٍ لسب بذلك الجرو الكلابَا

فَصاح العجمي واستطال جَدَلاً وقام مغضباً لا يلوي على أحد من أهل المجلس، فَسَأل الأمير عن سبب غيظه ولم يجد له موجباً في الظَّاهر.

فقال الأرشد: يا مولانا هذا الرجل يلقب في بلادنا بالكلب، فلما أنشدته هذا البيت عَوَى وفَرَّ أوْ كلاماً هذا معناه، فضحك الأمير، انتهى كلام الدماميني رحمه الله تعالى.

قلت: وقد أشرتُ أنا في نثرٍ لي مَنْجوعٍ إلى عدم رفع الكلاب في هذا البيت فقلت ما لفظُه:

زَمَانُنَا هَذَا زُمَانَة، ظهرت فيه الخيانة وخفيت الأمانة، ورُفِعَت الحَصَاة وخُفِضَت الجُمانَة، رُفع الوضيع، وَوُضِع الرفيع، إسْتَكْمل الناقِص ونَصَبه، وترك الكامل يكابد تَعَبَه ونَصَبَه، فَهَلاً استغفر الزمان من نَصْب الأنذال وتاب، وهلا اقتدى بالشاعر فاجتنب رفع الكلاب، انتهى.

الفقيه العلامة أحمد بن إسماعيل العلفي[2]

قُرَشيٌ مُغْرِق، وبحر عِرفان للجهالة في لُجِيّه مُغْرِق، وبدر كمال في منازل أصالته مُشْرِق، وغصن رياسة مورق، وعارض سياسة مرعد وَمُبْرِق، له نَسَبٌ أكرم به من نسب، وله حسبٌ يا حبَّذا هو من حسب، وله شَرَفٌ زاحم رأسه الأفلاك

---

(١) من أبيات الشواهد وهو لجرير انظر خزانة الأدب ١ : ٣٣٧، وشرح المفصل لابن يعيش ٧ : ٧٥.

(٢) عالم فاضل أخذ عن المولى محمد بن إسحاق بن المهدي ولازمه وتهذب بأخلاقه وأسر في قصره مدة ثم أطلق، ووفاته في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١/ ٩١.

وقدمه تحت الأرض السَّابعة قد رَسَب، فهو فرع أنجب، قد استحق الفخار واستوجب، وَتُعَجْب مِن جمعه لأطراف المحامِد ومن مثل ذلك يُعْجَب، لأنه ضَمّ شرف العلم إلى شرف الأصل، ووصل هذا بهذا فكان قلمه ألف الوَصْل، أكَبَّ على الطَّلب إكباب مُنْهمك، وصعد إلى سماءِ معالٍ لها عرشٌ قد سُمِك، فأُحكمت في العلم آياتُه، وخَفَقتْ من العرفان في الخافقين راياتُه، فَطَلَبُ العلم من دابه، لأنّه طالمَا تمسَّك بِمَسْكِهِ وأهدابِه، فإذا ضَلّ غيره بالجهل فهو إلى السَّبيل أهدَى بِهِ لازم المَوْلَى محمد بن إسحٰق[1]، فَتَعَرَّى بَدْرُه عن تكلف ومحاق، واجتنَى من أثمار علمِه، فَقَابله الدَّهر بعد حَرْبِه بِسِلْمِهِ، وتهذّب طَبْعُه وتشذَّب نَبْعُه، واتسع في سوح الفوائد رَبْعُه، ولما ادَّعى الإمامة المولى مُحَمَّد المذكور، وخطب الخلافة لنفسٍ غافِلاً عن سطوات الأسد المكور، والنِّيَّة إلى المقاصد مطيَّة، وليست الرِّفعة مِنَ الله إلا عَطِيَّة، فوازره ولازمَه، وضَيَّع من الرأي أحزَمَه، واغترّ بسراب الهجير، واستجاز غير مُجِير، وإذا نَباتُه المسقيّ بغيث الارتياح، قد بدَّدته العواصف فأصبح هشيماً تذروه الرياح، إنهار ركنُ بَنَاه، ومَرّ ثَمرُ جَنَاه، فَأُخِذ أسيراً، وأضحى خاطره كَسِيرًا، فَرَأيتُه وهو في الأغلالِ يُقَاد، وقد باين قلبُه السلو وطرفه الرقاد، سقط به العشاءُ على سِرْحان[2]، واستخفّ الطمع ماله من الرجحان، والدَّهرُ للفاضِل أعقّ من ضَبّ[3]، وَنَهْرُ أمَلِه عن قريبٍ ينضَب، وكفؤ لياليه بالأفراح لا يخطب، وهو

---

(١) سيأتي ذكره في هذا الكتاب.

(٢) مثل أورده الزمخشري في المستقصي ٢/ ١١٩ وقال في شرحه: استنبح رجل ليستدل على حي فيستطعم فأحس به ذئب فأكله، وقيل سرحان رجل فاتك يحمي وادياً فلا يقرب فادعى رجل أنه رعى إبله فيه ففعل فقتله سرحان، يضرب لمن يطلب المرفق فيقع في هلكه، فقال سرحان:

أبلغ نصيحة أن راعي أهلها ... سقط العشاء به على سرحان
سقط العشاء به على متقمر ... طلق اليدين معاود لطعان

(٣) من الأمثال، قال الزمخشري: يريدون الضبة وعقوقها أنها تحمي بيضها أشد الحماية ثم إذا انفلق الحسول ظنتها بعض ما يتعرض لبيضها فقتلتها حتى لا يتخلص منها إلا الشريد، قال =

الآن في مَخْبَسِه كميتٍ في قَبْر، يترجَّى لصدعه الالتئام ولكسره الجبر، أفرج الله تعالى عن ضيقه، واستدرك الهالك من غَرِيقه، وله شعر زان علمه، ونثرٌ أوضح كَيْسَه وَحِلْمَه، كتب إلي قصيدة رَوِيُّها الرا، وأهدى إلي من شَرَابها ما ينقع المهجة الحَرَّا، مَعَ منثورٍ قد تَلَوَّن، وكلام من الحسن قد تكوَّن، وذلك قوله:

أَلَـمَّ بـي وظـلام الـلـيـل مـعـتـكـرُ   طيف الحبيب فطاب الليل والسَّمَرَ
وزارنـي وبـيـاض الـصُّـبـح قـد طُـويـت   بُـروذه وسـواد الـلّـيـل مـنـتـشـرُ
جاءت به في الكرا من باللقا بخلت   في يَقْظَتي فلهذا يُشْتَكَى السَّهَرُ
ثـم انـتـبـهـت ومـا عـنـدي يـسـامـرنـي   إلا الـنـجـوم ودمـع دونـه الـمَـطَـرُ
وازددت فوق الذي بي من جوًى وضنى   وزاد شـوقـي والـتَّـذكـار والـفِـكـرُ
وهـاجـت الـنـار فـي قـلـبٍ سـتـذهـب إن   طـال الـتـفـرق مـنـه الـعـيـنُ والأثـرُ
لله قـلـبـي الـمُـعَـنَّـى كـم أشـاهـده   وفـيـه نـار الـهـوى الـعـذري تـسْـتِـعرُ
بـه تـلاعـب طـرفٌ زانـه دعـجٌ   يسبى العقول فتورٌ فيه بل حَوَرُ
وكـم يـروح ويـغـدو فـي الـغـرام ومـن   وصـل الأحـبـة لا يُـقْـضَـى لـه وطَـرُ
فـهـل بـمـا يـنـبـغـي مـنـهـم يـفـوز كَـمَـا   بالفضل قد فاز من بالفضل يفتخر
شـمـس الأنـام وقـاضـيـهـم وأوحـدهـم   ومـن لـه مـنـه طـاب الـخُـبْـر والـخَـبَـرُ
تـلـقـف الـمـجـد مـن أسـلافِـه ورقـى   بـيـتـاً تَـوَدّ سَـنـاه الأنـجـم الـزهـرُ
ومِـن أبـيـه تَـلَـقَّـى الـعـلـم والأدب الـ   غَـضَ الـنـضـيـر الـذي ألـفـاظـه دُرَرُ
لا زال يـزداد نُـوْر الـفـضـل مـنـه كـمـا   يـزداد بـالـشـمـس فـي أنـواره الـقَـمَـرُ
ودام فـي نـعـمٍ فـي أثـرهـا نِـعَـمٌ   يلذ بالطّيب منها السمع والبَصَرُ
وهـاك مـولاي أبـيـاتـاً بـمـدحـك قـد   طـالـت فـمـا شـأنـهـا فـي بـاعـهـا قِـصَـرُ

= العملس بن عقيل بن علفة يخاطب أباه:

أكـلـت بـنـيـك أكـل الـضـب حـتـى   وجـدت مـرارة الـكـلأ الـوبـيـل

وقال آخر: «أعق من ضب وأفسى من ظرب» انظر المستقصى ١/ ٢٥٠.

سلام أعطر من خميلة الأزهار، وأجْمل صورةً من بنات الأفكار، على جناب الفاضل الذي لا يشبهه في فَضْلِه، والكامل الذي لا يعوزه إلاّ وجود مثله، والإمام الذي رَفعه في العالمين موفور علمِه ونُبْلِه، حتى تاهت به الأقلام، وتفاخر في بلاغته النَّثر والنظام، فهو البَحْر وعلومه دُرَر، قد أغنى مُشَاهد فَضْلِه عَنِ الموصوف في السِّيَر، مَلَك عنان الأدب فانقاد له مُذْعِنًا، وقال له: يا مولاي أطلق لَنَا رَسَنَا، ما ترك ذورةً للعلماء إلاّ صعَدها، ولا صهوةً مِنَ الفخار إلاّ رقاها واقتعدها، فأصبح مُنِيرها يتلألا، حتى قالت له العليا: هكذا وإلا فلالا، وقالت له العلوم: ما أشبه يومك بأمسك، ونادته في المجامع هذا ما فات واصل بن عطا وهو عطاء الله فامنُن أو امسك، وأما البلاغة فقد قصرت بين قلمك وطرسك، وحُبِسَتْ في لسانك فإن شئت أبقيتها وإن شئت أطلقتها من حَبْسِك، لِتَطَّلع على ما أتيت به من فصل الخطاب أبناءُ جِنْسِك، فلله در ذاتك الكريمة، ولله ما اشتملت عليه فطنتك السليمة، من ألفاظ ومعان سامية المحل، وكلمات أغار عليها كل قاصر وانتحل، يستفيد منها كل بليغ مُفِيد، ويقتبس من فوائدها كل عالم مستزيد، فسقَى الله دهراً أنت بهجة آدابِه، وحُجَّة علمائه الصُّدُور وَكُتَّابِه، وحَيًا وقتًا على حين فترة من البلغاء أتى به في إيجازِه واطنابِه، والمراد مولاي شهاب الإسلام المتلألي، الذي خصه الله تعالى بأعلى المراتب والمعالِي، أحمد بن محمد الحيمي متّع الله بفضائله التي تبهر الأفكار، وتملأ العيون والأيدي بالأنواء والأنوار، وَجَمَّل الدنيا بفضائله التي طار ذكرُها في الآفاق، ومَتّع بطول حياته ما لَذَّ ذكره لذوي الأدب ورقَّ وراق، وأبقاه منبعاً للعوارف، ولا زال حرماً آمِناً يجبَى إلى كعبتِه الفضائل والمعارف، وبعد فإنه وقف المملوك عل مكتوبكم ومرقومكم، الذي إلى سيدي العلامة منثوركم ومنظومكم، الذي هما في الغاية العليا، وفي المرتبة البعيدة القصيا، فرأيتُ البدورَ قد أشرقت في سماءِ فضلهما، والدّرر المنسوقة قد نظمت في سمط رقيقهما وجزلهما، فأربَى عِقدهما على دراري النجوم، وراق في رأى العين منظرهما كما راقت القطرات مِنَ الغيوم، فلله در البادي والمجيب، فهذا قد أتى بالفائق وهذا بالعجيب، فلا أدري من أيهما أعجب، ولا من أي حسنيهما

أطرب، فهما كالحلقَة المفرَغَة لا يُدْرَى أين طرفاها، وَهُما كفرسَيَ الرّهان لا يلحقن الجواد بإحداهن إذا اقتفاها، فلو تأخر أبو الطيب لما قال: أنا الصائح المحكي والآخر الصَّدَى[١]، أوِ الجمال ابن نباتة لَبُعد عليه في المسابقة لَهُمَا المدَى، لا سيّما وقد تضمن لفظكم الذي راق، مَدح من بلغ الطيِّبُ من ذكره إلى أقاصي الآفاق، فقد فاق علماً وحلماً وساد، وسار ماله من المحاسن في البلاد، فكم لَهُ من فضائل، وما أحقَّه بقول القائل:

مَـلِـكٌ إذا وافـاه كـل مُـؤَمِّـلِ   أربَـى عـلـى الآمـال مـنـه وزادَا
شـاد الـعُـلَـى وبـهـمـةٍ سـاد الـورى   أفـديـه إذ سـاد الأنـام وشـادَا
كـم قـد أجـاد بـنـظـمـه وبـنَـثْـره   وعـلـى وفـود مَـحَـلِّـه كـم جـادَا
فـإذا أتـى أبـوابـه مـسـتـصـرخٌ   يـلـقـى بـهـا الاسـعـاف والاسـعـادا
تُـرْوَى عـلـوم الـديـن عـنـه وكـيـف لا   إذ كـان لـلـديـن الـحـنـيـف عِـمَـادَا

فَقَبَح الله زمَاناً قَصَّر في حَقِّه فأقلق، ولله در القائل: وما على التبر عار في النار حين يُحَرَّق، وما أحسن كتابكم الذي اتخذ الفصاحة طريقاً، وجمع أشتات الألفاظ والمعاني جليلاً ودقيقاً، تَفَرَّد وهو جمع صحيح، وتقلّد بجواهر كل معنًى بليغ ولفظٍ فصِيح، فالله تعالى يُهَنِّي مولاي هذه العطايا، ويجعل جياد أبكار المعاني لِذِهنه مطايَا، وأحَبَّ المملوك بمكاتبتكم أن يتشرّف، ويخطابكم ومحاورتكم بعد التنكير أن يتعرف، وما عسى الفِسْكل[٢] السكيت أن يلتحق في هذا المضمار، وقد تسابقت فيه فرسانُ البلاغة على جياد الأفكار، وتبارت فيه فحول الأفاضل سبقاً إلى العُوْن والأبكار.

---

(١) من قصيدة المتنبي التي أولها:

لـكـل امـرىء مـن دهـره مـا تـعـودا   وعادة سيف الدولة الطعن في العدى

وفيها يقول:

ودع كـل صـوت غـيـر صـوتي فـإنـنـي   أنا الطـائـر المـحـكي والآخر الصـدى

(٢) الفسكل: من الخيل الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل والسكيت سبق شرحه.

سِوى أنه يأتي إلى باب عفوكم يرجى لما أبداه من فضلكم سِتْرَا

فترون هذه الأحرف مصحوبة بالأبيات الخالية المعاني، فهي غير صحيحة الألفاظ والأزان والمباني، فاسبلوا عليها ثوبَ سِتْركم، وقابلوها بجبركم وبركم، والسلام.

فأجبته من النظم والنثر بقولي:

وصلتني على حين فَتْرَةٍ من الرُسْلِ أَلُوْكَة[1]، قد رصّف مُنشيها في الجِيْد منها قلائد لفظَه وسُلُوكَه، وحَيَّاني من طَرَّسها الواحد الحسّي بلين ملمسه وطيب رائحَتِه، ولَذَّة مَذَاق ما اشتمل عليه من الخطاب المستطاب من غاديته في طرق البلاغة ورائحته، فاقترن وفودها على المسرة، وعلوتُ بها قدراً حتى وردتُ نهر المجرَّة، من فاضلٍ جرّ ذيل حلل الفَضل فانسحب، وعالم جالس العلماء في منازلهم المرتفعة على النجوم «والمرء مع من أحبّ[2]»، فأكرم به قَرِينٍ قد قارن منهم شُمُوساً، وجليس لهم قد ركب معهم من جواد الفضل شَمُوْسَا، وهو الساعي بلا تقصير إلى المدارس، المحيي من منازل الطَّلب بربْعه الدَّارِس، المقسوم له من الأدب أجل قِسْم، الممنوح بالبلاغَة حتى اختصت به اختصاص الإضافة بالإسم، فَكُلّ عَرْشٍ من الفصاحَة بجنب عَرْشِه عُرَيش، فهو الحقيق بأن يَقُول أنا أفصح الأدباء بيد أني من قُرَيش، شهاب الدِّين الذي لم يزل بالمَعْرُوف معروفَا، أحمد بن إسماعيل لا زال ممنوعاً عن كل دَنِيَّةٍ ولا برح الشَرُّ عنهُ مصروفَا، وسلام عليه، مبدأه منه ومنتهاه إليه، يفضح عاطِرُه أزهار الرُبى، وتتشاجر على حمله الجنوب والصبَا، ويصير عند عرفِه منثور الحدائق هَبَا، حتى تظهر عليه الغيرة منه في تَلَوُّنِه الفاضِح، ويعرب إحمراره واصفرارُه عن غَيْظه الواضح، وها أنا أقول بعد أن استوفيت من تأدية التحية حَقَّهَا، وقَرْطستُ مسك مِدَادها فطويتُ أرَقَّها ونَشَرْتُ

---

(١) ألوكة: رسالة.

(٢) حديث المرء مع من أحب متفق عليه رواه أنس مرفوعاً (انظر تمييز الطيب من الخبيث ١٥٣).

رَقِّها: لقد زارتني تلك الخَرِيْدَة، وقصدتني من حضرته تلك القصيدة، فاكتفيتُ بمحاسنها عن خلي، ورجُحت عندي على أوزان الراجح الحلي[1]، وخَفّ عندي بها القِيْرَاطي[2]، وقد شغفتُ بمعانيها وجاوز غرامي بها حَدّ إفراطي، فكيف يَعُدّ ناظمها نفسَه في الحلبَة الفِسْكل والسُّكَيْت، وهو الجواد السابِق المُنَزَّه من العيوب عن كيت وكيت، حاش لله ما هو إلاّ في السَّبق وللهَمّ المجلي، وإن كان النظر إلى توجُّهه في المحاريب للطاعة المُصَلّي، ولكن هذه عادة كل فردٍ من أهل الكمال، طالما جنح إلى ادّعاء النقص ومَال، وإن كانت دعوى هو عنها خلي، لا يقوم عليهَا من صفاتِه برهانٌ جلي، وما حَرّر ما حرّر من الخطاب، ولا فتح ما فتح من أبواب هذا الرّوض المستطاب، إلاّ رغبةً منه في محاورتي، وطمعاً بثعبان قَلَمِه في مُسَاوَرتي، استناداً منه عَنّي إلى ما يُسْمع، واغتراراً بِخُلّب برقي لما رآه يلمع، وبناءً على ما اختلقه المادح في حقّي وافتراه، ولو كُشف له الغطا لقال «تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه»[3]، فَعَدّني مِنَ الفضلاءِ في أشرف جيل، واستعار لي منزلة الشمس بالتعظيم والتبجيل، ولكنها استعارة تخييليّة لم يتحقق معناها حسًّا ولا عقلاً، وإنما هي صورة وهميَّة إذا بحث عن الحقيقة لم تصح له نقلاً، ووَهِم أنّ ذيل نسماتي بندى العلوم بليل، وزعم أني من سُراة الأُدباء والزَّعم كما عَرَفَ هو القول بلا دليل، ولكني ولستُ البدر قد تكلّفت، واجبتُ داعيه إلى ما ندب إليه وما تخلفتُ، وامتثلتُ أمرَه امتثال العبد المرقوق، ورَقَّعْتُ بِوَاهِي نفثاتي جيب هذا الرّق المشقوق، وطرت لخطابي له من السَّرّاء، وقلتُ على نهج الإبتدا في روي الرّاء:

---

(١) هو الراجح بن إسماعيل الأسدي الحلي شاعر من أهل الحلة تردد إلى بغداد واتصل بولاتها وهاجر إلى حلب ومدح جماعة من الملوك توفي سنة ٦٢٧ (انظر الأعلام ٣/ ١٠).

(٢) هو القيراطي الشاعر سبق ذكره.

(٣) مثل انظره في المستقصى ١/ ٣٧٠ والميداني ١/ ١٧٧ وتمثال الأمثال ١/ ٣٩٥ وله قصة انظرها في موضعها هنالك.

سَرَت فسرَّت محبًّا ظلَّ ينتظرُ مَن مدّ ظلاً عليها الضال والسَّمُرُ
أهلاً بها غادةً زارت فنمَّ بها جَرْسُ الحُلاَ وَوَشَى نشرٌ لها عَطِرُ
هيفاء ما الغصن ما الظبي الغرير وَمَا شمس الضحى ما نجوم الأفق ما القَمَرُ
الرِّدف دعصٌ عليه القد غصن نقا أوراقه حُلَلٌ أزهاره دُرَرُ
لقد أتى القدّ طول الرمح مع قِصر الـ غصن الذي فوقه أوراقه حِبَرُ
نَعَم فكان قواماً بين ذاك وَذَا ما شأنه قط لا طولٌ ولا قِصَرُ
في كل وجهٍ من الغيد الحسان إذا أُقيس بالحسن من وجهٍ لها نَظَرٌ
وطرفُها في فتورٍ مِثْل عاشقها بِكَسْره زمرةُ العشاق قد كُسِروا
وبالطَّلاسم من نَقْشٍ بأنملها عَمْري وعَمرهم في الحُبِّ قد سُحِرُوا
كأنما نَقْشها في الكف نِقْس فتًى(١) ما نال رِفْعَة آباءٍ له البَشَرُ
أكرم بأحمد فينَا فهو ممتنع عن النقائص لم تُدْنس له الأزْرُ
سَعَى وَجَلَّى وَحَلَّى كُلَّ مشكلةٍ إذ جَلّ قدراً على من ضَمَّتِ السِّيَرُ
يا أيها الفاضل الراقي إلى درج بالعلم مبني ذراها الشُّهُبُ لا الحَجَرُ
قد جاءني منك روضٌ لا يُغَيِّرُهُ فصل الشِّتاءِ ومن ألفاظِهِ الزَّهَرُ
طِرسٌ به نَفَح المنثور من كَلِم فَدَلَّنا الحبر فيه أنه سَحَرُ
ورُصِّف النَّظم فيه كالعقود إذا بَدَت على جيد ظَبْيٍ زانَهُ العَفَرُ
بالله قُل لي أسحرٌ ما أتيتَ به من البيان لسَلْب العَقْل أم فِقَرُ
بدأتني ولك الفضل الجزيل بِمَا بَدَأت وهم نظام كُلُّه غُرَرُ
فَصِرتُ بالمدحِ ما بين الورى خبراً من العجيب بأن المبتدا خَبَرُ
وهاك مِني جوابي وهو مختصرٌ ومن كروم رياضٍ منك مُغْتَصَرُ
واعذر عن الحصر في تعداد نظمك مَنْ أصابَه دون ما خُوِّلته الحَصَرُ
ودمتَ ما غردت ورقاء في فَنَنٍ وما تتابعتِ الآصال والبُكَرُ

(١) نقس: مداد أسود (سبق).

نَعَم: خلصتُ من قطعِ هذا البحر، وظننت أني قد التقطت منه اللآلي لأضعها على النحر، وأخذتُ منه العنبر الأشهب، وأنا إذ ذاك لا أخشى أمواجَه ولا أرهب، واستوضحتُ ما وقعت عليه راحتي، فَضَاقت بَعْدُ بي أرجائي وساحتي، لأني ما التقطت إلاّ حَصًى لا يليق بمقامك لما انبرىٰ، وتناولت صانك الله من الأوساخ حَمْأَةً مُسْوَدَّةً لا عنبرا، فاعذر المحبّ فيما أهداه، وتجاوز عن سيئاتِه بما أبداه، مع أن الزمان الأنكد، قد صَدَّ امرأة خاطِرِه بالكَدّ، فلكم كابد منه ما أوجب طيّ قرطاسه، واستلزم إلقى قلمه من يده غير كارعٍ من مناهِل أنقاسه، واستلقى على ظهره محرقاً للكون من مُتَصَعِّد أنفاسه، فَلَمَّا كابد طوارقَه طَوَى رِقَّة، وتكلَّف هذا الجواب على غايةٍ من المشقّة، فبحر الحوادث عليه قد التطَم، وأمر الخطوب به قد ارتطم، والله يحرس ذاتك التي شَرُفت، ويصون شمائلك التي ظرفت، ما شاب من الظَّلام عارِضُه، وذوي من مخضر الصّباح بَارضِه[1]، فأصبحت تنوح عليه الحمائم، ولا يُرويه حتى يعود إلى نضارَتِه شُؤْبوب الغمائم، والسلام الجاري المستمر، يزور مقامَك حسبما أُمِر، ينزل عليك نزول غيث هامع، ويسقط على سوحك سقوط عبرات طرف من الطل هامع.

الفقيه علي بن أحمد الهَبَل[2]

سمعتُ والدي عليه يثني، ويُؤَسّس رُكن مدحِه على الإطراء ويبني، لأن له به اتصالاً، لما شَرُف سمتاً وخلالاً وخِصالاً، فهو ذو يَدٍ في العلم طولَى، ورتبَةٍ غَدا سريرهَا على كواهل الأنجم محمولاً، فكم من مستفيدٍ قد ألفَى يَدَه، ذات امتدادٍ إلى نيل الفَائِدَة، فهو عُبَابٌ يضطرب أُبَابُه[3]، وروض يحلو في الأفواه لُبَابُه،

---

(١) البارض: أول ما تخرج الأرض من نبت،

(٢) أديب وفقيه ترجم له صاحب طبقات الزيدية وزبارة في نشر العرف ٢/ ١٨٨ ولم يضبطا وفاته.

(٣) الأباب: الماء.

له في فنون العلوم، عرفان يَخسم من الجهل داء الكلوم، سيّما في علم الصرف، فله فيه مناهِل يطيب منها الغرف، جواده فيه طلِق العِنَان، فما التقى في منزله منه ومن غيره ساكنان، إذا أرسل في ميدانِه جياده، فهو على ذوي النقص فيه ذو الزِّيادة، وَظِلُّه فيه ممدود وظلّ سواه مقصور، وغصنُه فيه قائم وغصن من عداه مهصور، وكذا في علم الخليل[1]، فإنه فيه الحَبْرُ الجليل، ما بينه وبين أوتاده[2]، فاصِلَة، فما أرى الأذهان إلى مغاصه في بحوره واصلة، وقد ملكْتُ شيئاً من كُتُبِه، وطَلَع في أُفقِ إفادتي بعضٌ من شُهُبه، فرأيتُ من صحتها ما بَهَر، واستنشقت من جنباتها فائح الزَّهر، وقد زَيّن بخطِّه صفحاتها وحشّاها، وطرّز برود أوراقها وَوَشَّاهَا، فدلَّنِي ذلك على كمال عرفانِه، وامتداد الخوان من إفادَتِه لضيفانِه، ومات قبل أن يستحيل غُرابُه بازاً، ويعتمد التُّؤدَة في مَشْيِهِ ويقبض بيمينه عكازاً.

ومن نظمه الذي يطيب، ويتأوَّد بنسيمه غصن القلم الرطِّيب، ما كتبه إلى أستاذه القاضي العلامة جمال الدين محمد بن إبراهيم السحولي[3] الخطيب، وكان يقرأ عليه في «المناهل الصافية»، التي سقت بمتدفقها رياض «الشافية»، فأناله من علم الصرف الواجِب، وأدخله فيه إلى غُرَفٍ عاليةٍ بما فَتَحَ الأبوابَ له ابن الحاجب[4]، وقد تقاعد في بعض الأيام إلى مجلس إفادته عن الخروج، وحبس سائمة ذهنه عن سراحِها في المُرُوج، وهو قوله[5]:

أقاضي القضاة البَرّ والبحر إن أتت ... لتبيين خافٍ معضلات المسائل
ومن هو في طرق العلوم هدايةٌ ... لمن ضَلّ عنها مِن غَبِيٍّ وجاهِلِ
لقد طال بي ذا الانتظار ولم أفز ... على الفور من شيخي ببغية آمِلِ

---

(١) علم الخليل هو علم العروض.

(٢) الوتد والفاصلة من مصطلحات علم العروض، سبق ص: ١٩٣ .

(٣) سبق ذكره في هذا القسم.

(٤) ابن الحاجب: هو مؤلف الشافية وفيه التورية.

(٥) نقلها عنه صاحب نشر العرف ٢/ ١٨٩.

فـهـا أنـا عـطـشـان الـجـوانـح لاهـثٌ　　فـلا تـمـنـعـونـي عـن ورود (الـمـنـاهِـل)

وله يحثّ على طلب علم النحو وملازمته[1]:

عـلـيـك بـعـلـم الـنـحـو فـي كـل حـالـةٍ　　فـمـا الـفـقـهُ والـتـصـريـف إلاَّ عَـبِـيـدُهُ

إذا طـالـبٌ مـنـه اسـتـفـاد مُـحَـقَّـقـاً　　لـه يـسـتـفـيـد الـفـقـه إذ يـسـتـفـيـده

فـقـد جـلّ مـن أولاه دَرْسـاً مُـحَـقَّـقـاً　　وقـد جَـلّ مـن يـبـديـه أو مـن يـعـيـده

فـقـل يـا ذوي الأحـلام لا تـتـبـدلـوا　　بـه غـيـره فـالـرأي هـذا حـمـيـدُه

إعلم: أنَّ جمًّا غفيراً من العلماء والأدباء قد مَدَحوا علم النحو وحثُّوا على طلبِه وفضلوه على سائر العلوم نَثْراً ونظماً لا حاجة إلى إيراد شيء مما قالوه جنوحاً مِنَّا إلى الاختصار.

وينبغي أن نورد هنا ما قيل: من أنه اجتمع في مجلس الرشيد هارون: الكسائي النحوي ومحمد بن الحسن الفقهي[2]، فقال الكسائي لمحمد بن الحسن من تبحّر في علم النحو اهتدى إلى جميع العلوم، فقال محمد بن الحسن: ما تقول فيمن سها في سجود السّهو هل يسجد مرَّةً أخرى لسهوه؟ فقال الكسائي: لا، فقال مُحَمَّد: لماذا؟ قال: لأن النحاة قالوا التَّصغير لا يُصَغَّر، فقال له محمد بن الحسن: ما تقول في تعليق الطَّلاق بالملك، قال: لا يصح، قال: لِمَ؟ قال: لأن السيل لا يسبق المطر انتهى[3].

قلت أنا: أما تعليله في عدم صحة تعليق الطلاق بالملك بأن السّيل لا يسبق المطر فتعليل عليل لا يؤخذ من علم النحو الذي قال في تَبَحر فيه اهتدى إلى جميع العلوم والمراد إقامة الحجة من طريق النحو كما هي مقصده، وكان الأولى

---

(١) الأبيات في نشر العرف ٢/ ١٨٩.

(٢) نسبة إلى الإشتغال بعلم الفقه وهو الفقيه وهو محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة المتوفى سنة ١٨٩.

(٣) انظر الحكاية في ابن خلكان ٣/ ٢٦٦ ط إحسان عباس.

عندي أن يقول: لا صح تعليق الطلاق بالملك لأن العوامل عند النحاة لا تعمل إلاّ بعد الدخول كما هو ظاهر، ولقد ذكرت هذا الإيراد لمولانا الوالد الإمام جمال الإسلام محمد بن الحسن الحيمي رضي الله عنه أيام قراءتي عليه في كتب النّحو فاستجاده جدّاً، وذكرته أيضاً لعدة من مشايخ النحو فاستجادوه وهو ظاهر، وقد عجبت لطبقات الفحول من العلماء حيث مرّ على أسماعهم هذا ولم ينبّهوا عليه مع أنهم قد نبَّهوا على الغوامض الخفيَّة التي تدق على الأفهام، سيّما الفاضل القاضي صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى فإنه ذكر هذه الحكاية في كتابه «غيث الأدب الذي انسجم شرح لاميَّة العجم»(١) ولم ينتبه لما تَنَبهنا له وهو عندي صيرفي الكلمات من منثور ومنظوم سقى الله ثراه.

أخوه الفقيه محمد بن أحمد الهَبَل الطبيب(٢)

أديبٌ إليه الأدبُ يُعْزَى، ولبيبٌ أضحى على أكمام المعالي طرزا، له أدب طالما همع حَيَاه، وظهر في ماءِ مداده فإذا هو ماءُ الحياة، لا تُسْأل عن نظمه إلاّ العقود ولا تستخبر عن إنشائه المنشى إلاّ ابنه العنقود، فإذا لزّندة قَدَح، أدار من كلماتِه خمرة قدح، يذوقُ منه الفحل، ما هو أحلى من مُجَاج النَّحل، وله في علم الطبّ، ما يتهلّل له الوجه المُقَطّبِ، فَدُوَاءه مُلَطَّف، وتدبيره للسّبب مُعَرِّف، لو لمس نبض الرَّوض وجَسّ، لأزال اليرقان فيه من حَدَق النرجس، ولو رقي إلى الفلك الأَسْمَى، لأبرأ بهق المجرَّة مِن جَسَدِ السَّمَا، فَمَا داود البصير(٣)، إلا ذو باع عنده قصير، لو عالجه لأعاد إليه عينَه، ولا ذهب من زوال كريمتِه شينَه، ما كَأَنَّ

---

(١) انظر الغيث المسجم ٢/ ١٣٩ ط العلمية.

(٢) ترجمته في نشر العرف ٢/ ٤٤٤ نقلاً عن كتابنا هذا.

(٣) هو داود بن عمر الأنطاكي طبيب بارع كان ضريراً وانتهت إليه رئاسة الطب في زمانه من أشهر مؤلفاته «التذكرة في الطب» توفي سنة ١٠٠٨. انظر ترجمته في خلاصة الأثر ٢/ ١٤٠ والأعلام ٢/ ٣٣٣.

جالينوس[1] رتّب الطبّ من الحكمة، إلا بنظره الصائب المقرون بأبلغ الهِمَّة، ولا كَأنّ أفلاطُون[2] إذ كان كثير البُكَى، إلاّ حَسِده لما شرف أصله في الحكمة وزكى، ولا كأنّ بقراط[3] صنّف الكتب الكثيرة، إلاّ بحسن ترتيبه في رتبته الأثيرة، وقد قيل فيه ما قِيل، وشان صَدَى القدح صارمة الصقيل، وزُعِم عليه سُوء الاعتقاد، وأنه ينقاد لمذهب الحكماء بأقبح مقاد، وَيَجحد من قام في ذاتِه شاهِدُه، ويغضّ طرفه عن دليلٍ واضحٍ يشاهده، ويلتزم الإلحاد، غير مُبالٍ بنزول الأَلْحَاد[4]، حتَّى كان يتساهل بأمر الصلاة والصوم، وينكر المعاد وهول ذلك اليوم، إلى أن وقع من الخطر في الطّويل العريض، وكان كما قيل طبيب يداوي الناس وهو مريض:

ولَـيْـتـه إذ غَـدَا حـكـيـمـاً عـالـج بـالـطـبّ داءَ نَـفْـسِـه

ولما وفد إلى كوكبان، لعلاج رجُلٍ من الأعيان، كان يساجلني ويجالسني، وبآدابه اللطيفة يؤانسني، وهو في حفظ الأدب غاية، وفي صحف المحاضرين آية، ما رأيتُ في الحفظ له نِدًّا، ولا شَمَمْت من عرفِ مُذاكرته إلاّ نَدّا، ذكر لي بوار العلماء، وخلوّ الدهر من الكرماء.

وأنشد من محفوظاته المستطرفة، قول ابن المُهْتار[5] نزيل مكّة المشرَّفة:

مـاتـت الـنـاس فـعـش فـي مـن تَـرَى مـفـرداً والـخِـلّ لا تـركـن إلـيـهِ

---

(١) طبيب يوناني له اكتشافات في التشريح. توفي سنة ٢٠١ ميلادية.

(٢) من مشاهير فلاسفة اليونان تلميذ سقراط ومعلم أرسطاليس، أساس فلسفته (نظرية الأفكار) فالحقيقة ليست في الأفكار العابرة ولكن في السابقة لوجود الكائن والتي هي مناله. توفي سنة ٣٤٧ ق.م، المنجد: ٥٨.

(٣) بقراط: من أشهر الأطباء الأقدمين جعل للأمراض مصدرين الهواء والغذاء نقلت مصنفاته إلى العربية وتوفي سنة ٣٧٧ ق.م.

(٤) جمع لحد (معروف).

(٥) هو إبراهيم بن يوسف المكي المعروف بالمهتار. شاعر عرف بين الأدباء بالمساجلة والمزاح وكانت وفاته سنة ١٠٤٠ تقريباً سلافة العصر ٢٤٤ وخلاصة الأثر ١/ ٥٣ ونفحة الريحانة ٤/ ٢١١.

من يشا يحيى ومن شا فَلْيَمُت   ما عليهَا قطّ من يُبْكَى عَلَيْهِ

وأنشدني أيضاً في موقف آخر قول الأول:

وفتيان صدقٍ عَرَّسُوا تحت دوحةٍ   وما لهم غير النبات فِرَاشُ
كأنهم والزّهر يسقط فوقهم   مصابيح يهوي فوقهن فَرَاشُ

وقال: يا مولانا لمن هذا النظم العجيب.

فقلت له: هذا الشعر نُسِب إلى الأمير مجير الدين ابن تميم الدمشقي، وصاحب الريحانة الخفاجي[(١)] رحمه الله تعالى نسبه فيهَا لبعض المغاربة، والنواجي في كتابه «حلبة الكميت» نسبه إلى ابن قرناص والله أعلم.

وأنشدني قول القاضي صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى ورأيته مُغْرَماً بمعناه وهو[(٢)]:

لولا شفاعة شعره في صَبِّه   ما كان زار ولا أزال سقامَا
لكن تنزّل[(٣)] في الشفاعة عندَهُ   فَغَدا على أقدامِهِ يترامَى

فقلتُ له: قد أخذ هذا المعنَى زَيْن الدين الوردي رحمه الله تعالى فإنه كان كثير التَّهجم على نظم الصَّفدي، كما أن الصفدي كان كثير التَّهجم على نظم الجمال ابن نباتة تجاوز الله عن الجميع، فقال الوردي سقى الله ثراه[(٤)]:

كيف أنسى جمالَ شَعْر حبيبي   وهو كان الشفيع فِيَّ لديْهِ
شَعرُ الشعر أنه رام قتلي   فرمَى روحَه[(٥)] على قدمَيْهِ

---

(١) ريحانة الألبا ٢/ ٧٥. وحلبة الكميت ٢٧٧ منسوباً إلى ابن إدريس اليماني وإنما المنسوب إلى ابن قرناص المقطع الذي قبله فسبق نظر المؤلف إليه والله أعلم.

(٢) البيتان في خزانة ابن حجة ٣٠٦.

(٣) الخزانة: تطاول.

(٤) انظرهما في الخزانة ٣٠٦ وديوانه ٢١٣.

(٥) الديوان: نفسه.

وقال الحسن بن سليمان بن زيّان[1] رحمه الله تعالى:

وبي غادة كالغصن أوراق شَعْرِها ... على عطفها قد أسبغ الله ظِلَّهَا
ترامى على أقدامِها متشفّعا ... إليهَا بها في مغرمٍ رام وَصْلَها

وقلت أنا:

لا أختشي منها سماعَ الذي ... قد قالَهُ في الحُبّ من لامَهَا
وحسنُها يشفع لي عندَهَا ... وشَعْرُها يلثم أقْدَامَهَا

وقال الآخر مما استشهد به ابن حبيب الحلبي في كتابه المسمّى نسيم الصَّبَا[2]:

كلٌّ يذل له حتى ذُوابَتُه ... أما تراهَا ترامت تلثم القدمَا

وقال الإمام جمال الدين بن نُبَاتة المصري رحمه الله تعالى[3]:

تلك منه ذوائب لست أنفكّ (م) بآفاق جنحها في ضلالِ
عشقته مثلي وخافته خوفي ... واستجارت لديه بالإذلالِ

وقال مولانا الوالد محمد بن الحسن الحيمي رضي الله عنه في تائيته:

ذلّت لبهجته الغيد الحسان فَكم ... قامت لخدمَتِه منهن قاماتُ
وأرسلت من خضوعٍ شعرها فله ... تُقَبِّلُ الأرض منهن الذوابَاتُ

وما أحسن قول المطراني الشاشي[4] رحمه الله تعالى[5]:

ظِبآءٌ أعارتها الظبا حسن مَشْيِها ... كما قد أعارتها العيون الجآذِرُ

---

(١) هو بهاء الدين الحسن بن سليمان بن أبي الحسن بن سليمان بن زيان الطائي الحلبي ولي نظارة الجيش بحلب ووصف بجميل السيرة وقدم دمشق مباشراً بعض الوظائف. توفي سنة ٧٦٨ (الدرر الكامنة ٢/١٦ ط الهند).

(٢) تنظر هذين البيتين في نسيم الصبا: ٦٢ ط حلب.

(٣) ديوانه ٤١٤.

(٤) من شعراء اليتيمة، وهو أبو محمد الحسن بن علي المطراني انظر يتيمة الدهر ٤: ١٣٢.

(٥) البيتان في يتيمة الدهر ٤: ١٣٥.

فمن حُسْن ذاك المشي جَاءتْ وَقَبَّلَت مواطِيءَ مِن أقدامِهِن الضَّفَائِرُ

ومما قلته أنا في النثر: غادةٌ هيفا، كادت الشمس حياءً منها تغيبُ وتخفى، حملت من رياض الحسن أفنانا، فأجْرَت عيون العشاق عليهَا غُدْرانا، لو لم تكن غدائرها لها عبيد استخدام، لما برزت على معاطفها مُسْوَدّة الأديم كأولاد حام، أما تراها وهي مُسْبَلَة على قوامِهَا، كيف هَوَت لاثمة لأعقاب أقدامِها.

ومما يليق إيراده هنا قول صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى[(١)]:

إذا قلت قد أسرفتَ في التّيه قال لي تَقُل عن جمالي في الهوى[(٢)] غير ما جرى

وأبيض طرفي واقفٌ عند حَدِّه وأسود شعري قد تواضع في الثَّرَى

وقد أملاني صاحب الترجمة من شعرِه قسطاً، واتحفني من دُرَر نظمة ما أودعته من السّطور سِمْطا، إلاأنه فات وذهب، وصُرف بيد نَقَّاد الزمان منه فِضَّة وذهب، ولم أظفر بغير قصيدة كتب بها إلى مولاي والدي، بعد أن رحل عن معاهده ومعاهدي، يتوجّع فيها مِن الفراق، ويقرطس من لآلى لفظه ما يُعَبِّر عن دمعه المُرَاق، أخترت منها قوله[(٣)]:

لولا تبسّم ثغرٍ زانَهُ شنبُ ما كان في البارق النجدي لي أربُ

أأنت يا برق صبٌّ لا تفيق هوًى أضرمت نيران أشواقٍ لها لَهَبُ

بمن بكيت عليهم بعد فرقتهم لكي أؤدي لهم في الحبّ ما يَجِبُ

قد سِرت عنهم ودمع العين منسفح وفي الجوانح من حرّ الجوى وَصَبُ

الله يعلم ما مرَّت نسيم صَبَا إلاّ ولي مهجةٌ بالشوق تضطربُ

يا سفح وجرة سُقِّيت الحيا غدقاً وفي مغانيك أرخت ذيلها السُّحُبُ

وواصلتك من الأنواء غاديةٌ ينهلّ عارضها الغادي وتنسكبُ

---

(١) البيتان في الخزانة ٣٠٥.

(٢) الخزانة: الورى.

(٣) أوردها صاحب نشر العرف ٢/ ٤١٥.

منها في المديح:

محمدٌ خير أبنا عصرِه فَلَهُ   عليهم رتبة لم تحكها الرُّتَبُ
إمامُ علمٍ إذا أمّته مشكلةٌ   وبحر جودٍ فماذا تَصْنع السُّحُبُ
تسمو به هِمَّةٌ في المجد عاليةٌ   تقاصَرَت عن مداها السبعة الشُّهُبُ
أثيل مجدٍ رواق الفضل مُدَّ لَهُ   فوق السماءِ وهذي شهبها طُنُبُ
وفي العلوم له فكرٌ يخوض به   عُبَابها وله الأشعار والخُطَبُ
ما إن ذكرت أياديه التي عَظُمَت   إلاّ اعتراني إلى ساحاته الطربُ
روضات مجدٍ لها من خُلْقِه زَهرٌ   يفتَرّ ثغراً ومن أقلامِه قُضُبُ
دامت عليه من التّنويل ديْمَتُهُ   ما نُبِّهَت بنَسِيْم في الرُّبا العذَبُ
خُذها تُقبّل سوح الفضل شَيِّقَةً   لِلَثمه وتُؤدي بعض ما يَجِبُ

وله كتاب مُؤلّفٌ سماه «الروض الباسم في سيرة أولاد الإمام القاسم»، طالعته أيام بقاء مؤلّفه لدينا والتمس مني تقريظه فكتبت عليه من النثر قولي:

وقفتُ «على الرّوض الباسم في سيرة أولاد الإمام القاسم»، فاستَقَلْتُ تحت دوحِه، واستنشقت من ريحانه ورَوْحه، وتناولتُ من ثمرِه، واقتطفتُ من زَهرِه، وَنَهَلْتُ مِنْ غُدْرانه، والتقطتُ من طَلّه منظوم جُمَانِه، فيا له الله من بُسْتَان ثمرُهُ تَدَلَّى، ومن روضٍ باسمٍ لَمَّا نظره الروض عَبَسَ وَتَوَلَّى، وتنفّس بنسيمه تنفّس مكروب، وعاف من أنهاره الدافقة سلسل المشروب، ورَمَى بكؤُوس زنبقه وهي مَلآنه من خَمْر الندى، وكسر عِيْدَان أغصانه وقد غَنّى الهزار عليها وشدا، حتى انقلب غِنَاؤه نَوْحَا، وكاد أن يتحف بشاحب أخشابِه لو كان حَيًّا نُوْحا، لكي يعمل لسفينته منها ألواحاً ودُسُرَا، وَيصطنع منها ما يطيب معدله في أودية الأمواج السُّرَى، وأحرق نباته بأنفاسِه المحرورة، وبَتَك من الأوراق ذيول غصونه المجرورة، وشَقّق بسيوف أنهارِه، حُلَلاً نسجتها له أيدي الغمامة مطرزة بأزهارِه، وغضّ من نرجَسِهِ طرفَه، وأسكت لسانَه النمامة أعنى بذلك عَرفة، وخلع من بنفسجه عذاره، وقَطّب وجهه ذا النضارة والغضارة، وعض أنامله من المنثور حتى

أبانها، ولم يكتم أسباب كمده بل أبانَها، كل ذلك منه لفرط الحَسَد، الذي لا يخلو أبداً عنه الجَسَد، ولم لا يغارمن من روضٍ باسم بالزّهور، لا يحتاج إلى منة الغيث والنهور، ولا تقتطف أزهاره بسوى الأحداق، ولا يُعَرّيه الشتاء فيسلبه ثياب الأوراق، فحرس الله مؤلّفه، وأبقى مُنَضِدّ عقدَه ومُرَصِّفه، لقد نشر لواء الدولة القاسميَّة، وقال: الروض هذا روض باسم لست ألقى سميّه، أبدى فيه من نثره المأثور، ما تَلَوَّن عند طيب اشتمامه المنثور، وأودع فيه من الفقر، ما غمص من قدر الدر واحتقر، واستوفَى تراجِمَه، بما تصير عنده الألسنة واجِمة، عن كلام تعافُ معه المُدامة، وبلاغة يصير لديها أحقر من قُلامه قُدَامة، فكم من سكران بها مرتاح، تقول لصاحبه لا تلمني على سكري بها يا صاح، دامَت لمُصَنِّفه السعود، وانجزت له الأيام من آمالِه الوعود، ما طحنت رَحَى الدهور، حَبَّات نجوم على القطب منها تدور، فَخُبزَ مِنْها قرص الشمس المعلوم، والتقمه المغرب التقام جائع منهوم، انتهى.

قولي: يا صاح فيه تورية حَسَنَة لأنه يحتمل أن يكون ترخيم صاحب ويحتمل أن يكون اسم فاعل من الصحو ضدّ السكر، وكِلا الوجهين قد تقدمهما ما يُرشح للتوريَّة كما هو ظاهِر.

وهذا المعنى قد طرقه المتقدّمون والمتأخرون، كثيراً وأول من سَبَكه سُبْكاً جَيّداً إمام الأدباء الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى حيث قال[١]:

سَكْران من قهوة السّاقي ومُقْلَتِهِ   فاترك ملامك في السكرين يا صاح

ومنه أخذ القاضي صلاح الدين الصّفدي رحمه الله تعالى قوله[٢]:

---

(١) ديوان ١٠٥ من قصيدة أولها:

سلبت عقلي بأحداق وأقداح   يا ساجي الطرف أو يا ساقي الراح

(٢) البيتان في الغيث المسجم ١/٤٥١.

لا تَلْج قلبي الشجي تُقَابِل   معروف أهل الهوى بِمُنْكَرْ
فلو ترشفت ريق فِيْهِ   يا صاح يوماً لكنت تَسْكَرْ

ومنه أيضاً أخذ أبو الفضل بن أبي الوفاء[١] رحمه الله تعالى وزاد فيه اللَّف والنَّشر المرتب قوله:

من خمرة الشغر تِهْ سكْراً بِغُرَّتِه   وشعره واصطبح يا صاح واغتبِق

وقال العلامة بدر الدين الدماميني رحمه الله تعالى وفيه تورية أخرى[٢]:

قُمْ بِنَا نركب طِرف اللهو   سَبْقاً للمدامِ
وائن يا صاح عِنَانِي   لكميتٍ وَلجامِ

وقال شمس الدين محمد بن المنقار[٣] أحد من ذكرهم الشهاب الخفاجي في ريحانته[٤]:

خَلَّفت بعدك كُلَّ خِلٍّ هائماً   يُجري الدموع حليف فرط سقَامِ
سَكْرَان من كأس الفِراقِ معذَّباً   يا صاح بالهجران والآلام

وقال السيد علي بن قاسم العادل العصري[٥] الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في مطلع بعض أبيات له وهو:

مُحَيَّاه بدري وهو شمسي ومصباحي   وخَدَّاه ياقوتي ووردي وتُفَّاحي
على ثغره شَهْدٌ مُصَفًّى شَرَابُهُ   شِفَائي وسكري في الهوى منه يا صاح

وقال السيد عماد الدين يحيى بن إبراهيم الجحافي العصري الآتي ذكره أيضاً

---

(١) ذكره صاحب خزانة الأدب ٣٤٠ ولم أجد ترجمته وأظنه مترجم له في الضوء اللامع ج٧: ١٩٦ .

(٢) البيتان في الخزانة ٣٤١.

(٣) هو شمس الدين محمد بن القاسم بن المنقار كان من أعيان العلماء مناظراً وفاته سنة ١٠٠٥. انظر (خلاصة الأثر ٤/ ١١٥) وأكثر شعره ونثره تجده في سانحات القصر لدرويش الطالوي المطبوع أخيراً.

(٤) انظر ريحانة الألباب ١/ ١٢٩

(٥) العصري: أي المعاصر للمؤلف.

في هَذَا الكتاب وهو ما جاء له في بعض قصائده:

فَتناوَلْ يا صاح منها كُؤُوساً كُلّ كأسٍ مِزَاجُه زنجبيلُ

وقال أيضاً:

أنهَلْتَني خمر اللُّقاه يا صاح والتفريق عَلاَّ

وقال خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي في رُبَاعِيَّةٍ له:

أصبحتُ غَريق دَمعي السَّفَّاح سَكْرانِ بِخَمْر صَبْوتي يا صَاحِ
أحسو قَدَحي ودمعتي تَمْزُجُه ما حال شجٍ بُكَاه مَزْج الرَّاحِ

وأقول قد وقعت التورية للحريري رحمه الله تعالى - ولعلها بلا قَصْدٍ منه - وذلك في مطلع أبياته التي أوردها في المقامة الخامسَة والثَّلاثين من مقاماته المشهورة يُرشح التورية في بيتِهِ قوله (مَزْج المُدام كما ترى) والبيت هو قوله(١):

قَتْلُ مثلي يا صاح مزج المُدام ليس قتلي بلهذَمٍ وَحُسَامِ

وقال ابن أسد الفارقي(٢) في الجناس:

يا صاح إن الخمر قَتَّالَةٌ فأَعفَّ منها النفسَ يا صَاحِ
وانظر فكم بين فَتًى طافِحٍ من سُكْر كأسٍ أو فتًى صاحي

السيد الحسن بن عبد الله الكبْسي(٣)

سيِّدٌ شُيِّد من المَجْدِ رُكْنَه، وَتمكّن من جذب العليا أي مكنَه، أُقْسِم من خلالِهِ بِأَبرّ القَسَم، أن له روض مَعَالٍ بِزُهورِهِ قد ابتسم، كَريم أصلٍ وفَرع، حامِل أَلِويَة أدبٍ وشرع، راضع دَرّ فَخَارٍ مِن أشرَف ضَرْع، حاضرته فحاضرتُ نبيهاً،

---

(١) مقامات الحريري ٣٨٩ (المقامة الشيرازية).

(٢) هو أبو نصر الحسن بن أسد بن الحسن بن الفارقي شاعر رقيق كثير التجنيس توفي سنة ٤٨٧ (فوات الوفيات ١/ ٣٢١) والوافي بالوفيات ١١: ٤٠١.

(٣) أديب له مع أهل عصره بعض المشاركات في السياسة والحكم ووفاته بعد سنة ١١٤٠. انظر ترجمته في نسمة السحر (خ) ونشر العرف ١/ ٤٩٠.

وحاروته فما وجدتُ له شبيهاً، مع أخلاقٍ سنيَّة، وتواضُع زهراتُه جَنِيَّة، وماءِ بِشْرٍ يترقرق عن مشارب هَنِيَّة، وهو في الحِسَاب أحوذي، وبلبَانِ من البراعة قد غُذِي، لا تفوتُه الحقائر، ولا يعزب عنهُ ما في الضَّمائر، ولذا كتب ببندر اللُّحَيَّة[1]، فعَادت فرْضتها بعد الممات حَيَّة، وهيمن على ما يقذِفُه البَحْر، حَتَّى حَلَّى بدرر لُججه النَّحر، مَدّ إليه اليَمّ من خَلِيجْه السَّاعد، وساعفه الحَظّ الموافق المساعِد، فأراش طائره الغَرِد، وسَقَى روضَهِ بِنَهْرٍ مُطَّرِد، فجمع له بين عين الأدب، وبين عين الخالِصِ مِنَ الذَّهب، وَقَلّ ما اجتمعا لفاضِلٍ، يُبَاهِي النُّجُوم بآدابِهِ وَيُنَاضِل، لحظته من السعادة عين، وإذا غُرَاب البحر له غُرَاب جَمْعٍ لاَ غُرَاب بين، لبث هُنَاك أيَّاماً، وقد نصبت له المراكب مِن شراعها أعلامًا، ثم ارتفع مِن هُنَاك بعدما انتصب، وسار ولم يقل لقد لقينا من سفرنا أيَّ نصب، فبكى البحر لِفِرَاقِه بدمع اللآلى، ولبس بعده ثياب حِدَادٍ فُصِّلَت مِن سود الليالي، ولطم وَجْهه بِرَاحَةِ المَوْجِ العَظِيم، وَشَقَّ جيب شراعِهِ بأنامِل النَّسيم، وكاد أن يُشَيِّعه عن أسفٍ ونَدَم، فيمشي خلفَه بساقٍ من الماء ما لَهُ قَدَم، وكاد أن يطير لِفِراقِهِ بجناح الشراع، لولا أن الرياح الطيِّبَة قالت له لن تُراع لن تُراع، وأنشد بلسان الحال، ما يتجمل به العُنُق الحال:

أَلَـمَّـت فَـحَـيَّـت ثـم قـامـت فـوَدَّعـت فَـلَـمَّـا تَـوَلَّـت كـادَتِ الـنَّـفـسِ تَـزْهَـقُ

فَزَوّده اليم من لؤلؤه النظيم، ما عدم أباه البحر فإذا هو يتيم، ولما أَلْقى بصنعاء اليمن رِكَابَه، وأراح من وعثاء السفر سَكَابه، نَظَم ذلك الدرّ الذي حَيَّاه به البَحْر، على بنات أفكارِه فزها به مِنْها العاتق والنَّحْر، فهو الآن يَتَصَدَّق مِن ذلك اللؤلؤ بما أفاد، وَيَهب للأدباء منه ولا يخشَى عليه النَّفَاد، وعلى الجُمْلَة فإنه قد جمع الخصال، وسَدَد إلى أقصى الأغراضِ مِن عَزْمِه النصال، فَمَن حَاوَل مُشَاكلته حاول صَعْبا، ومن رام النهوض بما نهض به من المفاخِر ثَقُلَت عليه الأَعْبَا، ومن سَابَقَه في الحلبة كَبَا، ومن سَاوَرَه بسيفِ ذهنه نبا فما له نبا.

---

(١) اللحية: بلدة تهامية على ساحل البحر الأحمر شمالي الحديدة.

وله أدبٌ ألَذّ من نَظَرِ المحبوب، وأشهى من ريقه الذي هو شهد مصبوب، وشِعرٌ كأنّه من الرّياض قَطِع، لو أمر الروضُ الحقيقي باردَ النسيم بهجره لم يُطع، فهو يتخلَّل أشجاره وأفنانَه، ويعانق في السَّحر والصباح أغصانَه، فهو كبسيٍّ يسبك الذهب، على نار ذكائه لا على اللهب، كم أبرز مِن غادة، على مقتضَى ما جرت به العادة، نَهَدت فانشق لها جيبُ القِرطاس، إذا انشق من المليحة ما جرت به العادة، نَهَدت فانشق لها جيبُ القِرطاس، إذا انشق من المليحة جيب الاستبرق والطاس، فكل أديب يغازلها ويداعبها، وكل وامق يلاطفها ويلاعبها.

وقد طالعت مجموع شعره، وأحطت بسهله وَوَعْرِه، فوقفت منه على روضِ دِمْيَات، وتلوت آيات نفثاتِه فسَجَد قلمي لتلاوة تلك الآيات، فنظمُه أنفس نَفِيس رُقِم، قد نَحِل اليراع من حُبِّه وسَقِم، لَمَّا هام به هيام المجنون بليلى، وَمَدّ على أفقِ القرطاس من مِدَادِه لَيْلاً، فظهرت تحت غَدَفِه أقْمَارُه، وطابت له بِمُنَادمتها أسمارُه، وأما نظم التواريخ، فقد قعد منه على شماريخ[1]، طالما اقتنص شوارِدَه، لمَّا أضحت مِن منهَل أدَبِه وارِدَه، وصاد منه الأوابد، وكم من لبيبٍ لنفورها عنه يُكابد، لَمَّا لم يَقِف منها على طائل، وقد حال بَيْنه وبينها أغلظ حائل، وأما هذا السَّيد فقد رفعت دونَه ستراً رقيقاً، فانتقى من حصباءِ أرضها جوهراً وعقيقاً، واقتطف من جنات مراتعها ورداً وشقيقاً، فمن جواهِرِه المرصوفة، ولآليه المذكورة الموصوفة، ما اخترتُ له من قصيدة وهو قوله:

سقى السفح من صنعا من الغيث ماطِرُ   وبـاكـره هـامٍ مـن الـقـطـر هـامِـرُ
مَـغَـانٍ بـهـا قَـضَّـيْـتُ أيام صبـوتي   وغُـصـن الـصِّـبـا رَيّـان مـنـي نـاضِـرُ
رياض بـهـا الـجَنَّات حُفَّت وَعُجِّلَت   وأزهـارهـا فـيـهَـا نُـجُـوم زواهِـرُ
ولـي بـيـن هـاتـيـك الـمـنـازل دميَةٌ   كغصن النقا من فوقها القلب طائرُ
ربـيـبـة حـسـنٍ أن تـثـنّـى قـوامُـهـا   وقـسـت بـه الـمُـرّان فـالـفرق ظـاهِـرُ

---

(١) جمع شمراخ: رأس الجبل.

ويبهر بدر التَّم حسناً وطلعةً ... جَمَالٌ لها يسبي المُحِبّين باهِرُ
ويخجل منها الريم جيداً ومقلةً ... فكم خجلت بالجيد منها الجَآذِرُ
مِن الهيف عبل الرّدف يرثى لخصرها ... فَمِن دون ما لاقى تضيق المآزِرُ
فيا طرفها السّحار رفقاً بمهجتي ... فقد بان لي حَقًّا بأنك سَاحِرُ
نَعَم ضل من يهوى ضلالي فإنّمَا ... لِعُذرٍ سبت لُبّي وقلبي الغدائرُ
أضَلُّ بليلٍ من ذوائب شعرهَا ... ولا غروأن ضليتُ والليل كافِرُ
فلم أر كالغزلان تلعَبُ بالنُّهَى ... وتقتنص الآساد منهَا الجآذرُ

وقوله من قصيدة أُخرَى:

هات بنت الكروم بكراً توقّد ... وأدِرهَا من كَفّ فَتّان أغيد
إن تبدى فبدر تَمٍّ تَجَلّى ... أو تَثنّى فغصن بان تَأوَّد
أنا من لحظِهِ ومائسِ قَدْ ... رُختُ مَا بين ذابِلٍ وَمُهَنَّد
هاكها الشَّمس في محياه لاحَتْ ... وبها الخَدّ عن سناها تورَّد
قد أذابت عقول من يحتسيها ... حين ذابت في كاسها ذوب عسجد
فلها في الجسوم دَبٌّ خفيٌّ ... دَق معنى بلطفِه ليس يُوْجَد
سُقّها وأجلها ربيبة كرم ... سفها قبلك الوليد وَمَزْيَد
ويَزيد يَزِيدُ فيها غراماً ... عاش رِقًّا لِحُبّها وَتَعَبَّد
واستمع صوت مزهرٍ من لبيبٍ ... أن تغنى فما الغريض ومعْبَد
كم قَطَعْنا بِقُرْبِهِ من ليالٍ ... ونَظَمْنا بوَصْلِه ما تَبَدَّد
لا نبالي بعذل واش رقيبٍ ... لج في عَذْلِنا بِزُورٍ وَفَنَّد
ما الشّجي كالخلي لُبًّا وقَلْباً ... لا ومن نام طرفه كالمُسَهَّد
نام عَنّا الزَّمان حيناً ولكن ... قام مستقيظاً فصال وشَرَّد
وسعى بيننا بفرقة شملٍ ... وكذا صرفه إذا لان شَدَّد
كم رأينا به رفيعاً وضيعاً ... ووضيعاً إلى المعالي يَصْعد

وقوله من قصيدة:

على غصن بان الروض قد غنت الورقا ... فمن سجعها قد ذبت يا صاحبي عشقا
تطيل نواحاً في الهجير لهجرهَا ... فلم أر ما بيني وما بينها فرقَا
فلا تكثر التعنيف فيما جهلتَه ... فربتما يهوى فتلقى كما ألْقَى
فقد همت في بدرٍ على رمح قامَةٍ ... فصيَّرني رِقًّا وما قلبُه رَقَّا
وقد دنت أن السحر بالعين باطلٌ ... فلما رنا أبصرته واضحاً حَقَّا
ولا بد لي من لحظِه وهو صارمٌ ... مخاطرةً بالروح فيه وإن شقَّا
رَقَأْتُم فؤادي بالتمائم ضِلَّةً ... ودمعي ولو جئتم به كان لي أرقى
وحذرتكم طوفان دمعي فزدتم ... ضلالا فما ذنبي إذا كنتم غَرْقا
أراك الحمى مالي أراك مُصَوِّحاً ... وبالأمس من دمعي سَقَاك الذي سَقَّا
نعم قَوَّضوا عنك الخيام وأدلَجُوا ... فقل لي أنا أم أنت في وجدنا أشقى
ولا بد لي من وَقْفَةٍ في عراصهم ... لعل الرسوم الخرس تعرف لي حقًّا
وقوف جميلٍ في عراص بثينَة ... وأن قبيحاً رفض ما للهوى أبْقَى
ويا ليت شعري أي أرضٍ تخيروا ... أغَرْباً نأوا عَنّي أم ارتحلوا شرقاً
وإني سألت الريح والبرق عنهم ... ولولا الهوى لم أسأل الريح والبرقَا

وقوله:

موَرّد الوجنة هل من جَنَى ... لبائسٍ يهوى جَنَى وردتِك
فعمّك الحُسْن بها آمرٌ ... وخالك النّاهي على وجنتِك
وَجَدُّك السامي عليه أبَى ... وقالَ لا نَطْمَعُ في قبلتك

وقوله في مليح افتصد فجعل الدَّم يجري في ساعده

قد قلت في فَصْد الحبيب وَوَجْهه ... كالبَدْر يزهو سافراً بالنُّوْرِ
والدّمّ يجري أحمراً في أبيضٍ ... هذا العقيق يسيل من بَلُّوْرِ

وقوله مضمناً في مليح يلقب بالنزاري بالزاي والراء:

أهاب عيوناً للنزاري فواتكاً ... أصابت مواضيها الحشاشة والقلبَا

تُهَاب سيوفُ الهند وهي حدائدٌ ... فكيف إذا كانت نزارية عُزْبَا

وقوله في سيِّدٍ مليح يلقّب بالعوامي وقد عام في بركة ماءٍ وجعل يسبح فيها:

قد عام من أهوى بِلُجَّة بركةٍ ... من آل هاشم ما سواه مَرَامي

هام الورى بسواه ممن لم يعم ... لكنني قد هِمتُ بالعَوَّامي

وقوله في مليح يلقب بالعفّي بكسر العين المهملة وكسر الفاء المشددة بعدها ياءٌ:

قالت معذّبتي وقد ... فهمت غرامي فَهْمَ لُطْفِ

أأعفّ عن لقياك من ... ذا قد هويت فَقُلْتُ عِفّي

وقوله في خطاب من يميل إلى مليحةٍ اسمها سعود:

أقول لمن تعشَّق ذات حسنٍ ... وقد ماست بمنسوج البرودِ

عواذلك الحواسد في نُحُوسٍ ... وأنت الآن حظك في سعودِ

وقوله في تشبيه غيم رقيق يغشي السماء تارة ويذهب أخرى:

أنظر إلى مبيض سحب في السماء ... قد صار ياتي تارة ويغيب

كتنفس الصعدا في مرآته ... أبدى دخانا من حشاه لهيب

وقوله يخاطب أميراً له نديم يسمى لطف الباري:

قل للأمير إذا وجدتَ مقامَهُ ... ورأيتَهُ قد حُفّ بالأزهارِ

وله نديمٌ كالنَّسيم لطافةً ... لا زلت محفوفاً بلطف الباري

وقوله يخاطب بعض أصحابه وقد أحال عليه رجل اسمه يحيى بدينٍ عليه له:

قل للمجلّى في العلا نَجْل الضيا ... من ليس يدرك سبقه الساعونَا

أنت الكريم ببذل مالك للورى ... وسواك بُخْلا يمنع الماعونا

ولقد أحال عليّ يحيى دَيْنَه ... وأنا المحيل على رجاك ديونَا

وقوله كتب به إلى من له معرفة جيدة في علم النجوم وقد شفعت إليه امرأة تسمى الثُّريا في أمرٍ لم يسعدها في فعله ولم يقبل شفاعتها.

أيا نجل الأمير تروم أمراً ... به الدايات قد لعبت بيحيى

وفـي عـلـم الـنـجـوم أراك فـرداً　　　فـكـيـف جـهـلـت مـنـزلـة الـثُـرَيّـا

وقوله لما قرّب الخليفة إليه رَجُلاً يقال له رَدْمان بصيغة تثنية ردم فبعّده عن الناس.

بـاب الـخـلـيـفـة مـعـجزٌ فـي عـصـرنـا　　　وتَـأمّـلـوا فـي مـحـكـم الـقُـرآن

ردم لـذِي الـقـرنـيـن مـا اسـطـاعـوا لـه　　　نـقـبـاً فـكـيـف ودونَـهُ ردمـانِ

ولما وقف على بعض كراريس من كتابنا هذا وهو «طيب السمر» لم ير ذكره فيه فكتب إلي دام مجده:

يـا شـهـاب الـديـن يـا مـن فَـضْـلُـه　　　قـد سـمـا قـدراً عـلـى كـل الـبَـشَـر

أنـت قـد قَـلَّـدت أعـنـاق الـورى　　　فِـقَـراً تـزرى بـأسـلاك الـدُّرَر

مـسـلـكٌ فـيـه نـظـمـتـم سـلـكـهـم　　　وأرى جـيـدي إلـيـهـا مُـفْـتَـقَـر

فـاذكـروا صَـبًّـا غَـلاَ فـي حُـبِّـكـم　　　مـع أنـاسٍ ضـمـهـم «طـيـب الـسَّـمَـر»

فأجبته من النظم والنثر بقولي:

روضَـةٌ رصَّـعـهـا وَبْـلُ الـمَـطَـر　　　وَتَـحَـلَّـت بـفـصـوصٍ مِـن زَهَـرْ

أم لآلٍ فـوق جـيـدٍ أتـلـع　　　أم نـجـومٌ أم شُـمُـوس أم قَـمَـر

لا ولـكـن هـو نَـظْـمٌ دار لـي　　　مـنـه كـأسٌ بـعـتـيـق مِـن سَـكَـر

شـرف الإسـلام قـد حَـرَّرَه　　　سـحـر الألـبـاب فـي وقـت سَـحَـرْ

نَـبْـهـتـنـي أسـطـرٌ مـنـه أتَـت　　　مـن غُـفُـول كـان مـنـي قـد صـدر

عـاتـبـاً والـعـتـب مـن شـأن الـصَّـفَـا　　　حـين لـم أذكـره فـي «طـيـب الـسَّـمَـر»

وهـو أحـرى الـنَّـاس بـالـذكـر لـه　　　وأنـا لـلـود أحـرى مـن ذكـر

تُـبـت عـن ذنـبـي إلـيـه نـادمـاً　　　وهـو أولـى مـن لـذنـبـي قـد غَـفَـر

هـا أنـا الآن وهـذا قـلـمـي　　　لـلـطـيـف الـنـظـم مـنـه قـد سـطـر

بـعـد أن أعـطـاه مـدحـاً حَـقَّـهُ　　　لا وحـق الله فـي الـقـول نَـظـر

أيـن مـنـي أيـن مـنـي وَصْـفُـه　　　إنـمـا قـلـت الـذي مـنـه حـضـر

أيـن مـنـي حـصـر أوصـافٍ لـه ولـسـانـي عـن مـقـالـي فـي حَـصَـر
دام مـا هـام بـأَلْـفِ صـادحٌ وتَـغَـنَّـى فـوق أغـصـان الـشَّـجَـر

أقبل عذري يا مولاي فإنه مقبول، وصدّقني في الود فان قلبي عليه مجبول، واعلم أني لم أعرض عن ذكرك، ولا تغافلت كما علم الله عن حمدك وشكرك، لحط منزلتك عندي، أو كونك لا تطاول بنظمك أبا الطيب الكندي، ولم أطرح عن جهل قدرك توفير مَدْحِك، ولم أسُدّ مسمعي وأنت الطائر الغَرِد عن صَدْحِك، إلاّ أني قلتُ: أنت الغَنِي عن مَقَالي، وأشعار غيرك صخور وأشعارك لآلي، فأعززت قدرَك بعدم ذكرك بين من لم يُعَدُّوا من أقرانِك، وَأَحَلَّيْتُ نظمَك عن مخالطته للجزع من نظم من يزعم أن سكيتَه يسابق مجليك في ميدانك، فإن الدرّ لا يُذْكَر عند انتقاء الحَصَى، والسيف لا يَطلعُ على بالٍ عند تناول العَصَى، ولكنّك لما رضيتُ بذكرك في ذلك الكتاب، أُبْتُ أوبة نادم وقلتُ المتاب المتاب، والله يجعل ذكرك بين النّدامى طيب السمر، ولا برح روضُك ضاحكاً من بكاء المطر إذا انهمر، والسلام.

السيد يحيى بن أحمد الحوثي الصنعاني[١]

هذا من خبايا الزوايا، وممن تلت ألسنة الأقلام له آيا، يُعَدّ في مجلس الفضل من الصُدور، وينوب في سماء المقامات الرفيعة عن البدور، إلاّ أنه زهرةٌ في خمائل الخمول، ولِذَا لا يُخْشَى عليه من هاجرة الخطوب الذُبُول، لَم ألف من أبناء الزَّمن لحالِه لديّ شارحاً، ولم أجِد في مسارح أوصافِه الخصيبة أبداً سارحاً، ولم أسمع من نِظامِهِ، ولا ولج سمعي من كَلاَمِه، غير مقطوعه الآتي، الذي خَرَّت تعظيماً له من القلم منساتي[٢]، والرائحة تدل على الروض، والغَرْفَة الباردة تُعْرِب عن عذوبة الحوض، كما أن الوَسواس[٣]، من فوق القَدّ المياس، يَدُل على الحَلْي

(١) ترجمته في نشر العرف ٢/ ٨١٧ نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) المنساة: العصا.

(٣) الوسواس: صوت الحلي.

المُرَصَّف، والجوهر المُنَظَّم المصَفَّف، والزّهور الرطيبة، تدل على المنابت الخصيبة، ومقطوعه الذي إليه أشرنا، ووعدنا بإيراده كما ذكرنا، هو قوله:

وشـادِنٌ أفـرط فـي عَـطـفِـهِ عـلـى ذوي الأشـجـان والـوجـدِ
طَـلَـبْـتُـه فـي كَـفِّـهِ قُـبْـلَـةً فـقـال لـي خُـذْهـا مـن الـخَـدْ

أين هذا المحبوب من محبوب بعض الأدباء حيث قال فيه:

لـي سَـيِّـدٌ جـار عـلـى عـبـدِه وَعَـبْـدُه بـاقٍ عـلـى وُدِّهِ
يـمـنـعـنـي مِـن كَـفِّـهِ قُـبْـلَـةً حـذار أن تَـرْقـى إلـى خـدِّه

صاحبنا السيد قاسم بن يحيى المطاع(١)

مطاع ثَمَّ أمين، وعقدٌ نفيسٌ ثمين، ونِعم جليس بالإطراء في مِدْحِه قَمِين، أرَقّ من النَّسيم طبعًا، وأوسع من الفَضَاءِ صدراً وَرَبْعَا، مُسَاعِدٌ مُسَاعف موافق، يسعى في نفع الصَّديق سعي النَّهر الدافِق، لَهُ ظُرْفٌ وأدَب، شرابهما أسْرَى في الأعضاءِ من الخمرة وأدبّ، كان لي من خلَّصِ الأخِلاَّء، والمحبين الذين لم يستحل خَمْرُهم خَلاًّ، فإنَّهُ ذو طَوِيَّة نَقِيَّة، وأحشاءِ ما بها من كَدَر الأوغار بَقِيَّة، قد خَلصت عَنِ الغِش خلوص الذَّهَب، وَصُفِّيَت عن الخُبْثِ تصفية الفِضَّة باللَّهب، فكنتُ إذا وفدتُ إلى صنعاء وَرِياضها، ونزلت خلال آبارِها وحياضِها، يلازمني ملازمة الظِلّ، ويهديني في مُدْهمّ حَدَائقها فَلاَ أضلّ، وأتمتع بِمُسَاجَلَتِه، وانقاد إلى أنْدِيَة الاجتماع بمعاجَلَتِه، فَقَد مَرَّت لي وله أوقات أنس، يقول لسان حالها: أنا وإن طال الزَّمان لم أنس، قد رُقِمَت للدهر في صحائف الحسنات، لما نام عنها وعرضت لعينِه عنها سِنَات، قبل أن يفطن لتلون نهارِه وليله، ويجر على منازل السّرور ما خَلَقَ مِن ذيْلِه، ولما أراد الزَّمن تنغيص عيشي، وبالغ في أن يُبَدِّل وقَاري بطيشي، عرض له ألَمْ، بجسمه اللَّطِيف ألَمّ، فسقم سقم النسيم، ودنا من حمامه الخطب الجسيم، فمات هو والسُّلُو، وأقفر ربعهما بالخُلُوّ، وَذُقْتُ مَرَارَة فِرَاقِه، بعد الحُلُوّ، وهو

---

(١) ترجم له صاحب نشر العرف ٢/ ٣٧٤ نقلاً عن كتابنا هذا.

أسود العارض، وبكر شبابه لما تبلغ مبلغ الفارض[١]، فأصابني لحادثهِ غَمّ، وَنَشأ في أفقي من الكَدَر سحابٌ أغَمّ، فسلوِّي عَنْهُ لا يستطاع، وأين مني وقد مضى «سِلْوان المُطَاع»[٢]:

فـمـن هـذه حـالـي وحـالـتـه مـعـي أيحـسـن أن أبـكـي عـلـى فَـقْـدِه أم لا

سَقَى الغيثُ مسقط عظامِه، ونَظَم من قَطره على ترائب تُرابِه دُرَر نظامِه، ما ناح الطَّيرُ لِفُقْدِه، وما اشتغل قَلب مُحبّه بوَقْدِه.

كتب إلي نظماً غريب الإنشاد، وقد انفصلتُ عن صنعاء إلى ربع كوكبان المشاد، يذكر متنّزه سناع[٣]، وقد مضت لنا فيه أيام حسرت عن وَجْه لَذّاتِنَا القِنَاع، فَبَدا في أجمل منظرٍ وأبهجه، وَتَوقَّد خَدُّه عن أضرم جَمْرٍ من الورد وأوهجه، إذ حاك الربيع لملاعبه خُضْر الأردية، ونشرها على ظهور اليفاع وبطون الأوديّة، يذكر معهداً منها تأجّج فيه جمر الشقيق والتهب، وصاغت الأشجار من مِشْمِشة أكَراً من الذَّهب، قوله رحمه الله تعالى:

يـا شـهـاب الأنـام شـوقـي شـديـدٌ ومـزاري لـكـم مَـزَارٌ بَـعِـيـدُ
غـبـتـم عـن ربـوع صـنـعـا فـلا الـدا ر بـدارٍ ولا الـمـعـاش رَغِـيـدُ
لـسـتُ أنـسـى مـا مـرّ لـي فـي سـنـاعٍ مـن زمـانٍ هـو الـزمـان الـسَّـعِـيـدُ
فُـزتُ فـيـه بـالـقُـرْب مـنـكـم فـعـيـشـي نـاعِـمٌ رائـقٌ نَـضِـيـرٌ حَـمِـيـدُ
فـي ريـاض تـجـري عـلـيـهـا نـهـورٌ لـحـشـاهـا بـمـائـهـا تـبـريـدُ
لـيـت مـولاي بـعـد أن غـاب عَـنِّـي وسـرى والـسُـرَى بـه مـحـمـودُ
شـاهـد الـحـال فـهـو حـالٌ لـه يـر ثَـى ويـنـمـاع عـنـده الـجـلـمـودُ
أيـن مـنّـي سـمـاع آدابـك الـغُـرّ وقـد فـات عـقـدهـا الـمَـنْـضُـودُ

---

(١) الفارض: البقرة كبرت وأسنت.
(٢) تورية بكتاب سلوان المطاع لابن ظفر الصقلي.
(٣) سناع: قرية شرقي حدة على بعد خمسة كيلو متر من صنعاء وتعد من المتنزهات الجنوبية الغربية لصنعاء.

وخـطـاب هـو الـمـدام فَـذَا الـراح لـديـه فـي كـاسِـهِ مـردود
مَـنّ ربـي عـلـيّ مـنـه بِـعَـوْدِ ووقـاك الـمـكـروه مـا اخـضـرَّ عُـوْدُ

فأجبته من النظم والنثر بقولي:

عِـقـد نـظـمٍ عـلـى السطور نَـضِـيـدُ أيـن مـنـه عـقـدٌ حـواه الـجِـيْـدُ
كـل بـيـتٍ مـنـه وقـد قـل شِـبْـهـاً لا تـوازيـه فـي الـنـظـام قَـصِـيـدُ
جَـاءنـي مـنـك بـعـد طـول تـنـاسٍ هـل ثَـنـاك الـمـلام والـتَّـفـنـيـدُ
لـسـتُ مـمـن يـهـيـم بـالـحُـسْـنِ لـكـن فـيـك يـا ابـن الـعـمـيـد قـلـبـي عَـمِـيـدُ
فـلـبـاب الـغـرام فَـتْـحٌ ولـلـسّـهـم (م) مـن الـشَّـوق نـحـوكـم تـسـديـدُ
صَـحَّ لـي الـكـيـمـيـاء فـلـلـدّمـع تـقـطـيـر ولـلـقـلـب بـالـجـوى تَـصْـعـيـدُ
يـا بـروحـي ذاك الـنّـظـام الـذي رقّ فـمـا شـان حـسـنَـه الـتَّـعـقـيـدُ
هـزّ عـطـفـي إلـى ريـاض سـنـاعِ بـسَـمَـاع أبـداه هـذا الـنَّـشِـيـدُ
لا تـزدنـي شـوقـاً إلـيـهـا فَـشَـوْقـي أبـد الـدهـر مـا عـلـيـه مَـزِيـدُ
حَـبَّـذا الـطَّـيـر إذ تـغـنـى بـروضٍ فـلـه فـي بـديـعِـه تـرديـدُ
قـد غَـدَا فـوق نـهـره حـيـن يـجـري بـشـبـاك الـنـسـيـم وهـو مـصـيـدُ
زَهَـرٌ نـاعـمٌ وروح نَـضِـيـرٌ مـال زهـواً وطـائـرٌ غِـرّيـدُ
دار فـيـه خـمـرٌ مـن الـنَّـهـر فـالـغـصـن (م) مـن الـسُّـكـر ثـامـل عِـزْبـيـدُ
فـسـقـاه الـحـيـا وزار مـقـامـاً لـك يـا مـن لـعـطـفـه تـوكـيـدُ
دمـت مـا نَـظَّـم الـغـمـام مـن الـقـطـر (م) عـقـوداً لـنـظـمـهـا تـبـديـدُ

سلام عليك ألطف من طبعك، وإكرام أنضر من رَبْعِك، وصلني ذلك النَّظم، فأوهن مني العظم، إذ صوّر لي نظم شملٍ بَدَّده الزَّمن، ونفيس أنسٍ ماله على وجه البسيطة أبداً ثمن، وذكّرني ما لم أنسِه، وأراني في مِرآتِه من أيام الاجتماع رقِيق إنْسِه، فرويدك بالمهج فقد أذبتها، وصدقها حديث الشوق وما كذبتها، بعثتَ من اللاّعج دفينا، وأركبت محبك في بحر الحسرات سفينا، فتاهت به في أمواج كالجبال، وقذفت به إلى لجة العَطَبُ والوبال، حَرَّكت همتي إلى تلك الملاعِب،

وإلى من بها كل مماجنٍ ومُداعب، من أخلاّءهم النسيم لطفاً، والرياض جناءً وقطفاً، فكل نديم هو النديم، وكل جليس منهم حديث فضله هو القديم، قد زفّ غادة الأدب وعَرَّس، لما نَزَل بها في أودية الدَّفاتِر وعَرّس، ممن سهمه غير عاصف[1]، ورعد كلماته في سحب الأوراق قاصف، فلهفي من فراقك وفراقهم، وواحسرتي من فوات وَفاقك ووفاقِهِم، وأما سنا «سناع»، فما ألهاني عن تذكّره بدر المحَيَّا الطَّالع في سماء القناع، نسيني الله إن نسيتُ حدائقه، ولم أقطف من دمع عيني ورده وشقائقه، ولم أذكر سفحه، واستنشق من أذيال النّسيم نفحه، وأتأسف على دنانير أزهاره، وأريق عبرتي أغزر من متدفقات أنهاره، من كل نهرٍ ينصب من الخجل لديه سيحون وجيحون، ويكاد يسير في بركتِهِ لسعة ساحتها الفُلْكُ المشحون، يهيم بالغصون، ويمثّل بقلبه جمالها المصون، فإذا أمعن النَّسيم في عتابه، جَعَّد وجهه غضباً مما أتى به، يسقى قطعاً متجاورة ويدير على معاصم الأشجار أساوره، بل يُخَلْخِل سيقانها بفضةٍ منه طلاها الأصيل بالذهب، فتبدوا تلك الخلاخِل بعد تذهيبها في صفرة اللَّهب، يَشُقّ صرح الجامع، ويتكسر بدويه فيصم سمع السَّامع، طالما أقمنا على بَركتِهِ وَرِدف مائها يرتَجّ، وبحرها العذب العميق بالهيجان قد الْتَجّ، ولوحها الصَّقيل، يجري على صفحتِهِ النَّسيم كما قيل:

أقمتُ بالبِرْكَةِ الغَرَّاء مُذْهَقَةً ... والماء مجتمعٌ فيها ومسفوحُ
إذا النسيم جرى في مائها اضطربت ... كأنما جَزْيُه في جسمها رُوْحُ

فليت شعري والدَّهر مولوع بالتعكيس، هل لي طريق إلى الاجتماع فيذهب الإنكيس[2]، أعود إلى تلك الغياض، وأرِد الماء الشَّبَم من الحياض، وأنزِل بفناءِ المرغوب إليه من الرياض، وقد شاب بأبيض الطل سالفها الأنضر، من قبل أن يدب فِيْه من النبات عذارُه الأخضر، وحُفّ بسلاح الشوك متنوع أزهارها، وصاحت بمن أراد جناه من الدوح رقباء أطْيارها، وقد أتحفنا المشمش بأكَر الذهب، وأطفى

(١) سهم عاصف: مائل عن الغرض.
(٢) الأنكيس: الداهية أو النحس.

من الجوانح بمائه الحلو مُتَأجج اللّهب، هذا وقد آن لي أن أحبس القَلَم، واحجم عن وصف الشوق وإن مَسَّنِي الألم، فَفِي الشكوي للمكلوم ترويح، ولو كان بِأخْفَى كِنَايَةٍ وتلويح، ومن الله نلتمس العود، ونطلب لمطايا التلاقي أحث الذَّود[1]، ونسأله أن يحرسك من كل طارق، ويُدَاوي بلقياك مرض محبك المفارق، ما سرت النَّسيم إليك، وحملت ما تَصعَّد من أنفاسِه عليك، فعاد البارد منها حميماً، وأحرق في جنات الرياض نبتاً عميماً، وما أسدل الليل من ظلامِه خِمَاراً، وأطلع من الكاسات والسقاة نجوماً وأقماراً، وابتسم ثغر الصباح، لما غازل النعاس عيون الأنجم الوقاح، والسلام.

وكتبت أنا إليه منثوراً لَمّا رأيته قد لهج باقتطاف زهرةٍ من زنبق كان في مجلس أنسنا واعرض عن وردةٍ، وهو ما لفظُه:

ما بالك أيها النَّديم الذي طاب ذكره عرفًا، وحلا مورد محاوَرَته مساجَلَتِهِ غَرْفاً، جنحت إلى زهرة الزّنبق، وتركت الوردة وعرفها الأعبق، تخصون بها من الندما من يُعَد في اللُّطف مثلكم، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[2]، وعندي أن الوردة أطيب عرفًا، وتوسّطها دينار ذهبٍ لا أرضى له صرفًا، وإن جنت شوكتها على الجاني، وقال مقتطفها لمّا أدمت أنامله: أيُّ شيء ألجاني، وسائر الزهور تُجْنى بلا جناية، ولا حاجة إلى التصريح إن أغنت الكناية، فأنا أقول: لا بد دون الشّهد من إبر النحل ووخزها، ولا بد دون الشّفوف من كلم أبر خياطتها وطرزها، فاجنح إلى الورد وحمرته، وحقق أن شوكته قوية في أمرتِه، فهو سلطان الزهور بلا مرا، فلا يكن وهمك له في عدم رفعتِه مخامرا، ما هو إلاّ أسدٌ مدّ من الشوك مخالِبَه، ورفع ألويته الحُمْر فإذا هي لسائر الأزهار غالبه، ما مثله أبداً يطيب في العصر، وناهيك بأنه يشبه الخد من خريدة القصر، فالتزم مذهبي في تقديمه، ولا تجنح إل قول فقيد الرأي وعديمه، طابت خلالك طيب ماء الورد، ولا زال خطابك في حسنه هو الجوهر الفرد، والسلام.

---

(١) الذود: الإبل لا يتجاوز عددها الثلاثين ولا يقل عن ثلاث والذود هنا سوق الجمال.

(٢) الآية: ٧ سورة الأنفال ولا يخفى التورية هنا وهوان الورد له شوك وبخلافة الزنبق.

وكتبت إليه أيضاً وقد رأيته يخالل بعض من لا تليق مخاللته من البخلاء اللؤما ما لفظُه:

اعلم أيها المرفوع قدراً، المتبلّج في سماء المعالي شمساً وبدراً، أن المُحب غيران، وأن للصديق تأميماً يهتدي به الحيران، وقد أخذتني عليك غيرة أوجبت الزَّجر، وجئتك لما رأيتُك ماشياً في الظلماء بنور الفجر، فإن كنت على يقين من المودّة، فاعرِض لنائم الدهر منك المَخدَّة، ولا تغتر بالعَدُوّ وإن لمعت ثنيته، ولا تستبطء مصرع الغافل وإن تأخّرت منيته، واختر لِصحْبَتِك من يُرْتَضَى، ومصباح اللؤم مظلم وإن أضاء، وكلبٌ طائفٌ خير من أسد رابض، وكريم باسط كفَّيه خير من بخيلٍ قابِض، فَإيَّاك والتزام باب البخيل، فإنك لا تقع على حلو الرَّطب منه وإن أعجبك طول النَّخيل، فلست تَرَى في كرَمِ انعِمَا له، حتَّى يُقَال لِنَادِبه ابْك عليه وانْعِ مَالَه، فَلاَ تَمِل إلَيْه طرفة عين، ولا تطمع بِشَيْءٍ في يَدِه ولو كان من خالص عين، لا تعتمد على المرفوض فَتُرفض، وإياك وجِوَار المخفوض فإنك به تُخْفَض، وفي المُزَمَّل[1] والمكبَّل والمِعصَم، قنوع لمن استمسك بذيلِ التأمل واستعصم، فلا يَقْرَبُ الحرّ إلاّ من كانت سِمَتُه سِمَته، فقد قال عمر رضي الله عنه: ولينكح الرجل لُمَته[2]، فاسمع النصيحة فإني قد محضتها، واقتف سبيلي في ترك سجايا اللُّؤَمَا فَإني قد رفضتُها، وخَلِّ مُنَادمة فلان فإنها هفوة، واعرض عن مواصلتِه فإنها أعظم جفوه، وأنا أعلم أن لك نفساً شريفة عَالِيَة، مُحِبَّةً للمعالي وأما للمناقص فقالِيَة، وقد قال أرسطاطاليس، من جملة كلامه النفيس: النفس الوضيعة لا تجد ألم الهوان والملام، والنفس الشريفة يوثر فيهَا أيسر الكلام، هذه نصيحتي فيما جرى، واختر لنفسك مِن الأمرين ما ترى، وقد نهيتك عن شربة بالوشل، فلا تتناول طرسي هذا بكَفّ الأشل، وَتَتَلقَّى ما ألقيتُه عليك بروعة الفَشَل، وها أنا أقول لك قول محبَّة، خير الأمور أحمدها مغبّة، والسلام.

---

(١) سيشرح المؤلف هذه اللفظة فيما بعد.

(٢) قال في النهاية ٤/ ٢٧٤: إن شابة زوّجت شيخاً فقتلته فقال عمر: أيها الناس لينكح الرجل لمته ولتنكح المرأة لمتها من الرجال، أي شكله وتربه وسيعود المؤلف إلى شرح هذه اللفظة.

قولي: وفي المُزمّل والمُكَبَّل والمِغْصَم فنوع إلى آخر الفقرة الثانية، المعنى على أن من جاور المخفوض خُفِض وإن كان مرفوعاً وإن مجاورة الناقص لها أثرٌ في حط القدر، كما أن مُزَمَّلاً لما جاور البجاد في قول امرىء القيس[1]:

كـان ثـبـيـراً فـي عـرانـيـن وَبْـلِـه كـبـيـرُ أنـاسٍ فـي بِـجَـادٍ مُـزَمَّـلِ

جُرّ بِجَرّه وإلاّ فحقّه أن يرفع لأنه صفة لكبير المرفوع، وإلى هذا أشار بعض الظرفاء فقال:

إذا مـا الـلـيـالـي جـاورتـك بـنـاقـص وقـدرُك مَـرْفـوعٌ فَـعَـنْـه تَـحَـوَّل

ألـم تـر مـا لاقـاه فـي جـنـب جـارِهِ «كَـبِـيـرُ أنَـاسٍ فـي بِـجَـادٍ مُـزَمَّـل»

وكما أن مكَبَّلا لما جاور الحديد فيقول امرىء القيس أيضاً:

وإنـك قـسـمـت الـفـؤاد فَـنِـصـفُـه قـتـيـلٌ ونـصـفٌ فـي حـديـدٍ مُـكَـبَّـلِ

مجرور جُرّ بِجَرّه وإلاّ فحقُّه يرفع لأنه خبرٌ عن قوله ونصفٌ الذي هو مبتدأ ثاني معطوف على المبتدأ الأول، وهو قوله فَنِصْفُه، وكما أن المعصم لما جاور الرأس في قول الشاعر:

فـتـركـتـه جـزر الـسـبـاع يَـنُـشْـنُـه يـأكـلـن قُـلَّـة رأسـهِ والـمِـعْـصَـمِ

جُرّ بِجَرّه وإلا فحقّه النصب، لأنه معطوف على قوله قُلَّة الذي هو منصوب على المفعولية فافهم المقصود.

قولي: فقد قال عمر إلى آخره، هذا هو قوله رضي الله عنه، **واللُمَّة** بضم اللام المشددة وفتح الميم المُخَفَّفَة بَعدها هاءٌ هي في اللغة: الجماعة من الثلاثة إلى العشرة، وتربَ الرَّجُل وشكله، فالمعنى أنّ الرجل لا ينكح إلاّ من أترابه وشكله.

قول أرسطاطاليس: النَّفس الوضيعة لا تجد ألم الهوان والملام نظمه المتنبي فقال:

مـن يـهـن يَـسْـهُـل الـهـوانُ عـلـيـه مـا لـجـرحٍ بـمـيّـتٍ إيـلامُ

---

(١) ديوانه ٦٢ ط دار صادر.

السيد علي بن صلاح الديلمي[1] الوزير

أشهر من العَلَم، فارس القرطاس والقلم، له في الفضل حديث ونبأ، وصارم كلم ما كَلّ حَدّه ونبأ، تحلّى بسوارِه من الدَّهر مِعْصَمُه، وأوى الزَّمان من طوفان الجهل إلى جَبَل من مَعَارِفِه يَعْصِمُه، هَمَل من الأدب وابله، وَثُقِفَت من الأقلام ذوابله، وكان لبعض الملوك وَزِيراً، وَلِغَادة الإمارة حبيباً وزيراً[2]، تنفث أقلامُه من الأوامر بما يُطاع، وتُنتج في دواوين الإنشاءِ ما لا يُستاطع، ثُمّ بعد ذلك جَنَح عنه السّعْد ومال، وعامله الدَّهر بما عامل به من قبله أهل الكمال، فَجَنى عليه أدَبُه، وما تَغَيَّر بتغيّر حَظّه حَسَبُه، فَإنّي رأيته أوسع من الأفق صَدْراً، ومع ذلك فما خفض له الزمان قدراً، فإن الصبر على المُصيبة، بالشامت مُصيبة، والتجلّد لخطب العَدُوّ خطبٌ وفّر له نَصِيبه، فلم يَكُن في الفرج مُرْتاباً، ولم يَكُن مُعْرضاً عن الصَّبْر مع أن النفوس له فَهْوَ مُرٌّ تَابَى، أوَى إلى حصن كوكبان مستجيراً، وما برح للمعالي به جليساً وسجيراً[3]، فَأكْرَمَهُ أمِيْرُه، وما برح يُمَيِّزُه، وسَكَّن روعه وطيشَه، وأرْغَدَ في أكناف البُلْهَنية[4]، عيشَه، وله أخلاق غير أخلاق[5]، وسَمْتٌ بها حسن وبه لاق، لو شربت من مَائِها ورود الأوجان، لما برحت ناعِمَةً وكل مقتطف لها جان، أحْلَى من الجَنَى، وألَذّ مِن نَيْل المُنَى، وشمائل أسرى من الطَّيف، كمل بها أدَبُه وتمام الرّبيع الصَّيْف، اجتمعت به في كوكبان مِرَاراً، فرأيتُ بدر كمالِه لا يخشى سرارًا، ودارت بين وبينه من المُنَاقلة كؤوس، بخمرتها الحلال تَنْشط الأعضاء وَتُسَر النفوس، أطرب مِن وسْوَاس الحلي المُنَضَّد، وأرق وألطف من سجع الحمام المُرَدَّد، فألفاظه وهو منكوب، كالراح المُفْرَغَة مِن كُوب، أسكرني بكأسها، ونَعشني بأنفاسها، وفتح لي حديقَتَه ما بين وردها وآسها، فأعجزني عن سَبَاقِه، وَعَيِيْتُ في لَحَاقِه، فليس لي كَمَاله عند من يعرفُ كَمَالَه.

---

(١) ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ٢/ ٤ط٢ نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) الزير: الرجل الذي يحب النساء لغير شر.

(٣) السجير: الصديق الصفي.

(٤) بلهنية: رخاء العيش.

(٥) اخلق الثوب: صار بالياً.

وقد أملاني من نَظْمِه، ما يُضَاحِك الزَّهر في كَمِّه، مِمَّا فاق في طُولِه وَطَوْلِهِ، إلاَّ أنه لم يحضرني الآن منه شيءٌ سوى قوله[1]:

وحالٌ لو طلبتَ لها شَبِيهاً ... لَعَزّ عليك وجدان الشبيهِ
نوًى ذهبت بأيام التصابي ... وأبْقت مهجةً جبلت عَلَيْهِ
وقد ذابت أسًى ورقت زفيراً ... وسالت أدمُعاً من مُقْلَتَيْهِ
وثم بَقِيَّةٌ لو لم تُعِدْهَا ... بِقُرْبِك لم تُقِم حيناً لَدَيْهِ

وقوله وهو مما كتبه إلى صديق له وقد أضاع بمنزله قلماً له:

أضعتُ لديكمُ قلماً وإنّي ... لأحرص ما يكون على الوِدَادِ
فَمُرهم يبعثون به سريعاً ... مخافة أن أهيمَ بكل وادِي

قلتُ: الهيام بكل واد هنا ليس فيه نكتة لطيفة يهيم بها الشاعر في كل واد، والذين يهيمون بكل وادٍ هم الشعراء كما حكى الله عز وجل ذلك في كتابِه العزيز فليته قال:

وها أنا شاعرٌ فابعث يراعي ... مخافة أن أهيم بكل وادي

الفقيه الحسين بن علي الوادي الصنعاني[2]

شاعرٌ هام من الفصاحة في كل واد، وفصيح سبق في ميدان المُنَاظرة منه الجواد، مُفْلِقٌ بكلم وقال، واستظل تحت دوح البلاغة وقال[3]، فتساقط عليه منها حلو الثمر، وطاب له النّزول بظلالها فاستمر، زهرة العقول وريحانة الألباب، وفاكهة الخلطاء وتحفة الأحباب، سَبَحَ في بَحْر العروض سبح النون، فأدرك العنبر الأشهب واللؤلؤ المكنون، خيّمت أبكار المعاني في ناديه، وعرّست عرائس البديع

---

(١) نشر العرف ٢/ ٢٤٥.

(٢) أديب كبير فاق أهل عصره في نظم الشعر، مع لطف الطبع والإحسان. توفي سنة ١٠٧٦ بالجبى من بلاد اليمن، انظر ترجمته في خلاصة الأثر ٩٩١٢ ونفحة الريحانة ٣/ ٥٢٤ وحديقة الأفراح ١٠٠.

(٣) قال: الأول من القول والثاني من القيلولة (معروف).

بِوَاديه، واستوطنت أمصاره المعمورة ونَوَاديه، روضٌ نَشَر حُلّة النبات المسجَّفة[1] بالنهر، المزرورة على قدود الأغصان بأزرّه الزّهر، وأديبٌ طال في ليل شَبَابُه سُهَادُه، وبليغ هَطَل عل ساحات البراعة عهادُه، حتى سالت تِلاَعُه[2] بما راق، فظهرت أطايب ثمَرَه بين الأوراق، اشتملت دُوِيُّه من الكلام على غُرَر، كما اشتملت الأصداف المنطبقة على الدُرر، ذو زَنْدٍ يوري بلا قَدْح، وفضل ظاهر لا يفتقر إلى مَدح، وبُلْبُل مُغرد يَسْلب اللُّبَّ بِمَاله مِنَ الصَّدْح، طَبْعُه أرقّ من خَدّ الورد، وألطف مِن ثغر الأقاح، تبسّم من شَنَب القَطر عَنِ الجوهَرِ الفَرْد، لو مازج الأرداف الكثيفة، لَخَفَّ أمره على الخصور الضعيفَة، وكان ذا بَدَنٍ وافِر، تضيْق عنه الأرداف والمغافر، وُصِف عن بعض الملوك، المُحْسِنين في طريق الأمر السلوك، أنه لما نظر إلى ذاته العظيمة، قال له: أمِن هذه الذات تخرج اللآلي النظيمة، فقال: المرء بأصغريه قلبِه ولسانِه، والإنسان بمفخريه بيانِه وبنانِه، ولم يزل للعصر جمالاً، ولم يبرح قطر أدبه ينهمل انهمالاً، حتى استبدل البُعْد بالقُرْب، وقالت له المَنِية: لفيك الحصَى والترب، فَحَصَل موتُه وَحَدث، وجُرّ بخيطي اللَّيل والنهار إلى منزل لحدٍ وَجَدث، فَنَزَله على إيحاشه، واضطجع من التُّراب على فراشه، وغاب إنسانُه، وتَقَطّعت أرسانُه، وحواه الضريح، وخَفِي من فَضْلِه الصَّريح، وصمت من طيرِه شَادِيه، وملأ الحمام بالحجارة والتراب واديه، ألبسه الله تعالى مِن رحْمَتِه أبهَى جَرْد[3]، وسقى لحده ما جمشت[4] يد النسيم خَدَّ الورد، وشعره لا تدرِك ترصيفه العقود، نفثاته لا تنال نَشْوتها ابنة العنقود، ما حسرت أقلامُه مِنَ المِدَاد أسود اللثام، إلاّ ضحكت عن ثنايا من لآلى الأشعار في غاية النِّظام، فمِن سيول واديه، التي ضاق بها من السفح ناديه، قوله:

ريـمٌ أراد الله سـبـحـانَـه ... يُـفْـرِد فـي الـعـالـم إنـسـانَـهُ
فـصـاغَـه مـعـنـى مـن الـسـحـر خَلْـقـيـاً ... ومـا خَـصَّـص أجـفـانَـهُ

(١) من السجاف: وهو ما يركب على حواشي الستر ونحوه.
(٢) تلاع: جمع تلعة: ما سفل من الأرض.
(٣) الجرد: الثوب.
(٤) جمشه: قرصه ولاعبه.

أفديه معسول اللّما أشنَبا ... مهفهف المعطف رَيَّانَهُ
أبلج أقنى الأنف حلو السجا ... يا فاتر الناظر نعسانَهُ
منعطفٌ لولا الرّقيب الذي ... أثّر بالتَّعليم طُغيانَه
يا عاذِل الصَّبّ على حُبِّهِ ... رفقاً فقد حركت أشجانَه
حاولت بالعذل سلو مُغرَم ... أرخصتِ الأهواء أثمانَه
وحقّ من يعلم في حُبِّه ... إيمان من يعلم إيمانَه
ما عرفت نفسي له سلوةً ... هَيْهَات تعرف سلوانَه
لو لم يكن جفني له ساهراً ... والجسم مُضنى القلب ولهانَهُ
ومُقْتلي تَهْمي على وجنتي ... بدفْعَةٍ تشبه أوجانَهُ
ما انتشط الجفن إلى قتلتي ... وهواذاً يُخْسَب كسلانَهُ
ولا نظمت الدُّر في وَصْفِه ... ومدمعي ينثر مَرْجَانَهُ
ولا صغا يوماً إلى حاسدٍ ... كَثَّر يَا الله بُهْتَانَهُ
ناديتُه لمَّا مَضَى مُغْضَباً ... يسحَبُ بالتِّيهة أردانَهُ
يا قمراً أنزلتُه في الهوى ... من أسود الناظر إنْسَانَهُ
ويا قَضِيباً فاق غصن النّقَا ... وَعَلّم اللفتة غِزلانَهُ
رفْقاً فقد جاوز سيل الهوى ... زُباه من قلبي وأوطانَهُ
مالي وهذا الرَّبْرب المنتقَى ... يا خَرَبي طاوع شيطانَهُ
أما هداه الله يرثي لِمَا ... ألقَى فيُوْلِيْني إحسانَه
إن يكن الموجب هجرانَه ... حبي الذي ما اسطعت كتمانَه
فما الذي يَضْنع يا إخوتي ... من أودع الأسرار أجفانَه

قوله: فصاغه معنى البيت هو من قول ابن سنا الملك مأخوذ المعنى(١):

ما طرفها(٢) سهم وقلبي مقتلٌ ... بل كلها سهمٌ وكلي مقتَلُ

---

(١) ديوانه ٤٣٢ ط مصر.

(٢) الديوان: لحظه.

وقال آخر[1]:

ترمي وكلي مقتلٌ　　وكلها سهم مصيب

وقال مولانا الوالد رضي الله عنه:

والسّحر لم يختص طرفك إنما　　صُوِّرت منه فمن ترى عُوَّاذه

وقال ابن الحاجب أبي الهجّام كما وقفت عليه في خريدة القصر:

إن أوحش العين حسن بهجته　　وبان فالقلب منه مأهول

وكيف لي أن أخص جارحةً　　كلي بذاك الغرير مشغول

وقال آخر:

وما فؤادي مشتاقاً بمفرده　　بل كل عضوٍ إلى لقياك مشتاقُ

وقال مؤيد الدين الطغراي رحمه الله تعالى:

بالله ما قلبي بمنفردٍ　　بالحبّ كل جوارحي قلب

وهذا النظم جميعه ضد قول ابن الرومي:

عيني لعينك حين تنظر مقتلٌ　　لكن لحظك سهم حتف مرسلٌ

ومن العجائب أن عِضواً واحداً　　هو منك سهم وهو مني مقتَلٌ

واعلم أن للشيخ الفاضل القاضي صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى اعتراضاً جيّداً على نظم ابن الرومي هذا بَيَّنه في كتابه المسمى «غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم»[2] ولطوله لم أذكره هنا.

ولصاحب التَّرجمة رحمه الله تعالى يمدح:

صاح قد جاوز الغرام نِصَابه　　فدع اللوم أو أموت صبابه

إنما يحسن الملام لصبٍّ　　بعد تجوير عاذليه انقلابه

في سقيم الجفون والخصر مملو　　ح السجايا شهمٍ كثير الدعابة

لاح للعين وجهه في جعيدٍ　　وبودّي لو حل عنه نقابَه

---

(١) الغيث المسجم ٢: ٢٤ منسوبا لابن سهل المغربي وانظر ديوان ابن سهل: ٢٩٢ ط دار صادر.

(٢) انظر الغيث المسجم ٢/ ٢٣.

وأراني من النهار جبيناً ومن الليل طُرَّةً وذؤابَه
وهبتني جفونه رقة الجسم ورَقراق الدمعة السكّابة
وسبتني قلبي المشوق وروحي والنُّهى الوهَّابة النهابه
وتحلَّت بالاسوداد ولا يُنكر حالي إذا حكتها كآبَة
وصفها بالسقام غير عجيبٍ صادفت في عُيونه أسبابه
مثلما صادفت أكف جمال الدين (م) بحراً منه ففاضت سحابة
الحميد المجيد من لوبغى منز ل كيوان موطناً لأصابه
ملكٌ ترتجى الملوك عطاياه كما أنها تخاف عِقابَه
لا تحاكى البحور إلاّ يديه ويضاهي الجمان إلاّ خطابَه
بين شمس الضحى وطلعته مَا بين كفيه والحيا من قرابَه
سيّدٌ ذكر فضلِه قرباتٌ فاضلات لدى الاله مُثابَه
إن تلوت اسمه على الفَقْر أقصاه وأخلى محلَّه وأطابَه
وإذا ما بلوته لسَقيمٍ كان في بُرئه سريع الإجابة
سرّح الفكر في رياض معانيه ووَفّ المديح فيه حِسَابَه
وضع اللفظ من نُضَارٍ على رأ س معاليه قبلَةً وعصابَه
وابن بيت الثنا فيه على الضمَّـ ـة وافتح لجبر كسرك بابه
ضيغم يبتدى الأمور براي تستعير النجوم منه الإصابَه
وَبباسٍ استغفر الله لو مَرّ بقلبٍ من الحديد أذابَه
ليس عيبٌ فيه سوى أنه في (م) ما خلا الوحي بالنبي يُشَابَه
إن ترد يصدق المقال فقل فيه (م) وإن شئت المجد فاقصد جَنَابه
كم له من قَضِيَّةٍ تدع الناس (م) سكارى مَحَبَّةً وَمَهَابَة
إن أشَبِّهْهُ بالبحور نوالاً وبشمس الضحى سناً ونجابَه
وِببَدْر السما جمالاً وبالأنجم (م) رأياً وبالأسود غِلابَه
لامني فضلُه وَعدّني الناس (م) بِزَعمي في الفِرقَةِ الكذّابة

عدّ عن حلم أحنفٍ وندى الطا ... ئي ومن فيهما أطال كذابَه
واطّرح قول من يرى قُدْم عمر ... واجعل الصمت من هوان جوابه
واعد ما يُقال من مدحهم فِيه ... تجده والله يهديك دابَه
يا جمال الهُدَى إليك مقالاً ... يَحْقُر الدُّر أن ينوب مَنَابَه
فَضْلُه في القريض فضلك في النا ... س فمن شاء أن ينوب مَنَابَه
فَضْلُه في القريض فضلك في النا ... س فمن شاء أن يعيبك عابَه
كان بين العصرين والفجر نسيبا (م) ومدحا كما تَرَى وكتابَه
لا أريد الجزاء عليه ولا أرضى (م) بغير الدُّعاء علَيْهِ إثابة
فتفضّل عليّ واقبله مني ... مغضياً مُرسلاً عليه حجابه
وابق واسلم على الليالي لودي ... فيك صدق وللدعاء إجابة

وله رحمه الله تعالى وسقى ثراه:

في شَجْو عيني إنباءٌ على شَجَني ... وحال ذي الحُبّ لا يخفى على الفَطِنِ
فإن نكرت غرامي فيك متّهماً ... سوى هواك فَخُذ في البحث وامتحن
استخبر القلب ينبيك الخفوق به ... فربّما وشت الأوطان بالسَّكَنِ
واستغن بالشّاهد الذاتي ضناي إذا ... لم تغن من أدمعي بالعارض الهَتِنِ
أمَا ترى كَبِدي السودا تفرغ من ... حَمْراء عيني في الصُّفراء من وِجَنِي
ونار شوقي لا ينفكّ لاعجها ... يُذْكي بلَفْحة ذِكرى سالف الزَّمَنِ
أيام كنت وصرف الدهر ممتنع ... عَنّي ومقلته الخَوْصاءُ[1] لَمْ تَرَنِي
وللسعادة حثّ في قَضَى وطري ... لا يستزاد ولبثٌ في فَضَا وَطَنِي
أخلَقْتُ جُبَّة جسمي في هواك أسى ... وَمَا مُنِحْتُ بها شيئاً سوى المِحَنِ
وصُنْت حُسْنك صون الجَفْن ناظِرَهُ ... ولم أقُل عَبِث التَّبْريح بي فَصُنِ
وأنت من فزعات الوهم في حَرَم ... خِلْوٌ ومن فزعات الهَمّ في جُنَنِ
وما بِطَرْفك من غُنْجٍ ومن كَحَلٍ ... للناظرين ومن سحرٍ ومن وَسَنِ

---

(١) خوصا وخيصا: كانت إحدى عينيه كبيرة والأخرى صغيره.

وما بوصلك للملحوظ من فرحٍ   وما بقَطْعك للمَدْحوض من حَزَنِ
لو لم يكن أصل ذاتي فرع معرفتي   إيَّاك فالحسن والإحسان في قَرَنِ
لَسَاءني[1] بك قول الغير من أسفٍ   يا ليت معرفتي إياك لم تَكُنِ

وله:

وَبَدْرُ تَمٌ كأنّ الله صَوَّرَه   مِنْ حُسْنِه مَلَكاً في زيّ يعفُوْرِ
دَبّ العِذَار على مبيضّ سالِفَه   كلام فيروزجٍ في صحن كافورِ

قلت: لو قال في لوح كافور لكان أنسب بالعذار الذي دَبّ كاللاَّم المكتوبة من الفيروزج، إذا اللوح أليق بما صار كاللاَّم التي هي أحد الحروف التي طالما كتبت في اللَّوح، ففي ذلك من المناسبة ما لا كتبه في الصحن كما لا يخفى.

وله رحمه الله تعالى:

ومليحٌ كان ناظره السا   حر أولاه صنعة الملكينِ[2]
قال لما أبديت في وَجْنتيه   صفةً للمريخ بالمقلتينِ
ما توَهَمت من مقارنة المُريخ   في وَجْنتي لبدر جبيني
قلت لا والذي أبان لعيني   بمحيَّاك صورة النَّيّرين[3]
لست أخشى نحساً لمرّيخ[4] خدٍّ   قد بدا لي من عقرب الصّدغين
وبها المشتري أكبر سعد   لاح من قوس حاجبيك لعيني

أقول: العقرب برج المريخ، والقوس برج المشتري، ولذا حسن البيتان الأخيران كما ترى.

وله وهو مما كتبه في صدر كتاب إلى بعض الأخلاء الأجلاء وقد قصد التورية رحمه الله تعالى.

يا طرس إن وافيت حضرتَه   وقضيت منه لُبَانَة النَّفْسِ

---

(١) لسنه: أحذوه بقول السوء.
(٢) الملكان: هاروت وماروت.
(٣) النيران: الشمس والقمر.
(٤) اشارة إلى ما عرف عند الفلكيين والمنجمين من نحس المريخ.

وظفرت منه بالقبول ومن أخلاقه بمنائح الأُنُسِ
وعرفت عَرْف العُرف يعبق من أرجاء أنمل كَفُّه الخَمْسِ
فأعِد عَلَيْهِ تَحِيَّتِي وَقلِ الـ مأمول فيك فَرُبَّما أنسي

ومن بديع بديهته المُعْجَبة، ونتائج فكرته المُنْجِبَة، ما اتفق له من التورية المستكملة في ابتداء بيت نظمه في الحال، وجَاء فيه بمعنى غَرِيب وقد صحب بعض الملوك الذين له برِيَاشِهم[1] إنحال، وما حالت حالهم في الندى بتغيّر الزَّمن الذي ما كانَ منه إلا أن حال، وهو ملكٌ يُسَمَّى أحمد[2]، كأنه اليَمّ المتلاطم في المَدّ، فطلع الملك المذكور وهو من جملة من صحبه، إلى جَبَلٍ تتمسك أكنافه بأذيال السّحب المنسحبة، فقال هذا الأديب بديهاً، مما جَنَى به على حَاسِدِه جنايةً لا يُقَاد بها ولا يَدِيها[3]:

أحمدُ من أوصلني هذا المَحَلّ واطلع الوادي إلى رأس الجَبَل

الفقيه الهادي بن شطير[4]

أبو شطر الفصاحة وهو ابن شطير، له روض بلاغةٍ يُغرِّد على أفنانه أفصح طير، قَعَدَ من الفخار على رَبْوة، وتَقلّد من ذكائه سيفاً ليس له نبوة، وركب من عزمه جواداً سابقاً ماله كَبْوة، واجتهد في طلب فضلٍ له شَهِد، فقُلْد بلآليه ولا بدع إذَا قُلِّد المُجْتَهد، ذو سَجَايا واضحة، أنوارها لأنوار الشَّمس فاضحة، يَبْيَضّ منها أديم النهار، ويَصْفَرّ من فرط السرور بها لون البُهَار[5]، أديبٌ خلب سحر كلامه وسلب ببديع تَرْصيفه ونظامه، طالما تناول مُدَام الأدب وَسَفَّه، وانتقص عقول من لا يلتفت إليها وَسَفَّه، تتبرج بنات فِكْرَته، من ديوان الأدب على أسِرَّته، فَهُن

(١) الرياش: هو ما كان فاخراً من اللباس والمعاش.
(٢) لعله يعني الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم حكمه من سنة ١٠٨٧ إلى سنة ١٠٩٢.
(٣) يديها: من الدية معروف ما يعطى لأهل القتيل، وكذا القود هو استيفاء الحد، قلت: مثل هذه الألفاظ لا نشرحها هنا لأنها معروفة لمن له أدنى مسكه باللغة والعلم فيفهم.
(٤) ترجمته في نشر العرف ٢/ ٧٧٥ نقلاً عن كتابنا هذا.
(٥) البهار: تكرر ذكره مرات وهو نبت طيب الرائحة أصفر.

قاصِرَاتُ الطَّرف أتراب، حُلِيُّها المعاني البديعة وَحُلَلُها الإعراب، هُنَّ أجلى من البدر إذا سفر، وأحلى في المذاق من ثمرات الظَّفر، إذا فَتَق غُصْنُ قَلَمِه أنواره، كان ذلك الوقت أصدق الأزمان لوقوع العبارة، وله ملابس أخلاقٍ جديدة، ومباسم بِشْرٍ ثُغُورها نَضِيدة، يترجم عنها الروض بلسان الشَّميم، ويبين عن لطافتها بعبارة النَّسِيم، وشعره من خير المنظوم، يصلح أن يكون قلائد لذات كشحٍ مهضوم، وهو قليل نفيس، يَغْبِنُه من كان له بالدُّرِّ يُقِيس، ترقص له القُدُود، وتكلل بطلّه الخُدُود، تَوَدّ عيون النجوم في آفاقِها، بأنها عند سَمَاعِهِ آذَانٌ لتهالكها عليه وإشفاقها، وقد أثبتُ له قَصِيدة من بحر الخَبَبْ، ومنظومة يضحك لها الكأس بثَغْر الحبب، مدح بها من سال عليه من نداه نوله، وخَلّد بأبياتها على صفحات الدَّهر ذكره وهي قوله[1]:

مــالــي ولِــورقــاء الــعَــذَبِ ... تــشــدُو فــأمــيــل مــن الــطَّــربِ
مــا زالــت تــذكــرنــي إلْــفــاً ... ألِــف الــهــجــران بــلا سَــبَــبِ
لــهــفــي لــزمــانٍ فُــزتُ بــه ... فــي مــرتــع جــدّي والــلــعــبِ
ولِــكَــوْكَــب إقــبــالــي حــثّ ... فــي الــســيــر بــآفــاق الأدب
وأغَــنّ بــقــامــتــه يُــغْــنــى ... عــن حــمــل مــثــقــفــة الــقُــضُــب
إن قــام ســريــعــاً أقــعــده ... ردفٌ قــد أزرى بــالــكــثــب
قــالــت لــلــغــصــن مــعــاطــفــه ... أســجــد لــقــوامــي واقــتــرب
فــي طُــرَّتِــه ومُــحَــيَّــاهُ ... لــيــلٌ ونــهــارٌ لــم يــغــب
وروايــة خــدَّيــه صَــحَّــت ... بــالإســنــادات عــن الــذَّهَــبِ
وكــأنّ الــرِّيــق بــمــبــسَــمِــه ... راحٌ لَــبِــسَــت تــاج الــحــبَــبِ
يــفــنــى الــعــشــاق ويُــحْــيــيــهــم ... بــرُنــاه وتــريــاق الــضَّــرَبِ
قــل لــلــعــذال إذا عَــذَلــوا ... بــأبــي فــي عــشــقَــتِــه بــأبــي

---

(١) أوردها زبارة في نشر العرف ٢/ ٧٧٥.

يـا مـن عـيـنـاه صـوارمـه عَـلّـل مُـضْـنـاك مـن الـشَّـنَـبِ
وارفـق فـالـرفـق بـذي كـلَـفٍ فـي حُـبِّـك مـن إحـدى الـقُـرَب
لـم أبـك لـكـونـي ذا تَـلَـفٍ مـن أجـل صـدودك أو حَـرَبـي
إلا لـسـكـونـك فـي قـلـبـي وأخَـافُ عـلـيـك مـن الـلَّـهَـبِ
فـلأنـت سـكـنـت بـه سُـكْـنَـى عـزّ الإسـلام ذرا الـرُّتَـبِ
مَـلِـكٌ قـد حـل بـروج الـسـعـد (م) وقـالـيـه نـحـس الـذَّنَـبِ
أقـصـى الأرضـيـن وأدنـاهَـا تـنـقـاد إلـيـه بـلا تَـعَـبِ
سـجـدت بـمـحـاريـب الـطـاعـات (م) لـه أبَـداً غُـرَر الـنُّـجُـبِ
قـد أخـلـى الأرض بـعـدلـه مـن جـور الـبـاغـيـن أولـي الـرِّيَـبِ
يـرمـى الـبـاغـيـن بـأسـهـمـه فـيـذيـقـهـم كـأسَ الـعـطـب
فـكـأنَّ عِـداه شـيـاطـيـنٌ رُجِـمَـت بِـمُـصـيـبـات الـشُّـهُـب
تُـثْـنَـى الأيَّـام عـلـيـه كَـمَـا أثـنـى الـتَّـنـزيـل بـلا كَـذِبِ
وَبِـلَـيْـلِ الـكـرب فَـنَـادِ فـتًـى يـجـلـو بِـنَـدَاه صَـدَى الـكُـرَب
إنَّ الأقـران إذا شـحَّـت سَـحَّـت يُـمْـنـاه بـالـذَّهَـبِ
لـولا هَـتَّـان أنـامِـلِـه تَـتـرَى مـن كَـفَّـيْـه الـسُّـحُـب
مـا خـاضَـت أفْـكَـارٌ خـوضـاً لِـجَـوَاهِـرِه بَـحْـرَ الـخَـبَـبِ
يَـجِـب الإثـنـاءُ عـلـيـه كَـمَـا لِـسُـوَاه عَـلَـيْـنـا لَـمْ يَـجِـبِ
يـا بَـحْـرَ الـعـلـم وطـود الـحـلـم (م) وواسـطـة الـعِـقْـد الأدبـي
يـا ابـن الأخـيـار الـمُـنْـتـسـبـيـن إلـى طـه أعْـلـى الـنَّـسَـبِ
قَـد حَـفَّ الـبـدر كَـوَاكِـبُـه كَـمِـثـالـك بـالـجـيـش الـلَّـجِـبِ
حَـبَّـرت الـمـدح ولـم أبـلـغ مِـعْـشـار مـعـالـيـك الـنُّـجِـبِ
فـاقـبـلـه نـظـامـاً قـد أضْـغَـت لِـتـلاوَتِـه أذْنـا رَجَـبِ[1]

---

(١) سيشرح المؤلف هذه اللفظة بعد قليل.

هنِّيت الشهر ومقدمك الـ　　مسعود إلى أعلى الرُّتَبِ
وبنيك نُجُوم بَنِي الزهرا　　سادات العجم مع العَرَب
العالم إسماعيل الفَخْر (م)　　ويحي الليث لدى الغَضَبِ
وكذلك أحمد خير فَتًى　　من خير أبٍ بَرٌ فأبِ
ظهرت كالشَّمس مكارمكم　　لم تخف علينا بالحُجُب
شهدت بالفضل مَنَاقِبُكم　　وكذاك شهود أولى الحَسَب

قوله: أذْنَا رَجَبٍ، أراد به شهر رجب الكريم لأنه هنّى الممدوح بقدومه إلى مدينة صنعاء المحروسة فيه، ولذا قل بعده هُنِّيت الشَّهر، والمعنى أنها أصغت لما أملى من هذا النُّظام أذنا رجب حتى سمعه مع أنه أصم، والأصم من الصَّمم وهو انسداد الآذان وثقل السمع كما قال المتنبي:

واسمعت كلماتي من به صَمَمُ.

لأن شهر رجب الكريم يقال له الأصم، وما ألطف قول الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى في مرثية من مات في شهر رجب(١).

عَمْري لقد صرخ الناعون في رَجَبٍ　　به فأسمع شجواً من به صَمَمُ

وإنما قيل لرجب الأصم لأنه من الأشهر الحرم التي لا يسمع فيها صوت سلاح للحرب، جُعِل الشهر كأنه هو الأصم الذي لا يسمع، وقيل إنما قيل له الأصم لأنه لا ينادَى فيه: يا لفلان يا فلان ويا صاحباه ويا صبَاحاه.

نعم: والعاذل في اللغة اسم من أسماء شهر شعبان الكريم، أقول: لعله أخذ له هذا الإسم من العاذل الذي هو اللائم، كأنه يعذل الإنسان بين يدي شهر رمضان الكريم عن معاصيه ويلومه عليهَا ويوصيه بالإقلاع عنهَا وأنه يتلقّى شهر رمضان

---

(١) ديوان ابن نباتة ٤٦١ من قصيدة يرثي فيها أحدهم أولها:
بكى لك العاليان القدر والهمم　　والماضيان سنان الرأي والقلم

عقيبه بتركها والإقلاع عنها بالتوبة حتى يدخل عليه شهر الله المُكرَّم وهو مُتَأهِّبٌ له بالطاعة وأعمال الخير والبر، والله أعلم.

ولذا مع ما ذكرناه من أن العاذل اسم من أسماء شهر شعبان لطف قول بعض الظرفاء:

وشادن مبتسمٌ عن حَبَب مورد الخدّ شهيُّ الشَّنب
يلومني العاذل في حُبِّه وما درى شَعْبان أني رجب

أي إني أصمّ لا أسمع عَذْله، وقال الشيخ سعد الدين بن عربي[1] في بعض قصائده:

نومي المُحَرَّم يا من وجْهُهُ أبداً ربيع عيني وهذا مسمعي رَجَبُ

الفقيه محمد بن حسن الفندي الوزير[2]

صدرٌ في الوزراء الأماجد، فالأقلام في جوامع طروسه ما بين راكعٍ وساجد، وزير يُشَد به الأزر، ويقف البَحْر عند رأيه في المَدّ والجزر، ينفث السحر يَرَاعُه، ويأتي بالعجائب ذِراعُه، يَرَاعته التي تميد، يخجل لبراعتها عبد الحميد، فَمَا نَظر طرسُه لبيبٌ وشَام، إلاَّ وجد مداده في ثغور سطوره بمنزلة وِشَام، يُنشي فينشي الأعطاف بالإثمال، ويُرْقصُ قواماً قد أطربَهُ فَمَال، ويبدي كلماتٍ تُفِيض دمع الجاحد وتُجريه، وتأتي بِفِقَرٍ تَفْقر جَوف الحسود وتفْرِيه:

أيْن القلائد من فواصِله دعها ودع ريحَانة الفندي[3]

نَظَم عقْدَ الدَّوْلة، وَعَرَّفَها طرائق الصولة، فَإذا المُلك قَوِيّ العماد، ذو عطف

---

(١) هو سعد الدين محمد بن محمد بن علي بن عربي الحاتمي شاعر أديب ولد في ملطية وسمع الحديث ودرس بدمشق له ديوان شعر مخطوط. توفي سنة ٥٦٥ شذرات الذهب ٥/ ٢٨٣ وفوات الوفيات ٢/ ١٥٨ والأعلام ٧/ ٢٩.

(٢) انفرد بذكره كتابنا هذا ولم أجده في غيره.

(٣) يعني ريحانة الألباء للشهاب أحمد بن محمد الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ عرف بالأفندي. والقلائد في أول البيت هي قلائد العقيان لابن خاقان.

من منسوجات الترفيه ماد، طالما برى من أقلامه أنابيب، همعت من خلال سحبها للنوال شَآبيب، وكان لكتب الأدب ذا جمع، فَكم شنّف بأقراطها مِنْ سمع، وأذكى منها في ليل المِداد ما أغْنَى عن الشمع، فَلَهُ في بَدِيعها مُبالَغة، وَغُلُوٌ واغراق، وافتِنَانٌ وجمع بلا تفريق للأذهان في بِحَاره إغْرَاق، ولِسَيْفِه بسهولَه تجريد، ولتهذيبه بالتَّفْوِيف تعديد وتَقْيِيد وترديد، فَمَا رأيتُ أصحّ مِن كُتُبِه، ولا نَظَرْتُ أوضح مِن مُحَرَّرات أدَبِه، مِمَّا يَدُل على سلامة ذَوْقِه، وجمال طيره ببديع من طوقه، وَكَمالٍ لا يعروه نقص، وروض عِرْفَانٍ تُتَابع أغصان الأقلام بين حمائله الرَّقْص، وله من النَّظم ما يُغَازِل النيرات في بُرُوجها، ويُبَاري الأزهار الغَضَّة في مروجها، لو أنشدت الورق في الرَّوض أشعاره، لخلعت عليها الأغصان من السرور حلل الأوراق الزَّاهِيَة النَّضَارة، ولنظمت لها مِنَ الزَّهر أطواقاً، ولتمايلت من غنائها بها أشوقاً، إلا أنه فاتني منها ما كنت جمعتُه، ولم أظفر له الآن بغير قوله مما حفظته وسمعته:

وشادن من بني الأعراب مبتسم ... نظمت فيه من الأشعار ألف رَوي
لم يرو قلبي وقد قَبَّلت مَبْسَمه ... عشراً ولا هو مذ قَبَّلت ألْفَ روي

وقوله:

وشادِنٌ قالتُ لَهُ ... دعني أقَبِّل شَفَتك
فقال لي كم مَرَّةٍ ... قبلتها ما شفَتَك

سمعت مولاي العَلاَّمة الوالد القاضي جمال الدين محمد بن الحسن الحيمي رضي الله عنه يقول: كان قِيَاسه أن يقول في البيت الثاني شَفَتْك بإسكان التَّاء إذ هو الجاري على القواعد، ولكنه فتحها ليتم له الجناس ويستقم وزن الشعر، وقد جاء مثله على ضعف وقلة.

وقوله في مليح به أثر الجُدَري:

أفديه في الغيد مجدوراً يخرّ له ... غصن النقا فهو بالأوراق منه عثر
في خَدِّه أثَرٌ والعذل ليس له ... عندي وقد كثر العذال فيه أثر

وقال صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى:

حوراء قد زانها في خدها أثرٌ ... وليس يسلم من ذا صفحة القَمَرِ
واطول شجو المُعَنَّى في صَبَابَتِهِ ... إذا تَرَدَّد بين العين والأثرِ

وقال فيه مجد الدين[1] بن مكانس رحمه الله تعالى:

أفديه كالبدر في خدَّيه من أثرال ... جُدْري نجومٌ وقلبي قد غدا فلكه
فلا عجيب إذا صاد القلوب معاً ... وفي مُحَيَّاه مِنْ خَدٌ له شَبَكه

وقال فيه أبو منصور ظافر الحداد رحمه الله تعالى[2]:

قالوا محا الجُدْري بَهْجَتَهُ ... قَسَماً بِرَبٍّ منّى لقد كَذَبُوا
لكن صَفَتْ صَهْبَاءُ وجْنَتِهِ ... لوناً فَجَمَّل صَفْوها الحَبَبُ

وقال فيه ابن الرومي:

وقالوا شانه الجدري فانظُر ... إلى وجه به أثر الكلوم
فقلت مَلاَحَةٌ نُثِرت عليه ... وما حسن السماء بلا نجوم

وقال فيه ابن المعتزُ وهو إذ ذاك مُغَنّي[3]:

بي رشا جُدِّر لما اَسْتَوَى ... فزاده حسناً وزالت هموم
أظنه غنّى لشمس الضُحَى ... فَنَقَّطَتْهُ طرباً بالنُّجُوم

وقال فيه الميكالي[4] مع الجناس:

يا هلالاً بوجهه جُدَرِيٌّ ... ظَلّ يحكي كواكباً في هِلاَلِ

---

(١) كذا في الأصل ويرد ذكره في الكتب الأخرى بفخر الدين وهو أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق ابن مكانس وزير وشاعر فصيح، توفي سنة ٧٩٤ انظر الدرر الكامنة ٢/ ٢٣٠.

(٢) ديوان ظافر الحداد: ٥٢ ط حسين نصار.

(٣) لم أجدهما في ديوانه المطبوع في دار صادر.

(٤) هو الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي من أسرة تنسب إلى الأكاسرة ولع بالأدب وله مؤلفات وهو كاتب وشاعر توفي سنة ٤٣٦ (يتيمة الدهر ٤/ ٤٠٧ وفوات الوفيات ٢/ ٥٢) وسبق ص: ١٤٦ .

لا تلمني إن نَمّ بالسر دمعي فله الذنب خالصاً فيه لا لِي

وقال فيه القاضي زين الدين عمر بن الوردي رحمه الله تعالى[1]:

لي حبيبٌ مُجَدَّرٌ بالملاحات قَدْ حُبِي
كُحل عينيه ناقصٌ فوق خَدٌّ مُحَبَّبِ

لا تخفى التورية في قوله مُحَبَّب، وهي مأخوذة من قول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي رحمه الله تعالى في مليح بدا على وجهه حَبّ الشَّباب مُوَرِّياً[2]:

تعشقته لدن القوام مهفهفاً شهي اللمى أحوى المراشف أشنبا
وقالوا بدا حبُّ الشباب بوجهه فيا حُسْنُه وجهاً إلي مُحَبَّباً

وقلت أنا في المليح الذي به أثرٌ من الجُدَرِي:

شَبَّهْتُه والحفر في جِسْمِه مِن أثَرٍ قد عَمَّه بالخُصُوص
قَضِيبُ بان صيغ من فِضَّةٍ قد قُلِّعَتْ منه غوالي الفُصُوص

وقال صاحب الترجمة مُؤرِّخاً لقتل حسين الرصَّاص[3] من سلاطين المَشْرِق[4]:

إن تُرِد تعرف من أوْدَى إلى غير مَرْضاتِ الذي دَمَّرَهُ
وَتُشاهد مَقْتل الرصَّاص في مَصْرَع السوء الذي صَوَّرَه
فاحذف الهاء تَجِد تاريخه (قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَهُ)

وكتب من المنثور رسالة حلوة، يوجب لعروسها الشرع الشريف المهر كاملاً ولو مع عدم الخِلْوَة، مُجِيباً على بعض السادة، ومجارياً له في ميدان المحاورة عَلَى العادة، وهو ما صورته:

---

(١) لم أجدهما في ديوانه.
(٢) البيتان في خزانة الأدب ٢٦٧.
(٣) كان سنة ١٠٦٥، انظر خبر مقتله بتوسع في تاريخ اليمن للمؤرخ أبي طالب ٤٢ بتحقيقنا.
(٤) يعني جهات الجنوب مما يلي البيضاء ونواحيها.

سيدي الذي نظم البيان في مُفَصَّل عقوده، وطوى المحاسن في خلال منشور بروده، وأقرّ عين ودوده، كما أكمد قلب حسوده، أوحد السادة الذي عُقِدَت عليه الخَنَاصِر، وازدانت بذكر حُلاه الأقلام والمحابر، واعْترف له بالفضل كل ناظم وناثر، عماد الأدب وعميده، وفريد الوفاءِ ووحيده، وحسنة الدَّهر الذي أقَرَّت بالرق له أحراره وعبيده، جوهرة المجد التي هي من القمرين[1] أبهى وأسنى، وحديقة المعارف التي تفتحت كمائمها عن الروضة الغَنَّا، وغَرَّدت حمائمها على ألفات الغصون فلا تقل (سمعت سويجع الأثلات غَنّى)، ولا ينادى في أرباب الأدب إلاّ أنه عَلَى مطلوله العذبات رَنَّى، هيهات ما غَمَزات العيون الوُطف، ولا إشارات البنان التي تكاد تقطف من اللّطف، بأبهج من تلك الذات التي اشتمل الفضل على حُلاَهَا، ونطقت الألسن بالثناء على عُلاها، واستمرت الأفئدة على حفظ عهدهَا الكريم وَوِلاَهَا، وَعَوَّذها عين الكمال بـ(الشمس وضحاهَا والقمر إذا تَلاَهَا):

مـن لا نُـسَـمِّـيـه إجـلالاً وتـكـرِمَـةً   وقـدره الـمُـغـتَـلـى عـن ذاك يُـغْـنِـيـنَـا

حفظ الله عُلاَه، وأدام في أوج السعادة والسيادة رفعته ومرتقاه، وأهدى إلى مقامِه الأشرف، ونسيم أنفاسِه الألطف، سلاماً يفضح النَدّ تأرُّجاً، ويملأ الكون تَبَهُّجاً، وإكراماً يلتحف البدر بضيائه، ويُخَيِّم السَّعد بساحَتِه وفَنائه، وبَعد فَإنَّه أُلْقَى إلي كتابٌ كريم، وخِطاب دُرّه يتيم، وسلكٌ كله فرائد وعِقْدٌ تخجل لَهُ حَبَّات اللؤلؤ في أعناق الخرائد، وَطَيْفٌ ألَمّ وافياً بضمان المواعد، وَزَورٌ تخطّى إليّ على كرم ممشاه مَرَاقى المراقد، فأهلاً بكتب الأحباب ومرحَبَا، وسَقْياً لذلك العهد الذي طاب مشرعاً وراق مشرباً، وحيَّا الله ذلك المحيَّا، وأذكى روائح تلك الشمائل التي فاتت المسك السحيق عبقةً وريًا، وفهم المملوك ما أشار إليه مولاه ببديع تلك المعاني، وَنَزَّه طرفه في حظائر قُدْسه المشيدة المَبَاني، وحمد الله على عافية مولاي وصلاح حالِه، واتّفاق مَآربه وارتفاق آمالِه، وعلى كل حال فالأمور بفضل الله جارية على نهج السعادة، كافلة بمنال الأمل إن شاء الله وبلوغ الإرادة، وكانت الأنظار قاضية بإمْضَاءِ العزيمة، وإنفاذ تلك الشكيمة، بنهضة سيدي عزّ الإسلام

---

(١) القمران: الشمس والقمر.

عقيب العيد إلى تلك الأقطار، ومعاودته المرجُوَّة إن شاء الله تعالى لقضاء تلك الأوطان والأوطار، فعرض من حساب الجند ومنكسرهم ما أوجب مَنْعًا، وإيثار نفوذ سيدي ضياء الإسلام إلى صنعا، مِمّا فَتّر معه العزم، وثَقُلت في الرحلة خُطَى الحزم، وترجح جانب التراخي ريثما تُقلع سحائب أنوار الخريف، وتبرد هواجر الحَرّ من هذا الصيف، فلا تعتقد يا مولاي أنه بقي في البلاد اليمنية وغيرها مستزاد مألوف، ولا معهد من أرجائها الرحيبة معروفٌ بسابغ المعروف، وإذا كان آدم صلوات الله عليه القائل: تغيّرت البلاد ومن عليها، فما ظنك بمن بلغ به إلى هذا القرن وأيّامه المجلوبة كل فاقرةٍ إليها.

هيهات ساوت بينهم أجداثهم   فتشابه المحسود والمرحوم

ولله سبحانه من وراء ذلك نظرٌ كلُّه صلاح، وَقَدرٌ جميعه كما عرفت نجاح، وسعيٌ جَمْلَته ظفرٌ وفلاح، وكرم غايته جودٌ وسماح، فلا تَقف أبقاك الله تعالى من الأفكار على ثنية، ولا تكدح وأنت في العيشة الهنيَّة، ودعنا من هذا التشكي فالدَّهر ليس بمعتب من يجزع، وارجع إلى التَّفويض ما دام في قوس التسلّي منزع، وأمَّا النصائح التي عهدتها من أسير ودك، وحليف ميثاقك وعهدك، فقد حطها العجز عن كاهله، وعُرّى ذلك الميدان عن أفراس الصبا ورواحله، واقتنع المحب دونها بكَسْر بيته وزاوية خُمُوله، وأغفى يرتقب البدر بعد أُفُوله، وطاب له الوسن في مَرْقَد مأموله:

وقال لها عِيْشي جَعَار[1] وجَرّري   فلا عُمَرٌ مني قريبٌ ولا الفَتْحُ

ولنرجع إلى ذكر الأبيات التي هَزّتني طرباً، وزادتني عُجْباً وعَجَبًا، واتخذت سيرها في ذلك البحر سَرَبا، وأورثت من يُحَاولها هَمًّا وتعباً، وقال الخائضون لججها «لقد لقينا من سَفَرِنا هذا نَصَبًا» وما تلك إلاَّ هبةٌ رحمانية، لا هبَّةٌ إنسانية، وقوةٌ ملكية، لا فكرةٌ فلكيَّة، أنَّستِ الغريب، وفَرَّجت عن القلب الكئيب، ورقمت

---

(١) عيشي جعار: مثل انظره في المستقصى ٢/ ١٧٣ والميداني ٢/ ١٤ وتمثال الأمثال ٢/ ٤٧٩ وجعار اسم للضبع.

على راية أفراحها «نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قريب»، حاولت من خاطري المكدود أن يجيب نِدَاها، أو يحكي صداها، فَتَجَلَّدت جَنَادِله، وجازت عن القصد مَعَادله، واقشعت سحائبه المواطر، وتاهَتْ أفكاره في مهامِهِ الخواطر، فرضي بالكفاف، وقابل نظام الدُرّ بما ينثر من هذه الأصداف:

وأجبنا نَظْم الشريف بنثرٍ وأثبنا الحصى على المرجان

والثّقة ساكنة إلى قبول مولاي وأعضائه، مستمسكة بصادق وده ووفائه، على أنّي قد أكرمتُ مثواها، وعَظَّمْتُ نجواها، بِعَرْضِها على نظر مولانا العِزّى أطال الله بقاه، وسَرَدَها بمقامه الذي لو استجار به أحد من الدَّهر لحماه، وجرى في ذلك الوقت من ذكراكم الطيبة ما اقتضاه الحال، ونطق بالثنا عليه بلسان المقال، ثم عقيب ذلك نعرضها على نظر الأخ الصَّادق، حافظ العهود والمواثق، وحليف الوفا الذي حُمِدَت منه السجايا والطرائق، عماد الدين يحيى بن مهدي أدام الله رَعْيَه، وأنجح في سُبُل المعالي تشميره وسعيه، حتى يستطير فرحاً، ويجول في ميدان الثنا مَرَحاً، والأشواق إلى لُقْياكم كثيرة نسأل الله أن يَمُنّ بها، ويُسَهّل التمسك بأهدابها والتعلق بسببها، وأنا في وحشةٍ كما يعلم الله لبعدكم عن هذا السوح، ونأيكم عن هذه الأطلال التي هي لفقدكم جسد بلا رُوْح، وعلى كل حال فالصَّديق صديق بكل مكان، والتّبر لا يوضع إلاّ في معاقد التّيجان، والأرواح كما قيل جنود مجنّدة، والأشباح خُشُبٌ مسندة.

ولكن لِلعَيَان لطيف معنًى له سَأل المُعَاينة الكليمُ

وما ذلك على الله بعزيز، ونسأله أن يودع ذاتكم الكريمة من حمايته في حرزٍ حريز، (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير)، وتلاقيهم عليه يسير فإذا كل طرفٍ بتفضّله قرير، فلُقياك عندي هي الغَنِيمة، والاجتماع بك هو النعمة العميمة، ومحاورتك هي الكنز الذي لا يفنَى، ومراجعتك هي المورد السنّي الأهنَى، والسَّلام عليك ما سجع مَطَّوق حتى بعث الكامن على المُحِبّ فطرب وتشوّق، ذَكر أخلاَّءه وأحبابه، وفَتَح مِنَ الشَّجَا بَابه، فَمَا جَفّ له دَمْع، ولا فُتح إلى غير حديثكم له سمع،

وصلى الله وسلم على محمدٍ ذي الرّسالة، المؤيّد بالمعجزات على كل حالة، وعلى آله الكرام، وهُدَاة الأمّة الأعلام، الذين منهم عُرِفت الفصاحة العَرَبيَّة، والألفاظ الجَزْلة الأَبِيَّة، فما جهد مُرَاجعٍ لهم بألفاظه المبتذلة، ومعانيه المستسمجة المسترذلة.

نجز إنشاء في أوائل شهر صفر المظفّر أحد شهور سنة سبع وسبعين وألف سنة.

الفقيه عبد الله بن أحمد الآكي(١)

ذو منطقٍ علمُه آلي، ومقام عن المناقص عالي، وفضلٍ شعره في سوق الفضائل غالي، لَمْ أتحققْ صِفَاتَه فَاطنُب في ذِكرهَا، ولم استَفْصل مَنَاقِبَهُ فأطمح في شكرها، ولم يُمْلِ لي النَّديم كأساً من خمرة أخباره فأميل من سكرها، غير أني وقفتُ له على نَظْمٍ يخبر بأن له في ميدان الشّعر مجالاً، وظفرتُ بشيء من قريضه فقلت في النظم بديهةٍ وارتجالاً:

له عذبُ شعرٍ منه أصبح أهلُه وقد طاب عرفاً يفخرون على الآلِ
فمن عجبٍ أني ارتويت على ظمأ بِمَاءِ نِظَامٍ وهو يعْزى إلى الآل

والظّاهر من حاله، إنه لم يقلقل ركابَه في ارتحالِه، وأنه زهرة في خمائل الخمول، وثمرة لم يذقها فم عُمُوم وشمول، وإنه درّة بحرٍ لم تثقب، وشمس فلكٍ لم تُرْقَب، لم يَكْتَنِفْه من الاشتهار هَوْلُه، يدلّ عليه شعره وهو قوله:

يلومني الناس على عُزلتي عنهم وفي العزلة ترويح بال
وما اعتزالي عن قِلاً إنما وجدت في الخلطة قيلا وقال

---

(١) انفرد بذكره كتابنا ولم أجده في غيره. وكتب بعضهم في نسخة (ب) وأظنه الوزير فايع ما يلي: في هذه النسبة تصحيف وتركيب إنما هذا الشاعر الإبي نسبة إلى مدينة إب ونسبته إلى الألي من الغلط وهذا يحقق اهـ. قلت: في نشر العرف ٢/ ٧٤ ترجمة للقاضي العلامة عبد الله بن أحمد بن علي بن عزان بن علي الأكوع المعروف بصاحب العريش محل في شعب يافع بينه وبين مدينة جبلة نحو ميلين سكن فيه وعمر فيه مدرسة وأوقف عليها بعض الأموال وكان عالماً محققاً في الأصول والفروع أخذ عن جماعة من الأعيان وتولى القضاء في بلاد المخادر وتعز للمنصور الحسين بن المتوكل ثم توفي بمدينة إب سنة ١١٥٩ فلعله هذا الإبي.

أقول ما أظنه قصد التوية أصلاً في قوله وقال والمحل قابل لها سيما مع قوله عن قِلاً فإنه ترشيح لها، ومما نَظَمته أنا في التورية مضمناً قولي:

يـكـثـر قـولَـه مـن لام فـي مـن ... قـلانـي فـي هـواه عـن مَـلاَلِ
فـهـا أنـا مـغـرمٌ قَـضَّـى زمـانـاً ... وأفـنـى الـعـمـر فـي قـيـلٍ وقَـالِ

وقلت في التورية مضمناً أيضاً:

قـلانـي مـن أحِـبّ بـغـيـر ذنـبٍ ... فـمـا عـاتـبـتـه أبـداً بـحـالِ
فـعـتـبـي لا يـفـيـد عـلـى جَـفَـاهُ ... سـوى الـهـذيـان مـن قـيـلٍ وقَـالِ

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي رحمه الله تعالى:

ذهـب الـعـمـر وَوَلَّـى ... بِـصُـدود مِـن غَـزَالِ
فـي سـبـيـل الله عـمـرٌ ... مَـرَّ فـي قـيـلٍ وقـال

قلت: نظم لطيف جيد وتورية حسنة إلا أنه لم يُرشح لقوله (مَرّ في قيلٍ وقال) بما يزيده وضوحاً ولطفاً.

ولما رأيتُ أنا ما في ذلك من الغفلة قلتُ مضمناً مع التورية المرشحة:

كَـثـر الـقـول عـذولـي ... فـي هـوى بـادي الـمـلال
فـي سـبـيـل الله عُـمْـرٌ ... مَـرّ فـي قـيـلٍ وقـال

الفقيه الحسن بن عبد الباسط(١)

أديبٌ بسط الله له رِزقَه، وحُرٌّ مَلَك دُرّ ألفاظه من الطِّرس رِقَّة، ونسيم لطفٍ هَبّت سحراً فازدادت رِقَّة، إذا نَفَض له في الأفق مهرَقاً(٢)، أثر مداده فيه ليلاً وألفاظه نجوماً ضمّها الفلك الذي رَقَا، روض أدبٍ شميمه للغرام هَيَّج، وريحانُه لسائر الزهور المتلونة قد سيّج، أضاء بنوره من العصر قِنْديْله، وفاح وَتَطرّز بوجوده مَنْدَلُه ومَنْدِيلُه، لو لم تكن نفثاته من الجواهر، لما أودعت القراطيس وحقاق المحابر، ما لأدبه شبيه، ينتسب إليه يتيم الدُّر نسبة الولد إلى أبيه، فما سمع شعره سامع إلاّ

---

(١) ترجمته في نشر العرف ٢/ ٤٦٥ نقلاً عن كتابنا هذا.

(٢) المهرق: اسم مفعول من أهرق والصحيفة فارسي معرب جمعه مهارق.

سَكِر، ولا رأى نظمَه إلاّ ذكر عنده الجوهر والشَّبْه لدى الشّبه طالما ذُكِر، إلا أن أدبُه قليل الثّبوت، قد محته لأيام ونسجت عليه العنكبوت، فَجُهِلت مسالكه وتبدَّدت أسلاكُه، وغَرَبت أنجمه فتَعَرت عَنِ الهداية من الطرس أفلاكُه، فَمَا زُيِّن بِنَظْمِهِ ديوان، ولا شمل بنات فكره إيوان، مع إنه كان يُبَارى خليلنا إبراهيم الهنديِ، وتقول لسان حاله عندك من الإجادة ما عندي، ينازعه مطرف أدبه الذي به تَجَمَّل، وَيُجَاذبه بُرْد بلاغته الذي به تَزَمَّل، كأنَّه مات أدبُه بموتِه، وفات شعره النَّفيس بفوتِه، ونفق بسوق صنعاء منه الدُر، وشَرِب حُلْوَه فلم يبق من التأسّف على ذهابِه سوى المُرّ، وقد يتبدد اللُّؤلؤ إذا خرج من الصَّدَف، وقد تهوي الشهب السيارة عند ظلمة الغَدَف، وآفة التِّبر عدم النَّاقِد، واختلال المشروب جهل العاقد، فلم أظفر من شِعْرِه إلا بنزرِ يَسير، بعد بَحْثٍ طويل ومُرْتَكَبِ عَسير، فَعنقاء أشعاره تَكْبُر أن تُصاد، وسنابِل نظمه يعزّ على الأديب منها الحَصَاد، وقصائده التي ما لها قياسٌ أين منها نونٌ وصاد[1]، والدرّ وراء هَوْل العُبَاب، ورب جانٍ قاسى وخز الشوك وفاته من الثمر اللباب، فمما عَظُم عَلَيّ ما هولُه، وظفرت به له أبياتٌ من قصيدة وهي قوله:

مــراتِــع روضٍ فــيــه تــســرح آرامُ ... وحـول كـنـاسٍ فـيـه لـلأسـد آجَـامُ
فـإيَّـاك والإلـمـام جـهـلاً بـسـفـحِـهِ ... فيـا طـالـمـا أودى بـذي الشـوق الـمـام
مُـخَـيَّـم قـومٍ مـا لِـنَـازِلِـه قِـرَى ... سُـوَى مُـهـجٍ تُـفْـرَى إذا آن إكْـرَام
وربّ فـصـيـحٍ حـيـن عَـرَّس زَائـراً ... أصـاب لـسـانـاً مـنـه لـلـهـول بـرسـامُ
هُنا ها هنا تسبَى العقول وتنثني ... بـأبـلـغ شـيء فـي الأضـاعـة أحْـلامُ
فـأي نـزيـلٍ سـمـهـم وصـل سـاعَـةِ ... وما إن لـم فـي مـهـجَـةٍ قـطّ قـد سـامـوا

الحكيم شعبان بن سليم حاسكي[2]

رومي الأصل يمني الفرع، قَدِ امترى مِن لُغَةِ العرب أحفل ضرع، طبيبٌ

---

(١) يعني: النص وهو يقابل القياس عن الأصوليين.

(٢) أديب مشهور ولد بصنعاء سنة ١٠٦٥ هـ وكان والده من الأتراك فنشأ على حب الأدب وتمرس بعلم الطب مع تمكن تام بالوعظ والإرشاد. وفاته سنة ١١٤٩. انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ٧٥٢/١.

مهر، ونجم في أفلاك الحكمة زهر، وروضٌ تفتَّح في جوانبه الرَّحيبة زهر، ما عالج عليلاً إلا أبراه، فَمَا أجدره بالإطناب في مدحِه وما أحراه، لو شكا إليه الرَّوض الوسيم، لأزال من غصنه الرعشة الحادثة من مرور النَّسيم، ولم يكن على مذهب الحكماء واعتقادهم، وسوء ما نُقِل عنهم مما يُسَدِّد إليهم أسهم انتقادهم، وإنما هو ذو عقيدة طاهرة، وسِمَات بيّنة الحسن ظاهرة، فقلبُه كأبيه سَلِيم، وجسده من داء الإلحاد صحيح غير أليم، كثير الطَّاعة والتنسُّك، فلكفه بِعُرَى الإيمان أيّ تمسك، يصوم الثلاثة الأشهر دائماً، ويقوم في اللَّيل فلا يدع طرفه نائماً، مع صمتٍ ووقار، وحسن سمتٍ أقطع من ذي الفَقَار، وله إلَيّ مكاتَبَات وحِوَار، ومراجعات للغادات منها شَنَفٌ وسِوَار، تقطر منها مياه اللّطف في العَصْر، ويرمي كل بيت منها قلوب الحسادِ بِشَرَر كالقَصْر، وطَالما نظمَ شعره وعرضه عَلَيَّ، وجَاء في القراطيس بجواهره النفيسة إلَيّ، لأنظر في إعرابه، وفي صلاح معانيه التي جاء منها بغاية إغرابه، لأنه في المعرفة ذو قصور، وإن كانت له في أبيات القريض قصور، فإن له سنابل كَلِمٍ يروق حَبُّها، وبنات فكرٍ برأ الأقلام حُبُّها، فمن بدوره التي هي بدور شعبان، ومعاني شعره التي لا يَظْفر منها الكادح التَّعْبان، ونظمه الذي لا يُقْضَى عنده العجب، وأبيات شعبان التي يصغى لها رجب، قوله:

قد عبثت بالصَّبِّ أشجانُه — وخانه بعدك سِلوانُه
ولؤلؤ الدَّمع على خَدّه — قد نثرته منه أجفانُه
فاض ولولا نارُ اشواقه — أغرق من في الأرض طوفانُه
كم كتم الحُبَّ ويا وَيْحَه — يكتمه والسّقم عِنْوَانُه
وَسوّد الجيش عليه الضَّنَى — فانهزم الصَّبر واعوانه
فهو من الوجد يُرَى ميّتاً — وإنما الأثوابُ أكفانُه
إلا إذا العاذل في حُبِّكم — يَذْكركم تهتَزّ أركانُه
يا ساكني المربع مِن رَامَةٍ — ريمكم بالله مَا شانُهُ
معتدل القَدّ ولكنه — جار على ضعفي سلطانُه

ألحاظه سافكةٌ للدِّمَا من أجل ذا تحمَرُّ أوجانُه
إذا مشى خلت قَضِيب النَّقَا يميس إذ ترتج كثبانُه
وخدّه فيه زهورٌ غَدَت مختلفاتٍ فيه ألوانُه
ظبي إذا عقربَ أصداغَه دبّ من العارض ثُعْبَانُه
وثغره الدّري ألفاظُه تُنسِيك ما تُنشِد عيْدَانُه
فَرّ من الحور على غَفْلَةٍ تيهاً ولَمَّا يدْر رضوانُه
قَضَيْتُ فيه زمني بالأسى وما تقضَّى قطّ هجرانُه

وله:

بروحي من لم يدع لي رَمق إذا ما رمى بالرُّنَا أو رمق
أغنّ غَزَا مهجتي لحظُه ومَزَّقها بسيوف الحَدَق
أقول سأعرض عن حُبِّهِ فيجذبني منه حسن المَلَق
وكم قلت للقلب يَسْلو هواهُ فما زاده ذاك إلاَّ قَلق
أسال دماً مهجتي بالجَفَا ووكل أجْفانها بالأرق
وقلت له رق جسمي ضناً عليك فقال وخَصْري أرَق
وكم ليلةٍ بِتُّ في جُنْحها إلى النجم أشكو الهوى والحُرَق
ومن يَكُ بالنَّجْمِ ذا صبوةٍ يبات سميراً له في الغَسَق
أعيذ سنا وجهه بالضُّحَى وبالنُّور طلعتَه والفَلَق
يُغِير قَضِيب النقا قَدُّهُ لذا أنه يختفي في الوَرَق
وللريم لفتته والرُّنَا وإن كان في الساق منه أدق
وفي فِيْه يُغصَر خَمْر اللَّمى حَلاَلاً فمن ذاقَهُ ما فَسَق
فيا عاذلي دع ملامي بِه وقولك لي قد جَرَى واتفق

وله في مليحٍ يُلَقَّب بالنجم لمَّا تَعَذَّر:

لاح عذارُ النجم في خَدِّهِ فأكثر العاذل فيه الملام
والنجم لا تُشْرِق أنوَارُه إلاّ إذا جَنّ عليه الظَّلام

وله في غلام يُدْعى ابن عَبّاس:

يا عاذلي لا تلمني في هوى رشأٍ … حلو الشمائل ذي لطفٍ وإيناس
وسل إذا شئت أجفاني فادمعها … تُروى مسلسلةً عن ابن عباسِ

وله وهو معنى متداول:

وذي هَيفٍ يكاد إذا تثَّنى … لِفَرط اللين ينعقد انعقادا
تَحَمَّل من لواحظِه حُسَاماً … وصَيَّر لام عارضه نجادَا

وله:

يا أسرة الحب إن عز التخلص من … أسْرِ الغَرَام وذُقْتم في الهَوَى الهُوْنا
قيْلوا بِنَا عند من بعنا بحبهم … قُلُوبَنَا فعساهم أن يُقِيْلُونَا

وله (وكل إناءٍ بالذي فيه ينضَحُ):

يا حبّذا الأبرة من خِلَّةٍ … في كل ما أطلبُ إصلاحَه
تسعى لحاجاتي على رأسِهَا … وتطلب الأشياء بالراحَة

وله:

وقالوا اصطبر تُحظ الزمان بمطلبٍ … وتظفر على الدنيا بنيل المطالب
فقلت صدقتم غير أن عشيرتي … عشيرة سُوءٍ لدغُها كالعَقَارب

وله في الحمامَة[1]

شكوت إلى الحمامة حين غَنّت … ضَنَى جسدي وأشجاني وشوقي
فَرَقّت لي وقالت مثل هذا … وحقك ليس يدخل تحت طَوْقي

وله وقد تقدم للأديب الحسن بن علي الهبل نظيره ومنه أخذ[2]:

ومَشَّرط الخدين قلتُ وقد رنا … بلواحظٍ قد راعني إفْرَاطُها
هب ساعةً لي من لقاك فهذه … في صحن خَدّك قد بدت أشراطُهَا

---

(١) في نشر العرف ١/ ٧٥٤.
(٢) في نشر العرف ١/ ٧٥٤.

وله في بعض الجواري وقد لبست حُلّة من الأطلس الخَمْري:

يـا مـن بـبـهـجـتـهـا زهـت ... حُـسْـنـاً عـلـى شـمـسٍ وَبَـدْرِ
لا تـنـكـري سـكـري وَقَـد ... أقْـبَـلْـتِ بـاهـيـةً بـخـمـر

وله فيها أيضاً:

في الأطلس الخمريّ قد أقبلت ... من حُبّها يثبت في الأنْفُسِ
وليس معهود لشمس الضُّحَى ... بأنها تشرق في الأطلسِ

وله في الخال:

عصاني في محبَّتِه فؤادي ... عن السلوان عنه وعن خلاصي
فأحرقه وأبقى منه خالاً ... بوجنته لِيُنْذِر كُلَّ عاصِي

وله فيه:

أحسب أن الخال من فوق خَدّه ... بَرَاه من التصوير في الخلق مولاهُ
فما هو إلاَّ من فؤادي بضعةٌ ... بِهِ ثبتت إذ ذاب فهو بقاياهُ

وله في مليح حائك وموضع الحائك الذي يحوك فيه يسمى السَّقيفة بمدينة صنعاء اليمن المحروسة:

حائك لحظُه له فَتَكاتٌ ... مَلأَت كُلَّ مُهْجَةٍ منه خِيْفَة
قد نزلنا سقيفة فأرانا ... حُسْنُه كيف كان يوم السقيفة

وله:

تعطّف على المضنى الذي سال دمعُه ... لشدة ما يلقاه في خدّه دَمَّا
وَجُد باللقا يا منية القلب مسرعاً ... فما وصل شعبان يراه مُحَرَّمَا

قلت ليته قال (ربيع فؤادي جُدْ بوصلك مُسْرعاً) ليتم له بذكر ربيع وشعبان ومحرم ما يتِمّ.

وله في مليح كان يُجَالس رَجُلاً يلقّب بالعصَبة.

ألحاظه ذو السهام قد أخذَت قلبي إرثاً بسهمها غَلَبَه
وقد سمحنا له فكيف لَنا بِمَن يَقِيْه تشاجُر العَصَبَه

وله في رجل يتعاطى الحكمة:

قد كفاك الحكيم يا ملك الموت (م) اختلاس الأرواح بالأدواءِ
فأقم حيث شئت في دعة الله (م) سواءً في الأرض أوْ في السماءِ

وله:

لقد كنت لا أشكو وتلك سجيتي قديماً ولكن للضَّرورات أحكامُ
ولم أشك إلاّ عند ضعف تصَبّري وإلا فصمتي عند مثلك إفهامُ

وله:

وما وجدت نفسي لشيءٍ مرارةً أمَرّ مَذَاقاً من سؤالٍ لمخلوقِ
يمن إذا أعطى ويتبع مَنَّهُ إذاً بين مفهومٍ لذاك ومنطوقِ

وله:

إياك منطق سوءٍ به القلوب تكَدَّر
وكن لطرفِك مغضٍ وإن علمت بِمُنْكَر
فإن فيك عيوباً إذا هجوتك تَظْهَر

الفقيه محمد بن علي بن أبي الرجال(١)

متكلم أطرب بكلماتِه، وعارف سلب ببديع سماتِه، له في علم المساحة، أوسع مربع وأرحب ساحة، لأنه كان في إقبال زَمَنِه، قائماً من علم الفرائض بفرائضه وسننه، فإنه فيه سابق، وَمِمَّن عرفه من بين قراطيسهِ عابِق، يضع التَّعصب فيه على الهام، وَيُسَدِّد سهم ذكائه فإذا هو من ذوي السّهام، وهو مع ذلك إلى

(١) انفرد بذكره كتابنا هذا ولم أجده في غيره.

الفقر أقرب، فمن رآه رأى ذا متربَةً وذا مترب[١]، وقد أناخ نجائبه بسفح والدنا فأوى إلى ركنٍ شديد، ونزل بحيث لا يلامسه من الزّمان الخطب العَنِيْد، واستقال حيث لا تطمع فيه الحوادث، ووصل إلى محلٍّ لا تتصل به الكوارث، وظفر بالعيش الرّغد، وانجز له السّعد ما وعد، فكنت أنا وهو نتجاذب أطراف المذاكرة، ونكثر في العلم والأدب المحاورة، ونطلع تحت سجف اللّيل أنجم المسامرة، ونحن في أرحب حجر من والدنا نتقلّب، وتحت دوحِه المنسدل لأطيب الثمر نتطلّب، فنقطفه حلواً نديًّا ونتناوله يانعاً جَنِيًا، حتى نبذ العلم خلفَه ظهريًا، وقال لزمانه «لقد جئت شيئاً فَرِيًّا» ومال ظبيُ نظره عن مراتعه وعَطَا[٢]، واشتغل بالمدائح في من اعتقدهم[٣] أرباب تنويل وعطى، فما زال في الآفاق جائباً، مهملاً من الدَّرس والمذاكرة جانبًا، مُؤمِّلاً من اللّؤمَا ما أضحى أملُه فيه خائباً، ولذا أكثر لهم في الهجا، وقد قطع عنهم علائق الرَّجا، وله في الهجو ما لم يسمع من غيره، ولا أفصح به طير أحدٍ كطيره، فَكَم مَزّق من اللئام أعراضاً، وكم أصاب بسهمه منه أغراضاً، وفي زعمهم أنهم قطعوا لسانَه بالعطا ولم يروا منه عن أعراضهم إعراضًا، يهزه الشوق إلى الهجا، هَزّ الأديب إلى لقاءِ ذي الحجى، أو هز مُحِبٌ إلى حبيب، أكثر في الرحيل عنه والمَغيب، فكم راح في طريقه وَجَا، وكم رقم حروفاً هي على الحقيقة حروف هجا، ومِن دُرَر سموطه، التي رمت الجوهر بسقوطِه، وشعره الذي يدعو الأنفس إلى حفظِه، ما اخترتُ له من قصائد أنشدنيها له من لفظه:

ليس للقلب في الهوى من خلاص	أحمد الله لات حين مَناصِ
إن هُذب العيون بالغنج أضحَى	لقلوب الورى شباك اقتناصِ
لو يزول الهوى عن القلب مني	لأباد الورى ودكّ الصَّيَاصِي
أنا في الأتقيا عُدِدتُ ولكن	أنا للكاشحين في الحب عاصِي

(١) المترب: هو علم الحساب.

(٢) (ز) أعطى.

(٣) (ز) اعتقادهم.

كم كتمتُ الهوى وسقمي ودَمْعي ... قد أذاعاه بين دانٍ وقاصِي
في حبيبٍ أضحى لوَصلي منه ... دون كل الورى مَزِيد اختصاصِ
غن لي فيه لو أغنيه غُصناً ... ظل من رقَّةٍ به في ارتقاصِ

وله من أخرى:

الحبُ أعذب مشربٍ للشاربِ ... والوصل أعظمُ فَرْحَةٍ لِلطَّالبِ
إن الغرام إذا تُحقِّق أصلُه ... هو زفرةٌ وتشوّقٌ للغائبِ
ثم العفافِ لذا كشرط لازمٌ ... والمنتهى منه اجتماع حبائبِ
في مجلسٍ زاهٍ زهت أفلاكُهُ ... فيه بدور نواهدٍ وكواعِبِ
فَأقِم على طعم المنام مَآتِماً ... مهما بقيت به سمير كَواكِبِ
وإذا حُظِيت بقبلَةٍ أوْ ضَمَّةٍ ... فَلَقد رُمِيت من الهوى بمصائِبِ
واعلم بأنَّكَ لا تَزَال مُعَذَّباً ... في حُبٍّ من سلب الورى بعجائِبِ
ظامي الفؤاد حليف شوقٍ زائدٍ ... حتى يدب عِذَارُه كَعَقارِبِ
فَإذا بدت لام الجحود بِخَدِّهِ ... ثُمَّ استتم به كلام الكاتب
فاقطع حِبَال الوُدّ منه ولا تَعُد ... أبَداً إلى ذاك الخيال الكاذِبِ

واخترت له من قصيدة مدح بها، قوله وهو معنًى مطروق، وتخيُّلٌ مسبوق،

فضح السحاب عطاؤه ونوالُه ... فَبَكت له بالدمعة العَبْرَاءِ
إذ كان نائله لنا من عسجدٍ ... ونوالها الثّجاج قطرةُ ماءِ

الفقيه أحمد بن حسين بن دغيش الناسخ(١)

ذو خَطٍّ يسحر، ورقم بَنقش الغواني يَسْخر، كاتب ناسخ، قدمُه في الكتابة راسخ، يؤنّق دفاتره بالذَّهب واللاَّزَوَرْد، فما الروض دبج بالبهار والبنفسج والورد، يودّ الليل أن يكون له حبرا، وتتمنَّى النُّجوم أن يُذاب له تبراً، وتقول عَصَى

(١) ترجمته في كتابنا هذا ولم أجدها في غيره وقد انفرد به. وهذا الناسخ وجدت له كتب منسوخه بخطه الجميل في جامع صنعاء (انظر فهرسها).

الجوزاء: ليتني من أقلامِه التي تُبرا، تُفَاخِرُ صنعاء به شيراز، وتحرز الكمال بسماتِه غاية الإحراز، وكان يَفِد إلى والدي بنفائس ممّا يكتب، لأن بينهما غاية المَوَدّة وكمال الحُبّ، وكنت أراه في مَقَامِه، والسُّعد يحفه من خلفِه وأمامه، وعليه ثياب من الحدائق أنضر، يُقَصِّر عنها ما نسجته أيدي الربيع من رداء الروض الأخضر، لأنه كان في عيش رَغَد، آمِناً في يومِه ما يأتِي به غَد، وقد لبس حُلّة الوقار، وأدار مِن كلامِه مُعَتّق العُقّار، مع جَلالَةِ منظرٍ وحسن خَلْق، ووجهٍ نَقِيٍّ صبيح جميل طَلْق، ثُمّ رأيتُه بصنعاء بعد أيام وَمُدّه، وقد سلب الدَّهر صاعَهُ وَمُدّه، وعليه ثِيَابٌ خَشِنَةُ اللَّمس، خلاف ما كنت عهدته عليه بالأمس، وقد ضَعُفَت قُوَّتُه، واشتاقَتْه من القَبْر هُوَّتُه، وقد كَلّ بَصَرُه، وقل من يَنْصُره، فَعَرَفْتُه وما عَرَفَنِي، وقد صار كالخَصْر الذي يُقَال مِن نُحُولِه لَقَد فَنِي، وقد أثبتُّ له شِعْرا، ترخص لديه الغوالي سِعْرا، كقوله يمدح وَيُهَنِّي، ويُغَرّد طائره على غُصْن القلم ويُغَنِّي:

لِـتَـشْـفِ دِيـارُ الـعُـلاَ بَـالَـهَـا ... فَـقَـدْ انـجز الـسَّـعْـدُ إقْـبَـالَـهَـا
وأخـلـف مَـاجِـدَهـا مَـاجِـدٌ ... يُـنِـيـل الـعـوارف نُـزّالَـهَـا
أقـام الأوامِـرَ فـي دَسْـتِـه ... وَدَبَّـر لِـلـمُـلْـكِ أحْـوَالَـهَـا
وأضـحـت خَـزائـنُـه فـي الـنَّـدى ... وفـي الـبـذل تَـهْـجُـر أقْـفَـالَـهـا
وأصبحت العيس تطوي السُّرَى ... إلـيـه وتـشـكـوه أثـقـالَـهَـا
أعـدّ الـعـوالـي لأَعْـدَائـه ... وأبـطـل بـالـسـيـف أبْـطـالَـهَـا
ونـازل أقـرانـه فـي الـوغَـى ... فـأنْـزَل بـالـقَـهْـر نُـزّالَـهَـا
بِـشِـدّةِ يَـأسٍ لـه ذلـلـت ... أسـود الـهـيـاج وأشـبـالَـهـا
وألـبـس أضـداده فـي الـوَرى ... ثِـيَـاب الـهـوان وأسْـمَـالَـهَـا
وحـاز خـلافـة آبـائـه ... عـلـى رَغْـم حُـسَّـادِه نَـالَـهَـا
وقـد هـزّهـا الـشـوق مُـذْ أدركت ... بـتـلـك الـسـيـادة آمَـالَـهَـا
فـقـمـتُ أُهَـنّـيـه لَـمَّـا غَـدَا ... يُـشـيـد الـمـعـالـي وأطْـلالـهـا
وأنـشـدت عـلـيـاه أبـيـات مَـنْ ... أجـاد وأحـسـن إذ قـالَـهَـا

(أَتَتْـهُ الـخِـلافَـةُ مُـنْـقَـادَةً ... إلَـيْـهِ تُـجَـرِّر أذْيـالَـهَـا)
(فـلـم تَـكُ تـصـلـح إلاَّ لَـهُ ... ولـم يـك يـصـلـح إلاَّ لَـهَـا)
(ولـو رامـهـا أحـدٌ غَـيْـرُهُ ... لَـزُلـزلـت الأرض زلـزالـهـا)
(ولـم لـم تُـطِـعـه بـنـات الـقـلـوب ... لَـمَـا قَـبِـل الله أعْـمَـالَـهَـا)[1]
ودم أمَـدَ الـدَّهـر مـا أمَّـك الـ ... ـعُـفَـاة فـأحـسـنـت إنـزالَـهَـا

الفقيه محمد بن قاسم الرسمي[2]

أدِيبٌ إذا رسم، قَسَم الله له مِنَ الفَصَاحة ما قَسَم، سيف تُشْرُف به الحمائل، وزهرٌ تزهو به الخَمَائل، من قوم لهم ظهور الجِيَاد حصون، ولهم رياض رياسَةٍ لها من الصَّوارم جداول ومن الرّماح غُصُون، يَجْتنوْن من بين ورق الحديد الأخضر، ثمر الوقائع وزهرها الأنضر، بِأنامل السَّمهرية الصّعاد، وسواعد السيوف الحِدَاد، يمدون لصَيْد الآجال شباك الدروع، وَيُشَاهد منهم ثبت الجنان ما يروع، ما ساورتهم الأُسود إلاَّ ذَلَّتْ، ولا قابلتهم الجموع إلاَّ قَلَّت، فالعسير ببطشهم يَسْتَيْسِر، والبغاث بأرضهم يستنسر، وهذا الكامل، رمح من رماحهم عامِل، يُعَدّ من الرّياسة، بمحلٍّ لم يَلف فِيه مِنَ اللّحاق بِآبائه ياسَه، فهو للخطر يدوس على أن طيلسان شَبَابه سَدُوس[3]، عَرَفْتُه بكوكبان المُنِيف، وجالسته بمقام والدي الشريف، لأنه كان له صهراً ونَسَبَا، فازداد بالقرب من ذلك الإمام حَسَبا، فَجالستُ عظيماً، وساجلتُ كريماً، وقد طَرَّز حُلَّة مجده بالوقار، وملا دنَّه من الأَنَاةِ بأطيب عُقَار، فَمَا للجبال الراسية عنده في الرسوخ من نصيب، ولا لذوي الألباب في الرَّجاحة لديه سهم يُصيب، مع ظَرافة تُخَالط الأرواح، ولطافة تُمْزج بها خمرة الأقداح، وأدب كالقطر على الورد، ونَظْمٍ يُسَلِّم مَعَه النَّظَّام[4] لنظامِه بوجود الجَوْهر الفرد، وقد أملاني من أشعاره، ما سلبَ عقلي بأسحارِه، وروَّح خاطري بنسيم أسحارِه، فلم أزْقُم ما أمْلَى، وقد قال: هاك أخذتَ أم لا، ثم أسفت بعد الصّحو من السكر على

---

(١) أبيات ابي العتاهية المشهوره في المهدي.
(٢) ترجم له صاحب نشر العرف ٢/ ٧١٣ نقلاً عن كتابنا هذا.
(٣) أي طيلسان أخضر.
(٤) النظام هو أحد علماء المعتزلة له قول في الجوهر الفرد.

ما فات، وعلمت أن للدَّهر مصائب وآفات، ذلك التفريط يُعَدّ منها، ولا يخرج عند الحصر عنها، وإنَّما نَقَلْتُ له مَا أثبَتُّ، وأطلعتُ مِنه في روض هذا المُؤَلَّف وأنْبَتُّ، مِن إملاءِ بعضِ الإخوان، وهو في الحسن بمنزلة ديوان، وذلك قوله[1]:

صَدٌّ وإعـراضٌ وطـول تـجـافـي ... مـا هـذه شيـم الـكـريـم الـوافـي
أمُكَلفي ما لا أطيق مِنَ الهوى ... مـهلاً فـقد بـالـغتَ فـي إضـعـافـي
أتـظـنـنـي أسـلـو بـمـا أبـديت لـي ... هـيْـهَـات بيـنـي والـسـلـوّ فَـيَـافـي
أسرفت في هجري بغيرِ جِنَايَةٍ ... عـمـداً وقـد أسـرفـت فـي الإسـرافِ
وعـجـبـتُ كـيـف تـروم قـتـل مُـتَـيَّـم ... ولأنـت مُـتَـصـف بِـكُـلّ عَـفَـافِ
فلأعشقنّ[2] علـيـك كـل تـهـتُّـكٍ ... ولأصـبـرن وأن أطـلـت تـجـافـي
وكفى بأن أدعى قتيلك في الهَوى ... إن كـان قـصـدك بـالـجـفـاء تَـلافـي
وأرى الـسَّـلام مـع رضـاك تَـفَـضُّـلاً ... أشـهـى إلـى قـلـبـي مـن الإسـعـافِ
وشـكـيّـة أنـهـى إلـيـك بِـعَـاذِلٍ ... مـا زال يـحـمـل رايـة الإرجَـافِ
يـا قـاتـل الله الـعـذول فَـإنَّـهُ ... مـا زال مـشـغـوفـاً بِـكُـل خِـلاف
أيـظـنـنـي أسـلـو هـواك ولـو درى ... ما بي لأقصى[3] عن مدى الإيجافِ
لـكـنـه لِـقَـسـاوَةٍ فـي قَـلْـبِـه ... قـد ظَـنّ سـلـوانـي وذاك مُـنَـافـي
فـصـحـبـتـه خـوفـاً لأجـلـك فـي الـهـوى ... ومـن الـبـلـيـة صـحـبـة الأجـلافِ
يـا شـاهـر الـسـيـف الـذي فـي كـفّـه ... أغْـمِـد حِـسَـامَـك مـا بـطـرفـك كـافِـي
مـاذا تـحـاول بـالـذي أشـهـرتَـه ... فـي نـاظـريـك غِـنًـى عـن الأسـيـافِ
مـولاي رفـقـاً بـالـذي فـتـكـت بِـهِ ... بـيـض الـعـيـون ورقـة الأعـطـافِ
وبـمـا تـشـأ عـاقـب وعـامـلـنـي بِـهِ ... إلاّ بـطـول قـطـيـعـة وتـجـافِـي
واسـلـم ودمْ عـالـي الـجـنـاب مُـمَـنَّـعـاً ... مـا افـتـرَّ جـوهـر ثـغـرك الـشـفَّـافِ

---

(1) في نشر العرف ٢/ ٧١٣.
(2) كذا في (ب) وفي النشر فلأعتين.
(3) في النشر: لأقصر.

قوله: من البلية صحبة الأجلاف هذا المصراع جارٍ مجرى المثل ففيه من البديع إرسال المثل[1] ومنه قولي:

قـــاطـــعـــتُ أهـــل زمـــانـــي ... لـــمـــوجـــبـــاتٍ جَـــلِـــيَّـــه

فـــصـــحـــبـــة الـــضِـــدّ يـــومـــاً ... تُـــعـــدّ أي بـــلـــيـــة

وقلت في النثر أنا في دار: فلكها بالمماكسة دار، وصفوها شيب بالأكدار، ولذا لزمت زاوية الخمول، وما خَصَصْت بعض أهلها بالقطيعة بل نبذتهم على العموم والشُمول، وأرحتُ خاطري منهم باليأس فكأني تناولت كأس الشَّمول، أنفر عنهم نفور الوحش عن الإنس، لأني لست من صنفهم وإن كنا خلقنا مِن جنس، والإنسان وإن فقد السَّمير، لا يجالس الكلاب وينادم الحمير، فلهفي لفقد الأنداد، فقد عد من البلية العظيمة صحبة الأضداد، انتهى.

وما أحسن ما جاء للشهاب الخُفاجي رحمه الله تعالى من فِقَر ريحانته في فصل من لقيهم بالشام في ذكر الأجلاف وهو قوله[2]: فعاد الرائد خائِبا، والبشير ناعياً ناعِبًا، إذ بَدَت مُقْفِرة الأرجا، مُبَرِقَعَةً بالياس وجه الرَجَا، مِن دارِ أمواتُها أشراف، وأحياؤها أجلاف.

الفقيه زيد بن علي الخيواني[3]

فاضلٌ زاد بالأدب كمالاً، كما إزاد الجيد بالعقود الدرية جمالاً، ملأ من لآليه متسع جِرَابه لما سبق به طرف عزم جَرَابِه، هُذِّبت شمائله، وأينعت خمائله وأشرقت شمسه، وجاءت بلآلي البيان خَمْسه، وأمكن بِسُلَّم همته من الفلك لمسه، وتَم بأنوار فَضْله من نور البدر طمسُه، فأحْسِنِ بِزَيْدٍ تَعَجُّبَا، وأكرم بمخدرات فكره تحجّبا، لم يطمثهن قبله مبتكر، ولم يصل إلى مقاصيرهن فكر مفتكر، ما بلغ له

---

(١) إرسال المثل: نوع من انواع البديع انظره في خزانه الأدب لابن حجة الحموي.

(٢) ريحانة الالناء: ٢١٩.

(٣) من أدباء عصره المشاهير ولد سنة ١٠٧٣ واتصل بالعَلاَّمة المولى زيد بن المتوكل اسماعيل وكان شاعراً بليغاً جلى في ميادين الأدب وعلوم النحو توفي سنة ١١٥٠. انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١/ ٦٨٣.

أوجا، من راح في طلب المعالي أوجا، أديب سقى من أقلامه غصُونها، والتقط مِن ثمار أوراقِه مصونها، أدار شمول الفصاحة في كُؤُوس عِبَارته، وأوضح من لمعان برقها غامض إشارَتِه، صَرَّف جياد البلاغة في أعنتها، وثقّف سمّر الأقلام من سبج المداد عن أسنتها، طالما كَحّل الأبصار بإثمد مِدَادِه، فإذا هو الدعج في عيون الغيد بسواده، سوادٌ أنفذ من نَظَرِ الزرقا، لا يسهو عن السُّهى وقد خرق الخَرْقا، فهو زيد مسلة الكحل بِعَيْنِه، المبرأ فيما خطه قلمه عن شينه، جالستهُ فَجَالستُ الروضَ قطفا، وساجلته فساجلت النسيم لطفاً، وسمعت مِن نَفَثاتِه، ما تَقْنَعُ به عِوضاً عن العقود الأجياد، وتجمّلت بمطارف من محاورته لا تنشر الغواني مثلها في الأعياد، وتناولت زهر أدبه من منبته، ونفيتُ أدب العصريين عند مُثْبِتَهِ، وسمعت شعره مِمَّن قالَه، وبعت مهجتي بدنانيره بيعاً لم أطلبَ فيه الإقالة وهو في المُحاضرة أحوَذِي[1] وفي المذاكرة فَتَى بِدَرِّ النَّبَاهة قَدْ غُذِي، عرف من نسيم البيان عرفَها، وذاق من نهور باردها لَمَّا أحسن غَرْفَها.

وشعره مما ينفح ريحان فَرَادِيْسِه، ويصوغ مسك مِدَادِه وكافور قراطيسه، أنشدني له قولَه[2]:

هــذه بــابِـلٌ فَـخُـذ لـك حِـذْرا ... فـأنـا مـنـك بـالـلـواحـظ أدرى
فـاتـراتٌ يـا لـلـنُّـهـى ومِـرَاضٌ[3] ... سـلـبـت قـيـصـراً هـنـاك وكـسـرى
لا تَـقُـل إن لـي عـلـيـهَـا عـهـوداً ... فـلـكـم أبـدلـت لـك الـعـهـد غَـدْراً
تَـتَـراءى لِـنَـاظِـرِ الـصـبّ كَـسْـلـى ... وهـي عـنـد الـسـيـوف أنـفـذ أمـراً
كـم أراقـت دمـاً وكـم مـن عـيـونٍ ... أرّقـتـهـا تـرعـى الـكـواكـب شَـزْراً
يـا خـلـي الـفـؤاد خـذهـا وصَـاةً ... مـن نـصـيـحٍ أبـلـى الـمـحـبَّـة عُـذْراً[4]

(١) أحوذي: حاذق.

(٢) القصيدة في نشر العرف ١/ ٦٨٦.

(٣) في النشر «فاترات فواتك فاتنات».

(٤) : خبرا.

خُذْ يـمـيـنـاً إن جـئـت بـانـات نَـجْـدِ ... فـلَـكَـم مـهـجـةٍ هـنـالـك حَـرَّى[1]
عـلـمـت بـالـهـوى فـظـنـتـه سـهـلاً ... فـهـي فـي قـبـضـة الـصـبـابـة أسْـرَى
أنـا مـن ذلـك الـفَـرِيـق فـلـمـنـي ... أو فـدعـنـي والـعـذر بـالـصـبِّ أحْـرَى
كـنـت لا أعـرف الـغـرام فـلـمَّـا ... حيـث تـلـك الـربـوع شـاهـدت بـدراً
يـتـصـدّى لـصـيـد كـل فُـؤَادٍ ... قَـلَّـدُوه مِـنَ الـمـهـابـة سِـرًا
فـتـوهـمـتـه نَـزَال كـمـيٍّ ... وأنـا مـن عـرفـت بـأسـاً وحِـذْراً
فـغـدا كـلـمـا سَـلَـلْـتُ حُـسَـامـاً ... شـاهـراً مـن جـفـونـه الـسـود تِـبـرَا
وإذا مـا هـززت رمـحـاً طَـوِيـلاً ... مـدّ نـحـوي بِـقَـامَـةٍ مـنـه سُـمْـرَا
وإذا مـا أردتُ مِـنْـه فِـراراً ... مَـدّلـي مـن حَـبَـائـل الـصـيـد شـعْـرَا
فـأخـذتُ الأمـان مـنـه لـقـلـبـي ... ثـم سَـلَّـمـتـه هـنـالـك قَـسْـرَا

قوله: فاترات البيت. الفتور هو الضعف والمرض أيضاً كذلك فليته قال في البيت:

نـاصـبـات كَـسْـراً يـزيـدك رفـعـاً ... قَـيْـصَـرٌ خـاضـع لـديـه وكـسـرى

لكان أحسن، أوَّلاً: أنه يتفق له في البيت مراعاة النظير أو التّوجيه بالنَّصب والكسر والرفع الذي هو بعض من وجوه الإعراب والبناء المعروف عند النحاة، ثم أنه يتم له الجناس بين قوله كسراً الذي هو من الكسر، وكثيراً ما يوصف الطرف بالكسر عند الأدباء، وبين قوله كِسرى الذي هو الملك المشهور، ثم أن الخضوع الذي جئنا به في التَّصويب أليق بكسرى الذي هو الملك، من السَّلب الذي قال فيه (سلبت قيصراً هناك وكسرى)، لأن المعنى أن قيصراً وكسرى الملكان اللّذان ليس من شأنهما الخضوع والتَّطاطؤ لعلوّ همة الملوك وسموّ نفوسهم، فهم لا يخضعون وإنما يُخْضَع لهم، ولكنهما خضعا لهذه اللحاظ الفاترة الضعيفة فالخضوع هنا أنسب من السَّلب الذي جاء به في بيته كما ترى.

---

(١) النشر: خسرا.

وأنشدني له من قصيدة أجاب بها على مَنْ كتابه بقصيدة مثلها:

أمَنْظر الرّوض مخضر الجناب ندى ... أم لؤلؤٌ بين منثور ومنتضِدِ
أم نسمة الصبح قد هبَّت معنبرةً ... فهيّجت شجناً للطائر الغَرِدِ
أم الدَّرَاري أم الدرّ النظيم أفق ... هذي المقالات قد تعزى إلى الحَسَدِ
استغفر الله ما الروض النظير ولا ... العقد النظيم ولا منفوثة العُقَدِ
أبهى وأبهج من نظم يُنَمِّقُه ... غصن اليراع وحاشاه من الأَوَدِ
لو كان حسناً لكان الخدّ في ضَرجٍ ... والثَّغر من لعسٍ والقد في مَيَدِ
أو كان شخصاً لكان الشمس في شَرَفٍ ... والملك في موكب الأعداد والعُدَدِ
والمؤمن العائذات الطير تمسحَها ... ركبان مكة بين الغِيْل والسَّنَدِ
ما مثله من نظامٍ رق لي وجلا ... ولا كناظمه في النّاس من أحَدِ
علاَمَةٌ عَلَمٌ في صدره حِكَمٌ ... متلوة أبداً فينا يداً بِيَدِ

وكتب من منثورٍ له إلى بعضهم قوله:

المحدث الذي قيّد شوارد الحديث بسلاسل الإسناد، والشَّاعر الذي شيّد قصور بيوت الشّعر وأشاد، والنحوي الذي ألجم ابن السّرّاج[١] له جواد العرفان، ووقف ابن الحاجب على الباب طالباً منه الاستئذان، المنطقي الذي نتائج فكره أمضى من الحد، والفرضي الذي استحق سَهْم الفضل بالفرض والردّ[٢]، والفقهي الذي أرى الإطراء عليه من باب الوجوب[٣] لا الاستحباب، والبياني الذي استوعبت خصائصه ألفاظ الإيجاز والإطناب، جامع أشتات المكارم والمعالي الآنس منها والشارد، وليس من الله تعالى بمستنكر جمع العالَم في واحد.

---

(١) ابن السراج هو محمد بن السري بن سهل أحد أئمة الأدب والعربية من أهل بغداد له كتب في النحو. توفي سنة ٣١٦ (بغية الوعاة/ ٤٤ الاعلام ٦/ ١٣٦).

(٢) الفرض والرد في اصطلاح علم المواريث هو: أن الفرض عندهم بمعنى الحصة والنصيب، والرد هو توزيع ما فضل عن الحصص الأصلية لذوي الفروض لعدم وجود عصبة من الورثة.

(٣) الوجوب. والاستحباب: من الفاظ الفقهاء وكتبهم وفي تعريفات المناوي: ٧١٨ الوجوب. هو ما يستحق تاركه الذم والعقاب.

ويعجبني من منثورٍ له كتبه إلى من أجاب عليه بنظم ونثرٍ قوله:

وقد قابلتُ دُرّ فصاحتك بالحَصَى، وهززتَ سيف البلاغة مُصْلتاً فهززتُ العَصَا، استغفر الله فإن حَصَى سبّحت بكف نبيّنا ﷺ لتشمخ على الدُرّ في الأسلاك، وإن عَصَى موسَى الكليم لمبطلة لسحر كل آثمٍ أفَّاك، انتهى.

وقد نظم في حصر نزول جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي على ما رواه العلاَّمة العامري[1] رضي الله عنه في كتابه «بهجة المحافل»[2] فقال:

قـد نـزل الـروح جَـبـريـلٌ مَـنْ أودع الله فـيـه سِـرَّه

عـلـى شـفـيـع الأنـام طـه سـتـاً وعـشـريـن ألـف مَـرَّه

السيد إسماعيل بن محمد فايع الشامي أصلاً الصنعاني محلا[3]

أقْسِمُ بِمَعاليه أنَّ الفضل مِنْ جُملة مَوَاليْهِ، وإنَّ النيّرات من خَدَمِهِ، وأنّ وُجْدَان ذِيْ المَجْد عِنْدَهُ كَعَدَمِهِ، سَيِّدٌ رَعَى حَقَّ السِّيَادة، وَمَاجِدٌ له الفخار سَجِيَّة وَعادة، وكَرِيمٌ سَمُوخ، وَجَوَادٌ في المَوَاهب طَمُوح، فَقِفْ مِنْهُ في أشْرَفِ مَحَلٍّ وَنَاد، وَاْدْعُ مَكَارِمَه المُسْتَفِيض خَبَرَها وَنَاد، تُجِبَ إلى مَطْلُوبِك، وَتَظْفُر مِنَ الأَرب بمحبوبك، قَرَأ في طليعة العُمْر، قَبْلَ أن يَهِيمَ بالضُمْر[4]، فحَصَّل مَا عُدَّ به في الصُّدُورِ، ورقى حتَّى نزل مَنَازِلَ البُدُورِ، وَلَهُ بتَحصيلِ الكُتب[5] أيّ لَهَجْ، وبقَلْبه مِن شَوْقِهِ إليها أيّ وَهَجْ، فكم لديْهِ مِنْها مِنْ نَفِيْسٌ، وَكَمْ عِنْدَهُ مِنْ جُلسائِهَا مِنْ أنِيْس، يَسْكُن إلَيْه فِيْ

---

(١) هو يحيى بن أبي بكر العامري الحرضي من العلماء الكبار. . ولد سنة ٨١٦ وهو محدث اليمن له مؤلفات كثيرة. توفي سنة ٨٩٣ (انظر مصادر الفكر الإسلامي ٥٢).

(٢) بهجة المحافل ١: ٦٧.

(٣) أديب تولى الوزارة في زمن المنصور بن الحسين بن القاسم، وكان مقداماً نجيباً جمع مكتبة كبيرة، مولده بصنعاء سنة ١١٠٦ وكتب المؤلف هذه الترجمة وصاحب الترجمة في الوزارة والشباب، ووفاته بعد سنة ١١٨٨. انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١/ ٤٠٤.

(٤) الضمر: الجياد والخيل.

(٥) قلت: بواسطة هذا الوزير الجليل وصلتنا أغلب كتب الأديب أحمد بن محمد الحيمي مؤلف هذا الكتاب فجزاه الله عن الأدب خيراً.

الخلوة، ويَجتلي مُحَيًا قِرْطاسَهُ أيَّ جَلْوَه، فَإنْ بَرزَ فَعَلَى ظَهْرِ جوَاد، وإن كَمَن فَعَلى بَطْنِ دَفْترِ يَشفى بحديثه الفُؤاد، فَقَدِ اعْتَمَد في حَالَتَيْهِ مَا قَالَهُ أحمدُ، الَّذِي شَفَا بِحكْمِهِ كُلَّ قلْب مكمد، وجَلا بالنَّظَرِ في دِيْوانِهِ كُلَّ طَرْفٍ أزمد[١]:

ألذُّ[٢] مَكَانٍ في الدُّنَا ظَهرُ سابحٍ　　وَخَيْرُ جَلِيسٍ في الزَّمانِ كِتَابُ

وَلَهُ في الذَّكَاء نَارٌ تشتعل، وفِي تَطلب المَعَالي جِيَادٌ بِأهِلَّة الأفق تنتعل، فَكَمْ شمَّر في مُزَاحَمَةَ الأَفَاضِلِ لَهُ ذَيْلاً، وَكَم مَدَّ في آفاقِ القَرَاطيس من مدادِهِ لَيْلاً، ظَهَرَتْ تَحْتَهُ نجُومُ كَلِمَاتِهِ الزَّواهِر، وَتَبَلَّجَتْ خِلالَ فَاحِمِهِ الأَقْمَارُ البَوَاهِرُ، طَالَ ما أتحفَنِي بِمَا نَظَم، وَلاَطَفَنِي مِنْ شعره بمَا أهان دُرَّ اليَمّ وَهَضَم، من نَظْم كأنَّهُ الدّرر إذا سُلِك، والياقُوتُ إذا تَختَّم بِنَفيسه الملك، فَكَم زَفَّ إليَّ مِنْ بنات فِكْره خَرِيدَة هِي في حُسْن قَدِّها المُتَثني، فَرِيْدَة جَلاَها مِنْ قِرْطاسِهِ عَلَى مَنَصَّة، فَرَأيتُ لَهَا جِيْداً لاَ يُقِيسُ جِيْدُ الظَّبْيَ نَصَّه، لَهَا وَرْدُ خُدُودِ لا تُطْلِع مِثْلَه. جُور[٣]، وثَغْر لا يأتي البَحْر المسجور بمثل لُؤلؤه المشجُوز.

نَقَلَ لي مِنْ شِعْره نَمُوذَجاً، كأنَّه سَجْعُ الطَّيْرِ الغَرد وَقَدْ شَجَا، أو كَأنَّهُ الرَّوْض عَنْ زَهْرِهِ قَدْ تَفتَّق، أو كَأنَّه الشَّرابُ المُعتصَرُ المُعَتَّق، ثَمِلَتْ به أعطافِي وأنْتَشَتْ، وَملأت كَاسَاتِهِ تأمور الفؤاد بالمَسَرَّة وحست.

من ذلك قَوْلُهُ من قَصِيدَةٍ، غَدَتِ المهج بشباك رَقْمِها مَصِيْدة، وَذَلِكَ عِنْدَ وَصفِ الخَيْلِ المُطَهَمة، المُختَالَة مِنْ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ في المَلاَبِسِ المُسَهَّمَة، خَاطَبَ بِهَا المولى المَنْصُورَ بالله الحُسَيْن، الإمَامَ الَّذِيْ هُو في الآل إنْسَانُ العَيْنِ، وأوَّلها:

بُسْتانك الخَيْلُ بالتبجيل[٤] والغُرَرِ　　تَلْهُو بِهَا لا بِنَجم الرَّوْضِ وَالشَّجَرِ
أعطافُها فِي مَيَادِيْنِ الطِّرَادِ لَهَا　　زَهْوٌ لَهُ بَهْجَةٌ في القَلْب والنَّظر

---

(١) ديوان المتنبي: ٥١٧.
(٢) الديوان: أعز.
(٣) جور: مدينة فيروز آباد وقد تذكر فتصرف لأنها حينئذٍ تصير مثل نوح وهي التي ينسب إليها الجوري. وهو الشديد الحمرة.
(٤) في (ب) التحيل ولعلها التحجيل.

لَهَا مِنَ الحُلْيِ مَا لِلرَّوضِ مِنْ مُلَحٍ   إذَا تَزَيَّنَ بالأوراقِ والزَّهرِ
تَظَلُّ تَمرَحُ فِيهِ كَالعَرائِسِ إذْ   تَمشي إلى سُجْفِهَا مِنْ أرْفَعِ السُّرُرِ
وكالأهلة تَغلُوها السُّرُوج إذَا   لاَحَتْ وَمِنْ فَوْقِهَا المَنْصُورِ كالقَمَرِ
وَكَمْ رِكَابٍ لَهَا قَدْ صِيْغَ مِنْ ذَهَبٍ   غَدا لَهَا كَجَناحٍ غَيْرِ مُنْتَشِرِ
تُفَاوِتُ السَّهْمِ في مَهْوَاه حِين يُرَى   مُفَوَّقاً في يَدِ الرَّامِيْ مِنَ الوَتَرِ
لَوْلاَ أعِنَّتُها اللاَّتِيْ تُرَدُّ بِهَا   أمَّتْ لِنَسْرِ السَّما كالطائِرِ الحَذر
وَمَا أُعِدَّت لِزَهْوٍ في مُطَارَدَةٍ   لَكِنْ لِغَزْو عَدُوٍّ جاء بالنُّكُرِ
يُعِزّ عَنْ طَاعَةِ المَنْصُورِ جَانِبَهُ   لِغِرَةٍ مِنْهُ لاَ عِزٌّ لِمُقْتَدِرِ
تَنُوبُ عَن كُتْبِه في الطِّرْس ما كَتَبتْ   مِنْهَا سَنَابِكُهَا بِالقَدْحِ في الحجَرِ
صَهِيْلُهَا لِذَوِيْ الألبَابِ إنْ عَقَلُوا   مُحَذِّرٌ مُنْذِرٌ مِنْ أعْظَمِ النُّذُرِ
وَإنْ دَهَتْهُم شَيَاطِيْنُ الغُرُورِ فَيَا   وَيْلٌ لَهُمْ مِنْ رُكُوبِ الهُلْكِ وَالخَطَرِ
إذَا ارْتَقَوْا فَوْقَ هَامِ النَّجْم مِنْ حَذرٍ   وَافَتْهُم بِمَنَايَاهُمْ عَلَى الحَذَرِ
لَمَّا بَنَتْ سُلَّماً مِنْ عِثْيَرٍ كَثُفَتْ   كُثْبَانُهُ فَهْوَ بالإطْلاقِ في الأثَرِ
ظُلاَمُهُ كَظَلاَمِ اللَّيْلِ لَيْسَ لَهُ   مِنَ النُّجُوم سِوَى الخِرْصانِ[1] وَالغُرَرِ
فَلاَ مَفَرَّ لَهُمْ مِنْهَا وَإنْ صَعَدُوا   أو ارْتَقَوا مُرتَقَى الأوْعَالِ والنَّمِرِ
يَا زِيْنَةَ المُلكِ وَالأيَّامِ هَلْ مَلَكٌ   صُوِّرْتَ أم أنْتَ قَد صوّرت مِنْ بَشَرِ
فَإنْ أبْصَارَنَا تَرْنُو إلَيكَ وَمَا   تَرَاكَ إلاَّ كَضَوءِ الشَّمْسِ والقَمَرِ
عَلَيْكَ بَهْجَتُهَا وَالبُعْدُ يَسْتُرُهَا   وَأنْتِ بالقُرْبِ مِنَّا غَيْرُ مُسْتَتِرِ
إنِّي أُعِيذُك بِالفُرْقَانِ مِنْ نَظَرٍ   بِعَيْنِ سُوء وَبالأحزَابِ وَالزُّمَرِ
يا صاح هَلْ قد مضى مِنْ قَبْلِه ملكٌ   لَهُ انْتِسابٌ إلى السَّادات مِنْ مُضَر
أكرِمْ به من إمامٍ جودُ أنمله   من النُّضار كَهطَّالٍ مِنَ المَطَر
فَجُوده يُرتجى في كل آونَةٍ   وَلا يُكَدِّرُهُ مِيعَادُ مُنْتَظَر
لاَ زال في نِعْمَةٍ مَخفوفةٍ أبَداً   بالعِزّ والنَّصْرِ وَالتَّأييد والظَّفَرِ

(١) الخرصان: الرماح اللطيفة

وقوله:

بالله حدّث عن الأحباب ما صنعوا ... لِرُتْبَتي خَفَضوا في الحُبّ أم رفعوا
وعن فؤادي الَّذي أضحى وَدِيعتهُمْ ... وَمَا رَعَوْا ذمّة فِيْهِ بما صنعوا
لي فيهم غادةٌ هَيْفا لَهَا مُقَلٌ ... لو قابَلتْ أهل صِفّينِ بها دُفِعوا
وأصبحوا خوف ذاك اللحْظِ تنظُرُهم ... أُسْداً تُمرُّ فرادى ليس تجتمعُ
خَلاَ الإمام أمير المؤمنين فلا ... يروعُهُ ما يَروعُ القَوْمِ إذْ فَزِعوا

وقوله وقد طارده على الخيل في الميدان، خليفة الزّمان، أيّده الله تعالى فَغَلَبَهُ عِند الطراد تواضعاً لَهُ بعد أن أمر الخليفةُ بقتلِ رَجُلين أحَدهُما يلَقّبُ بالأحمر والآخر يُقال لَهُ الشُّظْبي بِضَم الشين المُعْجَمَة نِسْبَةٌ إلى قريةٍ يقال لها الشُّظبة فقُتلا وأبين رأس كُلّ مِنهما.

قالوا غلبت على ما قد عرفت به ... من الفراسة في جدٍّ وفي لعب
فقلتُ جهلُكم للأمر يعذُرُكم ... عندي إذا ما تعامَيْتُم عن السَّبب
أمَا الَّذي بسنَان الرُّمح قَابلَنِيْ ... هُوَ الخَليفة أعلى النَّاس في الرُّتَبِ
الفارسُ البَطَلُ الضِّرغَامُ هيبتُهُ ... تَرُوعُ من شاخَ في الدنيا وكُلَّ صبي
لو أمَّ بالرُّمح صخْراً ذاب من فَرَقٍ ... ذوب اللُّجَيْنِ وقد أحمى على اللَّهب
أردى بِأبيضِهِ الهندي أحمرهُمْ ... وَبالمُشطب أمضى بعدهُ الشُّظُبي
إمامنا القائم المنصور مالكنا ... ماضي العزيمة في عُجمٍ وفي عرب
لم أدر من خجلٍ بي منهُ أو فرحٍ ... ذهلتُ من دهشٍ في الرَّوع أم أدب
حتّى لقد غِبْتُ عَن تقبيل راحته ... لمَّا وَجَدْت بقلبي مِنْهُ من طرب
وعن دُنوّي إلى تَقبيل أخمصه ... ما لا يُعَنِّفني في ذاك غير غبي
لا زال طالِعُهُ بالسّعدِ مُقْتَرِناً ... ما لاحَ بَرْقُ الدُّجا في أغدق السُّحُب
أو ما هَمَتْ لِذَوي الحاجات رَاحَتُهُ ... كالغَيْثِ بالفِضَّةِ البَيْضاء والذَّهَبِ

وقوله فيه:

لو شاهَدَتْ عيناك منصُورَ اللّوى ... المَنصُور نجل القاسِمِ بن حُسَين

وجـوادُه كـالـبَـحـر يـزخُـرُ تـحـتـه ... ونَـدَاهُ مِـثـلُ الـبَـحْـرِ بـالـكَـفَّـيْـنِ
لَـبَـلـغـت يـا مُـوسـى الـمُـنَـى بـلـقـائِـهِ ... خَـضِـرَ الـنَّـوال بـمـجـمـع الـبـحْـرَيْـن

وقولُهُ فِيْهِ لَمَّا أطَالَ مُكْثَهُ فِيْ دارٍ من دُوْرِ قَصْر صَنْعاء المحميّ تُسَمَّى دَارَ عَامِرٍ، ولَم ينتقل إلى غيرها من الدُّور لأنَّها حديثهُ عَهدٍ بالعَمَارة مستجدة الأساس فرغب إلى سكونها ما لا إلى غيرها من سائر الدُور المشيّدة في القصر السعيد والبستان ودار سنان ودار الجامع وغيرها.

وفي النَّظْمِ التضمين:

لقـد قـالـت الـدُّور الـتـي طـال شـوقـهـا ... إلـيـك وعـن ذكـراك لـم تـتـعـطَّـل
إلـى كَـم يـكـون الـلُّبـثُ فـي دار عـامـرٍ ... تـنـقَّـلْ فـلـذَّاتُ الـهَـوى فـي الـتَـنـقُّـلِ

وقوله مضمّناً مع زيادة اللفّ والنّشر المُرَتَّب:

فـي لاَمِ عـارضـه ورمـح قَـوَامِـهِ ... وافـى وقـدْ فَـضَـح الـغَـزَالـة بـالـسَّـنَـا
فـخـشـيـتُ مِـنْ فَـتـكِ الـرَّقـيـبِ فـقـال لـي ... لا تَـخْـش وانـظُـر فـي الـحـقـيـقـة ما هُـنَـا
أتـرى الـرقـيـب يَـحُـوم حـولـك بـعـدمـا ... «زرنـاك فـي زَرَدِ الـحـديـد وفـي الـقَـنَـا»(١)

وقوله:

في مليح جندي سلَّم عليه وقبَّل راحتَه وعلى عاتقه بندق الرَّمي وفي يدِهِ اليسرى فتِيْلُ النّار.

ففي النَّظْم التَّورية مع الاقتباس:

أهـوى إلـي شـفـاتُـهُ مـسـتَـهـتـراً ... كـيـمـا يُـعَـلّـل مـهـجَـتـي تَـغْـلـيـلاَ
فـنـهـيـتُـهُ عـن ظُـلْـم أربـابُ الـهـوى ... ورأيـتُ شـيـئـاً مـن يَـدَيْـهِ طـويـلاَ
فَـسَـألْـتُـهُ عـنـهُ فَـقَـال وقـد غَـدَا ... مُـتَـبـسِّـمـاً (لا يـظـلـمـون فَـتِـيـلاً)

---

(١) من قصيدة للإمام عبد الله بن حمزة.

وقوله مُضَمّناً لبعض مصراع بهَاء الدِّين زهير رحِمَهُ الله تعالى[١] وفيه التَّورية والاكتفاء.

لم أنس إذْ قالَ خلِّي ... وموقِفُ الأُنس خالي
بالله هَلْ لك وفْراً ... مالٌ أجِبْ في سُؤالي
فَقُلْتُ ما قال غَيْرِي ... «أنتَ الحَبِيبُ وَمَالي»[٢]

وقولهُ: وقد أمر مملوكَةً حبشيَّةً أن تأتيه بكُوْزِ الماء ليشرب فقالتْ بَقّوه بفتح الباء المُوحَّدة وتشديدِ القاف المفتوحة فسأل عن معنى قولِهَا بقوه فقيْلَ لَهُ هو بمعنى مرحباً ونحوه:

ففي النَظم التَّورية:

تمكَّن في الفُؤاد هوى إماءٍ ... بِمَاء الوصل إذ ملكوهُ سَقَّوه
أراهُمْ بَعْدَ ما سَلَبوه منّي ... عَلَى رُغمي بإحْسانٍ تَلَقَّوْه
وَقالوا هَل نُبَقّيه لَدَيْنا ... وتَسْلُو أنت عَنْهُ فقُلْتُ بقّوه

ومن رائق شِعْره الذي فاق، وحصل على جودته ممن اطلع عليه الاتفاق، واشتمل مِنَ المحاسِن على كُل بديع، وَقَام بالشهادة لنفسه فحكم له على الجميع.

قوله يرثي الإمام المتوكل على الله القاسم بن الحسين بهذه المسمطة، فما سواها عن رتبتها في الأبداع منحطة، ولعمري لقد سلك من الاختراع طريقاً، واقتطف باكُورة روضٍ ما هو إلاّ نرجساً وشقيقًا، فَقُل لمتعاطي الأدب انتحالا، ومَنْ رثى ملكاً وغَالى، ذي المعالي فليعلون من تعالى، هكذا هكذا وإلاّ فلالا، وهي:

---

(١) من هنا تنتهي مخطوطة (ز) فيكون اعتمادنا هنا على (ب) و(ش).

(٢) من مطلع قصيدة للبهاء زهير هو قوله:

أنت الحبيب ومالي عنك سلوان ... وفيك ضجّ عليّ الإنس والجان

أما العيون فقد أفاضت أبحَرا ... دمعاً غزيراً كالعيون تَفَجّرا
وعدمت من قلبي السرور فلو تُرى ... لرأيت شخصاً من رآه تحيرا
قطع الليالي حسرة وتفكرا

أسفي لدفنك في الضريح ووحشتي ... لِفراق وجهك لا أراه بمُقلتي
وإذا ذكرت مكَارِم الخلق التي ... هي روح روحي في الحياة وَجَنّتي
أدركت ناراً في الفؤاد تسعرا

حرّي على وجهٍ يسر إذا بدَا ... أضْحَى دفِيْناً باليمين موَسّداً
وعلى أكفٍ مِنْ أنامِلِها الندى ... أندى على الأكباد من قَطْر النَدَى
وألذ في الأجفان من سنة الكرى

وأجل أن لِكُل مَخلوقٍ أجَلْ ... فلكم مليك عاش دهْراً وارْتحل
والحزن قد يُنْسى قليلاً أو يُمل ... أمّا عليك أبا الحسين فَلَم يَزَل
حزني جديد الثّوب حتى أقبرا

ويُزيدني القَصر الرّفيع تحسّرا ... إذا صار منه الرّبع بعدك مقفرا
بعد القراءة منك فيه والقِرى ... لَم ألق فيهْ بعد موتك مُخْبرا
إلا صريخاً بالقيامة منذرَا

ناديت إذ غُصّت بفيض مدامعي ... عيني وضمت عند ذاك مسامعي
ماذا الذي ألوَى بدار الجَامع ... يا لهف نفسي هَل لهُ من دافع
وطفَقْت من ولهي هناك محيّرا

وَرَأيت من صَبْري تلون مذنِب ... إذ قال ضاق بحَمل حزنك مذهبي
وأهان من جَلدي مَعالق منكبِي ... فاذهب ولا تعجب لمثل تقلبي
إذ لم تجد لي مسعداً فتصبّرا

ولقبّة البستان طال ترددي ... لأراك فيها بالخلافة مرتدي
فَخلَتْ كأن جنابها لَم يُسْعد ... فلكم أتيتَ بهمِ قلبِ مكمدِ
فأعود منها ضاحكاً مستبشرا

لكنني لمّا رأيت زهُورها غربيَّ قبرك ما تَضاءل نورَها
قرّت به عيني وَحان سرورها وعلمت أن القبر منك يُسرها
ويسرّها بالسرّ لما أن سَرَى

يَا سَفح حدّة[1] أين بهجتك التي قد كُنتُ تُبديها لكُل مَسرّةِ
كانت لِزائرها تُرى كالجنّة قُلِّي فقد عظمت لذلك وحشتي
إذ كنت معروفا فصرت منكّرا

ما هدّ دار العين عن بنيانها حتّى أزال النور عن إنسانها
وتَبدّلت بالبُوم عنِ سُكّانِها فأجَابني متحمساً عن شأنها
هذا حديثك لي أراه مُفْترا

أو ما علمت بأن مولاها قضى فتبدَّلت بالسخط عن عين الرضى
فَسَوادها قد عاد منها أبيَضَا وحُميسها متحمّس فيه مضى
للغَيْض في حيطانها متكسّرا

إذ كان ينبوعاً لها وَلِغَيْرها يَنْساب تحت غُصُونها وزهورها
وإلى مساجدها لأجل طهورها لا يستجيز أن يمر بدورها
إلاّ وقد وافى الخطيب المِنْبرا

فله بشاذَرْوان دار المفرج قدْ يقوم لخدمة المتفرج
وإلى الخليفة ينثني كالملتجي ويبث شكواه له بتَلَجْلج
حتى يكاد لديه أن يتعثّرا

وإماء تلك الدّار في أيامِهِ متفيئات تحت ظل خِيَامِهِ
وعلى مضاربهن من إعلامِهِ مَا طال مُغتدلاً بلين قوامِهِ
بمحبّهن إذا لبسن مشجّرا[2]

فلأي خطب قد لبسْن الأسْوَدَا ونَشَرْن شعرا للرؤوس مُجعَّدا

---

(١) ضاحية من صنعاء.

(٢) المشجر: من ثياب النساء في ذلك الوقت.

وصككن خداً بالدموع مُخَدّدا هذا لِعَمْر أبيك عن أمرٍ بدَا

منه النَّذير لمن رآه فأبصَرا

قد كنّ في الأعياد يلبسن القبا ويرى لأكثر هن في ذاك الرُبَى

مِن نشوةِ الإعجاب أو سُكرْ الصِبَا يفزعن من حَذَرٍ إذا هَبّ الصَبَا

صَوْناً لذاك الحسن أن يتغيّرا

فمحا جديد الحزن ذاك الحُسْن من تِلك الجُسُوم النّاعمات فلم يبْن

وَكذي السرور بضل مفرحه قرن ومن استغرّ وما استفاق فقد فُتن

هذا نراه من الزمان مقرّرا

أو ما ترى الحَمَّام من بُرَحائه مُذْ زاد حرّ الحزن في أحشائه

وأراد يُطفيه ببارِد مائِه لحقت حرارته بأفق سمائه

وتنفَّس الصُّعدا وزاد تحسَّرا

والخَيْل قد وَقَفت لوقع مُصابِه وجثت لحسْرَتِها على أبوابه

يُغْيي الجوَاد الضّخم حَمْل ركابِهِ وهو الذي قد كان في أضرابه

يقف النسيم وراءه مهما انبرى

نَحبٌ قَضَى الشّيبان مِنه نحبه لمّا أشاب الحزن مِنْه قَلْبَهُ

وأطار وقع الخَطْب مِنْهُ لبَّهُ فَدَعى بإخلاص العَقيدة ربّه

مُتبتّلاً أن لا يكون معمَّرا

وَالرّعد كم مطرت سحائب جَفْنِهِ دَمعاً مشوباً بالدِّما من عينه

ما كان يخطر مثل ذا في ذهنه إنَّ الخليفة يجتنى من غُصْنِهِ

من بعد ما قد كان غصناً مثمراً

كان السباق لها بروضة حاتم حتماً يراهُ مثل فرضٍ لازم

تختال في الأرسان تحت شكائم وقتامها كالعارض المتراكم

منه النهار يصير ليلاً مقمرا

يصبو إليها صبوة المتشوق وحبيبه منها الذي لم يُسبق

تختالَهُ يختال تحت السنجق وإذا أغارَ مُغامراً في فيلق
نسجت سنابكه عليه عثيرا

من ذا الذي يختارَهُ من بعده لا من أقاربه ولا من جُنْدِه
إذ صار مرتهناً بحفرة لحده والموت يعجز من سعى في ردِّه
أفنى الملوك وما تحامى قيصرا

والله لم يدع الكريم مُضَيّعا إذ صار في بطن الثرى مستودعا
كم قُلت لو أني يجاب لي الدّعا يا ليت أني وهو في لحدٍ مَعًا
وأضمه حتى نُلاقي المَحْشَرا

قل للمريد تبركا بضريحه ذات اليمين فإنّه في سوحه
لترى لروحك راحة في روحه فانهض إليه مؤملاً لفتوحه
تلق الغنى منه ولم يك مقترا

يا أيّها المولى الإمام المنتقى الحزن قد صدع القلوب وأحْرقا
والدّمع هامٍ كالسَّحائب مَا رَقَى يَا مَن على هام الثريا قد رقى
أثريت في الدنيا وصرت إلى الثرى

حيا سحاب العفو من رب السَّما قَبْراً حوَى الملك الإمام الأغظما
عَلَم المكارم والهدى حامي الحمى القاسم المتوكل المروي الظَمَا
بمكارم عزبت وفاضت أبْحُرا

شملت فواضلها البلاد وأهلَها كم طبقت حَزْن البلاد وسهلها
لا تستطيع عداه نيل أقلها ولذا حَوى شرف المكارم كلّها
مُذ قصّرت عن نيلها كل الورَى

فعليه من رَبِّ السَّماء تحيّة تَتْرى عليه بكرة وعشيّة
هذا وأقسم حِلْفَةً وأليةً لَم أنس أخلاقا له مرضية
ما أشرقت شمسٌ وبَدْرٌ أسْفَرا

وعَلَيْه صلى الله بُعد محمّد والآل من صدقوا لديه عن يدِ

ما غَرّدت وَرْقا على غُصْنٍ ندي   في الرّوض من شَجَنٍ لها مُتَردد
تُمْليه من فوق الغصون مكرّرا

لله درها مرثاة صدَعتِ الفُؤاد، وفَعَلَتِ بالقلوب ما لا تفعل البيض الخراد، ولا غرو فهكذا الحب النفساني يفعل، وقد وجد مكان القَوْل ذا سعةٍ فوسّع العمل، ولعمري أنها من المراثي التي قل لها النظير، واشتملت من فنون الافتنان على الكثير، وتأتت له اللطائف على التَّيسير، ولا ينبئك مثل خبير، ولقد كان هذا الإمام من المكمّلات كما قال، ومن عرفه حَقّ المعرفة اتسع له في وصف محاسِنِه المَجال.

وقوله:

ناديتُ محبوبَ قلبي إذ غدا ملكاً   وصار لِلوَصل في حُبِّيه مُنتَبذا
أفسَدت قَلْباً به مَثْواك عَنْ مَلَلٍ   فَقال مُقْتبساً إنّ الملوك إذَا

وقوله:

نَبَا سَيْفُ التَّصبر عند وغدِ   تقاصر عنْدُهُ يوم الحِساب
فأمَّا أنْ تَجُود به وإلاّ   قطعت الإتصال به بنابي

وقوله:

هلْ مُجيرٌ مِنْ غَزَالٍ   راش من عَيْنَيْه نبلا
ثُمّ سلت لي سيوفاً   من رآها ما تسلّى
قُلْتُ منها كَلّ جهدي   قالَ كلاّ قلت إلاّ

ولما وقف على كتابنا المسمّى «الوشي المرقوم على الدرّ المنظوم» وهو شرح رسالة الإمام الواثق عليه السلام وطالعه كتب إلي قوله:

شهابُ الهدى أودعت تَضنيفك الَّذي   حَوى العلم أصنافاً فَلمَّا تدَع شيًا
وأبرزتَهُ في الحُسْن أجمل غادةٍ   فما حُسْن ليلى في الملاح ومامِيًا
وقَلَّدتها المنظوم من در لفظكم   وألبستها مما نسجت لها وشْيا

وسمَّيته إسماً به صار شامخاً على كل تأليف إلى أشمخ الرُّقيا
تكلمت في الأبحاث لا عن فهاهة ولمَّا تقف عَجْزاً بذلك أوْ عَيَّا
ألا هكذا إن باءَ بالمجد ماجدٌ ألا هكذا في القوم من أدرك العليا
فمن دونه في الحق معجز أحمد فقد فاوت الموتى وقد أعجز الأحيا
فلا برحت أوراق ما قد زَبَرْته تفوح بطيبٍ أو بزَهر الرُّبَى ريَّا

وكتب إليَّ قوله أيضاً:

قاضي القضاة وأبلغ الفُصحاء باكرت أبكاراً مِن البلغاء
ففتقت منها كل مَغْنًى مُشْكلٍ حتى غدت أجلى من ابن جَلاء

وكتب إلي من الكلام المنثور لمَّا أرسلت إليه بكتاب الوشي المرقوم المذكور وبكراريس كثيرةٍ من هذا الكتاب الذي هو «طيب السَّمُرْ في أوقات السحر» ما صورتُهُ:

حرس الله تعالى إنسان عين الأدب الغضّ، والوارث من آبائه خصال المحامد بالرد والفرض، المستولي على ثغور المعارف بسيوف ذهنه ورماح أقلامه، والنَّاشر عليها أوراقه فما نشر إلا خافقات أعلامه، لا برح في جَبِيْن الدَّهر غُرَّة زاهرة، ولا زالت أنوار مصنَّفاتِهِ لعيون المصَّنفات قاهرة، وصلني من مُشَرفه كريم من عند كريم، فلزِمته شغفاً به لزام الغريم الملح للغريم، وقمت له إجلالاً وتعظيماً، وانتصبتُ على قدم الإنصاف تَبْجيلاً وَتْكريماً، كيف لا وقد تضمّن تصدير المصنَّفين، واشتمل على إرسال المؤلَّفين، فضَمْمته بالراحتين، وأنزلته من الترحيب والتَّسهيل في ساحتين، وقطعتُ النهار في تأمُّل الوشي المرقوم، الَّذي ما حُسْن طرازه أبداً بمَكتوم، فنظرت ما مزَّق حُلل الحريري والمطرزي، وشاهدت ما قصر عليه الحسن وإليه نُسب وعُزي، من رياضٍ مُذهَمّة، غرستها أيدي العزم وأنامل الهمَّة[1]:

مَلاَعب جِنَّةٍ لَو سار فيْهَا سُلَيمان لسار بترجمان

---

(١) بيت مشهور للمتنبي من قصيدته التي أولها:

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

ولعمري لقد ابتهج منها النَّبت العميم، وانتشرت العظام من نشر تربها وهي رميم، ثم أني أمعنت النَّظر في ذلك الكتاب وهو «طيب السمر» فنادمت نديماً ما زال يدير كائنات البلاغة عليَّ دهاقاً، حتى أني لم أقل في خطاب ولآدة الزمان «إني ذكرتك بالزوراء مشتاقاً»(١)، لأني شغلت عن محاسنها بهذه المحاسن، ونظرت وعاينت من هذا الكتاب ما أذهل النَّاظر وبهر المعاين، وبُتُّ في ليلةٍ هزني منها الطرب، وقد نلت من مطالعة الكتابين نهاية القصد وغاية الأرب، وعلى الجملة فإن هذا الدَّهْر خلِيقٌ أن يفتخر بمثلك، وأهل الفَضْل جميعهم حقيقيون أن يعترفوا لك بفَضلك:

يـا أخـا الـبـدْر سـنـاء وسـنـى حـفـظ الله زَمَـانـاً أطْـلَـعـك

أسكرتني خمرة ذلك الكتاب، حتى شغلت وذهلت عن التعجيل بِرَدّ هذا الجواب، فإني استغرقت يومي ولَيلتي، بِذاك الَّذي وبتلك التي، كما قال البهاء في ما قيل هذا البيت الَّذِي أسأل لرقَّته مهجتي(٢):

وشـمـس الـضـحـاء وبـدر الـدُّجـا عـلـى يـمـنـتـي وعـلـى يـسـرتـي

ولا زلتم من حفظ الله في حصنٍ حصين، ولا برَحْتم مستمسكين من عصمته بحَبْلٍ متين، مُتَوسلين إليه في ذلك بمحمد الأمين، وآله الميامين الأكرمين.

الفقيه حسين بن علي المعروف بحسين موسى(٣)

ناظمٌ تغار منه قلائد النحور، فكم ثقب بإبر اليراعات درر البراعات ونظمها

---

(١) مطلع قصيدة لابن زيدون هو:

إنـي ذكـرتـك بـالـزَّهـراء مـشـتـاقـاً والأفـق طـلـق ومـرأى الأرض قـد راقـا

(٢) ديوان البهاء زهير: ٥٢ من قصيدة أولها:

مـقـيـم عـلـى الـعـهـد مـن صـبـوتـي أبـيـت وأصـبـح فـي نـشـوتـي

(٣) هو الحسين بن علي بن موسى الخياط شاعر أديب كان يتكسب بالخياطة ثم أصيب في آخر عمره بضرب من الوسواس وتوفي سنة ١١٤٠. انظر ترجمته في نسمة السحر (خ) ونشر العرف ١/ ٥٨٧.

في أسماط السُّطور، أديبٌ فصَّل الأوراق بيواقيت آثارِه، وشاعر عطّر مجالس الأنس بنفحات أشعاره، فكم برقعة قرطاسه من نفس هائمة، وكم بها من رُخ كلمات لا تباريه الصُّقور الحائمة، وكم بها فِرْزان[1]، تعجز عن مسابقَتِه فَرَس الفُرْسان، تعلَّم من الفصاحة ما به جُرح الغَمَارة[2] يوسى، وما يبطل به سحر البيان من البلغاء ولا بدع لأنه ابن موسى، فألقى عصى قلمه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده في البراعة فإذا هي بيضاء للناظرين، ولما أراد مناظرته الفصحاء الذين اجتمعوا، نادته البلاغة: إلق من قلمك ما في يمينك تلقَّف ما صنعوا، ولمَّا حمدتُ في بعض سفرتي إلى صنعاء السُّرى، ودخلت ناديها رأيته بها يَصْنع الأزرار والعُرَى، ويحوك من الحرير ما لا تحوكه الغمام، وتنسجه على قدود الأغصان من طرز الكمام، وقد طالعت له مجموعاً من الأدب سماه «الروض الناضر ونزهة الناظر» ورتبه على الحروف، وعلَّق على آذان الدَّهر منه الشنوف، وجمع فيه المتقدم بالمتأخِر، وأورد فيه من نظمه ما فاح نسيمه المتعطر، وفي هذه الأيام تغيّر عَقْله، وقلّ لنكت الآدب التي كان مشغوفاً بها نَقْله، واستحالت رجاحته خِفَّة، ونقل بازل عمره في سباسب الجنون به خُفَّه، فلم يزل يسرح به في أودية مجهولة، وينزل من الخيال والوَسْوَاس في منازل غير مأهولة، فاستبدل عن أشهب دفتره الأدهم[3]، ونبذ طعام اللطائف وعنه أقْهم، وهو الآن مُوْثق في الأغلال، ينتظر من مرضه الإبلال، صَرَفَ الله عنه ذلك الجنون، وَمتّع الأدباء منه برجوع تلك الفنون، ونظمه كثير شائع، تُجْلب إلى أسواق الدَّفاتر منه البضائع.

ومن عُرَى آدابه الوثيقة، وإزرار وروده التي رتَقَتها أيدي الربيع في قميص الحديقة، قوله في تشبيه زهر الرمان، وقد اشتعلت منه في جوانب الرِّياض النيران[4]:

(١) الفرزان: الملك في لعبة الشطرنج، معرب فرزين بالفارسية.

(٢) الغمارة: الجهل وعدم الخبرة.

(٣) الأدهم: القيد.

(٤) أوردهما في النشر ١/ ٥٩٢.

نَزِّه لحاظك في الرِّياض وحسنها | واعجب لزهر حدائق الرُّمَّان
يزهو بحمرة لونه فكأنَّهُ | فيها قناديلٌ من المَرْجان

وقوله:

لقد قال العواذل صرت صبًّا | بروضة[1] حاتمٍ وسُلِبت مُهْجَة
فقلت لهم فتنت بها لأنِّي | وجدت بها حدائق ذات بهجة

وقوله في غلام جميل أمّ بغلمان حسان في صلاة العصر:

أقام صلاة العصر غصن مهفهفٌ | بكل كحيل الطرف نوني الحواجِبِ
فقلت أفي المحراب قد قام يوسف | يدل على هذا سجود الكواكب

وقوله في مليح لبس شاشاً رماديًا:

لهذا السيد الشامي شاشٌ | رماديٌّ أعاد له التَّصابي
ولَمَّا أن لواه له برأسٍ | أرانا البدر من تحت السحابِ

وقلت أنا فيه:

لقد لبس الرمادي من سباني | فَلانَ لحُسْنِه قلب الجَمَاد
له خدٌّ شوى الأكباد وَجْداً | كجمرٍ لاح من تحت الرَّماد

وقوله:

لمَّا رأتني في الدجا شمعةٌ | قبلت من أهواه من خَلْفِها
فاضت من الغيض لها أدمعٌ | وحرقَةٌ أفضت إلى حَتْفِها

وقوله:

ياأيها الساقي المهذَّب طَبْعُه | حُث الكؤوس إليّ حثًا عاجلاً
إني أرى ببياض كاسك خمرةً | لم تبق في الأكياس قبضاً داخلاً

قلت: مع قوله لم تبق في الأكياس قبضاً داخلاً لا يليق قوله (حث الكؤوس إليَّ حثًا عاجلاً) إذ الأولى به مع ذلك أن يقول في البيت الأول:

---

(١) روضة حاتم: منتزه بالقرب من صنعاء.

دعني من الكاسات فهي بخمرها　　قد سيّرت كفي خَلِيًّا عاطلاً

لأن ما به تعطيل الأكياس وإخلاء اليد من المال يليق النّفور عنه والمجانبة له لا الأنس به والهشّ إليه، والقول للساقي (حثّ الكؤوس إليّ حثاً عاجِلاً) ولا ينكر هذا إلا من لم يكن له في بياض الأدب قبض داخل يدل على سعادته ويأتيه براية الفرج.

محمد علي الحكيم المعروف بلطفي[1]

يقول النسيم هذا لطفي، فتجيب الأغصان ولذا أني هززت له عطفي، صادق ماماني[1] وحكيم يعترف له لقمان، هو في الطب طب، يجتنى من عثاكله يانع الرّطَب، لو عالج الحنظل لأعاده عَسَلاً، ولو نظر في علّة قِصَر العَصَا لقومها أَسَلاً، فله حسن تدبير قد اشتهر، وعلاج يحفظ صحة الروح فإذا هو الفاذزهر[2]، وهو يدلي إلى الأدب، بأمتن وسيلة وأقوى سبب، فله نتائج أفكار لها فوق النجوم أوكار، ما لامسها ملامس فهي أبكار، ذات ثغرٍ شتيتٍ[3]، طويلة عنق وليت، إذا أسفرت عن براقع المداد، إستمالت طبع من يُعَد في الغلاظ الشداد، كقوله رباعية في مليح يأكل من شجرة القات، كم له من كليم حُبٌّ لم يتم له الميقات:

أفدي رشا مهَفْهف القد رشيق　　قد صار لبدر التم والغصن شقيق
[يفتر وفي لماه قاتٌ فحكى　　راحاً وزمرداً ودرًا وعقيق]

وألطف منه قول خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى:

أشبّه ثغره والقات فيه　　وقد لانت لرقته القلوبُ
لآل قد نبَتْن على عقيقٍ　　وبَيْنهما زمرّدة تذوبُ

أقول وقد فات الشيخ إبراهيم رحمه الله تعالى ذكر الراح فنَظْم الحكيم أحسن من هذا الوجه لأن قوله وبينهما زمرّدة تذوب لطيف ظريف لأنه جعل القات بين

---

(١) انفرد بذكره كتابنا ولم أجده في غيره.

(٢) الفاذزهر والبادزهر: هو تجمّدات مرضية كروية أو بيضية تكون في الحيوانات كانوا يعتقدون انها مضاده للسم فذكروا لها خواص كثيرة واللفظة فارسية «المنجد: ١٢٤».

(٣) ثغر شتيت: افلج.

اللآلي والعقيق زمرّدة ذائبة فهو أحسن من قول الحكيم، ففي كل من الحسن مَا يُرَجح به على الآخر ويُفَضَّل كما تَرَى][1].

الفقيه أحمد بن محمد الينبعي الصنعاني[2]

ذو فطنةٍ وذكاء، وغرَّة لا يذكر عندها بدرٌ ولا ذُكا، إن قلت إن النسيم يقصر عنه في شمائله، وأن الزهر لا يفوح بمثل عرفه في خمائله، صدَقتُ ولم أقل مينا، وأحسنت ولم آت شينا، له حدائق آداب باسقة الدوح مدهمَّة الأعشاب، يتنفس الرَّوض عن نفحاتها، ويتشبَّه بما رَحُب من ساحاتها، ذو فطانَةٍ بِلاَ بَلَه، ونغمة في إملاء الأشعار تُضمت في الرَّوض بلابله، نحيف ذاتٍ كأنه سلكٌ لدرر نظمه، لطيف جرم يكاد يخفى عن التَّمثيل وَوَهمه، كأنه النَّسيم، أو الخصر السَّقيم، لأنه كان كثير الأمراض والعِلَل، يتجرّع من موارد سُقَامِه النَّهل والعَلَل، حسن المحاورة، عجيب المحاضرة، وكان حظّه حظّ الأديب[3]، هو في شدة سواده كخال الحبيب، فما رام من آماله وصْلاً إلاّ وعليه من الدهر رقيب، يصده عن ذلك الوِصال، ويذوده بعد أن جال في دفعه وصال، فما ورد منهلاً إلاّ قال له الحرمان مَه، فيشرق ويغص قبل أنْ يَبُل فَمَه، فلم يقضِ وطراً، وقد عرض له حرمانه وطَرا، ولا أصاب من عيون مقاصده حوراً، كان يفدِ إلى مقام والدي من جملة الوفد، فينقلب من نواله بأجل جود وأعظم رَفْد، وكنت أرى مطوَّقه بروضه صادحاً، وأسمع تَغْريده متى انبرا له مادحًا، ولم يزل للأدب جمالاً ولجماله البديع كمالاً، حتى نَضَب نهرُه، فَذَوى في الكمام زَهُره، سقى الله تعالى منه ما ذَوى، وأفاض عليه نهر الكوثر حتى يقال لقد ارتوى.

وشعره من أنفس نفيس، من نَظَر فيه لم يَحْتج إلى نَديم وجليس، ولم يشتق

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط في (ش).

(٢) انفرد بذكره كتابنا هنا ولم أجده في غيره.

(٣) أي حظ فقر وحاجة وكان الأدباء يشكون فقرهم وحظهم العاثر، وقد سبق في هذا الكتاب مثل هذا كثيراً فانظره.

إلى روض أو مُدام، أو سماع ألحان أو سَجْع حمام، إلا أن زنده بَطِيّ القدح، ومطوّقه قليل الصدح، إن نظم فأبطا من نجاح آماله، وأبْعد من نيل سعادته وإقباله، وناظم الدرّ في السموط، أبطأ من راصف الجزع في الخيوط، من ذلك قوله يمدح إمام العصر، المحفوف بالتأييد والنَّصر:

سلوا عن فؤادي إن مررتم على سلع ... فعهدي به لما مشى الركب بالجزع
يلمّ به تذكاره فيشوقُه ... وتغريه ورقاء الحمائم بالسجع
وبِيْ قاصرات الطّرف حُورٍ أكلَّةٍ ... توالت على صَرْمي وآلت على قطعي
ولمّا رأت آجالها لمع بارقٍ ... سحائبه جَفْني ووابله دَمْعي
أطعن السُّرَى لما شرى البرق في الدجا ... عرامس[1] لم يحثث بسوط سوى اللمع
وخلن بأن الرَّعد زجر حِدائها ... فاتبعنه رعد الحنين إلى الربع
وباتت تباريها العواصف فانبرت ... خِفافاً ودعن الريح في موضع الوضع
بليلٍ ترى فيها النّجوم كأنها ... زهور رياضٍ أينعت أحسن اليَنْع
وينظر في الغرب الهلال كأنّه ... من العاج مشط غاض في آخر الفرع
كأنّ الثريا وهي في أفق شرقها ... وقد طلعت طلع على باسق الجِذْع
كأن سهيلاً غرة فوق أدهم ... يجاذبُه رب العنان عن الدَّفْعِ
كأن شخوص العيس في فاحم الدُّجا ... أحاديثِ سرٍّ أودعت جَيّد السمع
فلا وأبيها ما ونين عن السُّرى ... ولا وأبيها ما جزعن عن الجزع
إلى أن تَجلّى عن دجى الليل صبحه ... تجلّي أمير المؤمنين عن النَّقْع
أجلّ إمام تَخمل الخيل شَخْصه ... وأكرم إنسانٍ تسَربل بالدرع
خليفة حقّ أظهر الله سِرّهُ ... به واجتباهُ للخلافة والشرع
نمى أصلُه عن دوحةٍ نبويّةٍ ... فيا حسن أصلٍ قد نمى زاكي الفرع
طُبِعْن على صُنع الصّنيع طباعُه ... وحَسْبُكم ليس التطبُّع كالطبعِ
يؤلِّف شمل المُمْلقين تكرماً ... ويفرق جمع المال في ذلك الجمع

---

(١) مفرد عرمس: الناقة الصلبة شبهت بالصخرة.

فـيـا لـيـتـنـي مُـكِّـنـت مـنـه مـكـانـةً ... يُحوِّل ضيق الحال مني إلى الوسع
وإنّـي بـنَـيْـل الـخـيـر مـنـه لـواثِـقٌ ... وذلـك بـعـد الله أقـوى عـلـى نـفـعي
ومن تـك أسـباب الـغنى فـي يـمـيـنـه ... يـجـود بـلا مَـنٍّ ويـعـطـي بـلا مَـنْـع
يُـصَـرِّف كـفّـاه الـنَّـوال وأنـهـا ... لكفا كريم ليس تدري سوى الصَّنْع
رجوت نـداه فـاسـتـرحـت عـن الـورى ... ونـاب مـنـاب الـدر عـن خـرز الـجـزع
فـإن أكُ قـد أغـرقـت فـي مـدح جـوده ... وحَبَّرت فيه رائق النظم والسَّجع
فليس يروق الشعر في غير مدحه ... كما اختص مَعْنَى الفاعلية بالرَّفْع
فيا كعبة الجود التي نجعت إلىَ ... ذُرَاها حَجِيْج الوفد محمودة النجع
ومَـن كَـفّـه الـركـن الـشـآمـي لـلـورى ... عـلـى انـه الـسـيـف الـيـمـانـي بـالـقـطـع
لأن يَـكُ عـيـد الـفـطـر ولّـى فـعـيـدنـا ... بـقـاؤك لـلـديـن الـحـنـيـفـي والـشَّـرع
تَـهَـنَّ بـه فـي نِـعْـمـةٍ لـيـس تَـنْـقـضِـي ... مَدَى العمر ما غَنَّت حمام على فَرْع
وَصَلِّ عـلـى مـن أنـت مـن نَـسْـلـه ومـن ... لـه أقـسـم الـرحـمـن بـالـوتـر والـشـفـع
وآلٍ هـم خـيـر الـبَـريّـة بـعـده ... حماة الورى والحق عن قول ذي بدع

وقوله في مليح مخروم مضمناً:

شـكـا خـفـوف فـؤادٍ مـن كُـلـفـت بـه ... إلى الطَّبيبُ وقلبي مثله يَجِبُ
فـراح بـالـخَـزْم يـاسـوه فـقـلـت لـه ... بـين الـخـفـوقـين فـرقٌ رفـعـه يـجـب
أمـا خـفـوق فـؤادي فـهـو عـن سَـبَـبٍ ... وعن خفوقك قل لي ما هو السَّبب

وقوله في تشبيه البرق:

الـبـرق مـتّـصـل الإيـمـاض مـسـتـعـرٌ ... كـأنـه قـلـب صـبٌ لـلـنـوى وَجَـبـا
أو أنـه ضـوء مـصـبـاحٍ يُـمَـثّـلـه ... ضحضاح ماءٍ ولكن عندما اضطربا

وقوله:

وقـالـوا فـتـنـت بـلـيـل الـعـذار ... وغـيـرك هـام بـلـيـل الـذَّوائـب
فـقـلـت الـعـذار كـلـيـل الـسـرور ... قـصـيـرُ وتـلـك كـلـيـل الـنـوائـب

وقوله على لسان حال المَقَصّ:

نحن خليلان ما رأينا أحلى من الضَمّ والعناقِ
ومن يحل بيننا نبادر بقطه خشية الفِراق

وقوله في مليح شكا ألماً برأسِه وفيه تورية:

شكا على الأسى مِن رأسه من قَدُّه يهزأ بالآسِ
قلتُ كلانا والهوى قد رسا في القلب نشكو ألم الرأس

وقد أخذه المولى إسحاق بن المهدي رحمه الله تعالى الآتي ذكره فقال في المليح المذكور:

تَبدَّى لنا ملكُ الجمال عشيةً بقَدٍّ رشيق كالردَيني مَيّاسِ
شكا رأسه والحب في القلب قد رسا فقلت كلانا نشتكي ألم الراسِ

وقوله أعني صاحب الترجمة في مليح دقّاق:

دقّاقُنا حسنُه بديعٌ قد جل ردفاً ودق خَصْرَا
تُباع حبُّ القلوب منه فليتها بالدّقيق تُشرى

وهو من قول جمال الدين ابن نباتة رحمه الله تعالى في مليح طحان(١):

طحانكم قد زها جمالاً فلا يُطاق السلوّ عَنْهُ
وَدَّق خصراً فليت شعري بكم يباع الدقيق منهُ

وقال الشاب الظريف محمد بن العفيف في مليحة عَجَّانة(٢):

كلف الفؤاد بظبيةٍ عَجَّانةٍ ما كنت يوماً آمِناً من هجرها
عجنت فؤادي بالغرام فماؤها من أدمعي ودقيقها من خصرها

وحضر صاحب الترجمة رحمه الله تعالى ذات يوم بمقام مولانا الوالد رضي

---

(١) ديوانه: ٥٣٦.
(٢) ديوانه: ٢٢٤.

الله عنه بدارنا المحروسة بمدينة شبام كوكبان المنيف، وأنا في أوان الطَّلب وابتداء القراءة في النحو فأقبلت إليهما.

فسألني وقال: يا سيدي من أين أتيت؟

فقلت: من مقام بعض مشايخي رضي الله عنهم من مجلس الدَّرس.

فقال: قراءتُكم في علم النحو؟ فقلت: نعم.

فأراد أن يمتحن، فقال: أأعرب الشّاعر أم لحن حيث قال:

سنورُنا في الظَّلام قارِئَةً ... وَدِيكُنا في النَّهار قافُوْلاَ

بنصب قارئةً وقافولا، وكان قياس الإعراب رَفْعهما على الخبرية لقوله سنورُنا ولقوله وديكُنا فإنهما مبتدآن، ففكّرت برهةً يَسيرة في كلامه، ثم قلت بل أعرب النَّاظم ولم يلحن لأن قارئةً لم يكن اسم فاعل من القراءة وقافولاً كذلك، وإنما قوله قا فعل ماض من القي فيه ضمير فاعل يعود إلى قوله سنورنا وزنه منصوب على المفعولية ومثله قافولا.

فقال: أحسنت.

وسُرّ مولانا الوالد سقى الله تعالى ثراه وحمد الله وأثنى عليه، وقلتُ له: هذه من الأغاليط النَّحوية فقال له مولانا الوالد عليه السلام: لو لم يَجِب لعُذِر لأنه في ابتداء الطلب، وهذه الأغاليط إنما يَسْأل عنها من رسخت قدمه في علم النحو، والحمد لله على إفضالِه وسابغ إنعامه.

الفقيه سنبل بن سرور العفاني(١)

هو الملقب بعفّاني، فاضل لا تسل من حاسده عن فاني، لأنه التزم ما عليه يليق الحسد، إذ ردم باب الساعي عليه فشد، فما صلح له مطلبٌ معه بل فَسَد، أديب من أولاد العبيد، دون مساعيه مهامه وبيد، كلماته للنّهي أسحار، وأوقاته جميعها أسحار، وعرفانه للجهل دا، ولذا إني قلتُ فيه بيتاً مفرداً:

عَفَا به رَسْم جهلٍ لم يزل أبداً ... يقول هذا الفتى بالعلم عَفَّاني

---

(١) ذكره صاحب نشر العرف ولم يؤرخ لوفاته.

أسمر اللَّون أبيض السجايا، قريب الجناب بالتواضع بعيد المزايا، لونه لون التُّفاح، ورائحته رائحة الزهر النفّاح، ذو خلقةٍ مقبولة، ولسان على حسن الخطاب مجبولة، وكان والدنا رضي الله عنه إليه يرتاح، فوفوده عليه لِمَا انغلق من المسرة مفتاح، ما هو إلا ابن سرور على الحقيقة، إن لم يكن ذات الانشراح فقد أضحى شقيقه، يستلطفه استلطاف الرَّوض للنسيم، ويحف عليه حفة المحبوب الوسيم، يستعذب مُسامَرَته وحديثه، إذا أرخى الليل من شعره على سالف الأفق أثيثه، لا يكاد من حواره يمل، ولا يكاد يصحو من نشوة خمرته عن الثمل، طالما مَدَحَه فأجازه، ونال حقيقة الثّراء لمَّا استعمل إليه مجازه، وكنت لا أزال له محاوراً، ولبحور أشعاره مجاوراً، ولثعابين أقلامه مُسَاوِرا، أتناول شراب فصاحته الممزوج، وأتجمل بحُلل بلاغَةٍ منه أبهى من الخزّ المنسوج، وكان ذا نسك وطاعة، يبذل فيهما حد الاستطاعة، فتارة وهو من حضرة الملوك في مجالس جود، وحيناً وهو من المساجد الشريفة في مجال سجود، وعليه من شعّة الأنوار لباس، وله من فيض القبول اقتباس، مما يخف به على الأراح، وتجد فيه النُّفوس غاية الاسترواح.

ومن شعره قوله في ابتداء قصيدة مدح بها مولانا الوالد عليه السلام:

خُذَا بي نحو الصوت لا تتبعا الصدى	فما كل نارٍ عندها يوجد الهُدَى
ولا تدعواني للفكاهة بعدها	فقد ذهبت أيام عمري بها سُدى
ثنيت عناني قارعاً سنَّ نادم	لأقضي الذي فرَّطت إذ فاتني الأدَى
تنبَّهت من نوم البطالة حائراً	أمدّ إلى من مرَّ في جانبي اليدا
إذا أنست عيناي ناراً قصدتها	لعلي أن ألقَى على النار موقِدَا
ومن جَدّ في تحصيل هادٍ يدله	إلى الرشد لم يعدم دليلاً ومرشداً

وقوله في مرثية رثى بها عَمَّنا العماد يحيى بن الحسن الحيمي رحمه الله تعالى:

يا آل يحيى يا ذوي الإعزاز	صبراً فإن الدَّهر فيه مرازي
والموت غاية كل حَيٍّ في الورى	يغزوه من جيش المنية غازي
لا تجزعوا لفراق يحيى إنّه	قد فاز عند الله خير مفازِ
في جنة الفردوس صار مكرماً	في فضل ربٍّ بالجميل يجازي

إن مات مخترم الشباب فمنتهى ... عمر النسور كمثل عمر البازي
عام يزول كألف عامٍ ينقضي ... وغناك بعد فَنَاك كالإعوازِ
ما هذه الدنيا بدار إقامَةٍ ... لكنها للنَّاس دار مجازِ
من راح منها بالثَّواب فإنَّهُ ... قد فاز فوز حقيقةٍ ومجازِ
والمرء يضحك والمنايا فوقَه ... والموت من فعل ابن آدم هازي
فعلام نَبْكي من يموت وقد قَضَى ... دين الوجوب وليس دين جوازِ
والكل منَّا تابع لصديقه ... مستنظرٌ من عمره لنَجَازِ
مات النبي محمدٌ خير الورى ... وهو الذي قد جاء بالإعجاز

وأنشدني من نظمه في الجناس قوله:

أقول لعاذلي إذ قال لي هَلْ ... تطيق سلوّ من تهواه كَلاً
وما حال التَّصبر حين أضحى ... إلى هجرٍ يميل فقلت كلاً

ومنه قولي في بعض القصائد مُوَرِّيَاً:

وهل كلَّ سيف الصَّبر منك وهل تجد ... طريقاً إلى السّلوان قلت له كَلاً

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي رحمه الله تعالى موريا[(١)]:

شُبِّه السَّيف والسنان بعيني ... من لقتلي بين الأنام استحَلاً
فأبى السَّيف والسِّنان وقالا ... حَدُّنا دون ذاك حاشى وكلاً

وممن قصد التورية في بعض قصائده الشيخ فخر الدين بن مكانِس فقال:

ورام المهنّد شبهاً بِه ... فلم ينل القصد حاشى وكَلّ

وأنشدني صاحب الترجمة لنفسه أيضاً قوله:

لا تظن انتقاع لوني لداء ... فيّ يا من قد سامني بالمطالِ
صفرتي هذه لطول انتظاري ... منك أيام الهجر للإتّصالِ[(٢)]

---

(١) البيتان في الخزانة ٣١٤.

(٢) كذا في الأصل.

ومثله قول السيد عبد الله بن علي الوزير المتقدم ذكره في مليح مصفر الخَدّ:

عـابـوه لَـمّـا أن تـبـدت صـفـرةٌ ... فـي خَـدِّه الـمـتـوَرّد الـمـصـقـول
مـا ذاك مـن ألـمٍ ألـمّ وإنـمـا ... كـثـر انـتـظـار الـخـدّ لـلـتَّـقـبـيـل[1]

والأحسن في هذا النمط قول بعض الأدباء رحمه الله تعالى:

حبيبي وعدت الكاس منك بقبلة ... وأعـقـب ذاك الـوعـد مـنـك نِـفَـارُ
فـأوقَـفْـتـهـا تـحـت الـدجـاءِ وقـلـبـهـا ... به خوف خلف الوعد منك شَرَارُ
ومـا كـان هـذا لـونـهـا غـيـر أنـهـا ... عـلاهـا لـطـول الإنـتـظـار صُـفَـار

وقول الشيخ بدر الدين بن الصاحب[2] رحمه الله تعالى[3]:

يـا حـابـس الـكـأس لا تـزدهـا ... مـن بـعـد حـبـس الـدنـان حـمـره
واغـنـم مِـزَاجـاً لـهـا لـطـيـفـاً ... أورثـه الإنـتـظـار صـفـره

وقلت أنا:

الـنـرجـس الـغـض يـشـتـهـي أن ... يـراك فـي مـجـلـس نَـبِـيـه
طـال بـه الانـتـظـار حـتَّـى ... قـد شـرع الاصـفـرار فـيـه

وقلت أيضاً في بخيل يحبس الدّنانير ولا ينفقها:

وبـخـيـل لـه دنـانـيـر مـا زال (م) عـلـيـهـا بـالـبُـخْـل ذا إشـفـاق
صفّـرتـهـا مـن تـحـت إقـفـال حـفـظٍ ... كـثـرة الانـتـظـار لـلانـفـاقِ

واجتمعت أنا وصاحب الترجمة بجامع صنعاء الكبير، ونفحات الجوّ بين المسك والعبير، وما زال يسائلني عن مسائل يحتاج إلى بيانها فأجبت عليه بما

---

(١) علق في (ب): لا يخلو هذا المعنى عن نقد فإن انتظار الخد من المحبوب للتقبيل فيه ما لا يخفى من الهجنة.

(٢) هو الأديب الشاعر عبد العزيز بن عبد المحسن الأنصاري من أهل دمشق له ديوان شعر مطبوع توفي سنة ٦٦٢ انظر الأدب في الشام للدكتور عمر موسى باشا ص ٣٢٣ ـ ٣٥٦.

(٣) البيتان في خزانة الأدب: ٣٢٤.

حضرني ومن جملة ما سألني عنه بأن قال: قد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، «من رآني فقد رآني حقاً»[1] يعني من رآه في النوم فماذا يلزم من رأى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد أمره بأمرٍ أو نهاه عنه هل يجب عليه فعل ما أمره بفعله أو ترك ما أمره بتركه لأن رؤيته في النوم حق على مقتضى الحديث، فقلت له: هذه المسألة قد ذكرها جم غفير من العلماء النحارير، والأئمة ذوي التقارير، فقال الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رضي الله عنه في كتاب «القانون الكلي»[2] في ذكر سؤال رفع إليه ما لفظه:

ما قوله أدام الله نعمته في رؤيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، فيروي حديثاً لإنسان ثقة ينقله عنه يخالف حديثاً قد رواه عنه الثقة في اليقظة هل يُعَارضه حتى يسقط الاحتجاج به؟ فإن لم يكن كذلك، فكيف وهو يقول من رآني في المنام فقد رآني حقًّا إن لم يعارضه مع هذه، فهل يُقَدَّم على القياس أم لا؟ ليوضحه لنا مأجوراً إن شاء الله تعالى.

فقال الغزالي رحمه الله تعالى: الجوابُ لا يسقط الاحتجاج به وإن كان صحيحاً فاليقظة أصح منه فإن رؤيته صلى الله عليه وآله وإن كانت حقًّا في المنام فسماع الصوت وحفظ الكلام وفهمه يجوز أن يتطرق إليه بسبب النوم ما لا يقابل به الثقة ثقة المسموع في اليقظة، ولو فتح هذا الباب لزم أن يجوز نسخ القرآن ورفع النصوص ويخرج الأمر عن الضبط، والله أعلم، كتبه الغزالي انتهى بلفظه.

وقال القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن علي السُّبْكي رضي الله تعالى عنه في طبقاته المشهورة في ترجمة الأستاذ أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفرائيني رحمه الله تعالى ما لفظه[3]: وله كتاب «آداب الجدل» حكى فيه وجهين في أن

---

(١) حديث متفق عليه عن أبي هريرة وأبي قتادة.

(٢) طبع باسم قانون التأويل ولم أجد هذا النص في المطبوعة بدار الكتب العلمية ضمن رسائل الغزالي.

(٣) طبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٢٦١ ط الطناحي.

الرجل لو رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وأمره بأمرٍ هل يجب عليه امتثاله إذا استيقظ، والمجزوم به عند الأصحاب أنه لا يجب، ليس لأنه لم ير النّبي صلى الله عليه وآله وسلم معاذ الله من رآه فقد رآه حقًّا وإنما ذلك لعدم ضبط الرائي حالة الرُّؤيا والضبط شرط في العمل بالرُّؤيا انتهى ما ذكره السبكي رحمه الله تعالى.

وقال شيخ الإسلام بقيَّة الحفاظ عماد الدين يحيى بن أبي بكر بن محمد العامري رضي الله عنه في كتابه «بهجة المحافل وبغية الأماثل»[1] ما لفظه: قال العلماء ولو رُئي صلى الله عليه وآله وسلم يأمر وينهي بخلاف ما تقرر في شرعه ورواه عنه الأثبات الثقات يقظة لم يعمل به، وليس ذاك لشكٍّ في الرُّؤيا وإنما هو لانحطاط درجة النَّوم عن درجة الضَّبط والتيقظ المشترط في رواية الحديث والله أعلم.

وقال القاضي صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالى في كتاب «غيث الأدب الذي انسجم شرح لامية العجم»[2] ما لفظه: وقد تكلَّم الفقهاء في من رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام وأمره أمراً هل يلزمه العمل به أم لا، قالوا: إن أمره بما وافق أمره يقظة ففيه خلاف، وإن أمره بما خالف أمره يقظة فإن قلنا إن من رآه على الوجه المنقول من صفته فرؤياه حق فهذا من قبيل تعارض الدَّليلين فيعمل بأرجحهما وهو اليقظة فلا يعمل بما خالف اليقظة.

وقال العلامة الأديب القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي إفَنْدى رحمه الله تعالى في آخر الرَّيحانة ما لفظه[3]: هذه المسألة ذكرها الإمام النَّووي فمن رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في منامِه وأمره بأمرٍ إن كان موافقاً للشرع

---

(١) بهجة المحافل للعامري: ٢: ١٣٦.

(٢) انظر الغيث المسجم: ١/ ٢٤٥ ط العلمية.

(٣) لم أجد هذا النص في مطبوعة الريحانة.

ينبغي له فعله فإن خالفه لا يفعل لأن المنام غير مضبوط، فقد لا يحكيه كما هو، ويحتمل أنه مُؤول فيؤوّله بما يناسبه كما في قصة الذَّبيحين انتهى.

أقول: قد أطلنا الرسن هنا في الكلام على هذه المسألة وأرسلنا العنان جلباً للإفادة، وإلاّ فموضع الكتاب ينافيه لاشتماله على أبحاث أدبية لا على فوائد علميَّة، وإن كان البحث في الطَّرفين من العلم، وعذرنا ما ذكرناه والواجب على من تكلَّم في مسألة أن يشبع الكلام عليها ويشبع الفصل فيهَا فأقبل المعذرة أيها الواقف على هذا الكتاب تفضُّلاً والله ولي عبده والممد له من عنده، والمفيض عليه من جوده.

الفقيه صالح بن ناصر الجلال(١)

أظهر الزمن فضله وجلاله، وأزاح له ظلمات الجَهْل وَجَلا لَه، ما أطاب الدَّهر خلاله، إلاّ وأجرى نهر الأدب من روضة خلاله، له في العلم نصاب نصيبٍ أدّى زكاته، ولِذَا أفاض الله سبحانه عليه بركاته، وأذكى مصباح الأنوار بقنديل قلبه، وألبسه حُلّة حُبٍّ من حلل حُبِّه، فما مُلّ له حديث، ولا أجهد مُنادمَه سيره الحثيث، وكان لا يبرح من والدنا يستفيد، ويقنص بشباك ذهنه في مَرَاتِعِه رُبّ ظبي شريد، فكان من العلوم مَلِيًّا، قد رفعه الله فيه مكاناً عِلِيًّا، وَله من الشعر ما يستطاب، طالما مَدَح أبي فملأ من جوده الوطاب، وقد أثبتُ له في كتاب «رعى الأب»، مدائح فيه ينهب عندها الحجى ويسلب، وكان يحفظ غيباً المنظومة المسمية بالجواهر المكنونة، ويميل عطفه إذ يطالع شرحي لها وهو المسمى «الأصداف المشحونة»، وعلى الجملة فهو مهذَّب، إلا أنه صاحب حاجات فهو مُعذَّب، مع حظٍّ هبط إلى الحضيض، فغض عنه الزمان طرفه الغضيض، وعبس في وجهه الدهر، ورماه بالخَطْبين الفقر والقهر، فقد نضل(٢) بعيرُه، واحتدم

---

(١) انفرد بترجمته كتابنا هذا.

(٢) نضل البعير: هزل وضعف.

سَعيره، إلا أنه رضي بالمقسوم، فهو بالصبر والحمد موسوم، فما حرج له صدر، ولا كسف له بدر، فهو على الدّهر ذو عُتْبَى، فلذا لم يوسعه على معاملته له عَتْبًا، قَنِع بفَضلة الكأس، من زَمنٍ تلقاه بالإركاس، فهو يتأسى على الأسى، ويستروح في آماله بقول عَسى، والتَّرجى رَوح الرُّوح، يعود به الفؤاد أيَّ مشروح، فلم يزل أسيراً لعسى، ولم يبرح أسود حظه في ثغر زمانِه لَعَسًا، يُؤمِّل الفَرَج، ويستعيذ من الجزع والحرج، وينتظر اليسار، انتظار الروض للغيث المدرار، فكما أن كل خافق له سكون، كذلك لكل ساكن خفوق يكون، فلم يتم له أمل، إذا وافاه الحمام فسبق السيف العذل.

ولَمَّا وفد إلى نادينَا، ووقف بأعتابنا ينادينا، حضر صلاة الجمعة، وسمع من مواعظي على المنبر الشريف لُمْعَة، وأنا إذ ذاك في عنفوان الشبيبة، وغصون عيشي ناعمة رطيبة.

وكتب إليّ قصيدة طويلة يَمْدحني بها منها قولُه:

لله شمس بَلاَغَةٍ ما أفقُه ... غير المنابر والمقام الأرفع
حَبْر إذا خطب الأنام بمحفلٍ ... أجرى من الأجفان سيل الأدمع
بدر الدّراية والرواية للورى ... بحر النَّوال فجوده لم يُمنع
الحافظ الفَطِن الذي ما شانه ... شيءٌ سوى التقوى وفضل الكَيْنعي[1]
ورسوخِ علم نافعٍ وبلاغةٍ ... وتعفّف وتقشّف وتورّع
ترب المعالي أحمد بن مُحَمَّدٍ ... عن صيته ضاقت رحاب الأربُع
قامت علاه وفخره بأدلّةٍ ... وشواهدٍ في الفضل لَمَّا تُدْفَعِ
شاهدته يوم العروبة خاطباً ... بشُمَام[2] قُسٌّ أو لسان الأصمعي
وسمعت من كلماته ما تُسمِع الصم (م) الصَّياخيد التي لم تَسْمَع

(١) نسبة إلى الشيخ إبراهيم بن أحمد بن علي الكينعي من صوفية اليمن وفاته سنة ٧٩٣. انظر ترجمته في البدر الطالع ١/ ٤.

(٢) سيشرح المؤلف هذه اللفظة فيما بعد.

غـرس الـصـنـيـع أبـوه فـي قـلـبـي فـذا ... حَـمْـدي لأحـمـده بـغـيـر تَـصَـنُّـع
أكـرم بـمـن صـعـد الـمـنـابـر مـعـلـنـاً ... بـفـصـاحـةٍ فـي جـمـعـة وتـجـمُّـع
شَـرُفـت شـبـامٌ حـيـن زادت بـهـجـةً ... مـنـه وحـسـنـاً فـهـي أشـرف مـوضـع
تـاهـت عـلـى الأقـطـار وافـتـخـرت بِـهِ ... عـن كـل مـا ادعـت الـبـلاد وتـدَّعـي
غَـضّ الـشـبـاب حـوى عـلـوم مـشـايـخ ... بـتـأمُّـلٍ لـرسـومـهـا وتَـتَـبُّـع
فـكـأنـمـا سُـقـي الـلُّـبـان[1] لـسـرِّهَـا ... طـفـلاً صَـغـيـراً فـي أوان الـمـرضـع
ولـقـد حَـوَى جـمـل الـمـحـامـد عـن يَـدِ ... فَـغَـدت لـه وبـبـعـضـهـا لـم يـقـنـعِ
فـعـلـمـت أن الـفـضـل فـيـه سَـجِـيّـة ... وطـبـيـعـة مـا نـالـه بـتـطـبُّـع
لا زال يـخـلـب كـل قـلـبٍ وعـظُـه ... مـا قـيـل لـلـشَّـمـس الـمـنـيـرة فـاطـلـع
وعـلـيـه ألـف تـحـيَّـةٍ مـن وامـقٍ ... يـأتـي إلـيـه بـنـشـرهـا الـمـتـضـوّع

قوله: بثمام قُسّ، هو بالثاء المثلثة المضمومة أقامه هنا مقام الفم بالفاء هو وهمٌ، والذي غَرّه قولهم: هي على طرف الثمام أو على طرف ثمامة، والثمام إنما هو نبتٌ ضعيف له خَوص الواحدة ثمامة، وهو يُكنى بذلك عن تَسْهيل الكلام وتقربه على الأفهام بحيث يكون سهل المأخذ قريب المتناول، قال بعض الشعراء المتقدمين[2]:

ولـو أن مـا أبـقـيـت مـنـي مـعـلـقٌ ... بـعـود ثـمـامٍ مـا تـأوّد عـودهـا

وقال أبو الطيب المتنبي[3]:

وخـيـل لا يـخـرّ لـهـا طـعـيـن ... كـأن قـنـا فـوارسـهـا ثُـمَـامُ

وقرأتُ في ديوان الإمام الزّمخشري رضي الله عنه قوله من أبيات:

فـمـن قَـوَّوا فـأقـوى مـن شَـمَـام ... وإلاّ فـهـو أضـعـف مـن ثُـمَـامَـه

---

(١) اللبان: قال في المعتمد هو الكندر من خصائصه أنه يزيد في قوة الحافظة.
(٢) البيت في اللسان ١٢/ ٨١ دون نسبة.
(٣) ديوان المتنبي: ٩٦.

الشيخ إبراهيم بن أحمد اليافعي[1]

شيخ لا يجاريه غلامٌ يافع، منشأه بصنعاء وأصله من يافع[2]، محاضر مجالس، منادم مؤانس، أخف من كل خفيف، وألطف من كل لطيف، ما رأيت مثله نبيهاً، ولا ألفيت له في حسن المجالسة شبيهاً، مع متحفات يحفظها ونوادر، وبدائة تأتي بما يستلطف وبوادر، فهو نعم الخليل، رَوْضُهُ نضير، وذيل نسيمه بليل، كان يَفِد إلينا وَينزل لقضاء مَغَارمه علينا فلا يصادف إلا أطيب جمع، ولعيون النرجس فوق خدود الورد من الطَلّ دمع، فهو دمع مَسَرَّةٍ وفرح، يميل معه الغصن ميلان زهوٍ ومرح، فكأنه النسيم في تلك الرياض هبّ، وعند ذلك يمدح والدنا بما قد أثبتناه في كتاب (رعى الأبّ)، فيمليه في مقامات حفت بماء الزهور وجرت خلال دوحها الباسق النهور، وإذا هو صادح يُغرِّد، ولألحان منظومه بين تلك الأفنان يُرَدِّد، وكَان يسأل والدنا بسؤالات جَيِّدة جِدًا، ويلزم بذهنه النّقاد أرباب العلوم إلزامات لا يجدون منها بُدًا، فيعجب والدنا منه لِفَرْط الذكاء، وغور مائه الذي لا يُنَال بالرُّكا[3]، ويجيب عليه أحسن الجواب، ويطفىء ناره بجفان ممتلئة من الماءِ كالجواب[4].

وشعره كثير، ومدحه لذوي الأمر أثير، فإنه أدرك الشّعر كهلاً ويافعاً، وألفى نظمه من داء الفقر دواء ناقعاً، ولم أجن من رطب ماله من نخيل، غير قوله في ذم رجل بخيل:

اختلف العالم في رؤيةٍ ... لقرصه المحروس بالسَّيف

فقال قوم إنه لا يُرَى ... قط ولا يسكن في جوف

---

(١) شاعر مشهور برع في الأدب واتصل بالمهدي صاحب المواهب ومدحه بغرر القصائد وكان يتعاطى الخياطة. توفي سنة ١١١٠. انظر ترجمته في نسمة السحر ونفحات العنبر والبدر الطالع ١/ ٧ ونشر العرف ١/ ٥.

(٢) يافع بلد مشهور باليمن ينسب إليه جماعة من العلماء يقع في الشمال الشرقي من عدن في المنطقة المعروفة بسر حمير، انظر معجم بلدان اليمن وقبائله: ٧٠٥.

(٣) جمع ركوة: إناء يجمع فيه الزيت ونحوه.

(٤) الجواب: جمع جابية البِركة ونحوها.

وقــال قــوم إنــهــا أمــكــنــت   رؤيــتــه لــكــن بــلا كَــيْــفِ

وفي هذا النظم إيماء وإشارة إلى اختلاف الأمم في رؤية الباري عز وعلا، فقوله: فقال قوم إنه لا يُرى، هذا هو رأي المعتزلة ومن تابعهم، وقوله وقال قوم إنها أمكنت البيت إلى آخره، هذا هو رأي الأشاعرة، فإنهم قالوا إنه سبحانه يرى في الآخرة بلا كيف، والكلام في رؤيته تعالى طويل والاختلاف بين الأمة فيها كبير، ليس هذا المقام بمقام تحرير تلك الأقوال، وخوض بحرها العظيم الأهوال، فالمقال يختلف باختلاف المقام، وقد شفينا في غير هذا الكتاب من ذلك الأوام، في مؤلفاتنا المتمخّضة للعلوم، فعليك بها لتشفى منك الكلوم.

ولما مدح صاحبُ التَّرجمة مولانا الوالد سقى الله ثراه بقصيدته الضادية التي أثبتناها في كتابنا المسمّى «رعي الأبّ» حاله في الغزل منها قوله:

ومــا قــضــى أربــاً مــنــه ولا غــرضــاً   مــع أنــه لــســهــامــي لــحــظــه غَــرَضُ

قال لي: هذا المعنى لم أسبق إليه أصْلاً فقلت له: قد قال سراج الدين الوراق رحمه الله تعالى:

كنتم لقلبي كما شاء الهوى غرضا   ولم يكن لسوى أجفانكم غرضَا

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة المصري رحمه الله تعالى[1]:

وسهام لحظك لا ترد عن الحَشَى   فوحق حسنك إنها أغراضي

وقال الشيخ شهاب الدين أحمد العناياتي[2] رضي الله عنه:

غرض يظلّ إذا رمى قلبي له   غرضاً فيضبيني بما يصميني

وجاء للفرزدق بيت يصلح للتورية وليست من مقصده فيما أظن وهو قوله[3]:

---

(١) ديوان ابن نباتة: ٢٨١.

(٢) هو شهاب الدين أحمد بن العناياتي ولد بمكة واصله من نابلس وعاد إلى الشام واستقر بدمشق. توفي سنة ٩٨٦ خلاصة الأثر ١ : ١٦٦ وريحانة الألباء ١ : ١٧.

(٣) ديوان الفرزدق: ٣٩١.

فكأن أفئدة الرِّجالِ إذا رأوا حدق النساء لنبلها أغراضُ

فاعترف الشيخ إبراهيم رحمه الله تعالى بسَبْق هؤلاء الفحول إلى المعنى الذي أراده وقال: أما أنا فلم أقف من هذه المعاني على شيء، وكنت أظن أني لم أسبق إلى هذا، وهذا من توارد الخواطر على الخاطر، ووقع الحافر كما يقال على الحافر.

ولده الفقيه حسين بن إبراهيم اليافعي[(١)]

شاعر مجواد، يهيم من البلاغة في كل واد، حمائم أدبه راعبيه[(٢)]، ورماح أقلامه راغبيه[(٣)]، منحرف الطبع، ضيق العطن والرَّبع، لطيف المزاج، يتصدى من لا شيء كأنه المرآة من الزجاج، كم وفد إلى سوح أبي صحبة أبيه، فتمتَّعت من محاسنه بما ليس له نظير ولا شبيه، وأنا صغير جدًّا، ولكني أُمَيِّز بأني لم ألف له نِدًّا، وكان إذا رأى خليلنا الشيخ إبراهيم الهندي، واستنشق ما يطيب من عرف أدبه الندي، اشتعل غيظاً وحسداً، وكاد أن يُفارق روحه جسداً، يَتَنفَّس تنفس المكلوم، ويتأوّه تأوُّه المظلوم، لِمَا يَرَى من تعظيم الناس له، وهيامهم ببنات فكره هيام ذي وَلَه، اجتمع هو وإياه لدى والدي بأكرم عقوة[(٤)]، ووفد إلى داره التي لا يحل بمن حل بها شِقوة، فكان ينعزل في بيت وَحْده، ويَنْجز من الاستيحاش والتنكر وعده، ويخلو لطارق وسواسه، ويتجَهَّم في وجوه ندمائه وجُلاَّسِه، ويَنْفر عن مقامات، إذا أراق العدوّ لغيظه بها دمع المُقا مات، تشتمل على محاورة ألَذّ من مفاكهة الحبيب، ومعاورة لكؤوس آدَابٍ تَدُبّ خمرتها في الأعضاء أي دبيب، في زمانٍ هو الدَّهر، وروضٍ فِرَاشُهُ الزَّهر، يجلس زواره على عيون نرجسِه، ويُساقط عليهم من الثَّمر ما طاب في مغرسه، فكان يلومه والده، ويكاد يحاربُه ويُجالده، وهو لا يصغ إلى لوم سمعًا، ولا يأنس لبارق السرّور لمعاً، ولمَّا فشا باليمن الحسد، وعلق داؤُه من اللؤما بأعماق الجسد، وساور الكلب العَوّاء الأسد، ونفق الجزع الردي، والدرّ

---

(١) ذكره المؤرخ زيارة في نشر العرف ١/ ١١ بعد ذكر والده ولم يؤرخ لوفاته.

(٢) يقال: رعبت الحمامة: رفعت هديلها وشدته.

(٣) لعلها نسبة إلى الراغب الأصبهاني صاحب محاضرات الأدباء والله أعلم.

(٤) العقوة: ما حول الدار والساحة.

النفيس كسد، لم يطِب له بأرضِها مُقَامُه، ولم يبرىء من دائه العضال عُقَامُه، فَمَهَّد الرحل على ظهر المطيَّة، وقال: منيحةٌ وعطيَّةٌ بعطيّة، ورحل إلى أرض الشام، فما نظر أحدٌ بارقَه ولا شام، طار طائره وأعمق غائره، ولوى العنان، فإذا هو أضلّ من سِنَان[(١)]، ما آب حتى يَؤُوب المُنَخَّل[(٢)]، لما لم يَجِد بأقطار اليمن غبر لئيم مُبَخَّل، فُقِد لما خرج لقريض البلاغة، كما فُقِد من خرج لقرظ الدباغة[(٣)]، فلا عين ولا أثر، ولا يدري أنظم أم نثر، ولا يعلم أنهض به جواد الحظ أم عثر، ولو لزم الدُّر أصدافه، ولم يفارق من أمواج البحر أردافه، ما رقى على الرؤوس في التيجان، ولا خالط في لبَّات الأعناق السّبج والمرجان، وإلى الآن لم يُسمع له بخبر، ولا اندمل جرح فراقه من قلب أبيه ولا انجبر، وكنت أراه يتأوه عند ذكره، إذا غرق لُبَّه في قاموس فكره.

---

(١) في المثل (حتى يرع ضالة غطفان) قال الزمخشري: هو سنان بن أبي حارثة وحديثه أنه كان لا يليق شيئاً من ماله لفرط جوده فحرقه قومه باللوم وهموا بالأخذ على يديه خوفاً عليه من الفقر فقال ما ظننت أني أعيش إلى زمان أُلام فيه على الجود فركب ناقة له تسمى الجهول وأخذ في الفيفاء أنفاً وحمية فلم يعاين هو ولا ناقته بعد فسمي ضالة غطفان. انظر المستقصى ١/٥٥.

(٢) هو المنخل بن مسعود اليشكري له قصيدة قالها في هند بنت عمرو بن هند، يتغزل فيها فلما بلغ عمرا أخذ المنخّل فقتله وقال ابن حبيب: كانت امرأة النعمان بن المنذر قد شغفت بالمنخل فخرج يتصيَّد فعمدت إلى قيد جعلت رجلها في إحدى حلقتيه ورجل المنخل في الأخرى شغفا به، وجاءا لنعمان فألفاهما على حالهما فأمر بالمنخل فقتل، وضربت به العرب المثل في الغائب الذي لا يرجى إيابه يقولون: «لا أفعله حتى يؤوب المنخل». انظر ابن حبيب المغتالين الأشراف ٢٣٩ والتاج ٨/١٣١ والأغاني ٩/١٥٨.

(٣) إشارة إلى قولهم في الأمثال «لا يكون ذلك حتى يؤوب القارظان» وهما رجلان أحدهما من عنزة والآخر من عامر بن تميم بن يقدم ابن عنزة خرجا ينتحيان القرظ ويجتنيانه فلم يرجعا فضرب بهما المثل قال أبو ذؤيب:

وحتى يؤوب القارظان كلاهما ... وينشر في القتلى كليب لوائل

وقال ابن الكلبي: هما قارظان وكلاهما من عنزة، فأكبر منهما يذكر بن عنزة كان لصلبه والأصغر هو رهم بن عامر من عنزة وكان من حديث الأول أن خزيمة بن نهد كان عشيق ابنته فاطمة بنت يذكر وهو القائل فيها:

إذ الجوزاء أردفت الثريا ... ظننت بآل فاطمة الظنونا

«اللسان ٧: ٤٥٥».

وشعره مع قِلّته مما يتلقاه الدرّ بصغاره وذلته، كقوله في هذه القصيدة المفصحة بالألحان سمعتها منه، ونقلتها من خط يده الآن، التي لو سمعها المتنبي لفت في زنده، والمعرّي لخبا سِقْطُ زَنْدِه[1] وهي قوله:

أتكتم وجد نَفْسك والكلالا وقد زمّوا لترحالٍ جمالا
فَريق فرَّقوا ما بَيْن نومي وجَفْني أن أصاد لهم خَيَالا
نأوا عن ذي الغضاء وغادروهُ بقلب الصبّ يشتعل اشتعالاً
وقفنا للوداع غداة وَلَّوْا وأدمعنا لما نلقى توالا
فلم أر ناعيا للبين مِمَّا ذَهِلت وعن يميناً أو شمالا[2]
هجرت الصّبر قَسْرا لا سلوًّا عن الخلّ الذي هَجَر الوصالا
أذوب إذا جفاني عن دلالٍ فكيف وقد نأى عني مِلالا
ومن رام التّسلي عن غرامٍ تعلّقه فقد طلب المُحَالا
إذا ما افترّ برقٌ عن سحابٍ قد اُرفَضّت مدامعها سجالا
بكى طرفي لبدرٍ حَلّ قلبي إذا عقد اللّثام حكى الهلالا
بروحي غادة تُحْمي حماهَا جَرِيٌّ يطلب الريح النزالا
ممَنَّعة بكل هزبر غابٍ يسدُّد دون مضربها النّبالا
وما النبل التي عني حمتها بأنفذ من لواحظها الكسالا
مُلِئْت لفقدها وجداً كأرضٍ بمولانا قد امتلأت جلالا
عقيد بني النّبي وأي حَبْرٍ إليه كل علم الآل آلاَ
حليف المفخر الجَمّ العطايا أجلُّ من انتضى البيض الصّقالا
فأحْمَدُ واخِداتٍ[3] أرْقَلَت بي إليه اليوم تنثال انثيالا
أتت بي نحو أرضٍ حَلّ فيها هَوًى تطوي المهامَة والرمالا

(١) عنوان ديوان شعر المعري.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) وخد البعير يخد وخدًا: اسرع وصار يرمي بقوائمه كالنعام.

شـقـقـن بـنـا جـيـوب الـبـيـد خَـبًّـا تـعـاف لـشـوقـهـا الـعـذب الـزلالا
إلـــى رَبْـــعٍ تـــفـــيـــأ قـــاصـــدوه مـــن الـــبـــرّ الـــعـــمـــيـــم بـــه ظِـــلالا
لـــه وَجْـــه يـــغـــضُ الـــطـــرف نُـــوْراً قـــد امـــتـــلأَت أســـرَّتـــه جـــمـــالا
يُـــقـــال إذا عـــلا طِـــرفـــاً ســـبـــوقـــاً متـى امـتـطـت الـغـزالـة ذا الـغـزالا
فـحـاز الـمـكـرمـات بـلا مِـرَاءٍ ونـال مـن الـعُـلا مـا لـن يُـنَـالا
يَـزِيـد عـلـى الـخِـضَـمّ فَـذَا بـمـاءٍ يـمـور وذا يـمـيـر الـنّـاس مـالا
وبـالإنـعـام يـدْرك كُـلُّ مَـجْـدٍ وبـالأقـدام يـعـلـو مـن تَـعَـالا
وطـبَّـق فَـضْـلُـه الـدنـيـا فـأضـحَـى نَـدَاه لـكـل ذي حَـسَـبٍ مِـثَـالا
لـه نـسـبٌ عَـرِيـقٌ أبـطـحـيٌّ يَـرَى بـالـمـرسـلـيـن لـه اتـصـالا
مـن الـقـوم الأولـى جـادوا وسـادوا وصـاروا أشـرف الـثـقـلـيـن آلا
يـقـود إلـى الأعـادي مُـقْـرَبـاتٍ سَـنَـابـكـهـن يـشـعـلـن الـذُّبـالا
يُـجـاذبـن الأعـنَّـة فـي نـزَالٍ ألـفـن الـبِـيْـض والـسّـمـر الـطـوالا
وكـل غِـضَـنْـفـر يـمـشـي الـهـويـنَـا لـنـخـوتـه الـعـظـيـمـة لا دَلالا
فـلـم تَـقِ بـأسـه زُرد دِلاص إذا مـا كَـرَّ فـي جَـيْـشٍ وصـالا
ولَـهْـذَمـه كـأيـم فـي غَـدِيـرٍ يـخـوض وقـد فَـرَا الـحلـق الـدِّخـالا
وخـذهـا يـا ابـن طـه بِـنْـت فـكـرٍ صـحِـيْـح يـنـفـث الـسـحـر الـحـلالا
أرى فـي الـدِّسـت مـنـك أبـا عـلـيٍّ مـلـيـكـاً طـوَّق الـنـعـم الـرِّجـالا
ودُم مـا غَـرَّدت فـي الأيـك وُرقٌ ومـا مـادت مـعـاطـفـه اعـتـدالا
وصَـلّ عـلـى رسـول الله مـن قـد هـدانـا إذ نـفـى عَـنَّـا الـضَّـلاَلا
وعِـتْـرتـه الـذيـن قـفَـوْه فـيـنـا فـهـم خـيـر الأنـام أبـاً وخـالا

وقوله: بكى طرفي لبدرٍ إلى آخر، البيت معناه حسن وهو من قول السيد جمال الدين محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين رحمه الله تعالى(١):

(١) ديوانه: ١٥٧ ط مكتبة ذمار.

إذا عقد اللثام بدا هلالا[1] ... وبدرا إن نضا عنه اللثاما

ومنه قول مولانا الوالد رضي الله عنه في نونيته:

وتراه إن وضع اللثام مُشَبِّهاً ... منه الهلالِ بِغُرَّةٍ وجبين
وإذا نضا عنه اللثام رأيتَه ... بدراً إلى سُبُلِ الهوى يهديني

وقول العماد الكاتب رحمه الله تعالى:

أقمار خُمْرانٍ إذا سَفَرت ... وإذا انتقبن أهلة اللُّثَمِ

وقول المطرز الزّاهد المعروف بِغُلام ثعلب[2]:

تلثَّم مرتاباً بفضل رِدائِه ... فقلت هلال بعد بَدْرِ تمام[3]

وقول جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى[4]:

رُبّ عيشٍ نصبت كأس مُدَامِه ... ومليح ضمَمْت غصن قوامِه
تائهٍ أقنع الهلال افتخاراً ... أنه قد غَدَا مثال لِثَامِه

ولصاحب الترجمة رحمه الله تعالى:

لَحَى الله دهراً خَصّني بِخَصَاصَةٍ ... وأقعدني عَمَّا سعت فيه أمثالي
تنوب صديقي نائبات زمانِه ... فتَمْنعني عن رفده قلة المالِ

وله:

للحبّ طرف ضَعِيف ... بالسقم غير بريّ
وإن غدا فاتِكا بي ... يوماً ففتك جريّ

---

(١) الديوان (هلاله).

(٢) هو أبو عمرو محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المعروف بالمطرز الباوردي الزاهد غلام ثعلب، أحد أئمة اللغة المشاهير. توفي سنة ٣٤٥. أنظر ترجمته في معجم الأدباء ٣/ ٢٦ وتاريخ بغداد ٢/ ٣٥٦ وابن خلكان ٤/ ٣٢٩.

(٣) البيت في وفيات الأعيان ٤/ ٢٣٣.

(٤) ديوانه ٤٣٨ مطلع قصيدة.

ومنه قول شهاب الدِّين أحمد بن محمد المُفَضَّل في مطلع قصيدة له:

نَظَرت إلى ورَقِ الشباب الأخْضَرِ نظر المهاة إلى الغَزال الأحْور
بفتور كحلاء المحاجر لحْظُها يشكو السقام وفتكه فَتْك الجري

قلت: ما في نظر المها إلى الغزال وجه يحسن معه قوله أن المحبوبة نظرت إلى ورق الشباب الأخضر نظر المها إلى الغزال الأحور، فهذا معنًى يسمج لأنه لم يتحقَّق أن المها من شأنها إدامة النظر إلى الغزال، وإن قصد أنها نظرت إلى ورق الشباب الأخضر نظر التذاذ وتمتع بخُضْرة الشباب كما يلتذ المها بالنظر إلى الغزال ويتمتع به، فمن أين لنا أن المها بهذه الصِّفة فإنه لا يلتذ بالنظر الحسن ويتمتع به إلاّ ذو عقلٍ وإدراك وهو الإنسان، ولا بأس بجَعْل المحبوبة مهًا فإنها قد توصف الحسناء بالمها والظَّبي، وكان القياس أن يقول هذا الشَّاعر هكذا:

نظرت إلى ورق الشباب الأخْضَرِ نظر المهاةِ إلى النَّبات الأنْضَرِ

فوجه حسن هذا البيت لو كان كتصويبنا له من وجوه:

منها: أن المناسبة بين ورق الشباب الأخضر والنَّبات الأنضر مناسبة ظاهرة، ومنها أن المها قد تُدِيْم نظرها إلى النَّبات الأنضر لأنه مما يرعاه ما لا تديمه إلى الغزال الأحور هذا معلوم.

ومنها: أنه يقع في البيت على التَّصويب من فَنّ البديع لزوم ما لا يلزم وهو بديع في بابه لأنها التزمت الضَّاد المعجمة قبل الراء التي هي القافية، وهذا غير لازم للشعر، فإن وقع دلَّ على رسوخ القدم في البلاغة وسعة المجال في التَّصرف بالعبارة كما لا يخفى.

الفقيه الهادي بن علي الصرمي الطبيب المنجم(١)

أديبٌ صرم حبال العَدُوّ فدُعي صرميًا، ولبيب سدد أسهمه فترك الحسود مرميًا، أدبه بأنفاسه مِعطار، ألقى من الغيظ عليه العنبر نفسَه في النار، وقد جمع من شعره

(١) هو من العلماء المحققين له مؤلفات في الفلك والمنطق. توفي سنة ١١٢١. انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ٢/ ٧٧٧.

ديواناً، وبنى لأكاسرة عصره منه - في اعتقاده - إيواناً، لأنه كثير المَدْح، لا يزال مع أنه غير مطوّق بنعمهم في صدح، وليس في الزَّمن، ولا في أقطار اليمن، إلاَّ غشوم نَهَّاب جمّاع للأموال غير وَهَّاب، فملوكه لصوص النَّهار في الدَّهر، يأخذون أموال النَّاس بالغلبة والقهر، ويُعَرسون بغادة المعالي لكن بلا عقدٍ ولا مهر، إذا وعدوا مانوا وإذا مانوا مَنّوا وما لانوا وإذا لانوا فأقسى من الصخر، ليس فيهم شيء من صفات المجد والفخر:

إذا سلم الإنسان من شر أخذهم لِمَا لم يكن من جودهم فَكَثِيرُ

ولم يزل بآدابه طروباً، فلم أر لنجم زهوه غروباً.

سمعته يقول: أنا أديب الزمان، وأنا حكيم العصر والأوان، أنا الحكيم المؤتمن، وزينة أرض اليمن، وله طبع يغلب عليه القلق، ويطلع على ليل السّكون منه الفلق، فهو أقلق من الوشاح، ولا أقول كريشة ساقطة في مهَبّ الرياح، أو أقول أخفّ من فراشه، يكاد من خفته يطير فإن الدهر قد أراشه، أسرع حركة من الزئبق، وأحدّ في الأنوف من المسك الأعبق، لا يستقر على حال، مع أنها تُشد إليه الرِّحال، يُقْصَد للعلاج ولتدبير سُوء المزاج، لأن له في الطبّ، أعدل علاج نتلقّاه العافية بوجهٍ غير مُقطِّب يتكلَّم فيه بعبارة جزلة، تفحم صاحب «القانون»[1] «وابن جَزلة»[2] لو ناظر ابن سينا، لأظهر شينه فيُعجم منه سينا، وإذا هو ابن شَيْن، بلا زور ولامين، قد دقّ في نظر الأسباب والعلل فكره، ولذا قال فيه السَّيد عبد الله بن علي الوزير المتقدم ذكره:

أئمة الطبّ بصنعا لهم تعديل أزواحِ بأجسادِ
وكلهم داعٍ إلى نَفْسِه لكن إمامي منهم الهادي[3]

وله في علم الفلك، طالِعٌ مساعيه هي الرائحة أينما سلك، ما لشرف كوكبه من هبوط، ولا لأوتاد إقباله وقَبُولِهِ سقوط، ليس له احتراق إلاً من نار الذكا، ولا لقوة طبيعته وسَهْمها رَدْ ولذا أنه نكا.

---

(١) صاحب القانون هو ابن سينا الطبيب المشهور.

(٢) ابن جزلة هو يحيى بن عيسى المتوفى سنة ٤٩٣.

(٣) هنا تورية بالإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسن اول امام حكم اليمن وأسس دولة وبالهادي الصرمي صاحب الترجمة.

وشعره مع كثرته جَيِّد، وأدبه لسائر الآداب سيد، فغادة قرطاسه بالمداد فَينانَه، وبنات فكره موصوفة بالجمال من كل حسناء بَهْنانَه، مع تنميق خَطِّ، كأنه الزَّرد تنسجه من الأقلام رماح خط، ما تنميق العذار المسلسل، السائل على أوراق السوالف المُرْسل، أخبرني أن له مجموعاً من شعره، وبحراً لا يبلغ الغَوَّاصُ فيه إلى قعره، قَصر بنات أفكاره منه في الخيام أي قصر، وأسكن كل مليحة منهن بيتاً هو في الحقيقة قصر، وقفتُ منه على نبذة عندها النبيذ يُنْبذ، ورأيتُ منه نموذجاً يدل[1] على أنه في الأدب المفرد الفَذّ، ولم يحضرني الآن من أدبه الذي هو في ليل المداد سراج، غير قوله مهنِّئاً لبعض أقاربنا بحصول زواج:

بَـلَـغـوا الـمـرام مـن الـتـلاقـي   وصَـبَـوا إلـى دُعـج الأمـاقـي
وتـرشّـفـوا راح الـمـرا   شـف لا الـزّجـاجـات الـرقـاقِ
وأنـا الـعـمـيـد بـحـبّـهـم   بـاقٍ عـلـى حـسـن الـرِفـاق
كـلـفـي بـبـدرٍ مـا بِـه   كـلـفٌ ولا نـقـص الـمـحـاقِ
ريّـان يـمـرح فـي الـصِّـبـا   مـا بَـيْـن عـوّادٍ وسـاقـي
ويُـمـيـل أعـطـافـاً فـيـهـزؤ   بـالـمـولـلـه[2] الـدقَـاقِ
مـهـصـور رمـح الـقـد عـبـ   ـل الـرِّدف مـكـي الـنِّـطـاق
مـن لـم يـزل مـتـهـاديـاً   نـحـو الـمُـتَـيّـم لـلـعـنـاقِ
فـأعـيـذُه عـسَّـال ذاك (م) الـقَـدّ   مـن مُـرّ الـفـراق
أنـا مِـن سُـلاَفَـةِ ظَـلْـمِـه   بـيـن اصـطـبـاحِ واغـتـبـاقِ

منها:

يـمـمـتـه بـحـراً طـمـا   لـمـا اسـتـقـلـيـت الـسَّـواقـي
وذكـرتُ عـهـد وصـالِـنَـا   بِـشِـبَـام مـع تـلـك الـرِّفـاق
ومـعـاهـداً بـالـسَّـفـح مـن   صـنـعـا عـلـى حُـسْـن الـتـلاق

---

(١) كذا في (ش) و(ب).

والـورق تـشـدو بـالـمـثـا لـث والـسـحـائـب فـي انـدفـاقِ
والـروضـة الـغَـنَّـا إلـى أزهـارهـا صـرف اشـتـيـاقـي
وفـتَـخـتْ أبـواب الـربـيـع فـلـم يُـكَـدِّر بـانـغـلاق
هـذا وقـد رفـعـت لـنـا أيـدي الـصَّـبـا أسـمـا رُواقِ
والـغَـم مـن فـوق الـحـدا ئـق والـبـواسـق فـي انـدفـاق

منها:

ولـه الـهَـنَـا مُـتَـجَـدِّداً بـالـوَصْـل مـن سـاجـي الأمـاقـي
عـرسٌ تُـغـازل فـي الـضُّـحـى كـالـشَّـمـس مـن تـحـت الـغِـمَـاقِ
هـاروت مـن الـحـاظـهـا يَـسْـقـي الـحُـمَـيَّـا بـالـدِّهـاقِ
بـيـضـاء أسـمـر قَـدِّهـا أمـضـى مـن الـبِـيْـض الـرِّقـاق
جـاءت عـلـى الـنَّـهـد الـكـمـيـت لـهـا نـهـود كـالـحـقـاقِ
جُـلَـيِـت فـبـات الـدُرُّ مـن خَـجَـلٍ حَـيَـاءً فـي انـشـقـاق

وكتب مع هذا المنظوم من المنثور كتاباً منه قوله: مواقع التهاني من القلوب، مواقع اتصال المُحِب بالمحبوب، العرس الذي لاحت أنواره، وتبدّد في الآفاق من حصباء النجوم نثاره، وترنّمت حُلِتُه على القدود كما ترنّمت على الغصن أطياره، وترقرق ماء الشبيبة على الخدود، فخلت حديقة ورد تفتحت أزراره، وتفاوح عن روائحه الربيع، وقد تنوّعت أزهاره، ولاح في الأطواق مُحَيًا توارت منه في الليل أقماره، هذا وإنّي بعثتها على قادِمَتي طائر الإسعاد، وأرسلتها فوردت على غير ميعاد، وللهنا في الآفاق شعار النوروز الأكبر، والمهرجان بجزيل المهر الذي يبهر، وكيف لا أنظم القوافي، وأطيّر إليكم من المنظوم والمنثور بقوادم وخوافي، وقد خيّمت الأفراح بذلك السفح، ووصل إلينا من أزهارها أي نفح، فتمتع أيها البدر بالشمس، وابن قدّها على الضمّ عند كسرات أجفانها، كما يُبني على الكسر أمس، وشنّف السّمع من نغمات صادح القُرْط وباغم السّلس، والسلام.

قوله في المنظوم: يَممّته بحراً البيت، هو فيه يشير إلى قول أبي الطَّيب

المتنبي في مدح كافور:

قواصد كافورٍ توارك غَيْرِه ... ومن قصد البحر استقل السواقِيَا

ذكرت هنا تضميني لهذا المصراع الأخير، فقلت:

لقد قصد العُذَّال دمعي بعذلهم ... ولم يَكُ ذاك العذل للدَّمع راقِيَا
أتوا فاستقلوا دمع غيري عنده ... (ومن قصد البحر استقل السواقِيَا)

ولمَّا وفدتُ إلى صنعا اليمن المحروسة كان كثيراً ما يَفِد إليّ للمحاورة والمذاكرة، ثمّ أنه التمس مني إسعاده إلى دخولِ دارِه فأسعدته، وانفصل من مقامي بالعشي وقد وعدته الوصول إليه صبح ذلك اللَّيل، فعرض لي ما أوجب عزمي إلى الوطن من كوكبان السَّامي على الفور في ذلك الصبح الذي وعدته فيه، فكتبت إليه معتذراً عن إخلاف الوعد من المنظوم والمنثور قولي وقد جئتِ في النظم بلزوم ما لا يلزم:

أيا من غدا طيرُ البلاغة شَادِيًا ... وقد حل من أوراق طرسك ناديَا
وما زال في روضات شعرك رائحاً ... على الغصن من لدن اليراع وغاديا
تفضّل ببسط العذر لي أن وجهه ... فلا لوم أصلاً قد غدا لك بادِيا
فقد عاد حادي العيس ثانِيَ عِطْفه ... إلى سفرٍ مِنَّا وإن كان حَادِيَا
وقد هزَّني لَمّا تهيَّأ لموطنٍ ... إلى عين نهرٍ منه ما زلت صاديَا
وبالرُّغم مِن صَبٌ فراقك بعدمَا ... أحلَّيته من روض أنسك واديا
فما ضل فيه إذ غدوت رفِيْقَه ... فكيف وقد ألفاك في المشي هاديا
ودم ما دعا طيرٌ إلى روض نُدْمَةٍ ... وأضحى لهم فوق الغصون مُنَاديا

الحكيم المحرز من الحكمة لترياقها، الذي لو جس من سواعد الغصون في الحديقة نبض أوراقها، لأبرأ نسيمها من العلل، وأحداق نرجسها من الفتور والكسل، وجفون شقيقها من الرَّمد، ونواظر بُهَارها من اليرقان الذي يعظم به الكمد، وعيون أنهارها من التكدّر، فلا يُغير صفوها الاندفاق والتحدر، أنا إليك أشوق من العليل إلى الطبيب، ومن الوامق المغرَم إلى الحبيب، ولي من الارتياح

إلى نزول دارِك، وإلى الاغتراف من بحور عروضك كالهَزَج والمتدارِك، ما لا أرتاح إلى منازل الأقمار من الحسان، وإلى بحور الكرم من ذوي الإحسان، وكنت مُصمماً على الوفاء بالوعد، ناوياً بهمول الغيث عقيب هيمنة الرعد، أفِدُ إليك من نسيم الصباح، وأحييك قرين قول المنادي فيه حي على الفلاح، وأصابحك مصابحة الطل لروضة غنًّا، وأباكرك مُباكرة الطير لإلفه وقد هدر وغنّى، نجتمع في مقام هو الحديقة، ونتقارن في منزلٍ من منازِل السعد حقيقة، وقد اتصلت المُناوبة للطائف الآداب والمعاورة، وأثارت عِثْيرَ النَدِّ المتضوّع في المجلس جياد المحاورة، وطير الفصاحة يُغرِّد ويشدو، وبدر النَّديم يُحجب تحت سحاب دخان النَدّ تارة وتارة يبدو، لكنه عرض لي عارض العزم، وجزمتُ بالمسير في هذا اليوم أيّ جزم، لموجب حدث بعد انفصالك عَنّي، لو عرفتَ حقيقته لقبلت العذر بديهة منّي، من دون أن أطول في الاعتذار، وأزيِّن خدّ طرسي هذا من رقم مدادي بالعذار، فزارتك التحيّات بدلاً عن زيارتي، والتمست لي منك العذر إذا قصَّرت عبارتي، والسلام.

قولي في هذا المنثور: وبدر النَّديم يحجب إلى آخر الفقرة، في معناه ما نظمته أنا في مليح يبخّر فنجانه في المجلس بالمصطكا فقلت:

وبدر يبخر فِنجانه جميل السمات شديد الذكا
يحجبه وهو في مَجْلسي سحاب الدخان من المصطكا

ومنه قول قرواش رحمه[1] الله تعالى[2]:

وآلِفَة للطّيب ليسَت تُغِبُّه منعّمة الأطراف ليّنة اللّمس

---

(١) هو قرواش بن مقلد بن المسيب بن رافع معتمد الدولة العقيلي أمير الموصل خطب للحاكم ثم عدل إلى القادر العباسي فجهز صاحب مصر جيشاً لحربه وكان شاعراً ظريفاً. توفي سنة ٤٤٤، الكامل لابن الأثير الجزء التاسع وفوات الوفيات ١٩٨/٤ وقرواش بكسر القاف وسكون الراء معناه بالتركية عبد أسود.

(٢) البيتان في فوات الوفيات ٢٠١/٤.

إذا ما دخان النّد من جَيْبها علا ... على وَجْهها أبصرت غيْماً على الشمس

وقول الأديب حسين بن محمد الجزري[1] الحلبي أحد رجال الرَّيحانة رحمه الله تعالى في مليح يشرب الدُّخان المعروف[2]:

كأنّما دُخَان غَلْيُونِه ... لَمّا بَدَا من ثَغْرِه الدُّرِي
غيمٌ نشا من شفقٍ أحْمَرٍ ... مُرْتَفِعاً غَشّى سَنَا البَدْرِ

الأديب ناصر سعد[3]

سعدٌ وابن سعد، أنجز له الزَّمان تمام وعد، وأعقب برق آمالِه الرعد، فأمطرت عليه سحائب النَّوال ما لم تمطره على غيره قبل وبعد، فأصبح وهو مملوك مالكاً، وأضحى في الرئاسة والإمارة سالكاً، فكان في الحرب سيفاً وفي السّلم عاملاً، ينال من الدنيا ما كان له آمِلاَ، ويَمُدّ إلى الثروة ساعِداً وأناملا، وهو من أولاد العبيد، وذرية من لا يَفْنى صيت نجدتهم ولا يبيد، وله بالدَّولة المهدوية[4] اتصال، فكم جال في نزال عدوِّها وصال، كان يَعُدّ نفسه مِن حُمَاتِها، ويتجرّد لنصرها فينتظم في سلك كماتها، وله فيه مدائح طنانة، وأوتار كَلِم رنّانة فله في الأدب ذهن يتقِدُ كالمرجل، وتبتدي بديهته بنات فكرٍ صقيلة التَّرائب كالسجنجل، كقوله من قصيدة:

لما طلعتَ أمام الجيش مبتدراً ... جاءتك عصبة أهل البغي تبتدرُ
في صبح يوم خميسٍ قُدْتَه لجَباً ... لصيته في نواحي الأرض مشتهرُ
قصدت نحو أعاديك الذين بغوا ... بِعَزْمَةٍ في ظلام الليل تستعِرُ
تقدّ متن بسيط الأرض مغتسفاً ... حَزْناً وسهلاً فتعلوها وتنحدرُ

---

(١) في الريحانة حسين بن أحمد الجزري نشأ بحلب ورحل إلى الشام والعراق. توفي سنة ١٠٣٣ (خلاصة الأثر ٢/ ٨١).

(٢) لم أجد البيتين في الريحانة.

(٣) لم أجد له ترجمة في كتاب آخر.

(٤) يعني دولة الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن.

سبقت كل وسيع الخطو مرتكضاً | في حلبة السبق ما في باعه قِصَرُ
وقُدْت كل شديد الباس باسِلة | له على أزِمَّات الحرب مصطبرُ
من كل مُلْتهب الأحشاءِ ذو شرهٍ | على الأعادي فلا يبقى ولا يذرُ
ومُذ تحزَّبت الأعداءِ وانتظموا | عاجَلْتهم بذباب السَّيف فانتشروا
أبنت عن جثثٍ للبعض أرؤسهم | وآخرون بأيدي القوم قد أسِروا
فَرَّقت شمل جموعاتٍ لهم فَغَدا | وكل عينٍ لجمعٍ منهمُ أثَر
وظلت تهدم عن رأي وعن نَظَرٍ | مَنَازِلاً قد أشادوها وقد عمروا
وظل في كل بيتٍ من بيوتهم | للافح النَّار تأجيجٌ ومستعرُ
تلهّبٌ قد أهال القوم رؤيته | كأنما كل بيتٍ منهمُ سقرُ
وللدِّماء وقد حُزَّت غلاصمهم | غَداة دارت رحاء الحرب مُنْهَمَرُ
أوحشت كل أنيسٍ من مساكنهم | وللبقية في الماضين معتبرُ
لقد نهَضْتَ إمامَ العصر معتزيا | لنصرة الحق فالأيام تأْتَمِرُ
وَعُدْت عَوْد حميد السَّعي عن ظفَرٍ | يزهو بك الجيش من تِيْهٍ ويزدهِرُ
ما زلت تُحْسن في الأعذار مُحْتَسَبَا | جميل صنعك إحساناً فتَعْتذرُ
وقد صَبَرْت وما فِي الصَّبر مِن أربٍ | وهل يُرَد قضاءُ الله والقَدَرُ
مولاي قد نلت ما ترجوه من أربٍ | وقد بلغت مَحَلاً دونه القَمَرُ
والدَّهر أضحَى لما تهواه مُمْتثلاً | فاحكم بما شئت لا زورٌ ولا وزرُ
منك الأمان لراجٍ منك بُغْيَتَه | وللمحارب منك الخوف والحَذَرُ
يا من بعَوْدته الغرّاء عاد لنا | حُسْن الهنا وتوالى النصر والظفرُ
إني لأنطق والأسياف ناطقةٌ | وأحكم القول والأرماح تشتجرُ
وانتقي دُرّ ألفاظي فانظمه | قَلائداً فوق جيد المجد يُختَكَرُ
أحُوك كل بديع القول أنظمه | وَشياً عليك وليل النقع معتكرُ
والبيض والسّمر والهيجاء تشهد لي | والحزن والسّهل والروحات والبُكَرُ
ولست أقصُر أمداحي على زَمَنَيْ | سِلْمٍ وأمْنٍ فما من شأني القِصَرُ

كَـلاً ولا أنـا كـالـقـوم الـذيـن غـدت أشـعـارهـم لـلـيـالـي الـعـيـد تُـدَّخَـرُ
فأحْـسِـنِ الـفَـرْق فـيـمـن صـاغ جـوهـره عند الوطيس ومن في السِّلْم قد شَعَرُوا
واسـلـم ودُم فـي نـعـيـمٍ لا نَـفَـاد لـه مُـسَـدَّد الـرأي مـدفـوعـاً بـك الـضَّـررُ
ثـم الـصَّلاة عـلى طه الَّذي اعـتـرفـت بـفـضـلـه عُـصَـب الإسـلام وافـتـخـروا
ما ناحت الورق في الأغصان ساجعةً وبـلـل الـزّهـر فـي أكـمـامِـه الـمَـطَـرُ

قوله: في صبح يوم خميسٍ. البيت، فيه من البديع الجناس المعنوي، ولم يقصده صاحب الترجمة ولم يرده أصلاً لبعد ذهنه عن دقائق علم البديع، وخلوّ فكرته عن الغائر من غوامضه، وذلك لأن يوم الخميس يوم من الأيام معروف وهو الذي قصده في البيت، والخميس أيضاً الجيش لأنه خمس فرق المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق، انظر إلى قول الشاعر(١):

قد تضرب الجيش الخميس الأزورا حـتـى نـرى زوْيَـره تَـحَـوَّرا(٢)

حيث جعل الخميس صفة للجيش، فقد أبان أنه إنما سمي خميساً لإنقسامه خمس فِرَق فهو في التحقيق صفة للجيش.

وإنما قلنا إن في البيت الجناس المعنوي لأنه كما قدمنا ذكره في ترجمة صنونا جمال الدين علي بن يحيى الحيمي رحمه الله تعالى هو: أن يعدل الشَّاعر في بَيْته عن اللفظ المجانس إلى ما يرادفه كما عَدَل صاحب التَّرجمة هنا إلى قوله لَجَباً بالجيم والباء الموحدة أي جيشاً لأن اللَّجب الجيش عن أن يقول: في صبح يوم خميسٍ قدته خميساً، فلو أنه قال: كذلك لكان الجناس لفظيًا بين الخميس الذي هو اليوم، والخميس الذي هو الجيش، فلما لم يكن أن يقول كذلك ملاحظاً لاستقامة وزن الشعر ونفوراً من زحاف البيت وخروجه عن الوزن العروضي، قال لجباً فكان الجناس معنويًا وهذا النوع كما ذكرناه متقدماً يأتي في النَّظم فقط لا في

---

(١) البيت في اللسان ٤: ٢٣٨.

(٢) اللسان «مجورا».

النّثر لأنه إنما يَضطر الشاعر إلى أن يأتي بالمرادف ملاحظة لصلاح وَزْن الشعر لئلاً يخرج عن قانونه، وأما في النّثر فلا يأتي الجناس المعنويّ لأنه لم يكن له وزن يضطر معه النّاثر إلى ذلك، ومن الله تعالى نرجُو التوفيق.

ومن نكت صاحب الترجمة العجيبة ونوادره اللطيفة الغريبة: أنه ذكر في بعض أشعاره وادي النخيل، وهو وادٍ بطريق بندر المخا مَرَرْتُه لما وصلت الوَخْد[1] بالذميل، كثير النخيل الذي طعم رطبه يقصر عنه شهد النحل مع أني لم أر أحداً غيره ذكره في شعره ولا تعرض لوصفِه في نظمه ولا نثره، فاتفق له في بعض السّفرات أن مَرّ فيه فوافته به المَنِيَّة وقالت له: هذا المحلّ الذي تصطفيه فانخ مطية قبرك منه بالجرعا، واتركها تسرح فيه بين الماء والمرعَى، فمات به وقُبِر، وتلقَّاه ناديه بأسنى جميل وَبِر، سقى الله منه الرَّميم، وتلقاه من غفرانه بالنَّعيم المقيم.

الفقيه أحمد بن عبد القادر الناخوذة[2]

أبرزه العصر الآخر إنساناً، فإذا هو به للطراز الأول قد أنسانا، سَوَّدَتْه همته، من قبل أن تَسْود لمته، فزاحم بمنكبه الفضلاء وخطب العُلاَ، من وليِّها ولم يخش عضلا، لأنه كفوٌ لا يُرَدّ، ونسيب في حسبه قد انفرد، ناهِيْك به من كريم، معهم من المعالي بكل خريدة كريم، علت به رُتب الأدب درجا، وتضوَّعت بطيبه أرجاء صنعاء أرَجَا، إلاّ أن حظه في الحضيض، وطرْف شوهاء أيامه غير غضيض، فهي في منظرٍ قبيح، لها محيًا غير صبيح، قد اسود حظه سواد لمَّته، وقد بلغت عُضَضُه إلى مبلغ هِمَّته، لأنها صاعدة في الأوج، قد أغرقها البحر المكفوف في الموج، فعيْشُه عيش الأفاضل، يناضله الحرمان بما يُنَاضِل، إن مدح لئيماً لم يُجز، فوعده له ما تَمّ ولا نجز، فإذا إنْبَاضُه بغير

---

(١) الوخد سبق شرحه. والذميل: سير الجمل الهوينا عكس الوخد.

(٢) أديب شاعر ترجمه صاحب نفحات العنبر نقلاً عن كتابنا هذا ولم يؤرخ لوفاته. أنظر نشر العرف ١/ ١٦٠.

تَوتير، وتوسيعه في المواعيد نهاية التَّقتير، يقوم له على ساقٍ في مطل عَرْقوب، بوعدٍ كاذبٍ غيْر متوقع ولا مَرْقوب، فَرِزقُه لنزارته يخرج من سمّ إبْرَتِه المثقوب، لأنه يحترف بالخياطة، ويأخذ في أمرِ مَعَاشِه بالحِياطة، فبدرُه مُقارن للذراع[1]، ومقراضُه مُصْلَتٌ في حرب الدَّهر للقراع، ما كَفَّ وقد كَفّ، ولا برحت الإبرة منه في كفّ، فبديع القماش بين يديه في نشرٍ وَلَفّ، وهو مع ذلك للفوائد في تَخصيل، ولتاج الأدب في تكليل وتَفْصيل، مَا ذُوكِر في بَحْثٍ إلا شفا، ولا نوقش في فَنٍّ إلا وفا، يحفظ الأوابد والشَّوارد، ويورد المستفيد أطيب الموارد، طالما أملاني، وعن الأحبّة أسلاني، بدفائن يُبْرِزُها، وحُلل يَطرزها، مما نسيت عندها أبهج وطن، وأقسمت أنه ما قُرِع بمثلها سمع وطن، يعجز عن الإحاطة بهَا أرباب لَبَابةٍ وفطن، قطف لي فمن روضِة ورده وآسه، وأدار علي تحت المُظِل من دوحةِ كاسه، فَصَرعني بِخُمارِه، وزَجّ بي في جيش اللَّهو وغُمَاره، وله إليّ أُنس الطائر إلى إلفه، واذلاء السَّالف إلى شنفِه، لا يُفَارِق نقامي إلاَّ قَلِيلاً، ولا ينهض نسيم طَبْعه من قطرات مُحَاورتي إلاّ بليْلاً، فَكَم من أسرارٍ لنا أودعها الليل في سويدائه، وكم من مُرَاجَعَةٍ تخلّص عليل النَّسيم مِن دائه، وأنا مستوطن لصنعاء، لما حبسني الدَّهر عن ملاعب صباي منعاً، فرضيت على القَسْر، وتوقفت عند الأسر، ولم أذكر عيون المها بين الرصافة والجَسْر، فلولا تعلُّلي بحديثه الطيب، وزفافه إليّ عرائس آدابه البكر والثيب، لانشقَّت من البعد مَرَارتي، واشتعلت كالنَّار المتأجِّجة حرارتي، وهو الآن نديمي وخليلي، والمعالج بالتَّلطيف والتَّخفيف لعليلي، ولم يزل يهدي إليّ من شعره كل باكورة، وينزلني من بيوت نظمه في أخصب كورة، ويتحفني بكل حسناء هي بالجمال موصوفة مذكورة، فَلَهُ غَزَلٌ تُغازلُه عيون المَهَى، ومَدْحٌ دون شعره الشِّعْرى والسُّهى، مما أملاه عليّ وعجَّل بجهازه إليَّ قوله:

---

(١) الذراع: منزل للقمر ينزل به في الليلة السابعة من الشهر وهو كوكبان نيران معترضان بين الشمال والجنوب وهي ذراع الأسد والذراع المبسوطة.

بعتُك قلبي بيعَ بخسٍ على ... شرط الوفا بالوصل والقرب
فسِمْتني هَجْراً وأبدلتني ... بعد الرضا سخْطاً بلا ذنب
فهات لي قلبي وخُذ غَيْرَهُ ... أقالك الرحمٰن في قَلْبي

وقوله:

سألتُ مبسمه الضَّحاك يخبرني ... أريقُه العذب من مستقطر البَرَدِ
فقال بَرْقُ الثنايا كيف تجهل مَا ... يَرْوي وقَطْر الندى في فيه إن تَرِد
والجوهري عن النّظام يرفَعُه ... عن المبرّد[1] فاحفظ صحة السَّنَدِ

وقوله:

أقول لذات الطوق لما ترنّمت ... على فَرْعها العالي عتيماً وغنَّت
رويدك قد أذكيت في القلب لوعةً ... وقد أجريت في الخَدَّين سائل عبرتي
حملت من الأشواق ما لا أطيقه ... احتمالاً وأعديت النَّسيم برقَّتِي
فلو لم يكن حَمْل الهوى دون طوقها ... لَمَا خضَبَت منها البنَان وحَنَّتِ

وقوله:

أصْلَى فؤادي بالصّدود وقال لي ... ماذا أراه على خدودك ساعيا
فأجبته تلك الحرارة أرْسَلَت ... مستقطر الأجفان ماءً جَاريَا

وقوله:

ولما رأيتُ الدّهر هَوَّن جانبي ... وكان لفرط اللَّوم يسلبني ملكي
وسَام ذوي الهَيْئات سفهاً وذلَّةً ... وراح حصيف القوم مستعبراً يبكي
وعاملني عكس القضيَّة عابساً ... وضاحك من بالدفّ يضرب والجنكِ[2]
قَنِعْتُ من الدنيا بدون كفاية ... لعلمي بأن الحرص مجلبَةُ الهلكِ
وجانَبْت هذا الناس لمَّا بَلَوْتهم ... زُيوفاً إذا حقَّقت تظهر بالسَّبْكِ
فخُذ جانباً عنهم إذا كنت واثقاً ... برزقٍ من المولى يقيناً بلا شَكّ

---

(١) توجيه بأسماء علماء معروفين هم: الجوهري صاحب الصحاح والنظام المعتزلي والمبرد اللغوي.
(٢) الجنك: من آلات الطرب (فارسية).

ولا تعطهم ودًا ولا تخش من قِلاً ... فما راحة الأرواح عندي سوى التّركِ
وقَدِّم إلى الرَّحمن توبة نادمٍ ... فقد يذهب الذنب العظيم مع النّسك
ولا تشك ما لاقيت من غير منصفٍ ... إلى مثله لكن إلى منصفٍ تشكي

وقوله: ـ نظمها أيام عشر ذي الحجة الحرام وكانت أيّام شدة وغلاء في الحبوب وغيرها:

يا صاح هل تسعد الأيام صاحيةً ... وهل تَجُود ليالِيْنا بإيناسِ
وهل أبيت مع الاخوان أنشدهم ... شعراً وأخبرهم عن آل عبَّاسِ
شربتُ من كأسها صرف الذّهول لذا ... أصبحت لا أعرف العاري من الكاسي
لا أذكر الناس في اللأوَى لمأربة ... حتّى يُقال بأني ذاكر الناس
وقد علمت بأن القوم أجمعهم ... في العشر تضرب أخماساً بأسداسِ

وقوله:

أرى الجود غُيِّب تحت الثرى ... ومات النُّضار ومات اللُّجين
ولم يبق منه سوى رَسْمِه ... فصار الندى أثَراً بعد عين

* * *

الفقيه عبد الله المعروف بالحجيرب(١)

أديبٌ شابّ ما تعذّر ولا شاب، ومع ذلك فإنه لعسل الأدب بسُكَّرِه قد شاب، فرَوْضُه الزاهي متلوّن الزهور أخضر الأعشاب، إذا هَزّت شمال شمائله غُصْن قَلَمِه في رياض الأوراق، تساقطت منه ثمار مُعَطّرة الشَّميم حلوة المذاق، ملأ كؤوس المسامع من مُدَام آدابه، وقَلَّد جيد الأقلام بفرائد خطابِه، كان كما روَى لي بعض الأدباء، في لطفٍ يهيم به نسيم الصَّبا، وصورةٍ ذا حُسْنٍ موفَّر موفًى، كأنّما أفرغت من البلور المصفًى، فإذا جلا مُحَيَّاه سلّم عليه البَدْرُ وحَيّاه، وإذا خَطَر بقدِّه المائل، مات الغصن من الحسد فتندبه الحمائم في الخمائل، وَلِع بجماله

(١) انفرد بذكره كتابنا هذا.

النَّسيم البليل، فَوُصف لأجل حُبِّه بأنه عليل، وَسُلِب بِحُسنه كُلُّ ذي شغف، وهام البدر بطلعته حتى صار ذا كلف، فلولا عيون رُقَبَاءِ النجوم، لهبط إلى ساحته ليزيلُ ما به من الكلوم، استكمل من الجمال نصابه، فهو أحسن من الدُمْيَة وأجمل من ذي العِصابة، إذا بَدَا خَدُّه للعيون فعن لونِ عندمي، حتى يقول الشَّقيق في الروض لقد عبّر عن دمي، وهو مِمَّن بَغَتَه الحِمَام، وفاجأه الموت الزُّوام، فَمَات ورحَل عن مُؤالفِه، وعذاره لما يَفُتُّ مسْكه على كافور سالِفِه، عَرَبَتْ زُهرُه قَبْلَ أن يُخْضِد مُهْرُه، فَوَحَقّ من بالجميل عَوَّد، مَا تَأَوَّد قَضِيبُه ولا تَخَوّد، سَقَى الله غُصْنَه، وساق إلى لحده من الإكرام مزنه:

فـيـا حَـيَـا الـغـيـث أجْـزِل لـذابِـل الـعِـطْـف رفـدك
واجـعـل بُـكَـاك عـلـيـه نَـدَاك والـنـوح رعـدك

ولم يبلغ إليَّ من شعره، ولا ظفرتُ من لآلي بَحْر عروضه الذي لم يَصَل غَوَّاص ذهني إلى قعره، بسوى ما كتبه إلى صديقٍ له وقد وعده بعارية كتاب «معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص»[1] وهو قوله:

قـل لـلـعـمـاد أطـال الله مـدَّتَـهُ في رُتْبَةٍ لم تَزَل للمكرمات حِمَى
جُدْ بـالـمعاهد يا مولاي لا بِرَحت كَفَاك تهطل بالغيث الذي انسجما

وله:

لاح لـنـا كـالـبَـدْر فـي حُـلَّـةٍ كَـأنـمـا حـيـكـت مـن الـشَّـمْـس
فـلـو تـراه فـوق كُـرْسِـيِّـه لـقـلـت هـذي آيـة الـكـرسـي

وله:

يـا حُـسْـنَـهـا مـن شـمـوعٍ أنـوارُهـا كـالـنـهـارِ
تـحـكـي نـبـال لُـجَـيْـنٍ نـصـالـهـا مـن نُـضَـارِ

* * *

---

(١) سبق ذكره.

الفقيه سعيد بن صالح السمحي[1]

سَمْح السَّجيَّة، وممن قطع بجواد هِمَّتِهِ ميداناً يعجز عن قطعه الأعوجية[2]، له من أفاوية[3] الأدب بضائع، إذا فضّ عنها جونة[4] قرطاسه فما المسك عندها بِضَائع، مَدَح ذوي الطَّارف والتلادِ، وتنقّل في المَنازِل وجاب البلاد، وكان لطيف الذات والسِّمات، إذا سُئِل عند شمائله عن عليل النسيم قيل مات، وهو في اللغة جوهري عصره وفيروزأباذيّ مدينته ومصره، فأبو العلاء المَعَري بالنسبة إليه عن ملبسها في غاية التعرّي، يُعَدّ عنده مُعرّى، لا يجد له في منازلها مَقَرًا، كنت أعجب فيها من حفظه، ويعجب والدنا من مَتَانَة لَفْظِه، وله خَطٌّ مرَّن أقلامه عليه وراض، فإذا هو أسحر من أهداب العيون الساجية المِراض، وكان له بدار والدنا مَثْوَى، ينزل به فكأنَّما نزل بجَنَّة المأوى، ويمدحه ويحمده، ويهدي له من نظمه ما لو نظره جفن الشقيق لصَحّ أرْمده، وله شعرٌ كثير طيّب، وغيث نظم هامعٍ صيّب، منه ما كتبه إليّ يهنيني بإعْراس، جَرَت بي في ميدان سروره الأفراس:

شهاب العلا هنئت عرساً مباركاً ... تبيت وأنت البدر منه مع الشمس
قِرانــاً أراك الله طــالــع سَــعْــدِهِ ... وغَيَّب فيه عَنكُمُ أنجم النَّحس
علوت على هام النجوم فأعوزَت ... أكفُّ الورى من أن تنالك باللَّمْس
فَعُذْت وقد شمَّرت بالهِمَّة التي ... لها الفضل من نجم الثريًا على كُرْسي
وأعطيت من فصل الخطابة ما بِهِ ... تجاوزت حَدّ الفخر فيه على قُسّ
وفاض به جَدْواك كالبحر مَدُّه ... فأغرقني حتى خَشيتُ على نفسي
ووالدك الغيث الملثّ بمائِه ... سَقَى وله الأفضال بعد الذَّوَى غَرْسي
سأشكر ما أوليتني من صَنَائِع ... وأولاه حتى أستقر على رمسي

---

(١) أديب متمرس له شعر كثير. قال صاحب نسمة السحر: أن شعره قوي المباني يذهب فيه مذهب أبي تمام ويتشبه به. توفي سنة ١١٣٢. انظر ترجمته في نسمة السحر (خ) ونفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١/ ٧٣٧.

(٢) الاعوجيه: من اسماء الخيل والابل.

(٣) الافاوية: التوابل ونوافج المسك واصناف الشي وأنواعه.

(٤) الجونة: سلة صغيرة مغطاة بالأدم تكون عند العطارين.

وشُكْراً لما أعطيت يا خِضْرم الندى　　وَدُم سارحاً في روضة الأمن والأُنْسِ
نُجِلُ معاليك العليَّة أن تُرَى　　وقد وضحت منها المناهج في لَبْسِ

وقال يخاطب مولانا الوالد رضي الله عنه وقد حضر صلاة الجمعة وسمع خطبتي على المنبر الشريف وأنا إذ ذاك حديث السنّ:

مولاي يا قاضي الورى هُنِّيتَهُ　　في المكرمات وفي الفخار سَلِيْلاَ
هذا الشّهاب يضيءُ في أفق العلا　　لما أعاد الطرف عنه كَلِيْلاَ
هُوَذا أقام على فضائل حازها　　يوم العروبة في الجموع دَلِيْلاَ
قد ساق من وعظ المقال مقانِباً　　كَلِمت وساق إلى الملوك رَعِيْلا
ولقد قفاك درايةً وفصاحةً　　وندًى يصوب على الورى تَنْويلا
(أعدى الزّمان سخاوة فَسَخا بِهِ　　ولقد يكون به الزمان بخيلا)
هذا وما اخضرّ النبات بسالفٍ　　منه غَدًا كالمَشْرفي صَقِيلاَ
واسلم ويسلم في العلا ما تابعت　　وُرق الغصون المائسات هَدِيْلا

قوله: أعدى الزمان. البيت، هو مضمّن، وأصله من نظم أبي الطيّب المتنبي[١]، وفيه عند التأمل نقْدٌ انتبه له والدنا القاضي العلامة الأديب المنتقد شهاب الدين أحمد بن ناصر بن محمد بن عبد الحق المخلافي الحَيْمى الآتي ذكره رحمه الله تعالى قال ما لفظه: في هذا البيت دور لأنه حكم بأن الممدوح أعدى سخاؤه الزمان فأثبت وجوده إذ السخاء من صفاته ولا توجد الصفة قبل الموصوف، وإذا كان قد وُجِد فما معنى قوله فسخا به فتأمل، انتهى كلامه رضي الله عنه.

وأنا قد وقفت في «كتاب غيث الأدب الذي انسجم شرح لامية العجم» للفاضل الصفدي رضي الله عنه على مثل هذا الانتقاد في بيت أبي الطيب قال ما لفظه[٢]: قرّر أوّلاً أن سخاؤه أعدى الزّمان فهذا دليل على وجوده، ثم قال فسخا

(١) من قصيدة للمتنبي أولها:
في الخد أن عزم الخليط رحيلا　　مطر تزيد به الخدود نحولا
ديوانه ١٤٥.
(٢) الغيث المسجم ١/ ٢٢٩ ط العلمية.

الزَّمان به أي أوجده، والشيء لا يتقدم على وجود نفسه ولكن هذا النَّوع من المبالغات التي تخرج إلى حدّ الاستحالة فتُفيد المعنى قوَّةً.

ومن نظم صاحب الترجمة رحمه الله تعالى قوله في مدح مولانا الوالد عليه السلام:

وإن شباماً في المدائن مقلةٌ ... وإنسانها قاضي القضاة مُحَمَّدُ
فَتًى يتلقَّى الزائرين بِغُرَّةٍ ... تغور لها شمس النهار وتسْجد

وقوله في خطابه لما وفد إلى منيع جنابه، ودخل داره المنيفة وغرفه العزيزة الشريفة، فسمع الحمائم تَسْجع على شرَّافاتها وتترنم بأشجى تغريد في حافاتها:

دارك يا عزّ الهُدى روضةٌ ... خلفُك فيها زهرات الكِمام
لو لم تكن في حسنها روضَةً ... ما ولعت بالسجع فيها الحمام

وله فيه من المدائح كل نفيس وقوله مضمناً وقد مشى في عباءة بِيْدِي وهي معروفة مشهورة بالثَّقالة ففيه التورية مع التضمين:

ثَقُلت عليّ عبادةُ فكأنَّها ... من نسج داوُدٍ وسرد حديد
وأشد ما يلقى الفتى في دهره ... طول الفِرَاق ومشْيُه في البِيد(ي)

وقوله مُضمّاً لما شقَّ بعض اللصوص جيبه واستلّ منه دراهم معدودة لم تَكُ عليه براجِعَةٍ ولا مردودة:

وأقسِم أن لصًّا شقَّ جيبي ... وسلّ دراهِماً فيه خَبَيْتُ
لألطف من نَسِيم الريح جِزْماً ... فإني ما سمعتُ ولا رأيتُ

ولما علم الشيخ إبراهيم بن أحمد اليافعي رحمه الله تعالى بحصول هذه النكتة كتب إليه من نظمه مُدَاعِباً له قوله:

قل لسعيدٍ كيف أجفانَهُ ... هل رقدت من بعد فقد النقود
ما بعد شقّ الجيب يا سيدي ... إلا بكاً العين ولطم الخدود

***

الفقيه علي بن المهدي بن أبي الرجال(١)

عرفتُه وقد توشّى فيه شيبهُ، وغَسَل من درن الشبيبة جيبُه، لما بقي بكوكبان خزَّاناً، وهو يستمطر من الجهام أمزاناً، فرأيتُه وقد زانه وقارُه، ودارت من مُحاورته عُقارُه، وطالما سألني عن معميَّات وأحاجي، فكشفت له من المشكل الدياجي، وأوضحتُ له ما خفي عن ذهنه، وتَحمَّلت ما أصاب فِكره من كلاله(٢) ووهنه، ثم لقيتُه بروضة حاتم، ونمَّام أدبه لسرّ فضله غير كاتِم، فأملاني له قصائد مَدْح، قدح بها زند مذاكرتي أيّ قَدْح، وله شعرٌ يعرب عن شمائِله، كما أعرب ثمر الروض عن طيب خمائله، نقلت له من خطه قوله في الجناس، ممَّا يتقلَّد بدرره ظبي الكِنَاس.

وأهيف مثل بدر التمّ حسناً ... لقلبي في لهيب النار أصلى
ولولاه لما نحلت ضلوعي ... ولا فاضت دموع العين أصلا

وقوله في مليح اسمه راجح:

يقول الخلّ لي لمَّا رآني ... له في وَجْدِه أبداً مشاجح
أبِن لي اسم من تَهْوى وصِفْ لي ... حَقِيقة ردفه فأجبت راجح

وقوله:

عذولي أفق من سكرة الجهل وارعوي ... فهَيْهَات أن أثني عناني أو ألوي
وسل عن حديثي من فتنت بحسنِه ... فطلعته تحكي ومبسمه يَروي

أقول: هو هنا قد قصد التَّورية في قوله يَروي لأنه يصح أن يكون من الرواية للحديث يرشح لهذا المقصد، قوله: وسل عن حديثي، وقوله: فطلعته تحكي، ويصح أن يكون من رَوِيَ من الماء كرضي وتروَّى وارتوى، يرشح لهذا المقصد ذكر المَبْسم، إلاَّ أن قوله: يروى إن كان من الرِّواية للحديث فهو بفتح الياء وإن كان من الإرتواء فهو بضمها، ففي التَّورية اختلال ما، وقوله في الجناس:

---

(١) لم أجد ترجمته في غير هذا الكتاب.
(٢) ش «كلامه».

يا عماد الهُدَى لقد شاع أمري بين قومي من حاشدٍ وبَكيلِ
وصديقي من الأنام رثى لي عندما رق حاسدي وبكى لي

ومثله قول الآخر من أهل العصر؛ لمّا تألّف إمام زماننا قبائل حاشد وبكيل، وحاول إرضاءهم بالمال وإرضاؤهم الدّاء العُضَال، وكادت خزائنُه أن تنفد في إعطائهم، وفيه التورية والإكتفاء:

لمَّا رأينا إمام العصر مُشْتَمِلا بالحزن من بعد طول البشر والضحكِ
قلنا له هل لهذا الحزن من سَبَبٍ فقال قد سلبتني حاشدٌ وبَكِي

الفقيه أحمد بن الحسين الحجي المصري الصنعاني[1]

روض افترت كمائمه، وأعربت باللحن حمائمه، وعبَّرت عن لسان نمّامه نسائمه، ارتضع من الأدب لبانَه، وغنَّى له الوجود كما غنَّى الطير لِبَانَه، فنفثاته أرق من عتب صبٍّ لم يُقْضَ له من وَصْل لُبْنَى لُبان، محاضرته أشهى من مغازلة الغزال، فلو جالسه النّسيم لزال ما بها من السقم والعزاله[2]، كان يُحكم الخياطة، ويحوط بها خصاله الكاملة أتم الحياطة، ويقُصّ من الجوخ غرائب، ويصطنع من نفائس القماش عجائب، يُنوع بالجلم[3] والإبرة، ما يعجز عنه ذوو الخبرة، فلا يُدركه الرّبيع بَتْنويع أزهاره، وتَنْميق حلَّة حديقته المسجّفة بأنهارِه، وكان بدارِنا مُقيماً، لأن الليالي عن إنتاج مثله لم تزل عقيماً، فحفّ على والدي خفّة الصَّبا في الصباح، ولطف لديه لطف الرَّشْح في الوجوه الصِّبَاح، وما برح متفيئاً لدوحه، متنعماً بكل مشتَهَى في سوحِه، نائلاً من الأماني مقصدًا، ناقعاً من كبده الحرّي متوقّد الصَّدى، جالياً عن سيف ذهنه كمه الصَّدى، ظافراً بما يقتضيه الكرم، غير خائف من حوادث الدّهر فهو (أأمن من الظباء في الحرم)[4] قد ارتضع من

(١) ترجمته في كتابنا هذا ولم أجدها في غيره.
(٢) العزالة: الضعف.
(٣) الجلم: المقص.
(٤) المثل في المستقصى ١/ ٩.

المطالب أَخْلاَفَها[1] وأنجز له الزمان عِداته فلا يَرَى إخلافَهَا، وله فيه منظومات، حيًّا بها ذكره بعد أن مات.

ومن شعره الذي وُزِن، وضُنّ بنفيسه فخُزِن، وتسلّى به الأديب بعدما حَزِن، قوله في مدح رجل أعجمي إسمه طلحة، أحسن إليه وقد وفد إلى صنعاء فما غفل عن مدحه طرفة ولمحة:

يا طلحة الجود لقد جُدْتَ لي ... بما به قد غني البائِسُ

شكراً لما أوليت من نائلٍ ... فأنت عندي طلحةُ السادسُ

يعني أنه طلحة السادس للخمسة المشهورين بالجود كل منهم يُسمَّى طلحة، قال الأصمعي[2] رحمه الله تعالى: الطلحات المعروفون بالجود خمسة كل منهم اسمه طلحة، فالأول طلحة بن عبيد الله بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب القُرَشي التيمي أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وهو ابن عم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو الملقب بالفيَّاض، والثاني طلحة بن عبيد الله بن معمّر التيمي أيضاً، ويلقّب طلحة الجود، ولذا قال صاحب الترجمة في نظمه يا طلحة الجود، والثالث طلحة بن عبيد الله بن عوف الزهري أحد العشرة رضي الله عنهم، ويلقب طلحة الندى، والرابع طلحة بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وهو الملقّب طلحة الخير، والخامس طلحة بن عبد الله بن خلف الخُزَاعي، ويلقب طلحة الطلحات فإنه كان أجودهم وفيه قيل[3]:

رحم الله أعظماً دفنوهَا ... بسجستان طلحة الطلحاتِ

انتهى كلام الأصمعي رضي الله عنه.

قال العَلاَّمة الأديب القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجي رحمه الله

---

(١) جمع خِلف: الحلمة وضرع الناقة أو طرفه أو المؤخر.

(٢) النص في الشعور بالعور للصفدي: ١٥٧ ط الأردن.

(٣) البيت لعبد الله بن قيس الرقيات. انظر الشعور بالعور: ١٥٨.

تعالى في كتاب «طراز المجالس» ما لفظه أقول: معنى طلحة الطلحات ليس أنه واحد من هؤلاء المسمّين بهذا الإسم كما يتبادر منه، وإنما المراد أنه أجود الأجواد، لأن طلحة لشهرة مسماة بالجود كحاتم، فيذكر ويراد به الجواد فالطَّلحات بمعنى الأجواد انتهَى كلامه رحمه الله تعالى.

قلتُ: والذي يفهم من كلام العَلاَّمة أبي بكر الطرطوشي[(١)] رضي الله عنه في كتاب «سراج الملوك» خلاف هذا فإنه قال في كتابه المذكور في الباب الثلاثين منه وهو باب الجود والسخا ما لفظه[(٢)]: وأما طلحة بن عبيد الله بن خلف الخزاعي المعروف بطلحة الطلحات فإنما سمي بهذا الإسم لأنه كان عظيم النَّيْل واسع البذل في كل وجه، وكان يبتاع الرقاب ويعتقها وكل معتَق يولد له ولد ذكرٌ سماه طلحة فبلغ عددهم ألف رجل كلٌ يسمى طلحة فسمِّي طلحة الطلحات، وُلي سُجستان، وفيه يقول الشاعر: رحم الله أعظماً، البيت، إلى آخره.

وقال في القاموس[(٣)]: وابن عبيد الله بن خلف طلحة الطلحات لأن أمه صفيَّة بنت الحارث بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد مناف انتهى.

وقال بعضهم: سمّي طلحة الطَّلحات لأنه كان أجود الطَّلحات في زمانه وهم معروفون، وقيل لأنه جمع بين رجال ونساء بالتزويج كلهم يسمى طلحة.

الأديب حيدر بن محمد آغا الرومي الصنعاني[(٤)]

من ذراري الأتراك، الناصبين لاصطياد الأرواح حبائل الأشراك، تركَ لهم ترائك، قد مُهِّدت لهم فوق النجوم أرائك، من بني الأصفر، الذين عجاج خيولهم مسكٌ أذفر، أسودٌ لها ظهور الجياد غاب، وبدور لا تغيب إذا قيل بدر

---

(١) هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد الطرطوشي الفهري من أهل الأندلس عالم جليل له مؤلفات كثيرة. توفي سنة ٥٢٠ (وفيات الأعيان ١/ ٤٧٩ الأعلام ٧/ ١٣٣).

(٢) سراج الملوك للطرطوشى ١ : ٣٦٦ (ط) الدار المصرية اللبنانية.

(٣) القاموس ١ : ٢٣٦.

(٤) أديب مشهور ذكره في نفحة الريحانة ٣/ ٥٤٤.

السما غاب، وهذا الأديب، قد أخصب به من الأدب الجديب، وُلد بصنعاء فلا يعرف الروم، وتهذَّب طَبْعه بمخالطة من بها من القروم، فإذا هو في صحف الوجود آية، وإذا هو في الكمال غاية ما وراءها غاية، وله في الفراسة وركوب الخيل، ما حَسُن به رداء أدبه فإذا هو له ذيل، ذهبت له أيامٌ بذهبان[1]، فكم اعتنق برياضِه من غصن بان، فهو مجالٌ لخيل صبوتِه، ومهبط لما ناله من لذيذ حبوتِه[2]، في رياضٍ صقلت قلبه من الهم، وقد بدت له غُرَرٌ من زنبقها تحت طرر النبات المدهَّم، لمَّا أمال عطفه المُطْرِبَان الطَّير والوتر، وسباه الذَّابلان النَّرجس والطَّرف الذي فَتَر، كم سامر الأقمار في بروجها، وسابقَ الغِزلان في مروجها، يتناول نجوم الأعنابِ من غرْسها، ويُيقظ العناقيد النائمة بالقطف على أخضر فرشها، يلتقط حبَّات الذهب منها كما يروم، وهي في راحات الزّمرد الأخضر من أوراق الكروم، وقد فكَّها الطّل بلؤلؤه في الصباح، وتمنّت أن تخلع طوقها ويكون لها طوقا ذات الجناح، كان إذا لمع برق الخريف، اهتزّ عطفه إلى روض ذهبان الوريف، وقد رقمت ابر الحيا وشَي الرّبى، وفتقت أزرار الورد نسيم الصَّبا، وهدّ الرعد يصعقه للكون ركنا، والسّحاب المتراكمة المظلمة الجون الدَّكنا:

تَسُلُّ البروق بأرجائها ... كما سلَّت الزّنج أسيافها

فكم مرَّت له فيه من أيام حلت، وزهت بها مرابعه الذي خلت، انقضت كأنها حلمٌ في غمض، وذهبت كأنها بَرْقٌ خُلّبٌ يغر بالومض، بعد أن داوى علَّة همومه إذ جسّ عروق الأوتار فاحكم النّبض، فطالما قالت له المسرة جسّ وترك، ولا تبال من اللّوام بمن فعل وترك، وقد طفا لؤلؤ الحبَب، وانتظم على ياقوت الراح كما انتظم على محمر الشفات الشنب، وروضات الشباب تُسْقَى من ماء الأريحية صوب الرَّبَاب، فتميل بها الغصون ميلان القدود عند صوت الرَّباب،

---

(١) ذَهْبان: قرية شمالي صنعاء فيما بين ثقبان والجراف وقد اتصل عمرانها بمدينة صنعاء.
(٢) الحبوة: العطية.

فلغنائه يميل عطف ابن بانة[1]، ومن درّ أدبه يرتضع ابنُ البانة[2]، وما زال يلهيه النّسيم بعرفِه، ويسبيه الأغن بطرفه، مليح مدّ من شعره شراك، به أيُّها القن عند الاسترقاق شراك، في مجالسِ انتشر بها ضباب الندّ ودام، ولمع من خلال سحائبه المنتشرة بَرْق المُدام.

وله في الشعر الموشح الحمينى أيّ منهج، أنضر من حدائق الربيع الأنضر وأبهج، مما اشتهر وطار، ونطق به عود وطار، تتغنَّى به الغادات في القصور، وتنادي الرياض بألسنة نهورها معلنة بأنها عنه في غاية القصور، فما مجلس اجتماع، إلاّ وشعره فيه يملأ على السماع، وكان إذا نظم المطوّلات في الحكمي قصَّر، وإذا نظم المقطعات زهى قلمه وقد صرّ، كقوله:

وشادنٌ قد غار ظبي النّقا ... من جيده السَّامي ومن لفتَتِه
رأيتُه كالبدر لمَّا بدا ... وطرفه كالسّيف في سلَّتِه

وفي هذا النَّظم التورية لأن سلّة السيف من الغمد معروفة، والسَّلة أيضاً ببلاد اليمن الأسفل شيءٌ يصطنع في البيوت من عود في صفة الشباك يشرف منه الإنسان، وبذلك عرفت التورية، وكان اللائق به عندي لو أنه رشح للتورية بما يوضحها فإنها لا تفهم إلاّ بالتَّنبيه عليها، فلو أنه قال في البيت الأول مع لزوم ما لا يلزم:

وشادنٌ أشرف من سلةٍ ... في قصره السَّامي وفي قلَّتِه

وقوله:

---

(١) هو عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد مولى ثقيف وبانه أمه نسب إليها. نديم من الشعراء العلماء بالغناء كان خصيصاً بالمتوكل العباسي. توفي سنة ٢٧٨ وفيات الأعيان ١/ ٣٩١ والأغاني ١٤/ ٥٠.

(٢) كذا في الأصل مع تشديد اللام والباء ولعله يعني ابن اللبانة فسهى عنه الناسخ وابن اللبانة هو محمد بن عيسى عرف بابن اللبانة، أديب أندلسي شاعر من أهل دانية. توفي بميورقه سنة ٥٠٧ فوات الوفيات ٢/ ٢٦٠.

لا تحسب الشمس في ذا اليوم طالعةً ولا تسل أين وارت وجهها الحسنَا
بالأمس قد غربت صفرا وأحسبها ماتت وهذي السما تبكي لها حزناً

وقوله في اختصار بيتي إبراهيم الغزى[1] المشهورين رحمه الله تعالى:

في المدح شعرك لا تضعه (م) ولا تُرى متغزّلا
أتقول قافيةً وقد خلت الديارُ فَلاَ وَلاَ

وقوله في مليح طبّال:

وشادن يكفل طبلاً له ويلوي السّير على عاتِقِه
يشُن غارات الهوى مسرعاً ويضرب الطبل على عاشقه

وقوله وقد عدم القات:

من عدم قاتٍ كان يأتي (م) بالسّرور إليَّ بغتَه
قد مَسَّني داء الجُنُون (م) فسكّنوا ما بي بكفته

وفي هذا أيضاً تورية، وذلك لأن كفتة المجنون عبارة عن ربط يديه إلى القفا بحبل ونحوه لئلاً يرمى غيره بالحجارة أو غيرها، ولذا قال قد مسّني داء الجنون، وهو من قولهم: كَفَته يكفته إذا صرفه عن وجهه فانكفت، ومن كفت الشيء إذا ضمّه إليه وقبضه ككفّته بتشديد الفاء، **والكفتة** من شجرة القات هي في العرف الورق الكبار يكون في أسفل الغضن، فمتى كثر وجود القات أكل الآكل الورق الصغار منه في أعلا الغصن يقال لها **المقلة** وترك الورق الكبار حتى تجف، ثم يدّخرها لأيام عدم القات، فيتناول منها، ولذا قال من عدم قاتٍ، وبذلك عرفت

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى الغزي شاعر مجيد دخل دمشق ورحل إلى خراسان ووفاته سنة ٥٢٤ (وفيات الأعيان ١/ ٥٧ وبيتا الغزى أوردهما ابن خلكان وهما ثلاثة في الأصل هي قوله:

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة باب الدواعي والبواعث مغلق
خلت الديار فلا كريم يرتجى منه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجائب أنه لا يشترى ويخان فيه مع الكساد ويسرق

التورية وقوله في الاقتباس:

لقيتُ في المتوضَّى ربما به القلب لاذا
أتى الرقيب فنادى أركض برجلك هذا

وقوله في مليح يلقب مطراً:

يا من فراقهم عن ناظريَّ نفى يومي وأثبت في أجفاني السهرا
قلوبنا أجبت من بعد بعدكم وكيف يخضرُ قلب يشتهي مطرا

قلت: لو قال نفوسنا أجدبت، وقال في المصراع الثاني وكيف تخضر نفسٌ تشتهي مطراً فإن ذكر النفس أليق من ذكر القلب مع قوله تخضر لأنه يقال في المثل المضروب المشهور النفس خضراء معناه أنها تشتهي كل شيء كما نصَّ عليه الشِّهاب الخفاجي في ريحانته(١).

وقوله في مليح يسمَّى نعمت الله مضمناً ومكتفياً:

ومليح بنعمة الله يدعى أهيف القدّ فاتر اللحظ فاتن
قل لمن عابه بنقص جمالٍ نعمة الله لا تعاب ولكن

قلت: هذا التَّضمين عندي غير حسن إذ تمام البيت لا يناسبه وهو مقصود ومراد في التَّضمين مع قوله ولكن، فليته قال في البيت الأول: وافر الرّدف فاتر اللحظ فاتن وقال في البيت الثاني هكذا:

قل لمن عابه بردفٍ ثقيل نعمة الله لا تُعاب ولكن

لأن ذكر الردف وثقله في قول بردفٍ ثقيلٍ يناسب في البيت المضمّن قوله ربما استثقلت، وإنما قال إن هذا التَّضمين غير حسن إذ تمامه لا يناسبه لأن البيت أصله قول الأول في هجو أبي يعلى نعمة الله الكاتب القرشي وهو:

نعمة الله لا تعاب ولكن ربما استثقلت على الأقوام

---

(١) ريحانة الألباء ١/ ٢٧٣.

وسخ الثوب والعمامة والبر ذون والوجه والقفا والغلام

وقد ضمنت أنا المصراع الآخر من البيت الأول تَضميناً بما خَفّ على الظرفاء:

إرتدافي الأرداف عندي خيرٌ من خصور قد أُنحلت بالسقام
هي وَجْداً خفّت عليّ ولكن ربما استثقلت على الأقوامِ

وقوله فيه أيضاً مضمناً ومختصراً للمصراع المضمَّن:

سار الخليط جميعاً يوماً فقلت لخلّي
وقد نوى بارتحالٍ يا نعمة الله حُلّي

أصله قول بعض الشعراء:

يا نعمة الله حُلّي في منازلنا وجاورينا رعاك الله من جارِ

وقد ضمنت أنا هذا المصراع الآخر فيما قصدت به التَّورية فقلت:

يا أدمعي لا تزالي فوق سالفتي لحُبِّ ريمٍ بعيدٍ نازح الدارِ
وما زجينا بجريٍ في الخدود هوًى وجاورينا رعاك الله من جار

وقوله نظمه بمحروس غراس[1] ذي مَرْمَرْ لما بقي فيه وكان به إذ ذاك مقهوي يسمَّى القحم وخبّاز يسمّى النمر:

كيف أبقى بسوقكم كيف أسلو واستقر
ومن القحم قهوتي وطعامي من النمر

وقوله في مليح يسمّى حُسيناً:

حنيني وافرٌ والشوق عندي طويل والجوى عندي مديدُ
واعجب أنني أهوى حسيناً ووجدي في مَحَبَّته يزيدُ

---

(١) الغراس: مدينة أثرية في بني الحارث على سفح جبل ذي مرمر الحصن التاريخي الشهير وهي مساكن الحميريين قديماً وبها مناجم القص.

وقوله لما رأى بعض العلماء يقري في كتاب «الأزهار» جماعة من الطلبة حسان الوجوه وقد فرَّغ لهم منزلة من منازل الجامع المقدس بمحروس مدينة صنعاء اليمن:

أمعلّم «الأزهار» إن خدود مَن أقرأتهم تغنى عن الأزهار
لا تتخذ ما عشت مَنْزلةً لهم فالقلب خير منازل الأقمارِ

وقوله لما حصل بَرَدٌ بجهات صنعاء أيام الخريف:

بَرَدٌ أذهب الخريف (م) على الناس أم رَدَا
ترك الرَّوض أجلحاً منه والغصن أمردا

وقوله في مليح يلقَّب بسبوله:

ومليح إلى سبولة يعزى قلت والسّود بِيْضها مسلوله
زُرع الحسن في رياض خدودٍ لمليحٍ فكيف لي بِسَبُوله

والسبولة بفتح السين المهملة المشددة مع ضم الباء الموحدة وبضمّهما معاً أيضاً، والسُّنبلة هي في اللغة الزرعة المائلة فهي لغة صحيحة عربية، وأحسن منه قول خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى في سبولة المذكور:

إن يقولوا غزلان صنعاء كزرع قد سَقَاهم صوب الجمال شَمُوله
فاحصدوهم بمنجل البعد عني واتركوا لي من الجميع سبُوله

وقوله أعني صاحب الترجمة لما وصل إلى بلاد خدير[1] بالخاء المعجمة المفتوحة والدَّال المهملة المكسورة وهو محل باليمن الأسفل معروف وتحته محلّ أيضاً يسمَّى الرَّكب، وهو أيضاً معروف وفي النظم الاقتباس:

لـمَ لا أهَيْل خديرِ أشُد رحلي عنكم
وأنتم فيه سفل (والرَّكب أسفل منكم)

---

(١) خدير: بفتح الخاء المعجمة: ناحية تابعة لقضاء ماوية بالشرق الجنوبي من تعز بمسافة ٤٢ ك.م وهي أرض سهلية غنية بالزراعة «المقحفى: ٢١٢».

وقوله رباعية:

انظر مسودّ طرف خلي الأخضر كالأزرق من فوق رديني اسمر
والشهب لقد أجرى دمي أبيضُه أحمر قاني من فوق خدٌ أصفر

وقوله رباعية أيضاً في مليح يلقَّب بالسّخي:

لك قدُّ مهفهف ولك عنق طويل لك خدّ مورد ولك طرف كحيل
قد هام بك الأنام لكنهم سموك سخي وأنت بالوصل بخيل

وقوله في مليح من البانيان[1] يُسَمّى رامه قد توشح ببريم من الفضّة:

بليتُ ببانيانٍ راق حُسْناً تظل الشمس عاكفة أمامَه
كأنّ بريمه لمَّا تَبَدى بريق الغور في أكناف رَامه

وكتب إليه خليلنا الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى لما رآه قاعداً بحانوت عطّار مليح قوله:

يا أبا أحمدٍ لقد جُزتَ حتّى صار قلب الخليل منك كليماً
وبلغتم إلى مناءٍ ولكن لم تجوزوا مقام إبراهيمَا

فأجابه في الحال بقوله:

أنا في كعبة المحاسن باقٍ في نعيمٍ وحقَّ لي أن أقيما
يوسفي الجمال من نار خديه (م) رأينا احتراق إبراهيما

أخبرني مولاي الوالد، لا زال ذكره على صفحات الدّهر أي خالد: أنه لما كان بمحروس ضَوران الدامغ المنيف، أقبل إليه صاحب الترجمة زائراً لمقامه الشريف، فجاراه في ميدان المذاكرة بما جارى حتى انتهى الحديث إلى حكاية المغفلين من معلّمي الكِتّاب الحكيم، فحكى لي أنه وقف من تحف الحكايات في كتاب «المستطرف» على تغفيل جرى من بعض المعلمين: وهو أنه شكا إليه أحد الصِّبيان الذين يتعلمون عنده من صَبيٍّ آخر بأنه عضّ أذنه بأسنانه، فقال المعلم

(١) البانيان: للجمع والأفراد وقد ينسب فيقال بانياني. وبانيان هم التجار القادمون من الهند من غير المسلمين.

للصبي العاضّ: ما تقول، فقال: إنما هو الذي عضّ أذنه نفسه، فقال المعلم لو أنه جمل لصدقناك[1]، قال حيدر رحمه الله تعالى: فأتحفني هذا التُغفيل من المعلم وظنّه بأن الجمل مع طول عنقه يمكن منه أن يعضّ أذن نفسه، قال: فخرجت من داري إلى دكّان بعض الأصحاب الخيّاطين بمحروس مدينة صنعاء اليمن المحميّة فذكرت له هذه التحفة، فلم يعجب لها ولم تظهر عليه تخطئة المعلّم، قال حيدر: فقلت له: لِمَ لا تعجب من هذه الحكاية؟ فقال: وأي عجب فيها وقد صدق لأن عنق الجمل طويل، قال: فضحكت حتى استَلْقيت من هذا المغفَّل الثاني بانضمام جهله إلى جهل المعلم. قال لمولانا الوالد رضي الله عنه ووددت أن نسخة المستطرف لي حتى ألحق بهامشها هذه التحفة لكنها كانت عندي عارية لبعض الأصدقاء فلم أستحسن الكتابة فيها والله أعلم.

الفقيه عبد الله بن عبد الرحمن الخولاني

شاعرٌ له شعور، وأديب جاب السهول والوعور، كم أحسن لَدَيَّ محاضرته، وكرر عليّ محاورته، سريع الانحراف، ومن منهل السَّوداء كثر الاغتراف، بالوَسْوَاس مشغول، متلوّن أخلاق كالحرباء والغول، وله في والدنا مدائح جَمّة، وكلمات لم يَنَل منها ذو هِمَّة إلا هَمَّه، فكم لاذ مستجيراً من دهره بجنابِه، وأغرق فقره في خليج عُبَابِه، واستعاذ من عَيْشِ الضَّيِّق بجوده، وتهدّد عدوّ الزمان بوجوده، ما ترنّم بمديحه شاديه، إلاّ طوَّقه بما تصنعه أياديه، بعد أن أخصب سفحه وامرع وادي فارتقى كلكلا، وأصاب قرن الكلا، فكنت أنادمه من مقام والدي في روض، ويقول بلسان حاله لا نتفرق عَوْض[2] أنشدني من شعره قوله في مدح كريم:

مــــولاي قــــد جــــادلَـــنَـــا فــــالــــجــــود مــــنــــه قــــد عُــــلِــــم

---

(١) انظر المستطرف ٢/ ٢٤٢.

(٢) عَوْضُ وعوضِ وعوْضَ مبنية ظرف لاستغراق المستقبل فقط تقول لا أفارقك عوض أي أبداً. وعوض معناه أبداً أو الدهر سمي به لأنه كلما مضى جزء عوضه جزء أو لأن الدهر في زعمهم يسلب ويعوض وإنما بني لتضمنه الألف واللام قال الشاعر:

رضـيـعـي لـبـان ثـدي أمٌ تـقـاسـمـا بـأسـحـم داج عـوض لا تـتـفـرق

جـــاوز حـــدّ الـــكـــرمَـــا   فـــقـــلـــت هـــل هـــذا هَـــرِم

المراد بهرم هنا هو هَرِم بن سنان الجواد المشهور.

ولما أنشدني هذا النظم قلت له: لو تأتّى لك أن تذكر في النظم الشابّ لتتم لك اللطيفة الأدبية بذكر الشاب والهَرِم، ثم أنشدته قولي:

لله مَـن صـنـع الـمـعـروف مـا أحـدٌ   في النّاس قط لجودٍ منه قد حُرِما
قـد بَـخَـل الـكـرمـا لـمّـا أقـيـس بـهـم   فـعـنـد هـذا الـفَـتَـى لا تـذكـروا هَـرِمَـا

وقولي:

حـبَّـذا هـذا الـفـتـى مِـن مُـفْـضِـلٍ   دافـق الـجـدوَى حـكـى سـيـل الـعَـرِم
طـمـس الـذِّكـرى لأربـاب الـنـدى   ذو شـبـابٍ جـوده أفـنـى هَـرِم

وقولي:

أقـول لـمـا جـاد فـيـنـا بـمَـا   أغـرق فـي لُـجُـيْـه مـنْـيَـتَـا
يـا جـمـلـة الـنـاس قـفـوا واسـمـعـوا   مـا هَـرِمٌ قـد قـاس هـذا الـفَـتَـى

وقولي في القول بالموجب:

عـابـوه وهـو جـوادٌ لا يُـعَـاب وقـد   مـضـت شـهـور لـه فـيـنـا وأعـوامُ
قـالـوا ولـيـس بـعـيـبٍ قـد غَـدا هَـرِمـاً   فـقـلـت فـي الـجـود طـالـت مـنـه أيـام

ثم أني قلتُ له: نظمتُ هذا النَّظم جميعه قبل أن أقف على قول الشيخ جمال الدين ابن نباتة في مدح ابن أيوب رحمهما الله تعالى(١):

لا تـقـيـسـوا ابـن سـنـانٍ فـي الـنَّـدى   بـابـن أيـوب قـيـاسـاً مـنـخـرم
فَـرَق مـا بـيـنـهـمـا مُـتَّـضـحٌ   أيـن مـن جـود فـتًـى جـود هَـرِم

وقوله أيضاً في قصيدة له(٢):

---

(١) ديوانه: ٤٧٥ وفيه الصدر الأول «في كل يوم ينادي جود راحته».

(٢) ديوانه: ٤٣٩ من قصيدة أولها:

بـكـيـت لـيـلاً بـوجـدي وهـي تـبـتـسـم   حـتـى تـقـايـس مـنـثـور ومـنـتـظـم

فـي كـل يـومٍ يـنـادي مـن مـكـارِمِـه هــذا فَـتِـيُّ الـنَّـدى لا مـا ادّعـى هَـرِمُ

ومما يليق إيراده هنا ما نظمه الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله تعالَى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة عند زيادة النِّيْل بمحروس مصر المحمية حتّى وصل إلى الأهرام المشهورة وهو قوله[1]:

قـالـوا عـلا نِـيْـل مـصْـرٍ فـي زيـادَتِـهِ حتى لقد بلغ الأهرام حين طَمَا

فـقـلـت هـذا عـجـيـبٌ فـي بـلادكـم إن ابـن سـتّـة عَـشْـرٍ يَـبْـلُـغ الـهَـرَمـا

وما أحلى قول الجمال ابن نباتة رحمه الله تعالى مع التورية في قوله وصبا[2]:

واندب على الـهَـرَم الغربي لي عُـمُـراً فَـحَـبَّـذا هَـرَمٌ فـارقـتـه وَصِـبَـا

وأصل هذا قول القاضي محي الدِّين عبد الله بن عبد الظاهر رحمه الله تعالى في رباعية له وهي[3]:

لله لـيـالٍ أقـبـلـت بـالـنـعـم فـي ظـلّ بـنـاءِ شـاهـقٍ كـالـعَـلَـمِ

بـالـجـيـزة والـنِّـيـل بـدا أولـه فـي مـقـتـبـل الـشـبـاب عـنـد الـهَـرَمِ

وأنشدني صاحب الترجمة له قوله في مليحٍ أعرج:

عـابـوه لـمـا مشـى في الـغيـد عن عرج فـقـلـت يـا قـومـنـا مـا شَـأنَـه عَـرَجُ

فـإنـمـا هـو غـصـنٌ مـال مـائـلُـه ومـا عـلى الغـصـن في مـيـلٍ بـه حَـرَجُ

وقال ابن سكرة الهاشمي فيه:

قـالـوا بُـلِـيـت بـأعـرج فـأجـبـتـهـم الـعَـيْـب يـحـدث في غـصـون الـبـانِ

إنـي أحـبّ حـديـثـه وأريـده لـلـنـوم لا لـلـجـري في الـمـيـدان

---

(١) البيتان في الغيث المسجم ١/٧٦.

(٢) ديوانه ٣٩: من قصيدة أولها:

أذكى سنا البرق في أحشائه لهبا وجاذبته يد الأشواق فانجذبا

(٣) البيتان في فوات الوفيات ٢/١٩١.

وهو في معنى البيت الثاني من قول ابن دَانيال فيه أيضاً:

يا لايمي في أعْرَجِ حلو المراشف والمَذَاق
ظبي أمنت نفاره وهويته لا للسباق
أو ما رأيت الغصن أحسن (م) ما يكون بفرد ساق

وينخرط في هذا السّلك ما قيل: من أنها عرضت على المأمون العباسي جارية بارعة في الكمال فائقة في الجمال غير أنها كانت تعرج برجلها، فقال لمولاها: خذ بيدها وارجع فلولا عَرجٌ بها لاشتريناها، فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين في وقت حاجتك لا يكون ما تراه، فأعجبه حسن بديهتها وسرعة جوابها وأمر بشرائها فاشتريت انتهى.

وقلت أنا في مليحِ أعرج وهو معنى لم أسبق إليه وكذا إلى المعاني الآتية من بعد فيه:

وأعرج يسبي بحسنٍ له ما فيه طعن قط للعائب
كأنه غصنٌ وريح الصَّبا تميله عَنّا إلى جانِبِ

وقلت فيه أيضاً:

قد فضلوك على الأغصان إذ لعبت بها النَّسيم بلا لوم ولا حرجِ
وقد وُصفت بإكمال المحاسن إذ ذُكِرت ثَمّ على ما فيك من عَرَجِ

وقلتُ:

وأعْرجٌ مال ميلاً ولم يكن عن تَزَوُّد
غصنٌ تَأوّدَ تِيهاً فزاد ذاك التأوُّد

وقلت:

نظنُّوه أعرج كلا فقد تنزه في الحسن عن عائب
ولكنه خاف من نيلتي حذاراً فمال إلى جانِبِ

وقلتُ:

أفديه في مشيته أعرجاً ... يميل منه في تثنّيه قَد
ينقص فينا حسنُه إن مشى ... ويكمل الحسن إذا ما قَعَد

وقلت في أعرج كريم أصلٍ مورياً:

وأعرجٌ من خيار قوم ... يهوي إلى الأرض حين يدرج
لكنه إذ علا مقاماً ... يصعد فوق السما ويعرج

وقلت أيضاً في أديبٍ أعرج:

وأعرجٌ ذو أدبٍ ... يفوح لي بالأرَجِ
يعرف عند سَيْره ... وسِفْرِه بالعَرَج

وفي هذا النَّظم مع لزم ما لا يلزم التَّورية لأن العرج ما نحن في سياق ذكره وهو معروف، والعرجي بزيادة يا النسبة هو عبد الله بن عمو ابن عثمان بن عفّان العرجي الشَّاعر المشهور نسبة إلى منزل بطريق مكة المشرفة يسمى العرج.

وقلت أيضاً في كريم أعرج:

عابوا كريماً إذ غدا أعرجاً ... له أيادٍ بالنَّدى سائلة
قلت نعم قد قصُرت رجْلُه ... مشياً ولكن يده طائلة

وفي اليد التوريّة لأنه يصح أن يكون المراد بها الجارحة المعروفة يرشح لهذا المقصد ذكر الرِّجْل، ويصح أن يكون المراد بها النّعمة والفضل يرشح لهذا المقصد ذكر الأيادي التي هي جمع اليد، وهي النعمة والفضل وبهذا التَّحقيق تظهر التورية وهي ظاهرة لذي الفطانة.

عبد القادر بن محمد الخيَّاط

متكلمٌ فصَّل حلل المعاني، وقطع بمقراط فضله ألسنة الشَّواني، وأديب خاط مروط المقال، ففتقت حلَلَها المُوَشيَّة لديه من الخفر ذات الحجال، وشاعراً ولج مُباريه في سم الخياط، ولبس من منسوج البلاغة أبهى الرياط[1]، وأوقع من رام

---

(١) الرياط: جمع ريطة وهي الملائة إذا كانت قطعة واحده ونسجا واحداً.

سباقه من الشعراء فيه هياط ومياط، ولطيف إذا رتق بإبرة قَلَمِه من الأراق الشَّف، كف حسوده عن تلفيق أعذاره وما بعد الرّتق إلاّ الكَفّ، إلا أنه لا يحسن نظم مطولات القصائد، وأما إذا نظم المقطّعات فما هي لسوانح القلوب إلاّ من أعظم المصائد، على أنه لم يدر ما عِلْم الخليل، ولم يهتد من العربيَّة إلى سبيل، وإنما هو في الشعر نابغة، ولا شك أن هذا عليه من نعم الله السابغة، فمن حُلَلِه المطرزة بالذهب، وقمصان أدبه التي يسترد عندها الرّبيع من الحدائق ما وهب، فدع عنك حلل الرياض المسجفة، ولا تذكر عندها أردية الرياض المَفْوفة، وقد لُفّت على معاطف الأشجار، وزُرّت بأزرار الورود والأنوار، قوله في غلامٍ اسمه يوم النور، اجتمع به في ليلةٍ قُرِنَت بالأفراح والسرور:

قـد سـمـرنـا مـع الأحـبَّـة حَـتَّـى ... مَـزّق الـصـبـح حُـلَّـة الـدَّيـجـورِ
لـيـلـة قـد أتـت بـكـل عـجـيـبٍ ... وأرتـنـا فـي الـلـيـل يـوم الـنّـورِ

قلت: قوله مَزّق الصبح حُلّة الديجور، دُرّة استخرجت من بحر العروض المسجور، واستعارة لطيفة تَخلِب الفؤاد، ويُنير بصُبْحها المذكور ليل المداد، وهي نفثة من الخياط بما عنده من تمزيق الحُلَل، وكلمةٌ يصدُقُ بها ما يُقَال في المَثَل، «كُلُّ إنَاءٍ ينضح بما فيه»، فإنها أعربت عمّا عند هذا الخياط نفثه فيه.

وله وقد رحل عنه غلام يلقب بالطلّ ووفد عليه غلام يُلَقّب بالغيثي:

يــا أيــهــا الإخــوان لا تــيــأســوا ... مِــن رحــمــةٍ تــأتــي عــلــى ريــثِ
إن فـات عـنـا الـطَـلّ فـي وَقْـتِـه ... فــربّــنــا قــد جــاد بــالــغَـيْـثِ

وله في عالم جليل جميل، يفيد جملة من التلامذة حوله، وفيهم رجل يعرف بالجلال:

وبـديـع حُـسْـنٍ ذي جـمـال عـالـمٍ ... يُـقْـرِي فَـيُـرشـد طـالـبـاً بِـمَـقَـالِـه
فَـذَهـلـتُ مـمـا قـد روى مِـن عـلـمـه ... وذهـبـت بـيـن جَـمَـالِـه وجَـلاَلِـهِ

وأنشدني له بعض أهل العصر في مليحٍ أتحفه بتفاحة كان قد عضَّها فأثر ثغرة فيها قوله:

قد عضّ محبوبي تُفَّاحَةً صفراء فاحت من شَذَا عِطْرِهِ
لَمَّا رآها وهي تِبْرِيَّةٌ رصَّعها بالدُّرِّ من ثَغْرِهِ

وله في مليح يحمل لواء:

ومعشوق بيمناه لِوَاءٌ على قَدٍّ يفوق على الرديني
فؤادي واللوا خفقا عليه فما أحلاه بين الخافقين

وأحسن منه قول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذَّهبي رحمه الله تعالى:

وأحوى فاتر الأجفان ألمَى رشيق قَدُّه رَخْصُ البَنَانِ
تملك قرطه والقلب مِنّي فصَار له بذاك الخافِقَان

وقول ابن سناء الملك رحمه الله تعالى[1]:

أما والله لولا خوف سُخْطِك لهان عليّ ما ألْقَى برهْطِك[2]
ملكت الخافقين فتهت عُجْباً وليس هما سوى قلبي وقرطك

وقول القاضي زين الدين بن الوردي رضي الله عنه[3]:

قرطها خافق وقلبي أيضاً خافقٌ من أليم صَدٍّ وبَيْنِ
فاعذروها بالعجب فهي فَتَاةٌ أصبحت وهي تملك الخافقين

وقول إمام الأدباء جمال الدين ابن نباتة رحمه الله تعالى في بعض قصائده[4]:

أبثُّك إن عاذليَ المُعَنَّى رآك بعين حُبٍّ مثل عيني

---

(١) ديوانه: ٤٣٠.

(٢) الديوان: لهان على محبك أمر رهطك.

(٣) ديوانه: ٢٢٢.

(٤) ديوانه: ٤٨٩.

فَحَاكى قَلبُه قلبي خفوقاً وحكمَّك[1] الهوى في الخَافِقَيْنِ

وقال الشيخ تقي الدين أبو بكر بن حجة رحمه الله تعالى:

بقلبي وذاك القِرط صار لمُلْكِهِ بتوريةٍ في الخافقين يَصَرُّفُ

وقول السيد جمال الدين محمد بن عبد الله بن شرف الدين رحمه الله تعالى[2]:

قلتُ لما خفق القلبُ جوًى حين شامت قرطه الخافق عيني[3]

كنت لا تملك إلا خافقاً فَهَنيئاً لك ملك الخافِقَيْنِ

وقلت أنا في بعض القصائد:

لقد ملك القلب المعنّى وقرطَهُ فأضحى بملك الخافقين قد استغنى

وقال السيد أحمد بن محمد الأنسي العصري الآتي ذكره:

خفق الشنف والفؤاد ونادَى مَا لِرَيَّا في الخافقين مُشَارِك

وقال صاحبنا الفقيه يوسف بن علي في بعض القصائد:

كم تاه لما أن غَدَا مالكاً للخافقين القلب والقرطا

وقد اعترض عليه جماعة من نحاة العصر الفحول، الذين عَزّ على النجم إلى مراتبهم الوصول، ولَحّنوه، وقالوا: كان اللائق مع مراعاة قوانين علم العربية جر لفظ القرط لأنه بدل من قوله للخافقين الذي هو مجرور باللاَّم، فنصره بعض العلماء وقال: له وجه وهو عندي وَجْهٌ غير جميل شأنه سواد التكلّف فهو مشَوَّه يأباه العلماء وينبو في السّمع ولا يسوغ في هذا المقام.

أقول: لعلّه جعل اللاّم زائدة وقد نَصَّ النحاة أن اللام الزائدة تختص بالشّعر فتقدير اللفظ على هذا: لَمَّا أن غَدَا مالكاً الخافقين فالخافقان منصوب على المفعولية والقلب والقرط كذلك منصوبان على البدلية فلا لحن في البيت، أو لعله جعل القرط منصوباً على المدح والاختصاص، تقدير اللفظ في البيت ومعناه: لما أن غدا مالكاً للخافقين وأخص القرط من باب قوله: والمقيمين الصلاة ولم يكن

(١) ديوانه: (حكمك).

(٢) ديوانه: ١٧٧.

(٣) مطبوعة الديوان: (حين شامت قرطك الجفا وعيني).

من هذا الباب وما ذاك إلا أنه يصير المعنى في البيت أن المحبوب تاه لما ملك الخافقين وهما القلب والقرط وأخص القرط فيكون المحبوب مع هذا التَّقدير إنما ملك القرط الخافق فقط فلا يصدق عليه حينئذٍ ملك الخافقين مَعَاً فتفوت اللطيفة الأدبية بهذا المعنى، مع أن الأنسب أن يخص القلب دون القرط كما هو الألَيق بالمحب الصَّادق والعاشق الوامق، فما هو إلاَّ لحنٌ فاحش، والفقيه يوسف رحمه الله تعالى أهل لتلحِينه لقصور يده في علم النحو وغيره فإني أصلحت في كتابه «طوق الصادح»[1] لحناً فاضحاً واضحاً لا يغرب على المبتدىء في النحو بقراءة (الملحة)[2] ونحوها، ونبّهته على ذلك أيام حياته تجاوز الله تعالى عن خطيئاتنا وخطيئاته، وقال الحكيم شعبان بن سليم الذي قد مر ذكره في بعض قصائده:

خَفَّاقة القُرطين تاهت نخوةً ... في الخافقين على العديد الأكْثَرِ

الفقيه أحمد بن علي الشارح[3]

هو لصدر الأدب شارح، إلا أن سانحه لسوء الحظ بارح، وبازه المنقضّ مجروح غير جارح، كأنّ أدبَه أوصَى[4] بِه، فأذاقه الزمان مَرِير أوصابه، وجرعه منه شراب حنظله أوصابه، أديب خامل، بحر عروضه من الكامل، فشعره أكثر من ذنوب الدَّهر إليه، وقُطبُ قريحَته قويٌّ فَمَا دارت رَحَى المدائح إلاَّ عليه، فالنظم عليه غير عسير، وربما باعه بالتّافه اليسير، يبيع الغالي بأبخس القيم، ويتخلّق من إرْخاص سعر الشعر بأقبح الشِّيم، بينا كان دُرًّا إذ جعله حَصَى، وبينا قلم تحريره رمح إذا هو عَصَا، وَلَمَّا عُرِف بِهَذَا الحال قصد، فأكثر من النظم ولم يقتصد، فميزان شعره لا يَكُف عن وزن أدبه، لَمَّا تعطل وخلى ميزان فِضَّتِه وذَهَبِه، وقد

---

(١) من أشهر كتب الأدب في اليمن وقد قمنا بتحقيقه منذ سنوات ولا يزال عند ناشره حتى الآن لم يظهره.

(٢) يعني ملحة الإعراب للحريري.

(٣) هو أحمد بن علي بن جابر الشارح أديب شاعر من أهل صنعاء، توفي سنة ١١١٠. انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١/ ١٨٦.

(٤) كناية عن أن الأدب يلحق أصحابه بالفقر والفاقة.

مدح والدي ومدحني، فكم شرحه الشارح وشرحني، وله خَطٌّ يباهي العذار، ويقول له الحذار الحذار، فلست عند محاسني بمُشتهى، ولو انتهى حسنُك إلى ما انتهى، فكم ضَمَّخ كافور الأوراق بمسك مداده، وكم صفف على جبينها طرر سوادِه، ومن متن هذا الشارح، ونظمه الذي يتزَيّن بطرحه المُطَارح، وزهر أدبه الذي قُطِف مطلولاً، وكأس شعره الذي دار محيَّاً معلولاً، قوله:

وأغْيَدٌ نَزْه عَنْ نِدِّهِ ... يُحيي المحبين شذا نَدِّه
روى أبو تَمَّام[1] عن وجهه ... كما روى الوردي[1] عن خَدِّه

وله:

حاورت مولانا فَمَا ... أظفرني بما أشا
من حاور البحر فلا ... يخاف قالوا عطشا

وهذا من كلام أكثم بن صيفي الحكيم المشهور قال: جار الرجل الجواد كمجاور البحر لا يخاف العطش، ومجاور البخيل كمجاور المفازة هالك.

قلت: مجاور البحر لا يخاف العطش إذا كان البحر عذباً، وأما إذا كان مالحاً خاف العطش وهلك منه لا محالة، انظر إلى قول عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام: طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً، فلا يزال يشرب منه إلى أن يهلك ولا يُروى. وقال بعض الشعراء في الوعظ وذلك عند وصف الدنيا:

ماؤها ملحٌ فلا يُروي وهل ... ينفع العطشان إن البحر طامي

وقد نظمت أنا في معنى كلام أكثم بن صيفي واحترست فقلت:

جار الكريم كجار البحر قد عَذُبت ... أمواجه فهو لا يخشى من العطشِ
وكل جارٍ لذي بخلٍ بعَارِفَةٍ ... كنازلٍ في فلاةٍ بالهلاك غُشِي

ولصاحب الترجمة أيضاً:

الخال تحت عذابِ ... ومبسمٍ مِنهُ عذْبِ

---

(١) توريه بالبدر التم وأبو تمام الشاعر المعروف والوردي الفقيه والأديب الذي سبق ذكره مراراً.

قـــد لـــذّ مـــنـــه نـــزولـــي مـــا بـــيـــن رَغْـــيٍ وشُـــزْبِ

وهذا يشبه قول القاضي زين الدين ابن الوردي رحمه الله تعالى[1]:

ومـــلـــيـــح قـــال يـــومـــاً يـــا نـــفـــوس الـــنـــاس عـــيـــشـــي

مـــن رضـــابـــي وعـــذاري بـــيـــن خـــمـــرٍ وحَـــشِـــيـــشِ

أقول: كان الأحسن لو أنه قال: يا عقول الناس طيشي فإن طيشان العقول عند الخمر والحشيش أولى من عيشة النفوس كما لا يخفى، وقد جعل الرضاب شراباً والعذار مأكولاً، معناه ونفوس النَّاس تعيشها بالشُرب والأكل، ولهذا قال: عيشي، ولا يخفى أن الشَّراب الذي يعيش به الناس إنما هو الماء لا الخمر الذي قال فيه بين خمر، وإنما الخمر شراب لذة وجلب فرح، ولا يخفى أيضاً أن المأكول الذي يعيش به الناس أيضاً إنما هو الطعام وما يقوم مقامه لا الحشيش الذي قال فيه: وحشيش، إنما الحشيش للدَّواب وإن كان قوله بين خمرٍ وحشيش يحتمل التأويل في حقه بأن المراد أنها تنعم وتلذ بينهما لا أنهما مشربها ومطعمها الذي تعيش بهما، إنما كانت العبارة التي لا تحتمل التأويل لو أنه قال: بخمرٍ وحشيش أي أن النّفوس تعيش بهما كما ترى.

الفقيه يحيى بن عامر الهبل

عامِرٌ لركن المحامد وابن عامر، وغيث لطفٍ على جنبات الأدب هامِر، رأيته بجهات الشرف[2]، وجالسته بها في أرفع الغُرَف، ثم وفد إلى كوكبان من بعد، وقد حفّ به الشقا، بعد السعد، ولم يكن له في المعرفة نصيب، ولا كنانة علمٍ تشتمل على سهمٍ مصيب، وإنما هو جُنديٌّ في العامة يُعَد، ولكنه من الشعر على طريق القوافي قعد، فمرَّت به قوافلها أحسن مَمَرّ، وانتقى منها شبيه الشمس وشقيق القمر، من نظمه وقد دعى للإمامة رجل يُسَمَّى الحُسَين، وعارض إمام العصر

---

(١) خزانة الأدب لابن حجة: ٢٧٤ وديوانه ابن الوردي: ١٩١ ط دار القلم.

(٢) هو المعروف بشرف حجور وهو جبل واسع في الشمال الغربي من حجة ويشكل أحد قضواتها وتتبعه عزل كثيرة «المقحفى: ٣٥١».

بدعوته من غير زور ولا مين، لما نصره قومٌ لا يوثق بعهدهم، ولا يدرك طالب مطلوباً على نهدهم، عقيب قتل الإمام للشريف القُطبي[١]، وإذلاله من مجده للصّعب الأبي، وهو قوله:

دعا الحسين إلى قوم وليس لهم صدق الوفاء فقد غرُّوه بالكذب
لقد تجارى وأخشى أن تدور به رَحَى المنايا كما دارت على القُطُبِ

أذكرني هذا النظم بقول الأمير مجير الدين بن تميم رحمه الله تعالى يُرثّي الأمير قطب الدين رحمه الله تعالى:

نأيتم فلا قلبي لِحُزنٍ مُقَصِّرٌ عليكم ولا جفني يخف له غَرْبُ
وأفلاك لذاتي تعطل سيرُها وهل فلكٌ يسري إذا عدم القطبُ

ومنه أخذ القاضي زين الدين بن الوردي في رثاء قطب الدين الشيرازي رحمهما الله تعالى قوله[٢]:

لقد عدم الإسلام حبراً مبرزاً كريم السَّجايا فيه مع بُعْده قُربُ
عجبتُ وقد دارت رحى العلم بَعْدَه وهل للرَّحى دور إذا عدم القطبُ

الفقيه حسين بن علي الحداد[٣]

ذو بصرٍ حديد، يصوغ من الأدب الّذهب والفضَّة لا الحديد، لو ظفر به ظافر الحداد[٤]، لقال: لست له أنا من القرناء ولا الأنداد، ولأعترف له بالفضل بلا تَنْكير، ولتنَفَّس الصّعدا من الحسد تنفّس كانونه بالكير، ولآلت إلى ذوب حديده عاقبة أمره، ولتطاير شرار غضبه كشرار جمره، ولتمزّق من ثوب أدبه لاذُه[٥]، ولم يكن كما قال

---

(١) حادثة قتل الشريف انظرها في كتاب طيب أهل الكساء ص: ٣٤٢ تحقيقنا.

(٢) ديوان ابن الوردي: ٤٨٤ ط دار القلم بيروت.

(٣) انظر ترجمته في نفحات العنبر (خ) ونشر العرف ١/٥٨٦ نقلاً عن كتابنا هذا.

(٤) هو الأديب ظافر بن القاسم بن منصور الجذامي الحداد شاعر له ديوان شعر مطبوع، توفي بمصر سنة ٥٢٩ وفيات الأعيان ١/٢٤١ والأعلام ٣/٢٣٦.

(٥) اللاذ: ثوب حرير أحمر وقد يطلق عليه اللاز بالزاي.

بالصَّبر الجميل ملاذُه، فهو يَسح من دمعه وابله ورَذَاذُه، وكان يشتغل في الخَزِّ والحرير، وينسج منهما ما لا ينسجه من الزهر الرَّوض النضير، وهو لنا من ألطف الندماء، والجلساء الذين يعود وَجْدان الحزَن بهم عَدَما، فَمُجَالسته تذهَبُ بالهَمّ، ومحاورته ميدان يجول فيها من النَّهار والليل أشهب وأدهم، ثابت الوُدُّ فالوفاء به قد لاق، فما منثور الروض بالنّسبة إليه إلا متلوّن الأخلاق، نزل بفناء والدِي في حَرَم، ونقع غُلَّتَهُ من زمزم فواضله بماء الكرم، وبقي لديه مُدَّة، فإذا نواله لشدة زَمَنِه عُدَّة، مستريحاً على بساط نعمه، مستجيراً به من صروف الدهر ونقمه، ولما ارتحلتُ إلى حصن المنصورة[١]، واجتليت من عروس الآمال أجمل صورة، جُزْت بمدينة إب، فوافيته بها موافقة الحب، فسرّني أتم السرور، ومَرَّت لنا ليالٍ من الأنس أسرع مرور، في مقامات كأنها جَنّة، ورياض يتخللها نهر المشنَّة[٢]، سقى الله ذلك العهد، الذي نام عنه الزمن نومَة الفهد[٣]، ومن شعره ما كتبه إليّ، وأدار كاسَهُ عليّ، وهو قوله:

خطرت فأزرت بالقنا السُّمْرِ ... وزهت بطَلْعتها على البدرِ
سحّارة الألحاظ فاتِنَةٌ ... تُسبي النُّهى بطلاسم السحر
وخدودها كالرَّوض مشرقةٌ ... بالورد مطلولا وبالزَّهْرِ
ناديتُها رفقاً بذي كلفٍ ... أضْماه طول البين والهَجْرِ
فتمَايَلت بالقَدِّ وابتسمت ... عن سلك منظومٍ مِنَ الدُّرِّ
هل يا رفاقي منكم أحدٌ ... أشكو له وأبثه سرِّي

---

(١) هو المعروف أيضاً بحصن المواهب سبق ذكره.

(٢) المشنة: نهر يتخلل مدينة إب يأتي من جبل بعدان.

(٣) من الأمثال يقال (أنوم من فهد) لأن الفهد أنوم الخلق وليس نومه كنوم الكلب لأن الكلب نومه نعاس والفهد نومه مصمت وليس شيء في جسم الفهد - أي في حجم الفهد - إلا والفهد أثقل منه وربما نام حتى يفوته الصيد قال الراجز:

ليس بنوام كنوم الفهد ... ولا بأكال كأكل الصيد

وقال حميد بن ثور:

ونمت كنوم الفهد عن ذي حفيظة ... أكلت طعاماً دونه وهو جائع

انظر الميداني ٢/ ٣٥٥ والمستقصى ١/ ٤٢٦.

فـهـي الـتـي بـسـيـوف مـقـلـتـهـا سـفـكـت دمـي ظـلـمـاً ولـم تـدرِ
يـا لائـمـي فـي حُـبِّـهَـا أبَـداً لا أنـتـهـي وزري عـلـى ظـهـري
والـلَّـوم لُـومٌ والـنـصـيـحـة قـد تُـفْـضِـي بـصـاحـبـهـا إلى الـشَّـرِّ
فـلـعـلـهـا بـالـوصـل تَـسْـمـح لـي وأنـال مَـا أمَّـلـت بـالـصَّـبـرِ
أو لا الـتـفـت لـمـدح مـن شَـرُفـت مـنـه الـمـراتـب فـي ذوي الـفَـخْـرِ
بَـدْر الـعُـلَـى وشـهـاب مَـنْـصـبـهـا نـجـل الأكـارم شـائـع الـذِّكـرِ
أوفـى الـبَـرِيَّـة مَـن فـضـائِـلُـه سـارت مـسـيـر الـشـمـس والـبَـدْرِ
مـولاي يـا عـيـنَ الـوجـود ويَـا بَـحْـر الـنـدى يـا واحـد الـعَـصْـرِ
لا تَـخـسـبـوا إنـي لـعـهـدكُـمُ أهـمـلـت إن أهـمـلـتُـمُ ذكـري
لـكـنَّـهـا الأيَّـام إن سـمـحـت شـابـت لـذيـذ الـوصـل بـالـهَـجْـرِ
فَـوَحَـقِّ مـا بـيـنـي وبَـيْـنـكـم لا حـلـت عـن وُدِّي مَـدَى الـعُـمْـرِ
وإذا جـنـيـت فـعَـفْـو مـثـلـك لـي عـن ذَنْـبـه قـد نـاب عـن عُـذْرِي
وبـلـغـتَ مـا تـرجـوه فـي دِعَـةٍ مِـن حـادثـات نـوائـب الـدَّهْـرِ
واسـلـم ودم فـي نِـعْـمَـةٍ أبـداً مـقـرونـة بـالـيـمـن والـنَّـصْـرِ

محمد الخروش الطبيب

حكيم طبيب، يبري مَرَض الشكل والتركيب، فكم أحيا من عُدّ في العَدَم، وحال في جسمه بين اللحم والدم، يلجُ في الأعماق والمِسَام، ويتكفل لأمّ الرأس بِالبَراءة مِنَ السّرسام[1] لو عالج الماء القراح، أو نظر في تصديع الراح، لمّا تكدّر ذاك عند الاندفاق، ولما صرع هذا بخُمَاره النُّدما والرفاق، فما محمد بن زكريا الرازي في طِبِّه، وَمَا حكمة داود البصير بِجَنْبه، وكان مُبارك العلاج، يبادر صبح العافية على يديه بالإنبلاج، فكعبه فيه كعبٌ مُبَارَك، قد بلغ فيه إلى ما لم يساهم

(١) السرسام: ورم في حجاب الدماغ تحدث عنه حمى دائمة وتتبعها أعراض رديئة كالسهر واختلاط الذهن وغير ذلك.

فيه ولا يشارك، قد لبس حُلة القُنوع في تَطَبُّبه، فزاد بذلك إلى النَّاس في تودده وتحبُّبه، إنَّما أخذ منه بطرف، واتخذه أدنى حرفة من الحرف، فحُسْنُ مَقْصَدِه أحد أجزاء مُركبَّاته النافعة، ونيَّته من جملة أدويته المُبرئة للآلام والدافعة، وهو مع ذلك ذو شمائل أسكَر من الحُمَيَّا، وأعطر في الأنوف من نَدِيّ الوَرد رَيَّا، يسري لطفه، بروضٍ من طبعه طاب قطفه، ينظم من الشعر الموزون ما يفضح الدرّ المكنون المخزون، وأما شعره الحميني الموشّح، الذي تَهَيَّأ لمزاحمة النجوم وترشّح، فأشهى مِن القند، وأنشر في الآفاق من البند، وأروح من الصَّبا إذا نَبَّهتْ عذبات الرَّند، تبرجت بنات فكره فيه بزينَة، فأقرَّت بمنظرها العيون وشرحت الأفئدة الحزينة، فأدبُه يُتْلَى في كل ناد، على أنه يُرَى في زيّ الأجناد، فكان يُزَاحِم حيدر آغا في موشَّحِه، وينال ما يريد من مباراته في تَرشُّحِه، أقام على دعواه منه دليله، وأطلق نسيمة في رياض أوراقه بارِدةً بليلة، وله في حسن المعاملة والتَّقوى، حمل أثقل به من حَسَدِه نقوى، فكم مدّ على عورة الذنوب من حسناته حقواً، ومن شعره قوله:

ما مقصدي قط من دنياي إن كثرت   مَقَاصِد الناس لما أوسعوا السُّبلا
إلاّ شهود جمالٍ في حدائق قد   تدبّجت بزهورٍ مع شراب طِلا

قلت: لو زاد في هذا المقصد وجهاً رابعاً على الثلاثة الوجوه التي جاء بها وهو سماع الألحان لكملت له لذة الحواس الخمس، وهي النّظر إلى الجمال، وَشَم الحدائق المتدبجة بالزّهور، ولمسها أيضاً فإنه ملمس ناعم مع النَّبات والزّهور، والطعم بشرب الطلا والسّمع من الألحان، وبهذا كملت لذة الحواس الخمس، كما ترى على أنه قد زاد في نظمه هذا وجهاً ثالثاً على الوجهين اللذين جاء بهما السيد جمال الدين محمد بن عبد الله ابن شرف الدين رحمه الله تعالى حيث قال[1]:

لو قال دهري اقترح ما   تُحِبّ كان اقتراحي
شهود وجه مليح   على معاطاة رَاحِ

---

(١) ديوانه: ٤٨.

أقول ليته قال في البيت الآخر لمراعاة الجناس هكذا:

شهود وجه مليحٍ ... كالبدر في وقت راحِ

وقوله أعني صاحب الترجمة:

وبي شادن قد قلت فيه قصائداً ... من السكر العطوي في ذوقِها أحلى

ترشفتُ منه الثغر حلواً لذا غدا ... نظامي مثل الشهد طعماً لدى الإملا

قوله: من السكر العطوي هو بالعين والطا المهملتين نسبة إلى وادٍ في أرض كوكبان يُسَمَّى عطوة، يزرع القند فيعصر منه سُكَّر مشهور بالحسن والطيبة والحلاوة الصادقة وبياض اللَّون وصفائه بحيث لا يشابهه السُّكر في حسنِه أصْلاً.

وهذا المعنى الذي جاء به في هذا النَّظم قد سبقه إليه غيره قال الأديب ابن مليك الحموي[1] أحد رجال الريحانة الخفاجية رحمه الله تعالى[2]:

سقياً لأرضٍ بعد كوثر ماءها ... ما اشتاق قلبي للموارد مَنْهلا

لولا بقاياه وحقك في فمي ... ما قلت شعراً في المسامع قد حلا

أخذه من قول أبي بكر تقي الدين ابن حجه رحمه الله تعالى[3]:

ولولا بقايا طعمه في مذاقتي ... لما ظهرت هذي الحلاوة في شعري

والأصل في هذا جميعه قول نور الدين علي بن سعيد الأندلسي:

اطول شوقي إلى ثغورٍ ... مَلأى من الشهد والرحيق

عنها أخذت الذي تراه ... يعذُبُ في شعريَ الرَّقيق

***

(١) هو علاء الدين علي بن محمد ابن مليك الحموي، ولد بحماة سنة ٨٤٠ ودرس الأدب والنحو واشتغل بالتدريس، توفي سنة ٩١٧. انظر ترجمته في الكواكب السائرة ١/ ٢٦١ ونفحة الريحانة ١/ ١٨٨.

(٢) نفحة الريحانة ١/ ١٩٠.

(٣) البيت في ريحانة الألباء ١/ ١٩٠.

علي بن محمد المعروف بقلفات[1]

أديب يقال عنده الصيد في جوف الفرا، وحديقة يتلون عند زهورها المنثور خَفَرا، خَيَّاط له برد لطافة رقيق، نسج الروض برده على نمطه وطرزه بالشقيق وما رداؤه النظير، في الحسن شبيهٌ له ولا نظير، وإن طُرِّز بالزّهر، وسجّف بالأطلس الأزرق من النهر، رأيتُه بصنعاء وإبْرته لرُمْح قلمه سنان، وجَلَمه سيف قاطع بلا ضرب راحةٍ ولا بنان، والمسرات أقرب الأشياء مِنّي دُنُوّاً، والأيام بالإسعاف كالأم إشفاقاً وحُنُوًّا، ارتَضِعُ درَّها، والتقط دُرَّها.

وله حفظ لأشعار السلف يبهر، وروض روايةٍ ينفح في جوانبه العَبْهر[2]، سيما المقطَّعات التي تَعْزُب على الجزار[3]، ويمدّها على خوان إكرامه بين يدي من له زار، فقد أملاني عجائب لم يحتو عليها سواه، ولم يُحْظ بها غيره من سائر الرُّواة، خاطها رِداءً لم ينسج على منوالِه، وأدار منها في كأس عبارته شراباً نقع غُلَّة كم مِن واله، فيتجمَّل بذاك الرِّدَا من اكتساه، ويسكر بهذا الشَّراب من احتساه.

ومن شعره الذي يقال عنده الفضل لقلفات، ونظمه الذي ما عزّ عنده الحسن ولا فات، قوله:

صنعاء من غير شكٍّ ... لمن غدا يَصْطفيها
كجنَّةٍ قد تبدَّت ... وغيدها الحور فيها

وقوله:

ما زال محبوبي يميس تائهاً ... ما بين وشيٍ مثل روضٍ وقَبَا
عوذته لَمَّا تبدى مائلاً ... من غاسقٍ في عذله قد وقبا

أقول ذِكْر الوشي والقبا من هذا الخياط (نضح من الإناء بما فيه) فإنه طالما باشر ما ذكره بالتفصيل والخياطة، وهذا الجناس الواقع له قد سبق إليه، كان صاحبنا السيد العالم اللُّغوي الأديب فخر الدين عبد الله بن أحمد بن يحيى بن المفضَّل المتقدم

---

(١) انفرد بذكره كتابنا هذا ولم أجده في غيره.
(٢) العبهر: النرجس أو الياسمين.
(٣) تورية بالجزار صاحب هذه المهنة والجزار الشاعر المصري سبق ذكره مراراً.

ذكره رحمه الله تعالى في القسم الأول من هذا الكتاب[1] معجباً بمطلع قصيدة للصفي الحلي رحمه الله تعالى، وفي ظنه أنه لم يُسْبق إلى معناه وهو قول الصَّفي[2]:

ما مال منعطفاً في قُرْطَقٍ وقَبَا   إلا وعوذته من غاسقٍ وقَبَا

وقال لي في بعض الأيام لما أنشد هذا البيت وهو يتمايل من طربه به: هذا معنًى لا ألطف منه وجناس لا أعجب من تأتِّيه للصفي.

فقلت له إنما أخذه بصفته من نظم القاضي الخُشَيْشي بالخا والشين المعجمتين كما أورده له الخطيري[3] في كتاب «لمح الملح»[4] وهو قوله:

لمَّا بدا في قرطقٍ   يختال فيه وقَبَا
عوَّذته بالله من   غاسق ليلٍ وقبا

فعجب السيد فخر الدين رحمه الله تعالى وقال: لله درك من مطلع على كنوز علوم وآداب مدفونه، وتحت حجب الدفاتر والأوراق مودعة مصونة، واهتز عطفاً، وزاد علي عطفاً، وسال رِقَّةً ولطفاً وسكر ومال، ووصفني - مع نقصي - بالكمال، ثم قلت له: وقد كدَّر مورد الصفاء في هذا البيت صاحبنا الفقيه يوسف بن علي بن الهادي الأديب العصري لما سَرَقه سَرْقاً فاضحاً، واختلسه اختلاساً واضحاً، فقال في مطلع قصيدة له:

عوِّذه من شرِّ غاسقٍ وقَبَا   إن ماس في قرطقٍ له وقبا

وقد كنت قلت أنا في التَّورية قبل أن أقف على شيء من هذا النَّظم جميعه:

أتى لزيارتي خلِّي   وطَوَّق جِيْده ذهَبَا
وألبس قدَّه مسحاً   وحاذر غاسقاً وقبا

---

(١) انظر ص: ١٢٧

(٢) ديوان الصفى الحلي: ٥٠٠.

(٣) هو المعروف بدلال الكتب سعد بن علي بن القاسم الحظيري أديب له شعر عذب، وله «زينة الدهر» جعله ذيلاً على «دمية القصر». توفي سنة ٥٦٨ (الأعلام ٣/٨٦).

(٤) هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً يقول العلامة الزركلي رأيت نسخة منه في الأسكوريال برقم ٤٦٥.

محمد بن جار الله المعروف بمطرف

مطرف أدبٍ رقّ نَسْجاً، وبَدْر طَلَع في حوادث دَهرٍ من الليل أسجى، وروض فضل طيوره من أعواد الطَّرب أشجى، اتسع سوحُه، وغُرِس في حدائق التهذيب دوحُه، يرفُل قلمه من الفَصَاحة في بُرْدها الضافي، ويميل نعمةً إذ ورد من البلاغة موردها الصَّافي، له هزل ومجون، وحديث دعابٍ كله شجون، شاعر ما له في العِلم قسْم، وروح لطف حل من الظرافة في جسم، ينظم من الشعر ما قويت به الأسباب، ويحاور منه بما هو أشهى من حديث الأحباب.

فمن حلل مِطْرف، وحُلِيّة التي عندها الجوهر النفيس بالكساد يعرف، ما نظمه في مليح من أهل الذُمَّة يستغني حسنُه عن التطرية، وقال فيه وقد قصد كما هو ظاهر التورية:

وذي ذِمَّـةٍ كـالـبـدر وجـهـا إذا بـدا　　وفـي فِـيْـه سـلـك الـدر إذ يـتـبـسَّـم

تُـحـاربـنـي عـيـنـاه عـمـداً فَـلَـيْـتـه　　يـرق لـقَـلْـبـي الـمـسـتـهـام ويُـسْـلـم

وله في مليح يلقّب بالضياء راكب على جواد من الخيل يسمى الغيم:

قـد حـكـيـت الـشـمـس لـمَّـا أشـبـهـت　　مـنـك فـوق الـسّـحـب نـوراً بـاهـيَـا

يـا ذوي الألـبـاب قـومـوا وانـظـروا　　مـا ألـذّ الـغـيـم مـن تـحـت الـضِّـيـا

وله في قوم اجتمعوا في الليلّ، فرجم منزلهم رجل يلقّب بالنجم:

لا غـرو إن رُجـم الأقـوام فـي سَـمَـرٍ　　مـذ آثـروا لـذة الـدنـيـا عـلـى الـديـنِ

هـم الشَّـيـاطـين في الـدنـيـا أمـا عـلـمـوا　　إن الـنـجـوم رجـوم لـلـشـيـاطـيـن

وله مورياً بالدَّن وهو محلّ مشهور ببلاد وصاب، ويذكر القات الجرَّاني وهو نسبة إلى جرّان بفتح الجيم وتشديد الراء المفتوحة، وهو محل ببلاد وصاب أيضاً قاته في غاية الحسن وكمال النضارة والنشوة:

بِـجَـرّان قـاتٌ يـطـرد الـهـم أكْـلُـه　　يـقـود لـك الأفـراح فَـنّـا عـلـى فَـنّ

لـه فـي عـقـول الـنـاس سـكـرٌ ونـشـوةٌ　　كـمـا يـفـعـل الـخـمـر الـمـعـتـق فـي الـدَّن

وهو من قول خليلنا الشيخ إبراهيم الهندي رحمه الله تعالى:

وقات جرّان له نشوةٌ   كأنه الجريال[1] في الدَّنْ

وما أنشأ في الأعطاف قول المولى محمد بن إسحاق بن المهدي لأنه طالما استوطن الدن المذكور عاملاً له، وكان يأكل من قات «جران» وكتب به إلى بعض مشايخه، وقد تخلف عن مجلس الدَّرس وثبطه عن الحضور قات «جرّان» المذكور وفيه التورية:

مولاي عُذراً إن تأخرتُ عن   مجلس أنسٍ ما له ثاني

فحسن ظني بك بالعفو قد   أطمعني والقات (جرّاني)

ولصاحب الترجمة مورياً في مليح حائك:

مررت بحائكٍ كالبدر وجهاً   منيراً لو مرَرْت به سباكاً

فقلت له رويدك في محبٌ   له قلبٌ يحن إلى لقاكا

فألفَتَ عنقه الفتان نحوي   وكلَّم صَبّه المضني وحاكا

وقد ورد مثل هذا النظم في التورية، قال الشيخ شهاب الدين الحاجبي رحمه الله تعالى[2]:

وحاكت في فعائلها المواضي   فيا لك مقلة غزلت وحاكت

وقلت أنا في المليح الحائك مضمناً ومورياً:

وحائكٌ رام يحكيه بصنعته   وحُسْنه حائك لم يلف إدراكاً

لذاك قلتُ له قولاً صدقت به   هيهات ذلك ما حاكاك من حاكى

وقال الشيخ إبراهيم بن صالح الهندي رحمه الله تعالى:

لقد ألبستها جلباب فخرٍ   وبُرداً من قريضك لن يُحاكى

جعفر بن خليل الهمداني

خليل مجدٍ وابن خليل، وغيث لطفٍ به ذيل النسيم بليل، وسماء رياسةٍ يرجع عنها الطرف وهو كليل، وصاحب هِمَةٍ لا ترتضي من المحامد بالقليل، تدفق

---

(١) الجريال: من اسماء الخمر.

(٢) البيت في خزانة الأدب لابن حجة: ٣٢٩.

جعفره[١]، وتضوع من مسك مداده أذفره، وحُمِل على كاهل الثريّا من فخره أوفره، يفخر به مدام، إذ تدور من كلماته مُدَام، من قوم تتنبّه بهم أجفان السيوف، وترقص لديهم قدود الرماح في الصفوف، وتتفرّق بصولتهم من الجيوش الألوف، لازم علي بن المتوكل[٢] في اليمن، فتهذَّب طبعه حتى عُدّ من أعيان الزَّمن، ومن لاصق الرَّوض طاب عرفاً، ومن جاور البحر صار للآليه ظرفاً، فله أدبٌ أحوى الظلال، وشعرٌ أعذب من الزّلال، وكلام ينشى بما أنشاه منه فإذا هو الخمر الحلال، فمداد أدبه أثبت من الوشم، وقطر شِعْره له في أرض الطروس وَشْم[٣]، فمن ربيع جعفر الذي به الفضل يُحْيى، ومطارف نظمه التي نشرت على الأعطاف وشيا، قوله يطلب تعويض جواد له قد عجز عن السباق، وصار حليفاً بالتواري عند الجياد فماله في الاطراد[٤] من طباق:

مــــولاي إن جـــــوادي قـــد عـــاف يـــوم الـــطـــراد
مـــا هـــزّه قـــدّ رمـــح ولا جـــفـــون حـــدادِ
فـــمُـــنَّ لـــي بـــســـواه لـــخـــوض بـــحـــر الـــجـــلاد
فـــكَـــمْ يـــدٍ لـــك عـــنـــدي تـــنـــســـي بـــقَـــطْـــر الـــعـــهـــادِ
يـــدٌ لـــهـــا بـــنـــداهـــا فـــي الـــقـــوم رُبّ أيـــادي
لا زلـــتَ فـــي نـــعـــمـــةٍ مَـــا بـــلـــغـــت مـــنـــك مـــرادي

وقوله:

وشـــادن قـــلـــت جـــد لـــي بـــالـــوصـــل يـــا ريـــمِ جـــنـــبْـــلَـــه
فـــقـــال لـــي لـــك مـــنـــي فـــقـــلـــت فـــي الـــخَـــدّ قُـــبْـــلَـــة

قلت: في هذا النظم «القول بالموجب» من البديع لأنه يقال في لغة أهل مدينة

---

(١) الجعفر: النهر الصغير.
(٢) سبق ذكره في هذا القسم انظره.
(٣) وشم: كتابة.
(٤) توريه بالفضل والربيع وجعفر وزراء بني العباس.
(٥) الاطراد والطباق من فنون علم البديع انظره في كتب هذا الفن.

«جبلة» المحروسة وما سامتها من البلاد (لك مني) بمعنى أتركني واعرض عنّي وقوله:

خاطبتَ بالقلمِ المشتاقَ فانحسمت آلامَه وشفى من حادث البَيْنِ
كأنك الآن لم تبعد عليَّ وقد خاطبتني بلسانٍ من لسانَيْنِ

المراد بقوله: بلسان من لسانين، يعني أني أيها المخاطب المحبوب النائي البعيد لما خاطبتني بالقلم في مكاتبتك لي أعدّك قريباً مني غير بعيد، كأنك تخاطبني بلسانك الحقيقية لأن القلم أحد اللسانين هذا مقصوده.

أقول: ولقد انتبهت أنا لشيءٍ لم ينتبه له غيري، وذلك أني تأمّلت في خطوط الكتّاب فوجدتها تختلف إختلافاً كثيراً على طرائق لا تكاد تُحصى مع أن الحروف واحدة، فعلمت أن القلم أحد اللسانين، وإن الاختلاف في الألسنة داخل فيه الاختلاف في الخطوط، فلا شك أن الاختلاف في الخطوط من جملة ما اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ ﴾[1] قضَى بذلك الفهم السقيم، والله أعلم.

جوهر مغربي

جوهرٌ شفّاف، وقرط أدبٍ رَفّاف، هو الجوهر الفرد حقيقة، فلو أدركه النظام لما عُرِف من إنكار وجود بتلك الطريقة، ينظم الشعر عقوداً، وينسج القريض بروداً، من أولاد العبيد، الذين لا ينقطع نعتهم بالنجدة ولا يبيد، كان يَتَغَزّل ويمدح، فيصلت زنده ويقدح، ويستمطر الجهام، ويرجو ذو الجرج من السّهام، ويطلب البُرءَ من قوم هم الدّا، ويستجدي من لؤما ليسوا بأهل الاستجدا، وشعره مما إذا رأته الغادة قالت: هذا عقد نحرى، ولكنه لم يحضرني الآن منه سوى قوله في مليح راكب على بَخري، وهو نوع من الجمال معروف مشهور بهذا النعت موصوف:

على البحري مولى الحسن أضحَى يجول به وَحيناً وهو يجري
فيا عجباً لظبي البَرّ لَمَّا غدا يجري ويسبح فوق بحري

وأحسن منه قولي في رجل بَرّ، اسمه إسماعيل ركب على بحري وسافر:

---

(١) الآية ٢٢ سورة الروم.

البر إسماعيل قد نظم المدامع فوق نحري

لما علا بحريّة فاعجب لبرّ فوق بَخري

أحمد بن حسين الرقيحي الصباغ(١)

أحسنت الأيام وإحسانها قليل، وامتَنّت بما فعلته وامتنانها عليل، وذلك لمَّا جَلَتْه بدراً، ورفعت له في أبناء جنسه قَدْرا، ورقَّته من الأدب مقاماً، وأبرت من نسيم لطفِه سُقَامَا، فهو ممن تمسَّك من الأدب بالذَّيل، واجتلا أقماره الكاملة من المداد في الليل، وتسابقت في ميدان طرسِه من جياد كلماته الخيل، له لطف وقف عنده النسيم، واعتَلَّ وجداً به ولذا وصف بأنه سقيم، وهو صبَّاغ للثياب، لكنه مع ذلك مولوع بالآداب، فكم صبغ حلل الأوراق، من حِبْر تحريراته بما راق، وكم تناول من ملابس الأشعار، شفوفاً ما على مَنْ تزيَّن بها من عار، رأيتُه فرأيت ماجداً، واجتلوت علاه فنظرت ناهداً(٢)، وسمعت بفَضْله فأقام عليه عند لقائي له شَاهداً، نظرتُ بنانَه من مُلامسةِ الصَّبْغ سَوْدا، كأنه مسح بيده من شعر شبابه فودا، أو كأنه دفع اسوداد حظّ الأديب براحته، فأثّر فيها وولى عنه هارباً ولم يعرج أبداً بِساحَتِه، لا ولكنه التقط من بحر النيل(٣) جواهر كلماتِه، فنظمها قلائد على عنق الحسنا مِن سمائِه، فذاك السَّواد بياض في الحقيقة، إذ لمعت لآليه النضيدة النَّسيقة، لا يزال في وَقْت عَمَلِه يتلو القرآن غَيْباً، ويعطّر من ثياب صبغِه بمسك الذِّكْر جَيْباً، فهو حليف ذكرٍ وطاعة، يصوم في أشهر الصوم حتى يُحَمِّل نفسه فوق الاستطاعة، وله سَمْتٌ حلاه الوقار، ورجاجة لا يستخفها من مدار آدابه العقار، فكلما زاد بأشعارِه سكراً زاد رجحانه، وكلما فُضَّ خِتام منظومِه خُتِم من حجاه الموفور حانُه، فقد زيَّن السكر الوقار وقد

---

(١) شاعر مشهور له ديوان شعر حميني مطبوع ولد بصنعاء سنة ١٠٨٦ واشتغل بالأدب ومدح الأمراء توفي سنة ١١٦٢. انظر ترجمته في نسمة السحر (خ) ونفحات العنبر ونشر العرف ١/ ١٢٥.

(٢) ناهد كريم لأنه ينهد إليه أي يرحل إليه.

(٣) النيل هنا توريه بنهر النيل المعروف وبالنيل المادة الزرقاء التي يستعملها الصباغون في صباغة الملابس.

طيّش الطّيش ذلك العُقار، جمع من شعره ما راق جمعه، وأومض من خلال سحب أوراقه ما شجا الأفئدة لمعُه، وهو الآن موجود، يَخبوه الزَّمَن من اللَّطائف بأتم جود، وقد نُشِرَت لديّ من أردية أشعاره، المصبوغة بأجمل صبغٍ من معاني أفكاره، ثياب لو تجملت بها الحدائق، ونشرت على معاطفها منها دقائق، لاستغنت عن خضر الحُلَل التي صبغتها أيدي غيثٍ قد انهمل، ولَمَا مالت إلى محمر صبغ الشقيق، ولاستبدلت جديد مروطه عن العتيق.

فَمِمّا صبغ من مطارفِهِ، فنشره الدهر على معاطِفِه، ما قاله في رجل يلقب بالديك صاح لمحبوبه: أنا بمهجتي أفديك، ومعشوقه غُلام يلقب بالشُّقَرِي، له من المحاسن قِسْمٌ لا تحيط به في الوصف فِقَرِي، وهو قوله:

قل للفتى الديك من قد قام في رشاءٍ ... يفوقَ ظبي النقا بالدَّل والحورِ
ما أنت أول من قاسى الهوى وصبا ... ولا بأوّلِ ديكٍ هام بالشُّقَر

هذا الشعر لا يخفى لطفه، والشُّقَر بضم الشُّين المعجمة المُشَدَّدة بعدها قاف مفتوحة وراءٌ هي في عرف أهل هذا الزّمن الدّجاج القريبة إلى الصّغر والفتوة، وهي لغة صحيحة عربية لأن الشُّقَر في اللغة الديك.

وقوله في جارٍ له أصابته نزلة:

جارت بجاري نزلَةٌ ... أبكته دمعاً مُنْهَمِر
وسَمَّرت أعضاءَهُ ... فصار جاري مُسْتَمر

ولما دخلتُ مدينة صنعاء، وتفيّأت من دوحها الدّاني ثمراً وَيْنعا، سمع بوصولي، فرغب في هَزّ نصولي، وإذا به قد بادر إليَّ مُبَادرة الوامق إلى المحبوب، ونهض إلى مجلسي نهوض الطالب إلى المطلوب، فألفاني بلقاءٍ مثله مُغْرَماً، وقضى لي من مُحاضَرَتِه ومحاورته مغرماً، في مقام تحسده الرّياض وتغار منه لحسنه الغياض، وأتحفني بآدابه، وتمسكتُ بأهدابِه، وأنشدني له قوله في التورية:

أيا سائلي عن شرح حالي في الهوى ... وشاهده عن كشف مكنونه أغنى
أرق من الصَّهباء قلبي أو الصبا ... وأطرب من طيرٍ على روضَةٍ غَنَّا

وقوله:

أقمنا وقد طاب المقام بروضةٍ   بها قد صفا للشُّرب يوم تلاقي
بِرَقْص غصونٍ وانتحاب بلابلٍ   وتصفيق أنهارٍ ودور سواقي

قلت: الانتحاب بالحاء المهملة هو أشدّ البكا ومثله النَحْبُ بسكون الحاء والنحيب بكسرها يقال نحب بفتح النون والحاء بزنة ضرب وانتحب إذا بكى أشد بكاء فهو لا يطابق قوله: وانتحاب بلابلٍ أي بكاؤها، قوله: (برقص غصون وتصفيق أنهار ودور سواقي) لأن هذا المقام مقام ضحك وسرور لا مقام بكاء وحزن، ولذا قال: (أقمنا وقد طاب المقام) البيت الأول فلو أنه قال:

برقص غصونٍ مع غناء بلابلٍ

لكان أليق وأنسب

وقوله في مليح صحب رَجلاً يسَمَّى هلالاً:

صبونا فيك دهراً واستعضنا   عن الوجد المبَرِّح بالملال
لأنك كنت بدْراً في كمالٍ   فأرجعك المحاق إلى هلال

وقوله لما حبسه بعض الملوك في شهر رجب الأصب سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف:

مولاي يا علم الهُدَى عطفاً على   ذي ربقَةٍ ملقى بقَيْد وثاقِ
ارحم أسيراً باكياً في سجِنه   تجري مَدَامعه على الإطلاقِ

وقوله:

ما بارح القلب مني غير حبّكم   حتى استقام قوام الرّوح للبدنِ
ولست أرضى بديلاً ما حييت إذاً   حتى يقال بأن الجسم فيك فني

أقول: الجمع في قوله (ما مازج القلب مني غير حبكم) لا يناسب الإفراد في التورية الحاصلة في قوله (فيك فني) كما ترى، وأيضاً فإنه قال: ولست أرضى بديلاً ما حييت، وكان القياس أن يقول بديلاً عنك فإنه أتم في تأدية المقصود، وقال بأن الصب فيك فني، والأحسن إذ قال: ولست أرضى بديلاً عنك أن يقول

فإن الجسم فيك فني، فليته قال:

ما مازج القلب مني غير حبك يا ... من صرت لي بمقام الروح للبدنِ
أنت الحياة لجسمي ما بقيت إذاً ... حتى يقال بأن الجسم فيك فني

ولما أنشدني له هذا المقطوع رأيته معجباً به وبما اشتمل عليه من التورية موهماً لي بأنه لم يسبق إليه.

فقلت له: قد سبقك إلى هذا الشيخ فخر الدين بن مكانس رحمه الله تعالى وهو من مبتكراته كما ذكره صاحب كتاب «مطالع البدور» وذلك حيث قال[1]:

إن الهوائين يا معشوق قد عبثا ... بالروح والجسم في سرٍّ وفي عَلَنِ
فالروح تفديك بالممدود قد تلفت ... والجسم حوشيت بالمقصور فيك فني

وممن أغار على هذه اللَّطيفة التي يفتخر بابتكارها الفخر ابن مكانس رحمه الله تعالى السيد شهاب الدين أحمد بن الحسن الجرموزي من أهل العصر الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فقال في الجناس:

جميل تصبّري يا فاتك ... الألحاظ فيك فَنِي
فادرك مدنفاً قد آن ... أن يلتف في كفنِ

ولما طالع صاحب الترجمة مؤلفنا كتاب «عطر نسيم الصبا» الذي حذونا فيه حَذْو الشيخ شرف الدين الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب الحلبي رحمه الله تعالى في كتابه «المسمَّى نسيم الصبا» كتب عليه من نظمه قوله:

طالعت معجز أحمدٍ فوجدته ... من كل معنًى آخذاً بنصيبِ
وإذا بعطر نسيمه متضوعاً ... ضاعت لديه نُسَيْم ابن حَبِيب

صلاح بن صالح الأحمري[2]

هذا هو الشاعر المعروف بالأحمر، والنَّاظم الذي طالما أزهر غصن قلمه وأثمر،

(١) مطالع البدور للغزولي ٢: ٢٩٣.
(٢) ترجمته في نشر العرف ١/ ٧٩٧ نقلاً عن كتابنا هذا.

مدح الأعيان والكبرا، ومشق لذلك يراعُه وبرا، وجاب البلاد فما غادر مصراً ولا ترك وبراً، وكان في غُرّة عمره يبيع القات، حتى أحرم للطوّاف حول كعبة الأدب من الميقات، فتجرد عن آلات مهنته، واستراح من كدح المعاش ومحنته، وله في والدنا مدائح، نال بها من جوده أسنى المنائح، استنشقت نشرها الذي هب، وأودعت بعضها كتابي المسمّى «رعي الأب» وكان إذا أنشد شعراً أرخص لعقود الغواني سعرا يتَغَنّى به وتزيل ألحانه، ويدير من نغماته على الأسماع شراب الحانه، فتصمتُ القيان، وتخرس الحمائم في الأفنان، وقد أسمعني من منظومِهِ ما فهمت واضح منطوقه ومفهومه، وروى لي نكتاً جرت عليه وعجائب، في قصده إلى أبواب من لم يزل للبر إليهم أسرع جائب، وقد اغتر منه بلمع سراب، فقصدهم وما قصد إلا بوماً في خراب، فملوك هذا الدّهر أرانب، قد برزوا من الضنّة والشح في مقانب[1]، ليس لأحدهم فضلٌ معلوم، ولا شرف حازه مع كرم أوْمَغ لُوم، فقد عُطّلت عواتقهم عن الحلى، وأجدبت سفوحهم عن الكلا، وتسربلوا اللوم، وباينوا السّعد وساكنوا الشوم، ولم أثبت له على كثرة أشعاره الخالية عن النقد، سوى ما أنشدني له فيمن أعطاه مائة من النقْد:

قصدتُ البحر وهو البر فضلاً ... فأكرمني بتنويل وأسْدَى
وأعطاني الهنيدة من ندَاه ... فأنساني من الأوطان هِنْدا

المراد بالهنيدة المائة ومنه ما قاله جرير الشّاعر المشهور لما أعطاه عبد الملك بن مروان مائة ناقة وثمانية عبيد رعاتها وهو[2]:

أعطوا هنيدة تحدوها ثمانيةٌ ... ما في عطائهم مَنٌّ ولا سَرَفُ

قال القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان رحمه الله تعالى في تاريخه المشهور[3] في ترجمة جرير المذكور ما لفظه، قلتُ: هنيدة بضم الهاء على

---

(١) المقانب: جماعة من الخيل تجتمع للقتال.

(٢) ديوانه: ٣٨٩ من قصيدة أولها:

انظر خليلي بأعلى ثرمداء ضحى ... والعيس جائلة أغراضها خنف

(٣) وفيات الأعيان ١/ ٣٢٦.

صورة التصغير اسم علم على المائة وأكثر علماء الأدب يقولون بجواز إدخال الألف واللاَّم عليها وبعضهم لا يجيز ذلك قال [أبو][1] الفتح ابن أبي حفصة[2] السلمي الشاعر المشهور من جملة قصيدة:

أيها القلب لم يدع لك في وصـ ـل العذارى نصف الهنيدة عذرا

يعني خمسين سنة نصف المائة والله أعلم انتهى منه بلفظه.

أقول ومنه قول الشيخ جمال الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن المُقرِّب رحمه الله تعالى في بعض قصائده مادحاً[3]:

وأحبُّ يوم عنده يومٌ به يعطي هنيدة للفقير المعتر

وقول الآخر[4]:

ونصر بن دهمان الهنيدة عاشها وتسعين عاماً ثم قُوِّم فانصاتا
وعاد سواد الرَّأس بعد ابيضاضه وعاوده شرخ الشباب الذي فاتا

قال المؤلف رحمه الله تعالى ما لفظه: انتهى الجزء الأول من كتاب «طيب السمر في أوقات السحر» ويتلوه الجزء الثاني إن شاء الله تعالى وكان انتهاء كتابته يوم الخميس المبارك المنير لعله رابع وعشرون من شهر صفر المظفر سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف سنة بمحروس مدينة صنعاء اليمن المباركة انتهى من خطه بلفظه.

وكان تمام نقل هذا الجزء يوم الجمعة المبارك لعله ثاني وعشرون شهر رمضان الكريم أحد شهور سنة أربع وخمسين ومائة وألف سنة بمحروس مدينة

---

(١) ساقط من الأصل والزيادة من وفيات الأعيان.
(٢) كذا في الأصل صوابه ابن أبي حصينة كما في أصل المنقول عنه وهو الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعري المتوفى سنة ٤٥٦ هـ له ديوان مطبوع سنة ١٩٥٦ م.
(٣) ديوان ابن المقرب: ٣٦١ ط المكتب الإسلامي ٣٤٩.
(٤) البيتان لسلمة بن الخرشب الأنماري. انظر لسان العرب ٣/ ٤٣٧.

صنعاء اليمن المحمية بالله، بقلم الفقير إلى مغفرة الله وعفوه. حسين بن عبد القادر علي بن الحسين بن المهدي غفر الله له ولوالديه وأسعدهم برضوانه.

بعناية أفقر عباد الله إلى مغفرته السيد إسماعيل بن محمد فايع

عفا الله عنه وعن والديه وعن كافة المؤمنين بحق محمد وآله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين على كل حال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفهرس